مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّاني والثَّلاثونَ

سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّد الثَّاني والثَّلاثون

سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131

نُخبةٌ مِنْ عُلماء مَجمَع القُرآنِ الكريمِ بِالشّارِقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّادِسَ عشَرَ

سُورَةُ طه

﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧﴾ [طه: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

سبحانه كثير العطايا، كاشف الرّزايا، ومُفرّج البلايا

لَمَّا سأل موسى ربَّه أمورًا ثمانية، وكان قيامُه بما كُلّف به لا يتمّ على الطّريق المرضيّ إلّا إذا أجابه اللّه سبحانه إليها؛ أُجيبَ إلى ما طَلب؛ ليكونَ أقدرَ على الإبلاغ على الوجه الذي كُلّف به؛ ولمَّا كان المقام مقامَ تفضّل وإنعام؛ ذكّره سبحانه بنعمه السَّالفة؛ حيثُ حفظه صغيرًا في التَّابوت، وهو في البحر وحيدًا من كيد فرعون وشرّه، وألقى محبّةً له في قلوب آل فرعون حتّى صار كأنّه ابنٌ لهم، وأنجاه منَ القِصاص حين قَتل المصريَّ وهرب إلى مدين؛ ليُعْلِمَه أنّه سبحانه بكلّ جميل كفيل[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُؤۡلَكَ﴾: (سأل) أَصْلٌ يَدُلُّ على الاسْتِدْعاءِ والطَّلَبِ، يُقالُ: سأَلَ يَسْأَلُ سُؤالًا ومَسْأَلَةً، ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثيرُ السُّؤالِ[2]، والسُّؤالُ: طَلَبُ أَحَدٍ مِنْ آخَرَ بَذْلَ شَيْءٍ أَوْ إِخْبارًا بِخَبَرٍ[3]، والسُّؤْلُ في الآية بِمَعْنَى المَسْؤولِ، وهو على وزن فِعْلٍ بِمَعْنَى مَفْعولٍ، كالخُبْزِ بِمَعْنَى المَخْبوزِ؛ وهذا يَدُلُّ على أنَّ العُقْدَةَ زالَتْ عَنْ لِسانه.

2) ﴿مَنَنَّا﴾: أَصْلُ المَنِّ: القَطْعُ، يُقالُ: مَنَّهُ يَمُنُّهُ مَنًّا، أَي: قَطَعَهُ، ويُطْلَقُ المَنُّ على تَعْدادِ الصَّنائِعِ، كَأَنْ يَقولَ: أَعْطَيْتُكَ كَذا وفَعَلْتُ بِكَ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 29، والمراغيّ، تفسير القرآن: 16/ 109، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 252.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 194.

كَذا؛ لِأَنَّ المَنَّانَ يَقْطَعُ الخَيْرَ بِكَلامِه[1]، والمَنُّ أيضًا: الجودُ والإحْسانُ إلى الآخَرينَ، يُقالُ: مَنَّ عليه يَمُنُّ مَنًّا، إذا جادَ عليْه وأَحْسَنَ إلَيْه، والمِنَّةُ: النِّعمَةُ العَظيمَةُ، والمَنَّانُ: المُنْعِمُ[2]، والمُرادُ بالمِنَّةِ في الآيةِ: الفضل والإنعام بلا مقابل.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعَمُ الله على عبده ونبيِّه موسى لا تُعدُّ ولا تُحصَى

يبيِّن المولى ﷻ فضلَ كرمه ومنَّته على عبده ونبيِّه موسى عليه السلام، إذِ استجاب دعوته، وحقَّق مطلَبَه، وردَّ على دعائه، مبيِّنًا فضلَه عليه فقال سبحانه: قد أُعطيتَ جميعَ ما سألتَ يا موسى، ولقد أحسنَّا وتفضَّلنا عليك بنِعَمٍ سابقة كثيرةٍ قبلَ النُّبوَّة في وقتٍ غيرِ هذا الوقت، مِنْ بينها إنجاؤُكَ مِنْ بطش فرعون حين كنتَ رضيعًا[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ عمّا قبله:

الله العليم القريب لدعاء عباده سميعٌ مجيب

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، وهو: بمَ أجاب اللّٰه تعالى سؤالَ كليمه عليه السلام عندما دعاه بشرح الصَّدر وتيسير الأمر، إلخ؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[4].

دلالة التَّعبير بحرف التَّحقيق:

عِلمُ الله تعالى بالحال قد منح الإجابةَ قبل السُّؤال

في التَّعبير بحرف التَّقريب والتَّحقيق والتَّوقُّع ﴿قَدْ﴾ إشارةٌ لحصول هذه المعاني الثَّلاثة:

أمَّا التَّقريب: فإنَّه يفيد نُكْتَةً بديعة، ذلك أنَّ المتوقَّع أن تكون الإجابة: (سنؤتيك سؤلك)، وذلك قد يكون قريبًا أو بعيدًا، والحاجة

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (منَّ، منن).
(2) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (منَّ، منن)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 317.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 56، ومجمع الملك فهد، التّفسير الميسر: 1/ 313.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 285.

للمسؤول ماسَّة لمصلحة الدَّعوة وأداء التَّكليف، فلمَّا قال اللّه تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ﴾ دلَّ على أنَّ الإجابة قد سبقت السُّؤال، فعِلْمُ اللّه تعالى بالحال قد منح الإجابةَ قبلَ السُّؤال، وأنَّ ذلك كان قريبًا من وقت السُّؤال، فكأنَّه بمجرَّد دخول موسى عليه السلام الواديَ المقدَّسَ، وتشريفِه بتكليم اللّه تعالى إيَّاه، قد هُيِّئَ لما أعدَّه اللّهُ سبحانه له، حتَّى من قبل أن يسألَه موسى عليه السلام.

وأمَّا التَّحقيق: فيُؤكِّده دخولُ ﴿قَدۡ﴾ على الماضي ﴿أُوتِيتَ﴾، وفي هذا طمأنةٌ لقلب الكليم عليه السلام بأنَّ دعاءَه قد تحقَّقت إجابتُه.

وأمَّا التَّوقُّع: فإنَّ التَّعبير بـ﴿قَدۡ﴾ يقع جوابًا لسؤال: هل فعل؟ كأنَّه قيل: هل أنت مجيبي يا ربِّ فيما سألْتُكَه؟ فيكون الجواب: قد فعلت.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿أُوتِيتَ﴾ المبني لما لم يُسمَّ فاعله:

اللّه الودود يعطي قبلَ المسألة، فكيف بمَن أدمن أنْ يسأله

جاء فعل الإيتاء ماضيًا لإفادة تحقُّق الحصول وتأكيده، وكأنَّ المطلوب قد تحقَّق من قبل السُّؤال؛ لسبق عِلْم اللّه تعالى وإحاطتِه، وشمولِ إحسانه ورحمته، وقد جيءَ بالفعل مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعله هنا للعلم بالفاعل[1]؛ إذ لا يقدر على ذلك إلَّا اللّه سبحانه.

سِرُّ العدول عن (أوتيتَ ما سألتَ) إلى ﴿أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾:

في التَّعبير بالسُّؤل عمومٌ وشمولٌ لكلِّ مدعوٍّ به ومسؤول

عُدِل عن (أوتيتَ ما سألتَ) إلى ﴿أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾؛ لأنَّ في الأولى تخصيصًا لما سأله موسى عليه السلام ليلةَ المناجاة، إذِ المعنى: (أُعطيتَ الذي سألتَه)، أمَّا الثَّانية فتشمل ما كان في هذه اللَّيلة المباركة وما قبلَها وما بعدَها، ويُؤيِّد ذلك التَّعبيرُ بالماضي ﴿أُوتِيتَ﴾ قبلها، ويؤكِّده قوله تعالى في قصَّة قتل القبطيِّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: 16]، وقوله تعالى في قصَّة السَّقي: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي﴾ الآية [القصص: 24 - 25] فهذا كان قبلَ المناجاة.

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 143.

غرض النِّداء في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريفٌ له ﷺ بشرف الخِطاب إثرَ تشريفِه بشرف قَبول الدّعاء، مع ما فيه من رعاية الفواصل[1]، وفيه أيضًا ما فيه من تقريبٍ وإدناء، وإلقاءٍ بالمودَّة التي لم يُحرم منها كليمُ اللّه طولَ حياته[2]، فهو "نداءٌ فيه معنى الحنان والعطف"[3].

خاطبه اللّه تعالى باسمه إشعارًا بمحبَّته، وتعظيمًا لشأنه ورفعته

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ﴾:

يصحُّ أن تكون الواو استئنافيَّةً أو عاطفة، فعلى الأوْلى: هذا كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لتقرير ما قبلَه، وزيادةِ توطين نفس موسى ﷺ بالقبول، ببيان أنَّه تعالى حيثُ أنعم عليه بتلك النِّعم التَّامَّة من غير سابقة دعاءٍ منه وطلبٍ، فلَأنْ يُنعِم عليه بمثلها وهو طالبٌ له وداعٍ به أَوْلى وأحرى[4]، وعلى الثَّانية: فإنَّ جملة ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ﴾ معطوفة على جملة ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾؛ لأنَّ جملة ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾ تتضمَّن منَّةً عليه، فعُطِف عليها تذكيرًا بمِنَّة أخرى عليه في وقت ازدياده؛ ليَعلمَ أنَّه لَمَّا كان بمحلِّ العناية من ربِّه من أوَّل أوقات وجوده، فابتدأه بعنايته قبل سؤاله، فعنايتُه به بعد سؤاله أحرى، ولأنَّ تلك العنايةَ الأوْلى تمهيدٌ لما أراد اللّه تعالى به منِ الاصطفاء والرِّسالة، فالكرم يقتضي أنَّ الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه[5]، والحاصل: أنَّ إتيان هذا السُّؤال منَّةٌ منَ اللّه ﷻ، فقرن إليها تعالى قديمَ منَّته عليه على جهة التَّوقيف عليها؛ ليَعظُم اجتهادُه وتقوى بصيرتُه[6].

عناية اللّه العظيم لازمت كلَّ مراحل حياة الكليم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 14، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 430.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4721.
(3) الهلال، الثّريّ الجامع: 7/ 75.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 14، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 430، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 500.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 215.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 43.

دلالة التَّعبير بحرف التَّحقيق مسبوقًا باللَّام:

يدلُّ القَسَم على كمال الاعتناء بإجابة السُّؤْل وتحقيقِ الرَّجاء

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ﴾ مصدَّرًا بلام القَسَم؛ لكمال الاعتناء بذلك الإيتاء، أي: وباللّه لقد أنعمنا[1]، وجيء بحرف التَّقريب والتَّحقيق (قد) لإفادة تحقيق الخبر؛ لأنَّ موسى عليه السلام قد علِم ذلك، فتحقيقُ الخبر له تحقيقٌ لِلازِمه المرادِ منه، وهو أنَّ عناية اللّه تعالى به دائمةٌ لا تنقطع عنه، زيادةً في تطمين خاطره بعد قوله تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾[2]، فكأنَّه تعالى قال: إنّي راعيتُ مصلحتَكَ قبلَ سؤالِكَ، فكيف لا أُعطيكَ مُرادَك بعدَ السُّؤال؟[3].

سرُّ تنوُّع التَّعبير بين ﴿قَدۡ أُوتِيتَ﴾ و﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾:

عُبِّر بالإيتاء عن إجابة الدُّعاء، وعُبِّر بالامتنان عنِ التَّفضُّل والإحسان

نوِّع في التَّعبير عن كمال العناية بالكليم عليه السلام، وتحقيق سُؤْله ومأموله، فجيء في الموضع الأوَّل بحرف التَّحقيق والتَّقريب ﴿قَدۡ﴾ متبوعًا بفعل الإيتاء ماضيًا مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعله ﴿أُوتِيتَ﴾، وجيء في الموضع الثَّاني باللَّام الموطِّئة للقَسَم متَّصلًا بها حرف التَّحقيق والتَّقريب ﴿وَلَقَدۡ﴾، متبوعَيْن بفعل المَنِّ ماضيًا مسندًا لنون العَظَمة.

والسِّرُّ في ذلك التَّنوُّع: أنَّ الإيتاء عبارةٌ عن تعلُّق إرادةِ اللّه تعالى بوقوع تلك المطالبِ وحصولِها لموسى عليه السلام، فناسَب أن يُعبَّر بالإيتاء لأنَّه قد سُبِق بسؤال موسى عليه السلام ما سأل، وقد ضَمَّ سؤالُه عليه السلام أمورًا محسوسة وغير محسوسة، فجاء الإيتاء دليلًا على إجابة الدُّعاء، شاملًا للمحسوس وغيره، ولمَّا كان سؤالُه موجَّهًا إلى ربِّه تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ إلى آخره، جيء بفعل الإجابة مبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعلُه للعِلْم به، ولتقدُّم ما يدلُّ عليه في السُّؤال.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 14، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 430، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 500.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 215.

(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 46.

أمَّا المَنُّ: فهو الإحسان إلى مَن لا يَستَثيبه[1]، فقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾؛ أي: أنعمنا إنعامًا مقطوعًا به على ما يليق بعظمتنا[2]، وفي التَّعبير عن تلك النِّعم بالمَنِ إيماءٌ إلى أنَّها إنَّما وصلت إليه بمحض التَّفضُّل والإحسان[3]، وهذا مناسب لموضعه لأنَّه لم يُسبَق بسؤالٍ كسابقه، بل كان ذلك كلُّه تفضُّلًا منَ العليِّ العظيم، فهو منه سبحانه مِنَّةٌ جليلة وعظيمة؛ ولذلك أُسنِد الفعل إلى نون العَظَمة لما في النِّعم المذكورة بعدَه من دلائل العَظَمة والقهر والتَّسخير والرَّحمة.

سِرُّ التَّعبير بالمنَّة في مقام التَّلطُّف:

الامتنان دليلُ تفضُّلٍ وإحسان، وهو حقٌّ للمُنعِم المنَّان

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ ذِكْرٌ للنِّعم المُعطاة بلا سؤال بلفظ المِنَّة، والمَنُّ قد يُتَأذَّى منه، والمقام مقام تلطُّفٌ، فكيف يسوغ ذلك؟

والجواب عن ذلك: أنَّه إنَّما ذَكَر ذلك ليُعَرِّف موسى ﷺ أنَّ هذه النِّعمَ التي وصلت إليه ما كان مستحِقًّا لشيءٍ منها، بل إنَّما خصَّه اللّهُ تعالى بها بمحض التَّفضُّل والإحسان[4].

معنى (على) ودلالتها في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾:

يفيد حرف الاستعلاء توجيه البصر نحو السَّماء، وسؤال العليِّ مجيب الدُّعاء

الأصل في (على) أنَّه حرف موضوع للدّلالة على معنى الاستعلاء، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظُها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوِّ[5]، والتَّعبير بـ(على) في قوله تعالى: ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ يصوِّر هذه النِّعم، وكأنَّها غيث نزل منَ السَّماء على نفسٍ قد ظَمِئت له، فأغاثها وأرواها، أو كأنَّها كساءٌ جلَّله فأذهب عنه بردَ حاجتِه وافتقاره، ولأنَّه حرفٌ يُفيد معنى الاستعلاء، ففيه إشارةٌ إلى ضرورة توجيه البصر نحو السَّماء، وسؤالِ مَن يسمع النِّداء، ويجيب الدُّعاء.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 393.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 286.
(3) المراغيّ، تفسير القرآن: 16/ 109.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 46.
(5) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 496، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 47.

نُكْتةُ مجيءِ قوله: ﴿مَرَّةً﴾ نكرةً موصوفة بـ ﴿أُخۡرَىٰٓ﴾:

مَن حُفِظَ رضيعًا وصبيًّا كيف يُترك بعد أن بُعِث رسولًا نبيًّا

قوله تعالى: ﴿مَرَّةً﴾ ظرف، أو مفعول مطلق نائب عنِ المصدر، منصوبٌ وعلامة نصبه الفتحة الظَّاهرة، و﴿أُخۡرَىٰٓ﴾: صفة لـ ﴿مَرَّةً﴾ منصوبةٌ مثلُها، وعلامةُ نصبها الفتحةُ المقدَّرة على الألف للتَّعذُّر[1]، و﴿أُخۡرَىٰٓ﴾ تأنيث (آخَر) بمعنى: (غير)؛ أي: مِنَّةٌ غيرُ هذه المنَّة، وليست ﴿أُخۡرَىٰٓ﴾ هنا بمعنى: (آخِرة) فتكون مقابلة للأولى[2]، بل باعتبار أنَّها غيرُ هذه المنَّة[3]، وفي وقت غيرِ هذا الوقت، لا أنَّ ذلك مؤخَّرٌ عن هذا[4]، كما لم يَعْنِ بـ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ مرَّةً واحدة منَ المِنن؛ لأنَّ ذلك قد يقال في القليل والكثير[5]، والمعنى أنَّ هذه المِنَّةَ ليست أوَّلَ ما مَننَّا به عليكَ، فقد مُنَّ عليك بمِنَنٍ كثيرةٍ مِن قبلُ، وإذا كانت هذه مِنَّةَ تسهيلِ الرِّسالة وتبليغها عليك، فقد مَننتُ عليكَ بالكفالة والمحبَّة من وقت ولادتك[6]، فإذا كنتُ قد حفظتُكَ وأنتَ طفل رضيع، فكيف لا أحفظُكَ وقد أهَّلتُكَ للرِّسالة[7]؟.

بلاغة الإطناب بالتَّفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾:

في التَّفصيل بعد الإجمال توكيد للمعنى وإكمال

في قوله تعالى: ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ إجمالٌ يفسِّره ما بعدَه، وهو قوله سبحانه: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨﴾ [طه: 38][8]، وسِرُّ جماله أنَّ فيه تأكيدًا للمعنى بتكرار ذِكْر الشَّيء مفصَّلًا مرَّةً ومجملًا أُخرى، وفيه كذلك تشويق لهذا التَّفصيل الذي يُؤتى به لإزالة بعضِ الإبهام الموجود في الإجمال؛ فإنَّ المعنى إذا أُلقيَ على سبيل الإجمال والإبهام، تشوَّقت نفسُ السَّامع إلى معرفته على سبيل التَّفصيل

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 190، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل: 7/ 92.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 329، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 34.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 215.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 14.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 46.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4722.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 329.
(8) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 329، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 34.

والإيضاح، فإذا أُلقي كذلك تمكَّن، وكان شعورُها به أتمَّ، فتكمُل لذَّتُها بالعِلْم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء أقوى منَ الإعطاء

يفترق الإيتاء عنِ الإعطاء، بأنَّ الإعطاء له مطاوعٌ، يقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يقال في الإيتاء: آتاني فأتيت، وإنّما يقال: آتاني فأخذت، والفعل الذي له مُطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوعَ له؛ فالإيتاء إذن أقوى منَ الإعطاء في إثبات مفعوله[2]، ويدلُّ أيضًا على أنَّ الإيتاء أقوى منَ الإعطاء: أنَّ الإيتاء في أكثر مواضع القرآن في ما له ثباتٌ وقرار، كالحِكمة والسّبعِ المثاني، والمُلكِ الذي لا يُؤتَى إلَّا لذي قوَّة، والإعطاء فيما ينتقل منه بعدَ قضاء الحاجة منه، كإعطاء كلّ شيء خَلْقَه لتكرّر حدوثِ ذلك باعتبار الموجودات، وإعطاءِ الكوثر للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكقول الله ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]؛ لأنَّ الله تعالى بعدَما يُرضي النّبيَّ ﷺ يزيدُه وينتقلُ به من كلِّ الرِّضا إلى أعظم ما كان يرجو منه[3].

السُّؤال والدُّعاء:

السُّؤالُ جزءٌ منَ الدُّعاء

يدور المعنى المحوريّ للسّؤال حولَ الطَّلَب[4]، أمَّا الدُّعاء فهو أعمُّ منَ السّؤال؛ لأنَّه يشمل التّوحيد والثّناء والمسألة؛ فمعنى الدّعاء لله ﷻ على ثلاثة أوجه؛ فضَرْبٌ منها: توحيدُه والثّناء عليه، كقولك: يا الله، لا إلهَ إلَّا أنت، وكقولك: ربَّنا لكَ الحمدُ، إذا قلتَهُ فقد دعوتَهُ بقولك: ربَّنا، ثمّ أتيتَ بالثّناء والتّوحيد، والضّربُ الثّاني: مسألةُ الله

(1) أحمد شعيب، علوم البلاغة، ص: 334.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 86، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سأل).

العفوَ والرّحمةَ وما يُقرِّب منه، كقولكَ: اللّهُمّ اغفر لنا، والضّرب الثَّالث: مسألة الحَظّ منَ الدّنيا، كقولك: اللّهُمّ ارزقني مالًا وولدًا، وإنّما سُمّي هذا جميعُه دعاءً لأَنَّ الإنسان يُصَدِّر في هذه الأشياء بقوله: يا الله، يا ربّ، يا رحمن[1]، فيتبيَّن ممَّا سبق: أَنَّ السّؤالَ نوعٌ منَ الدُّعاء، أو جُزءٌ منه، وهو الجُزءُ الخاصّ بالطّلب، وأَنَّ الدُّعاءَ لا يكاد يقال إلَّا بذِكر اسمِ المَدعوّ[2].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (دعو).
(2) الرَّاغب، المفردات: (دعو).

﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨﴾ [طه: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تفصيل النّعمة على موسى عليه السلام بعد إجمالها

لَمَّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى امتنّ على موسى عليه السلام وأنعم عليه إنعامًا قاطعًا يليق بعظمته سبحانه؛ بيّن في هذه الآية النّعمةَ ووقتَها، فقال: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾، فكانت هذه الآيةُ بمثابة التّفصيل والتّبيين بعد الإجمال، ومنَ المناسبة أيضًا: أنّه لَمَّا ذُكر في الآيات السَّابقة ما امتنّ اللّهُ به على موسى عليه السلام في إجابة سؤاله بطلبه من ربّه شرحَ صدرِه، وتيسيرَ أمره، وجعلَ هارونَ وزيرًا له؛ جاءت هذه الآيةُ لذِكْر مزيدٍ مِن نِعَم الله القديمة على موسى عليه السلام، في وقت ولادته ورضاعِه وتربيته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: (وحي) أَصْلٌ يَدُلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إِخْفاءٍ أو غَيْرِه إلى غَيرِكَ، والوَحْيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّنِ السُّرعة قيل: أمرٌ وحْيٌ؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّدٍ عنِ التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابة[1]، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِك حتَّى عَلِمَهُ فهو وحْيٌ كيفَ كانَ[2]، والوَحْيُ أيضًا: الإعلامُ مِنَ الله بواسطةِ المَلَك، وأَوْحى إليه: بَعَثَه، وأَوْحى إليه: أَلْهَمَه[3]، واستَوْحَى الشَّيْءَ: حرَّكه ودعاهُ ليرسله[4]، ويقال للكلمة الإلَهيّة التي تُلْقى إلى أنبيائه وأوليائه وحيٌ، وذلك أَضْرُبٌ حسبما دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (وحي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(4) ابن سيده، المحكم: (وحي).

﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشّورى: 51]، وقد يكون الوحي بإلقاءٍ في الرّوْع كقوله ﷺ: "إنَّ روح القُدُسِ نَفَثَ في روْعي"(1)، أو بالإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، أو بالتّسخير نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النّحل: 68](2)، والمراد بالوَحْي في الآية: الإلهامُ الصَّادِقُ؛ وهو إيقاعُ مَعْنًى في النَّفْسِ يَنْثَلِجُ له نَفْسُ المُلْقَى إليه، بحيْثُ يَجْزِمُ بنَجاحِه فيه، وذلكَ مِنْ تَوفيقِ اللّٰه تعالى، وقَدْ يَكونُ بطَريقِ الرُّؤيا الصَّالِحَةِ الَّتي يُقْذَفُ في نَفْسِ الرَّائي أَنَّها صِدْقٌ(3).

2) ﴿أُمِّكَ﴾: مُفردة (الأُمِّ) أصلها يدلُّ على أَصْل الشّيء، والأُمُّ بإزاء الأب، وهي الوالدة القريبة الَّتي ولدَتْه، والبعيدة الَّتي ولدَت مَن ولدته؛ ولهذا قيل لحوَّاء: هي أُمُّنا، وإنْ كان بينَنا وبينها وسائط(4)، ويُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيءٍ أو تربيته أو إصلاحه أو مُبدِئه: أُمٌّ، قال الخَليلُ: كلُّ شيءٍ ضُمَّ إليه سائر ما يليه يُسمَّى أُمًّا(5)، وتُجْمَع على أُمَّهات وأُمَّات(6)، قال الأزهريُّ: يُجْمَعُ مِنَ الآدَميَّاتِ أُمَّهات، ومِنَ البَهائم أُمَّات(7)، والمُرادُ بالأُمِّ في الآيةِ: الوالدةُ القريبة الَّتي ولَدَتْ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـعـدّد المنن والأفضال على موسى كليم ذي الجلال

في هذه الآية: يُذكِّر اللّٰه تعالى موسى عليه السلام، ببعض مِنَنِه عليه حينما كان رَضيعًا، فيقول: ولقد مننَّا عليك يا موسى مرَّةً أُخرى، إذ ألهَمنا أمَّكَ ما ألهمناها مِن أمرٍ عظيمٍ يتعلَّقُ بنجاتِك، وكان هذا

(1) ابن الأثير، جامع الأصول، برقم: (7586).
(2) الرَّاغب، المفردات: (وحي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 216.
(4) الرَّاغب، المفردات: (أم).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (أمم).
(6) الخليل، العين، والرَّاغب، المفردات: (أمم).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).

الإلهامُ قويًّا مُقنعًا؛ فلهذا لم تَتَرَدَّد في تنفيذه، وقد شبَّهَهُ اللّهُ تعالى بما يوحَى للأَنبياء، في قوَّة الاقتناع به، والطُّمأنينة له[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرّ فصل هذه الآية عمَّا قبلها:

استئناف السّياق مفيدٌ في بيان الإجمال، لعوارف الأفضال

فُصِلت هذه الآيةُ عمَّا قبلها؛ لأنّها مفسّرةٌ ومبيّنة للإجمال الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧﴾ [طه: 37].

دلالة التّعبير بالظّرفية ﴿إِذۡ﴾:

التّذكير بميقات الامتنان بالوحي على أمّ موسى عليه السلام

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ﴿إِذۡ﴾ الظّرفيةِ هنا؛ لأنّها تدلّ على الوقت والحين، والمراد: وقتُ المِنَّة[2]، و﴿إِذۡ﴾ تُنبئُ عن فعلٍ محذوفٍ هو ناصبها، تقديره: (اذكر) قديمَ مِنَنِنا عليكَ؛ ليَعْظُم اجتهادُك وتقوى بصيرتُكَ[3]، ويجوز أن يكون الظّرفُ ﴿إِذۡ﴾ متعلّقًا بقوله تعالى: ﴿مَنَنَّا﴾ [طه: 37] أي: مَنَنَّا عليكَ في إيحائنا لأُمّكَ[4].

سِرُّ التّعبير بالوحي في قوله: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

الوحي إلى أُمّ موسى عنايةٌ ربانيّةٌ، لا علاقةَ لها بالنّبوّة التّكليفيّة

آثَر النّظمُ القرآنيّ التّعبيرَ بلفظ (الوحي)؛ دلالةً على معنًى من معانيه، وهو الإلهام، فالمقصود هنا: (اذكر حين ألهمنا أُمّك ...)، وهو ما ذكره القرآنُ في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: 7]، وفِعْلُ أُمّ موسى هو استجابةٌ لأمر اللّه، ليس من تدبير البشر؛ لأنّه فوق طاقتها؛ لذلك عبّر بالوحي؛ لأنّه أمرٌ لا سبيلَ إلى التّوصّل إليه، ولا العِلْم به إلَّا بالوحي، وممَّا يُؤكّد اختيارَ الوحي دونَ غيره؛ أنّه جاء في القرآن الكريم في غير وحي الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 56، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 196، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 102، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1021.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 286.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 10/ 16.

(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 34.

رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النَّحل: 68] وقالَ: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: 111]، وقيل: هو وحيٌ إعلام؛ إمَّا بإراءةِ ذلك في منام، وإمَّا ببعث مَلَكٍ إليها لا على جهة النّبوّة، كما بُعِثَ إلى مريم ، قال أبو حيَّان: وهذا هو الظَّاهر، لظاهر قوله: ﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾، ولظاهر آية القصص: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص: 7][1]، فالوحيُ هنا ليس وحيَ نبوّة؛ لأنّ النّبوّة لا تكون إلَّا في الرّجال، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [النّحل: 43].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

تحقّقُ وقوعِ هذه المِنّة، لطفٌ منَ المُنعِمِ ونِعْمَة

دلّ التّعبيرُ بالماضي ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ على تحقُّقِ وقوعِ هذه النّعمة؛ وهي نعمة إلهام أُمّ موسى بفكرة إلقائِه في اليَمّ عبرَ التَّابوت، كما أنّ في التّعبير بالماضي في مخاطبة موسى بأمر الإيحاء هذا، استحضارًا لنعمة اللّه عليه حين أوحى إلى أُمّه ما أوحاه؛ مِن إلقائه في التَّابوت، ثمّ في اليمّ، ثمّ إنجائه.

دلالة نون العَظَمة في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

عَـظَـمـةُ الموحي والموحَى به، بيانٌ لأهميّة ما أوحيَ به

عبَّر بنون التّعظيم في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ للدّلالة على عَظَمة الموحي، وهو اللّهُ سبحانه، وكذلك عَظَمةِ الموحَى به، وهو مَحلّ الإلهام، وفيه كذلك إشعارٌ بضمانة حصول الموحَى به بأمان، وهو نجاةُ موسى ، وإن كانت الطّريقة غيرَ مألوفة، لكنَّها اكتسبت ضمانَها وأمانَها مِن عَظَمة الموحي وقُدرته.

دلالة تعدية ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ بـ﴿إِلَىٰٓ﴾ دون اللّام:

مَـفـادُ الـوحـي في الـسّـيـاق، الإيصالُ وبلوغُ الغايةِ المتوخَّاةِ منه

جرى الأسلوبُ في القرآن الكريم على تعدية الفعل (أوحى) بـ (إلى) دونَ (اللَّام) في الغالب؛ لما في (إلى) من معنى الإيصال وبلوغِ الغاية، وهذا هو المُراد مِنَ الوحي، بخلاف اللَّام، فإنّ الوحي

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 329، 330.

معها يأتي بمعنى التّسخير، كما في قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ [الزلزلة: 5]؛ لأنّ الوحي هنا ليس على معنى البلاغ.

سِرّ التّعبير بـ﴿أُمِّكَ﴾ دون (والدتك):

التّعبير بالأمومة، إشعارٌ له بالحنان والشّفقة

أوثِرَ التّعبيرُ بلفظ (الأم) في قوله: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ دون (والدتك) مع اشتراكهما في الدّلالة على معنى القرابة؛ لأنّ (الوالدة) تُطلَقُ على الأُمّ المباشرة فقط؛ أي: التي تُنجِب بغضِّ النّظر عن صفاتها؛ أمّا (الأُمّ) فتُطلَق على الأُمّ المباشرة وغير المباشرة، وعلى هذا فهي أعمّ من لفظ (الوالدة)؛ لأنّها تُقال لكلّ ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحِه أو مبدئِه؛ لذلك يقال: (أُمّ الأضياف)، (أُمّ المساكين)؛ فلهذه المعاني آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ هنا بلفظ (الأُمّ) لما يحمله منَ الحنان والشّفقة التي بلغت مبلَغَها مِن أُمّ موسى ﷺ؛ خوفًا على وليدها مِن بطش فرعون وجُندِه.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿أُمِّكَ﴾:

لفظ الأُمّ فيه اختصاصٌ وتعيين للأمّ الوالدة بالفعل دون سواها

دلّت الإضافة في قوله: ﴿أُمِّكَ﴾ على الاختصاص والتّعيين؛ فهي أُمّه التّي ولدته؛ لأن لفظ الأُمّ قد يُطلق على الجَدّة والخالة والأُمّ المُرضعة، وهذا غير مراد هنا، وفيها كذلك معنى الإشفاق والحُنوّ منَ الأمّ على وليدها، والارتباطِ والتّعلّقِ منَ الوليد لأُمّه.

سِرّ قوله: ﴿أُمِّكَ﴾ بخلاف ﴿أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾:

مراعاة السّياق في موضعه، دلالةٌ على بلاغة الاستعمال ودقّته

اختصّت آيةُ سورة طه بإضافة (أم) إلى كاف الخطاب ﴿أُمِّكَ﴾؛ لأنّ السّياق كلَّه - سباقًا ولحاقًا - واردٌ على سبيل الخطاب لموسى ﷺ، بدءًا من هذه الآية ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]، وصولًا إلى آية: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾، ومواصلةً في لحاقها بنفس الطّريق، وأمّا في سورة القصص: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: 7]

فإنّه لم يسبق بخطاب لموسى ﷺ، فهي جملةٌ خبريّةٌ مستقلّة عمّا قبلَها، فالسّياق بينَ الموضعين إذًا مختلف.

وممَّا يُذْكَر في سِرّ هذا الاختلاف: أنّ موضع سورةِ (طه) مبنيٌّ على التّذكير وليس على التّأسيس كما هو في سورة القصص؛ فالمشهد فيها تأسيسيّ، حيثُ ذُكِرَ فيها ما لم يُذْكَر في السّور الأخرى منَ القرآن الكريم.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾:

تعظيم الوحي المُنزَّل وتفخيمُه، منَ البيان البليغ

أوثِرَ التّعبير بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾؛ لما فيها منَ الدّلالة على تعظيم شأن الأمر المَذكور، وهو ما أوحاه اللّهُ إليها، وللتّأكيد على كونه إلهامًا منَ اللّه تعالى، ولما فيها منَ الإبهام الّذي يدلّ على عِظَم الأمر وجلالته في النِّعَم.

دلالة تكرارِ لفظِ الوحي: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾:

ما قامت به أمُّ موسى، لا يُدْرَك ولا يُعْقَل إلَّا بالوحي

كُرِّرَ لفظُ الوحي في قوله: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾؛ تأكيدًا بأنّ ما قامت به أُمُّ موسى ﷺ من إلقاء وليدها في اليَمّ، كان وحيًا لا غير، ولأنّ ما قامت به لا يَخْطُر ببال عاقلٍ أن يفعله، ولا يُتَصوَّرُ قبولُه إلَّا خضوعًا لسلطان الوَحي، فمثلُه "لا يُعْلَم إلَّا بالوحي"[1].

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

بيانٌ بأنّ الوحي يتجدّد، وتتنوّعُ وسائِلُه

أوثِرَ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُوحَىٰٓ﴾؛ إشارةً إلى ما سيُذْكَر بعدُ منَ الأمر لها بالقذْفِ في التّابوت، وإلقائه في اليمّ، وأيضًا للدّلالة على كون الوحي إليها قد تنوَّع وتكرّر؛ كأن يكونَ قدِ اتّفق كونُه رؤيا منام، وإلهامًا، وربما كان إرسالَ رسولٍ أيضًا، حتّى يَبْرُدَ فؤادُها ويزدادَ يقينًا حينما تُقْدِمُ على ما أُمِرَت به.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 14.

دلالة بناء الفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾ للمفعول:

جاء الفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ للدّلالة على تأكيد حصول الوحي به، وأنّ ما أقدمت عليه لم يكن عن اجتهادٍ منها، فالاجتهاد لا يقود إلى مثل هذا الفعل أبدًا، فتعيَّن كونُه وحيًا أوحيَ إليها، وفيه إشارةٌ إلى أنّ للعقل حدودًا لا يستطيع أن يتجاوزَها، وخيرُ مثال على ذلك ما فعلتْه أُمُّ موسى مِن إلقاء وليدِها في اليَمّ، وهو في ظاهره هلاكٌ مُحَقّقٌ، هروبًا مِن هلاكٍ مظنون.

الوحيُ أمرٌ عُلْويّ، لا يتأتّى إلَّا مِنَ الله تعالى

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأمّ والوالدة:

لا اعتراض على المشترك بينَ لفظي الأُمّ والوالدة في الدّلالة على العلاقة البيولوجيّة بينَ الابن وأُمّه التي ولدته، لكن يبقى المثير هو الوقوف على السّرّ الدّلاليّ في إيثار كلٍّ منهما في سياق، فالتّعبير بالأمّ إنّما يكون حيثُ يكون المقام مستدعيًا الإشفاقَ والحنوَّ، كما في هذه الآية: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7].

التّعبير بالأُمّ أوفق بالسّياق؛ لإفادته الحنوَّ والإشفاق

وأمَّا لفظ الوالدة فلا يَحْمِل هذا المعنى، وإنّما هو دالٌّ على العلاقة النّسبيّة من كون الوليد قد خرج من رحم والدته بعد أن مرَّت معه بمراحل الحمل ثمّ الوضع، ولذلك حينما كلَّف القرآن الكريم الوالدة بإرضاع وليدها، عبَّر بلفظ (الوالدات) دون (الأمهات)؛ لأنّ الأُمّ تُقْبِل على إرضاع وليدها فطرةً وحنوًّا، وليست في حاجة إلى تكليف بهذا، فقال تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233] وهو أسلوبٌ خبريٌّ في معنى الطّلب والتّكليف.

وممَّا يُذكر في الفرق بينهما: أنّ لفظ (الأُمّ) أعمّ من لفظ

الوالدة، حيثُ تدلّ على الوالدة والمرضعة والحامل، وتطلق على أزواج النّبيّ ﷺ، بخلاف الوالدة فهي أخصّ في الاستعمال القرآني، حيثُ ارتبط ذكرُها بصفة الوالديّة، كما في قوله: ﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: 233]، وقوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم: 32]؛ فهي تدلّ على أعلى درجات القرابة وأوثقها؛ لذلك علّق بها أحكامًا خاصّةً مثلَ البرّ والرّضاعة[1].

الوحي والإلهام:

العلاقة بين الوحي والإلهام، هي علاقة العامّ بالخاصّ

الإلهام: نوعٌ من أنواع الوحي، سواءٌ إلى الأنبياء أو إلى غيرهم، غير أنّ الوحي إلى الأنبياء في أصول الرّسالة، أمَّا النّص الإلهيّ كالقرآن الكريم، فلم يأت عن طريق الإلهام، إنّما عن طريق مَلك الوحي، ويبقى الإلهام ممكنًا في غير ذلك، وأمَّا في غير الأنبياء فالإلهام طريقٌ من طرائق الوحي إليهم، وعليه يُحمل معنى الوحي في الإيحاء إلى أُمّ موسى عليه السلام، كما في الآية التي معنا: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾.

وممَّا يذكر في الفرق بين الوحي والإلهام: أنّ الأصل في الوحي، هو إلقاء عِلْم بطريق الخفاء، ويكون بوسائل متعدّدة، وهذا واضحٌ في قوله تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشّورى: 51]، أمَّا الإلهامُ: فهو ما أُلقيَ في نفس الإنسان منَ الخير والشّرِّ عند خلقه؛ قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: 8]، ويُطلق على إيقاع شيءٍ في القلب، يطمَئنّ له الإنسان، يَخُصّ اللّهُ به أصفياءَه وأولياءَه، كما في إلهام اللّه لأُمّ موسى[2].

(1) أحمد مختار عمر، دراسات لغويّة في القرآن الكريم وقراءاته، ص: 116.
(2) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 235.

﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تفسير مضامين الوحي لأمّ موسى، بعد وروده مبهمًا

بعد أن قال سبحانه في الآية السَّابقة: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾، وأبهم هذا الموحَى، فسَّره بعد ذلك بقوله: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ الآية، فكان مِن باب التّفسير بعدَ الإبهام.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱقۡذِفِيهِ﴾: (قذف) أَصْلٌ يَدُلُّ على الرَّمي البَعيدِ والطَّرْحِ، يُقالُ: قَذَفَ الشَّيْءَ يَقْذِفُهُ قَذْفًا، إذا رَمَى به بعيدًا[1]، ولاعتبار البُعد فيه قيل: منزلٌ قَذَفٌ وقَذيفٌ، وبلدةٌ قَذوفٌ: بعيدة[2]، والقِذاف ما أَطقْتَ حَملَه بيَدِك ورمَيته[3].

2) ﴿ٱلتَّابُوتِ﴾: أَصْلُ الكلمةِ مِنَ التَّوْبِ، وهو: الرُّجوعُ، يُقال: تابَ، يَتوبُ، تَوْبًا، أيْ: رَجَعَ، ومنه سُمّيَ به صُنْدوقُ الميِّتِ؛ لأنَّه لا يَزالُ يَرْجِعُ إليه ما يَخْرُجُ مِنْهُ، والتَّابوتُ: الوعاءُ والصُّنْدوقُ الَّذي يُحْفَظُ فيه المَتاعُ، أو ما يَعِزُّ قَدْرُهُ، ومِن مَعانيه أيضًا: الأَضْلاعُ وما تَحْويه كالقَلْبِ والكَبِدِ، ومِنْهُ سُمّيَ القَلْبُ تابوتَ الحِكْمَةِ وبَيْتَ العِلْمِ[4]، والمُرادُ به في الآيةِ: الصُّنْدوقُ.

3) ﴿ٱلۡيَمِّ﴾: كلمة (يمّ) تدلُّ على قوَّة مُمتدَّة بجمعٍ مُتَّصلٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قذف).
(2) الرَّاغب، المفردات: (قذف).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قذف).
(4) الرَّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (تبت)، والمناويّ، التّوقيف على مهمَّات التّعاريف، ص: 89.

ومنه: اليَمُّ، وهو نهرٌ كبيرٌ ممتدٌّ في سيره، وقيل: هو البَحْرُ[1]، وزادَ اللَّيْثُ: الَّذي لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، ولا شَطَّاهُ، ويُقالُ أيضًا: اليَمُّ: لُجَّةُ البَحْرِ[2]، قالَ الأَزْهَرِيُّ: ويَقَعُ اسمُهُ على ما كانَ ماؤُهُ مِلْحًا زُعاقًا، وعلى النَّهرِ الكَبيرِ العَذْبِ الماءِ[3]، وهو نَهْرُ النّيلِ بِمِصْرَ، فماؤُهُ عَذْبٌ، ولَهُ ساحِلٌ، وهَذا كُلُّهُ يَدُلُّ على بُطْلانَ قَوْلِ اللَّيْثِ: إِنَّهُ البَحْرُ الَّذي لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، ولا شَطَّاه[4]، وعليه فـ﴿ٱلْيَمِّ﴾ في الآية: هو نَهْرُ النّيل الكبير المُمتدّ الَّذي يصِل في سيره حيث يقيم فرعون.

4) ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾: (لقي) أَصْلٌ يَدُلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[5]، واللَّقَيُ: الشَّيْءُ المُلْقى المَنْبوذ[6]، والإِلْقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيثُ تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[7]، ويُطلَقُ على الإِفْضاءِ بالكلام: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأَنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائِدَة: 64][8]، والمُرادُ بالإلقاء في الآية: طرحُ الشَّيء حيثُ تَلقاه، أي: فليطرحه ماءُ النَّهر إلى الشَّاطئ.

5) ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾: أصلُ الكلمة مِنْ سَحَلَ الحَديد، أي: بَرَدَهُ وقَشَرَهُ، والسُّحالَةُ: البُرادَةُ[9]، والسَّاحِل: شاطِئُ البَحْر، وقيل: سُمّي ساحِلًا لِأَنَّ الماء يَسْحَلُه، أي: يَقْشِرُه إذا عَلاهُ فهوَ فاعِلٌ مَعْناهُ مفعول، وحَقيقَته أَنَّه ذو ساحِلٍ منَ الماء، إذا ارْتَفع المَدُّ ثمَّ جَزَرَ فجَرَف ما مرَّ عليْه[10]، وقد ساحَلَ القومُ، إذا أخذوا على السَّاحِلِ[11]، والمُرادُ بالسَّاحِلِ في الآيةِ: الشَّاطِئ.

6) ﴿عَدُوٌّ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ التَّعَدّي، وهو: مُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقالُ: تَعَدَّى النَّهَرَ، أيْ:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (يمم)، والزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 370.
(2) الخليل، العين: (يم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (يم).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (يمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(6) ابن عبَّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(7) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (لقى).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 123.
(9) الرَّاغب، المفردات: (سحل).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحل).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (سحل).

تَجاوَزَهُ[1]، والعَدوُّ: خِلافُ الصَّديقِ، وهو المُبْغِضُ، مُشْتَقٌّ مِنْ عَدا عليْه يَعْدو بِمَعْنَى وثَبَ؛ لِأَنَّ المُبْغِضَ يَثِبُ على المَبْغوضِ؛ لِيَنْتَقِمَ مِنْهُ ووَزْنُه فعولٌ[2]، والعَداوَةُ: إرادَةُ السّوءِ لِمَن تُبْغِضُه وتَكْرَهُهُ، والعُدْوانُ: الظُّلْمُ، يُقال: عَدا فُلانٌ على فُلانٍ، يَعْدو عليه، عَدْوًا: إذا ظَلَمَهُ، والرَّجُلُ العادي: الظَّالمُ[3]، والمُرادُ بالـ﴿عَدُوٌّ﴾ في الآيةِ: المُبْغِضُ، وهو فِرْعَوْنُ، فهو عَدوُّ الله؛ لِأَنَّهُ انْتَحَلَ لِنَفْسِه الإلَهيَّةِ، وعَدوُّ موسَى تَقْديرًا في المُسْتَقْبَلِ[4].

7) ﴿مَحَبَّةً﴾: أصلُ المَحَبَّةِ: المَيْلُ إلى الشَّيْءِ السَّارِّ، وهي اسْمٌ للحُبِّ، وتُطلق المحبّة على إرادة ما تراه أو تظنّه خيرًا، وهي على ثلاثة أوجه: محبّة لَذّةٍ كمحبّة الرّجل للمرأة، ومحبّةِ نفعٍ كمحبّة شيء يُنتَفَع به، ومحبّةِ فضلٍ كمحبّة أهل العِلْم بعضِهم لبعض[5]، والحُبُّ: الوِدادُ، ونَقيضُه: البُغْضِ، يُقالُ: تَحَبَّبَ إليه، أيْ: تَوَدَّدَ إليه[6].

8) ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾: (صنع) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، وهو عَمَلُ الشَّيْءِ صُنْعًا، وامرَأَةٌ صَناعٌ ورَجُلٌ صَنَعٌ، إذا كانا حاذِقَيْنِ فيما يَصْنَعانِه[7]، والصُّنْعُ بالضَّمِّ: مصدر قولِكَ: صَنَعَ إليه معروفًا، وصَنَعَ به صَنيعًا قبيحًا، أي: فعل، والصِّناعَةُ: حِرْفَةُ الصَّانِعِ، وعملُه الصَّنْعَةُ[8]، قالَ الرَّاغِبُ: الصُّنْعُ إجادَةُ الفِعْلِ، فكُلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ صُنْعًا، قالَ تعالَى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 38]، ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ [الأنبياء: 80][9]، وحقيقة الصُّنْعِ في الآية: مُسْتَعارٌ لِلتَّرْبيَةِ والتَّنْميَة، تَشْبيهًا لِذلِكَ بِصُنْعِ شَيْءٍ مَصْنوعٍ، ومِنْهُ يُقالُ لِمَنْ أَنْعَمَ عليْه أَحَدٌ نِعْمَةً عَظيمَةً: هوَ صَنيعَةُ فُلانٍ[10].

9) ﴿عَيۡنِيٓ﴾: (عين) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على عُضْوٍ به يُبْصَرُ ويُنْظَرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 620.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 238.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 217.
(5) الرَّاغب، المفردات: (حبب).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حبب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (صنع).
(9) الرَّاغب، المفردات: (صنع).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 218.

منه، قالَ الخليلُ: العَيْنُ النَّاظِرَةُ لكُلِّ ذي بَصَرٍ، والعَيْنُ تُجْمَعُ على أَعْيُن وعُيونٍ وأَعْيانٍ[1]، وعَيْنُ الشَّيْءِ نَفْسُهُ، يُقال: أَخَذْتُ مالي بِعَيْنِه، أي: نَفْسَ مالي، وتأتي بِمعنى المالِ العَتيدِ الحاضِرِ، يُقال: اشْتَرَيْتُ عَيْنًا بِعَيْنٍ، أيْ: حاضِرًا بِحاضِرٍ[2]، ويُستعار لفظ العَيْن لمعانٍ هي موجودةٌ في الجارحة، والمُرادُ بالعَيْن في الآية: مَجازٌ في المُراعاةِ والمُراقَبَة، ومثلُه قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: 37].

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

معجزة نجاة موسى الرَّضيع، مِنْ بطش فرعون المُريع

في هذه الآية يُبيِّن الحقُّ سبحانه ما أوحاه إلى أُمِّ موسى بإلقاء رضيعها في الصُّندوقِ، وأن تطرحَه في نهرِ النِّيلِ، وبأمرِنا وقُدرتِنا يُلقيه النِّيلُ على الشَّاطئِ، فيأخُذُه فِرعَونُ الَّذي هو عدوّي وعَدوُّه، ويفرحُ به فرعونُ بما وضع اللّهُ له منَ القبول بينَ النَّاسِ، فصار بذلك مَحبوبًا بينهم، وتغذَّى وتربَّى في قصر فِرعَون على ما أُريدُ بمَرأى منّي، وتحتَ حِفْظي ورعايتي، وأيُّ نظرٍ وكفالةٍ أجَلُّ وأكمَل، مِن ولاية البَرِّ الرَّحيم، القادر على إيصال مصالحِ عبده، ودفعِ المضارِّ عنه؟![3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرّ فصل جملة ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ﴾ عمَّا قبلها:

جملة التّفسير، مبيِّنة عنِ المعنى الأثير

فُصِلت جملة: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ عمَّا قبلها، لما في هذه الجملة المفصولة من (كمال الاتصال) مع جملة: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ لأنّها تفسير لها وبيان؛ "لِأَنَّ الوَحْيَ فيه مَعْنَى القَوْلِ"[4]، أو أنّها تَفْسير لـ ﴿يُوحَىٰٓ﴾[5].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عين).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (عين).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 58، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 44، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 284، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 504.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 430.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 216.

دلالة التّعبير بـ﴿أَنِ﴾ في السّياق المحكم:

﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ تفسيريّة، "وجُملَةُ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ مُفَسِّرَةٌ؛ لِأَنَّ الوَحْيَ فيه مَعْنَى القَوْلِ، أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ على تَقْدِيرِ: بِأَنِ اقْذِفيه"[1]، أي: أوحينا إليها (بقذفه)، فهو مصدر مُؤَوَّل.

احتمال الجملة لأكثر من تأويل، مِن فصيح البيان

سِرّ التّعبير بالفعل ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾، دون غيره:

أوثِر التّعبيرُ بالقذف دون غيره، كالإلقاء والوضع؛ لما في القذف مِن معنى البُعد، وأصل القذف هو الرّمي البعيد، وأُطْلِقَ هُنا على الوَضْعِ والطَّرحِ في التَّابوتِ، أَيِ: اطْرَحيه وضعيه في التَّابوتِ[2]، ولأنّ القذف يقال للإلقاء والوضع، كقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: 2]، وفي هذا دليلٌ على وجود فرقٍ بينَ القذف وبين الإلقاء والوضع؛ فالإلقاء مستلزمٌ للوضع دون العكس، وبذلك يكون الإلقاء أخصّ والقذف أعمّ، كما أنّ التّعبير بلفظ (القذف) يُصوّر المعاناةَ النّفسيّة التّي كانت تعتلج في قلب الأُمّ الرّؤوم، فكان التّردُّد الشّديد، ثمّ انتهى التّردّد بالإلقاء، وكأنّها تقذف قطعةً منها في تابوتٍ مغلق، لا تدري بالحسّ ما اللّهُ فاعلٌ به[3]، ثمّ إنّ القذف لاستلزامه للوضع قد يُطلق عليه، وإنْ لم يكن الموضوع محسوسًا[4]، ومنَ التّعبير به في غير المحسوس قولُه تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: 2]، وهو خلاف معنى القذف في قوله: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾؛ فإنّه بمعنى الإلقاء والرّمي البعيد على سبيل الحقيقة.

التّلميح إلى المعاناة النّفسيّة والقلق، عند أُمّ موسى الرّضيع

دلالة الأمر في قوله: ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾:

الأمر في قوله: ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾ أمرُ إيجاب، بقرينة قوله: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ فالوحي له سلطان، وما يأتي عن طريقه يكون منَ الأهميّة ولُزوم

أَمَرَ أمَّ موسى دون ارتياب، بقذف وليدها في العباب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 216، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 430.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 430.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4724.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 199.

الاتّباع، بحيثُ لا يخالَف، ولذا فعلت ما أملاه عليها سلطانُ الوحي، مع أنّ الأمر بالقذف يُؤذن بالهَلاك، ومع ذلك لم تُخالِف ولم تَتَردّد، ولا حَكَمت عليها البَشَريَّة بأن هذا من أَخطر الأَشياءِ، فدلَّ على أَنَّ الوحي أَقْوَى سلطانًا في نفس الموحَى إليه مِن طَبْعه الذي هو عين نَفْسِه[1].

سِرّ الإضمار في قوله: ﴿ٱقۡذِفِيهِ﴾، دون الإظهار:

العِلْمُ بالمقصود بالإضمار، يُغني عن الإظهار

أوثِرَ التّعبيرُ بالإضمار في قوله تعالى: ﴿ٱقۡذِفِيهِ﴾ دون الإظهار، فلم يقل: (اقذفي موسى)؛ لأنّه سبق ذِكْره قبل ذلك؛ فكان التّعبير بالإضمار هو المناسب؛ لأنّه لا يلزم العدولُ عنِ الضّمير إلى الإظهار إلَّا إذا ترتّب على ذلك فائدةٌ جديدة.

دلالة التّعبير بالظّرفية:

تشريف التّابوت، بأن يكون وعاءً لموسى عليه السلام

عبَّر بالظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلتَّابُوتِ﴾؛ للدّلالة على أنّها أُمِرت بإيداعه داخلَ التّابوت، بحيثُ يكون التّابوت وعاءً له، يحافظ عليه ممَّا يُكدّر سلامتَه من حرارة الشّمس، والرّيح الّتي قد تؤدّي إلى قلب التّابوت، ولا يتأتّى هذا المعنى من استعمال حرف (على)؛ لذلك كان ما فعلته أمّ موسى بإلهام اللّه لها، هو التّصرّف الأمثل الّذي لا يلفت الأنظار إليه عمومًا، بخلاف وضْعِه فوقَ التّابوت؛ فيكون أمره ظاهرًا ممَّا يعرِّضه للخطر، وأيضًا كي لا يلفتَ نظرَ فرعون إلى موسى عليه السلام.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿ٱقۡذِفِيهِ﴾:

إبراز المعنى المعقول، بصورة المحسوس، من البيان الفصيح

تظهر بلاغة الاستعارة، في قوله تعالى: ﴿ٱقۡذِفِيهِ﴾، حيثُ أُطلق القذفُ في الآية على الوضع في التّابوت؛ "تَمثيلًا لِهَيْئَةِ المُخفي عَمَلَهُ، فهوَ يُسْرِعُ وضْعَهُ مِنْ يَدِه كَهَيْئَةِ مَنْ يَقْذِفُ حَجَرًا ونَحْوَهُ"[2].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 178.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 216.

سِرّ التّعبير بالتَّابوت دون غيره:

التَّابوتُ صندوقٌ ثابتٌ محكمُ الإغلاق، يحفظ ما فيه بيقين

اختير التَّابوتُ مكانًا لحفظ موسى عليه السلام؛ لكون التَّابوت صندوقًا محكمًا مُهيّئًا للحفظ بإحكام وثبات[1]، وفيه - أيضًا - بشارةٌ برجوع موسى عليه السلام لأُمّه؛ لأنّ كلمة ﴿ٱلتَّابُوتِ﴾ أصلُها منَ التّوب، وهو الرّجوع؛ وللدّلالة على مكانة موسى عليه السلام وعلوّ قدره؛ لأنّ التَّابوت هو الصّندوق الّذي يحفظ فيه الشّيء النّفيس الّذي يَعِزّ قدرُه.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلتَّابُوتِ﴾:

في اللّفظ ما يجعل لتابوت موسى، خصوصيّةً وتميّزًا

(أل) هنا تعريفيَّة، ويكون التَّابوت على ذلك عُرِّف بموسى، فصار هذا التَّابوت معروفًا بتابوت موسى عليه السلام؛ فهو ليس ككلّ التّوابيت، ولو أراد القرآنُ جنس التّوابيت لقال: (أن اقذفيه في تابوت)؛ لكن القرآن عدل عن ذلك إلى ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾، وذهب البعض إلى أنّ (أل) في التَّابوت للجنس، فالمراد: أيّ تابوتٍ مُحكم يصلح للحفظ، فإنّه يدخل في عموم لفظه، وليس المراد تابوتًا بعينه، وما ذُكِر قبلَ ذلك أَوْلى.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾:

بيان أنّ الأمر في السّياق، جاء للمبادرة والفوريّة

الفاء في قوله: ﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ عاطفة، وهي على بابها منَ التّرتيب والتّعقيب، والمعنى: (اقذفيه في اليمّ فورًا بعدَ وضعه في التَّابوت من غير تراخٍ)، وفي هذا تصويرٌ لحالة الأمّ التي تبحث عنِ النّجاة لولدها الحبيب، ولا سبيلَ أمامَها إلّا بما ألهمَها اللّهُ إيّاه، بقَذْفِه في التَّابوت، وقَذْفِه في اليمّ، بسرعةٍ دون تأخير.

سِرّ تكرار الأمر بالقذف:

غاية التّكرار، بيانُ تعدّدِ المُراد، وتغاير معناه المستفاد

كُرّر لفظُ (القذف) في الآية، فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ لاختلاف معناه، فإذا كان السّابق بمعنى الوضع، فإنّه في الثّانية بمعنى الإلقاء البعيد، فيكون تعبيرًا بحقيقة معناه؛

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبت).

ذلك أنّ القذف الأوّل في قوله: ﴿ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ يعود على موسى عليه السلام؛ أمَّا في قوله: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ فيحتمل أن يكون لموسى، وأن يكون للتَّابوت، وفي كلا القَذْفين قلبُ أُمّ موسى معلّقٌ به، وإن كان الأولى أن يكون في المرَّتين لموسى عليه السلام؛ لأنّه المَعنيُّ به.

سِرّ اختلاف متعلّق القذف في الآية:

اختلاف القذفين؛ لاختلافهما وسيلةً وغايةً

اختلف متعلّق القذف في الآية، حيثُ قال أوّلًا: ﴿ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾، ثمّ قال ثانيًا: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾؛ لكونهما قذفين مختلفين وسيلةً وغايةً، فالأوّل كان للحفظ وطمأنة أمّ موسى، والثَّاني ليجريَ في اليمّ؛ تنفيذًا لمراد اللّه فيه، بوصوله إلى قصر فرعون.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾:

اليمّ المقصود، هو نهر النّيل المشهود

أوثِر التّعبير باليمّ؛ لأنّه يطلق في اللّغة لما كان ماؤه ملحًا، وللنّهر ذي الماء العذب بخلاف البحر، كما أنّه يُعبّر به في اللّغة عنِ السّعة والانبساط، وأكثر ما يُستعمل في الماء المالح خاصّةً دون العذب، وعلى ذلك: فاليمّ يختلف عن البحر من حيثُ السّعةُ والانبساط، فهو أقلّ، وهو المناسب لسياق القصّة؛ لأنّ فرعون كان يباهي بنهر النّيل، وعلى هذا يكون هو المراد في الآية.

دلالة تعدّد مراحلِ قذف موسى عليه السلام:

شدّة اليقين في الله تعالى، علاجٌ لشِدّة المعاناة النّفسيّة

دلّ التّعبير المُتكرّر بلفظ القذف في مرحلتي الإلقاء في التّابوت، ثمّ إلقاءِ التّابوت في اليمّ، على مدى المعاناة النّفسيّة الّتي عاشتها أمُّ موسى عليه السلام، وهي تجاهد فطرتَها بإلقاء وليدها في اليمّ، بعدَ أن قذفت به في صندوقٍ خشبيّ، ولولا أنّها كانت على يقينٍ ممَّا تفعله، بأنّه إيحاءٌ لها بأن تفعل - ما فعلت؛ لأنّه لا يتصوَّر أحدٌ أنّه يمكن لأمٍّ أن تُقْدِم على ما قامت به، فقد ربط اللّهُ به على قلبها، فسلّمت له أمرَها، كما قال سبحانه في تصوير هذا المشهد: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ

مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: 10].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾ دون (ثُمَّ):

سرعةُ استجابة اليمّ لمُراد الله، دليلٌ على مُطلق قدرته

دلّ التّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾ دون (ثم) على سُرعة استجابة اليمّ لإلقاء التّابوت بموسى عليه السلام بالسَّاحل، بحيثُ لم تكن هنالك مهلةٌ تسمح بتراخي وتأخّر حدوثِ هذا الإلقاء؛ فهو جندٌ مِن جنود اللّه في تنفيذ هذه المهمّة؛ فما كان له إلَّا سرعةُ الاستجابة، وكمالُ الانقياد.

دلالة اللّام في قوله: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾:

بيانُ أنّ الأمر كونيٌّ، وليس تكليفيًّا

اللَّام في قوله: "﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ هي لام الأمر؛ لأنّه لَمَّا كان إلقاءُ البحر إيَّاه إلى السَّاحل أمرًا واجبَ الحصول؛ لتعلّق الإرادة به، جعل البحرَ كأنّه ذو تمييزٍ مطيعٌ أمرَه بذلك، وأخرج الجواب مخرجَ الأمر"[1]، حيثُ قال: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ﴾، ولم يقل: (يُلْقِهْ) على لفظ المضارع المجزوم، جوابًا للأمر على ما هو مقتضى الظَّاهر؛ لأنّ البحر جماد، ليس ممَّا يُخاطَب بالأمر والنّهي خطاب ذوي العقل والتّمييز، لكنّ الأسلوب جعله مثلَهم في وجوب حصول المطلوب منه، وذلك بجعله من ذوي العقول على سبيل الاستعارة المكنيّة والتّخييليّة؛ حيثُ شبّه اليمّ في العِلْم بمأمورٍ ذي تمييز، أمره آمرٌ مُطاعٌ بالإلقاء، مِن حيث كونُ إلقاءِ البحر إيَّاه إلى السَّاحل أمرًا واجبَ الحصول، كحصول المأمور به منَ المأمور المُطيع، وجعل أمرَ اليمّ بقوله: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ﴾ قرينةَ التّشبيه المُضمر، وفائدةُ إخراج الكلام على هذه الصّورة: التّأكيد والمبالغةُ في حصول الإلقاء[2]،

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 5/ 614.

(2) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 5/ 614، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 5/ 68، وحاشية ابن التّمجيد على هامش حاشية القونويّ: 12/ 343.

وقيل: إنّ قوله: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ﴾ وإن كان أمرًا صورةً إلَّا أنّ معناه الخبر، أي: إن تفعلي ما أُمِرتِ به يُلۡقِه اليمّ بالسَّاحل؛ لتَعَلّق إرادتي بذلك.

سِرّ التّعبير بالإلقاء دون غيره:

الإلقاء اسمٌ لكلّ طرح، لكنّه هنا معجزةٌ باهرة

عبَّر بالإلقاء دون القذف؛ لدلالته على المعنى المراد، وهو طرحُ التَّابوت وفيه موسى عليه السلام إلى السَّاحل، وهو الشَّاطئ حيثُ يكون فرعون، فالمناسبُ هنا التّعبيرُ بالإلقاء دونَ القذف؛ لأنّ القذف فيه شِدّةٌ وإبعادٌ، بخلاف الإلقاء؛ فهو طرحُ الشّيء حيثُ تلقاه، أي: تراه، وكأنّ اللّفظ يُعطي ضمانةً لأمّ موسى بأنّ التَّابوت في اليمّ في سيره أمامَ عينيها، ويؤكّد ذلك أنّها طلبت مِن أُختِه تتبّع أثره، وممَّا يُذۡكَر في سِرّ التّعبير بالإلقاء دون القذف؛ أنّ القذف يكون مِن أعلى لأسفل، ولأنّ الإلقاء لم يكن بمعاناةٍ منَ الأمّ، بل كان برحمةٍ منَ اللّه تعالى[1].

دلالة الإضمار دون الإظهار، عن موسى عليه السلام:

حضوره الذّهنيّ لدى أمّه، سِرٌّ لعاطفة الأُمومة الحانية

عبَّر عن موسى عليه السلام بالإضمار دون الإظهار، فقال تعالى: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾؛ لكونه معلومًا و"حاضِرًا في ذِهۡنِ أُمِّه الموحَى إلَيۡها"[2]، فالضّمائر السَّابقة كلّها له[3]، ولأنّ الضّمائر في الآية تَعدّد المرادُ بها؛ فالضّمير الأوّل في ﴿ٱقۡذِفِيهِ﴾ عائدٌ على موسى عليه السلام، وفي الثَّاني عائدٌ على التَّابوت، ولا إشكال في هذا؛ لأنّ الغرض مَنۡ فيه وهو موسى عليه السلام، فما قيمةُ التَّابوت بمنأًى عمّن فيه؟ ولذا فـ"الإلقاء المُتعلّق بالظَّرۡف مستلزمٌ لإلقاء ما فيه؛ حتّى يترتّب عليه حكمُ الإلقاء، مثل لزوم الضّمان"[4]، وعلى هذا، فالضّمائر جميعها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4724.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 216.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 15.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 344.

لموسى عليه السلام، والقولُ بخلافه يؤدّي إلى تفرّق الضّمائر، الّذي يؤدّي بدوره إلى الإخلال بالنّظم[1].

إبـراز دورِ اليمّ في قصّة موسى عليه السلام، مفيدٌ في البيان عنِ المراد

سِرّ تكرار لفظ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾:

كُرِّر لفظُ اليمّ، مُظهرًا في الثّانية وكان حقّه الإضمار؛ إبرازًا لكونه جاهزًا لاستقبال التّابوت من أجل تنفيذ الأمر الإلهيّ له، بإلقائه على السّاحل، وذلك لأنّه لمّا كانت سلامة موسى عليه السلام معرّضةً للخطر، بسبب الأمواج، وشِدّة الرّيح التّي قد تقلِبُ التّابوت، أو تُعرّضُه للخطر، كان توجيهُ الأمر لليمّ بأن يُحافظ عليه مِن كلّ ما يُعرّض سلامتَه للخطر، بل ويصل به إلى محلّ الأمان والسّلامة.

وقد يقال: إنّه كرّره لكون كلّ جملة منَ الجملتين مستقلّةً عنِ الأخرى، بحيثُ تحمل كلٌّ منهما من خفايا الحِكمة الإلَهيّة ما يَخصّها، وما لا بدّ منه منَ التّسليم، معَ اليقين في سلامة النّتائج.

مـن فصيح التّعبير استعمالُ أسلوبِ التّصوير

بلاغة الصّورة المجازيّة، في إسناد الإلقاء إلى اليمّ:

أُسْنِد الإلقاءُ إلى اليمّ في قوله تعالى: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾، على طريق المجاز؛ لأنّه عومِل معاملةَ مَن يُميِّز؛ لذلك تعدّد المرادُ مِن هذا المجاز؛ فمنهم مَن قال: إنّه مجازٌ عقليٌّ في إسناد الإلقاء إلى اليمّ؛ لأنّ إلقاء التّابوت وفيه موسى عليه السلام هو منَ اللّه تعالى، وما اليمّ إلّا منقادٌ لأمره سبحانه، ومنهم مَن قال: إنّه مِن باب الاستعارة المَكنيّة، حيثُ شَبَّه اليمّ في العلم، بمأمورٍ مُنقادٍ في الامتثال، وهذه اسْتعارَةٌ بالكناية، وأثبتَ له الأمرَ وهو تخييليٌّ، ومنهم مَن قال: بالاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة في الفعل ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾[2].

دلالة (أل)، في لفظ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾:

(أل) في اليمّ للعهد، والمعهود هو بحرُ مصرَ الّذي هو نهر النّيل.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 63، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 343.

(2) الاحتمال الثّاني والثّالث في: القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 343.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾:

الجارّ والمجرور ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾ متعلّق بمحذوفٍ، أي: ملتبسًا بالسَّاحل، أو أنَّ الباءَ ظرفيةٌ بمعنى (في)، وأَنّ التعلَّقَ بنفسِ الفعل[1].

بيان مكان النّجاة وجهته، موجٍ بقوّة الله وقُدرته

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾:

عبّر القرآنُ الكريم بـ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾ دونَ الشَّاطىء في قوله تعالى: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾، وإن كان السَّاحل يُطلقه البعضُ على الشَّاطىء؛ لأنّ السَّاحل مأخوذ مِن سَحَلَ الحديدَ، أي: بَرَدَه وقَشَره، وهو فاعلٌ بمعنى مفعول؛ لأنّ الماء يَسْحَلُه، أي: يقشره، وقيل: هو على ظاهره، على معنى أنّه يسحل الماءَ، أي: يُفرّقه ويُضيّعه[2]، وفيه دلالةٌ على انبعاث الموج نتيجةَ تدفّق تيارِ الماء من هذه الناحية، أمَّا لفظُ الشَّاطئ فهو الجانب[3]، دونما تعبيرٍ عن سحله وتقشيره، ومن ثَمّ لا تعبير عنِ انبعاث الموج من جهته، وقيل: ليس المرادُ بالسَّاحل نفسَ الشَّاطئ، بل ما يُقابِل الوسطَ، وهو ما يلي السَّاحلَ مِنَ البحر، بحيثُ يجري ماؤه إلى نهر فرعون[4]، وهذا القولُ مبنيٌّ على احتمال أنّ فرعون قدِ اتّخذ لنفسه مجرًى مائيًّا خاصًّا مُستمدًّا من نهر النّيل، وأنّ التَّابوت قد مرَّ فيه حالَ جلوسِه مع زوجته؛ للتّنزّه في بستانه ونهره الخاصّ، وعلى هذا تكون (أل) في السَّاحل للعهد، "والمُرادُ ساحِلٌ مَعْهودٌ، وهو الَّذي يَقْصِدُهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِلسِّباحَةِ"[5].

تصوير حالة انبعاث الموج، وتدفّق الماء في الأوج

سِرّ تعدّد الأفعال، مع اتّحاد الضّمير:

يُفيد تعدّدُ الأفعال: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ﴾، ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾ مع وحدة الضّمير المنصوب، على كون المراد بها واحدًا، وهو موسى عليه السلام، مع أنّ البعض

إبرازُ عُلوّ قدرِ العائدِ إليه الضّميرُ في السّياق

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 36.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 502.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطأ).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 15.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 216.

ذهب إلى رجوع بعض الضّمائر إلى التّابوت، باعتبار أنّه أقربُ مذكور، وهو أولى بعود الضّمير إليه، وهذا ينافي فصاحةَ النّظم القرآنيّ، كما قال الزّمخشريّ: "والضّمائر كلّها راجعةٌ إلى موسى، ورجوعُ بعضِها إليه وبعضِها إلى التّابوت فيه هجنة، لما يؤدّي إليه من تنافر النّظم، فإن قلتَ: المقذوف في البحر هو التّابوت، وكذلك المُلْقى إلى السّاحل، قلتُ: ما ضرَّكَ لو قلتَ: المقذوفُ والمُلْقى هو موسى في جوف التّابوت، حتّى لا تُفرِّق الضّمائرَ، فيتنافرَ عليك النّظمُ الّذي هو أمُّ إعجاز القرآن، والقانونُ الّذي وقع عليه التّحدّي، ومراعاتُه أهمُّ ما يجب على المُفسِّر"[1]، ويؤكّد ذلك ما ذكره أبو حيّان مِن اعتراضٍ أورده، ثمّ دفعَه بقوله: "ولقائلٍ أن يقولَ: إنّ الضّمير إذا كان صالحًا لأَن يعودَ على الأقربِ وعلى الأبعدِ، كان عودُه على الأقربِ راجحًا، وقد نَصَّ النّحويون على هذا، فعَوْدُه على التّابوتِ في قولِه: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ﴾ راجحٌ، والجواب: أنَّ أحدَهما إذا كان مُحَدَّثًا عنه والآخرُ فضلةً، كان عودُه على المُحَدَّثِ عنه أرجحَ، ولا يُلْتَفَتُ إلى القُرْبِ"[2].

دلالة جزم الفعل ﴿يَأۡخُذۡهُ﴾:

تصوير حالة الاستعداد للتّكفّل بالجنين لدى فرعون

جزم الفعل ﴿يَأۡخُذۡهُ﴾ لكونه جوابًا للأمر الكونيّ بالإلقاء[3] في قوله: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾؛ أي: اقذفيه في التّابوت فيُلْقِه اليمُّ، فيأخذه عدوٌّ لي وعدوٌّ له؛ فكأنّ فرعون بهذا التّركيب الأمريّ ينتظر تنفيذه؛ فكان التّعبير بالجواب؛ تصويرًا لحالة الاستجابة عند فرعون.

سِرّ التّعبير بالأخذ دون غيره:

شدّة استئثار فرعون بموسى عليه السلام، وعدمُ التّفريط فيه

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالأخذ دون غيره؛ لأنّه يدلّ على تناول

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 63.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 331.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 287، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 431.

الشّيء وحَوزه في الأثناء من غير تأخير[1]، بحيثُ يتّخذه الإنسانُ لنفسه ولا يفرّط فيه لغيره؛ لذلك كان في هذا التّعبير إشارةٌ إلى تصوير حالة السّعادة عند فرعونَ العدوِّ للّه ولموسى، فأخذَه وهو سعيدٌ به، وكأنّ هذه العداوةَ قد تُنوسيت، ولم يَعُد لها وجودٌ؛ لشِدّة إعجابه به عليه السلام، ويؤكّد ذلك ما قالته امرأةُ فرعونَ فيما قصّهُ القرآنُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: 9].

سِرّ تقديم المفعول على الفاعل:

بيان أنّ تقديم ما حقّه التّأخير، غايتُه الاهتمامُ بالمُقدَّم

قُدِّم المفعولُ، وهو ضمير الهاء العائد على موسى عليه السلام في قوله: ﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ﴾ على الفاعل؛ اهتمامًا به، فهو محور القِصّة، ومحلُّ الحديث، ولإبراز الإرادة الإلَهيّة في تسخير العدوّ؛ للحفاظ على مُراد اللّه تعالى.

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿عَدُوّٞ لِّي﴾:

ادّعاء فرعون الأُلوهيّة والرُّبوبيّة، جحودٌ للفطرة وإنكارٌ للميثاق

وصف القرآنُ الكريم فرعونَ بأنّه عدوٌّ للّه في قوله: ﴿عَدُوّٞ لِّي﴾؛ لأنّه خلع على نفسه وصف الأُلوهيّة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38]، وكذا الرّبوبيّة، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: 24]، وهذا مِن فرعون جحودٌ للفطرة وللميثاق الّذي أخذه ربّنا على بني آدمَ في عالم الأصلاب: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ [الأعراف: 172].

سِرّ التّعبير بالمفرد ﴿عَدُوّٞ﴾:

قَصْرُ العداوةِ على فرعون فقط، باعتباره عدوًّا شرسًا

عبّر القرآنُ الكريم بلفظ ﴿عَدُوّٞ﴾ مفردًا، ولم يأتِ به جمعًا؛ لأنّ المراد به فرعونُ فقط، كي لا تدخلَ معه امرأتُه، فهي ليست عدوًّا، بل صارت مؤمنةً، وكانت مُحبّةً لموسى عليه السلام، ولا يُتوهّم من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).

التّعبير بالإفراد عدمُ دخولِ حاشية فرعونَ في هذه العداوة، بل هم داخلون، وإن كان فرعون هو الأساس، وكلُّ مَن عادى اللّهَ من أتباعه فإنَّهم عادَوهُ بسببه وبأمرٍ منه، كما قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزّخرف: 54].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿عَدُوّٞ لِّي﴾:

تقبيح عداوة فرعون وتبشيعها؛ لكونه عدوًّا لله ولرسوله

دلّ التّعبير بقوله: ﴿عَدُوّٞ لِّي﴾ على قُبح عداوته؛ إذ نازع اللّهَ تعالى الأُلوهيّة والرُّبوبيّة، لدرجة أنّه أنكر وجود الإله سبحانه، وقال لرعيّته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [الزخرف: 54]، أي: في حُكمي، وفي هذا إظهارٌ لطغيان فرعون في عداوته للّه ربّ العالمين؛ حيثُ تعدّى الظّلمَ والجبروت منَ البشر إلى ربّ البشر، بادّعائه الألوهيّة.

سرّ التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾:

العطف بالواو قصدًا للجمع والإشراك

عُطِفَ بين جُملتي: ﴿عَدُوّٞ لِّي﴾، ﴿وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾ بالواو؛ لقصد إشراكه وجمعه بين العداوتين؛ عداوةِ اللّه تعالى، وعداوةِ موسى عليه السلام، وفي هذا دليلٌ على إنكاره للأُلوهيّة وللنّبوّة والرّسالة، ممَّا يَلزم منه وجودُ العداوة.

سرّ تعدّد ذِكْر العداوة في: ﴿عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾:

تَكَرُّرُ الذّكر بغرض المبالغة، من فصيح التّعبير

جاء التّعبير القرآنيّ بتكرار لفظ ﴿عَدُوّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾، ولم يكتف بذِكره مرّةً واحدة، أو بالجمع بينهما، بأن يقول: (يَأۡخُذۡهُ عَدوٌّ لي ولَهُ)، ولكنّه جاء مُكرّرًا للمبالغة[1]، ووجه المُبالَغَة في التّكرير كونُه يدلُّ على أنّ عداوته كثيرةٌ متعلّقةٌ بكلٍّ منَ الرّب وموسَى.

وذهب البعضُ إلى أنّه لا تكرار، وأنّ الأوّل باعتبار الواقع، والثّاني باعتبار المتوقّع[2]؛ لأنّه صفةٌ مشبّهةٌ دالَّةٌ على الثّبوت الشّامل للواقع

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 15، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 344.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 344.

في زعمه للأُلوهيّة والرّبوبيّة، والمُتوقّع في عداوته لموسى ﷺ[1]، يُؤكّد ذلك أنّ فرعون عادى بني إسرائيل بالذّبح لذُكورهم واستحياءِ نسائهم؛ لأجل موسى ﷺ، حيثُ أخبره الكهنةُ بأنّه يولد مولودٌ يُهدِّد مُلكَه مستقبلًا، وفي هذا التّعبير إشارةٌ إلى أنّ فرعون (موسى ﷺ) سيعيش إلى أن يُرسِل اللّهُ موسى ﷺ ويدعوه إلى الوحدانيّة وتَرك مزاعم الأُلوهيّة التي ادّعاها، وعند ذلك تكون عداوةُ فرعون ظاهرةً جليّةً في محاربة موسى ﷺ؛ بسبب دعوته إلى التّوحيد وإرسال بني إسرائيل وعدم تعذيبهم، وفيه - أيضًا - إشارةٌ إلى إخبار موسى ﷺ بمستقبل دعوته مع فرعون، ومدى العناء والمَشقّة الّتي يتحمّلها موسى لإبلاغ دعوة ربّه.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ﴾:

تفصيل ذِكْر منن الله الفخام، على موسى ﷺ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾، عطفت هذه الجملة على جُملَةِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾[2]، وذلك باعتبار الاشتراك في تفصيل المنن؛ فهذه الجملة المظهر الثّاني مِن مِنن اللّه تعالى على موسى ﷺ.

سِرّ التّعبير بالإلقاء في قوله: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ﴾:

الدّلالة على شِدّة تعلّق المحبّة به

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بالإلقاء في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾، إشارةً إلى العناية والرّعاية التّي أُحيط بهما موسى ﷺ من قِبَل ربّه ومولاه؛ إذِ الإلقاء "طرحُ الشَّيْء حَيْثُ تَلقاهُ، أَي: تراهُ"[3]، ولأنّ إِلْقاءَ المَحَبَّةِ مَجازٌ في تَعَلُّقِ المُحِبَّةِ بِه، أي: خَلَقُ المَحَبَّةِ في قَلْبِ المُحِبِّ بِدونِ سَبَبٍ عاديٍّ، حَتَّى كَأَنَّهُ وُضِعَ بِاليَدِ لا مُقْتَضًى لَهُ في العادَةِ[4]، ولمَّا كان الأمر متعلّقًا بحبّ موسى من عدوّه، كان التّعبير بالإلقاء مناسبًا؛ لإبراز الحالة التي كان عليها موسى

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 217.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 481.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 217.

مِن حُبّ فرعونَ وامرأته، فأمرُ الحُبّ منهما كان قَدَرًا لِما ألقاه اللّهُ لموسى ﷺ؛ فلا مجالَ إلّا للاستجابة لهذا الحُبّ، وفي هذا خَرْقٌ للأسباب البشريّة.

دلالة التّعبير بالإلقاء ماضيًا:

في التّعبير بالإلقاء فعلًا ماضيًا ﴿وَأَلۡقَيۡتُ﴾؛ دلالةٌ على تحقّق إلقاءِ محبّته في القلوب، وأنّ هذا الأمر قَدّره اللّهُ أزلًا؛ فلا مجالَ لتغييره ولو كان من عدوّه، بل كلّ الأسباب تُسَخَّر لتحقيقه، وهذا ما أكّده الواقعُ في موقف فرعون مع موسى ﷺ.

دلالة التّعبير بتاء التّكلّم ﴿وَأَلۡقَيۡتُ﴾:

عدلَ القرآنُ الكريم عنِ التّعبير بنون العظمة إلى تاء التّكلّم، في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ﴾ ولم يقل: (أَلۡقَيۡنا)؛ إشعارًا بالرِّقة والرّفق في مخاطبته ﷺ، دونَ نون العظمة (ألقينا)، التي يُلْمَح منها الهيبةُ والجلال، والمقامُ هنا مقامُ عطفٍ وإحسانٍ، فناسبَه الخطابُ بقوله: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ﴾.

دلالة تعدّي الفعل ﴿وَأَلۡقَيۡتُ﴾ بـ ﴿عَلَيۡكَ﴾:

تعدّى الفعلُ ﴿وَأَلۡقَيۡتُ﴾ بـ ﴿عَلَيۡكَ﴾، وهي تُفيد الاستعلاء؛ تناغمًا وانسجامًا مع كون هذه المحبّة ملقاةً على موسى مِنَ العليّ الأعلى سبحانه، وهي محبّةٌ خارجةٌ عن حدود الأسباب الموقعة للمحبّة بين النَّاس، كما يدلّ على ذلك ويؤكّده قوله: ﴿مِّنِّي﴾؛ وللدّلالة على أنّ هذه المحبّة تعلو كلَّ الأسباب التّي تأتي من عدوِّه، حيثُ ربَّاه في قصره، وغذاه بغذائه، ولا يتأتّى كلُّ ذلك إلَّا مِن استعلاء هذه المحبّة التّي ألقاها اللّهُ على موسى ﷺ.

دلالة التّعبير بكاف الخطاب، في قوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾:

التّعبير بكاف الخطاب في قوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾ مُرادٌ بها موسى ﷺ، وفي هذا إيماءٌ إلى كون هذه المحبّة الملقاة على موسى، كانت خاصّةً به دونَ غيره، فليس كلّ محبوبٍ منَ النَّاس، يكون قد أُلقيت عليه

ما قَدَّرَهُ اللّه بالماضي، واقعٌ في علمه، وإن لم يَحِن أوانُه

المقام تعطّفٌ، يناسبُه الضّمير المُعبّر عنِ الذّات المُفرَدة

المحبّة المُلقاة على موسى ﷺ محضُ فضلٍ وإكرام

بيان أنّ مؤانسة الله لموسى ﷺ، يعكسها تخصيصه بالمحبّة

هذه المحبّة منَ اللّه كما أُلقيت على موسى عليه السلام؛ لأنّه كليمُ اللّه، فهو يخاطبُه ويكلّمُه، وهذا من خصوصياته عليه السلام.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾:

الـدّلالـة على الاخـتـصـاص والاهتمام، من بليغ الكلام

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿مَحَبَّةٗ﴾؛ اهتمامًا به عليه السلام، وتخصيصًا له بهذه المحبّة المذكورة، وتفريقًا بينَ المحبّة العامّة التّي يعطيها اللّهُ تعالى لعباده في الأرض، وبين المحبّة الخاصّة لموسى عليه السلام.

بلاغة المجاز في إلقاء المحبّة عليه:

إبـراز المعقول فـي صـورة المحسوس، منَ البليغ المأنوس

التّعبير بإلقاء المحبّة في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾، هو تعبيرٌ مجازيٌّ - استعارة مكنيّة - في تعلّق المحبّة به عليه السلام، أي: خلق المحبّة في قلب المُحبّ بدون سببٍ عاديّ، حتّى كأنّه وُضِع باليد، لا مقتضى له في العادة[1].

وليس المراد أنّ هناك شيئًا قد أُلقيَ عليه في الحقيقة، ولكنّ المعنى: (إنّني جعلتُكَ بحيثُ لا يراكَ أحدٌ إلَّا أحبّكَ، ومالَ قلبُه نحوَك، حتّى أحبّك فرعونُ وامرأتُه، فتبنَّياكَ وربّياكَ، واسترضعا لكَ، وكَفِلاكَ)، وهذا كقول القائل: (على وجه فلان قبول)، وليس هناك على الحقيقة شيءٌ يومئ إليه، إلَّا أنّ كلّ ناظرٍ ينظر إليه يقبلُه قلبُه، وتُسَرّ به نفسُه[2].

سِرّ اختيارِ المحبّة دون القبول:

المحبّة أقـوى في تأثيرها، والقبول أثرٌ من آثارها

أوثِرَ التّعبير بالمحبّة دونَ القبول في قوله تعالى: ﴿مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾؛ لكون المحبّة أقوى، وما القبول إلَّا أثرٌ من آثارها، وفيه إشارةٌ إلى أنّ المحبّة قد تكون أسبابُها ظاهرةً من الجمال الّذي يُعطيه للّه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 217.

(2) الرّضي، تلخيص البيان: 2/ 223.

للإنسان، وهذا ما أعطاه اللّهُ لموسى من بهاءٍ في وجهه، وجمالٍ في عينيه؛ فما رآه أحدٌ إلّا أحبّه؛ لأنّ اللّهَ تعالى أحبّه وألقى في قلوب النَّاس حُبّه، ففتح قلبَ فرعونَ وامرأتِه لحُبّه، بخلاف القبول؛ فهو أمرٌ قلبيٌّ في الغالب، يتعلّق بالأخلاق الحميدة، والصّفات الرّشيدة، وموسى ﵇ في هذا التّوقيت رضيعٌ، فلا يناسبه إلّا المحبّة.

سِرّ وصفِ المحبّة بأنّها منَ الله تعالى:

محـبّـة مـوسى ﵇، خـارقـةٌ لـلـنّـواميـس الكونيّة

وَصَفَ القرآنُ الكريم المَحَبَّةَ بِأَنَّها مِنَ اللهِ، فقال تعالى: ﴿مَحَبَّةً مِّنِّي﴾؛ لِلدّلالَة على أنَّها مَحَبَّةٌ خارِقَةٌ لِلْعادَة، لِعَدَمِ ابْتِداءِ أَسْبابِ المَحَبَّةِ العُرْفيَّة مِنَ الإِلْفِ والانْتِفاع، ألا تَرى قَوْلَ امرأةِ فِرْعَوْنَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القَصَص: 9]، مَعَ قَوْلِها: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ [القَصَص: 9]، فكانَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَها قَبْلَ أَنْ يَنْفَعَها، وقَبْلَ اتِّخاذِه وَلَدًا[1].

سِرّ التّعبير بلفظ (المحبّة):

قـوّةُ المَحبّة في خلوصها من كلّ ما ينغّصها في الواقع

عبَّر القرآنُ الكريم بقوله: ﴿مَحَبَّةً﴾، مصدرًا ميميًّا دونَ الحُبّ؛ لكون المقصودِ بها الحبَّ الخالصَ النّقيَ الخاليَ منَ الأغراض، وعلى هذا، فالتّعبير بـ (المحبّة) آكد في الدّلالة على قوّتها وخلوصها من كلّ ما ينغّصها في الواقع؛ بدليل ما فعله فرعونُ وامرأته في تربية موسى ﵇، ولذلك أضافها سبحانه إليه، فقال: ﴿مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، أمَّا كلمة الحبّ، فهي كلمةٌ عامّةٌ، تُطلَق على كلّ مَيلٍ إلى المَرغوب المُلَذّ[2].

دلالة التّنكير في قوله: ﴿مَحَبَّةً﴾:

تفخيم المحبّة وتعظيمها، دليلٌ على المقام والإكرام

دلّ التّنكير في قوله: ﴿مَحَبَّةً﴾ على تفخيمها وبيانِ أنّها محبّةٌ عظيمة، كائنةٌ منَ اللّه، قد زرعها في القلوب؛ بحيث لا يكاد يَرَى أحدٌ موسى إلّا أحبَّه، ولذلك أحبَّه عدوّ اللّه فرعون[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 217.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 398.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 15.

سِرّ التعبير بـ ﴿مِّنِّي﴾:

محبّة موسى صُنعَةٌ ربّانية، وليست منحةً بشريّة

آثر البيانُ الإلهي التعبير بـ﴿مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، دونَ (من عندي) أو (من لدنّي)؛ تعبيرًا عن قوّة هذا الحُبّ الذي خلقه الله ابتداءً في قلب كلّ مَن رآه، وخصوصًا فرعونَ وامرأتَه، حتّى إنّه سبحانه أضافه إلى نفسه في التّعبير، دونما واسطةٍ لفظيّةٍ، وإن كان اللّفظ موضوعًا للقُرْب كـ (عند)[1] أو (لدن)، ولأنّ كلمةَ (مِنْ) في قوله: ﴿مِّنِّي﴾، متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، هو صفةٌ لـ ﴿مَحَبَّةً﴾، مؤكّدةٌ لما في تنكيرها منَ الفخامة الإضافيّة؛ أي: محبّةً عظيمةً كائنةً منّي، قد زرعتُها في القلوب، بحيثُ لا يكاد يَصبِر عنك مَن رآك، ولذلك أحبّك عدوُّ الله وآلُه[2].

دلالة العطف في صنعه على عين الله:

تخريج العطف، تبعًا لتحديد المتعلّق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، عاطفةٌ على فعلٍ محذوف تقديره: (لتَنْعَمَ بمحبّة الله ومحبّة النَّاس، ولتُصْنَع على عين الله تعالى، وتحتَ رقابته وعنايته)، أو تكونَ متعلّقةً بفعلٍ مُضمَرٍ مُؤَخّر أي: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ فعلتُ ذلك. - أي: إلقاء المحبّة عليك - وحينَئِذٍ يكون العطفُ على الجملة السَّابقة، بإضمار هذا الفعل المُعَلّل[3]، والوجه الأوّل هو الأولى.

دلالةُ تعدّد القراءات في قوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾:

اللّام بين التّعليل والأمر، وأثره على المعنى في السّياق

قرأ الجمهور قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾ بكسر اللّام ونصب العين، وقرأ أبو جعفر بإسكان اللّام وجزم العين ﴿وَلۡتُصۡنَعۡ﴾[4]، فعلى قراءة الكسر، تكون اللّام للتّعليل، وهي الّتي يُقال لها: لام (كي)، والمعنى: (لأجل أن تُصنع على عيني، بأن تكون تحت عنايتي الخاصّة

(1) الرّاغب، المفردات: (عند).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 15.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 503، وشيخ زاده، حاشية زاده: 5/ 616.

(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 320.

ورعايتي، ولِتُربّى بالحُنوّ والشّفقة بمراقبتي وحِفظي)[1]، وعلى قراءة إسكان اللّام وجزم العين تكون اللّام للأمر، وهو أمرٌ معناه: (لِتُرَبَّ ولْيُحْسَنْ إليك)[2].

وفي تعدّد القراءة إشارةٌ إلى أنّ صناعة موسى عليه السلام لها جانبان: جانبٌ فطريّ، وهو ما قامت به أُمّه من إرضاعه وقَذْفه في التّابوت، وإلقائه في اليمّ بإلهام اللّه لها، وجانبٌ خارجيٌّ يكون بالأمر وليس بالاختيار، كما في تربية فرعون لموسى عليه السلام، مع شِدّة عداوته لبني إسرائيل، ولكلّ نسلهم.

بلاغة المجاز:

تمثيل المعنى، يُكْسِب العبارةَ طلاوةً وجمالًا

تظهر بلاغةُ المجاز في قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ باستعارة لفظِ (الصُّنْع) لِلتَّرْبِيَةِ والتَّنْمِيَةِ؛ تَشْبيهًا لِذَلِكَ بِصُنْعِ شَيْءٍ مَصْنوعٍ، ومِنْهُ يُقالُ لِمَنْ أَنْعَمَ عليْه أَحَدٌ نِعْمَةً عَظيمَةً: هوَ صَنيعَةُ فُلانٍ[3].

سِرّ التّعبير بلفظ (الصّنع):

التّربيّة الخاصّة المُعدَّة بعنايةٍ ربّانيّةٍ، تُؤتي أُكُلَها بإذن ربّها

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالصّنعِ في قوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾ دون التّربية، مع دلالة لفظ الصّنع على التّربية والرّعاية؛ فيقال مجازًا: صنع الرّجلُ جاريتَه، إذا ربَّاها، وصنع فرسَه إذا داوم على علفه والقيام عليه[4]؛ لأنّ المراد بالصّنع تربيةٌ خاصّةٌ قد أعدَّها اللّهُ له، بما لا يخطر على بالٍ، فقد شاء له أن يُربّى في بيت فرعون؛ فيُنَعّمَ ويُترفَ ويَتغذّى غذاءَ بيتِ الملوك والفراعنة، ويُرْعَى رعايةَ أبنائهم؛ فلا ينفكّون عنِ الاعتناء بمصالحه عنايةً شديدة"[5]، وهذا المعنى لا يتأتّى إلّا من لفظ الصّنع، الّذي يدلّ على مزيدٍ منَ التّربية والرّعاية بأخذ أسبابها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 15.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 37.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 218.
(4) القنوجيّ، فتح البيان: 8/ 230.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 287.

دلالة تَعدّي الصّنع بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

المبالغة في الحفظ، دلالةً على الرّعاية الفائقة للمُعْتنَى به

تعدّى الفعلُ ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾ هنا بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾، المفيدةِ للاستعلاء المَجازيِّ، والمعنى: (لتكونَ يا موسى مستعليًا على حافظيك، غيرَ مستخفٍ في تربيَتك من أحد، ولا مخوفٍ عليكَ منه، وأنا حافظٌ لك، حفظَ مَن يُلاحظ الشّيء بعينه، لا يغيب عنه؛ فكان كلُّ ما أردتُه؛ فلمَّا رآك هذا العدوّ أحبّكَ، وطلبَ لكَ المراضعَ؛ فلمَّا لم تقبل واحدةٌ منهنّ، بالغ في الطّلب، كلُّ ذلك إمضاءً لأمري، وإيقافًا لأمره بنفسه لا بغيره)، ليزداد العجب[1].

بلاغة المجاز بقوله: ﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾:

إطلاق السّبب على المسبَّب، من فصيح البيان

عبَّر بالعين في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ بمعنى الرّعاية، على سبيل المجاز المرسل، مِن إطلاق السّبب على المسبّب، فإنّ النّاظر إلى الشّيء يحرسُه عمَّا لا يريد في حقّه، ويراعيه حسبما يريد فيه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القذف والرّمي:

القذف أخصّ منَ الرّمي، فيُطلَق على البعيد والشّديد في المعاني النّفسيّة

هنالك أكثر من مُشترَكٍ بينَ القذف والرّمي، سواءٌ في الدّلالة الحقيقيّة المطابقيّة، أو في الدّلالة المجازيّة؛ فيُستعمَلان في الأعيان وكذلك في المعاني، ومن مصاديق ذلك أنّ كلًّا منهما يُطلَقُ على معنيَي: الإلقاء والوضع، ثمّ إنّ كلًّا منهما يُطلَقُ مجازًا على الشّتم والعَيْب والسَّب[3]، ويُفَرَّقُ بينهما: أنّ القذف يقال للرّمي البعيد، ولاعتبار البعدِ فيه، قيل: منزلٌ قَذَفٌ وقَذيفٌ، وبلدةٌ قَذوفٌ: بعيدة، أمَّا الرّمي فهو أعمّ، إذ لا يُشترط فيه البعد، وعلى هذا، فالتّعبير في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، أنسب وأولى،

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/ 19.

(2) شيخ زاده، حاشية زاده: 5/ 616، وصديق خان، فتح البيان: 8/ 230.

(3) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رمى، قذف)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 481.

سواءٌ حُمِلَ القذفُ في التّابوت على معنى الوضع، أو على معناه المجازيّ الّذي يُنبئ عن المعاناة النّفسيّة الّتي عاشتها أمُّ موسى، وهي تمرّ بمرحلتي القذف في التّابوت واليمّ؛ وذلك للخطر المُحدِق بأمّ موسى عليها السلام من أعوان فرعون لقتل وليدها؛ فكان التّعبير بالقذف تصويرًا لحالة السّرعة التّي قامت بها أمّ موسى عليها السلام.

اليمّ والبحر والنّهر:

اليمّ يقال باعتبار العمق، والبحر باعتبار السّعة، والنّهر باعتبار التّدفّق

أصل (نَهَر) يَدُلُّ على تَفَتُّح شَيْءٍ أَوْ فتحِه، وأَنْهَرْتُ الدَّمَ: فتَحْتُهُ وأَرْسَلْتُهُ، وسُمّيَ النَّهر نهرًا؛ لأَنَّهُ يَنْهَرُ الأَرْضَ، أَيْ: يَشُقُّها، واسْتَنْهَرَ النَّهْرُ: أَخَذَ مَجْراهُ، وأَنْهَرَ الماءُ: جَرَى، والنّهرُ: مَجْرَى الماءِ الفائِضِ، وجمعُه: أَنْهارٌ، قال تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 33][1]، ومن مستتبعات ذلك ولوازمه، أن يكون الماء كثيرًا، حتّى يشقّ طريقه بشِدّة جريانه، وكثافة مائه.

واليمّ أيضًا هو البحر، وعُبّر عنِ البحر - وهو هنا نهر النّيل - بـ (اليمّ)؛ دلالةً على عمقه وكثرةِ مائه، بحيثُ لا يُدرَك قَعْرُه[2].

والبَحْر: كلّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماء الكثير، هذا هو الأصل، وسُمّيَ البَحْرُ بَحْرًا لِاسْتِبْحارِه، وهوَ انْبِساطُهُ وسَعَتُه، واسْتَبْحَرَ فُلانٌ في العِلْم، وتَبَحَّرَ الرَّاعي في رِعْيٍ كَثيرٍ ... ، ورَجُلٌ بَحْرٌ: إِذا كانَ سَخيًّا، سَمَّوْهُ لِفَيْضِ كَفِّه بِالعَطاءِ كَما يَفيضُ البَحْرُ[3].

ومن خلال هذا العرض: يظهر لنا المشترك بين كلٍّ منَ البحر والنّهر واليمّ من حيثُ إنّ كلًّا منها يدلّ على المكان ذي الماء الكثير، فيما هو معروفٌ دلالته في الواقع، غيرَ أنّ اليمّ يقال باعتبار العمق، والبحرَ باعتبار السّعة، والنّهرَ باعتبار الجري والتّدفّق، وهو أقلّ منَ البحر.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (يمم).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بحر).

المحبة أقوى منَ القبول، وكلاهما واردٌ منَ الفصيح المنقول

المحبّة والقبول:

المحبّة: هي الحبّ الخالص النّقيّ، واللّفظ مصدرٌ ميميٌّ، قُصِدَ به التّعبيرُ عن خلوص الحُبّ بصيغةٍ مؤكِّدةٍ للمعنى المُراد، وأمَّا القبول: فهو أقلّ دلالةً من معنى الحبّ، فضلًا عن معنى المحبّة، فقد يقبل المَرءُ ما لا يحبّه، ولذا كان التّعبير بالمحبّة هنا أدلُّ وأقوى في وصف المقصود.

﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين صنع موسى على عين الله، ومجمل العطايا والمنن الّتي أوتيها

لَمَّا خُتمت الآيةُ السَّابقة بقوله سبحانه: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، وكانت ختامًا لمظهر المنّة الثّانية من مِنن اللّه على موسى؛ جاءت هذه الآيةُ لذِكر مظهرِ المنّة الثّالثة بعودته لأُمّه؛ ليُربَّى في أحضانها، ولتطيب نفسُها بنجاته، ويتحقّق وعدُ اللّه لها ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: 7]، فكانت هذه الآية بيانًا لذلك؛ فقال تعالى: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ﴾ الآية، فيكون ذلك مصداقًا لهذا الصّنع[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡفُلُهُۥ﴾: (كفل) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومنه سُمّيَ الكِساءُ الَّذي يوضَعُ على ظَهْرِ البَعيرِ كِفْلًا؛ لأنَّهُ يَدورُ عليه ويَشْمَلُهُ[2]، والكَفيلُ: الشَّاهِدُ والضَّامِنُ والرَّقيبُ على الشَّيْءِ المُراعَى لِتَحْقيقِ الغَرَضِ مِنْهُ[3]، والكافِل: القائمُ بأَمرِ اليَتيم، المُربّي لَهُ، وهو مِنَ الكَفيلِ الضَّمينِ[4]، والمرادُ بالكفيلِ في الآيةِ: الَّذي يَكْفُلُ إنْسانًا يَعولُهُ.

2) ﴿تَقَرَّ﴾: (قرّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على الثُّبوتِ والتَّمَكُّنِ، يُقال: قَرَّ الشَّيْءُ، يَقِرُّ، قَرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِه ولم يَتَحَوَّلْ[5]، وقيل: أصلُه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 288، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 504.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 262.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كفل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).

منَ القُرِّ، وهو البَرد، وهو يقتضي السُّكون، والحَرُّ يقتضي الحركة، يُقال: قَرَّتْ عينُه، أيْ: بَرَدَتْ فصحَّت، وقيل: بل لأنَّ للسُّرور دمعةً باردةً قارَّةً، وللحُزْنِ دَمعةً حارَّةً؛ ولذلك يُقالُ فيمن يُدْعى عليه: أسخَنَ اللهُ عينَه[1]، وضَعَّفَ ناسٌ هذا، وقالوا: الدَّمع كلُّه حارٌّ، فمعنى (أقَرَّ الله عينَه) أي: سكَّن اللهُ عينَه بالنَّظر إلى مَن يُحبّه حتَّى تقرَّ وتسكُن[2]، وهذا المعنى هو المراد في الآية، ويُقال أيضًا: قَرَّتْ عينُه تَقَرُّ: سُرَّت، وقيل لمن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عين، قال تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ [القصص: 9].

3) ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾: أَصلُ الإنجاءِ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمدودٌ، ونَجاةً، مَقْصورٌ، وأَنْجَيْتُ غَيْري ونجَّيْته، واستَنْجَى مِنْهُ حاجَتَهُ: تخَلَّصها، وانْتَجَى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلبَه، ومعنى نجَوْتُ الشّيءَ: خَلَّصته وألْقَيْته، والنَّجاةُ: الخَلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ[3]، والنَّجْوَةُ: المكان المُرتفِعُ المنفصل بارتفاعه عمَّا حولَه، وقيل: سُمّي لكونه ناجيًا منَ السَّيْل، ونَجيَّتُهُ: تركتُه بنَجْوةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][4]، والمقصود بالإِنْجاء في الآية: خلاصُ موسى عليه السلام مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ.

4) ﴿ٱلۡغَمِّ﴾: (غمّ) أَصلٌ يَدُلُّ على تَغْطيَةٍ وإِطْباقٍ، تَقولُ: غَممتُ الشَّيْءَ أَغُمُّهُ، أَيْ: غَطَّيْتُهُ[5]، ومنه: الغَمامُ؛ لكونه ساترًا لضوء الشَّمسِ[6]، والغَمُّ والغُمَّةُ: الكَرْبُ والحُزْنُ[7]، والغَمَّاءُ: الشّديدةُ من شدائِدِ الدّهْرِ، ويقالُ: إنّهم لَفي غُمَّىً من أمرِهم، إذا كانوا في أمرٍ مُلْتَبِسٍ[8]، والمُرادُ بالغَمِّ في الآيةِ: الحُزْنُ، والمَعْنيُّ بِهِ ما خامَرَ موسَى مِنْ خَوْفِ الِاقْتِصاصِ مِنْهُ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا بَلَغَهُ الخَبَرُ أَضْمَرَ الاقْتِصاصَ مِنْ موسَى لِلقِبطيِّ.

5) ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾: أَصْلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإِحْراقُ[9]، يُقالُ: فتَنْتُ الذَّهَبَ، أيْ: أَحْرَقْتُهُ

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرّ).
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 130.
(4) الرَّاغب، المفردات: (نجو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غمَّ).
(6) الرَّاغب، المفردات: (غم).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (عمم).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غمم).
(9) الخليل، العين: (فتن).

بِالنَّارِ؛ لِتَمييزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَديءِ، ويُسَمَّى الصَّائِغُ: الفَتَّانَ، وكَذَلِكَ الشَّيْطانُ[1]، والفِتنَةُ: الكُفر؛ وسَمَّوْا ذلك فِتْنَةً؛ لِأَنَّها تَزيدُ النَّاسَ تَوَغُّلًا في الكُفْرِ[2]، وتأتي بمعنى الابْتِلاءِ والامتِحانِ والاخْتِبارِ، يُقالُ: فتَنْتُه، أَفْتَنْتُه، فتْنًا وفُتونًا: إذا امتَحَنْتُه[3]، والفُتونُ كالفِتْنَة: وهوَ اضْطِرابُ حالِ المَرْءِ في مُدَّةٍ مِنْ حَياته، والمُرادُ بِالفُتونِ في الآية: خَوْفُ موسَى مِنْ عِقابِ فِرْعَوْنَ وخُروجُهُ مِنَ البَلَدِ المَذْكورِ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18] إِلَى قَوْلِه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: 20 - 21][4].

6) ﴿فَلَبِثۡتَ﴾: (لبث) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ، وانتظارٍ، واستبطاءٍ، قيلَ: اللَّبْثُ الاسْمُ، واللُّبْثُ - بالضَّمِّ - المَصْدَرُ[5]، يُقالُ: لَبِثَ بِالمَكانِ: أقام به مُلازمًا له، وأَلْبِثْ عن فلانٍ، أي: انْتَظِرْهُ حَتّى يُبْدِيَ انْتِظارُكَ إيَّاه خَطَأَ رَأْيِه[6]، واسْتَلْبَثَهُ، إذا اسْتَبْطَأَهُ، وهوَ استَفْعل منَ اللَّبْثِ، وهوَ الإبطاءُ والتَّأَخُّر[7]، وحقيقةُ اللُّبْثِ في الآيةِ: الاسْتِقْرارُ في المَكانِ.

7) ﴿أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾: مَدْيَن: اسمٌ أَعْجَميٌّ، كجَعْفَر، وإن اشْتَقَقْته من العَربيَّةِ فالياءُ زائِدَةٌ، وقد يكونُ مَفْعَلًا وهو أظهَرُ، وأَهْلُ مَدْيَنَ: قَوْمُ شُعَيْبٍ، ومَدينُ: اسْمُ أَحَدِ أَبْناءِ إبراهيمَ عليه السلام، سَكَنَتْ ذُرِيَّتُه في مَواطِنَ تُسمَّى الأيكة، على شاطئِ البَحْرِ الأَحْمَرِ جَنوبَ عَقَبَةِ أَيْلَةَ، وغَلَبَ اسْمُ القَبيلَةِ على الأَرْضِ، وصارَ علمًا لِلمَكانِ، فمِنْ ثَمَّ أُضيفَ إِلَيْه لفظ (أَهْلُ)[8].

8) ﴿قَدَرٖ﴾: (قدر) أَصْلٌ يَدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِه ونِهايَته، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا، أَيْ: مَبْلَغُهُ، وكَذَلِكَ القَدَرُ[9]، وهو: تَقْديرُ الشَّيْءِ على مِقْدارٍ مُناسِبٍ لما

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 263.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 220.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(6) ابن عبَّاد، المحيط في اللّغة: (لبث).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (لبث).
(8) ياقوت، معجم البلدان: 5/ 77، والزَّبيديّ، تاج العروس: (مدن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 221.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).

يُريدُ المُقَدِّرُ بِحَيْثُ لَم يَكُنْ على سَبيلِ المُصادَفَةِ، فيَكونَ غَيْرَ مُلائِم أَوْ في مُلاءَمَته خَلَلٌ[1]، ويأتي بمعنى التَّقْدير، وهو: بَيانُ كَمِّيَّةِ الشَّيْءِ، يُقال: قَدَرَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ، يَقْدُرُه، قَدْرًا، وقَدَّرَه، أيْ: قاسَهُ وبَيَّنَ مِقْدارَهُ[2]، والمُرادُ بالقَدَرِ في الآيةِ: العِنايَةُ الإلَهِيَّةُ بِتَدَرُّجِ أَحْوالِ موسى عليه السلام إلَى أَنْ بَلَغَ المَوْضِعَ الَّذي كَلَّمَهُ اللهُ مِنْهُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِـنن الله على موسى عليه السلام بالحفظ والرّعاية على الدّوام

بيّنت هذه الآيةُ بعضًا مِن مظاهرِ العنايةِ والحِفظِ لموسى عليه السلام؛ لتذكيره بها، فاللّهُ يقول له: اذكر حينَ كانت أختُك تمشي لِتتَّبِعَك، حتّى وجدَتْكَ في أيدي آلِ فِرعَونَ، يَطلُبونَ لكَ مُرضِعًا، فتقولُ لهم بلسان النَّاصح: هل أدلُّكم على من يَضُمُّ هذا الطِّفلَ إليه، ويقومُ بمَصالحِه وخِدمتِه، فيُرضِعُه ويُرَبّيه ويحفَظُه؟ فيقولون لها: هاتِها، وعند ذلك رَدَدْناكَ إلى أُمِّك بعدَما صِرْتَ في يدِ فِرعَونَ؛ كي تطيبَ نَفسُها بسَلامتِك، ولا تحزَنَ على فقدِك، ومَنَنَّا عليكَ عندما قتَلْتَ الرَّجُلَ القِبطيَّ خطأً، فنجَّيناك مِنَ الغَمِّ، واختَبرناك اختبارًا بإيقاعِك في المِحنِ، وتخليصِكَ منها، فخرَجْتَ خائفًا إلى أهلِ (مَدْين)، فمَكَثْتَ سِنينَ فيهم، ثمّ حَضَرتَ الآنَ - يا موسى - إلى الوادِ المُقَدَّسِ في الوقتِ المُحدَّدِ الّذي قَدَّرتُه، وأردتُ فيه منْحَكَ النُّبوَّةَ، وتكليفَكَ بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى فِرعَونَ، بلا تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الظّرفيّة في لفظ: ﴿إِذۡ﴾:

بيانُ وقتِ هذا الاصطناع، وأهمّيّةُ الاصطناعِ الإلَهيّ الحكيم

دلّتِ الظّرفيّةُ هنا على وقت هذا الاصطناع، وتلك الرّعايةِ الخاصّةِ لموسى عليه السلام، حيثُ قال: ﴿إِذۡ﴾، أي: حين كانت ﴿تَمۡشِيٓ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 222.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قدر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 71، والقرطبيّ، جامع البيان: 11/ 198، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 293، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 504.

﴿أُخْتُكَ﴾، أي: في الموضع الّذي وضعوكَ فيه لينظروا لكَ مرضعة[1]، وكونه ظرفًا ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ أولى؛ لأنّ تقييد التّربية بزمان مشي أُخته صحيح؛ لأنّ التّربية إنّما وقعت زمانَ مَشي أُخته، ورَدّه إلى أُمّه[2].

تعدّد العاملِ في إعراب ﴿إِذْ﴾، هو ثراءٌ للمعنى:

ظرفُ الزّمان ذو أثـرٍ في ترسية المعنى وتجليته

تعدّد العامل في إعراب ﴿إِذْ﴾، فقال ابنُ عطيّة: فعلٌ مضمر تقديرُه: (ومننا إذ)[3]، وقال الزّمخشريّ: "العامل في ﴿إِذْ﴾: ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ أو ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾"[4]، والمعنى على الأوّل: وألقيتُ عليك محبّةً منّي وقتَ مشي أختِك، وعلى الثّاني: لتُربّى ويُحْسَنَ إليكَ في هذا الوقت، وكونه ظرفًا ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ أولى؛ لأنّ تقييد التّربية بزمان مشي أختِه صحيح؛ لأنّ التّربيّة إنّما وقعت زمانَ مشي أُخته وردّه إلى أُمّه، بخلاف إلقاء المحبّة عليه، فإنّه وقع قبلَ ذلك من أوّل ما التقطه فرعونُ، فلا وجهَ لكونه ظرفًا لـ ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ إلّا باعتبار الاتّساع في زمان المَشي[5].

سِرّ التّعبير بالفعل ﴿تَمْشِيٓ﴾ دون غيره:

المشي يُحقّق الغرضَ المقصود، مِن تتبّع أثرِ موسى الموجود

عبَّر القرآنُ الكريم بالمشي في قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ﴾، دون غيره كالسّعي؛ للدّلالة على دقّة المتابعةِ لأمر أخيها موسى ﵇، فقد مشت دون إسراعٍ مراقِبةً ومتابِعةً لسير التّابوت، حتّى التقاطِه من قِبَل آلِ فرعون، ثمّ تداوُلِهم في أمر المُرضعة ... إلخ، ولم يُعبِّر بالسَّعي؛ لأنّ السّعي هو المشي السّريع[6]، ويدلّ على قوّة المضيّ وسرعة الجريان، وهو لا يساعد في هذه الحال على دقّة المراقبة والمتابعة المقصودة منها لأخيها، بل ويَلْفِتُ الانتباه إليها، فيُفْتَضَحُ أمرُها.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 288.
(2) شيخ زاده، حاشية زاده: 5/ 616.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 45.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 64.
(5) شيخ زاده، حاشية زاده: 5/ 616، مع ملاحظة: أنّه يكتفى بهذا التّعدّد في العامل الإعرابيّ دون غيره، لوجود أثر له في المعنى، ولا داعي لذكر بقيّة الأقوال النّحويّة.
(6) الرّاغب، المفردات: (سعى).

دلالة التّعبير بالمضارع دون الماضي:

دلّ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ﴾ على استمرار أُخت موسى عليه السلام في مشيها، ومتابعتِها لأخيها، حتّى استقرارِه في بيت فرعون، وفيه - أيضًا - استحضارُ صورةِ الحَدَث، وهو المشيُ أمامَ عينَي موسى عليه السلام، حين حدَّثه ربّه به، ليرى مكانَ النّعمةِ منه[1].

استمرار أُخت موسى في متابعة أثره، مع استحضار تلك الصّورة

سِرّ إسناد المشي إلى أخته:

أسند القرآنُ الكريم المشيَ إلى أُخت موسى عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ﴾؛ لإعلام موسى عليه السلام وتذكيره بالدّور الّذي قامت به أُخته؛ حبًّا في حياته، وحرصًا على نجاته، ولبيان طاعة الأُخت لأُمّه، حيثُ قالت لها: ﴿قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: 11]؛ أي: تتبَّعي أثرَه، فحَقَّقت ذلك بالمَشي لمعرفة أخباره.

الأخذ بالأسباب جزءٌ أساسٌ مِن أخبار موسى عليه السلام

دلالة التّعبير بالأُخوّة في لفظ: ﴿أُخۡتُكَ﴾:

دلّ التّعبير بالأُخوّة في قوله: ﴿أُخۡتُكَ﴾، على الإشعار بالحرص والرّعاية، فذلك من مقتضيات الأُخوّة، إضافةً إلى ما تتميّز به الأُخت - انطلاقًا مِن طبعها كأنثى - من رقّةٍ وشفقةٍ على أخيها.

علاقة الأُخوّة دافعٌ من دوافع الحرص والرّعاية والشّفقة

دلالةُ إبهامِ اسم الأُخت في السّياق:

أبهم القرآنُ الكريم تعيينَ اسم أُختِ موسى عليه السلام؛ اتّساقًا مع منهاج القرآن في التّعامل مع أسماء الأعيان، إذ إنّه لا يعتني بتعيينها حالةَ أنّه لا يترتّب على تعيينها فائدةٌ، وبحيثُ لا يعوق عدمُ التّعيين عن حصول الهدف الرّئيس الّذي تُساق له القصّة أو الحدّث، واستلهام العبرة منه، كما أنّ في إيثار ذكرِها بالوصف دونَ تعيينها بالاسم، لما في الوصف من معاني الأُلفةِ والحنانِ وحُسنِ الرّعاية، ولو عيَّنها باسمها لخلا اللّفظ من هذه الإيحاءات[2].

وصفُ الأُخوّة أبلغ؛ لما يحمله من معاني الأُلفة والحنان

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 304.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 304.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿أُخْتُكَ﴾:

الأُختُ عزوةٌ لأخيها وسنَدٌ، وهي هنا حمايةٌ ومَدَدٌ

الإضافة في قوله: ﴿أُخْتُكَ﴾ فائدتها التّخصيص، فهي أُخته حقيقةً في النّسب لا مجازًا، وفي هذا تعظيمٌ لدور أُخوّة النّسب، وفيه إشارةٌ إلى فطنة وذَكاء أُختِه في التّعامل معَ الحَدَث، فرغم قرابةِ النّسب لم يظهر أمرُها أمامَ آلِ فرعون.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَتَقُولُ﴾:

إذا أراد اللهُ أمرًا، قيّض له الأسبابَ المُفضيَةَ إليه

دلّ التّعبيرُ بالفاء على أنّها لمَّا رأتهم في حيرةٍ من أمر امتناعِ موسى عنِ الرّضاع من كلّ المراضع؛ سارعت على الفور بطرح اقتراحها، فعرضت عليهم مساعدتَها لهم في حلّ هذه المعضلة، وفيها معنى السّببيّة على أنّ هذا القول مسبّبٌ[1] عنِ الحالة الّتي أصبح عليها أخوها من عدم الإرضاع، ثمّ ما سمعته من حوار آلِ فرعون، في حيرتهم من أمره، وسعيهم إلى حَلٍّ لهذه المشكلة.

دلالة التّعبيرِ بالمضارع ﴿فَتَقُولُ﴾:

مضمون حوار أُخت موسى، مع آل فرعون أو حاشيته

دلّ التّعبير بالمضارع ﴿فَتَقُولُ﴾ على مراجعةٍ وحوارٍ دارَ بينَها وبين آلِ فرعون في هذا الشّأن، فظهر من خلاله ثباتُها وحُسْنُ منطقِها، في إقناعهم بما تُريد، وقيل: عبَّر به لحكاية الحال الماضية[2].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾:

لفت الانتباه لعرض الاقتراح، بعباراتٍ فصاح

الاستفهام هنا على حقيقته، دالٌّ على العَرْض[3]، فهي تعرض عليهم مقترحَها ومساعدتَها لهم في توفير مُرضعٍ للصّبي، لديها منَ الخِبرة في إرضاع الأطفال ما يُساعِد الصّبي على تجاوز عقبة الإباء والامتناع عنِ الإرضاع، وهي لا تملك إلَّا هذا العرض حتّى لا ينكشفَ أمرُها.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 348.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 348.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 219، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 304.

سِرّ إيثار ﴿هَلۡ﴾ دون غيرها في السّياق:

الاستفهام هنا تقرير، ترجَم المشاعرَ، وأفصحَ عنِ المراد

أوثِرَ الاستفهام بـ ﴿هَلۡ﴾ دون غيرها من أدوات الاستفهام، في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾؛ لأنّ الاستفهام هنا للتّقرير، إذ لا معنى لسؤال الشّخص عن فعل نفسِه، واختيارُ ﴿هَلۡ﴾ هنا؛ لأنّ المقامَ مقامُ التّصديق، ولأنّ ﴿هَلۡ﴾ تحمل "ترجمةً عمَّا في نفسها من شِدّة الرّغبة في قَبول عرضِها؛ لأنّ فيه إنقاذًا لأخيها منَ العناء ومشقّة الجوع، ولأنّ فيه تطييبًا لنفس أُمّها وإثلاجًا لصدرها"[1].

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾:

الإشعارُ بوثاقة المعرفة، وانتفاءِ الغرض الخاصّ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾ دون (أخبركم)؛ للدّلالة على دِقّة معرفتِها، فهي تعرف هذه المُرضعَ معرفةً وثيقةً، وليس عن طريق السّماع والإخبار، كما قد يوحي به لفظُ الإخبار، فأنتَ تقول: "أَخْبَرْتُ: أعلمتُ بما حصل لي منَ الخبر"[2]، وأيضًا لما يحملُه لفظ ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾ من معنى الإخلاص في العرض، وانتفاءِ الغَرَض الخاصّ؛ كي لا تُفهَم خصوصيّةُ العلاقةِ الّتي تربطها بموسى عليه السلام، أو بالأُمّ المُرضع، ولذا عبَّرت بما يدلّ على معرفتها الوثيقة بها، دون أن تُظْهِرَ علاقتَها بها، فقالت كما جاء في سورة القصص: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ [القصص: 12].

دلالة التّعبير بالجمع في قوله: ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾:

الجمع مفيدٌ دلالةَ كونِه للتّعظيم، أو كونِه على الحقيقة

يدلّ التّعبيرُ بالجمع في قوله: ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾ على التّعظيم؛ لكونها تُخاطب فرعونَ أو بعضَ آله، أو أن يكون الجمعُ على حقيقته، كأن تكون قدِ اطَّلعت على الخبر منَ الحاشية والخَدَم، فدارَ بينَها وبينَهم حوارٌ، فعرضَت عليهم ذلك العرضَ، وفيه إشارةٌ إلى أنّ أمر موسى

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 348، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 304.

(2) الرّاغب، المفردات: (خبر).

كان شائعًا في القصر، فلم يقف عند فرعون وامرأتِه، بل تعدَّاهما إلى الحاشية؛ لذلك كان التّعبير بالجمع.

دلالة تعدية الفعل ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

الدّليلّ متمكِّنٌ من معرفته بالشّيء الذي يدلّ عليه

تعدّى الفعل ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾ إلى مفعوله الثّاني بـ ﴿عَلَىٰ﴾، وهو أسلوب القرآن المُتّبع في آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 14]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧﴾ [سبأ: 7]، وكذلك تذكر الدّواوين اللّغويّة[1]؛ لأنّه لمَّا كان مَن يدلّ أحدًا على شيء، كان ذلك دليلًا على تمكُّنه منَ المعرفة أو ادّعائها؛ فناسبَ ذلك تعدّيه بـ ﴿عَلَىٰ﴾، الّتي تدلّ على الاستعلاء والتّمكّن.

سِرّ التّعبير بـ ﴿مَن﴾ الموصولة في السّياق:

التّعبير بـ (مَن) يدلّ على عموم أهل البيت دونَ تخصيص

أوثِر التّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ الموصولة في قوله: ﴿مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾، دون (الّذي) أو (الّتي)؛ لدلالة ﴿مَن﴾ على العاقل المُعيَّن مطلقًا، مذكّرًا ومؤنّثًا، بخلاف (الّذي) الخاصّ بالعاقل المُذكّر، ودلالةِ (الّتي) الخاصّة بالمُفرد المُؤنّث؛ لدفع توهُّم معرفةِ أُختِه بأُمّ موسى، فهي توحي للسّامع بذلك، ولو كان التّعبير بـ (الّتي) لأفهمَ الدّلالةَ على تخصيص شخصٍ معيّن، وهذا غيرُ مرادٍ في هذا التّوقيت.

دلالة قوله: ﴿أَهۡلِ بَيۡتٖ﴾ في القصص:

وضع كلّ عبارة في موضعها، دليلٌ على دقّة الاستعمال

دلّ التّعبير بلفظ ﴿أَهۡلِ بَيۡتٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12] على أصالة معدن هذا البيت ونفاسته، الّتي توجب اتّصافَه بكريم الأخلاق وعظيم الصّفات، ولذلك لم تقل أُخته: (هَلۡ أَدُلُّكُم على مُرۡضِعٍ)؛ لأنّ ذلك يوحي بالاستئجار، كما

(1) ابن منظور، لسان العرب: (دلل).

هو الشَّائع في عادات النَّاس في مثل هذا الموقف، وهذا غير مراد؛ لأنّ الأنبياء يخرجون مِن أزكى البيوت وأرقاها، وممَّا يُؤكّد هذا المعنى استعمالُ القرآنِ لوصف (أهل البيت)، مع سيّدنا إبراهيم عليه السلام وزوجه، بقوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود: 73]، ومع رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33].

دلالة التّعبير بالكفالة دون الرّضاعة:

الكفالة أعمّ من الرّضاعة، وأشملُ لحقوق الرّضيع

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ عبَّر بالكفالة دونَ الرّضاعة؛ لأنّ الرّضاعة جزءٌ منَ الكفالة، وذلك أنّ شأن المرضع أن تأخذ الرّضيع في بيتها، وتتكفَّلَ بكلّ شؤونه، وليس فقط الرّضاعة، وإن كانت هي السّبب الرّئيس، وفي التّعبير بها إشارةٌ إلى أنّ موسى عليه السلام أتمّ رضاعَه من أُمّه في بيتها وليس في قصر فرعون، كما هي عادة النّساء المرضعات، وفي هذا تحقيقٌ لوعد الله تعالى لأمّ موسى، بقوله في سورة القصص: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: 7]؛ فلو قالت أختُه: (هل أدلّكم على أهل بيت يُرضعونه لكم) لم يتحقّق هذا الوعد بردّ موسى إلى أمّه؛ لذلك كان التّعبير بالكفالة معجزًا في تحقيق مراد الله سبحانه وتعالى.

سِرّ التّعبير بياء التّذكير في السّياق:

الكفالة تحتاج إلى مزيد جهدٍ للوفاء بها، ورعايةِ متطلّباتها

في قوله تعالى: ﴿مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ عبَّر بياء التّذكير دون التّأنيث؛ لأنّ الكفالة تكون من أهلِ البيتِ كافّة بمَن فيهم رجلُ البيت الّذي هو الأبُ مِنَ الرّضاع، وإن كان الإرضاع خاصًّا بالمرأة المُرضع، وفيه إشارةٌ إلى إعلانها القدرةَ على القيام بحقّ الكفالة كما ينبغي؛ لأنّه مبعوثُ آلِ فرعون في ذلك التّوقيت، والتّذكير هو المناسب في هذه الحالة؛ لأنّه أقوى منَ التّأنيث، وفيه إيهامٌ آخَرُ عليهم؛ حتّى لا يعلمَ بوجود صلةِ قرابةٍ بينَه وبينَ المرضعة.

دلالة المضارع في ﴿يَكۡفُلُهُۥ﴾:

عبّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَكۡفُلُهُۥ﴾؛ للدّلالة على استمرار كفالته، والاهتمام بشؤونه، والإعلان عن استحضار القُدْرَة وتجدّدِها، مع طول زمن الكفالة حتّى يطمئنّ آلُ فرعون على ذلك.

بيان أنّ العبارة مستوفيةٌ لمعنى الكفالة حسًّا ومعنًى

دلالة الإضمار في قوله: ﴿مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾:

دلّ إضمار المفعول في قوله تعالى: ﴿مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾ دون الإظهار، على الإيغال في التّمويه بأنّها لا تعرفه، فلم تقل: (يكفل موسى)، وإنّما هي مُجرّد ناصحٍ محبّ، يقدّم النّصحَ بإخلاصٍ للمَلك وآلِه، بقطع النّظر عمّن يكون هذا الرّضيع.

الإيغال في التّمويه، لكي لا ينكشفَ أنّ الفتاة تعرفُه من قَبْلُ

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فصيحةٌ مُعْرِبةٌ عن محذوفٍ قبلَها، يُعطَف عليه ما بعدها، أي: فقالوا دُلّينا عليها، فجاءت بأمّكَ ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ﴾ إليها[1]، ويجوز أن تكون الفاء سببيّة، أي: فتسبّب عن قولها هذا، رجوعُك إلى أُمّك[2].

الإفصاح عن كلامٍ محذوفٍ، من بلاغة الإيجاز

دلالة التّعبير بلفظ (الرّجوع) دون (الرّدّ):

عبّر بالرّجوع دون الرّد؛ لأنّ الرّجوع في اللّغة: ردّ الشّيء إلى أوّل حاله، يعني: إعادة الشّيء إلى ما كان عليه، أمَّا الرّدّ فهو صرف الشّيء عن وجهه، ولمَّا كانا كذلك، تضمّن الرّجوعُ الإعادةَ مطلقًا بدون تقييد، وأمَّا الرّدُّ فتضمّن الإعادةَ، لكن على كراهةٍ له؛ لما فيه من معنى الصّرف والتّغيير، وهذا واضحٌ من خلال استعمال القرآن الكريم لهما، ومن ذلك ما ورد في قصّة موسى عليه السلام في سورة طه، بقوله: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ﴾، وفي سورة القصص: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ﴾ [القصص: 13]، وعلّة ذلك: أنّ مقام سورة طه ثناءُ اللّه على نبيّه موسى وتكريمه،

امتنانُ الله تعالى على موسى عليه السلام، متنوّعٌ وغزير

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 16.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 19.

يؤكّد ذلك تقدُّمُ، قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، فكان التّعبيرُ بالرّجوع هو الأوفق لهذا السّياق؛ أمَّا موضع القصص الّذي ورد فيه استعمالُ الرّدّ في قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ [القصص: 13]؛ فعِلَّةُ ذلك: أنّ سياق سورة القصص يغلب عليه جوّ الخوف على نبيّ اللّه موسى من بطش فرعون، وصوّر القرآنُ ذلك بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]؛ لذلك ناسب التّعبير هنا بالرّدّ في سورة القصص(1).

دلالة التّعبير بالماضي ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾:

عبَّر بالماضي في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾؛ لإبراز المِنّة على موسى عليه السلام، بتحقيقها، ولتذكيره بها، وأنّ ما امتنّ اللّه به على موسى كليمه، وقع فعلًا بلا ريب.

دلالة نون العَظَمة في قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾:

تدبير اللّه لا تمنعه حيلُ البشر

عبَّر بنون العَظَمة في قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾؛ لبيان أنّ أمرَ إنجاءِ موسى عليه السلام، وإعادتِه مُعَزَّزًا مُكَرّمًا إلى أُمّه لِتَكْفُلَهُ وتُرْضِعَهُ، وليَنشأَ بينَ أهله، إنّما كان بتقدير اللّه العظيم وتدبيره، ولا يمكن لحيَل البشر أن تبلغ شأوَه، مهما كانت حِدّة الذّكاء والدّهاء، وفيه إبطالٌ لدعوى فرعونَ الأُلوهيّة؛ لعجزه أمامَ أمرِ موسى عليه السلام في تربيته وكفالته.

دلالة كاف الخطاب، في قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾:

تهيئة الله لموسى كليمه، لما هو آتٍ من تحمّل أعباء الرّسالة

التّعبير بكاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾، جارٍ على عهد ما سبق من توجيه الخطاب لموسى عليه السلام؛ تعديدًا لنِعَم اللّه، وتذكيرًا له بها، ليتهيّأَ لما هو آتٍ، من تَحَمُّل أعباءِ الرّسالة، وهو مطمئنٌّ إلى معيّة اللّه الّتي كانت تصحبُه منذُ نشأتِه، ثمّ هي

(1) الدوري، دقائق الفروق اللّغوية، ص: 168.

مستمرّةٌ معه إلى أن يقضيَ اللّه أمرًا كان مفعولًا، وفيها من الإيناس لموسى ﷺ ما فيها؛ لكونه في محلّ الخطاب من ربّه.

دلالة تعدّي فعلِ الرّجوع بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ دون اللّام:

بيان أنّ الرّجوع هو العود إلى ما كان منه البَدءُ

الفعل (رجع) يتعدّى بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾، حيثُ المرادُ به الوصولُ إلى غايةٍ كان البدء منها، فالرُّجوعُ: هو "العود إلى ما كان منه البدء"[1]، ولهذا يتعدّى بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾؛ دلالةً على هذا العود، وبلوغ المراد.

سِرّ إسناد الرّجوع إلى أمّ موسى في السّياق:

نعمة الإرجاع مشتركة بين موسى ﷺ، وأُمِّه الكريمة

في إسناد الرّجوع إلى أمِّ موسى في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ تمهيدٌ لما ذكرهُ بَعْدُ، وهو قوله تعالى: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾، فهي شريكةٌ لابنها موسى في هذه النّعمة، فهو رجع إلى دِفء أُمّه، وهي رجعَ إليها وليدُها، الّذي كان قد فارقها، وفيه إشارةٌ إلى الحديث عن نهاية مرحلة الرّضاع، والتّهيئة لمرحلةٍ جديدةٍ في حياة موسى ﷺ، وهذا من نِعَم اللّه على موسى وعلى أُمّه، حيثُ لبّى ذلك التّعبيرُ رغبة أُمّه في ضمّها إليه، وضمنت لموسى التّربيّةَ الصّالحة.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾:

إبراز جليل النّعم على موسى ﷺ وأُمِّه

الإضافة في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ هي إضافة تخصيص، وفيها من دلالات النّعم الكثيرُ والكثير؛ فأن يُنجيَه من براثن عدوّه فرعون، ويحيلَ عداوتَه إلى حُبٍّ وإعزاز، وأن يُبرّدَ فؤادَ أُمِّه بإرجاعه إليها، غيرَ خائفٍ ولا مَخوفٍ عليه، بل عزيزًا مُكرَّمًا، فهذا كلّه لا يكون إلَّا بتقدير اللّه، وجليلِ إنعامِه على موسى ﷺ وأُمِّه المؤمنة الواثقة باللّه سبحانه.

دلالة التّعبير بـ ﴿كَيۡ﴾ دون اللّام في السّياق:

(كي) تُستعمَل للغرض المؤكّد، و(اللّام) تُستعمَل له ولغيره

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ ﴿كَيۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾، دونَ اللّام لوجود فرقٍ بينهما؛ فالظّاهرُ أنّ (كي) تُستعمَل

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

للغرض المُؤكّد والمطلوبِ الأوّل، بخلاف اللّام، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [القصص: 13]، فقد جعل التّعليل الأول بـ ﴿كَيۡ﴾ [القصص: 13] في قوله: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ [القصص: 13]، والثّاني باللّام: ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [القصص: 13]؛ وذلك لأنّ ردّ موسى لأُمّه هو المطلوب الأوّل، والمقصودُ الّذي تُلِحُّ عليه الأمّ؛ بدليل الاقتصار عليه في آية طه، قال تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾، أمَّا جَعْلُه نبيًّا مُرسلًا، وهو ما يُشير إليه قولُه تعالى: ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [القصص: 13]، فهو غرضٌ بعيدٌ، ناسبَ معه التّعبيرُ باللّام؛ بخلاف المطلب الأوّل فكان بـ ﴿كَيۡ﴾ [القصص: 13]؛ لأنّ الأمّ متحرِّقةٌ لردّ ابنها الرّضيع إليها، وهذا غرضُ كلّ أمٍّ سُلِبَ منها ابنها، بل هو مطلوبُ للأُمَّات منَ الحيوان، ولذا علّلها في الموطنين، بالحرف (كي)، ولم يعلّلها باللّام[1].

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾، ودلالته:

دلالة قرّة العين، على الرّضا والفرح والسّرور

أسند التّعبيرُ القرآنيّ القرّ إلى العين في قوله تعالى: ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾؛ جريًا على عادات العرب، ويُكنّى به عنِ السّرور وبلوغ الأماني، وقد شاعت هذه الكلمة على ألسنة الخاصّة والعامّة، يقال: "أَقَرَّ الله عَيْنَكَ، أَي: بَلَّغَك أُمنِيَّتَك، حَتَّى تَرْضَى نَفْسُك، وتَسْكُنَ عَيْنُك، فلا تَسْتَشْرِفَ إِلى غَيْرِه"[2].

أمَّا دلالة هذا التّركيب فقيل: أصله منَ القُرِّ، أي: البرد، فقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بردت فصحّت، وقيل: بل لأنّ للسّرور دمعةً باردة قارَّةً، وللحُزْن دمعةٌ حارّة، ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن اللّهُ عينَه، وقيل: هو منَ القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللّهُ ما تسكن به

(1) السَّامرَّائي، معاني النَّحو: 3/ 358.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قرر).

عينُه، فلا يطمح إلى غيره[1]، والمراد عين أمّ موسى، وهو دالٌّ على كثرة بكائها على وليدها، الّذي يرجّح أنّه قد أعلَّ عينيها.

دلالة تقديم ﴿تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ على انتفاء الحزن:

مناسبة كون قرّة العين علّةً للإرجاع ابتداء

قدَّم التّعبير القرآنيّ قُرَّةَ العَيْنِ على انْتِفاءِ الحُزْنِ، في قوله تعالى: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾، مَعَ أَنَّها أَخَصُّ، فيُغْني ذِكْرُها عَنْ ذِكْرِ انْتِفاءِ الحُزْنِ؛ لأنّه روعيَ فيه مُناسَبَةُ تَعْقيبِ ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾، بِما فيه مِنَ الحِكْمَةِ[2]، وممَّا يذكر - كذلك - في سِرّ تقديم قرّة العين على نفي الحزن، مع أنّ زوال الحزن مقدّمٌ على السّرور؛ أنّه متى حصل السّرور، وجبَ زوالُ الغمّ لا محالة، وأجاب على ذلك الفخر الرَّازيّ، بقوله: "المراد: تقرّ عينها بسبب وصولك إليها، ويزول عنها الحزنُ بسبب عدم وصول لبن غيرها إلى باطنك"[3]، وقال ابن عرفة: "قدّم قرور العين؛ لأنّه من باب جلب المُلائم على نفي الحزن؛ لأنّه من باب رفع المُؤلم"[4].

دلالة عطف نفي الحزن، على قرّة العين:

جمع المنفيّ والمثبت بالعطف؛ لتوزيع المنّة

عَطْفُ نَفْيِ الحُزْنِ على قُرَّةِ العَيْنِ في قوله تعالى: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾؛ لِتَوْزيعِ المِنَّةِ، لِأَنَّ قُرَّةَ عَيْنِها إنما كان بِرُجوعِه إِلَيْها، وانْتِفاءَ حُزنِها تمّ بتحقُّق سَلامَتِه مِنَ الهَلاكِ ومِنَ الغَرَقِ، وبِوُصولِه إلى أَحْسَنِ مَأْوًى[5].

سِرّ التّعبير بنفي الحزن، دون نفي الخوف:

الحزنُ يكون على ما فات، والخوفُ يكون ممَّا هو آت

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بنفي الحزن في قوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾، دون نفي الخوف؛ لأنّ الحزن يكون على ما فات، والخوفَ يكون

(1) الرَّاغب، المفردات: (قر).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 219.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 326.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 144.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 219.

ممَّا هو آت، ولذا كان الملائمُ هنا نفيَ الحزنِ عنها؛ وهو الألم الّذي قاسته بفراق ابنها، وما التبس بذلك من ظروف، ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ [القصص: 10]؛ فهو تصوير للحالة الّتي كانت عليها منَ الحزن لفراق ابنها، وأمَّا المستقبل فقد اطمأنّت إليه؛ ثقةً باللّه ﷻ، فلم يبق مسوّغٌ للخوف.

بلاغة الجمع بين قرّة العين، ونفي الحزن:

الجمع بينهما جمعٌ بين جَلْب (المَنفعة)، ودَرء (المَفسدة)

جُمِعَ بين قُرّة العين ونفي الحزن في قوله تعالى: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾، مع أنّهما على طرفي نقيض؛ لأنّ أحدهما يستلزم الآخر، وقد أجاب على ذلك ابن عرفة معترضًا، فقال: "لا، بلِ الأوّل: سببٌ يقتضي دوامَ قُرور العين، والثّاني: نفيٌ يقتضي دوامَ نفي الحزن"(1).

دلالة عطف التّذكير بحادثة قتل النّفس:

النّجاة من المصيبة وتبعاتها نعمةٌ تستحقّ التّنويه بها

عُطِفت جملة: ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ على ما سبق منَ النّعم المذكورة، وإن كان ظاهرها أنّها لا تعدّ في هذا الباب؛ لكن ذكرها القرآنُ تذكيرًا له بسبب النّجاة في الدّنيا من قصاص فرعون، وفي الآخرة بمغفرة اللّه له، وذلك أنّه عليه السلام، كان قد وكز قبطيًّا فمات، وهي الواقعة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 15 - 16]، وبعد أن مات القبطيّ حصل لموسى عليه السلام غمٌّ من وجهين ونجّاه اللّه منهما؛ **أحدهما**: من عقاب الدّنيا، وهو اقتصاص فرعون منه، وقد حكى اللّه تعالى حاله فقال: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18]، **والآخر**: من عقاب اللّه تعالى، حيثُ قتلَه لا بأمر اللّه تعالى، فنجّاه اللّه تعالى منَ الغمَّين؛ أمَّا من

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 144.

فرعون فحين هاجر إلى مدين، وأمّا مِن عقاب الآخرة؛ فلأنّه ﷻ غفر له ذلك(1).

سرّ التّعبير بالقتل دون الوكز أو الضّرب:

التّعبير بالقتل أقوى، لقوّة ظهور مِنَّة الإنجاء فيه

عبّر النّظمُ القرآنيّ بالقتل دون الوكز أو الضّرب، مع أنّ الّذي حصل منه وكزٌ؛ اعتبارًا بما آل إليه أمرُ الرّجل، حيثُ مات بعد أن وكزَه، ولأجل إبراز تمام المِنّة؛ فلأن تكون المِنّة في إنقاذه من مغبّة القتل، أعظمَ من أن تكون في الوكز.

دلالة إسناد ﴿وَقَتَلۡتَ﴾ إلى تاء المخاطَب:

تقريره بالقتل؛ لإبراز فضل الله عليه بالمغفرة

أسند القرآنُ الكريم القتلَ إلى موسى ﷺ بتاء الخطاب، في قوله: ﴿وَقَتَلۡتَ﴾؛ لأنّ وكز موسى له كان سببًا في قتله، لا سيّما وأنّ موسى ﷺ أُعطيَ قوّةً تفوق قوّة عددٍ منَ الرّجال، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ۝٢٦﴾ [القصص: 26]؛ فالوكزُ من موسى مع قوّته يساوي الضّرب من غيره، ولأنّ فيه تذكيرَهُ بما وقع منه؛ ليستحضر مِنّة اللّه عليه بإنجائه مِن مغبَّتها، وقد كانت فِعْلَة قتلِ القبطيّ حاضرةً في ذاكرة فرعون، ولذا ذَكَّره بها بعدَ رجوعه ﷺ إليه مُرسلًا من ربّه، طالبًا بني إسرائيل، فقال له: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ [الشّعراء: 18 - 19].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿نَفۡسٗا﴾:

تبشيع جريمة القتل من حيثُ هي، بلا تفريق بين نوع القتيل أو صفته

عبّر القرآنُ الكريم بلفظ ﴿نَفۡسٗا﴾ دون (رجلًا) تبشيعًا للقتل نفسه، وبيانًا بأنّه المقصود بالذّات، بلا فرقٍ بين أن تكون هذه النّفس رجلًا أو امرأةً، كبيرًا أو صغيرًا، قريبًا أو بعيدًا؛ ولأنّ القتل يعني انقطاعَ النّفس؛ فبقتل الإنسان يزول عنه الوصف الّذي به حياة الإنسان.

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 49.

دلالة التّنكير في ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾:

التّهويل والتّفظيع، بلائمان سياق النّكرة

نَكَّر القرآن الكريم لفظ ﴿نَفۡسٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾؛ لغرض تهويل أمرِ قتل النّفس، التي أكَّد اللّهُ تعالى على تحريم قتلها إلَّا بالحَقّ، وتفظيعِ حال مَن يقوم بذلك هادمًا بنيان الرّب، الّذي خلقه ﷻ لعبادته ولعمارة الأرض.

سِرّ تقديم ذِكْر قتلِ النّفس على الإنجاء:

تقديمُ ذِكْر القتل على الإنجاء مِنَ الغَمّ، تعظيمٌ للمِنّة العليّة

قُدِّم ذِكْرُ قتلِ النّفس على الإنجاء في قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾؛ لكونه من جملة الوقائع المقصودة، إن لم يكن أهمّها، فقد أنجاه اللّهُ تعالى مِن غمّ الدّنيا بإنقاذه من فرعون، ومن غَمّ الآخرة بغفران اللّه له ما وقع منه على سبيل الخطأ، فكان في تقديم ذِكر القتل على الإنجاء منَ الغَمّ، تعظيمٌ للمِنّة[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾:

الإفصاح عن كلامٍ محذوفٍ يُفهَم منَ السّياق، مفيدٌ في البيان

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفاء في قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾؛ لأنّها منبئةٌ عن محذوفٍ يُفهم من سياق القرآن، باستنباط العقل له، وهذا أمرٌ ملحوظٌ في القصص القرآنيّ والتّقدير: (وقتلتَ نفسًا ففزِعتَ وغُمِمتَ؛ فنجّيناك).

دلالة التّعبير بنون العظمة في: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾:

إنجاء الله تعالى حصانةٌ ومَنَعَة على المدى

أُسنِد الفعلُ ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾ إلى ضمير العَظَمة؛ تنبيهًا على عَظَمة ذلك الإنجاء، وعلى هول الموقف الّذي كان منه تنجيتُه عليه السلام؛ "ولِتَقْوِيَةِ قَلْبِه عِنْدَ مُلاقاةِ ما سَيَقَعُ لَهُ مِنْ ذَلِك، مَعَ فِرْعَوْنَ وبَنِي إسْرائِيلَ"[2].

دلالة كاف الخطاب في ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾:

إبرازُ تمامِ المِنّة على موسى عليه السلام، مخاطبةٌ له ليتذكّر

دلّت كافُ الخطاب في قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾ على إبراز تمام المِنّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 220.

(2) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 3/ 433.

منَ اللّه على موسى عليه السلام، حيثُ نجَّاه "مِنْ عُقوبَةٍ لا يَنْجو مِنْ مِثْلِها مِثْلُهُ"(1)؛ لأنّ قتل القبطيّ يقتضي القصاصَ؛ فنجاَّه اللّهُ مِن ذلك.

دلالة ﴿مِنَ﴾:

لطفُ الله مُنْجٍ مِن كلّ أنواع الغَمّ وأحواله

عبّر بـ ﴿مِنَ﴾ الابتدائيّة في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، وهو معناها الّذي لا يكاد يفارقها؛ للدّلالة على أنّ اللّه سبحانه وتعالى نجّى موسى عليه السلام، من مبدأ ما يُقال له (غمّ)، سواءٌ كان قليلًا أو كثيرًا، في الظَّاهر أو في الباطن.

سِرّ التّعبير بالغَمّ عنِ الحزن، في السّياق:

بيانُ شِدّة انقباض قلب موسى عليه السلام؛ لهول ما اقترف

عبّر بـ ﴿ٱلْغَمِّ﴾ عن الحُزن في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾؛ لبيان ما أصابه عليه السلام مِن انقباض قلبه(2)، لما جرى منه ممَّا لم يكن يريده، وهو قتلُ القبطيّ؛ ولصعوبته على النّفس لتَعلُّقِه بالحال والاستقبال، فيظلّ الإنسانُ المغموم على هذه الحالة إلى أن تُزال أسبابُه، كما فعل اللّهُ تعالى مع موسى عليه السلام، فأزال أسبابَه في الدّنيا بخروجه إلى مدين، وفي الآخرة بمغفرة ذنبه، بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: 16]؛ بخلاف الحُزن فإنّه يتعلّق بالماضي.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْغَمِّ﴾:

مَن أحاطه اللهُ بحفظه، نجَّاه مِن كلّ غمٍّ خاصٍّ أو عامّ

(أل) في ﴿ٱلْغَمِّ﴾ للعهد، والمراد: ما أصابه منَ الغمّ بعدما قتل القبطيّ، دونَ أن يقصد إلى ذلك، فقد نجَّاه اللّهُ تعالى مِن انتقام فرعون، والاقتصاص منه، ويجوز أن تكون (أل) للجنس، والمراد: نجاتُه من كلّ أنواع الغُموم، في كلّ أحواله، وهذا ما يتناسب مع سيَّاق الامتنان على موسى عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 220.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 266.

سِرُّ ذِكْر الفتنة بعد التّنجية منَ الغمّ:

ذكر القرآنُ الكريم الفتنةَ في قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾، بعد التّنجية في قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾؛ تمحيصًا لمعنى الإنجاء المذكور، وأنّه كان تخليصًا تامًّا من كلّ خطرٍ مُحدقٍ به، من قِبَل فرعونَ بعدَ قتلِ القبطيّ، فمعنى قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ خلّصناكَ تخليصًا، من قولهم: فتنتُ الذّهبَ منَ الفضّة، إذا أردتَ تخليصَه[1]، ويمكن أن يكون المرادُ لفتَ موسى عليه السلام إلى مجموع ما أنجاه اللّهُ من مِحنٍ، فجمَعَها في هذا اللّفظ بدلَ تعديدِها وتكريرها، فيكون المعنى: (فتنَّاكَ ضروبًا منَ الفتن).

اختصار جميع المحن التّي مرّت بموسى عليه السلام في لفظ (وفَتَنَّاكَ)

وسأل سعيدُ بن جُبير ابنَ عبَّاس رضي الله عنه، فقال: "خلّصناك من محنةٍ بعد محنة؛ وُلِدَ في عامٍ كان يُقتل فيه الولدان، فهذه فتنةٌ يا ابن جُبير، وألقتْهُ أُمُّه في البحر، وهَمَّ فرعونُ بقتله، وقتلَ قبطيًّا، وأَجّرَ نفسَه عشرَ سنين، وضَلّ الطّريق، وتفرّقت غنمُهُ في ليلةٍ مظلمةٍ، وكان يقول - ابن عبَّاس - عند كلّ واحدةٍ: فهذه فتنةٌ يا ابن جُبير"[2].

دلالة عطف ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾:

عطف القرآنُ الكريم قولَه: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾، على قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾، في سياق مِنن اللّه على موسى؛ لأنّه لمَّا كانت شِدّةُ المِحن وتَحَمُّلُها والرّضا بها توجب كثرةَ الثّواب، عدّها القرآنُ الكريم من جملة النّعم، وهذا ما كان من موسى عليه السلام في تحمُّله لهذه المشاقّ، وصبره عليها.

على قَدْر البلاء تكون المثوبة، وعلى قَدْر المَشقّة يكون الأجر

سِرّ التّعبير بالفتنة دون غيرها:

أوثِرَ التّعبير بلفظ الفتنة دون غيره؛ لأنّه منَ الألفاظ الجامعة التي يُغني إطلاقُها عنِ العديد منَ الألفاظ في باب المحنة؛ حيثُ

لفظ الفتنة جامعٌ لكلّ بلاءٍ نازل، وكلّ اختبارٍ حاصل

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 45، والفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 50.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 64.

أُطلقت على كلّ ما يَشُقّ على الإنسان، وكلُّ ما يَبْتلي اللّهُ به عبادَه فتنة؛ لأنّها تُستعمَل في الخير والشّرّ، قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]"[1]، وحياةُ الأنبياء عليهم السلام تدور بينَ الشّدّة والرّخاء، وبجانب هذه الدّلالة الجامعة، فإنّ لفظ الفتنة، يُشير إلى شِدّة المحنة، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3]، فيُشعِر التّعبيرُ بها بعِظَم المِنّة في الإنجاء منها، وبكثرة الثّوابِ لِمَن وقع فيها[2].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿فُتُونٗاۚ﴾:

عبَّر بالمصدر للتّأكيد، وبالتّنكير للتّعظيم

قوله تعالى: ﴿فُتُونٗاۚ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لعامله ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾، والتّنوين فيه للتّنكير الدّالّ على التّعظيم، أي: فُتونًا قويًّا عَظيمًا[3]، ويجوز أن يكون جمعًا على أنّه جمعُ فتنةٍ أو فِتَنٍ، على ترك الاعتداد بالتّاء، والمراد: أنواعٌ منَ الابتلاء؛ أي: خلّصناكَ من محنة بعد محنة؛ حيثُ وُلِدت في عام كان يُقتَل فيه الوِلدان، وألقتْكَ أمُّكَ في البحر، وهمّ فرعونُ بقتلك، وقتلتَ قِبطيًّا...، إلى غير ذلك ممَّا تعرّض له موسى عليه السلام، وخلّصه اللّهُ منه؛ تأهيلًا لنُبوّته عليه السلام[4].

دلالة فنّ الإدماج، والجناس الاشتقاقيّ:

ذِكْرُ الفتون بين تعداد النّعم تذكيرٌ بالألطاف في السّرَّاء والضّرَّاء

ذِكْرُ الفُتونِ بَيْنَ تَعْدادِ المِنَنِ - في الآية الكريمة - إدْماجٌ لِلْإعْلامِ بِأنَّ الله لَم يُهمِلْ دَمَ القِبْطيِّ الَّذي قَتَلَهُ موسَى، فإنَّهُ نَفْسٌ مَعْصومَةُ الدَّم، إذْ لَم يَحْصُلْ منه ما يوجبُ قَتْلَهُ؛ لِأنَّهُم لَم ترِدْ إلَيْهِم دَعْوَةٌ إلَهيَّةٌ حينَئِذٍ، وحينَ أنْجَى اللّه موسَى مِنَ المُؤاخَذَةِ بِدَمِه في شَرْعِ فِرْعَوْنَ، ابتلى موسَى بالخوف والغُرْبَةِ عِتابًا لَهُ على إقْدامِه على قَتْلِ

(1) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 64.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 50.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 220.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 15/ 54.

النَّفْسِ، كَما قالَ في الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القَصَص: 15 - 16][1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾ جناسٌ اشتقاقيّ.

دلالة التّعبير بالفاء، في قوله: ﴿فَلَبِثْتَ﴾:

التّذكير بمشاقّ اللُّبث في مدين، لـولا عـونُ الله وحفظُه

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالفاء دون غيرها في قوله: ﴿فَلَبِثْتَ﴾؛ للدّلالة على كون هذا اللّبث في أهل مدين، مترتّبٌ على ما سبقه، من إنجاء اللّه له، وتخليصِه من محنة قتل القبطيّ[2]، فذِكْرُ "قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، بعد قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾، كالدّلالة على أنّ لُبثه في مدين منَ الفتون، وكذلك كان، فإنّه عليه السلام تحمّل بسبب الفقر والغربة محِنًا كثيرة، واحتاج إلى أن آجرَ نفسَه"[3]، وفي الكَلامِ حَذْفٌ، والتَّقْديرُ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾ (فخَرَجْتَ خائِفًا إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ) ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾[4].

سِرّ التّعبير باللّبث دونَ المُكْث:

الـلّـبـث إقـامـةٌ طويلة وملازمةٌ لـلـمـكـان، كـان فـيـهـا لمـوسى الامتحان

عبّر باللّبث في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾؛ لما فيه من معنى طولِ الملازمة للمكان، وعدمِ التّنقل عنه، يقال: لَبِثَ بالمكان، أي: أقام به ملازمًا له[5]، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14]، أمَّا المُكْث: فهو ثباتٌ مع ترقّبٍ وانتظارٍ[6]، فليس فيه معنى الإقامة الطّويلة المطمئنّة، كما في لفظ (لبث)؛ ويؤكّد ذلك موقفُ الهُدْهُدِ مع سليمان عليه السلام لمَّا غاب عنه مدّةً يسيرة، عبّر القرآنُ عن ذلك، بقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ [النمل: 22]؛ لذلك كان التّعبير مع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 221.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 221.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 50.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 333.
(5) الرَّاغب، المفردات: (لبث).
(6) الرَّاغب، المفردات: (مكث).

موسى عليه السلام باللّبث هو المناسب؛ حيثُ عاش في مَدْيَن عشرَ سنوات، كما يدلّ عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ [القصص: 27]، وبعد مضي الأجل تزوّجَ ابنةَ هذا الرّجلِ الصَّالح، الّذي قيل: إنّه شعيبٌ عليه السلام، وصار له بمدين أهلٌ وإقامة.

دلالة إسناد (لَبِثَ) إلى تاء الخطاب:

اختـيـار مـوسى مـدّة الـلّـبث في مدين، تأهيلٌ له على التّحمّل

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بقوله: ﴿فَلَبِثۡتَ﴾ دون (أَلْبَثْنَاكَ)؛ للإشارة إلى أنّ مدّة اللّبث كانت باختياره عليه السلام، بعد محاورته ومشاورته مع الشّيخ الصَّالح، وتعاهده معه أن يبقى عندَه ثماني حِجَجٍ أو عشرًا، كمهرٍ لزواجه بابنته، ولذلك لم يذكر اللّبث نفسه، على أنّه من جملة النّعم البارزة الّتي امتنّ اللّهُ تعالى عليه بها، وإن كان كذلك، لكنّه لا يَرقَى إلى مصافِّ نعمةِ الإنجاء منَ الغرق في اليمّ، وإلقاءِ محبّةٍ في قلب أعدى أعدائه، ورعايةِ تربيته، ثمّ الإنجاء من مغبَّة قتل القبطيّ، ونحوِ ذاك، وفيه إشارةٌ إلى تأهيل موسى عليه السلام لأمر النّبوّة، وذلك بتدريبه على تحمّل المشاقّ والتّكليفات في مدّة الإقامة مع الرّجل الصَّالح.

سِرّ التّعبير بـ ﴿سِنِينَ﴾، دون (أعوام):

دلّت هذه الفترة المستوفاة، على قـسـوة مـا طـرأ لموسى من أزمات

في التّعبير بلفظ ﴿سِنِينَ﴾ دون أعوام في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ﴾؛ إيماءٌ إلى ما لقيَه موسى عليه السلام من شِدّةٍ وحاجةٍ، طوالَ هذه الفترة الّتي عمل فيها أجيرًا؛ كي يَسدَّ حاجتَه وحاجةَ أهله، وممَّا يؤكّد ذلك استعمالُ القرآن الكريم التّعبير بـ (السّنة) في الدّلالة على الشّدّة والحاجة والصّعوبة في عددٍ منَ الآيات، في مقابل ذكر لفظ (العام) الذي يدلّ على الرّخاء والسّعة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ

﴿لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 47 - 49].

ولمَّا كانت هذه الفترة من حياة موسى عليه السلام قبل اصطفائه للرّسالة، فأحوالُه فيها كانت توصف بالشّدة مقارنةً بما بعدَها من أمر الاصطفاء والتّكليف.

دلالة التّعبير بالظّرفية ﴿فِي﴾:

انخراط موسى عليه السلام مع أهل مدين في حياتهم، ضرورةٌ لعيشه

الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ مرادٌ بها المكان، وعليه: ففي الجملة مجاز مرسل علاقته الحاليّة، حيثُ أَطْلَقَ الحالَّ وأراد المَحلّ، وفيه إشارةٌ إلى عيش موسى عليه السلام وسط القوم وتعامله معهم، وتحمّله لأثر الغُربة الّتي كانت تظهر عليه في المجتمع، وكلّ ذلك من باب التّأهيل والإعداد لأعباء الرّسالة.

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿أَهْلِ﴾ دون (أصحاب):

أهل مدين هم ساكنوها كابرًا عن كابر، وكلّهم أهلون من سلالة مَدْيَن

جاء التّعبير القرآنيّ بقوله تعالى: ﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ دونَ (أَصْحابِ مَدْيَنَ)، نسبةً إليه؛ فهو اسمُ أحدِ أبناء إبراهيم عليه السلام، وقد سكنت ذريّتُه في مواطنَ تسمّى الأيكة، على شاطىء البحر الأحمر، جنوب عقبة أَيْلَة، وغلب اسمُ القبيلة على الأرض، وصار علمًا للمكان، فمن ثمّ أُضيف إليه ﴿أَهْلِ﴾[1].

سِرّ التّعبير بـ﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾:

التّعريض بأهل مدين وطباعهم السّيئة، ملمحٌ مهمّ في هذه القصّة

عبَّر بـ ﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ دون (قوم شعيب)، إشارةً إلى "جميع ما قاساه عليه السلام، من أنواع المتاعب - من أهل مدين الّذين أتعبوا نبيَّهم شعيبًا عليه السلام، فكيف بموسى الغريب - في تضاعيف مدّة اللّبث، وهي فيما قيل: عشر سنين"[2]، وقيل: أكثرُ من ذلك، ففيه تعريضٌ بهم، ودلالةٌ على صبر موسى، وتحمّله طباعهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 221.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 16، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 506.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿ثُمَّ﴾، دون الفاء:

عبّر القرآن الكريم بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالِّ على التّراخي، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ﴾؛ إيذانًا بأنّ مجيئه ﷺ، كان بعد اللَّتيَّا والّتي؛ أي "بعد الكثير من الكلام والجدل"، وما أصابه من ضلال الطّريق، وتفرُّق الغنم في اللّيلة المظلمة الشَّاتية وغير ذلك[1].

كانت الرّحلة إلى المناجاة شاقّة، فناسبها سياق التّرتيب والتّراخي

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿جِئۡتَ﴾:

عبّر بالمَجيء دونَ الحضور، في قوله: ﴿جِئۡتَ﴾؛ لأنّ لفظ المَجيء يحمل معنى القصد[2]، فقد جاء موسى ﷺ، أو جيء به لأمرٍ جَلل، وهو تلقّي الرّسالة، ولأنّ المَجيء فيه مشقّةٌ وصعوبة، وهذا ما حدث لموسى ﷺ في أثناء طريق العودة من مَدْيَن إلى مصر، منَ الوحدة والغربة، وطولِ الطّريق، وتفرّقِ الغنم، ونحو ذلك، بخلاف الحضور، فهو من لوازم المَجيء، ولا يُعبّر به إلّا في موضع المشاهدة والمعاينة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النّساء: 18].

المَجيء يكون عن قصدٍ في مباشرة الفعل وتنفيذه

دلالة تعدّي فعلِ المَجيء بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

عُدّيَ الفعل ﴿جِئۡتَ﴾ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾، الدَّالّ على الاستعلاء المجازيّ بمعنى التّمكّن، حيثُ جعلَ مجيئَه في الوقت الصَّالح للخير، بمنزلة المُسْتَعْلي على ذلك الوقت المتمكّن منه[3].

التّعدّي بحرف الاستعلاء المجازيّ، دالٌّ على التّمكّن في البلاغ

دلالة التّعبير بقوله: ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾:

دلّ قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾، أنّ موسى ﷺ قد جيء به في هذا الوقت وهذا المكان بإرادة اللّه تعالى وتدبيره، قصدًا لتلقّي النّبوّة، فمعنى قولِه: ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾، أي: بميقاتٍ محدودٍ للنّبوّة الّتي قد أرادها

مجيئه ﷺ لميقاتٍ مقدورٍ؛ لتحقيق أمرٍ مقصود

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 16، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 506.
(2) الرَّاغب، المفردات: (جاء).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 222.

اللّه لموسى(1)، فكان مجيئُه ﷺ لميقاتٍ مقدورٍ؛ لتحقيق أمرٍ مقصود، وفيه إشارةٌ إلى أنّ جميع حركات العبد وسعيه، مقدّرَةٌ منَ اللّه.

دلالة ختمِ الآية بمجيء موسى على قدر:

عناية الله تعالى محيطةٌ بموسى في كلّ أحواله ومآله

دلّ ختام الآية بقوله: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾، على أنّ ما حصل لموسى منَ الأحوال، كان مُقدَّرًا منَ اللّه تقديرًا مُحْكمًا، بحيثُ تكون أعمالُه وأحواله قد قدّرَها اللّهُ وحدّدها تحديدًا منظّمًا؛ لأجل اصطفائه وما أراد اللّهُ مِن إرساله، فالقَدَر هنا كنايةٌ عنِ العناية، بتدبير إجراء أحواله على ما يسفر عن عاقبة الخير، فهذا تقديرٌ خاصٌّ، وهو العناية بتدرّج أحوالِه إلى أن بَلَغ الموضعَ الّذي كلّمه اللّه منه.

وليس المرادُ القدرَ العامَّ الّذي قدّره اللّهُ لتكوين جميع الكائنات، فإنّ ذلك لا يُشعر بمزيَّةٍ لموسى ﷺ(2)، ولأجل هذه العناية وذلك التّوفيق الإلهيّ، عُدَّ هذا المَجيء من موسى ﷺ ضمن النِّعَم؛ "لأنّه لولا توفيقُه له، لما تهيّأ شيءٌ مِن ذلك"(3)، ويجوز أن يكون المرادُ تقديرَ اللّه لزمن النّبوّة، ويظهر ذلك في تقدير زمن خروجه من مصر، ثمّ ذهابه إلى مدين وإقامته فيها، إلى أن وصل سنّ الأربعين(4).

دلالة تنوين لفظ ﴿قَدَرٖ﴾:

التّنكير والتّنوين في لفظ ﴿قَدَرٖ﴾؛ للدّلالة على عِظَم الأمر الّذي جاء لأجله موسى ﷺ، وهو النّبوّة.

دلالة تقديم ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾ على النّداء:

الاهتمام والاختصاص مَلمحان لعِلّة التّقديم

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾، على جملة النّداء في قوله:

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 45، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 222.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 50.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 55.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ للاهتمام والاختصاص، وللدّلالة على أنّ كلّ ما حصل لموسى، هو بتقدير الله.

دلالة جملة النّداء في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

نداءُ الله لموسى مُناطٌ بالتّشريف والتّكريم

النّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ تشريفٌ له ﷺ، وتنبيهٌ على انتهاء هذا المشهد في قصّة موسى ﷺ، وهو تفصيلٌ للمرّة الأخرى الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧﴾، وإعلانٌ عن بَدء كلّ مظاهر التّكريم بتكليفه بأمر النّبوّة.

التّشابه اللّفظيّ بين سورة طه والقصص:

تشابه قوله تعالى في سورة طه: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾، مع قوله تعالى في سورة القصص: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [القصص: 12 - 13].

ومواطن التّشابه في السّورتين: توجيه السّؤال التّقريريّ على لسان أُخت موسى ﷺ؛ ففي سورة طه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾، وأمّا في سورة القصص: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ [القصص: 12].

ورود ﴿أَهۡلِ بَيۡتٖ﴾ في القصص، ولم يرد هنا:

فموضع سورة طه، لم يرد فيه قوله تعالى: ﴿أَهۡلِ بَيۡتٖ﴾ [القصص: 12]، وورد في سورة القصص مع الاتفاق على فعل الكفالة، وسببُ ذلك أنّ سياق سورة طه مبنيّ على امتنان الله على موسى ﷺ وتذكيره بذلك؛ فبني الأمرُ على الاختصار؛ بخلاف موضع القصص، فإنّه مبنيٌّ على التّفصيل والبيان؛ لأنّ السّياق فيها مبنيٌّ على مخاطبة

آل فرعون، فيمَن يُرضع موسى، وهذا يقتضي الإعلامَ بأصالة وكرم وعلوّ هذا البيت؛ حتّى يتناسب مع مبعوث آل فرعون، صاحبِ السّيادة والقيادة في مصر.

اتّفاق الموضعين على استعمال لفظ الكفالة

وممَّا يذكر في سِرّ الاتّفاق على الكفالة في الموضعين، دون التّعبير بالرّضاع مثلًا، كأن يكون التّعبير: (يُرْضِعونَهُ)؛ لأنّ التّعبير بالكفالة هو الّذي يؤدّي المعنى المراد، في تحقيق وعد الله لأمّ موسى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: 7]، بخلاف الرّضاع، فلا يؤدّي هذا المقصود.

التّعبير بـ ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ﴾ هنا دون سورة القصص:

ففي سورة طه عبّر بالمشي في قوله: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ﴾، دون التّصريح به في سورة القصص؛ بل أشار إليه بقوله تعالى: ﴿قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: 11]، والقصّ: تتبّع الأثر، ويلزم منه المَشيُ، وهذا هو المناسب لسياق سورة القصص، المبنيّ على الخوف من بطش فرعون؛ أمَّا موضع طه: فكان من باب التّذكير لموسى عليه السلام بامتنان الله عليه؛ ومقامُ المِنّة يناسبه التّصريح.

الفرق بين ﴿أُخۡتُكَ﴾، و﴿لِأُخۡتِهِۦ﴾:

ففي سورة طه عبّر بقوله: ﴿أُخۡتُكَ﴾ بمقام الخطاب، أمَّا في سورة القصص فجاء بصورة الغيبة بقوله: ﴿لِأُخۡتِهِۦ﴾ [القصص: 11]، وكلٌّ منهما مناسبٌ لسياق سورته؛ فمقامُ الامتنان في سورة طه يناسبه الخطاب، ومقامُ الخوف والحَذر في سورة القصص، يناسبه الغيبة.

الفرق بين ﴿فَتَقُولُ﴾، و﴿فَقَالَتۡ﴾:

ففي سورة طه جاء التّعبير بالمضارع: ﴿فَتَقُولُ﴾، أمَّا في سورة القصص فعبّر بالماضي: ﴿فَقَالَتۡ﴾ [القصص: 12]؛ والتّعبير بالمضارع جاء مناسبًا لسياق سورة طه، أمَّا التّعبير بالماضي في سورة القصص؛ فللدّلالة على تحقيق وعدِ الله تعالى لأُمّ موسى.

زيادة ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12] في سورة القصص:

اقتصر كلامُ أُختِ موسى في سورة طه على عبارة: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾، وزيد في سورة القصص قولها: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12]؛ وفيه ما يُعرف ببلاغة التّوجيه، وهوَ: ما يحْتَمَلَ مَعْنَيَيْنِ، ويُؤَتَى به عِنْدَ فِطْنَةِ المُخاطَبِ، وذلك أنّها لما قالت: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12]، احتمل في الضّمير أَنْ يَكونَ لِموسَى ﵇، وأَنْ يَكونَ لِفرْعَوْنَ، قال ابْنُ جُرَيْجٍ: وبِهَذا تَخَلَّصَتْ أُخْتُ موسَى مِنْ قَوْلِهم: (إِنَّكِ عَرَفْتِه)، فقالَتْ: أَرَدْتُ ناصِحونَ لِلْمَلِكِ، واعْتُرِضَ عليْه بِأَنَّ هَذا في لُغَةِ العَرَبِ لا في كلامها المحكيِّ[1]، قال الآلوسيّ: "واحتمال الضّمير لأمرين، ممَّا لا تختصّ به اللّغة العربيّة، بل يكون في جميع اللّغات، على أنّ الفراعنة من بقايا العمالقة، وكانوا يتكلّمون بالعربيّة، فلعلّها كلّمت بلسانهم"[2].

فائدة اتّفاق التّعليل في السّورتين:

اتّفق في السّورتين تعليلُ رجوع موسى إلى أُمّه وردِّه إليها، بقوله سبحانه: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ [طه: 40، القصص: 13]؛ وذلك لأنّ هذا التّعبير أبلغُ في الإعلان عنِ الرّضا والسّرور والسّعادة التي أكرم اللّٰهُ بها أمّ موسى ﵇، وهو أسلوبٌ تستعمله العرب في الدّلالة على ذلك.

اختلاف توجيه الخطاب بينَ الغائب والمُخاطب:

ففي سورة طه قال: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾، بأسلوب الخطاب؛ اتّساقًا مع السّياق سباقًا ولحاقًا، فقد كان خطابًا له ﵇، وباستخدام لفظ (الرّجوع) وهو أخفّ من لفظ (الرّدّ) وألطف، وأنسب للخطاب الرّقيق مع نبيّ اللّٰه موسى من قِبَل ربه، وأوفق للدّلالة على المِنَّة والنّعمة عليه، أمَّا في سورة القصص فقال: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: 13]، بأسلوب الغائب، إذ لم يكن السّياق خطابًا معه ﵇، بل كان إخبارًا عمَّا حدث له، ووقع من إلقائه في اليمّ، ثمّ التقاطه من قِبَل آل فرعون، ثمّ امتناعه عنِ الرّضاع من غير أمّه... إلخ، إلى أن قال سبحانه: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: 13].

(1) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 314.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 260.

التّفريق بينَ الإرجاع والرّدّ بحسب السّياق في السّورتين:

فورودُ كلّ لفظٍ في سياقه؛ لكونه الأنسب للسّياق؛ فالتّعبير بالإرجاع في سورة طه فيه إشفاقٌ وامتنان، وهو الغرضُ المعهود في سياق السّورة، أمَّا في سورة القصص: فقد أُوْثِر التّعبير بالرّدّ؛ لأنّ هذه الآية يتقدّمها حديثٌ وتصويرٌ للخوف على نبيّ اللّه موسى من بطش فرعون، حتّى أنّ القرآن الكريم وصف حالةَ أُمّه بما كانت عليه من الخوف والهلع، بقوله: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ [القصص: 13]، وأيضًا فإنّ ما في سورة طه، جاء في سياق الامتنان على موسى ، أمَّا ما في سورة القصص فجاء في سياق الامتنان على أُمّه، وهو بالنّسبة له كان في حُكم المفقود، فكان التّعبيرُ بالرّد أنسب، ولتحقيق غرضِ إسعادها أوفى.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكفالة والرّعاية:

الرّعاية المراقبة والحِفظ، وهي أعمّ من الكفالة

الكفالة: هي الضّمان، وقيل: الكفالَة تكون بِالنَّفسِ، والضَّمان يكون بالمالِ[1]، أمَّا الرّعاية: فهي المُراقَبَةُ والحِفْظُ[2]، وبهذا تكون الرّعاية أعمّ منَ الكفالة.

الغمّ والهمّ:

الغمُّ انقباضُ القلب منَ الحُزن، والهمُّ انشغالُ الفكر بمكروهٍ أو محبوب

الهمُّ: هوَ الفِكر في إِزالَة المَكْروه، واجتلاب المحبوب، ولَيْسَ هوَ منَ الغمِّ في شَيْء، أَلا ترى أَنَّك تَقول لصاحبك: أهتمُّ بحاجتي، ولا يَصحُّ أَن تَقول: أغتمّ بها، والغَمُّ: معنًى ينقبض القلب مَعَه، ويكون لوُقوع ضَرَرٍ قد كانَ، أَو توَقُّعُ ضَرَرٍ يكون، أَو يتوهّمه[3].

والتّعبير بالغمّ هنا أنسب، لما أصابه من انقباض قلبه، ولما

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 207.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رعى).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 266.

جرى منه ممَّا لم يكن يريده، وهو قتل القبطيّ، ولصعوبته على النّفس[1]، وممَّا يؤكّد ذلك، أنّ الغمّ أشدّ منَ الهمّ في البنية اللّغويّة لكلمة الغَمّ؛ فحرفُ الغين له صفاتٌ تدلّ على شِدّته، منها صفة الاستعلاء والشّدّة، بخلاف الهَمّ، فصفات حروفه لا يوجد فيها ذلك.

الفتنة والابتلاء:

الفتنة أعمّ وأعمق تعبيرًا منَ الابتلاء والاختبار

أصل الفتنة: من عرض الذَّهَب على النَّار لتبيّن صَلاحِه مِن فساده، ومِنْه قَوْله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13]، وتكون الفتنة في الخير والشّر[2]، وهي أشدّ وأعمّ وأعمق تعبيرًا منَ الابتلاء والاختبار، لما فيها من معنى التّمحيص، والابتلاء: هو الاختبار والامتحان، ولا يكون إلّا بتحميل المكاره والمشاقّ[3]، ويدلّ على استعماله في المعنيين قولُه تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35].

والتّعبير بالفتنة في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾، هو الأنسب؛ لما يفيده من معنى التّمحيص والتّخليص، بالتّشديد في المحن، ثمّ الإنجاء منها؛ ليشتدّ عودُ المُنعَم عليه، ويصيرَ صلبًا في تحمّل التّكاليف وأعباء الرّسالة.

اللّبث والمُكث والإقامة:

التّعبير باللّبث، أخصّ دلالةً على الاستقرار، مع طول الزّمن، وبه أوثِر التّعبير

اللّبث طولُ الملازمة للمكان، وعدمُ التّنقّل عنه، يقال: لَبِثَ بالمكان، أي: أقام به ملازمًا له[4]، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14].

والمُكث ثباتٌ مع ترقّبٍ وانتظار[5]، فليس فيه معنى الإقامة الطّويلة المُطمئنّة، كما في لفظ (لبث)، ولذا فالتّعبير بـ (اللّبث)

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخن).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 217.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 216.
(4) الرّاغب، المفردات: (لبث).
(5) الرّاغب، المفردات: (مكث).

أنسب؛ لأنّه عليه السلام قد عاش في مدين عشرَ سنوات أو أكثر، كما يدلّ عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ [القصص: 27].

أمّا لفظ الإقامة فهو أعمّ من كليهما؛ إذ إنّه لا يعبّر عن حدود الزّمن، فيشمل كثيرَ الزّمنِ وقليلَه، وبالتّالي فإنّه لا يدلّ على خصوص ما دلّ عليه لفظ (لبث).

السّنين والأعوام:

لفظ (سنة) يستعمل في معنى الشّدة والجَدب، ولفظ (عام) عكسه

يذكر العلماء أنّ الغالب في استعمال القرآن الكريم للفظ (سنة) هو في الحَول الّذي فيه شِدّةٌ وجَدب، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]، ويُعبّر بالعام عمّا فيه رخاءٌ وخِصب، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49] وبهذا تظهر النّكتةُ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14]، حيثُ عبّر عنِ المستثنى بالعام، وعنِ المستثنى منه بالسّنة[1]، وأوثِرَ في الآية التّعبير بالسّنين في قوله: ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾؛ للدّلالة على أنّها كانت سنوات شِدّةٍ وحاجةٍ بالنسبة لموسى عليه السلام، فقد كان فيها أجيرًا متحمّلًا المشاقّ.

---

(1) السُّيوطيُّ، الإتقان: 2/ 368.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ [طه: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ردُّ العَجُزِ على الصّدر، بينَ الصّنع والاصطناع في الآية وما قبلَها

جاءت هذه الآية تذكيرًا لموسى عليه السلام بقوله: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ [طه: 13]، وتمهيدًا لإرساله ﷺ إلى فرعونَ، مؤيّدًا بأخيه بقوله: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾[1].

ومنها: أنّه لَمَّا عدَّدتِ الآياتُ السَّابقة نِعَم اللّه تعالى على موسى عليه السلام؛ جاءت هذه الآية: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ بمنزلة ردِّ العَجُز على الصَّدر، وهو قوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، وهو تخلّصٌ بديعٌ إلى الغرض المقصود، وهو الخطاب بأعمال الرّسالة المُبتَدأ مِن قوله: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾ [طه: 13]، ومِن قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: 24][2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾: (صنع) أصلٌ، وهو عَمَلُ الشَّيْءِ صُنْعًا، وامرَأَةٌ صَناعٌ ورَجُلٌ صَنَعٌ، إذا كانا حاذِقَيْن فيما يَصْنَعانِه[3]، والصُّنْعُ: إجادَةُ الفِعْلِ، فكُلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ ولَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ صُنْعًا[4]، والصَّنيعةُ: ما أَعْطيتَه وأسديتَه من مَعْروفٍ أو يَدٍ إلَى إنْسانٍ تَصنعُهُ به، وجَمعها صنائع[5]، والاصطِناع: افتِعالٌ مِنَ الصَّنيعة، وهيَ العَطيّةُ والكَرامَةُ والإِحسانُ[6]، وهو أيضًا: المبالغةُ في إصلاح الشَّيْءِ[7]، وقيل: هو اتِّخاذُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 222.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(4) الرَّاغب، المفردات: (صنع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صنع).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (صنع).
(7) الرَّاغب، المفردات: (صنع).

الصَّنيع[1]، والمُرادُ بالِاصْطِناعِ في الآيةِ: صُنْعُ الشَّيْءِ باعْتِناءٍ[2]، أو بمعنى الاستخلاص.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

اصطناع الله لموسى مِن أُسس الإعداد؛ لتحمُّل البلاغ للعباد

معنى الآية: إنّي جعلتُكَ من خواصّي، واصطفيتُكَ برسالاتي وبكلامي، فصرتَ بما آتيتُكَ من كرامة النُّبوَّة، وجليلِ النِّعمة بالمكاملة، أشبهَ بمَن يراه المَلِكُ أهلًا لكرامته، فيُقرّبُه إليه، ويجعلُه مِن خواصّه، ويصطنعُه بالإحسان إليه، في الحين بعد الحين، والفينة بعد الفينة[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾:

الواو استئنافيّة، والجملة بعدَها مستأنفة لا محلّ لها منَ الإعراب[4].

سرّ ختام امتنان الله باصطناع موسى للارسال بالآيات:

تهيئة موسى معجزة؛ لبلاغ ما كلّف به من معجزة

ختم اللّهُ امتنانه على موسى عليه السلام بهذه النّعمة المذكورة في قوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾؛ لأنّها كالغاية والنّتيجة لهذه العناية الخاصّة والتّهيئة المرعيَّة.

بلاغة التّصدير بين ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾، ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾:

من بليغ البيان المشهور، ردّ الأعجاز على الصّدور

قوله سبحانه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾، هو بمنزلة ردّ العَجُز على الصّدر، على قوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[5]، وهذا لونٌ بديعيٌّ يكثر ورودُه في الكلام البليغ؛ لبيان الغرض المقصود مِن ذِكر النّعم، وهو التّهيئة والإعداد لتَحمّل الرّسالة الّتي سبق الحديثُ عنها، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾ [طه: 13].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صنع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 72، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 198، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 112.
(4) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 16/ 257.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.

سِرّ التّعبير بالاصطناع دون الصُّنع:

الاصطناع أبلغُ مِنَ الصّنع، وأوفى بالقصد والغاية

أوثِرَ التّعبير بالاصطناع في قوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾ على الصّنع؛ لأنّه أبلغُ في الإكرام منه، وذلك أنّ الاصطناع افتعالٌ مِنَ الصّنع بمعنى الصّنيعة، أي: جعله سبحانه محلًّا لإكرامه، باختياره وتقريبه منه، وبجعله من خواصّ نفسه[1]، وهذا مأخوذٌ مِن زيادة المبنى في قوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾؛ فأصلُ الكلمة بالتّاء (اصتنع) بعد زيادة الألف والتاء على (صنع)، ثمّ أُبدِلت التّاء طاءً؛ تقريبًا للصّوت مِنَ الصّوت، لأجل حرف الاستعلاء، وهو العين، فصار (اصطنع)[2].

دلالة اللّام في شبه الجملة: ﴿لِنَفۡسِي﴾:

المراد مِنَ المُرسَل أن يُمَحِّض عبوديّتَه لله، لا لأحدٍ سواه

دلّ التّعبير باللّام في قوله: ﴿لِنَفۡسِي﴾، التّي يسمّيها ابنُ عاشور (لامَ الأَجْل)، أي: لأجل نفسي[3]، أي: أجعلك في أوامري، فلا تشتغل إلَّا بما أمرتُك به، وهو إقامة حُجّتي وتبليغ رسالتي، وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك[4].

بلاغة الاستعارة التّمثيليّة:

التّعبيرُ بالمجاز بلاغةٌ راقيةٌ وإيجاز

في قوله سبحانه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ استعارةٌ تمثيليّة، فقد شَبّه الهيئةَ المنتزعةَ من أمورٍ عديدةٍ، وهي جَعْله تعالى لموسى عليه السلام نبيًّا رسولًا مُكرّمًا بأنواع الإحسان، كالعصا واليد البيضاء، وجَعْله كليمًا، بالهيئة الأُخرى مأخوذةً من أشياء كثيرة، وهي شخصٌ مُقرّبٌ للمَلك، وجَعله المَلكُ مقرّبًا عنده، واستخلصه لنفسه؛ فذَكر ما هو موضوعٌ للمشبّه به، وأُريد المشبّه[5]، فالكلام تمثيلٌ لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشّريعة، بهيئة مَن يصطنع شيئًا لفائدة

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 201.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 40، والخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 16/ 257.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.
(4) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 3/ 92.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 174، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 201، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 351.

نفسه، فيصرف فيه غايةَ إتقانِ صنعه[1]، وفي هذا تشريفٌ له عليه السلام من ربّه.

سِرّ العدول عن نون العظمة إلى الإفراد:

التّعبير بضمير الذَّات المفردة، أليَقُ بمعجزة الاصطناع

عبّر في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾ بضمير الذّات المُفردة، وعدلَ عن نون العَظَمة الواقعة في قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾ ونظيريه السَّابقين؛ تمهيدًا لإفراد النّفس اللَّائق بالمقام، فإنّه أدخل في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص، أي: اصطفيتك برسالاتي وبكلامي[2].

سِرّ اختلاف ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾ عن ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾:

الاختلاف في دلالة الألفاظ، علّته مراعاةُ المقصود منها

في قوله سبحانه: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ استُعير لفظُ الصُّنْعُ للتَّرْبيَةِ والتَّنْميَة؛ تَشْبيهًا لِذَلِكَ بِصُنْعِ شَيْءٍ مَصْنوعٍ، ومِنْهُ يُقالُ لِمَنْ أَنْعَمَ عليْه أَحَدٌ نِعْمَةً عَظيمَةً: هوَ صَنيعَةُ فُلانٍ[3]، وأمَّا في قوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ فهو استعارةٌ دالّةٌ على قُرْبِ المنزلة، والاصطفاء من اللّه سبحانه لعبده موسى، اصطفاءً خاصًّا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 507.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 218.

﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٤٢﴾ [طه: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين مرحلة التّربية والتّهيئة، ومرحلةِ البلاغ والتّكاليف

لَمَّا عدّد اللّهُ ﷻ في الآيات السَّابقة المِنن على موسى عليه السلام؛ جاءت هذه الآية بذِكر الأوامرِ والنّواهي إعلانًا ببَدء الرّسالة.

ومنها: أنّه لَمَّا دعا موسى ربّه في الآيات السَّابقة أن يَشُدّ أزرَه بأخيه هارون، واستجاب اللّهُ له؛ أمرَه بعدَ ذلك بأن يُسارع هو وأخوه هارون عليهما السلام بالذّهاب إلى فرعونَ؛ ليبلّغاه ما أمرَهما اللّهُ بتبليغه إيَّاه، فقال: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَنِيَا﴾: (ونى) أَصْلٌ يَدُلُّ على ضَعْفٍ، يقال: ونَى يني ونْيًا ووُنيًّا إذا ضَعُفَ، وقولُك: قد توانى فلانٌ في هذا الأمر، أيْ: قد فتر فيه وضَعُفَ، والواني: الضَّعيفُ[2]، والوَنا: الفَتْرَةُ في الأَعمال والأُمور، والتَّواني والوَنا: ضَعْفُ البَدَن[3]، يُقالُ: أَوْنَيْتُه: أَتْعَبْتُه[4]، والمُراد بالآية: الضَّعفُ والفتور والتَّراخي في الأمر، أي: لا تَنِ أَنْتَ وأَبْلِغْ هارونَ أَنْ لا يَنِيَ[5].

2) ﴿ذِكۡرِي﴾: أصلُ الذِّكْرِ الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[6]، ثُمَّ حُمِلَ عليْه الذِّكْرُ باللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْك على ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذَّالِ، أَيْ لا تَنْسَهُ، والذِّكْرُ: الصّيتُ والثَّناءُ[7]، والذِّكْرُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 289.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ونى)، والزّجَّاج، معاني القرآن: 3/ 357.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ونا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ونى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 106.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).

الصَّلاةُ، وقِراءَة القُرْآن، والتَّسبيحُ، والدُّعاء، والشُّكْرُ، والطَّاعَة[1]، والذِّكْرُ في الآية: يَجوزُ أَن يكون بِمَعْنى التَّذكُّر بِالعَقْلِ، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ الذِّكْرَ بِاللِّسانِ، فإنَّ ذِكرَ اللّه فيه معونةٌ على جميع الأمور، يسهِّلها، ويخفِّف حَملَها[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

ذِكْرُ الله تعالى كما في الآيات، فيه معونةٌ على جميع أمور الحياة

يبيّن اللّهُ تعالى في هذه الآية ما كَلَّف به موسَى وهارونَ عليهما السلام، فيقول: اذهَبْ - يا موسى - أنتَ وأخوكَ هارونُ بأدِلَّتي ومُعجِزاتي الدَّالَّةِ على صِدقِكما، ولا تَضْعُفا عن ذِكري، بل داوما عليه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمَّا قبلها:

كمال الاتّصال أو شبهه، من بليغ البيان وقصده

فُصِلت هذه الآيةُ عن سابقتها؛ إمَّا لأنَّها بيانٌ لقوله تعالى فيما مضى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: 24]، فيكون بينهما كمال الاتّصال، أو هي استئنافٌ بيانيٌّ مسوقٌ لبيان ما هو المقصود بالاصطناع[4]؛ لأنّ قوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾، يُؤذِن بأنّه اختاره وأعدّه لأمر عظيم؛ لأنّ الحكيم لا يتّخذ شيئًا لنفسه إلَّا مُريدًا جَعْلَه مَظهرًا لحِكْمته، فيترَقّبُ المُخاطَب تعيينَها[5]، فيكون بينَ الجملتين شِبهُ كمالِ الاتّصال.

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱذْهَبْ﴾، ودلالتُه:

التّعبير بالذّهاب أنسبُ للسّياق، لإيجاب البلاغ عن الله

إيثارُ التّعبيرِ بالذّهاب دون غيره، مناسبٌ لكون الجملة بيانًا لجملةٍ سابقة، أُمِر فيها بالذّهاب إلى فرعونَ؛ وهي قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: 24]، وأيضًا لما في معنى الذّهاب منَ المُضيِّ في نضارةٍ وبهاءٍ وحُسْنٍ، ومنه سُمّي الذّهبُ ذهبًا[6].

---

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 506.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 72، 73، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 506.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذهب).

والأمر في قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ للوجوب[1]، ويُفهَم منه أن يَذۡكُرا اللّه تعالى بمجرد الأمر بالّذهاب، وليس بعد الوصول، أي: اذكُرا في أيّ جهة تحرَّكتُما وتنقَّلتُما، وهذا يُفهَم من ذِكره بعد الأمر بالذَّهاب، فإنّك إذا قلت: سِر ولا تنسَ، فالمراد في مُدّة مسيرك[2].

دلالة التّعبير بضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾:

تَعيّنُ الضّمير بما ورد به التّنصيص، يرمي إلى التّأكيد والتّخصيص

التّعبير بضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾، دالٌّ على تأكيد كونه مأمورًا بالذّهاب أمرًا متعيَّنًا عليه، وأُفرد لكونه هو وحدَه الّذي خوطب بهذا الأمر؛ لأنّ هارون عليه السلام لم يكن حاضرًا حين كلّم اللّهُ موسى في البقعة المباركة منَ الشّجرة، ومعنى ذلك: أنّه يجب أن يبلّغ أخاه أنّ اللّه أمره بمرافقته[3].

دلالة العطف في قوله: ﴿وَأَخُوكَ﴾:

سِرّ العطف بالواو في قوله: ﴿وَأَخُوكَ﴾، هو أن يكون أخوه مُشاركًا له في الذّهاب إلى فرعون، مُحَمَّلَيۡن برسالة ربّهما إلى فرعون.

سِرّ ذِكر فعل الذّهاب، مع موسى دون هارون:

سياق الخطاب يَذۡكُر مَن حضر، ويطوي من غاب

لم يذكر القرآنُ الكريم فعلَ الذّهاب مع هارون، كما ذكره مع موسى عليه السلام، فلم يقل: (وليذهب أخوك)؛ لأنّ موسى عليه السلام هو المقصودُ بالاصطناع، وهارون لم يكن موجودًا معه وقتَ هذا التّكليفِ في هذا الحوارِ الّذي كان بين موسى عليه السلام وربِّه، على ما يظهر من سياق الآيات.

سِرّ التّعبير بالأُخوّة، دونَ العلميّة أو الوَصْفيّة:

الأُخوّة تُشعِر بالدّفء والشّفقة والمؤازرة

جاء التّعبير القرآنيّ بالأُخوّة في قوله: ﴿وَأَخُوكَ﴾، دون العلميّة (هارون)، أو الوصفيّة (الرّسالة أو النّبوّة)؛ إشعارًا لموسى بوشيجة القُربى الّتي طلبها عليه السلام في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 201.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.

أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا
﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: 29 - 36].

البُروز للدّعوة بصحبة الآيات المعجزة، سندٌ وقوّة

دلالة الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾:

دلّت الباءُ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ على المصاحبة، أي: اذهبا بصحبة آياتي، مُتلَبِّسَين ومُتَمَسِّكَين بها في إجراء أحكام الرّسالة، وإكمالِ أمر الدّعوة، لا مجرّدَ إذهابها وإيصالها فقط[1]، بل مُتَلَبِّسَينِ بها في عرض دعوتِهما على فرعون؛ لأنّهما لو ذهبا إليه بدون آيةٍ معهما لم يلزمه الإيمانُ، وذلك من أقوى الدّلائل على فساد التّقليد[2].

مَن صَحِب آياتِ الله في التّبشير، كان معه منَ الله ظهيرٌ

سِرّ التّعبير بشِبه الجُملة ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾:

عبَّر القرآنُ الكريم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ دون غيرها؛ لأنّها تشمل الأدلّة والحُجَجَ، وهو المناسب هنا في أمر الدّعوة من موسى وأخيه لفرعون؛ لأنّ الغرض منها تطمينُ موسى وأخيه بأنّهما سيكونان مُصاحبَين لآيات اللّه، أي: الدّلائل الّتي تدلّ على صدقهما لدى فرعون[3].

في اليد والعصا معانٍ أثيرةٌ، وبراهين ساطعةٌ منيرةٌ

دلالة ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ على التّعبير عن اليد والعصا:

عبّر القرآن الكريم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ عنِ اليد والعصا؛ لأنهما وإن كانتا اثنتين ففي كلّ واحدةٍ منهما آياتٌ شتَّى؛ فإنّ انقلاب العصا إلى حيّةٍ آيةٌ، وكونها ثعبانًا عظيمًا آيةٌ أخرى، وسرعة حركتِه مع عِظَم جِرمه آيةٌ أخرى، وكذا اليد فإنّ بياضها في نفسه آيةٌ، وشعاعَها آية، ثمّ رجوعَها إلى حالتها الأولى آيةٌ أخرى[4].

غاية الإضافة إلى الضّمير الدّالّ على الله، تأكيدُ عَظَمة آياته وهداه

دلالة الإضافة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾:

الإضافة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ هي إضافة تشريفٍ وتعظيمٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 51.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.

لهذه الآيات، وهي كذلك لأنّها معجزاتٌ باهراتٌ من ربّ الأرض والسّموات.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾:

عطفتِ الواوُ جملةَ ﴿وَلَا تَنِيَا﴾، على جملة ﴿ٱذْهَبْ﴾، وكلاهما طلبٌ، ولذا صحّ الوصل.

سِرّ التّعبير بـ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ دون (ولا تَضْعُفا):

النّهي عن الوني، نهيٌ عن الضّعف وما دونه، وكلاهما مستقبح

أوثِر التّعبيرُ بالنّهي عنِ الوني في قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾؛ لأنّ المعنى: (ولا تفتُرا ولا تضعفا)، يقال: ونى يني ونيًا، أي: ضعُف في العمل، والونَى: التَّعَبُ، يُقالُ: أَوْنَيْتُهُ: أَتْعَبْتُهُ، وامرَأَةٌ وناةٌ، إِذا كانَ فيها فُتورٌ عِنْدَ القيام[1]، ومِن ثَمّ فالنّهي عنِ الوَني، هو نهيٌ عنِ الضّعف وما هو أدنى منه، كالفتور، ولذا أوثِر التّعبيرُ به دونَ التّعبير بالضّعف.

وأيضًا؛ لأنّ الوَني يحمل معنى التّقصير، والمراد هنا النّهيُ عنِ التّقصير في البلاغ عنِ الله؛ لأنّ الذّهاب إلى فرعون الطّاغية ليس أمرًا سهلًا؛ فدواعي الوَني موجودةٌ من ناحية الضّعَفِ أو التّقصير؛ لخوف موسى وهارون من ناحية، وطغيانِ وجبروت فرعون من ناحيةٍ أُخرى؛ لذلك كان التّعبيرُ المناسب لإزالة عوامل الفتور والتّقصير، هو التّعبير بقوله: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾.

سِرّ التّعبير بالتّثنية ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ دون الإفراد:

اشتراك هارون مع موسى في دعوة فرعون، علّةٌ لخطابهما معًا

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالتّثنية في قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ دون الإفراد، كما في قوله: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾؛ لأنّه لمَّا كان موسى ﷺ مأمورًا بأن يبلِّغَ أخاه بأنّه مرسلٌ معه، صحّ النّهي حينَئِذٍ بضمير التّثنية، باعتبار موسى وهارون ﷺ، والمعنى: (لا تَنِ أنتَ، وأبلغ هارونَ أن لا يَنِ)، فصيغةُ النّهي مستعملة في حقيقتها ومجازها[2]، أمَّا الإفراد في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ونى).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 223.

قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾؛ فلأنّ المخاطَب كان واحدًا، وهو موسى عليه السلام، وعُبِّر بالتّثنية من باب التّغليب؛ حيثُ غُلّب الحاضر على غيره؛ فموسى كان حاضرًا، وهارون كان بمصر؛ لذا رويَ أنّه أوحي إلى هارون وهو بمصر، أن يتلقّى موسى عليه السلام، فسمع بإقباله فتلقّاه[1].

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِي﴾:

الاستغراق في ذكر الله يقوّي الرّوح، ويرقّق الفؤاد

دلّ التّعبير بحرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾ على توجيه الرّسولين الكريمين إلى استغراق كلّ أوقاتهما بالذّكر؛ وسوفُ يقوّي ذِكْرُ اللّه فؤادَهما بالاطمئنان، فلا يأبهانِ بفرعون ولا بغيره، فمن يذكرُ اللّهَ ولا يَفْتُر عنه، هو في معيّة اللّه، ومَن كان في معيّة اللّه يَعِشْ مطمئنًا به، ولذا قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿ذِكۡرِي﴾:

استغراقُ الذّكر لكلّ أفراد العبادة، وسيلةٌ للقُرب والتّزكية

أوثِر التّعبيرُ بلفظ ﴿ذِكۡرِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾؛ لأنّ معناه شاملٌ لكل أنواع الذّكر، فيدخل فيه الذّكر باللّسان وبالقلب، وبالطّاعة وعدمِ المعصيّة؛ ولأنّه يقع على جميع العبادات، وهو أجلُّها وأعظمُها، والمعنى: (لا تنسَياني حيثما تقلّبتُما، واستمدَّا من ذِكْري العونَ والتّأييدَ، واعلما أنّ أمرًا منَ الأمور لا يتأتّى ولا يتسنّى إلّا بذِكري فيما أمرتكما ونهيتكما)[2]، والمراد: أن يكون اللّهُ تعالى حاضرًا في كلّ أحوالهما، وألّا ينسيانه لحظةً، فيُقابَلَ النّسيانُ بالتّخلي؛ وهو ما حَذّر اللّهُ عنه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: 19]، وقولِه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التّوبة: 67].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿ذِكۡرِي﴾:

الاصطبار على الذّكر وملازمته مسلكٌ للقُرب، ووسيلةٌ للزّلفى إلى الله

أضاف اللّهُ سبحانه الذّكر إلى نفسه في قوله: ﴿ذِكۡرِي﴾؛ لما له مِن عظيم الأثر في الدّعوة إليه؛ وهو ما حمل موسى وهارون عليهما السلام

(1) الجَمل، حاشية الجمل على الجلالين: 3/ 93.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.

لأن يجعلاه جناحًا يطيران به؛ لأنّ الأمر الّذي وُجّها إليه لا يصلح إلَّا بمداومة الذّكر والاصطبار عليه؛ فهو باب التّرقّي إلى المقامات العالية، والعروجِ إلى مظانّ الزّلفى، ولا يحصل ذلك إلَّا بملازمة الذّكر لله، بما يليق به منَ الصّفات الجليلةِ، والأفعال الجميلة، وذلك عند تبليغِ رسالته والدّعاءِ إليه[1].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 175.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ [طه: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحديد الوجهة الّتي أمر الله موسى وهارون عليهما السلام بالذّهاب إليها

بعد أن أمر اللّهُ تعالى في الآية السَّابقة موسى عليه السلام بأن يذهب هو وأخوه بالآيات التي أيّده اللّهُ بها إلى فرعون، ونهاهما عنِ الفتور والضّعف عن ذكر اللّه تعالى؛ عاد فأمرهما بالذهاب معًا إلى فرعون في قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ تأكيدًا لبلاغ دعوة اللّه لفرعون بمشاركة هارون مع موسى عليهما السلام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾: علمُ جنْسٍ لِمَلِكِ مِصْرَ في القَديم، أَيْ: قَبْلَ أَنْ يَملِكَها اليونانُ، وهوَ اسْمٌ مِنْ لُغَةِ القِبْطِ، نُقِلَ عَنْهُم في كُتُبِ اليَهودِ ثمّ نقل إلَى العَرَبيَّةِ، ولَعَلَّهُ مِمَّا أَدْخَلَهُ الإِسْلامُ، وهَذا الاِسْمُ نَظيرُ (كِسْرَى) لِمَلِكِ مُلوكِ الفُرْسِ القُدَماءِ، و(قَيْصَرَ) لِمَلِكِ الرّومِ، و(نمرود) لِمَلِكِ كَنْعانَ، واسْمُ فِرْعَوْنَ الَّذي أُرْسِلَ موسَى إِلَيْهِ: مِنْفِطاحُ الثَّاني، أَحَدُ مُلوكِ العائِلَةِ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ، مِنَ العائِلاتِ الَّتي مَلَكَتْ مِصْرَ، على تَرْتيبِ المُؤَرِّخينَ مِنَ الإِفْرِنْجِ، وذَلِكَ في سَنَةِ 1491 قَبْلَ ميلادِ المَسيحِ[1].

2) ﴿طَغَىٰ﴾: أَصْلٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهوَ مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[2]، يُقالُ: طَغَى السيلُ، إذا جاءَ بماءٍ كثيرٍ يتَجاوَزَ حدّ ما كانَ يجْري عليْه، وطَغَى البحرُ، إذا هاجَتْ أمواجُه[3]، والطُّغْيانُ: تَجاوُزُ الحَدِّ في التَّعاظُمِ والظُّلْمِ والكُفْرِ، وفِعْلُهُ يائيٌّ وواويٌّ، يُقالُ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 35، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 374.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغي).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طغي).

طَغيَ يَطْغَى كَرَضيَ، وطَغا يَطْغو كَدَعا[1]، والطَّاغيةُ: الجبَّارُ العَنيد، والهاءُ للمُبالَغَة[2]، والطَّاغوتُ عبارةٌ عن كُلِّ مُتَعَدٍّ، وكُلِّ مَعبودٍ مِنْ دونِ اللّه تعالى[3]، والمقصودُ بالطُّغيانِ في الآية: مُبالَغَةٌ في الطَّغْي، وهو الإفراطُ في التَّمادي والغَيِّ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمر بالذّهاب لدعوة فرعون، الّذي تجاوز الحدَّ في طغيانه وتألّهه

يأمر اللّهُ تعالى موسى وهارون في هذه الآية بأن يتوجَّها إلى فرعون، بقوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ لتُبلِّغاه دعوتي، ولتأمراه بعبادتي، فإنَّه قد طَغى وتجاوَزَ الحَدَّ في الكفرِ والعِصيان، والتكَبُّرِ والعُدوان، وأفسَد في الأرض، وقال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النَّازعات: 24]، وقال لهم أيضًا: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38][4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمَّا قبلها:

من بلاغة المقال، ما يتيحُه السّياقُ من كمال الاتّصال

فُصِلت هذه الآيةُ عمَّا قبلها؛ لأنَّ الأنسب للسّياق أن تكون جملة ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ بدلًا من جملة ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ - وهو مسوّغ الفصل - والغرض تأكيد نفسِ الذّهاب؛ لأنّه لشِدّة الخطر لا يكاد طبع البشر يتحقّق في تنفيذ الأمر وتحقيقه، حتَّى يُعادَ فيتأكّد، فقال: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾[5].

دلالة التّثنية في قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ﴾:

المشاركة في أمر الدّعوة - بغاية التّعاون والتّكامل - مفيدة

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالتّثنية في قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ﴾، مع أنّه جاء بالإفراد في قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ في الآية السَّابقة؛ لكون المخاطَب فيها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 314.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (طغي).
(3) الرَّاغب، المفردات: (طغي).
(4) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 695، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 294، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 506، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 107.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 290، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 224.

هو موسى ﷺ وحدَه، وأمَّا هارون ﷺ فقد كان غائبًا في هذا التّكليف، وأمَّا التّثنية في قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ﴾ فهو أمرٌ لموسى بأن يذهب، وأن يأمر أخاه بالذّهاب معه وهارون غائب(1)، وقيل: جمعهما في صيغة أمر المخاطب الحاضر ﴿ٱذۡهَبَآ﴾ مع غيبة هارون للتّغليب للحاضر(2)؛ وهو موسى ﷺ، أو أنّ التّغليب له ﷺ لكونه الأصل في أداء الرّسالة(3).

دلالة تعدية فعل الذّهاب بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

فرعون مقصود موسى وهارون ﷺ في الذّهاب

تعدّى الفعل ﴿ٱذۡهَبَآ﴾ بحرف ﴿إِلَىٰ﴾ دون غيره؛ لأنّ ﴿إِلَىٰ﴾ موضوعٌ لانتهاء الغاية، وهذا هو المراد منَ التّعبير في قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ﴾؛ لبيان أنّ فرعون هو الغاية المقصودة في هذا الذّهاب.

سِرّ توجيه الذّهاب إلى فرعون:

تحقير فرعون والتّهوين من شأنه، بسبب طغيانه وكفره

النَّاظر في هذه الآية، يجد التّصريح بذكر المذهوب إليه ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾؛ بخلاف الآية السَّابقة، فلم يصرّح فيها بذكر فرعون، قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾؛ وسبب ذلك: أنّ الأمر بالذّهاب في قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ كان متّجهًا إلى ما يصحب الذّهاب، وهو الآيات والتزام الذّكر، أمَّا الذّهاب في آية: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، فمقصودٌ منه بيان الغاية، وهي فرعون لدعوته وتذكيره، وتحذيره منَ الطّغيان في ادّعائه الألوهيّة والرّبوبيّة، وقيل: ذكرَ المذهوبَ إليه في قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، وحذَفه في الأوّلِ في قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾؛ اختصارًا في الكلام(4)، ولدلالة السّياق عليه قبلَ ذلك، وقيلَ: الأَوَّلُ: أَمرٌ لِموسَى بِالذِّهابِ إِلَى كُلِّ النَّاسِ، والثَّاني: أَمرٌ لَهُما بِالذِّهابِ إِلَى فِرْعَوْنَ(5)، والملاحظ أنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 224.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 433.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 42.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 433.

النّظم القرآنيّ في الآيتين حذفَ مِن كلٍّ مِنَ الذّاهبين ما أثبتَه في الآخر، وذلك أنّه حذف المذهوب إليه منَ الأوّل ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، وأثبتَه في الثَّاني، وحذفَ المَذهوبَ به، وهو ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ من الثّاني وأثبته في الأوّل، وهذا مِن براعة الإيجاز القرآنيّ(1).

دلالة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾:

حمل الآية على الاستئناف البيانيّ، من جميل الأسلوب القرآنيّ

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ عن قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ لكونها جملةً معلِّلةً للذّهاب، على تقدير سؤال: لماذا الذّهاب إلى فرعون، فكان الجواب لأنّه ﴿طَغَىٰ﴾، والغرض من ذلك: أن يُكَفّ عن هذا الطّغيان في حقّ نفسه، بعدم دعوى الأُلوهيّة والرّبوبية؛ لأنّه مخلوق، وفي حقّ بني إسرائيل: بعدم ذَبْح ذكورِهم واستحياءِ نسائهم.

دلالة التّأكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

تحفيز موسى وهارون عليهما السلام إلى الذّهاب لفرعون

الجملة مؤكِّدة لكون فرعون قد طغى، وليس في أمر طغيانه مِن شكّ، لكن جاءت الجملة التّعليليّة مستهلّةً بالتّأكيد بـ (إنّ)؛ تنزيلًا للمخاطَب منزلةَ الشّاكّ ليُؤكّد، وليكونَ دافعًا وحافزًا لهما للتّشبّث بالذّهاب.

دلالة التّعبير بالطّغيان دون غيره:

فرعون عنوان للطّغيان، لزَعْمِه الألوهيّة وذلك أعظَمُ البهتان

عبَّر القرآنُ الكريم بالطّغيان عن فرعون في قوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، دون غيره كالعلوّ والاستكبار مع وجودهما فيه؛ لأنّ الطّغيان هو مجاوزة الحَدّ، وأي مجاوزةٍ أقبحُ ممَّا فعلَه فرعونُ بادّعائه الأُلوهيّة والرّبوبيّة، فقال فيما حكاه القرآن: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: 24].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿طَغَىٰ﴾:

عبَّر القرآن الكريم عن طغيان فرعون، بالفعل الماضي ﴿طَغَىٰ﴾

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 42.

رسوخ صفة الطّغيان في فرعون، أمرٌ يقرّه الوحيّ، ويؤيّده التّاريخ

للدّلالة على تحقّق وقوع الطّغيان منه، ورسوخ ذلك فيه، حتّى صار الطّغيان عنوانًا له يُعْرَف به.

دلالة رسم الفعل ﴿طَغَىٰ﴾ بصورة الياء:

لرسم المصحف لمحاتٌ بلاغيّة، تجسّدُ البيانَ المعجز

النَّاظر في رسم المصحف للفعل ﴿طَغَىٰ﴾، يجد في آخره ألفًا ممالةً، أي: بصورة الياء؛ للإشارة إلى أنّه من (طغي) مثل (رضي)، لأنّه يجوز فيه الواو أيضًا، فيقال: يطغو مثل يدعو[1]، وهذا التّعليل غير كافٍ؛ لتَعدُّد صورةِ رسم الفعل ﴿طَغَىٰ﴾ في القرآن الكريم، حيثُ جاء الرّسم في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النّجم: 17]؛ بخلاف موضع سورة الحاقة فجاء رسمُه مختلفًا، حيثُ كُتِب بألف ليست على صورة الياء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: 11]؛ فالملاحظ اختلاف رسم الفعل ﴿طَغَا﴾ [الحاقة: 11] عن موضع طه والنّجم دون سببٍ لغويٍّ أو صرفيٍّ؛ ولعلّ السّياق يفسّر ذلك؛ لأنّ ما ورد في سورة الحاقّة يتعلّق بالطّغيان الماديّ المحسوس للماء؛ فهو ظاهر؛ لذلك كُتِب بالألف الظّاهرة؛ بِخِلاف الطّغيان في المواضع الأخرى، فهو معنويّ كطغيان فرعون، وأيضًا ما ورد في سورة النّجم في نفي طغيان البصر؛ فهو أمرٌ معنويّ، بأنّه في رحلة المعراج، وهي غيبيَّةٌ لا تخضع للحسّ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطّغيان والعُتوّ:

الطّغيان أقوى مِنَ العُتوّ، وكلاهما مِنَ الألفاظ القرآنيّة المستعملة

النَّاظر في معاجم اللّغة العربيّة، لا يجد فروقًا دلاليّةً بينهما؛ لكنّ الاستعمال القرآنيّ أوجد فروقًا بينهما، فالطّغيان: مجاوزة الحدّ في المكروه والعصيان، والعُتوّ أدنى منه؛ فهو يعني المبالغة في المكروه، وهو دون المجاوزة؛ يؤكّد ذلك ما قاله العسكريّ في الفرق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 225.

بينهما: إنّ الطغيان مُجاوزَة الحدّ في المَكْروه مَعَ غَلَبَةٍ وقهرٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُقال: طغا الماء إذا جاوز الحدّ في الظُّلم، والعتوُّ: المُبالغَة في المكروه، فهوَ دون الطّغيان، ومِنْه قَوْله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]، قالوا: كلّ مبالغ في كبْرٍ أو كفرٍ أو فسادٍ، فقد عتا فيه، ومِنْه قَوْله تعالَى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقّة: 6] أي: مُبالغَة في الشدَّة، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطّلاق: 8]، يَعْني: أَهلها تكبروا على رَبّهم فلم يطيعوه(1)، وعلى هذا، فالتّعبير بالطّغيان أنسب منَ التّعبير بالعتوّ؛ لأنّ فرعون جاوز كلّ الحدود بادّعاء الأُلوهيّة، وانتحال الرّبوبيّة.

❁ المُتَشابِهُ اللَّفْظِيُّ:

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين موضعي سورة طه، والنّازعات:

خطاب المُثنّى لموسى وأخيه، والإفراد لموسى كونه حاضرًا، أو على التّغليب

تشابهت هذه الآية: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، بخطاب التّثنية، مع قوله تعالى في نفس السّورة قبل ذلك: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: 24] بالإفراد، وفي سورة النّازعات ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النّازعات: 17] بالإفراد كذلك، وقدِ اتّفقت هذه الآيات في كلّ التّركيب إلّا في تثنية الخطاب في الآية الّتي معنا، فأمَّا خطاب الإفراد فمُرادٌ به موسى عليه السلام؛ إمَّا لكونه الحاضر، بينما كان هارون عليه السلام غائبًا عنِ الخطاب، وإمَّا لكون موسى عليه السلام هو الأصل في الرّسالة، فكان ذِكرُه بخطاب الإفراد تغليبًا(2)، وأمَّا خطاب التّثنية: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، فالمراد به كلاهما؛ موسى عليه السلام باعتباره المخاطَب حقيقةً، وهارون عليه السلام باعتباره مُبلِّغًا من أخيه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 230.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 433.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين الذّهاب إلى فرعون، وإلانة القول له، عساه يخشى ويرعوي

لَمَّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقة الأمرَ لموسى وهارون عليهما السلام، بالذّهاب إلى فرعون، بسبب طغيانه، لدعوته إلى ترك طغيانه، وإرسال بني إسرائيل معهما؛ جاءت هذه الآيةُ آمرةً إيَّاهما بالتّرفّق في دعوته، وأن يتحلّيا بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّيِّنٗا﴾: أصلُ اللّين يدلُّ على السُّهولَةِ واليُسْرِ، كَقَوْلِك: طَريقٌ لَيِّنٌ، أي: سَهْلٌ، وأَصلُ اللُّيونَةِ: الرِّقَّةُ، وضِدُّها الخُشونَةُ، يُقالُ: لانَ الشَّيْءُ يَلينُ لُيونَةً، أي: رَقَّ، ومِنْ مَعاني اللّينِ أَيْضًا: الرِّفْقُ واللُّطْفُ[1]، والقَوْلُ اللَّيِّنُ: الكَلامُ الدَّالُّ على مَعاني التَّرْغيبِ والعَرْضِ واسْتِدْعاءِ الامتِثالِ، بِأَنْ يُظْهِرَ الْمُتَكَلِّمُ لِلْمُخاطَبِ أَنَّ لَهُ مِنْ سَدادِ الرَّأْيِ ما يَتَقَبَّلُ به الحَقَّ، ويُمَيِّزُ به بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، مَعَ تَجَنُّبِ أَنْ يَشْتَمِلَ الكَلامُ على تَسْفيه رَأْيِ المُخاطَبِ أَوْ تَجْهيلِه.

2) ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: أصلُ الذِّكْرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيانِ[2]، ثُمَّ حُمِلَ عليْه الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأَظهرته، والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّالِ - بِالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي على ذُكْرٍ، أي: لَم أَنْسَه[3]، والتَّذكِرَةُ: ما تُسْتَذْكَرُ بِه الحاجَةُ، واسْتَذْكَرَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لين)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 293.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(3) الشّيبانيّ، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).

الشَّيءَ: دَرَسَهَ للذِّكرِ، والاستِذكارُ: الدِّراسَةُ لِلحِفظِ، والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيتَه[1]، وحقيقةُ التَّذَكُّرِ في الآية: مِنَ الذُّكرِ - بِضَمِّ الذَّالِ - أَي: النَّظَرِ، أَيْ: لَعَلَّهُ يَنْظُرُ نَظَرَ المُتَبَصِّرِ، فيَعْرِفُ الحَقَّ أَوْ يَخْشَى حُلولَ العِقابِ بِه، فيُطيعُ عَنْ خَشْيَةٍ لا عَنْ تَبَصُّرٍ، فالتَّذَكُّر: أَنْ يَعرِفَ أَنَّهُ على الباطِلِ[2].

3) ﴿يَخۡشَىٰ﴾: (خشي) أَصلٌ يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعرٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه المَجازُ، فالخَشْيَةُ الخَوْفُ[3]، يُقالُ: خَشيَهُ، يَخْشاهُ، خَشيًا وخَشْيَةً، أي: خافَهُ وذُعِرَ مِنْهُ، وقيلَ: الخَشْيَةُ خوفٌ مع تعظيم، وأكثر ما يكونُ ذلك عَن عِلْم بما يَخافُ مِنْهُ[4]، ويُقالُ هذا المَكانُ أَخْشَى مِنْ ذلكَ، أَي: أَشَدُّ خَوْفًا، وتأتي الخَشْيَةُ بمعنى تألُّم القَلْبِ بسبب توقُّع مكروهٍ في المُستَقبَلِ[5].

المَعْنى الإجماليُّ:

الأمر بالدّعوة بالقول اللّيّن؛ لتلين قلوبُ العُصاة، وتنكسرَ سَورة الطُّغاة

يرشد الحقُّ سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما السلام، في هذه الآية إلى الطَّريقة الَّتي ينبغي لهما أن يسلكاها في مخاطبة فرعون، فيقول تعالى لهما: فقولا له عندَ دعوته إلى الله، قولًا رقيقًا لطيفًا، لا غِلظةَ فيه، ولا تنفيرَ، اذهَبا إلى فِرعَونَ وأنتما تَرجوانِ بقَولِكما اللَّيِّنِ أن يتذكَّرَ ما هو غافِلٌ عنه، مِنَ التَّوحيدِ الموافِقِ لِما في فطرتِه، مِنَ العِلْمِ الَّذي يَعرِفُ به رَبَّه، ويَعرِفُ إنعامَه عليه، وإحسانَه إليه، وافتقارَه إليه، فيَدعوَه ذلك إلى الإيمانِ باللهِ، والرُّجوعِ عن ضلالِه؛ أو يخشى حُلولَ العَذابِ، فيَترُكَ طغيانَه، ويُطيعَ ربَّه.

---

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 226.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خشي).

(5) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 155.

وهذا القولُ اللَّيّن جاء ما يُفسّره في آياتٍ أُخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النَّازعات: 18 - 19]، فقدِ اشتملت هذه الآياتُ الكريمة على ألطف أساليب المُخاطبة، وأرقِّها وألينِها وأحكمِها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَقُولَا﴾:

فقه الدّعوة يقتضي ترتيبَ الأسباب مع النّتائج

الفاء عاطفةٌ لهذه الجملة على سابقتها، عطفًا مترتّبًا عليها، فـ"الفاء لترتيب ما بعدَها على طغيانه، فإنّ تليين القول ممَّا يكسر سَوْرَة عنادِ العُتاة، ويُلين قسوةَ الطّغاة، ويُعلَم مِن ذلك أنّ الأمر بإلانة القول"[2] أسلوبُ الدّعوة الأمثل، ويجوز أن يكون الأمر بإلانة القول مراعاةً لحَقّ تربيته لموسى، والقرآنُ يحترم فعل المعروف، ولو كان مِنَ الكافر[3].

سِرّ التّعبير بالقول اللّين:

الدّعوة بالقول اللّين أوْلى مراتب بلاغ الدّعوة

عبّر القرآن الكريم بالقول اللّين في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ لأنّ القول اللّين أسلوبٌ من أساليب الدّعوة، لقوّة تأثيره في المَدعو، وهو أوّل ما يُبتَدَأُ به من أساليبها، فهو شأن الدّعاة في مخاطبة الطّغاة، وفي هذه المرحلة كان المطلوب منَ الرّسولين الكريمين عليهما السلام، أن يُكثّفا جهدَهما في ترقيق قلب فرعون بالقول اللّين المُؤثّر، فإنْ حصل المقصود انتقلا إلى ما بعدَه، منَ الخطاب بالتّكاليف ونحوِها، ومخاطبةُ فرعون تختلف عن مخاطبة غيره؛ لذلك كان منهج القرآن في توجيه موسى وهارون إلى كيفية مخاطبته، وذلك بالقول الليِّن، وهو "الكلام الدَّالُّ على معاني التّرغيب والعرض

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 74، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 695، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 294، 295، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 506.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 508.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 176.

واستدعاء الأمثال، بأن يُظْهر المُتكلّم للمخاطَب أنّ له من سداد الرّأي ما يتقبّل به الحَقّ، ويُميّز به بينَ الحقّ والباطل، مع تجنّب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله"(1)، وهذه المعاني القولُ اللّيّن أجمعُ لها منَ القول الحسن والقول المعروف.

القول اللّيّن أوقع في الأسماع، وأقوى في الإقناع

دلالة التّنكير في: ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾:

نُكِّرَ ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾؛ لإفادة شيوعه وعمومه في خطابهم مع فرعون؛ ليكونَ أدعى لسماعه، وأميلَ لقلبه، ولإعطاء مساحةٍ أوسعَ في اختيار الألفاظ الّتي تحمل سماحة اللّين، ورِقّة القول.

القول اللّيّن في الدّعوة والتّبشير، منهجٌ قرآنيٌّ أثير

بلاغة التّعبير بالقول اللّيّن في دعوة فرعون والطّغاة:

لا شكّ أنّ القول اللّيّن الّذي أمر اللّهُ به موسى وهارون في دعوة فرعون، منهجٌ قرآنيٌّ فريدٌ، ينفذ إلى القلب، ويحقّق المرادَ والمقصود؛ لأنّ النّفوس تقبله وتميل إليه، لذا حثّ القرآنُ الكريمُ عليه، وجعله من شعار الدّعوة إلى الحقّ، وصفةَ مدحٍ لسيّد الدّعاة ﷺ، في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159]، وقد بيّنَ اللّهُ تعالى المراد بالقول اللّيّن في دعوة موسى لفرعون، في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النّازعات: 18 - 19]؛ حيثُ جاءت في صورة عرضٍ ومشورةٍ، وليس في صورة أمرٍ ونهيٍ؛ حذرًا من أن يحمله ذلك على الحماقة؛ فيسطو عليهما تجبّرًا وعنادًا، وهذا يخالف المراد، إذ المقصود من دعوة الرّسل حصول الاهتداء، لا إظهارُ العَظَمة، وغِلْظَة القول بدون جدوى(2).

إبراز المعاني المعقولة في صورة محسوسة

بلاغة المجاز في القول اللّين:

تظهر بلاغةُ المجاز في الاستعارة، في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾، وذلك أنّه شبّه الكلامَ المشتملَ على المعاني الحسنة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 225.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 225.

بالشّيء اللّين، الّذي هو حقيقةٌ من صفات الأجسام، واستعاره تعبيرًا عنِ القول المُؤثّر في الدّعوة، كما أنّ اللّين يستعار لسهولة المعاملة، والصّفح، ومنه قول عمرو بن كُلثوم[1]:

فَإِنَّ قَناتَنا يا عَمرو أَعيَت***على الأَعداءِ قَبلَكَ أَنْ تَلينا

دلالة التّرجّي في قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾:

التّرجّي مُعتبر فيه الحال؛ للاجتهاد في دعوة فرعون بلين

التّرجّي المُستفاد من ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ راجع إلى موسى وهارون عليهما السلام، لا إلى الله تعالى؛ لأنّه يعلمُ ما كان وما سيكون، فلا معنى للرّجاء الّذي يتبادر إلى الذّهن، فإنّه مستحيلٌ في حقّه تعالى، والمعنى: (اذهبا على رجائكما وطمعِكما، وباشرا الأمرَ - بجدٍّ واهتمام - مباشرةَ مَن يَرجو ويطمع أن يُثمر عملُه، ولا يخيبَ سعيه، فهو يجتهد بطَوقه، ويحتشد بأقصى وسعه)[2]، فيكون التعبير بـ (لعلّ) المفيدة للرّجاء ليجتهدا ويجدَّا فيه، لأنّه شأن الرَّاجي، بخلاف مَن أيس من شيءٍ، فإنّه لا يَجِدُّ فيه ولا يُباشِره مباشرةً نابعةً عن صميم قلب[3].

ويجوز أن يكون التّعبير بالرّجاء؛ إعلامًا لموسى وفرعون بأن يرجوا ذلك، فكان النّطق بحرف التّرجي على لسانهما، كما تقول للشّخص إذا أشرت عليه بشيء: فلعلّه يصادِفُك تيسير، وأنت لا تريد أنّك ترجو ذلك، ولكن بطلب رجاء منَ المخاطَب.

ويجوز أن تكون ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ بمعنى (كي)، ويكون المعنى: (اذهبا إلى فرعون إنّه طغى، فادعواه وعِظاه؛ ليتذكّر أو يخشى)[4].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾:

دعوة فرعون لإعمال عقله، فيما يدعوانه إليه

دلّ التّعبير بالتّذكّر في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾، على دعوة فرعون لإعمال عقله في دعوتهما وما معهما من آيات؛ لأنّ التّذكّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 225.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 176، 177.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 202.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 168.

هنا يكون بمعنى النَّظَر فيما بَلَّغاهُ مِنَ الذِّكْرِ، حَتَّى يَكونَ ذَلِكَ سَبَبًا في الإِجابَةِ[1].

سرّ التّعبير بالفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾:

الإظهار للدّلالة على البيان والوضوح، في دعوة موسى وهارون لفرعون

عبَّر بالفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ على الأصل؛ لأنّ الأصل فيه الإظهار، وقد يأتي مُدغمًا (يَذَّكر)، وقد ورد ذلك في آياتٍ كثيرة، لكنّ القرآن آثَرَ التّعبير بالإظهار هنا ليدلّ على البيان والوضوح في دعوة موسى وهارون لفرعون، وهو أن يتذكّر حقيقةَ أمره، وأنّه مخلوقٌ من ماءٍ مهين، فكيف يدّعي الأُلوهيّة والرّبوبيّة؟!.

سِرّ التّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾:

من جمال الاستعمال، أنّ (أو) لا تكون للتّنويع، بل لمنع الخلوّ

عُبِّرَ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ لمنع الخُلوّ[2]، أي: ليكن رجاؤكما وطمعُكما في دعوته، مؤمِّلًا في حصول التّذكّر أو الخشية، إن لم يكن كِلَيهما.

دلالة التّعبير بالخشية دون الخوف:

الخشية أعظم منَ الخوف، واستعمالُها أدقُّ وأمكن

آثَر القرآن الكريم التّعبيرَ بالخشية دون الخوفِ في قوله: ﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾؛ لأنّها أبلغُ منَ الخوف؛ فهي خوفٌ مع تعظيم للمخشيّ، والتّعبيرُ بها أقوى منَ التّعبير بالخوف، ولذا يُعبّر بها غالبًا في حقّ اللّه تعالى، فهو أحقّ أن يُخشى منه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: 37]، وهذا هو المناسب في هذا السّياق في موقف فرعون من دعوة موسى وهارون له؛ لأنّ أمر الخوف هنا غيرُ واردٍ في حقّ فرعون؛ لطغيانه.

دلالة التّعبير بالمضارع:

تكرير الدّعوة وتلوين الخطاب للمدعوّ، منهجٌ قرآنيٌّ أصيل

دلّ التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ على تجدّد الدّعوة في القول والأسلوب منَ الدّاعي؛ رغبةً في حصول

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 433.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18.

المطلوب منَ المَدعوّ، وفيه حثٌّ لموسى وهارون على الاجتهاد، حتّى يقوما بواجبهما تجاه ما كُلِّفا به، ولا يقطعا الأملَ في حصول أيٍّ منَ التّذكّر أو الخشية، وذلك من باب إلزام الحُجّة، وقطع المعذرة مع علمهما بأنّ فرعون لن يؤمن.

دلالة الجمع بين التّذكّر والخشية:

التّذكُّر طريقٌ إلى حصول الخشية

جمع القرآنُ الكريم بينَ التّذكّر والخشية في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾؛ لما للتّذكّر من أثرٍ في حصول الخشية، فإنّه إذا ما عَرَض كلامَ الرّسولَين على قلبه وعقله، فالمؤمَّلُ أن يقوده ذلك إلى الخشية، وقد تحصُل له هذه الخشية مباشرةً؛ ارتقاءً إليها إن لامس كلامُكما شغافَ قلبه، فاستنارت بصيرتُه، وقد تذكّر فرعونُ حين أدركَه الغرقُ وخشي الهلاك؛ وهو ما أخبر به تعالى بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: 90]، ولكن هذا التّذكّر جاء في غير وقته، فردّه اللهُ عليه وقال له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس: 91].

سِرّ تقديم التّذكر على الخشية:

الرّاسخ يتذكّر ويتّعظ، والمتوهّم يخشى ويخاف

قدّم القرآنُ الكريم التّذكّرَ على الخشية في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، مع أنّهما داعيان إلى الإيمان، إلَّا أنّ التّذكّر من سمات الرّاسخين المُتحقّقين صدقَ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فلذلك قُدّم، وأمَّا الخشية فلمَن يتوهّم ذلك، والمعنى: (باشراه على رجاء تحقّق فرعونَ صدقَكما، فيتذكّر ويتّعظ، أو يتوهّمه فيخشى)[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

اللّيِّنُ والسّهل:

السّهل ضدّ الصّعب والحَزْن، يقال: طريقٌ سهلٌ، أي: ليس صعبًا،

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 203.

ولذلك قيل: الصّراط: هو الطّريق السّهل[1]، واللّينُ: ضدّ الخشونة، ويُستعمل ذلك في الأجسام، ثمّ يستعار للخلُق وغيره منَ المعاني، فيقال: فلانٌ لَيِّنٌ، وفلانٌ خَشِنٌ، وكلّ واحدٍ منهما يُمدَح به طورًا، ويُذَمّ به طورًا، بحسب اختلاف المواقع[2]، ومن المواضع التي يُمدَح فيها باللّين قولُه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159]، وقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾، فهو إطلاقٌ مجازيّ على القول الرّقيق الرّفيق المُؤثّر، ووصفُ القولِ المُؤثّر باللّيِّن أولى مِن وصفه بالسّهل؛ لأنّ السّهولة منَ التّساهل والتّغاضي عنِ المُهمَّات، وليس في القول اللّيِّن تغاضٍ، ولكنّه رفقٌ في القول.

السّهولة قد تفضي إلى التّغاضي عنِ المُهمَّات، بخلاف اللّين فلا تغاضيَ فيه

التّذكّر والاعتبار:

الاعتبار من قولك: اعْتَبَرْتُ الشَّيْءَ، فكَأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَى الشَّيْءِ فجَعَلْتَ ما يَعْنيكَ عِبرًا لِذاكَ: فتَساوَيا عِنْدَكَ، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر: 2]، كَأَنَّهُ قالَ: انْظُروا إِلَى مَنْ فعل ما فعل، فعوقِبَ بما عوقِبَ به، فتَجَنَّبوا مِثْلَ صَنيعِهِم؛ لِئَلَّا يَنْزِلَ بِكُم مِثْلُ ما نَزَلَ بأولَئِكَ[3]، وقيل: هوَ مَأْخوذٌ مِنَ العبور والمجاوزة من شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، ولِهَذا سُمّيت العِبْرَةُ عِبْرَةً، والمَعْبَرُ معبرًا، واللّفْظُ عبارَةً، قال المُفَسِّرونَ: الاعْتِبار: هوَ النّظر في حقائق الأَشْياء، وجهات دلالتها؛ ليُعْرَف بِالنّظرِ فيها شَيْءٌ آخرُ من جِنْسها، وقيل: الاعْتِبار: هوَ التّدبّر، وقياس ما غابَ على ما ظهر[4].

التّذكّر استرجاعُ ما كان مستقرًّا في الوعي، والاعتبار عبرةٌ من خلال النّظر

والتَّذَكُّر: محاولةُ النَّفسِ استرجاعَ ما زالَ مِنَ المعلومات[5]، التي كانت موجودةً في وعي المُتذكِّر، وعلى ذلك: فإنّ التّعبير بالتّذكّر

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 298.
(2) الرّاغب، المفردات: (لين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبر).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 147.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 67.

أولى منَ الاعتبار؛ لأنّ الاعتبار يكون بالنّظر للوصول إلى العبرة، أمَّا التّذكّر: فهو استرجاع ما كان موجودًا، مِن عِبَرٍ وغيرها.

الخشية والخوف:

الخشية أعظم وأشدّ معنًى منَ الخوف

الخشية أعلى منَ الخوف، وهي أشدّ أحواله، فإنّها مأخوذةٌ من قولهم: شجرة خاشية، أي: يابسة، فهي فوات بالكليّة.

وأمَّا الخوف: فمن قولهم: ناقة خوفاء، أي: بها داء، وهو نقصٌ وليس بفوات، ولذلك خصّت الخشية باللّه، في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21].

كما أنّ الخشية تكون من عِظَم المُختَشَى، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوفَ يكون من ضعف الخائف، وإن كان المَخوفُ أمرًا يسيرًا، ويدلُّ لذلك: أنّ الخاء والشّين والياء في تقاليبها تدلّ على العظمة، نحو: شيخٌ للسّيد الكبير، وخَيْشٌ لما غَلُظَ منَ اللّباس؛ ولذا وردت الخشية غالبًا في حَقّ اللّه تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 74] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28][1].

---

(1) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 363.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥﴾ [طه: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـلـقّـي الأمـر بالذّهاب لدعوة فرعون، وتخوّفُ الـرّسـولَـين من أذاه وطغيانه

بعد أن أمر اللّهُ كلًّا من موسى وهارون، بالذّهاب إلى فرعون، وأرشدهما إلى استعمال اللّين في مخاطبته، مع أنّه "في غاية الجبروت، وكان حاله حالَ من يهلكهما إلَّا أن يمنعهما اللّهُ ... ، جاءت هذه الآيةُ لبيان حالهما منَ الخوف من طغيانه وجبروته؛ فتوجّها إلى اللّه بقولهما: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَخَافُ﴾: (خوف) أَصْلٌ يَدُلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ، يُقالُ: خِفْتُ الشَّيْءَ خَوْفًا وخيفَةً، والياءُ مُبْدَلَةٌ مِنْ واوٍ لِمَكانِ الكَسْرَةِ، ويُقالُ: خاوَفَني فُلانٌ فخُفْتُهُ، أَيْ: كُنْتُ أَشَدَّ خَوْفًا مِنْهُ[2]، والتَّخْويفُ والإخافَةُ: الإفْزاعُ والإرْهابُ[3]، وضِدُّه: الأَمْنُ، وقيل: أَصْلُ الخَوف النَّقْصُ، يُقال: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنَقّصْناهُم، وناقَةٌ خَوْفاءُ، أي: ناقِصَةٌ بِها داءٌ[4]، والمقصودُ بالخَوفِ في الآيةِ: تَوَقُّعُ حُصولِ ما تَكْرَهُهُ النَّفْسُ، وهوَ ضِدُّ الأَمنِ.

2) ﴿يَفۡرُطَ﴾: (فرط) أَصْلٌ يَدُلُّ على إزالَةِ شَيءٍ مِنْ مَكانه وتَنْحيَتِه عَنْهُ، يُقالُ: فرَّطْتُ عنه ما كَرِهَهُ، أَيْ: نَحَّيْتُهُ، والفَرَطُ والفارِطُ: الَّذي يسْبق الوارِدَة إلى الحَوْضِ لِلشُّرْبِ[5]، وتَكلَّمَ فُلانٌ فِراطًا: إذا سَبَقَتْ منهُ بَوادِرُ الكَلامِ، وأَفْرَطَ في الأَمرِ: عَجَّلَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 291.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(3) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (فرط).

وأَفْرَطَتِ السَّحابَةُ بِالوَسْميِّ: عَجَّلَتْ بِه، وأَفْرَطْتُ القَوْمَ: إذا تَقَدَّمتَهُم وتَرَكْتَهُم وراءَكَ[1]، والمراد بـ ﴿يَفۡرُطَ﴾ في الآيةِ: يُعَجِّلُ ويَسْبِقُ، أي: نَخافُ أَنْ يُعَجِّلَ بِعِقابِنا بِالقَتْلِ أَوْ غَيْرِه مِنَ العُقوباتِ، قَبْلَ أَنْ نُبَلِّغَهُ ونُحِجَّهُ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الطُّغاة والجبابرة لا أمان لهم ولا عهد

بيّنت هذه الآيةُ شكوى موسى وهارونَ وتضرّعَهما إلى ربّهما قائلَين: ربَّنا إنَّنا نخافُ مِن فِرعونَ أن يُعجِّلَ بعُقوبتِنا قبلَ أن نَدعوَه إلى ما أمَرْتَنا به، أو أن يتكبَّرَ ويتمرَّدَ على طاعتِك[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل هذه الآية، عمّا قبلها:

ملمحُ الاستئناف البيانيّ، موفٍ بالمقصود في السّياق

فُصل قولُه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ عن سابقه؛ للاستئناف البيانيّ[4]، لما بينهما من شِبه كمال اتّصال، فكأنّ سؤالًا قد وُجِّه تعقيبًا على أمرهما بالذّهاب إلى فرعونَ، على الهيئة المذكورة في الآيات سلفًا، تقديره: (فماذا قالا بعد أن أُمِرا بذلك؟) فكان الجواب: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾.

دلالة التّعبير بالقول، والتّثنية:

الخبر في معنى الطّلب والدّعاء، وتضرّع موسى وهارون كان معًا

دلّ التّعبير بالقول ﴿قَالَا﴾ على حصول حوارٍ بين الرّسولَين الكريمين وربّهما، وكان من ثماره طلبُ العون منه على بطش فرعون، فالخبر هنا محمولٌ على الدّعاء والطّلب، وعبَّر بضمير التّثنية في قوله: ﴿قَالَا﴾ لجواز أن يكون القولان حاصلَين منهما، أو أنه كان مع موسى عليه السلام بالأصالة ولهارون عليه السلام بالتّبعيّة، أو أنّه عبّر بالتّثنية

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 227.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 76، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 696، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 506.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 509.

تغليبًا، ويجوز أن يكون هارون ﵇ قد قال ذلك بعد اجتماعه مع موسى ﵇، فحُكي قولُه مع قول موسى عند نزول الآية، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: 51]، فإنّ هذا الخِطاب قد حُكيَ لنا بصيغة الجمع، مع أنّ كلًّا منَ المخاطَبين لم يخاطَب إلّا بطريق الانفراد[1]، وجوِّز كونُهما مجتمعَين عند الطّور، وقالا جميعًا هذا القول المذكور في الآية[2].

سِرّ التّعبير بالرّبوبيّة ﴿رَبَّنَآ﴾ دون الأُلوهيّة:

التّعبير باسم الرّبوبيّة هنا أنسَبُ؛ لأنّ المقامَ مقامُ دعاءٍ وطلبٍ للعناية منَ اللّه تعالى لهما؛ لحمايتهما من طغيان فرعون وبطشه.

العناية والرّعاية من خصائص الرّبوبية المُنعِمة

دلالة التّعبير بقوله: ﴿إِنَّنَا﴾ دون (إنّا):

أجاب البقاعيّ عن علّة التّعبير: ﴿إِنَّنَا﴾ بالإظهار دون الإدغام، بقوله: "لمَّا كان مضمونُ إخبارِهما بالخوف مع كونهما من جهة اللّه، من شأنه أن لا يكون وأن يُنكَر؛ أكّدا فقالا مُبالِغَين فيه بإظهار النّون الثّالثة، إبلاغًا في إظهار الشّكوى؛ ليأتيَ الجَبْرُ على قَدْر ما يظهر منَ الكسر[3].

الشّكوى إلى اللّه من طغيان فرعون، لجوءٌ إلى مَن يجير ولا يُجار عليه

دلالة التّعبير بالخوف في قوله: ﴿نَخَافُ﴾:

عبّر القرآن الكريم بالخوف في قوله تعالى: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾، دون غيره على لسان موسى وهارون ﵉؛ لأنّ الخوف يكون عند توقّع حصول مكروه فيما هو آت، ولمّا كان فرعون معروفًا بالجبروت والطّغيان؛ فقد توقّعا منه إيذاءَهما وإيقاعَ السّوءِ بهما.

الخوف توقّعُ مكروهٍ في المستقبل، وأشدُّه الخوفُ منَ الظّلم

سِرّ التّعبير بالفعل ﴿يَفۡرُطَ﴾ دون غيره:

عبّر القرآن الكريم بالفعل ﴿يَفۡرُطَ﴾ دون غيره كـ (يَعْجَل)؛

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 509.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 196.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 291.

الطَّاغية سريعُ الانتقام، وكلّ ظُلمٍ فهو حرام

لوجود فرقٍ بينهما، يقال: فرَط بمعنى تعجَّل الشّيء وبادر إلى إزالته قبلَ تمامِه، ومقتضى هذا أن يكون بعد بَدءِ الشّروع فيه، كما أنّ غايتَه تنحيةُ الشّيء إعراضًا عنه وبغضًا، وأمَّا العجلة: فتعني "طلبَ الشّيءِ وتحرّيَهُ قبلَ أوانه، وهو من مقتضى الشّهوة"[1]، فاختلفا في الغاية والأسلوب، وعلى هذا، يكون المراد من شكواهما: الإعلانَ بموقف فرعون عند سماع كلامهما منَ المبالغة والمبادرة في منعهم من عَرْض ما يريدون عَرْضَه، وهذا هو المناسب للمعنى اللُّغويّ لمادة (فرط)؛ فالفَرَط معناه: أن يُعجّل علينا ولا يتأنّى في سماع قولنا، بل يُعجّل بالعقوبة ويبادرنا بها.

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يَفۡرُطَ﴾:

مراعاةُ الزّمن في وقوع الحدث، من بليغ التّعبير

أوثِر التّعبير بالمصدر المؤوّل - أن والفعل المضارع - في قوله: ﴿أَن يَفۡرُطَ﴾ دون المصدر الصّريح؛ توقّعًا منهما عليهما السلام أن يطول عقابُ فرعون لهما، ويتجدّدَ ويتكرّر ويتنوّع، لا أن يكون ثابتًا، وقد يتفنّن في أنواع العقاب؛ لأنّه طاغيةٌ لا يخاف ربّه، توهّمًا منه أنّه الرَّبُّ.

دلالة تعدّي الفعل ﴿يَفۡرُطَ﴾ بـ (على):

بين الاعتداء والاستعلاء تناسبٌ، من حيثُ المبالغةُ والتّجاوز والتّطاول

دلّ تعدّي الفعل ﴿أَن يَفۡرُطَ﴾ بـ ﴿عَلَيۡنَآ﴾ المفيدة للاستعلاء، على تضمُّن ﴿يَفۡرُطَ﴾ معنى: (يعتدي)، وأيضًا فإنّ التّعبير بـ ﴿عَلَيۡنَآ﴾ يدلّ على تمكُّن فرعون منَ المبالغة في أذى موسى وهارون ومعاقبتِهما؛ لبطشه وجبروته، واستكباره بجنوده.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾:

﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ لمنع الخلوّ[2]، فالمتوقّعُ من هذا الطّاغية أحدُ الأمرَين، إن لم يكن كِلا الأمرَين.

(1) الرّاغب، المفردات: (عجل).
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 355.

سِرّ التّعبير بـ ﴿أَن﴾ مع الفعل ﴿يَطۡغَىٰ﴾:

تكرار النَّاصب؛ للإشارة إلى أنّ الخوف واقعٌ مِنَ الحالين

أتى التّعبير القرآنيّ بـ ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾، مع استقامة المعنى - في الظّاهر - بدونها؛ لإظهار كمال الاعتناء بالأمر، والإشعارِ بتحقّق الخوفِ من كلٍّ منهما[1].

دلالة التّعبير بلفظ (الطّغيان) دون (التّكبّر):

الطّغيان أثرٌ للتّكبُّر، وهو مترتّب عليه

أوثِرَ التّعبير بالطّغيان دون التّكبّر في قوله: ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾؛ لكون الطّغيان أثرًا للتّكبّر[2]، وهما يخشيان وقوعَ أثرِ الكِبر عليهما، وهو الطّغيان والتّعدّي بالإهانة، وما هو أعلى منها، وليس الكبرُ نفسُه.

دلالة ذِكر ﴿أَن يَطۡغَىٰ﴾ بعد ﴿أَن يَفۡرُطَ﴾:

الانتقالُ مِنَ الأشدّ إلى الأضعف، مسلكٌ في البيان مفيد

ذكَرَ القرآن الكريم الطُّغيانَ بَعْدَ الفَرْطِ في قوله: ﴿أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾؛ إشارَةً إلى أنَّهُما لا يُطيقانِ ذَلِكَ، فهوَ انْتِقالٌ مِنَ الأَشَدِّ إلى الأَضْعَفِ؛ لِأَن ﴿نَخَافُ﴾ يؤول إِلَى مَعْنَى النَّفيِ، وفي النَّفْيِ يُذْكَرُ الأَضْعَفُ بَعْدَ الأَقْوَى، بِعَكْسِ الإِثْباتِ، ما لَم يوجَدْ ما يَقْتَضي عَكْسَ ذَلِكَ[3].

دلالة حذف متعلّق الفعل ﴿يَطۡغَىٰ﴾:

غاية الحذف رعاية الفاصلة، ودلالة السّياق على المحذوف

حُذِف متعلّقُ الفعل ﴿يَطۡغَىٰ﴾، فلم يقل: (يَطْغَى علينا) كما سبق في ﴿يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾؛ لدلالة قوله: ﴿يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ عليه، فلم يبق ثمّتَ داعٍ لإعادته، "وَأوثِرَ الحَذْفُ -أيضًا - لِرِعايَةِ الفَواصِلِ، والتَّقْديرُ: (أَوْ أَنْ يَطْغَى علينا).

ويُحْتَمَلُ أَنَّ مُتَعَلَّقَهُ لَيْسَ نَظيرَ المَذْكورِ قَبْلَهُ، بَلْ هوَ مُتَعَلَّقٌ آخَرُ، لِكَوْنِ التَّقْسيمِ التَّقْديريِّ دَليلًا عليه؛ لِأَنَّهُما لَمَّا ذَكَرا مُتَعَلَّقَ ﴿يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾، وكان الفَرْطُ شامِلًا لِأَنْواعِ العُقوباتِ حَتَّى الإهانَةَ بِالشَّتْمِ؛

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 3/ 93.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 227.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 227.

لَزِمَ أَنْ يَكونَ التَّقْسيمُ بـ ﴿أَوْ﴾ مَنْظورًا فيه إِلَى حالَةٍ أُخْرَى، وهيَ طُغْيانُهُ على مَنْ لا يَنالُهُ عِقابُهُ، أي: أَنْ يَطْغَى على اللّه بالتَّنْقيصِ؛ كَقَوْلِه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، وقَوْلِه: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: 38]، فحُذِفَ مُتَعَلِّقُ ﴿يَطْغَىٰ﴾ حينَئِذٍ لتنزيهه عَن التَّصْريحِ بِه في هَذا المَقامِ، والتَّقْديرُ: أو (أَنْ يَطْغَى عليْكَ) يا ربّنا، فيَتَصَلَّبَ في كُفْرِه، ويَعْسُرَ صَرْفُهُ عَنْهُ، وفي التَّحَرُّزِ مِنْ ذَلِك غَيْرَةٌ على جانِبِ اللّه تَعالَى، ومراعاةٌ لحُسْنِ الأدب معه، وفيه أَيْضًا: تَحَرُّزٌ مِنْ رُسوخ عَقيدَةِ الكُفْرِ في نَفْسِ الطَّاغي، فيَصيرُ الرَّجاءُ في إيمانِه بَعْدَ ذَلِكَ أَضْعَفَ مِنْهُ فيما قَبْلُ، وتِلْكَ مَفْسَدَةٌ في نَظَرِ الدّين(1).

وممَّا يُذْكَر في سِرّ عدم ذِكْر متعلّق: ﴿يَطْغَىٰ﴾ كما ذُكِر في قوله: ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾، قولُ الطّيّبيِّ: "لم يُذْكَر متعلّق ﴿يَطْغَىٰ﴾، وهو: (عليك)، بمعنى: القول فيك بما لا ينبغي، وذُكِر متعلّق ﴿يَفْرُطَ﴾، وهو ﴿عَلَيْنَآ﴾؛ لأنّ معرّته عائدةٌ إليهما؛ إجلالًا للّه وتهيُّبًا من عِزّته، واستزادةً لرَأفته، واستنزالًا لرحمته، وذلك أنّ الجاهل باللّه وبرسوله يُخاف منه على الرّسول بالإفراط في التّكذيب، أو في العقوبة، وعلى اللّه سبحانه بما لا ينبغي منَ القول فيه، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [الأنعام: 108]"(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 227، 228.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 178.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من كان الله معه، فلا يخاف دركًا ولا يخشى

بعد أن ذكرتِ الآيةُ السَّابقة لجوءَ موسى وهارون إلى ربّهما خوفًا من بطش فرعون وطغيانه؛ جاءت هذه الآيةُ ببيان طمأنةِ اللّه تعالى للرّسولين الكريمين، بأنّه معهما وأنّهما في معيّته وحفظه، بعدما أعلنا أنّهما يخافان أن يعاجلَهما فرعونُ بالعقاب، فقال لهما مطَمئِنًا: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡمَعُ﴾: (سمع) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النَّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمعًا[1]، والسَّمعُ: قوَّةٌ في الأُذن تُدرَكُ بها المَسْموعات، وفِعله يُقالُ له: السَّمعُ أيضًا[2]، والجَمع أسماع، والسَّماعُ: ما سَمِعْتَ به فشاع وتُكُلِّمَ بِه، والسَّميعُ من صِفات اللّه وأسمائه[3]، والاسْتِماعُ: الإصغاء[4].

2) ﴿وَأَرَىٰ﴾: (رأى) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ[5]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئيِّ، والرَّأْيُ: اعتقادُ النَّفس أحدَ النَّقيضين عن غلبة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المَنام[6]، والرُّؤْيَةُ بِالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(2) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (سمع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سمع).
(4) الرَّاغب، المفردات: (سمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(6) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

معيّة الله نصرٌ وتأييدٌ، وهو معنًا يسمع ويرى

في هذه الآية يُطَمئِنُ اللّهُ تعالى موسى وهارون بقوله لهما: لا تخافا مِن فِرعَونَ، إنَّني معكما بالنَّصرِ والإعانةِ والحِفظِ والتَّأييدِ، أسمَعُ كلامَكما وكلامَ فِرعَونَ، وأراكم وأرى أفعالَكم وأحوالَكم جميعًا؛ فاطمَئِنَّا ولا تخافا منه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمَّا قبلها:

الاستئناف البيانيّ، سرٌّ من البيان المُفصِح عنِ المعاني

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عمَّا قبله؛ لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ مبنيٌّ على السّؤال النَّاشىء منَ النّظم الكريم[2]، وتقديره: (فماذا قال لهما اللّهُ تعالى بعد أن أعلنا له ما يجول بخاطرهما من خَوفٍ من عدم إتمام الدّعوة مع فرعون؛ بسبب طغيانه؟) فكان الجوابُ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾ الآية.

دلالة إضمار الفاعل في قوله: ﴿قَالَ﴾:

الإشعار بانتقال الكلامِ إلى مساق خطابٍ من الله لموسى وأخيه

أوثِر إضمارُ الفاعل في قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾، فلم يقل: (قال اللّه)؛ فالفاعل ضمير مستتر تقديره: (هو)، يعود على اللّه تعالى من سياق الكلام؛ ذلك لكونه سبحانه حاضرًا، فالحوار جارٍ بينَه سبحانه وبين رسولَيه عليهما السلام، كما يدلُّ عليه سياق الكلام، فلا حاجة إلى التّعبير بلفظ الجلالة مُظهَرًا في تركيب الجملة.

وممَّا يُذْكَر في سِرّ الإضمار ما قاله أبو السّعود: "لعلّ إسناد الفعلِ إلى ضمير الغَيبة؛ للإشعار بانتقال الكلامِ من مساقٍ إلى آخرَ، فإنّ ما قبلَه منَ الأفعال الواردةِ على صيغة التّكلم حكايةٌ لموسى عليه السلام، بخلاف ما سيأتي من قولِه تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 77، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 203.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18.

﴿٦٨﴾ [طه: 68]، فإنّ ما قبلَهُ - أيضًا - واردٌ بطريق الحكاية لرسول الله ﷺ، كأنَّه قيلَ: فماذا قالَ لهما ربُّهما عند تضرُّعِهما إليه؟ فقيل: قال: ﴿لَا تَخَافَآۖ﴾"[1].

سِرّ حذفِ متعلّق ﴿لَا تَخَافَآۖ﴾:

دلالة السّياق الماضي على المحذوف، يُغني عن ذِكره بعدَ ذلك

حُذِف المتعلّق من قوله: ﴿لَا تَخَافَآۖ﴾؛ لكونه معلومًا مدلولًا عليه في الآية السَّابقة في قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾، والتّقدير: (لا تَخافا حُصولَ شَيْءٍ مِنَ الأَمرَيْنِ)، وهوَ نَهْيٌ مُكَنًّى به عَنْ نَفْيِ وُقوعِ المَنْهيِّ عَنْهُ[2]، وفيه إشارةٌ إلى نفي الخوف على العموم، ويدخل في ذلك فرعونُ وحاشيتُه من باب الخصوص؛ لأنّ اللّه سبحانه يُعَلّم موسى وهارون كيفيّةَ مقابلةِ العقباتِ أيًّا كان نوعُها؛ لأنّه لا خوفَ يُذْكَر مع معيّة اللّه، ولذلك يكون الغرضُ منَ النّهي في قوله: ﴿لَا تَخَافَآۖ﴾ التّسلّي بوعد الحِفظ والنُّصْرة، فإنّه ليس المرادُ منَ المعيّةِ المعيّةَ المكانيّةَ، بل المرادُ منها ما يلزمها منَ الحِفظ والنُّصرةِ، فكأنّه قيل: إنّني حافظُكما وناصرُكما[3].

سِرّ فصل قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾:

الجملة التّعليليّة جوابٌ لسؤالٍ بليغٍ مُقدّرٍ في السّياق

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عمَّا سبق؛ لأنّه تعليلٌ للجملة السَّابقة، وهذا هو سِرّ الفصل بينهما، أي: لا تخافا؛ لأنّني ﴿مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وكأنّهما قالا: ولماذا لا نخاف؟ فكان هذا هو الجواب.

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿إِنَّنِي﴾ دون (أنّي):

تأكيد إظهار المعيّة لموسى وهارون، تشريفٌ لهما وتكريم

أظهرَ النّونَ الثّانية في قوله: ﴿إِنَّنِي﴾ للمبالغة، ولتأكيدِ معيّته سبحانَه لهما؛ جوابًا لشكواهما في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 5/ 621.

﴿عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾، فيأتي الجبرُ على قَدْر ما يظهر منَ الكسر والضّعف[1].

دلالة التّعبير بالمعيّة في قوله: ﴿مَعَكُمَآ﴾:

العناية الإلهيّة والرّعاية الرّبانيّة، مظهرٌ من مظاهر المَعيّة

دلّ التّعبير بالمَعيَّةِ في قوله: ﴿مَعَكُمَآ﴾ على حِفْظ اللّه ونصرته[2] لموسى وهارون من بطش فرعون، وفيها تثبيتٌ وتأييدٌ لهما في بلاغ دعوتهما عنِ اللّه ﷻ، وعنايةٌ ورعايةٌ من كلّ المخاطر.

سِرّ إدخال هارون في المعيّة مع أخيه موسى:

تبشير هارون بدخوله في معية الله، من تكريم الله لهما معًا

دلّ إدخالُ هارونَ في المعيّة مع موسى عليهما السلام، على أنّهما شريكان في الرّسالة، فكلاهما مرسلٌ إلى فرعون، فيَحِقّ لكليهما التّبشيرُ بهذه المعيّة المستحقّة لهما.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾:

ثبوت صفتي السّمع والبصر لجلال الله المحيط بكلّ شيءٍ علمًا

دلّ التّعبير بقوله: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ على ثبوت صفتي السّمع والبصر للّه تعالى، فهو (السّميع البصير)، وأنّهما صفتان زائدتان على العلم[3]، المأخوذِ من قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾، والمراد من التّعبير بهما ما يترتّب عليهما منَ الرّعاية والحفظ، فيكون قوله: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ تأكيدًا للمعيّة والحفظ، قال الفخر الرَّازيّ: "وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِه: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، فبَيَّنَ ﷻ أَنَّهُ مَعَهُما بِالحِفْظِ والعِلْمِ في جَميعِ ما يَنالُهُما، وذَلِكَ هوَ النِّهايَةُ في إزالَةِ الخَوْفِ"[4].

ويجوز أن يكون التّعبير بهما في مقابلة قوله تعالى: ﴿أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾؛ فقوله: ﴿أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ بأن لا يسمع منَّا، ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ بأن يقتلنا؛ فقال اللّه تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أسمع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 291.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 54.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 54.

كلامكما، فأُسخِّرُه للاستماع منكما، وأرى أفعالَه فلا أتركه حتّى يفعلَ بكما ما تكرهانه[1].

سِرّ تقديم السّماع على الرّؤية:

بيان أنّ وظيفة السّمع سابقةٌ علميًّا على وظيفة البصر

قُدِّم السّمع على البصر في آياتٍ كثيرةٍ في القرآن الكريم، وذلك في حقّ الإنسان، وعُلّل ذلك بالسّبق الزّمنيّ لوظيفة السّمع على وظيفة البصر، ووجد في كلام العلماء الكثيرُ من أسباب تقديم السّمع على البصر، "وفَصْل الخطاب: أنّ إدراك السّمع أعمُّ وأشمل، وإدراك البصر أتمّ وأكمل، فهذا له التّمام والكمال، وذاك له العمومُ والشّمول، فقد ترجّح كلٌّ منهما على الآخر بما اختصَّ به"[2].

أمّا في حقّ المولى ﷻ؛ فتقديمُ السّمع على الرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ هو من باب مراعاة الحدث، كما هو في مشهد موسى وهارون؛ فأمرُ الدّعوةِ يبدأ بالقول فيناسبه السّمع، والرّدُّ من فرعون فعلٌ، فيناسبه الرّؤيا الرُّؤية.

سِرّ حذف متعلّق ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾:

أهميّةُ تنزيل الفعلين (أَسۡمَعُ وأَرَى) منزلة اللّازم

حُذِفَ متعلّقُ ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ تنزيلًا للفعلين "﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ مَنْزِلَةَ اللَّازِمَيْنِ، إِذْ لا غَرَضَ لِبَيانِ مَفْعولِهما، بَلِ المَقْصودُ: أَنّي لا يَخْفَى عليَّ شَيْءٌ"[3]، وتقدير الكلام: أسمع كلامَكما، وأرى أفعالَكما، ويجوز أن يكون التّقدير: (أسمع جوابَه لكما، وأرى ما يُفعل بكما)[4].

دلالة التّعبير بالفعليّة دون الاسميّة:

سمعُه المُتجدّد في كلّ حال، دافعٌ لكلّ ضُرٍّ، وجالبٌ لكلّ برٍّ

عبّر القرآن الكريم بالفعليّة ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ دون الاسميّة؛ لأنّ التّعبير بالفعليّة هنا يُشير إلى هذا الفعل المستمرّ الملازم لهما،

---

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 258.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد، ص: 126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 258.

والمُتجدّد في مظاهره بحسب ما يستدعيه المقام، وبحسب ما يتجدّد من معاملة فرعون لكما، فمهما دبَّر فرعون لكما، فأنا ﴿مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، "أي: ما جرى بينَكما وبينَه من قولٍ وفعلٍ، فأفعلُ في كلّ حالٍ ما يليق بها من دفع ضُرٍّ وشَرٍّ، وجَلْبِ نفعٍ وخير"[1].

دلالة الجمع بينَ السّمع والرّؤية:

تأكيدُ الحفظ الخاصّ للفعل المرئيّ، والقول المسموع

جُمِع بينَ السّمع والرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ لأنّ ما يدور بين موسى وهارون من جهة، وفرعونَ من جهةٍ أخرى، يدور بين القول، فيناسبُه السّمع، والفعل ويناسبه الرّؤية، وعلى هذا، يكون المعنى: (أَنا حافِظُكُما مِنْ كُلِّ ما تَخافانِه)[2]، حفظًا خاصًّا مُستمرًّا؛ طالما كنتما عند فرعون تدعوانه، وهذا غير الحفظ العامّ المكفول لهما، بمقتضى كونهما رسولين للّه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّؤية والإبصار:

الإبـصـار عمل العين المُبصرة، والرّؤية أوسع، فتكون بصريّةً وتكون علميّةً

البَصَر يقال للجارحة النَّاظرة، وهي العين، وللقوّة الّتي فيها[3]، والإبصار هو فعل العين، ويقال له رؤيةٌ أيضًا، غيرَ أنّ مفهوم الرّؤية قد يتّسع لما تتّسع له كلمةُ العلم، فتكون الرّؤيةُ علميّةً، والحاصل: أنّ الإبصار يكون لما يقع تحت حاسّة العين، والرّؤية تكون لها، وتكون أيضًا بمعنى العلم، ولذا فالتّعبير بالرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أوسع وأشمل؛ لاتّساع لفظ الرّؤية وشموله لما يكون علمًا، وعلى هذا: فالرّؤية هي الأعلى؛ لأنّها تتميّز بالعِلْم بالشّيء، إمَّا بالعين أو بالقلب؛ بخلاف الإبصار، فيتميّز بوضوح الشّيء المنظور إليه، كما ذُكِر ذلك في المعاجم اللّغويّة.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.

(3) الرَّاغب، المفردات: (بصر).

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرّبـط بين دفـع الخـوف بالمعيّة، وبيان سبيل التّكاليف الشّرعيّة

لَمَّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقة أسبابَ التّأهيلِ والتّمهيد في عرض دعوة موسى وهارون عليهما السلام على فرعون بهذا الأمر: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾؛ بيَّن هنا ما كُلِّفا بطلبه من فرعون، وهو أصل الرّسالة الّتي أُنيطت بهما، فقال: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾.

ومنَ المناسبة أيضًا: لَمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقة الأمرَ بالذّهاب إلى فرعون؛ جاءت هذه الآيةُ ببيان أثرِ هذا الذّهابِ، وهو الإتيان إليه الّذي يدلّ على وصولهما إلى مواجهة فرعون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: (إِسْرائيلُ) هوَ يَعْقوبُ بنُ إِسْحاقَ بن إِبْراهيمَ، وإليه يُنْسَبُ اليَهودُ، فيُقالُ: بَنو إِسْرائيلَ، وإِسرائيلُ كَلِمَةٌ أَعْجَميَّةٌ تَعْني: عَبْدَ الله، ويُقالُ أَيْضًا إِسْرائينُ بِالنّونِ، وبَنو إِسْرائيلَ هُم: أَبْناءُ يَعْقوبَ عليه السلام[1].

2) ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾: أَصْلُ السَّلامِ: السَّلامَةُ، واسْتُعْمِلَ عِنْدَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتَأْمينِ المَرْءِ مُلاقيَهُ، وأَنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ فصارَ قَوْلًا عِنْدَ اللِّقاءِ لِلْإِكْرامِ، والسَّلامُ يَأْتي في الاسْتِعْمالِ مُنَكَّرًا مَرْفوعًا ومَنْصوبًا، ومُعَرَّفًا بِاللّامِ مَرْفوعًا لا غَيْرَ، فأَمَّا تَنْكيرُهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (سرأل)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 9/ 1، ومحمد حسين الذّهبيّ، التّفسير والمفسّرون: 97/ 1.

مَعَ الرَّفْعِ، فهوَ على اعْتِبارِه اسْمًا بِمَعْنَى الأَمانِ، وأَمَّا تَعْرِيفُهُ مَعَ الرَّفْعِ فلِدُخولِ لامِ تَعْريفِ الجِنْسِ عليْه، وكَلِمَةُ (على) في الحالَتَيْنِ للدّلالَةِ على تَمَكُّنِ التَّلَبُّسِ بالأَمانِ، وأَمَّا إِنْ نَصَبوا مَعَ التَّنْكيرِ فعلى اعْتِبارِه كَمَصْدَرِ (سَلَّمَ)، فهوَ مَفْعولٌ مُطْلَقٌ أَتى بَدَلًا مِنْ فِعْلِه، تَقْديرُهُ: سَلَّمتُ سَلامًا.

3) ﴿ٱتَّبَعَ﴾: (تبع) أَصْلٌ يَدُلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ، يُقالُ تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَهُ واتَّبَعْتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ إذا لَحِقْتَهُ[1] كأنَّما لَحِق أو التصق به وتَطَلَّبه مُتَّبِعًا له[2]، والاتِّباعُ: اقْتِفاءُ أَثَرِ الماشي، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في العَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الغَيْرِ[3]، يُقال: تَبِعتُ الرَّجُلَ إذا مشيتُ مَعَه، واتَّبعته إذا مشيت خَلفَه لتلحقه[4]، وأتبع فلانٌ فلانًا إذا تبعه يُريد به شرًّا، كما أتبع فِرْعَوْن موسَى، وأمَّا التَّتبُّع فأنْ يتتبَّع في مُهْلةٍ شَيئًا بعد شَيْءٍ[5]، والمُرادُ بالاتِّباعِ في الآيةِ: اقتِفاءُ السَّيْرِ على سَيْرٍ آخَرَ، وهو هنا مُستَعارٌ لِلعَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الآخَرِ.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مضمون الرّسالة تخليصُ بني إسرائيلَ من طغيان فرعون وإذلاله المهين

يُبيِّن اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ لموسى وهارون طريقةَ دعوةِ فرعونَ، فقال: فاذهَبا إلى فِرعَونَ فقولا له: إنَّا رَسولانِ إليكَ من رَبِّك الّذي خلَقَك وربَّاك، فأَطْلِقْ بني إسرائيلَ ليذهَبوا معنا، ولا تُعَذِّبْهم باستعبادِهم وتَذبيحِهم، وتكليفِهم الأعمالَ الشاقَّةَ، وقد أتيناكَ بمعجزةٍ من ربِّك تدلُّ على صِدقِنا، والسَّلامةُ من سَخَطِ اللّه وعذابِه في الدُّنيا والآخرةِ لِمَنِ اتَّبَعَ هدى اللّه الّذي شرَعَه لعبادِه[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 423.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (تبع).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 77، 78، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 16.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾:

تنوّع دلالة حرف المعنى، ثراءٌ للبيان، وفُسحةٌ في المعاني

الفاء في قوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾ لتفريع الأمر بالإتيان، وترتيبه على قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، أي: فأنتم في معيّتي في أمان ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾، ويجوز أن تكون عاطفةً، فعطفت قولَه تعالى: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾، على قوله: ﴿لَا تَخَافَآۖ﴾ باعتبار تعليله بما بعدَه، والمعنى: (فأتياه من غير تراخٍ، وجاباه بما أمرَكما اللّهُ به)[1].

سِرّ التّعبير بالإتيان في قوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾:

بيانُ أنّ إتيان فرعون لاخوفَ منه؛ لأنّهما في معيّة الله

عبَّر تعالى بـ (الإتيان) ليُشْعِرَ موسى وهارونَ بأنّ قدومَهما على فرعون ومثولَهما بين يديه لدعوته، لن يكون بهذه الصّعوبة الّتي يتصوَّرانِها، ويَحسِبون لها حسابًا، بل إنّ الأمر سهلٌ، وفي ضمانة اللّه تعالى؛ ولأنّ المراد بـ (الإتيان) وصولُهم وحلولُهم في مجلسه؛ لإبلاغه بما أمرَهما اللّهُ به، في قوّةٍ وعِزّةٍ، وفيه إشارةٌ إلى بداية زوال ملكه ونهاية حُكمه، وفي التّعبير به أيضًا إشارةٌ إلى قوّة موسى وهارون عليهما السلام، وأنّهما مدّرعان بقوّة اللّه تعالى الّتي تُرْهب كلّ مخلوقٍ، ولو كان فرعونَ الطّاغية[2].

سِرّ التّعبير في الأمر بلفظَي (الذّهاب) و(الإتيان):

الفرق بينَ الذّهاب وأثرِه، في مضمون الخطاب

في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، وقوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾، فالأوّل أمرٌ بالذّهاب؛ بخلاف الثّاني فهو أمرٌ بالإتيان، وهو أثرُ الذّهاب، وعلى ذلك فلا تكرارَ بينَ الذّهاب والإتيان.

دلالة الأمر في قوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾:

يدلّ توجيهُ الأمرِ بالإتيان في قوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾ على أنّهما كانا قدِ اقتربا من مكان فرعون؛ لأنّهما في مدينته، فلذا أُمِرا بإتيانه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 198.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4732.

تنوّع آيات التّكليف؛ لقربهما من مكان فرعون، ووصولِهما إليه

ودعوته[1]، وفيه إشارةٌ إلى إعادة التّكليف للمرّة الرَّابعة، حيثُ ذُكِرتِ المَرّة الأولى في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: 23 - 24]، وفي الثَّانية: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾، وفي الثَّالثة: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، وفي الرَّابعة أمرَهما أن يقولا: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2].

سِرّ التّعبير بالإضمار ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ دون الإظهار:

التّحقير والتّقليل من شأن فرعون، بإضمار اسمه من بيان الدّلالة

أوثِر التّعبيرُ بالإضمار دونَ الإظهار في قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾، فلم يقل: (فأتيا فرعون)؛ لتقدّم ذِكْره في قوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، فالسّياق هو هو، والحوار هو هو، فلم ينتقل إلى حوارٍ جديد، ثمّ إنّ إضمار اسمِه يترتّب عليه منَ التّحقير ما ترتّب على إظهار اسمه في قوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ لأنّه كان يدّعي الرّبوبية والأُلوهيّة[3]، وفيه إشارةٌ إلى نهاية مُلك فرعونَ وحُكمه؛ لأنّ الضّمير يُشير إلى خفاء الشّيء بعد ظهوره، وهذا ما وقع لفرعون من زوال ملكه وإغراقه هو وجنوده.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَقُولَآ﴾:

ترتيبُ الأمرِ منَ الله بالقول، على الأمر بإتيان فرعون

رتّبتِ الفاءُ الأمرَ بالقول ﴿فَقُولَآ﴾، على الأمر بالإتيان ﴿فَأْتِيَاهُ﴾؛ دالّةً بذلك على لُزوم الإسراع بالقول والتّعجّل به، بعدَ إتيانهما فرعونَ؛ لإعلانه بأنّهما رسولا ربّك، وليس ذلك منِ اجتهادهما.

سِرّ التّعبير بالقول دون الدّعاء في قوله: ﴿فَقُولَآ﴾:

القولُ أعمّ منَ الدّعوة، وهو توطئةٌ لها؛ لتلينَ القلوبُ وتستجيب

أوثِرَ التّعبيرُ بالقول دون الدّعاء في قوله: ﴿فَقُولَآ﴾؛ لأنّه أعمّ منَ الدّعاء، ولأنّ لفظ الدّعاء يشي بمعنى الحمل على إتيان التّكاليف، وهو ما قد يَصْعُب تقبُّله من فرعون، فأُمِرا أوّلًا باللّين في القول؛ ليبدوَ الأمرُ معه كأنّه رجاءٌ واستعطاف، ثمّ بإخباره بأنّهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 332.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 46.

مُرسلان منَ اللّه تعالى ليخبراه بذلك، ومعهما الحُجّة الّتي تدلُّ على صدقهما؛ تحقيقًا للحَقّ من أوّل الأمر؛ ليعرفَ فرعونُ الطَّاغيةُ قدرَهما وشأنَهما، فيبنيَ جوابَه على ذلك قبولًا أو رفضًا؛ فإنْ قَبِل قولَهما ولانَ لهما، انتقلا بعدَ ذلك وتَدَرَّجا إلى دعوته.

سِرّ تعقيب الإتيان بأمر الرّسالة:

غـايـة إتـيـانِ فرعونَ، إبلاغُه بمُراد الله منه

عقّب القرآن الكريم بأمر الرّسالة، بعد قوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ﴾؛ لأنّه لولا الإتيان لما حصل لهما دعوى الرّسالة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بإظهار المعجزة[1].

دلالة التّأكيد في قوله: ﴿إِنَّا﴾:

شَـكُّ فـرعـونَ وعـدمُ تـصـديـقـهـمـا، رغـمَ الآيـاتِ الباهرة

دلّ التّعبير بـ(إنّ) في قوله: ﴿إِنَّا﴾ على التّأكيد؛ لأنّ المُتوقّع من فرعون التّشكّكُ والإنكار[2]، وعدمُ تصديقِهما، فكان التّعبيرُ بـ (إنّ) ملائمًا لمخاطبته ومحاورته.

سِرّ التّعبير بـ ﴿إِنَّا﴾ دون (إنّنا):

الإدغـام يوحي بمعنى المُـؤازرة والمكاتفة

عبَّر القرآن الكريم بـ ﴿إِنَّا﴾ بالإدغام دون (إنّنا) بالإظهار؛ لما يوحيه هذا الإدغامُ من معنى المؤازرة والجمع والتّكاتف بينَ الرّسولين الكريمين عليهما السلام؛ تحقيقًا لطلب موسى عليه السلام، الّذي حكاه القرآنُ على لسانه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 29 - 32]، ثمّ استجابتُه سبحانَه لطلب موسى عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾.

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿رَسُولَا﴾:

الرّسول مكلّفٌ بالبلاغ، ولا دورَ لـه إلّا الـبـيـانُ والإقناع

عبّر القرآنُ الكريم بالرّسالة بقوله: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا﴾؛ لكونهما مُحَمَّلَين برسالةٍ منَ اللّه إليه، ولاجتثاث غضبه، ما لو ظنّ أنّهما مُغْرِضان لمصلحةٍ تخصّهما، أو للغَضّ من مقامه الّذي فرضَه على

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 357.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292.

النَّاس، بادّعاء الرّبوبيّة، كما يقول من حُمِّل برسالةٍ قاسيةٍ إلى شخصٍ غضوب، مُبَرِّئًا نفسه: أنا مُجَرّد رسولٍ، ولبيان أنّ الأمر ليس من اجتهادهما، بل هو تكليفٌ ربَّانيٌّ.

التّثنية هنا باعتبار الرّسولين، والإفراد في (الشّعراء) باعتبار الرّسالة

دلالة التّثنية ﴿رَسُولَا﴾ دون الإفراد:

عبَّر القرآنُ الكريم بالتّثنية في قوله: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، باعتبار موسى وهارون عليهما السلام، ولما في ذلك من معنى المُؤازَرة بينهما(1)، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16] بالإفراد، فباعتبار الرّسالة، فهي واحدةٌ، فإنّهما مُرسَلان معًا بنفس الرّسالة إلى فرعون.

وممَّا يُذْكَر في ذلك أيضًا: أنّ لفظ الرّسول أصلُه مصدرٌ وُصِفَ به، والمصدر إذا وُصِفَ به ذُكِّر وأُفْرِد، وعلى هذا: فالإفرادُ في سورة الشّعراء نظرًا إلى أنَّ أصل الرّسول مصدرٌ، والتّثنيةُ في موضع طه؛ اعتدادًا بالوصفيّة العارضة، وإعراضًا عنِ الأصل(2).

تلوين الخطاب بينَ اللّين والشّدّة

دلالة التّكليف في هذه الآية وسابقتها:

النَّاظر في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الآية، يجد أنّ لغة التّكليف فيها شدّةٌ، خلافًا لما سبق في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ وذلك لما تحمله ألفاظُ التّكليف في المرّة الرَّابعة الواردة في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾؛ حيثُ دلّت على طلب انقياده إليهما، والتزامِ طاعتِهما، وهذا أمرٌ يَعْظُم على فرعون الّذي يدّعي الأُلوهيّة والرّبوبيّة؛ فقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فيه إدخالُ النّقص على ملكه؛ لأنّه كان محتاجًا لبني إسرائيلَ فيما يريده من أعمال البناء والحفر، ونحوِ ذلك، وقوله: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾ فيه نهيٌ لمن يدّعي الأُلوهيّة والرّبوبيّة، وفي هذا تهوينٌ من شأنه، وتقليلٌ من سلطانه(3).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 415.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292.

سِرّ التّعبير بالرّبوبيّة، والإضافة فيها:

تحقير فرعونَ والتّعريضُ به؛ لكفره بالله، وادّعائه الرّبوبيّة

في التّعرّض لعنوان الرّبوبيّة مع الإضافة إلى ضميره منَ اللّطف ما لا يخفى، على معنى: إنّه ﴿رَبِّكَ﴾ الّذي ربَّاكَ فأحسنَ تربيتَك، بعد أن أوجدَك منَ العدم، وإن رأى اللّعين أنّ في ذلك تحقيرًا له، حيثُ إنّه يدّعي الرّبوبية لنفسه، ولا يعدُّ ذلك من الإغلاظ في القول[1]، وقيل: بل يشير التّعبير بـ ﴿رَبِّكَ﴾ إلى تحقيره، والتّعريضِ به فعلًا، بأنّه من جملة عبيد مُرْسِلِهما؛ تكذيبًا له في ادّعائه الرّبوبيّة[2]، الّتي حاول أن يثبّتها في قلوب أتباعه.

دلالة الإفراد ﴿رَبِّكَ﴾ دون الجمع (رَبِّكُم):

فرعون هو المعنيُّ بالخطاب؛ لأنه ليس ربًّا، بل مربوبًا

دلّ الإفراد في كاف الخطاب ﴿رَبِّكَ﴾ على أنّ المَعنيَّ هو فرعون، وليس ملأَه وحاشيتَه؛ لأنّهم مأمورون بأمره، وهو قد زعم لنفسه الرّبوبيّة، فالمطلوب توجيه الخطاب له وحدَه؛ لأنه لو اقتنع وتخلّى عن دعوى الرّبوبية، فسيُطيعونَه بلا ريب.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾:

مطلب إرسال بني إسرائيل مع الرّسولَين، مترتّبٌ على ما سلف ذِكْره

الفاء في قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، فإنّ كونهما عليهما السلام رسولَي ربّه تعالى، ممَّا يوجب إرسالَهم معهما، فدخلت الفاء على طلب إطلاقِ بني إسرائيل؛ لأنّه جعلَ طلبَ إطلاقِهم كالمستقرّ المعلوم عند فرعون؛ إمَّا لأنّه سبقت إشاعةُ عزمِهما على الحضور عند فرعون لذلك المطلب؛ وإمَّا لأنّه جعلَه لأهميّته كالمُقرّر، وتفريع ذلك على كونهما مُرسَلَين منَ اللّه ظاهر؛ لأنّ المُرسَلَ منَ اللّه تجبُ طاعتُه[3].

سِرّ التّعبير بالإرسال دون البعث:

الإرسال دليلٌ على وجود مُرسِل، وهو الله جل جلاله

أوثِر التّعبيرُ بالإرسال دونَ البعث في قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾؛ لمناسبة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 292.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 229.

الإرسال لهذا المشهد في قصَّة موسى وهارون مع فرعون؛ لأنّهما ما طلبا هذا إلّا عن رسالةٍ كلّفهما اللّهُ تعالى بها، وليس من اجتهادهما؛ لأنّ الفعل (أرسل) يقتضي وجودَ مُرسِلٍ، وهو اللّه تعالى؛ ولأنّ الإرسال يحمل معنى الإطلاق؛ فتقول: (أرسله) أي: أطلق سراحَه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ بني إسرائيل كانوا مقيّدين تحتَ حُكم فرعون، والغَرَض منَ الإرسال إطلاقُ سراحهم من ذُلّ هذا القيد.

دلالةُ أمر فرعون في قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾:

طلبُ الإرسال، يعني إطلاقَهم مـنَ التّقييد والـتّـعـذيـب الشّديد

المراد بطلب إرسالِ بني إسرائيلَ معهما "إطلاقُهم منَ الأسر، وإخراجهم من تحت يده الباطشة، لا تكليفُهم أن يذهبوا معهما إلى الشّام، كما يُنبىء عنه قولُه سبحانه - بعد ذلك -: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾"(1)، وفيه دلالةٌ على التّهوين من أمر فرعون، بتوجيه أمرٍ إليه، وهو الذي يَدّعي الأُلوهيّة والرّبوبيّة؛ فكيفَ يكون إلهًا ويأمره غيرُه؟!.

دلالة المعيّة في قوله: ﴿مَعَنَا﴾:

التّعجيل والإسراع في إرسال بني إسرائيل، مطلبُ موسى وقومِه

التّعبير بالمعيّة في قوله: ﴿مَعَنَا﴾، كنايةٌ عنِ الإسراع في إطلاقهم منَ الأسر والتّعذيب، أي: عجِّل بإصدار الأوامر الّتي تفضي إلى إطلاقهم، وكفِّ يَدِ التّعذيب عنهم، وفيه إشارةٌ إلى ولاية موسى وهارون لأمر بني إسرائيل، في الدّفاع عنهم، والحفاظِ على مصالحهم.

سِرّ تقديم ﴿مَعَنَا﴾ على ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

رسالةُ الله إطلاقٌ منَ القيود، وتَحرّرٌ منَ الظّلم والجمود

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مَعَنَا﴾ على قوله: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للاهتمام بهم، وأن يعرفوا أنّهم إنّما أُطلِقَ سراحُهم من جبروت فرعون برسالة اللّه الّتي نحملها إليك؛ لعلّ ذلك أن يكون دافعًا لهم للإيمان برسالتهما، والصّدقِ معهما، وهذا الغرضُ لا بدّ أن يكون مستبطنًا في نيّة الرّسولَين وضميرهما، فهو ممَّا لا يَحْسُن البوحُ به أمامَ فرعون، الّذي كان يرى نفسَه ربًّا لهم ولغيرهم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.

سِرّ إيثار التّعبير ببني إسرائيل عنِ اليهود:

التّعبير عنهم بـ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون اليهود، إطلاقٌ باعتبار النّسَب إلى نبيّ اللّه يعقوب عليه السلام، فهو ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وهو بهذا الاعتبار أوسع منَ التّعبير باليهود، وفيه دلالةٌ على تبكيت فرعون؛ لأنّ هؤلاء ينتسبون إلى بيت النّبوة ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ نبيّ اللّه يعقوب؛ فما كان له أن يستذلَّهم، ولا أن يعذِّبَهم.

اعتبارُ النّسب إلى إسرائيل، وهو نبيّ الله يعقوب عليه السلام

سِرُّ الاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيلَ من فرعون:

يعود الاكتفاء بطلب إرسال بني إسرائيل من فرعون دون قومِه، إلى أسبابٍ مِن أهمّها؛ **أوّلًا:** أنّ موسى عليه السلام رسولٌ مِن بني إسرائيل، أُرسِلَ لإنقاذهم وجَعْلِهم أمّةً مستقلّة، خرجت من تحت حُكم فرعون؛ فهم قومه، ودعوتُه إليهم لا إلى غيرهم؛ فموسى لم يُرسَل لخطاب القِبط بالشّريعة على وجه التّأصيل، مع أنّه دعى فرعونَ وقومَه إلى التّوحيد، من باب الأمر بالمعروف وتغيير المُنْكَر، **وثانيًا:** تخليص بني إسرائيلَ من أسر فرعون، مقصدٌ مهمٌّ، ومفتاحٌ لاستمالة بني إسرائيل لقبول دعوته.

بيان خصوصيّة دعوة موسى وهارون ببني إسرائيل

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ قد تكون عاطفةً؛ لأنّها عطفت النّهي عن عذابهم، على الأمر بالإرسال في قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ وذلك لاشتراكهم في تكليفات اللّه لموسى وهارون عليهما السلام.

كان بنو إسرائيل يعيشون المعاناةَ والعذابَ

سِرّ النّهي عنِ التّعذيب بالمضارعة:

عبّر القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾؛ لبيان الحالة التّي كان عليها بنو إسرائيل من تعذيب فرعون لهم، وهذا ما قصّه القرآنُ في بعض آياته، فقد ذكر في سورة البقرة تعذيبَهم بقوله: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ

كان المطلوبُ إخراجَ بني إسرائيلَ منَ الأعمال الشّاقة المسلّطة عليهم

﴿٤٩﴾ [البقرة: 49]، وهذا المعنى تكرّر ذِكْره في سورة الأعراف، وفي سورة إبراهيم، وفي سورة الدّخان، في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [الدّخان: 30]، وصورة ذلك أنّ فرعون ومَلَأَهُ كانوا "يُعَذِّبونَهُم بتَكْليفِ الأَعْمالِ الشّاقَّةِ؛ مِنَ الحَفْرِ والبِناءِ، ونَقْلِ الحِجارَةِ والسُّخْرَةِ، في كُلِّ شَيْءٍ، مَعَ قَتْلِ الوِلْدانِ، واسْتِخْدام النِّساءِ"[1]، وهذه كلّها أعمالٌ شاقّةٌ مُؤلِمَة حسّيًّا ونفسيًّا، ولذا عبّر عنها بالتّعذيب، فالعذاب "هو الإيجاع الشّديد"[2]، وسِرّ التّعبير به مضارعًا؛ كونُ هذا التّعذيب كان قائمًا وقتَ هذا الخطاب، فهو تعبيرٌ عن واقع الحال، واستحضارٌ للحالة الّتي كانوا عليها.

دلالة الأمر والنّهي في الآية:

السّياق يأمر فرعون وينهاه؛ لكسرِ ادّعائه الألوهيّة

النّاظر في هذه الآية يجد أنّها اشتملت على أمرٍ في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ونهي في قوله: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾؛ وذلك لهدم سلطانه وجبروته؛ لأنه يظنُّ أنّه هو الّذي يملك الأمر والنّهي، فلم يتصوّر يومًا ما وجودَ أحدٍ أيًّا كان من شعبه أو ممّن تحت إمرته، أن يأمره وينهاه، وينقص ملكَه بإخراج بني إسرائيل، وفي هذا دليلٌ على أنّ زعمه وادّعاءَه الأُلوهيّة كذبٌ وخروجٌ على منطق الفطرة.

دلالة التّعبير بالأداة ﴿قَدْ﴾ في السّياق:

تأكيد صدق موسى وهارون عليهما السلام في بلاغهما عنِ الله

دلّ دخول ﴿قَدْ﴾ على الفعل الماضي ﴿جِئْنَٰكَ﴾ في قوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ﴾، على التّحقيق والتّأكيد، ومجيئه هنا في الجملة لتحقيق صدقهما، في كونهما رسولَين منَ اللّه تعالى إليه، وتأكيده[3].

سِرّ البَدء بطلب إرسال بني إسرائيل:

بدأ موسى وهارون عليهما السلام دعوتَهما إلى فرعون الطّاغية بطلب

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 338.
(2) الرَّاغب، المفردات: (عذب).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.

مراعاةُ الأولويّات في الدّعوة والحوار، ضروريّةٌ في السّعة والاضطرار

إرسال بني إسرائيلَ معهم، في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾، وذلك قبلَ دعوته وآلِه إلى الإيمان؛ للتّدرّج في الدّعوة، ولأنّ البَدء بطلب إرسالهم أهمُّ من دعوة القِبط[1].

سِرّ فصل جملة ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ﴾ عمّا قبلها:

من البلاغة أن تكون جملة الفصل بيانًا لما قبلَها

فُصِلت جملة ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ عمَّا قبلها؛ لأنّها بيانٌ لجملة ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، فكانتِ الأولى إجمالًا والثّانية بيانًا، وفيها معنى التّعليل لتحقيق كونهما مُرسلَين منَ اللّه، بما يظهرُه اللّهُ على يد أحدهما من دلائل الصّدق، وكِلا الغرضين يوجِب فصلَ الجملة عنِ التي قبلها[2]، أو أنّ الفصل للاستئناف البيانيّ[3]؛ وذلك لأنّ هذه الجملة مُقرِّرةٌ لما تضمّنه الكلامُ السّابقُ مِن دعوى الرّسالة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ﴾، وقد جرى من ذلك الكلامُ مجرى البيان والتّقرير له؛ لأنّ دعوى الرّسالة لا تثبت إلَّا ببيّنتها، الّتي هي المجيء بالآية المعجزة[4].

دلالة التّعبير بجملة ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ﴾:

قوّةُ الحُجّة والبرهان، سبيلُ الإقناع والإفحام

عبّر القرآنُ الكريم بالمَجيء في قوله: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ﴾، مع أنّ السّياق قبلَ ذلك كان بالإتيان؛ وذلك لتصوير الحالة الّتي كان عليها موسى وهارون؛ حيثُ انتقل موقفُهما من خائِفين إلى مُرْهِبَيْن، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ﴾، أي: جئناك مُجابهين مُسلّحين بآيةٍ ﴿مِّن رَّبِّكَۖ﴾[5]؛ فالتّعبير بالمَجيء يدلّ على الشّدة والقوّة، وهي هنا نابعةٌ من قوّة الحُجّة والبرهان، الّذي أيّد به نبيُّ اللّه موسى عليه السلام؛ من معجزاتٍ أبكمت فرعونَ، كمعجزة اليد، ثمّ بعد ذلك معجزة العصا وغيرها.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 229.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على هامش حاشية القونويّ: 12/ 357.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4732.

دلالة الماضي ﴿جِئۡنَٰكَ﴾، وسِرّ الجمع:

عبَّر بالماضي لتحقُّق المَجيء، بدليل ما صحبه من معجزات

دلّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿جِئۡنَٰكَ﴾ على تحقّق المَجيء، مع وجود معوّقاتٍ كثيرةٍ؛ من بطش فرعون وجبروته، لكن كلّ ذلك لا وزنَ له بعدَ أمر اللّه ﷻ بإتيانه وإعلامه بمُراد اللّه منه، وفيه إشارةٌ إلى أنّهما أفسدا عليه جبروته واستعباده لبني إسرائيل، بل ولشعبه أيضًا، وإنّما جُمِع الضّمير في ﴿جِئۡنَٰكَ﴾، مع كون ظهور الآية إنّما كان من موسى عليه السلام وحدَه؛ لكونهما شريكَين في الرّسالة[1].

دلالة كاف الخطاب في جملة: ﴿جِئۡنَٰكَ﴾:

صيغة الخطاب بالإفراد، تُنبئ أنّ هيبة فرعون تضاءلت أمامَ هيبة النّبوّة

في توجيه الكلام له بكاف الخطاب المُجرّد عن كلّ لقب، تحقيرٌ له لكفره باللّه، ونزعٌ لهيبته ومُلكه، حيثُ خاطباه بصيغة الفرد العاديّ على خلاف مخاطبة الملوك والفراعين.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

وجود الآية المصاحبة للبلاغ، احتياطٌ لإقناع مَن لم يقتنع

تدلّ الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ على الإلصاق والمصاحبة، أي: ﴿جِئۡنَٰكَ﴾ مصحوبين أو متلبّسين ﴿بِـَٔايَةٖ﴾؛ إظهارًا لكونهما مُستَعِدَّين لإعلان الآية والمعجزة، إذا أراد فرعون ذلك، وإذا آمن من غير طلب آيةٍ يكون إيمانه أكمل، وأنَّى له ذلك؟![2].

دلالة التّعبير بلفظ (الآية) دون (معجزة):

الآية أعمّ وأشمل مِنَ المعجزة، ولذلك آثرَ القرآنُ استعمالَها

أوثِر التّعبيرُ بالآية في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ﴾ دونَ المعجزة؛ لأنّ الآية بمعنى العلامة الدَّالّة على صدق الأنبياء عليهم السلام، فهي أعمّ وأشمل؛ ولأنّها تعبيرٌ أثيرٌ في القرآن بجانب تعابيرَ أُخرى كـ (البرهان، والسّلطان، والبيّنة)، وليس مِن بينها لفظ (معجزة)، الّذي لم يَرِد في القرآن ولا في السّنة، بمعنى الدّليل على صدق الأنبياء، فهو مصطلحٌ نشأ مع ظهور المتكلّمين، مأخوذًا من حالة

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 338.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 229.

الضّعف والعجز الّتي تظهر على المُخاطَبين حالَ تحدّيهم مِن قِبَل الأنبياء بما أيّدهمُ اللّهُ به مِن أدلّة الصّدق.

سِرّ التّعبير بالإفراد في لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

تَثْبيتُ الدَّعْوَى بِـبُرْهـانِـهـا، منهجٌ للإرسال الـسّـمـاويّ السَّامي

أيّد اللّهُ تعالى موسى عليه السلام بكثيرٍ منَ الآيات، من أبرزها في محاجَّة فرعونَ آيتا (اليد والعصا)، لكنّه هنا وحَّدها باعتبار الإشارة إلى جنس الآيات، كأنّ المعنى: (قد جئناك ببيانٍ من عند اللّه)، وممَّا يُذْكَر في علّة إفرادها وعدم تثنيتها، مع وجود آيتين معه؛ أنَّ المُرادَ في هذا المَوْضِعِ تَثْبيتُ الدَّعْوَى بِبُرْهانِها، وبيانُ تعدّدِ الحُجّة، فكَأَنَّهُ قال: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ﴾ بِمُعْجِزَةٍ وبُرْهانٍ وحُجَّةٍ على ما ادَّعَيْناهُ مِنَ الرِّسالَة، وكَذَلِكَ قال: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: 105]، وقال: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾ [الشّعراء: 154]، وقال: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [الشّعراء: 30][1]، وفي هذا إشارةٌ إلى تعاضد الآيات بعضها ببعضٍ كأنّها حجّةٌ واحدة.

دلالة التّنكير في قوله: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

نَكَّر لفظَ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ ولم يأت به معرفةً؛ للدّلالة على كونها آيةً بيّنةً ظاهرةً عظيمةً، لا يملك فرعون ولا غيرُه معارضتها، وقد جاءت الآية موسومةً بالتّفخيم والتّعظيم؛ لمجيئها منَ العظيم.

سِرّ اختلاف التّعبير عنِ الآية إفرادًا وجمعًا:

بيانُ الله حُجّةٌ ظاهرةٌ، وآياتٌ باهرة

تعدّد الحديث عنِ الآية في مشهد موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون؛ حيثُ جاء مرّةً بالجمع في قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾، ومرّةً بالإفراد في قوله: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ﴾؛ وعلّة ذلك أنّ معنى الآية الإشارةُ إلى جنس الآيات، كأنّه قال: قد جئناك ببيانٍ من عند اللّه، وهذا البيان يجوز أن يكون حجّةً واحدة، أو حُججًا كثيرة[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 338، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 45.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 333.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَۖ﴾:

عبّر بالحرف ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَۖ﴾؛ للدّلالة على ابتداء الغاية، والمعنى: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ كائنة ﴿مِّن رَّبِّكَۖ﴾، وفي هذا دليلٌ على أنّ الأمر ليس اجتهادًا، بل دورُهما دورُ البلاغ عن اللّه.

كلّ وحيٍ من الله تعالى، فهو حقٌّ لا ريبَ فيه، تبلّغه الرّسل

سِرّ تكرار لفظ الرّبّ:

في تكرير لفظِ الرّب تأكيدٌ لمقرّرات الآية الكريمة، وزيادةُ توبيخٍ لفرعون، وإعلامُه بأنّه مربوبٌ مقهورٌ، وليس ربًّا ولا إلهًا.

كلّ مدّعٍ للرّبوبيّة، انتهى بالبوار والخسران والهلاك

بلاغة الإظهار في موضع الإضمار:

أظهر التّعبير القرآنيّ اسمَ الرّب في موضع الإضمار، مع الإضافة إلى ضمير المخاطَب - فرعون - ؛ لتأكيد ما ذُكِر منَ التّقرير والتّعليل[1]، أي: تقريرٍ لما تضمّنه الكلامُ السّابق من دعوى الرّسالة، وتعليلٍ لوجوب الإرسال، كما أنّ فيه تأكيدًا على تبكيت فرعون في ادّعاء الرّبوبيّة، ونسبتَه إلى كفر الإحسان[2]؛ فضلًا عمَّا هو فيه من كفر الاعتقاد.

ذِكر الرّبوبيّة تعليلٌ للإرسال، وتبكيتٌ لأرباب الضّلال

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ استئنافية[3]، والجملة بعدَها مستأنفةٌ لا محلّ لها من الإعراب، ويكون كلامُ اللّه قد تمّ عند قوله: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ﴾، ويكون قولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ وعدًا من قِبَل موسى وهارون عليهما السلام لمَن آمن وصدّق، بالسّلامة له من عقوبات الدّنيا والآخرة، ويجوز أن تكون الواو عاطفةً، ويكون قولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ من قول اللّه تعالى لهما، كأنّه قال: (فَقولا إِنَّا رَسولا رَبِّكَ، وقولا له: والسَّلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى)[4].

الإيمان بالحقّ سلامٌ من قسوة الدّنيا، وشقوةِ الآخرة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 511.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 293.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 16/ 265.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 333.

سِرّ التّعبير بالسّلام، دونَ التّحيّة:

السّلام أعمّ من التّحيّة، وجاء هنا مطلقًا دون تقييد

عبّر بلفظ (السّلام) دون التّحيّة في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾؛ لأنّه أعمّ وأشملُ من لفظ (التّحيّة)، فالتّحية نوعٌ من أنواع السّلام وجزءٌ منه، أو يكون المُرادُ بالسَّلامِ في الآية: السَّلامَةُ والإكْرامُ؛ لأنّه جاء مطلقًا من غير تقييد، وليس المُرادُ به هُنا التَّحيَّةَ؛ إذْ لَيْسَ ثَمَّ مُعَيَّنٌ يُقْصَدُ بالتَّحيَّة، ولا يُرادُ تَحيَّةُ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّها إنَّما تَكونُ في ابْتِداءِ المواجَهَة، لا في أَثْناءِ الكَلام، وهَذا كَقَوْلِ النَّبيّ ﷺ في كِتابه إلَى هِرَقْلَ وغَيْرِه: "أَسْلِم تَسْلَم"[1].

دلالة (أل) في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾:

استغراق لفظ السّلام لكلّ جنس السّلام، بين سائر الأنام

(أل) في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾، هي الجنسيّة المُفيدة لاستغراق جنس السّلام في الدّنيا والآخرة[2]، وهناك مَن يرى أنّها العهديّة؛ حملًا للسّلام على معنى التّحيّة، أي: تحيّة الملائكة لأهل الجنّة[3]، وهو مرجوحٌ؛ فالقولُ بالعموم على أن تكون التّحيّة جزءًا منه أولى.

سِرّ التّعبير بحرف الاستعلاء:

الدّلالة على التّمكن منَ الهدى، وقايةٌ من كلّ سوء على المَدى

التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾، دالٌّ على التّمكّن من ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾، فإنّ التّمكّن منه هو سببُ السّلامة في الدّنيا والآخرة؛ أي: سلامةُ من اتّبع الهدى ثابتةٌ لهم دونَ ريب، وهذا يعني: أنّ مَن تمكّنت الهدايةُ منه، وطردَ عواملَ البُعد عنِ الهداية؛ من استعلاءٍ وتجبّرٍ، صارتِ السّلامةُ عنوانًا له.

سِرّ التّعبير بـ ﴿مَنِ﴾ في السّياق:

اتّباع الهدى سببُ السّلامة في الدّارين

أوثِر التّعبيرُ بـ﴿مَنِ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ لدلالتها على العموم، والتّعبيرُ بالموصول هنا قُصِد به التّنبيه على ما تضمّنته الصّلة من كون اتّباع الهدى هو سبب السّلامة في الدّنيا والآخرة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 258 و12/ 89 و16/ 230، والحديث رواه البخاري في صحيحه برقم: (7).

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 512.

(3) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 10/ 180.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿ٱتَّبَعَ﴾ دون (تَبِعَ):

الزّيادة في المبنى دالّةٌ على الزّيادة في المعنى

التّعبير بـ ﴿ٱتَّبَعَ﴾ أبلغُ مِنَ التّعبير بـ (تبع)؛ لما تقرّر مِن أنّ الزّيادة في المبنى دالّةٌ على الزّيادة في المعنى، والدّلالة هنا هي أنّ المطلوب ليس مطلقَ ما يُسمّى (هدى)؛ بل الهدى المُحقّق للسّلامة في الدّارين، وهذا يكون بالتّحقُّق والتّمكّن منه، كما ساعد على هذا التّعدّي بـ ﴿عَلَىٰ﴾ دون اللّام.

سِرُّ التّعبير بالاتّباع دونَ غيره:

الحرص على الطّاعة والتّمكّن منها، هو مسلكُ النّجاة والأمان

أوثِرَ التّعبير بالاتّباع في قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ لأنّ الاتّباع يعني الاقتفاء والسّير خلفَ الشّيء ومراعاته[1]، فلا يحيد عنه، وهو هنا كنايةٌ عنِ الطّاعة وعدم المَحيد عن سبيل الهدى، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢٠﴾ [يس: 20]، وفيه دلالةٌ على دعوة فرعون لاقتفائه أثر موسى وهارون، والمشي خلفَهما؛ لتحصلَ له السّلامةُ في الدّنيا والآخرة، ولكنّه أبى واستكبر، فكان منَ الغارقين الهالكين.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾:

الهدى اسمٌ جامعٌ للإيمان والعمل

عبّر بـ ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ لما فيه مِن معنى الشّمول لكلّ ما يُحقّق النّجاةَ؛ منَ الإيمان والعمل، فـ"الهدى: اسْمٌ يَقع على الإيمان والشّرائع كلّها؛ إذِ الاهتداء إنّما يَقع بها كلّها"[2].

بلاغة التّعريض في آخر الآية الكريمة:

التّعريض بفرعون والكفّار، مبينٌ في سياقه عنِ المراد

في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ تعريضٌ بالكفّار، ومنهم فرعون، عُرِّض به لكي يطلبَ الهداية التّي جاء بها موسى وهارون عليهما السلام، والأمر وإن كان عامًّا، فهو داخلٌ فيه دخولًا أوَّليًّا؛ سواءٌ حُمِلَ لفظُ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ على العهد، أو على الجنس؛ فعلى حمل السّلام بأنّه تحيّة الملائكة لأهل الجنّة، ففيه تعريضٌ بأهل النّار

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 954.

بأنّهم مهانون مِن خزنة النَّار[1]، كما حكى القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ [الزّمر: 71]، وعلى أنّ المراد بالسّلام معناه العامّ، وهو الرَّاجح؛ فالتّعريض حاصلٌ للكفَّار أيضًا، بأنّهم ليسوا مِن أهله.

سِرُّ التّعبير بالماضي ﴿ٱتَّبَعَ﴾، دون مضارعه:

التّعبير بالماضي يدلّ على التّحقّق

عبَّر بالماضي في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ﴾؛ للدّلالة على أنّ المهتديَ الجديرَ بالسّلام، هو مَن تحقّق بالُهدى، وامتثل طريقَه بالفعل، وليس بالادّعاء ونحوه.

سِرّ ختام تكليفات الله لموسى وهارون بالتّحيّة:

جملةُ السّلام بليغةُ الألفاظ، مثقلةٌ بالمعاني الدّلاليّة الشّيقة

خُتِمت تكليفاتُ اللّه لموسى عليه السلام بهذه الجملة الجامعة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ لأنّها تحمل في طيَّاتها دعوةَ موسى وهارون عليهما السلام فرعونَ إلى الإيمان باللّه، والانقيادِ لأوامره ونواهيه، بإطماعه بالسّلامة الدّنيويّة والأُخرويّة إذا اتّبع الهدى وآمن؛ فاللّهُ يُسَلّمه من عذاب الدّنيا ومن عقاب الآخرة إذا صدّق وآمَن، وتحذّره إذا كذّب باللّه وبرسالته الّتي حملها إليه موسى وهارون، ومن بلاغة هذه الجملة: أنّها تُعَدّ قاعدةً في دين اللّه؛ بأنّ مِن اتّبع الهدى سَعِدَ، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123]، ومن لم يتّبع وأعرض عن منهج اللّه وهُداه، فله المعيشةُ الضّنك، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 358، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 67.

وممَّا يُذْكَر في ختام هذه التّكليفات إذا كان ختام الكلام وفصله بالسّلام؛ فيكون بمعنى التّحية؛ فكأنّما رغبَّاه في الانقياد إليهما، وفيه دلالةٌ على ما جرى عليه العرفُ من ذِكْر السّلام عند الفراغ منَ القول[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين (سورة طه) و(سورة الشّعراء):

أبرز وجوه الاختلاف في الموضعين وتوجيهها

بين قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، وقولِه في سورة الشّعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشّعراء: 16 - 17]، تشابهٌ لفظيٌّ، نبرزه فيما يأتي:

أوّلًا: في سورة طه قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾، أما في سورة الشّعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: 16]؛ والملاحظ أنّه في سورة طه لم يُصرّح باسم فرعون، واكتفى بالإضمار؛ وذلك لتَقدُّم ذِكْرِه في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ فلا يوجد داعٍ لإعادة اسمه ظاهرًا لسبق ذكره، وعدمِ وجود فاصلٍ أجنبيٍّ عنِ القصّة يوجبُ ذِكْر فرعونَ؛ أمَّا في سورة الشّعراء فقدِ اجتمع فيه أمران؛ **أحدهما:** الفصل بينَ مضمَرِ الاسم وظاهره ببضعٍ وعشرين كلمة؛ فالمسافةُ بينهما طويلة، **والثّاني:** أنّ أمر موسى عليه السلام إنّما ورد بإتيانه قوم فرعون في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: 10 - 11]، فقد يُتوهّم أنّ الجاري على هذا أن لو قيل عوضَ قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: 16] (فأتياه)، إلَّا أنّه لم يقصد إلَّا ذِكْر متبوعِهم؛ فلم يكن بدٌّ منَ الإفصاح باسمه غيرَ مُضمَرٍ[2].

ثانيًا: إفراد لفظِ الرّسول على إرادة المصدر، وتثنيّته على إرادة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 10/ 35.

(2) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 339.

الاسم: ففي سورة طه قال تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بالتّثنية، وفي سورة الشّعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: 16] بالإفراد، وتفسير ذلك: أنّ لفظ (الرَّسول) مصدرٌ يُسمّى به، فحَيْثُ وُحِّد حُمِلَ على المصدر، وحَيْثُ ثُنّيَ حُمِلَ على الاِسْم، ويجوز أن يُقال: حَيْثُ وُحِّد حُمِلَ على الرّسالَة؛ لِأَنَّهُما أُرسلا لشَيْءٍ واحِد، وحَيْثُ ثُنّيَ حُمِلَ على الشّخصين[1].

ثالثًا: إفراد الضّمير المضاف إلى اسم (الرّبّ) في آية طه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾؛ توبيخًا لفرعون وتحقيرًا، وتذكيرًا له بأن يراجع نفسه؛ لأنّه مربوبٌ لا ربّ، وفي آية الشّعراء أضيف إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: 16]؛ ليدخل فيه موسى وهارون عليهما السلام، وفرعونُ وقومه، وكلّ العالمين، وبذلك يُفهَم لماذا اقتصر في آية طه على الإضافة إلى ضمير فرعون، ولم يَدخُلْ فيه الرّسولان الكريمان عليهما السلام، فإنّ آية الشّعراء، قد تكفَّلت بهذا الشّمول لهما ولغيرهما، وعلى هذا، فالّذي يحكم أسبابَ الاختلاف ومظاهرَه، هو السّياقُ في كِلا المَوضعين.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإرسال والبعث:

الإرســال يكون برسالةٍ ونحوها، والـبـعـث قد يـكـون لـحـاجـةٍ خاصّة

قال العسكريُّ في بيان الفرق بينَ الإرسال والبعث: "يجوز أَن يبْعَث الرّجلُ إِلَى الآخر لحاجَةٍ تخصُّه دونك ودون المَبْعوث إِلَيْه، كالصَّبيِّ تبعثُه إِلى المكتب فتَقول: بعثتُه، ولا تَقول: أَرْسلتهُ؛ لأَنّ الإِرْسال لا يكون إِلَّا برسالةٍ وما يجْري مجْراها"[2]، وبهذا يظهر أنّ لفظ الإرسال في الآية هو المناسب؛ لأنّ موسى وهارون عليهما السلام، قد ذهبا إلى فرعون رسولَين مُحَمَّلَين برسالة.

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 176.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

السّلام والتّحية:

لفظ السّلام في الآية، أعمّ وأشمل من لفظ التّحيّة

التّحيّة نوعٌ من أنواع السّلام وجزءٌ منه، ولفظ (السّلام) في الآية أعمُّ وأشمل من لفظ (التّحية)، والتّعبير بالسّلام في الآية مقصودٌ به - على الأرجح - ما تتحقّق به السّلامةُ في الدّنيا والآخرة، اللّهمّ إلَّا إذا قُصِد بالسّلام التّحيّة؛ فيكون لفظُ التّحيّة أعمّ منه؛ لأنّه يدخل فيه نحو: (حيَّاك اللّه، ولَك البُشْرَى، ولَقيت الخَيْر)[1]، ولا يقتصر على السّلام عليكم، والرَّاجح: أنّ السّلام هنا ليس قاصرًا على التّحيّة كما مضى، فإيثاره أوفقُ وأنسب وأشمل.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59.

﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾ [طه: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان جزاء المكذّبين إثرَ بيانِ جزاءِ المهتدين

لَمَّا خُتِمت الآيةُ السَّابقة بقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، وهي دعوةٌ لفرعون إلى الإيمان باللّه وبصفاته وطاعته في أوامره ونواهيه؛ جاءت هذه الآية: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ﴾؛ لتحذير من كذّب موسى وهارون عليهما السلام، في رسالتهما الّتي حملاها من ربّهم، من عقاب اللّه له في الدّنيا والآخرة.

ومنها: لَمَّا قال تعالى في الآية السَّابقة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ بيَّن هنا سبيلَ مَن لم يتّبع الهدى، وهو كلّ مَن كذّب وأعرض عنه، فقال مُخبرًا ومُعلّلًا: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: (ولي) أَصلٌ يَدُلُّ على قُربٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أَيْ: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمَّا يَليني، أَيْ: يُقارِبُني[1]، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَوَلَّى) بنفسِه اقتَضَى معَنى الوَلايَةِ، وحُصولِه في أَقْرَبِ المواضِع، وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا، اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربه، فمِنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثَّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63][2]، والمُرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإِعْراضُ والإدبارُ، وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 102.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

من البيان المؤثّر في أسلوب الدّعوة، أنّ العذاب على المُكذّب المُعرِض

بيّنت هذه الآيةُ خطابَ موسى وهارون ﷺ إلى فرعون، لَمَّا علما عدمَ إيمانِه وتماديَهُ في الباطل؛ فقالا له: إنَّا قد أوحَى اللهُ إلينا أنَّ عذابَه في الدُّنيا والآخرةِ على مَن كذَّب بالحَقِّ، فلم يؤمِنْ باللّه وما جاءَتْ به رسُلُه، وأعرَض عنِ اتِّباعِ الحَقِّ، وطاعةِ اللّه(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمَّا قبلها:

الآيـة مفصولةٌ للاستئناف البيانيّ، ممَّا له أثرٌ في المعاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ﴾ هي جملةٌ تعليليّةٌ لمضمون الآية السَّابقة، فكأنّه قيل: ولماذا تدعوانِ فرعونَ إلى الهدى؟ فكان الجواب: لأنَّا ﴿قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ﴾(2)، ويجوز أن تكون الجملةُ من مقول القولِ الّذي أمرَهما أن يقولاه لفرعون؛ أي: قولا له: والسَّلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، وقولا له: إِنَّا قَدۡ أوحيَ إِلَيۡنا(3).

بلاغة التّعريض في الآية الكريمة:

التّعريض بفرعون كي يحذرَ التّكذيب، لو كان ذا عقلٍ أريب

قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فيه تعريضٌ بفرعون؛ لإنذاره على التّكذيب قبلَ حصوله منه؛ ليتمكّن الرّسولان من تبليغ الرّسالة على أتمّ وجهٍ، قبل ظهور رأي فرعون في ذلك، حتّى لا يُجابهَه بعدَ ظهور رأيه، بتصريح توجيه الإنذار إليه(4).

دلالة التّأكيد بـ﴿إِنَّا﴾ و﴿قَدۡ﴾:

التّأكيد ترهيبٌ له أثرُه البالغ على فرعون، في منطق الحوار

أُكِّدت جملةُ الإنذار بمُؤكّدَين، هما ﴿إِنَّا﴾ و﴿قَدۡ﴾؛ تأكيدًا لصدقهما فيما يُنذِران به، وتمهيدًا لشِدّة المُنذَر به، وهو ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ الشّديد في الدّنيا والآخرة، وفي التّأكيد ترهيبٌ له أثرُه على فرعون،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 78، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 204، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 506.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 293، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 512.

(3) الجمل، حاشيّة الجمل على الجلالين: 3/ 94.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 230.

بدليل أنّه انتقل إلى الاستفهام لطلب المعرفة عقبَ ذلك، ولو كان ذلك استكبارًا: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

سِرّ التّعبير بالوحي في قوله: ﴿أُوحِيَ﴾:

الدّلالة على أهميّة المُوحَى به، في السّياق المُحْكم

التّعبير بالوحي في قوله: ﴿أُوحِيَ﴾ يدلّ على قوّة المُوحَى وأهميّته، كما يدلّ على انتفاء الغرض لدى المُبلِّغ، إذ إنّه مُجرّد رسول، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: 99].

سِرّ بناء الفعل ﴿أُوحِيَ﴾ للمفعول:

صيانةُ الاسم الجليل من سفاهة فرعون، والاستهانة بالمخاطَب

"بُنيَ ﴿أُوحِيَ﴾ لما لَم يُسَمَّ فاعِلُه، ولَم يُذْكَرِ الموحي؛ فلم يقل: (منْ رَبّي)؛ لأنّ فرعون لا يعترف بالرّبوبية في الظّاهر، ولِأَنَّه كانَتْ لَهُ بادِرَةٌ، فرُبَّما صَدَرَ مِنْهُ في حَقِّ الموحي سبحانه ما لا يَليقُ بِه"[1]، فاحتَرزا منَ التّصريح به صيانةً للاسم الجليل من سفاهة فرعون، واستهانة بالمُخاطَب.

دلالة تعدّي فعل ﴿أُوحِيَ﴾ بـ ﴿إِلَيْنَآ﴾ دون اللّام:

معنى (إلينا) الإيصال وبلوغ الغاية، في سياقها المدرج

عُدّيَ الفعلُ ﴿أُوحِيَ﴾ بـ﴿إِلَيْنَآ﴾ دونَ (اللّام)؛ لما في (إلى) من معنى الإيصال وبلوغِ الغاية، وهذا هو مقصد إرسالِ موسى وهارونَ عليهما السلام إلى فرعون؛ بخلاف اللّام فلا تؤدّي معنى الغاية، بل قد يُفهَم منها معنى الاختصاص، كأنّ الوحي لهما لذاتهما لا للبلاغ إلى فرعون، ولأنّ الفعل ﴿أُوحِيَ﴾ إذا تعدّى باللّام كان معناه التّسخير، قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾ [الزلزلة: 5] أي: ألهمها، أو أذن لها ربُّها بالشّهادة؛ فتشهد[2].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿إِلَيْنَآ﴾:

هارونُ مكلّفٌ مع أخيه موسى بالاشتراك معه في الدّعوة والبلاغ

دلّ التّعبير بقوله: ﴿إِلَيْنَآ﴾ على الشّراكة بين موسى وهارون عليهما السلام، في الرّسالة والوحي.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 339، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 204.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/ 210، والماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 10/ 598.

العذاب هو الألم الموجِع المُستمرُّ، والعقابُ قد لا يكون كذلك

دلالة التّعبير بالعذاب دون العقاب:

عبَّر بالعذاب في قوله: ﴿أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ لما يدلّ عليه من معنى الإيلام والوجع المستمرّ، أمَّا العقاب فقد يكون قويًّا مؤلمًا، وقد لا يكون كذلك؛ لأنّ المقصود به ما يقع من جزاءٍ عقيبَ فعلٍ معيّن[1]، ثمّ هو بحسبه من حيثُ الشّدّة والإيلام أو عدَمُه، والتّعبير بـ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ موافقٌ بهذا المعنى لما كان يفعله فرعون ببني إسرائيلَ؛ مِن سَومِهم سوءَ العذاب، كما ذكرت ذلك آياتُ القرآن، ومنها قولُه: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة: 49]، وأيضًا هو موافِقٌ لما قصّه القرآنُ في عذاب آل فرعون بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46].

(أل) في لفظ (العذاب) للاستغراق أو الماهيَّة، وكلاهما مُعبِّرٌ عنِ المراد

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾، إمّا أن تكون للاستغراق أو الماهيَّة، وعلى التّقديرين يقتضي قدر ثبوتِ هذا الجنس ودوامه؛ لما تُفْهِمُه الاسميّة ﴿عَلَىٰ﴾ كلّ ﴿مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أوقع التّكذيبَ والإعراض[2]، فيشمل لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ هنا - على كونه للجنس - العذابَ الدّنيويّ والأُخرويّ[3].

في قصّة فرعون غَلَبتْ عليه شِقوتُه، وطغت نوازعُ الشّرّ فيه فأهلكته

سِرّ البَدء بالتّخويف بالعذاب في دعوة فرعون:

ابتدأ موسى وهارون عليهما السلام الدّعوةَ بالجُزْء المَخوف منها، وهو العذاب لِمَن تولّى وأعرض ونأى بجانبه عنِ الدّعوة؛ وذلك لأنّ الجبابرة يُرهبُهم الأمرُ المُغيّب عنهم ويُفْزِعُهم، فيحاولون من بعد إرهابهم الاستماعَ إلى القول، وإن كانت عاقبةُ الاستماعِ في

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 293.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 19.

الاستجابة غيرَ محقّقةٍ، فالشّرّ يُنازِع نفوسَهم، ويقاومُ الخيرَ، فأيُّهما غلبَ كانت العاقبةُ له[1].

دلالة إطلاق العذاب في الآية دون تقييد:

إطلاق ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يفيد العمومَ، دونَ تقييدٍ بالدّنيا أو الآخِرة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النّازعات: 25 - 26][2].

ملمَحُ الشّمول والعموم، يستوعِبُ الحياتَين العاجلةَ والآجِلة

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾، دالٌّ على تمكّن العذابِ الشّديد المستمرّ، ممّن كذّب وتولّى.

مَن كذّب وتولّى، فبنارِ العذابِ سوف يُصْلَى

سِرّ التّعبير بـ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن كَذَّبَ﴾:

دلَّ التّعبير بـ ﴿مَن﴾ الموصولة في قوله: ﴿مَن كَذَّبَ﴾، على إفادة العموم، وليس على فرعونَ وحدَه، فكلُّ مَن كذّب وتولّى قد حَقّ عليه هذا العذاب.

ليس فرعون مخصوصًا بالعذاب؛ بل كلّ من كذّب يعذّب بالنّار

سِرّ التّعبير بالتّكذيب في قوله: ﴿كَذَّبَ﴾:

في التّعبير بقوله: ﴿كَذَّبَ﴾ تعريضٌ بفرعون؛ لكونه قد وقع منه التّكذيبُ بموسى عليه السلام وبما جاء به.

في الكلمة تعريضٌ بفرعون؛ لكفرانه وطغيانه

سِرّ التّعبير بالتّولية وعطفِها على التّكذيب:

الواو في قوله: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عاطفةٌ؛ للجمع بينَ التّكذيب والتّولّي، والتّوليَة: هي الإعراض بعدَ التّكذيب، وفي التّعبير بها تعريضٌ بفرعون؛ لكونه قد وقع منه الإعراضُ عن موسى عليه السلام، وعمّا جاء به منَ الوحي الصّادق.

فرعونُ جمع بينَ التّوليَة والتّكذيب، ولم يُفِدْه ترغيبٌ ولا ترهيب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4733.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 231.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الكذب والافتراء:

الكَـذب أعمّ مِنَ الافتراء، والافتراء أشدُّ الكَذب، وهو أخصّ منه

الكذب: هو كلّ خبرٍ مُخْبِرُه على خِلاف ما أخبرَهُ[1]، والافتراء: العَظيم من الكَذِب، يُقال لِمَن عمل عملًا فبالغ فيه: إِنَّه ليَفْري الفِرَى، ومعنى افترى: افتعل واختلق ما لا يَصِحُّ أَن يكون؛ وما لا يَصح أن يكون أَعمُّ مِمَّا لا يجوز أن يُقال، وما لا يجوز أن يفعل[2]، وبذلك يُعْلَم أنّ الكذب أعمّ منَ الافتراء، والافتراءُ أخصّ منه.

التّولّي والإعراض:

الإعراض والتّولّي كلاهما من بابٍ واحدٍ، وإن كان الإعـراضُ أسوأَ حالًا

الإِعْراض: وهوَ أَن تولّي الشَّيْءَ عَرْضَكَ، أَي: جانِبَكَ، ولا تُقْبِل عليه، وهو الانْصِراف عَنِ الشَّيْء بِالقَلْب.

والتّولّي: الاعراضُ مُطلقًا، ولا يلْزمه الإدبار، فإِنّ تَوَلّي الرَّسولِ ﷺ المذكور في قوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ [عبس: 1] عن ابْن أمّ مَكْتوم لم يكن بالإدبار، والتّولّي بالإدبار، قد يكون على حَقيقَته، كما في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كِنايَةً عَنِ الانهزام، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التّوبة: 25]، وقد يكون لحاجَةٍ تَدْعو إِلَى الانْصِراف مَعَ ثُبوت العقد.

وقال بعضهم: المُعْرِض والمُتولّي يَشْتَرِكانِ في ترك السّلوك، إِلَّا أَنّ المُعْرِض أَسْوَأُ حالًا؛ لِأَنّ المُتَوَلّي مَتى نَدِم سَهُل عليه الرُّجوع، والمُعْرِض يحْتاج إلى طلب جَديد، وغايَة الذَّمّ الجمع بَينهما، والتّولّي إذا تعدَّى بـ (إلى) يكون بمَعْنى الإقبال، وعليه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: 24]، وإذا تعدَّى بـ (عن) لفظًا أو تَقْديرًا اقْتضى معنى الإعراض وترك القُرب، وعليه قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63][3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 45، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 742.
(2) الكفويّ، الكلّيَّات، ص: 154.
(3) الكفويّ، الكلّيَّات، ص: 309، والرَّاغب، المفردات: (ولى).

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩﴾ [طه: 49]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ دعوةِ فرعونَ باستنكاره أن يكون لموسى وهارون ربٌّ سواه

لَمَّا قال سبحانه لموسى وهارون في الآية السَّابقة: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إلى آخِرِ ما أمَر به، وتضمّن قولُهما أنّ لِمُرسلهما القُدرةَ التَّامَّةَ والعِلْمَ الشَّامِلَ؛ تسبّب عنه سؤالُ فرعونَ عن تعيين ذلك الرّبِّ الّذي له منَ القوّة والقُدْرة أن أرسلَكما(1)، فقال سائلًا مُستنكرًا مُتَهكِّمًا: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَّبُّكُمَا﴾: (ربّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على إِصْلاحِ الشَّيْءِ والقيام عليه، فالرَّبُّ: المالِكُ، والخالِقُ، والصَّاحِبُ، والرَّبُّ: المُصْلِحُ لِلشَّيْءِ، واللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ الرَّبُّ؛ لِأَنَّهُ مُصلِحُ أَحْوالِ خَلْقِه، ويُقالُ: رَبَّ فُلانٌ ضَيْعَتَهُ، إذا قامَ على إِصْلاحِها(2)، والمراد بالرَّبِّ في الآية: الخالِقُ والسَّيِّدُ بِموجب الخالقيَّة، وهو أيضًا: المالِكُ المُتَصَرِّفُ بِالتَّدْبير، ورَعْيِ الرِّفْقِ والرَّحْمَةِ(3).

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

تساؤلُ فرعونَ عن ربّ موسى وهارون تساؤلُ تكبُّرٍ وتجبُّرٍ

بيّنت هذه الآيةُ أنّ موسَى وهارونَ عليهما السلام، لَمَّا ذهبا إلى فِرعَونَ وكلَّماه بما أمَرَهما اللّهُ سبحانه، قال فرعون مُجادِلًا على وجه الإنكار: فمَنْ ربُّكما الَّذي تعبُدانِه - يا موسى - وتَزعُمانِ أنَّه أرسَلَكما إليَّ(4).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 293.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رب).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 49.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 79، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 297، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 18.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصلِ هذه الآية عمّا قبلها:

شِبهُ كمالِ الاتّصالِ بينَ الجملةِ وما قبلَها، مُفصِحٌ عنِ المُراد

فُصل قولُه سبحانه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ عمَّا قبله؛ لأنّه وقع جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ: فماذا قال فرعون بعد أن أتياهُ، فأمراه وحَذّراه؟ فكان الجواب: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟ فبينَ الجملة وما قبلَها شِبهُ كمالِ اتّصال.

دلالة التّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾:

الإيجاز بالحذف، مُؤدٍّ للمعنى بأقلّ لفظ

عطفت الفاءُ جملةَ السّؤالِ على محذوفٍ قبلَها، تقديرُه: (فأَتياهُ فقالا له ما أُمِرا به، فقال): ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾؟، ففي الآية حذفُ جُمَلٍ دلّ عليها السّياق؛ قصدًا للإيجاز[1]، فالفاء لا تدخل في أوّل الكلام، فكان في ذلك دلالةٌ على سؤالٍ مُقَدّرٍ محذوفٍ، تقديرُه: (فقال مجيبًا لهما): ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾؟[2].

دلالة تثنيّةِ خطابِ فرعونَ لهما، وتخصيصِ موسى بالنّداء:

أصالةُ موسى في الرّسالة، وتبعيّةُ هارونَ له

وجَّهَ فرعونُ الخِطاب إليهما بالضّمير المُشْتَرك، أي: لموسى وهارون عليهما السلام، ثمّ خَصّ موسى بالإقبال عليه بالنّداء؛ لِعِلْمه بأنّ موسى هو الأصلُ بالرّسالة، وأنّ هارونَ تابعٌ له، وهذا وإن لم يحتوِ عليه كلامُهما، فقد تعيّن أن يكون فرعونُ عَلِمَه مِن كيفيّة دخولِهما عليه ومُخاطبتِه، ولأنّ موسى كان معروفًا في بِلاط فرعون؛ لأنّه ربَّاه، كما دلّ عليه قولُه له في آية سورة الشّعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشّعراء: 18]، ولعلّ موسى هو الّذي تولّى الكلامَ، وهارونُ يُصَدّقُه بالقول أو بالإشارة[3]؛ لأنّ موسى هو المُتكلّم، فما كانا يتكلّمان معًا، بل كان يتكلّم موسى ويوافِقُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 231.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 146.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 231.

هارونُ[1]، وقيل: إنّه أعرض عن مخاطبة هارونَ عليه السلام لكونه أفصحَ، فلعَلّه قد حملَهُ "خبثُهُ ولُؤْمُه على استدعاء كلامِ موسى، دونَ كلامِ أخيه؛ لما عُرِف من فصاحة هارونَ، والرُّتَّة[2] في لسان موسى، ويدلّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ [الزّخرف: 52][3].

دلالة الاستفهام، في سياق الآية:

الاستفهام المغالِط هو الّذي يكون غرضُه الإنكارُ والتّهكُّم

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ تهكُّميٌّ إنكاريٌّ[4]، أو تعجُّبيٌّ من قبل فرعون[5]، قصد به السّخريّةَ من موسى وهارون عليهما السلام، في دعواهما أنّ هنالك ربًّا غيره.

سِرّ التّعبير بـ ﴿فَمَن﴾ هنا، وفي الشّعراء بـ ﴿وَمَا﴾:

تختلف صيغةُ السّؤال لاختلاف المُتعلّق عن الكيفيّة أو عن الماهيّة

جاء التّعبير عن سؤال فرعون لموسى وهارون عن ربّهما في هذه السّورة بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، وفي سورة الشّعراء قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ [الشّعراء: 23]؛ وذلك لاختلاف متعلّق السّؤال، ففي سورة طه كان عن الكيفيّة؛ لذلك جاء بـ ﴿فَمَن﴾؛ أمّا في سورة الشّعراء فجاء بـ ﴿وَمَا﴾ [الشعراء: 23]؛ لأنّه سؤالٌ عنِ الماهيّة، وهما سؤالان مختلفان والواقعةُ واحدة.

والأقرب أن يقال: سؤال ﴿فَمَن﴾ كان مقدّمًا على سؤال (ما)؛ لأنّه كان يقول: إنّي أنا الله، والرّب، فقال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾، فلمَّا أقام موسى الدّلالة على الوجود، وعَرَف أنّه لا يمكنُه أن يقاومَه في هذا المقام لظهوره وجَلائِه، عدلَ إلى المقام الثّاني، وهو طلبُ الماهيّة[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4732.

(2) الرُّتَّة: العجلة في الكلام، وقلّة الإبانة، يُنظر: ابن سيده، المحكم: (رتت).

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 67.

(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 308.

(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 57.

(6) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 57.

سِرّ استفهام فرعون عنِ الرّبوبيّة دونَ الأُلوهيّة:

الإشعار بأنّ فرعون كان عالماً بالإله، ولكنّه يَجْحَد

في استفهام فرعون عنِ الرّبوبية دونَ الألوهيّة في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾، إشعارٌ بأنّه كان عالمًا بالله؛ لأنّه تركَ المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره، وشرعَ في المقام الصّعب؛ لأنّ العِلْم بماهيّة الله تعالى غيرُ حاصِلٍ للبشر، فلذلك قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾، ولم يقل: (فمَن إلهكما؟)؛ لأنّه أثبتَ نفسَه ربًّا في قوله: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشّعراء: 18]، فذكر ذلك على سبيل التّعجّب، كأنّه قال له: أنا ربّكَ، فلِمَ تَدَّعي ربًّا آخَرَ؟[1].

دلالة ضمير المثنّى ﴿رَّبُّكُمَا﴾، والإفراد لموسى:

الخطاب كان للرّسولَين الكريمَين، فخوطبا في سياقٍ واحدٍ

دلّت إضافةُ الضّمير إليهما في قوله: ﴿رَّبُّكُمَا﴾ على أنّ الخطاب كان متوجّهًا إلى موسى وهارونَ عليهما السلام، وأنّ إفراده بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ فلِغَرضٍ آخر، كأن يكون قد فهم أنّ موسى عليه السلام هو الأصل، أو لسبق معرفته به، أو هربًا من سؤال هارونَ عليه السلام؛ لأنّه كان أفصحَ لسانًا، أو لأنّ موسى عليه السلام هو المأمورُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ لأنّه هو الأصل.

دلالة ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾:

اعتراضُ فرعون على المَربوبيّة، وذلك بحكاية قولهما

أعرض فرعونُ عن أن يقول: (فَمَنْ رَبّي)؟ إلى قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾؟ إعراضًا عنِ الاعتراف بالمَربوبيّة، ولو بحكاية قولهما؛ لئَلَّا يقعَ ذلك في سمع أتباعِه وقومه، فيحسبوا أنّه متردّدٌ في معرفة ربّه، أو أنّه اعترف بأنّ له ربًّا[2]، وللدّلالة على غاية طغيانه، وشِدّة عُتوّه.

دلالة قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ في آخر الآية:

دلّ قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾، على أنّ فرعونَ أدركَ أنّه يخاطب شخصًا

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 57.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 231.

له مكانتُه، وأصبح أهلًا للتّخاطُب والحوار في المجتمع، فكأنّه في مقابلة شخصٍ ينازعُه السّيادةَ، وليس كما كان تصوّرُه عن موسى الوليدِ الّذي ربّيَ في قَصْره.

دلالـــة سياق الخـطـاب على وعـــي فـرعـون بـقــوّة مـوسى ومكانته

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: 50]

الرّبط بين السّؤال وجوابه؛ لإثبات الوحدانيّة لله تعالى بمعجزاته في مخلوقاته

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكرت الآية السَّابقة توجُّهَ فرعونَ بسؤالِ موسى ﷺ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ جاءت هذه الآية ببيان جوابِ موسى ﷺ، بإثباتِ الرّبوبية للّه لجميع الموجودات، بقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡطَىٰ﴾: (عطو) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على أَخْذٍ ومُناوَلَةٍ، فالعَطْوُ: التَّناوُلُ باليَدِ، قالَ الخَليلُ: ومِنْهُ اشْتُقَّ الإِعْطاءُ، واختصَّتِ العطيّة والعطاء بالصّلة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ [ص: 39]، والمُعاطاةُ: المُناوَلَةُ[1]، ويُقالُ: عاطَى الصَّبيُّ أَهْلَهُ، إذا عَمِلَ وناوَلَ ما أرادوا، والعَطاءُ: نَوْلٌ للرّجل السَّمحِ[2]، وهيَ العَطيَّةُ، والجَمعُ عَطايا، وجَمعُ العَطايا أَعْطِيَةٌ[3]، والمُرادُ بالإعطاء في الآية: التَّقديرُ، أي: قدَّر قَدَرًا، وتَقْديرُ اللّه الأشياء على وجهين؛ أحدهما: بإعطاء القُدْرَة، يُقالُ: قَدَّرَني اللّهُ على كذا وقوَّاني عليه، والثَّاني: بأن يجعلَها على مِقْدارٍ مخصوصٍ ووَجهٍ مخصوص، حسبما اقتضتِ الحكمة، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ ٢١﴾ [الحجر: 21][4].

2) ﴿خَلۡقَهُۥ﴾: الخَلْقُ أصلُه: تَقْديرُ الشَّيءِ[5]، والخَلْقُ في كلام العَرَبِ على وجهين؛ الأوّل: ابتداعُ الشّيء على مثالٍ لم يُسبَق إليه[6]،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرَّاغب، المفردات: (عطو).
(2) ابن سيده، المحكم: (عطو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عطو).
(4) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (قدر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفَّاظ: (خلق).

والآخر: التَّقدير، تقولُ: خَلق اللهُ الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا، أَحدثَه بَعْدَ أَن لَم يَكُنْ، والخَلْقُ يَكونُ المَصْدَرَ ويَكونُ المَخْلوقَ[1]، وتقولُ العَرَبُ: خَلَقْتُ الأَديمَ: إذا قَدَّرته وقِسته؛ لتقطعَ منه مَزادَةً، أو قُربةً، أو خُفًّا[2]، والمُرادُ بالخَلْقِ في الآية: مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الإيجادِ، وهو إيجاد الشّيء منَ الشّيء؛ نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1، الأعراف: 189، الزّمر: 6]، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ الخَلْقُ بالمَعْنَى الأَخصّ، وهو الخَلْقُ على شَكْلٍ مَخْصوصٍ، فهوَ بِمَعْنَى الجَعْلِ، أَي: الَّذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مِنَ المَوْجوداتِ شَكْلَهُ المُخْتَصَّ به، فكوَّنَتْ بِذَلِكَ الأَجْناسُ والأَنْواعُ والأَصْنافُ والأَشْخاصُ مِنْ آثارِ ذَلِكَ الخَلْقِ.

3) ﴿هَدَىٰ﴾: أصلُ الهُدَى: الرَّشادُ والبَيانُ، والدّلالةُ بلُطْفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطْلوبِ، يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، وهو لازِمٌ ومُتَعَدٍّ، يُقال: هَداه، هُدًى، وهَدْيًا، وهِدايَةً، وهِدْيَةً، وهَداهُ للدّين وإلى الدّين، أي: أَرْشَدَهُ إليه، وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ[3]، والهِدايَةُ: الإِرْشادُ على المَقْصِدِ النَّافِعِ والدّلالَةُ عليْه[4]، والمقصود بالهُدَى في الآية: الهداية الّتي عمّ بجنسها كلّ مكلّفٍ، منَ العقل والفِطنة والمعارف الضّروريّة، الّتي أعمّ منها كلّ شيء بقَدَرٍ فيه حسبَ احتماله، كما قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[5].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الجمع بينَ الخَلقِ القويم، والهداية إلى الصّراط المستقيم

بيّنت هذه الآيةُ جوابَ موسى عليه السلام على سؤال فرعون، بقوله: ربُّنا الَّذي أعطى كلَّ مخلوقٍ صورتَه الّتي تميِّزُه، وشَكلَه الَّذي يناسِبُه،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هدي)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 277، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 343.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 101.
(5) الراغب، المفردات: (هدى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 101.

وأعطى كلَّ ذكَرٍ وأنثَى الشَّكلَ المُناسِبَ له من جِنسِه في المناكحةِ، والأُلفةِ والاجتماعِ، وأعطاهم كلَّ ما يحتاجونَه، ثمَّ هدى كلَّ مخلوقٍ إلى تحصيلِ مَنافِعِه، والحَذَرِ من مضارِّه(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل الآية عمَّا قبلها:

نـمـوذجٌ لـلاستـئـنـاف البـيـانيّ، جريًا على المعهود في المحاورات

فُصل قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ عمَّا قبله؛ لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ جريًا على المعهود في المحاورات والمقاولات، ببنائها على سؤالٍ مقدّرٍ: فبماذا أجابَه موسى عليه السلام؟ فكان هذا هو الجواب.

دلالة جواب موسى عليه السلام على فرعون:

انـتـزاعُ اعـتراف فـرعـونَ بـأنّـه مخلوق مربوب

أجاب موسى عليه السلام فرعونَ بهذا الجواب الوارد في قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، وهو جوابٌ يقطع فيه موسى بأنّ ربّنا هو خالق جميع الموجودات، ومُدبّر أمرِها، وفرعونُ واحدٌ منها، وهذا الجواب منه عليه السلام يدلّ على أنّ فرعون كان يعلم هذا الجواب ولا ينكره في نفسه، وإن أنكرَه ظاهرًا، فـ"كلمة ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ تقتضي وصف المعرفة بجملةٍ معلومة، فلا بدّ وأن تكون هذه الجملةُ قد كانت معلومةً له"(2)، ويُشْعِر بهذا العِلْم قولُه تعالى حكايةً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء: 102].

سِرّ العدول عن التّثنية إلى الجمع في ﴿رَبُّنَا﴾:

ربـوبـيّـة الـلـه تـعـالى تشمل الدّنيا والآخرة، ويخضع لها كلّ الجبابرة

عدل موسى عليه السلام عنِ التّثنية إلى الجمع في قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾؛ لأنّ سؤال فرعونَ الّذي بُنِيَ عليه هذا الجواب، كان بالتّثنية ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ استنكارًا لأن يكونَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 47، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 204، 205.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 57.

مشمولًا معهما في مَربوبيّته، فكان الجوابُ بالجمع على خلاف ما أراد، أي: ﴿رَبُّنَا﴾ جميعًا وأنتَ منهم ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾.

وممَّا يذكر في سِرِّ العدول: أنّ فرعون سأل عنِ الماهيّة والكيفيّة، ولم يُجِبه موسى على ذلك، بل عدل في الجواب إلى آثار صنعته في خَلْقه، وأنّه ربّ كلّ شيء، وفرعون شيءٌ مِن هذه الأشياء؛ لأنّ مقصود موسى عليه السلام إيجابُ العبوديّة على فرعونَ، واستجلابُ الشّكر منه؛ لأنّه مغمورٌ في إنعام اللّه وعطائه[1].

سِرّ التّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾:

تخصيصه سبحانه وتعالى بالوحدانيّة، تعبيرٌ عن كمال الألوهيّة

أوثِر التّعبيرُ باسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾؛ لدلالته على تخصيصه سبحانه بالوحدانيّة، ثمّ عرّفه بجملة الصّلة ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾، الّتي يُقرّ بها فرعونُ في نفسه، وإنِ امتنعَ عنِ الاعتراف بها ظاهرًا.

سِرّ التّعبير بالعطاء في قوله: ﴿أَعۡطَىٰ﴾:

الإعطاء دليلٌ على الإنعام، وعطاءُ الله لا حدودَ له

مِن أسرار التّعبير بالإعطاء في قوله: ﴿أَعۡطَىٰ﴾ التّنبيه على أنّ الخلق والتّكوين نعمةٌ، فهو استدلالٌ على الرّبوبيّة وتذكيرٌ بالنّعمة معًا[2]؛ لأنّ الإعطاء مرادٌ به هنا التّقدير، وتقديرُ اللّه الأشياءَ على وجهين؛ أحدهما: بإعطاء القدرة، يقال: قَدّرَني اللّهُ على كذا وقوّاني عليه، والثّاني: بأن يجعلها على مقدارٍ مخصوصٍ، ووجهٍ مخصوصٍ، حسبما اقتضتِ الحكمة، وهو المراد في هذا الموضع[3].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾:

إفادةُ العموم تعريضًا بفرعون، الّذي لا يُعجِزُ الله تعالى

التّعبير بقوله: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ دالٌّ على العموم، وفيه تعريضٌ بفرعون؛ لأنّه واحدٌ من هذه الأشياءِ التي أوجدها اللّهُ تعالى، وفيه

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 181.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 232.

(3) الرّاغب، المفردات: (قدر).

- أيضًا - تنبيهٌ له، ولَفْتٌ لنظره؛ ليتأمَّلَ هذا الجوابَ، ويرى موقعَه منه، وهذا "الاستغراق المُستفاد مِن ﴿كُلَّ﴾ عُرْفيّ، أي: كلّ شيءٍ من شأنه أن يُعطاه أصنافُ الخَلْق ويناسِبُ المُعْطَى، أو هو استغراقٌ على قَصْد التّوزيع؛ بمقابلة الأشياء بالخَلْق، مثل: ركبَ القومُ دوابَّهم.

والمعنى: (تأمّل وانظر هل أنتَ أعطيتَ الخَلْقَ أو لا؟) فلا شَكّ أنّه يعلم أنّه ما أعطى كلّ شيءٍ خَلْقه، فإذا تأمّل عَلِمَ أنّ الرّبّ هو الّذي أفاض الوجودَ والنِّعَمَ على الموجودات كلّها، فآمَن به بعنوان هذه الصّفة وتلك المعرفة، الموصلة إلى الاعتقاد الحقّ"[1].

دلالة التّعبير بلفظ (الخلق) دون (الجعل):

شمولُه للإيجاد العامّ والخاصّ

عبَّر بـ(الخلق) في قوله: ﴿خَلْقَهُۥ﴾ دون (الجعل)؛ ليشملَ الإيجادَ العامَّ وهو الإنشاء، والإيجادَ الخاصَّ، "وهو الخَلْق على شكلٍ مخصوصٍ، فهو بمعنى الجَعْل، أي: الّذي أعطى كلَّ شيءٍ منَ الموجودات شكلَه المُختصَّ به، فكوّنت بذلك الأجناسُ والأنواع والأصناف والأشخاص من آثار ذلك الخَلْق"[2]، أي: أَعْطَى كُلَّ ما خَلَقَ خِلْقَتَهُ وصورَتَهُ، على ما يُناسِبُهُ مِنَ الإِتْقانِ، فلَم يَجْعَلْ خَلْقَ الإِنْسانِ في خَلْقِ البَهائِم، ولا خَلْقَ البَهائِمِ في خَلْقِ الإِنْسانِ، ولَكِنْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فقَدَّرَهُ تَقْديرًا، قال الشَّاعِرُ:

وَلَهُ في كُلِّ شَيْءٍ خِلْقَةٌ*** وكَذاكَ اللّه ما شاءَ فعَلْ[3]

دلالة تقديم المفعول الثَّاني لـ ﴿أَعۡطَىٰ﴾:

تقديمُ المعمول في السّياق للاهتمام به

قُدِّمَ المفعولُ الثَّاني لـ﴿أَعۡطَىٰ﴾، وهو قوله: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ للاهتمام به[4]، وجوِّز أن يكون ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ المفعول الأوّل لـ﴿أَعۡطَىٰ﴾، و﴿خَلۡقَهُۥ﴾ المفعول الثَّاني، على التّرتيب، فلا تقديمَ ولا تأخير.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 232.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 339، 340.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 20.

سِرّ تخصيص الجواب من موسى بلفظ: ﴿أَعۡطَىٰ﴾:

إفحامُ فرعونَ وتوبيخُه، مسلكٌ في الحوار مُفْحِمٌ

التّعبير في الجواب هنا بإعطاء الخَلْق، هو اختيارٌ دقيقٌ للجواب بما لا يستطيع فرعونُ أن يدّعيَه خالصًا لنفسه، ولا حتّى بالشّراكة، فلا يستطيع فرعونُ القولَ: أنا الّذي أعطيتُ كلّ شيءٍ خَلْقَه، ولا أن يقول: أنا شريكٌ في هذا الإعطاء، فقد "أَعْلَمَهُ مِنْ صِفاتِ اللّه تعالى بِالصِّفَةِ الَّتي لا شِرْكَ لِفِرْعَوْنَ فيها، ولا بِوَجْه مَجازٍ"[1].

وممَّا يُذْكَر في سِرّ تخصيص الجواب بالخَلْق: ما اكتشفه العلمُ الحديث منَ الخلايا النّباتيّة والحيوانيّة، والموروثات الجينيّة فيها، وأنّ نماءَ النّباتات والحيوانات وتحرُّكاتِها الإراديّة وغيرِ الإراديّة، تكون على وفْق الخصائص الموجودةِ فيها، وأيضًا الجينات الدّقيقة في عُمق الخلايا؛ لذلك قال الزّمخشريّ عن هذا الدّليل "ولِلّه دَرّ هذا الجوابِ ما أقصرَه، وما أجمعَه، وما أبينَه، لِمَن ألقى الذِّهن ونظرَ بعين الإنصاف، وكان طالبًا للحقّ[2]، وهذا ما يُفسّر استدلال موسى وهارون بهذا الدّليل دون غيره.

دلالة التّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق:

(ثُمّ) هنا للتّراخي الزّمنيّ والرُّتَبيّ معًا، وهو من مفيدِ الدّلالة

أوثِرَ التّعبيرُ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الّذي يدلُّ على التّراخي الزّمني والرُّتَبيِّ معًا[3]؛ للدّلالة على البُعد بين أصل الخَلْق والتّصوير، وأداءِ كلّ عضوٍ لوظيفته في الحياة، وإدراكِ معانيها[4].

سِرّ تخصيص الهداية ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ دون غيرها:

جَعْلُها بين هداية الدّلالة، وهدايةِ التّوفيق

آثَر القرآن الكريم التّعبيرَ بالهداية في قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ لما تحملُه هذه اللّفظةُ من دلالاتٍ متعدّدةٍ في أمر الهداية للمخلوقات، فالمعنى: (أعطى كلّ شيءٍ نظيرَ خَلْقِه في الصّورة والهيئة)؛ كالذّكور من بني آدمَ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 339.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4734.

أعطاهم نظيرَ خَلْقِه منَ الإناث أزواجًا، ومثل ذلك في بقيّة الأجناس، وقال البعض: أعطى كلّ شيءٍ صلاحَه، ثمّ هداه إلى ما يصلِحُه، إلى غير ذلك منَ الأقوال الّتي تدلّ على أنّ الله أعطى الخلائقَ كلّ شيءٍ يحتاجون إليه في الدّنيا، ثمّ هداهم إلى طريق الانتفاع به[1]، وكلّ ذلك يدخل تحت الهداية؛ لأنّها إمّا أن تكون هدايةَ الدّلالة، أو هدايةَ التّوفيق إلى الحقّ، أي: خلق الأشياء ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ إلى ما خلقَهم لأجله، وهداهُم إلى الحَقّ بعدَ أن خَلَقَهم، وأفاضَ عليهم النّعم، على حَدّ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 8 - 10]، أي: طريقي الخيرِ والشّرِّ، أي: فرقنا بينَهما بالدّلائل الواضحة[2]، فاستطاع بهذه الهدايةِ أن يتوصّلَ "إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه، وعَرّفه كيفَ يَتوصّل إلى بقائه وكماله"[3].

دلالةُ حذفِ متعلّق الهداية، في قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾:

إفادةُ العموم مبيّنةٌ عنِ المراد في السّياق المُحْكم

حُذِفَ متعلّق الهداية في قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ ليفيدَ العُموم، أي: هداهم إلى كلّ ما يَعنيهم ويُعينُهم في هذه الدّنيا، وإلى الحَقّ الّذي يُنجيهم في الآخرة.

سِرّ تقديمِ الخَلْق على الهداية:

الخَلْق إعدادُ الأبدان، والهدايةُ إيداعُ الإدراكِ في العقل والوجدان

قُدِّمَ الخَلْقُ على الهداية في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ لأنّ الخَلْق عبارةٌ عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية عبارةٌ عن إيداع القوى المُدْرِكة والمُحَرِّكة في تلك الأجسام؛ فالخَلْقُ مُقَدّمٌ على الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون: 12] إلى أن قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 14][4].

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 417.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 223.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 20.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 267.

بلاغة الإيجاز في جواب موسى لفرعون:

الإيجاز والأسلوب الحكيم في الآية

تظهر بلاغة الإيجاز في هذا الدّليل الّذي ركنَ إليه موسى ﷺ، جوابًا لفرعون بقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ وذلك ببلوغه إلى القَصْد بأخصر طريقٍ وأقواه دلالةً، قال الزّمخشريّ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾، أي: عرّف كيف يَرتَفق بما أَعطَى، وكيف يَتوصَّل إليه، ولِلّه دَرُّ هذا الجوابِ ما أخصرَه وما أجمعَه، وما أبينَه لَمَن ألقى الذّهن ونظر بعين الإنصاف، وكان طالبًا للحَقّ"[1]، وبيانُ هذا أنّه "كان مِن حَقّ الظَّاهر أن يقولا: (رَبُّ العالَمِينَ)، لكن سلكا طريقَ الإرشادِ والأسلوبَ الحكيم"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الخَلْق والإيجاد:

لفظ الخَلْق أعمُّ دلالةً من لفظ الإيجاد

يُطْلَق لفظُ الخَلْق ويُرادُ به الإبداعُ والإنشاء على غير مثالٍ سابق، ويُطْلَق على معنى الإيجاد أيضًا، بمعنى إخراج الشّيء مِنَ الشّيء، قال الرّاغب: "الخَلْقُ أصله: التّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشّيء من غير أصلٍ ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعَهما بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 101]، ويستعمل في إيجاد الشّيء مِنَ الشّيء، نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [النّحل: 4]"[3]، وبهذا يُعْلَم أنّ الخَلْقَ أعمّ مِنَ الإيجاد وأوسعُ دلالةً.

الهدايةُ والإرشادُ:

لفظ الهداية أعمُّ دلالةً مِن لفظ الإرشاد

الهدايةُ نوعان؛ الأولى: هدايةُ التّوفيق والمَعونة، وهذه تكون لِمَن اختصّهمُ اللّهُ بفضله، الثّانية: هدايةُ الدّلالة والإرشاد، وهذه كائنة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 67.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 182.
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).

لجميع النَّاس، وفيها قولُ اللّه تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ١٠﴾ [البلد: 10] أي: دللناه وأرشدناه إلى ما ينبغي أن يكون عليه منِ اتّباع الحَقّ، بعدَ أن أظهَرْنا له طريقَ الحَقّ، وطريقَ الضّلال، "وهذه الهدايةُ لا تستلزم حصولَ التّوفيق، واتّباعَ الحَقّ، وإن كانت شَرطًا فيه أو جُزءَ سبب، وذلك لا يستلزم حصولَ المشروطِ والمُسَبَّب، بل قد يتخلّف عنه المقتضي إمَّا لعدم كمال السّبب، أو لوجود مانع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصّلت: 17]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التّوبة: 115]، فهداهم هدى البيانِ والدّلالةِ فلم يَهتدوا، فأضلّهم عقوبةً لهم على ترك الاهتداء أوّلًا بعدَ أن عرفوا الهُدى، فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهُموه"[1].

(1) ابن القيّم، شفاء العليل: 1/ 265.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

انتقال فرعون إلى حُجّةٍ فاسدةٍ، بعد أن أُسقِط في يده منَ الحُجّة السَّابقة

لَمَّا قَرّر في الآية السَّابقة أمرَ المبدأ والدّلالة القاطعة على إثبات الصَّانع؛ جاءت هذه الآية لبيان موقفِ فرعونَ من هذا الدّليل، واعتراضه بقوله: إن كان ما ذكرتَ في غاية الظّهور، فما بال القرون الأولى نَسوه وتركوه؟[1].

ومنَ المناسبة أيضًا: بعد أن أخبر اللّهُ سبحانه في الآية السَّابقة أنّه أعطى كلّ شيء خَلْقه المُختصّ به، ثمّ هداه لما خُلِق له، وأنّه لا خالق سواه سبحانَه ولا هادي غيره، فهذا الخَلْق وهذه الهداية من آيات ربوبيّته ووحدانيّته، وكان فيها الحُجّة القاصمة لفرعون، حيثُ عَلِم أنّ هذه حُجّةٌ قاطعةٌ لا مطعَن فيها بوجهٍ من الوجوه؛ فترتّب على ذلك أن عدل إلى سؤالٍ فاسدٍ غيرِ وارد، فقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: فما للقرون الأولى لم تُقرَّ بهذا الرّبِّ، ولم تعبده، بل عبدت دونَه الأوثان؟[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَالُ﴾: أصلُ البالِ: الحال التي يُكْتَرث بها، ولذلك يقال: ما باليت بكذا بالةً، أي: ما اكترثت به، ويُعَبّر بالبال عنِ الحال الذي ينطوي عليه الإنسانُ، فيقال: خطر كذا ببالي[3]، والبالُ أيضًا: القلبُ، تقولُ ما يخطر فلانٌ ببالي[4]، وهو كذلك: رخاءُ العَيش، تقولُ: إنَّه لناعم البال، ورخيّ البال[5]، والمراد بالبالِ في الآية: كَلِمَةٌ دَقيقَةٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 15/ 68.
(2) ابن القيّم، شفاء العليل: 1/ 263.
(3) الرَّاغب، المفردات: (بال).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بول).
(5) الخليل، العين: (بول).

المَعْنَى، تُطْلَقُ على الحالِ المُهِمِّ، ومَصْدَرُهُ البالَة بِتَخْفيف اللَّام، قال تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾ [مُحَمَّد: 2]، أَيْ: حالَهُم[1].

2) ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: أصلُ (قرن) الزَّمَنُ الطَّويل، وكَثُرَ إطلاقُهُ على الأُمَّةِ الَّتي دامَتْ طَويلًا، قالَ تَعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [القصص: 43]، وفُسِّرَ القَرْنُ بالأُمَّةِ البائِدَةِ، والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجَمعُه قرون، قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ [الإسراء: 17]، ويُطْلَقُ القَرْنُ على الجيلِ مِنَ الأُمَّةِ، ومِنْهُ حَديثُ: "خَيْرُ القُرونِ قَرْني، ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُم، ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُم"[2]، ويُطْلَقُ القَرْنُ بمعنى الحقبةِ مِنَ الزَّمانِ، قيل: أَرْبَعونَ سَنَةً، وقيل: مِئَةٌ، وقيل غَيْرُ ذلك؛ لاقْترانِ أَهْلِه فيه واجْتِماعِهِم[3]، والمُرادُ بالقُرون في الآية: الأجيال مِنَ الأُمم السَّابقة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الـرَّوغـانُ عـنِ الاعـتـرافِ بقصد الحَيدةِ والمُغالَطةِ حيلةُ المعاندين

بيّنت هذه الآيةُ رَوَغانَ فرعونَ في الاعتراف بالخالق سبحانه، بقوله: فما شأنُ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِنا، الذين لم يؤمِنْ أهلُها بالله، وعَبَدوا غيرَه؟ فلو كان ما تقولُه حَقًّا، لم يخْفَ على القُرون الأولى ولم يُهمِلوه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمّا قبلها:

مـن بـلاغـة السّياق فصلُ الآية عمّا قبلها للاستئناف البيانيّ

هذه الآيةُ مفصولةٌ عمَّا قبلَها؛ جريًا على المعهود في المحاورات والمقاولات، مِن حملها على أنّها جوابٌ عن سؤالٍ مُقدّرٍ، أي: فماذا قال فرعون ردًّا على موسى ﷺ؟ وبذلك يكون بينَها وبين ما قبلَها شِبهُ كمالِ اتّصال.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 233.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 137، والحديث في صحيح مسلم، برقم: (2533) لكن بلفظ: «خير أمّتي القرن الذين يلوني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم».

(3) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (قرن).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 82، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 298.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَمَا بَالُ﴾:

فاء التّفريع لها دورٌ في سياق تفصيل الحوادث والمقاصد

الفاء في قوله: ﴿فَمَا﴾، لتفريع ما بعدَها على دعوى الرّسالة، ودعوى أنّ النَّاس منهم شقيٌّ وسعيدٌ، أي: إذا كنتَ رسولًا صادقًا في سائر دعاويك، فأخبرني ما حالُ القرون الماضية والأُمم الخالية، وماذا جرى عليهم منَ الحوادث المفصَّلة؟[1]، وكان فرعون قد طلب تفصيلَ أخبارِهم وأحوالِهم وموقفِهم منَ النّجاة أو العذاب، وهو تفصيلٌ مبنيٌّ على قوله تعالى على لسان موسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ فلذلك طلبَ تفصيله، كما تدلّ عليه الفاء[2].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿فَمَا بَالُ﴾:

الاستفهام هنا مرادٌ به التّعجيزُ، وهو مفيدٌ في بيانه

قصد فرعونُ بهذا الاستفهام: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ تعجيزَ موسى ﷺ، قيلَ: سَأَلَهُ عَنْ أَخْبارِها وأَحاديثِها، لِيَخْتَبِرَ أَهُما نَبِيَّانِ أَوْ هُما مِنْ جُملَةِ القُصَّاصِ الَّذينَ دارَسوا قِصَصَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، ولَم يَكُنْ عِنْدَهُ ﷺ عِلْمٌ بِالتَّوْراة، إِنَّما أُنْزِلَتْ عليْه بَعْدَ هَلاكِ فِرْعَوْنَ، وغرضُ فرعونَ من هذا السّؤال أن يصرفَه عنِ الحديث عنِ اللّه تعالى، لأنّه لا يريد السّماعَ عن إلهٍ غيره.

وذهب البعضُ إلى أنّ سؤال فرعونَ كان عن أمرٍ دينيٍّ عند المصريين القدماء؛ لأنّهم كانوا يؤمنون بالبعث؛ لذا عُنوا بالتّحنيط؛ لتبقى الأجسام كما هي، وتُبعث كما هي، ولهم في ذلك أقوالٌ عديدةٌ مجموعةٌ في كتابٍ يسمّى كتاب: (الموتى)، يضعونه في قبر الميت الّذي يموت، وعلى هذا، يكون سؤال فرعون لموسى عن حال القرون الأولى، سؤالًا نابعًا عن مذهبهم في الموتى[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 516.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 182.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4735.

سِرّ اختيار كلمة ﴿بَالُ﴾ دون غيرها:

كلمة البال تدلّ على معنى الحال

أصل البال الفِكْر، يقال: خطر ببالي كذا، ثمّ أُطلِقَ على الحال التي يُعْتَنى بها، وهو المراد، ولا يُثَنّى ولا يُجمع إلّا شذوذًا، في قولهم: بالات[1]، وإيثارُ التّعبير بهذه الكلمة هنا، من دقيق الخصائص البلاغيّة[2]؛ لدلالتها على الحال المُهمّ المُعْتَنى بشأنها.

دلالة احتجاج فرعون بالقرون الأولى:

تشغيب فرعونَ على موسى، لمّا أعيَتْهُ الحُجّةُ

احتجّ فرعون على موسى عليه السلام بالقرون الأولى في قوله: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ للتّشغيب على موسى، حين نهضتْ حُجّتُه، بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى: هل هم في عذاب، بمناسبة قول موسى: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فإذا قال: إنّهم في عذابٍ، ثارت ثائرةُ أبنائِهم، فصاروا أعداءَ لموسى، وإذا قال: هم في سلام، نهضَتْ حُجّة فرعونَ؛ لأنّه متابعٌ لدينهم، ولأنّ موسى لمَّا أعلمَه بربّه، وكان ذلك مشعرًا بالخَلْق الأوّل، خطر ببال فرعونَ أن يسألَه عن الاعتقاد في مصير النَّاس بعد الفناء، فسأل: ما بال القرون الأولى؟ ما شأنُهم؟ وما الخبرُ عنهم؟ وهو سؤالُ تعجيزٍ وتشغيب[3].

سِرّ التّعبير بالقرون دونَ الأُمم:

القرن الجيل أو الأُمّة المُقترنين في زمنٍ واحدٍ طويل

آثَرَ التّعبيرَ بالقرون دونَ الأُمم في قوله: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ لأنّ القرن يُطلق ويُراد به: القوم المُقْتَرِنونَ في زمنٍ واحدٍ، وجمعه قُرونٌ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [يونس: 13]، وكَثُر إطلاقُه على الأُمّة الّتي دامت طويلًا[4]، فإنّ طول بقائِها مُغْرٍ لها، وموعِزٌ بأنّها على الحَقّ والصّواب، وهكذا كان فرعونُ يعتقد أنّه كذلك، فالأُسَرُ الفرعونيّة عمّرت طويلًا.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 516.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 234.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 234.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 137.

سِرّ التّعبير بـ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ دون (الماضية):

لعلّ السّرّ في اختيار الوصف بـ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾، على الوصف بالماضية، كونه يسأل عن أُمَمٍ قدِ اندثرت وبادت منذ الماضي السّحيق، وليس القريب.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾

[طه: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الطُّغاةُ أهلُ التفافٍ وإلهاءٍ وعزوفٍ عن الجادَّة

لَمَّا ذكر في الآية السابقةِ إشغالَ فرعونَ لِموسى عليه السلام بالحكايات[1]، فسألَهُ عن أحوال القرون الأولى، ليستهلكَ الحوارَ فيما لا يُجدي؛ أجابه موسى بتفويض ما سأل عنه إلى علم الله سبحانه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِلْمُهَا﴾: (علم) أَصْلٌ يدُلُّ على أَثَرٍ بالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ به عن غَيْرِه، مِنْ ذَلِكَ العَلامَةُ، وهي مَعْروفة، يُقالُ: عَلَّمتُ على الشَّيْءِ عَلامَةً، والعلمُ: الجَبَلُ، وكُلُّ شَيْءٍ يَكونُ مَعْلَمًا: خِلافُ المَجْهَلِ، والعِلْمُ: نَقيضُ الجَهْلِ، وقياسُهُ قياسُ العلم والعَلامَة[2]، والعِلمُ أيضًا: المَعْرِفَةُ، يُقال: عَلِمتُ الشَّيْءَ أَعْلَمُهُ عِلْمًا، أيْ: عَرَفْتُهُ، ويأتي العِلْمُ بمعنى الإتقانِ والإحْكام، يُقال: عَلِمَ الأمرَ، وتَعَلَّمَهُ، أيْ: أَتْقَنَهُ، ومِن مَعانيه: الإدْراكُ والاعْتِقادُ والتَّصْديقُ والظَّنُّ[3]، والمُرادُ بالعِلم في الآية: مَعْرِفَةُ الأشياءِ بكَيْفيَّةِ اليَقين.

2) ﴿يَضِلُّ﴾: (ضلّ) أَصْلٌ يدُلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابه في غَيْرِ حَقِّه[4]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن؛ إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النَّاسي؛ إذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (علم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلَّ).

غابَ عَنهُ حِفظُه(1)، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ يَضلُّ ضلالًا؛ إذا انحرفَ وضاعَ، ولم يهتدِ إلى الطَّريقِ، وضَلِلْتُ الشَّيْءَ أَضِلُّهُ؛ إذا جعلتَهُ في مَكانٍ، ولم تَدْرِ أين هو، وأضْلَلْتُه، أي: أضَعْتُهُ(2)، وضِدُّهُ: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: الخَطَأُ في العِلْمِ، شُبِّهَ بخَطَأِ الطَّريقِ(3).

3) ﴿يَنسَى﴾: (نسي) أَصْلٌ يدُلُّ على إغْفالِ الشَّيْءِ(4)، يُقالُ: نَسيَ فلانٌ شيئًا كان يَذْكُرُهُ، وإنَّه لنسيٌّ، أي: كثير النِّسيان، والنِّسْيُ: ما أُغفِل من شَيْءٍ حقيرٍ، ونُسيَ(5)، والنِّسْيانُ: تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استودِعَ، إمَّا لضَعْفِ قلبِه، وإمَّا عن غفْلةٍ، وإمَّا عن قصْدٍ حتى يَنْحَذِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ، يُقال: نَسيتُهُ نِسْيانًا(6)، والمُرادُ بالنِّسْيانِ في الآيةِ: عَدَمُ تَذَكُّرِ الأَمرِ المَعْلومِ في ذِهنِ العالِمِ(7).

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ تعالى هو المُختصُّ بعِلْمِ الغيبِ في الماضي والحاضرِ والمُستقبل

قال موسى لفرعون: عِلمُ القُرونِ الماضيةِ وأعمالُ أهلِها كُلُّها مكتوبةٌ عندَ رَبّي في اللَّوحِ المحفوظِ، فهم إنْ لم يُؤمِنوا باللهِ، ويَعبُدوه وحدَه، فسيُجازيهم على ذلك، ولا علمَ لي بهم، لا يَشِذُّ عن عِلمِ رَبّي شَيءٌ، ولا يفوتُه صَغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسَى شيئًا، فلا يُخطئُ في أفعالِه وتدبيرِ خَلقِه، ولا ينسى شيئًا مِن أعمالِ عبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، ولا يَترُكُ فِعلَ ما هو حِكمةٌ وصَوابٌ(8).

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 235.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نسي).
(6) الراغب، المفردات: (نسي).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 235.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 83، 84، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 298، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 296، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 507.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قوله: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا﴾:

الحكيم يُغالِبُ التشغيبَ في الحوار ولا يُجاريه

جملةُ: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لوقوعه جوابًا عن سؤال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾ [طه: 51]، ولذلك فُصِلتْ، وبين الجملتين شبهُ كمال اتِّصال، والجواب من أسلوب الحكيم؛ صرفًا لفرعونَ عن الخوض فيما لا يُجدي في مقامِه ذلك، لكون موسى عليه السلام بصدد دعوة الأحياءِ لا البحث عن الأمواتِ الذين أفضَوا إلى عالم الجزاء، ففوَّض إلى علم اللّه، ولم يفصِّل؛ امتناعًا منه عن مجاراة فرعون في تشغيبه، وتعريضًا به في انشغاله عن الأهمِّ بسؤاله عمَّا لا ينفع، وعدولًا من موسى عن الاشتغال بغير الغرض الذي جاء لأجله، ولا يخفى ما فيه من الإحالةِ والتفويض عند عدم الإحاطة بالتفاصيل والدَّقائق، فإنَّ موسى عالمٌ بمُجمَل أحوال القرون الأولى، وغيرُ عالم بتفاصيل أحوالهم وأحوال أشخاصِهم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿عِلۡمُهَا﴾:

المعلوماتُ كلُّها بالنسبة لِعلم الله أزليَّة

لم يقل في السياق الكريم: (يعلمها ربّي)، بل عبَّر بالمصدر دون الفعلِ، فقال: ﴿عِلۡمُهَا﴾؛ لأنَّه أراد الحقيقة المستقرَّة لهذه المعلومات، وهذا يتعلَّق بالمعنى المجرَّد الذي هو الحدث، دون الحدوث الذي هو المُزاولةُ الفعليَّة الزَّمنيَّة، ولذا جاء المصدر مقرونًا بمعنى الأزليَّة الدَّائمة في قوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ﴾؛ أي: العِلْمُ بهذه المعلومات صفةٌ ثابتةٌ للّه أزلًا كاشفةٌ للمعلومات الثابتة في اللوح المحفوظ، فلا تتخلَّف معلومةٌ منها عن عِلْم اللّه.

نكتةُ إيثارِ الضَّمير المتَّصل على الاسم الظَّاهر:

في الإضمار اتّساعٌ وفُسْحةٌ في المدلول

لم يقل في السياق الكريم: (علمُ القرونِ عند ربي)، فأضاف إلى الضَّمير دون الاسم الظاهر، فقال: ﴿عِلۡمُهَا﴾؛ طلبًا للإيجاز،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 234.

واكتفاء بالظاهر السَّابق في جملة السؤال، ولوضوح مُفسِّر الضَّمير وعدم التباسه، مع كون الإضافة للضَّمير مُشْعِرةً بتعظيم العِلم عن إضافته للاسم الظاهر، ففي الإظهار محدوديَّةٌ، وفي الإضمار اتِّساعٌ وفُسْحةٌ في المدلول.

سرُّ التَّعبيرِ عن مقول القول بالجملة الاسميَّة:

بابُ الاعتقادِ بابُ تحقيقٍ ورسوخ

التَّعبيرُ عن مقول القول بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾؛ للدَّلالة على تحقيق مضمون الجملةِ على جهة الدَّوام والثبوت، ولا يخفى ما فيه من تعليقِ القلوب في باب الاعتقاد بما هو تحقيقيٌّ رُسوخيٌّ في أسلوبه ومعناه.

سرُّ استعمال العنديَّةِ ﴿عِندَ رَبِّي﴾:

العِلمُ بأحوال الماضيين متعذِّرٌ بالإحاطة

إسنادُ العِلم إلى عنديَّةِ اللّٰه سبحانه إشارةٌ إلى كون أحوالِ القرون الأولى على جهة الإحاطة من سرِّ القدر[1]؛ لأنَّها من صفحات الغيب الماضي، والغيب مختصٌّ به سبحانه ثابتٌ عنده، إلَّا أن يُطلع اللّٰه رسولًا من رسله بما شاء منه، فأشار موسى عليه السلام بإحالته للعنديَّةِ إلى أصلٍ من أصول النبوَّةِ، وهو كونُ الأنبياء لا يقولون في أمرٍ من الأمور إلا بإذنٍ وإجازة من اللّٰه، وإلَّا فلا يتقوَّلون من غير علم، فكان هذا الجوابُ بهذا الأسلوب من دلائل نبوَّةِ موسى عليه السلام؛ لأنَّ المدَّعي لا يُحيلُ بل يتقوَّل.

نكتةُ إيثارِ الرُّبوبيَّة ﴿رَبِّي﴾:

العبدُ قيدُ ربوبيَّةِ اللّٰه في العطاء والإمداد

إيثارُ الربوبيَّة على الألوهيَّة - في قوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ - تلويحٌ بإحسان اللّٰه عليه[2] بالنبوَّةِ وبإمداد العِلمِ والحكمة، وتضمينٌ لجوابه بما يشبه التَّعليلَ له، أي: هذا الإجمالُ في الجواب بإحالة عِلم القرونِ الأولى إلى اللّٰه سبحانه هو - كما قال موسى - لأنّي قيدُ ربوبيَّته

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 517.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 295.

سبحانه في الإمداد والعطاء، فما زادني به من العِلم؛ قُلتُ به، وما لم يزدني فيه عِلمًا؛ أَحَلْتُهُ إلى منبع زيادته وإمداده، وهو ربوبيَّتُه سبحانه، فالإسناد للرُّبوبيَّة إشارةٌ إلى الزّيادة والسَّعة في العِلم والانكشاف الإلهيِّ التي هي من مقتضيات الرُّبوبيَّة، ولذا أحال إليها، ودلَّ عليها، وفي إيثار الربوبيَّة نفيُ العلم عن نفسِه بإثباتِه لربِّه.

بلاغةُ الإضافةِ في لفظ: ﴿عِلْمُهَا﴾:

الإحاطةُ التامَّةُ بالمعلومات لا تكون إلَّا لله

في إضافة المصدرِ للمفعول[1] المضمرِ في قوله: ﴿عِلْمُهَا﴾ مبالغةٌ في ثبوت المعمول لعامله، ولإفادة العموم، أي: علْمُها الشَّامل الكامل إجمالًا وتفصيلًا لا يكون إلَّا للّه، فإضافةُ المصدرِ لمعموله من صيغ العموم[2]، والعمومُ المقصودُ هو في استغراق الخصائص والصِّفات، وهو استغراقُ الماهيَّة والحقيقة، أي: لا يعلمها بحقائقِها المطابقة إلَّا اللّهُ، وأمَّا عِلْمُ البَشَرِ لها؛ فيعتريه قصورٌ في استيعاب الحقائق والأكْناه؛ لأنَّها مُغيَّباتٌ بقرينة وصْفِها بـ﴿ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: 51]، والغيْبُ قد يدلُّ على إجماله وتفاصيله بطريق الإخبار لا بطريق المُعاينةِ، كمن يروي وقائعَ التَّاريخ الماضية، وهو لم يعاينها، أو يقع العموم مُستغرِقًا للأفراد؛ لأنَّ عِلمَ البشر للقرون الأولى لا يحيط بجميع أفراده وتفاصيله، فذلك لا يكون إلَّا للّه المتَّصفِ بكمال العلم والإحاطة، وأمَّا البشرُ؛ فيعرفون التَّفاصيلَ من غير إحاطةٍ، ولذا كان العمومُ باعتبار الجهتين - الحقيقةِ والأفرادِ - مُرادًا من المصدر المضاف، وهو قصرٌ حقيقيٌّ لا شرِكَةَ فيه، ولذا جاء التَّعبيرُ بالمصدر دون الفعلِ؛ لأنَّ حقيقةَ العلم كائنةٌ للّه وحده، بخلاف ما لو قال: (يعلمها ربّي)، فالفعليَّة لا تنفي الاشتراك في العلم، وكذا الحصرُ المستفادُ من عموم المصدر المضاف حاصلٌ بقرينة العنديَّةِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 235.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 363.

فإنَّ العلمَ المذكور باعتبار جهته في العنديَّة لا يكونُ إلا للّه؛ لأنَّه عند اللّه في الكمِّ والكيفيَّة على غير ما عند سواه.

سرُّ تأنيثِ الضَّمير في: ﴿عِلۡمُهَا﴾:

الأصــلُ في الضـمير عـودُهُ على اللَّفظ

تأنيثُ الضَّميرِ في قوله: ﴿عِلۡمُهَا﴾؛ لأنَّ الجمعَ يجوز أن يُؤنَّث ضميرُهُ(1) بحسب اللفظ، اعتبارًا لما يعود عليه، وهو قوله: ﴿ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾ [طه: 51]، أو يذكَّر بحسب المعنى، فيقال: (عِلۡمُه)، أي: عِلمُ المسؤول عنه.

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبٖۖ﴾:

أغراضُ التَّنكير تتباينُ بتباينِ المعنى

التَّنكير في قوله: ﴿كِتَٰبٖۖ﴾ للتعظيم والإجلال، أي: في كتابٍ رفيع القَدر عظيم السِّرِّ، وهذا على أنَّ الكتاب يرادُ به اسمُ العلم، وهو اللَّوح المحفوظ، أمَّا إن أُريد به المعنى اللغويُّ - وهو الدَّفتر الذي تُكتَبُ فيه المعلومات أيًّا كان - فالتنكير على بابه من إرادة الإبهامِ وعدم التعيين.

بلاغةُ الاستعارةِ في التركيب:

الاسـتـعـارةُ الـتـمـثيـليَّـةُ حـاصـلـةٌ في التراكيب

في تركيب: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ﴾ إنْ أُريد بالكتاب المعنى اللغويُّ (الدَّفتر)، وليس العلميَّة (اللوح المحفوظ)؛ ففي التركيب استعارة تمثيليَّةٌ، بتشبيه الهيئة المأخوذةِ من علم اللّه سبحانه بتفاصيل الأمور عِلمًا ثابتًا لا يتغيَّر، ولا يزول بالهيئة الرَّاسخة الحاصلة للعالِم بشيءٍ قد كتبه في دفتره، وقيَّده فيه، فلا ينساه، ولا يزول عنه، فذكرَ اللَّفظَ الموضوع للمشبَّه به، وأُريد به المشبَّهُ(2)، ويكون قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾؛ ترشيحًا للتَّمثيل(3)، واحتراسًا أيضًا من توهُّم الضّياع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 235.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 364.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 517.

الكتابةُ قيدُ العلم وتحقيقُه

بلاغةُ الكنايةِ في جملة: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ﴾:

الإخبارُ عن كون العلم مشمولًا في الكتاب كنايةٌ عن تحقيق العلم؛ لأنَّ الأشياءَ المكتوبة تكون مُحقَّقةً[1].

تقييدُ العلم في الكتاب للاحتجاج لا للاحتياج

موقعُ جملة ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ ممَّا قبله:

جملة: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لبيان أنَّ إثباتَ العِلم في الكتاب، ليس للاحتياج إليه، أو لاحتمال خطأ أو نسيانٍ - تعالى اللّه سبحانه عنه - ويكون الوقفُ تامًّا عند قوله: ﴿كِتَٰبٖۖ﴾، ثمَّ استأنف للاحتراس والتَّنزيه عن مشابهةِ المخلوقينَ في احتياجهم للكتاب، ويُحتمل أن تكونَ الجملةُ تذييلًا لتأكيد الجملة السابقةِ متَّصلةً بها صِفةً لكتاب ولا انقطاع[2].

مَنِ استأنسَ بأحدٍ ردَّد اسمَهُ

الإظهارُ في مقام الإضمار:

أعادَ التصريحُ باسم الربوبيَّةِ المضاف إلى ضميره في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾، ولم يقل: (علمُها عند ربّي في كتابٍ لا يضلُّه ولا ينسى)؛ للتلذُّذ بذكره، ولزيادة التقرير، والإشعار بعلَّة الحكم، فإنَّ الربوبيَّة ممَّا يقتضي عدمَ الضلال والنسيان حتمًا[3]، ولمراعاة وجه القطع والاستئناف في الجملة عمَّا قبلَها.

دلالـةُ النفي تتباينُ بقرينة المقام

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَّا﴾ في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾:

(لا) تدخلُ على الفعل المضارع، فلا تقيِّده بزمنٍ على الأرجح، وقيل: تخلِّصه للاستقبال، والحقُّ أنَّ زمن المضارع المنفيِّ بها يتحدَّد بالسّياق، فتنفيه في زمن الحاضرِ والمستقبل مع إفادة الاستمرارِ، كما هو المعنى هنا في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

عودُ الضَّمير المستكنِّ في: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ و﴿وَلَا يَنسَى﴾:

الضَّميرُ المستكنُّ في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ هو للكتاب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 235.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 21.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 21.

الموجودات مقهورةٌ لله لا تعزب عنه ولو مثقال ذرَّة

إمَّا على الفاعليَّة أو المفعوليَّة، فعلى الفاعليَّة فالجملةُ من صفات الكتاب، لا يضلُّ الكتابُ اللّهَ، بمعنى: لا يغيب عنه، ولا ينسى، بمعنى: لا يدع الكتابُ شيئًا إلا أحصاه، وإمَّا على المفعوليَّة، فالضميرُ العائد على الكتاب هو المفعول، وربّي هو الفاعل، والجملةُ من صفات اللّه، أي: هذا الكتابُ لا يَضِلُّه اللّهُ، ولا ينساه، بمعنى: لا يقع الخطأ من اللّه في معلوماته ومقاديره، ويصحُّ تقديرُ الضمير المستكن عامًّا، ونفي الضلال والنسيان عن اللّه في كلِّ شيء، وهذا أوفقُ على اعتبار جملة النفي مستأنفةً مقطوعة ممَّا قبلها(1).

بلاغةُ الاستعارةِ في النسيان:

الكتابُ المحفوظُ لا يغادر شيئًا إلَّا أحصاه

على جعلِ جملة ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ من صفات الكتابِ، فنفيُ صفةِ النسيان عن الكتاب استعارةٌ في نفي التَّرك وإثبات الإحصاء، أي: لا يدعُ شيئًا من الحوادث إلَّا أحصاه، والاستعارة تصريحيَّةٌ حيث شبَّهَ الكتاب في إحصائه وعدم تفويته للصغيرة والكبيرة بالنسيان؛ بجامع الزّوال في كلٍّ(2).

المجازُ العقليُّ في الإسناد إلى الكتاب:

خصائصُ الأشياء مخلوقةٌ لله، فالله هو الفاعل الحقيقيُّ لآثارها

على جعْلِ جملة ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ من صفات الكتاب، فإسنادُ الضَّلال والنِّسيان المنفيَّين إلى الكتاب مجازٌ عقليٌّ، بإسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقيِّ؛ لأنَّ الكتابَ لا يتَّصف بعدم الضلال وعدم النسيان، إلَّا بَصوْن الحفيظِ عليه، فالفعل في الحقيقة من القائمِ عليه الجاعلِ له، لا من الكتاب ذاته.

بلاغةُ الجمعِ بين الضَّلال والنسيان:

نفيُ الضلال والنسيان كنايةٌ عن كمال العِلم وسلامته

الجمعُ بين الضَّلال والنسيان في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾؛ لاستيفاء جُمَلِ الآفات التي تُخِلُّ بالعِلم، وتقدحُ فيه، وهي لا تخرج

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 47.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 47.

عن الغلط في المعلومات أو فواتها، فالغلطُ فيها بالضلال، والنَّقصُ فيها بالزَّوال، وهو النسيان، ولذا كان نفيُ الضلال والنسيان كنايةً عن كمال العِلم وسلامته.

بلاغةُ تقديم الضَّلال على النسيان:

الغلطُ في المعلوم أهونُ من عدم حصوله البتَّةِ

قدَّم الضلالَ على النسيان في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ انتقالًا مِنَ الأدنى إلى الأعلى، فإنَّ الغلط في المعلوم أدنى من عدم حصوله بالكلّيَّة.

بلاغةُ المجازِ في ظرفيَّة الكتاب للعِلم:

الصِّفاتُ هيئاتٌ نفسانيَّة لا تُعرَف إلَّا بآثارها

إثباتُ العِلمِ في الكتاب في قوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ﴾ من باب المجاز[1]، إذ المثبت حقيقةً إنَّما هو نقوشُ الألفاظ المتضمِّنة شرحَ أحوالهم المعلومةِ له تعالى[2]، فالمُثبَت هو لفظُ العِلم لا نفْس العِلم.

بلاغةُ الكنايةِ في جملة الفاصلة:

صفاتُ الله لا تفتقرُ للتكميل كصفات الحوادث

جملةُ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ كنايةٌ عن كمال صفة العلم الإلهي، وانتفاء مُشابهة الحوادث عنها، وفيه تعريضٌ بفرعونَ؛ لأنَّه زعم أنَّ الربوبيَّة مشتركةٌ بينه وبين الله لقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]، ولعلَّ هذا من أسرار إظهارِ الربوبيَّة في ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ وهو تتميمُ التعريضِ بربوبيَّته التي ادَّعاها، ومفادُ التعريض، أي: لا يقع الضلالُ والنسيان لربّي كما يقعانِ لك[3]، بدليل أنَّهُ قد غاب عنك - وأنت تدَّعي الربوبيَّة - علمُ القرون الأولى.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضّلال والغواية:

أصل (ضلَّ) يدلُّ على ضياع الشَّيءِ وذهابه في غير حقِّه[4]،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 364.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 517.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 183.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).

الضلالُ يقع عمدًا أو سهوًا، وأمَّا الغيُّ ففيه تعمُّد

ولذا كان العدولُ عن الصراط المستقيم ضلالًا[1]؛ لأنَّه غيبوبةٌ عن المسار الذي ينبغي، وتضييعٌ للقصد، فالضَّلال يُطلق على العدول أو الغيبوبة أو الضياع عمَّا ينبغي عمدًا أو سهوًا[2]، ومنه ضلالُ المعلومات، كما هو هنا في قوله: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ والمقصود به: الغلطُ فيها والإخلال بحقيقتها.

وأمَّا (غوى)، فأصله يدلُّ على ضلالٍ وإظلام في الأمر وفسادٍ في الشَّيء[3]، ولذا كان الغيُّ هو الجهل المُسبَّب عن اعتقادٍ فاسد[4]، وهو الضلالُ المُسبَّب عن الهوى وما في معناه[5]، والفرق بين الضلال والغيِّ أو الغِواية: هو أنَّ الضلال يقع عمدًا أو سهوًا، وأمَّا الغيُّ؛ فهو ضلالٌ بهوًى وانجذاب، ففيه درجةٌ من التعمُّد، وهذا سِرُّ الجمع بينهما في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم: 2]، أي: ما ضلَّ بهوًى ولا بغير هوًى[6].

(1) الراغب، المفردات: (ضل).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوى).
(4) الراغب، المفردات: (غوى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غوى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غوى).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانشغالُ بمعالي الأمور من خصال أولي العزمِ

لَمَّا كان جوابُ موسى عن أحوال القرونِ الأولى جوابَ إجمالٍ وإحالةٍ إلى عِلم اللهِ سبحانه، وكان هذا الجوابُ من موسى إعراضًا عن إشغالِ فرعونَ له بما لا يفيد من أحوال الناس والخَلْق؛ فقد ردَّ موسى فرعونَ، وأعاده إلى القضيَّة الكبرى في الحوار، وهي ألوهيَّةُ الرحمنِ والتعريفُ به سبحانه في انتقالٍ عجيبٍ وتخلُّصٍ بديع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَهْدًا﴾: (مهد) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ للشَّيءِ[1]، والمَهْدُ: التَّوثير، يُقال: مَهَّدتُ لنَفسي، ومَهَّدتُ، أَي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا، ويُقال: مَهَدْتُ لنَفْسي خيرًا، أَي: هيَّأتُه، ووطَّأته[2]، والمَهْدُ أيضًا: للصَّبيِّ، وكذلك المَوْضِعُ؛ إذا مُهِّدَ ووُطِّئَ[3]، والمِهادُ اسْمٌ أجمَعُ من المَهْد، كالأرض جَعلها اللهُ مِهادًا للعباد، وجمعُ المِهادِ مُهُدٌ، وثَلاثةُ أَمهدة[4]، والمُرادُ بالمَهْد في الآيةِ: جَعْلُ الأَرْضِ مَمهودَةً مُسَهَّلَةً لِلسَّيْرِ والجُلوسِ والاضْطِجاعِ بحَيْثُ لا نُتوءَ فيها إِلَّا نادرًا يُمكِنُ تَجَنُّبُهُ[5].

2) ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ﴾: أصلُ السَّلْكِ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهد).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (مهد).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (مهد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (مهد).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 236.

والنُّفوذُ فيه مُجْتازًا وقاطِعًا[1]، يُقالُ: سَلَكَ طَريقًا، أَي: دخله مجتازًا، ويُسْتَعْمل مجازًا في السَّير في الطَّريق تَشْبيهًا للسَّائر بالشَّيْءِ الدَّاخِل في شَيْءٍ آخرَ، يُقال: سلكَ طَريقًا، فحَقُّ هَذا الفِعْلِ أَنْ يَتَعَدَّى إلَى مَفْعولٍ واحِدٍ، وهو المَدْخولُ فيه، ويُسْتَعْمَلُ مُتَعَدّيًا، بمَعْنَى: أَسْلَكَ، وحَقُّهُ أَنْ يَكونَ تَعَدّيه بهَمزَةِ التَّعْدِيَةِ، فيُقالُ: أَسْلَكَ المِسْمارَ في اللَّوْحِ، أَيْ: جَعلهُ سالِكًا إِيَّاهُ، إِلَّا أَنَّهُ كَثُرَ في الكَلام تَجْريدُهُ مِنَ الهَمزَةِ، كَقولِه تَعالَى: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ١٧﴾ [الجنّ: 17]، وأَمَّا قَوْلُهُ هُنا: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ فهو سَلَكَ المُتَعَدّي، أَيْ: أَسْلَكَ فيها سُبُلًا، أَيْ: جَعل سُبُلًا سالِكَةً في الأَرْضِ، أَيْ: داخِلَةً فيها، أَيْ: مُتَخَلِّلَةً[2].

3) ﴿سُبُلًا﴾: (سبل) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إِرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شَيءٍ، فالأَوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبِمائِها، وأَمَّا الثَّاني: فالمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بذَلِكَ لامتِدادِه[3]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أَغْلَبُ، وسَبيلُ اللهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إِليه[4]، والمُرادُ بالسُّبُلِ في الآيةِ: كُلُّ سَبيلٍ يُمكِنُ السَّيْرُ فيه، سَواءٌ كانَ مِنْ أَصْلِ خِلْقَةِ الأَرْضِ كالسُّهولِ والرِّمالِ، أَم كانَ مِنْ أَثَرِ فِعْلِ النَّاسِ مِثْلَ الثَّنايا الَّتي تَكَرَّرَ السَّيْرُ فيها، فتَعَبَّدَتْ، وصارَتْ طُرُقًا يُتابِعُ النَّاسُ السَّيْرَ فيها[5].

4) ﴿أَزْوَاجًا﴾: (زوج) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، مِن ذلكَ الزَّوْجُ زَوْجُ المَرأَةِ، والمَرأَةُ زَوْجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ، قالَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][6]، فالزَّوْجُ كُلُّ شَيْءٍ ثانٍ مَعَ شيءٍ آخرَ، بَيْنَهُما تَقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيَتِ الأُنْثَى القَرينَةُ للرَّجُلِ بنِكاحٍ زَوْجًا؛ لِأَنَّها اقْتَرَنَتْ به، وصَيَّرَتْهُ ثانيًا، ويُسَمَّى الرَّجُلُ زَوْجًا لَها لِذَلِكَ بلا فَرْقٍ، فمِنْ ثَمَّ لا يُقالُ للمَرأَةِ: زَوْجَةٌ بهاءِ تَأْنيثٍ؛ لأَنَّهُ اسْم، وليسَ بوصفه[7]، والمُرادُ بالأَزواجِ في الآيةِ: جَمعُ زَوْجٍ، وهو اسْمٌ لِكُلِّ فرْدٍ مِن اثْنَيْنِ مِنْ صِنْفٍ واحِدٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلك).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 237.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 237.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(7) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 428.

5) ﴿شَتَّىٰ﴾: (شتّ) أَصْلٌ يدُلُّ على تَفَرُّقٍ وتزَيُّل، مِنْ ذَلكَ تَشْتيتُ الشَّيْءِ المُتَفرِّق، تقولُ: شَتَّ شَعْبُهُم شَتاتًا وشَتًّا، أَيْ: تفرَّقَ جَمعُهُم[1]، وجاؤوا أشتاتًا، أي: مُتَفَرِّقين، ويُقال: إنّي أخافُ عليْكُم الشَّتاتَ، أي: الفُرْقة[2]، وشَتَّى: جَمعُ شَتيتٍ بوزنِ فعْلَى، مِثْلُ: مَريض ومَرْضَى، والشَّتيتُ: المُشَتَّتُ، أَي: المُبْعَدُ، وأُريدَ به في الآيَة: التَّباعُدُ في الصِّفاتِ مِنَ الشَّكْلِ واللَّوْنِ والطَّعْمِ، وبَعْضُها صالِحٌ لِلإنسانِ وبَعْضُها لِلحَيَوانِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جَعل اللهُ تعالى الأرض ممهَّدةً كالفراش، لتصلح للعيش عليها

يُبيِّنُ موسى لفرعونَ آثارَ عِلم اللّه تعالى وقدرته، فيقولُ: اللّهُ الذي جعَل لكم الأرضَ مُمهَّدةً، تَسكُنونَ عليها، وتستَقِرّونَ بها، وتَمشونَ، وتُسافِرونَ على ظَهرِها، وتتمكَّنونَ مِن زَرعِها وغَرسِها، والبناءِ عليها وغيرِ ذلك، وجعلَ اللّهُ لأجْلِكم في الأرضِ بينَ أوديَتِها وجبالِها طُرُقًا كثيرةً تَمشونَ فيها، وأنزل اللّهُ من السَّماءِ مَطرًا، فأخرَجْنا بسَبَبِ المطَرِ أصنافًا من النَّباتاتِ المختلفةِ الألوانِ والأشكالِ والرَّوائِحِ والطُّعومِ والمنافِعِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بابُ الاعتقاد قائمٌ على التفصيل والإيضاح

موقعُ جملة ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ ممَّا قبله:

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ يحتمل أن يكون ابتداءَ كلامٍ من اللّه ﷻ، وكلامُ موسى عليه السلام قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنسَى﴾، وتكون جملة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه سبحانه لَمَّا حكى كلامَ موسى عليه السلام إلى قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شتّ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (شتَّ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 239.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 85، والواحدي، الوجيز: 697، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 507.

﴿رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾؛ سأل سائلٌ: ماذا أراد موسى بقوله: ﴿رَبِّي﴾؟ فقال سبحانه: هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ الآية.

ويُحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام على أن يكون قد سَمِعَهُ من اللّه ﷻ، فأدرجَهُ بعينِه في كلامِه حكايةً عن اللّه، ولذا قال ﴿لَكُمُ﴾ دون (لنا)، وهو من قبيل الاقتباس[1]، وفُصِلت الجملةُ لوقوعها صفةً لـ﴿رَبِّي﴾ في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، والوصفيَّة موجبةٌ للفصل، لكمال الاتصال المانع من استجلابِ حرف العطف، أو الفصل لكون الموصولِ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ، أي: (هو الذي)، أو منصوب على المدح بإضمار فعل الاختصاصِ والعناية، أي: (أعني أو أخصُّ أو أمدح الذي جعل لكم)[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلَّذِى﴾ اسمًا موصولًا:

تنزيلُ الجاهل بالصَّانع منزلةَ العالم به؛ لوضوح الأثر الدَّالِّ عليه وعدم التباسه

الافتتاحُ بالموصول الخاصِّ في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ لتعظيم الفاعل ﷻ والتَّعريفِ له بصِلَتِه المُعظِّمة له، ومن دواعي التعريف بالصِّلة هنا عدمُ علم المخاطَب بالأحوال المختصَّة به سوى الصِّلة، ولذا جاءت الصِّلةُ متضمِّنةً لمشاهد كونيَّة لا يختلف في ثبوتها أحدٌ، ولا يتخلَّف عن العِلم بها أحدٌ[3].

دلالةُ وقوعِ الموصول خبرًا لمحذوف:

الاستئنافُ الابتدائيُّ من علامات الوقف التامِّ

وقوع لفظ ﴿ٱلَّذِى﴾ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ تقديرُهُ: (هو الَّذي) يدلُّ على أنَّ هذا الكلامَ استئنافٌ ابتدائيٌّ من كلام اللّه سبحانه لا من كلام موسى السَّابق، وأنَّ كلام موسى عليه السلام تمَّ كلامُهُ عند قوله: ﴿وَلَا يَنسَى﴾[4].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 518.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 68.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 119.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 366.

أفعالُ العبادِ أثرٌ من أفعال الإله

دلالةُ جملةِ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ على الاستئنافِ:

جملةُ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ على الاستئنافِ في حيِّز القول السَّابق، أو تكون نعتًا لـ﴿رَبِّى﴾، وعلى هذين تكونُ من كلام موسى عليه السلام تكملةً لجوابه على فرعون ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: 51]، ويتمُّ عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وما بعده ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ من كلام اللّه[1]، أو من كلامه هو عليه السلام على أنَّ فعلَ الإخراج له وللناس، كما أسندَ الحرثَ إلى النَّاس في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾ [الواقعة: 63][2].

التوسُّل بالموصول لوصفِ المعارف بالجُمَل

دلالةُ التعريف بالصِّلة:

التعريف بالصِّلة في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أفاد وصفَ المعارف بالجُمَلِ، وأفاد التوسُّلَ للإقناع بما يعرفه المخاطَب، ويعهده، فالصِّلة لإفادة المعهود المعلوم لدى السَّامع، فإنَّ الجَعْلَ المذكورَ لا يرتاب فيه عاقلٌ[3].

الجُمَلُ بعد المعارف أحوالٌ وبعد النَّكرات صفات

معنى اللَّامِ ودلالة شبه الجملة: ﴿لَكُمُ﴾ على الحال:

اللَّام هنا يمكن أن تكون للتَّخصيص، وشبه الجملة في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ متعلِّقةٌ بمحذوف حال من ﴿مَهْدًا﴾، أي: مهدًا كائنًا لكم[4]، وقدَّم الحال لمجيء صاحبه نكرةً؛ لئلَّا يلتبس بالصِّفة، فالجُمَل بعد المعارف أحوال، وبعد النَّكرات صفات، وأفاد تقديمُ الحال هنا الاهتمامَ والتَّخصيصَ[5]؛ لئلا يتوهَّم أنَّ الجعْلَ لغرضٍ آخرَ سواهم، فكأنَّه قيل: جعلتُ ذلك لكم خاصَّةً، تسخيرًا لكم لا لغيركم، وليقعَ التخصيص في أصل الجعْلِ قبلَ الأرض والمهد مبالغةً في تعليق القصدِ والإرادة الإلهيَّة بالإنسان، فهو المقصود بها.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 343.
(2) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 7/ 4651.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 123.
(4) صافي، الجدول: 16/ 378، ودرويش، إعراب القرآن: 6/ 200.
(5) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 294.

أثرُ المفعولَين بعد الفعل ﴿جَعَلَ﴾:

الأرضُ مهادٌ ابتداءً أو مآلًا

على اعتبار أنَّ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ مفعولٌ أوَّل، و﴿مَهۡدٗا﴾ مفعولٌ ثانٍ[1]، في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾، فـ﴿جَعَلَ﴾ من أفعال التحويل النَّاصبة لمفعولَين، بمعنى التَّصييرِ من حالةٍ إلى أخرى، ومعنى ذلك أنَّ الأرضَ لم تكن مهدًا من أوَّلِ الأمر حتى سوَّاها اللّه، ونقلها إلى تلك الحال، وتحتمل أن تكونَ جملةُ ﴿جَعَلَ﴾ إنشائيَّةً بمعنى الخَلْق والإيجاد والإحداث، فتتعدّى لمفعولٍ واحدٍ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾، و﴿مَهۡدٗا﴾ حالٌ منه، ويدلُّ على أنَّ الأرضَ موضوعةٌ على تلك الهيئة، وأنَّها مِهادٌ ذلولٌ من أوَّل الأمر[2].

بلاغةُ القصرِ:

المواقفُ تستدعي شبيهاتِها

تعريفُ طرفَي الإسنادِ - في قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ أي: الجاعلُ الأرضَ - أفاد الحصر، أي: هو الجاعلُ ذلك وحدَهُ لا شريكَ له فيه، وهذا قصر حقيقيٌّ قُصِدَ به الردُّ على المشركين؛ لأنَّه في سياق الحِجاج على مُدَّعي الألوهيَّة، فكذلك أشباهُهُ من المشركين، لاشتراكهم معه في إنكارهم ألوهيَّةَ الرَّحمن، مع ما فيه من التَّذكير بالنِّعمة والتَّعريض بأنَّ غيرَهُ ليس حقيقًا بالألوهيَّة، كفرعونَ الذي ادَّعاها، وأصنامِهم التي عبدوها[3].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿مَهۡدٗا﴾:

جَعْلُ السُّبلِ في الأرض من تمام مهادِها

قولُهُ: ﴿ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ كنايةٌ عن لازِمِه من الرَّاحةِ فيها وصلاحيتها للاستقرار عليها، لسهولتها وبسطتِها، ولذا عطفَ عليها قوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾؛ لأنَّ ذلك من تمام مهادِها، وهو من باب إتباع العام ببعضِ أفراده وأحد أوصافه.

---

(1) صافي، الجدول: 16/ 378، ودرويش، إعراب القرآن: 6/ 200.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (جعل)، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 283، 2/ 29، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 8/ 273.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 236.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي: ﴿وَسَلَكَ﴾:

السُّبل في الأرض كالوسيط الدَّخيل في البسيط المديد

التَّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وَسَلَكَ﴾ دون سواه من الأفعال؛ للدَّلالة على أنَّ هذه الطُّرق المضروبة في الأرض من معالِمها المتمكِّنةِ منها، البائنةِ فيها، المحدودةِ في وُسْعها وامتدادها، لدلالة ﴿وَسَلَكَ﴾ على معنى النُّفوذ والدُّخول[1]، وهذه السُّبل متحيِّزةٌ في الأرض بنفاذٍ في سطحها وتداخلٍ في حشْوها، ومحدودةٌ بالجبال والأودية والبراري، فهي داخلةٌ بينها، نافذةٌ فيها كالوسيط الدَّخيل في البسيط المديدِ.

سرُّ تكرارِ شبه الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾ وتقديمها:

للإنسان خُلِقَتِ النِّعَمُ

كرَّر ﴿لَكُمْ﴾، وقدَّمها على المفعول في قوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ للدلالة على أنَّ الانتفاع مخصوصٌ بالإنسان، ولبيان أنَّه المقصودُ بالذَّاتِ من ذلك[2].

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

الكون مُسَخَّرٌ للإنسان لينتفع به

اللَّامُ الجارَّة في قوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ يمكن أن تكونَ للتَّعليل، أي: فعل ذلك لأجلكم، ويمكنُ أن تكونَ للتَّخصيص؛ على معنى: أنَّ منفعتَها عائدةٌ إليكم لا إلى غيركم، ويمكنُ أن تكونَ لتعجيل ما يسرُّهم.

المُخاطَب في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

في النِّعَمِ ما لايُحصى ولا يُعدُّ

الخطاب في قوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ﴾ موجَّهٌ لنوع الإنسان بجملتِه، فالخطابُ هنا لكلِّ من يصلح أن يتلقَّاه مِنَ المُكلَّفين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، على سبيل التَّناوب والبدليَّة.

توجيهُ القراءات القرآنيَّةِ في لفظ: ﴿مَهْدًا﴾:

أصلُ المهدِ مصدرٌ ثم جُعِلَ اسمُ جنس لما يُمهَّد للصبيِّ

قرأ الكوفيون ﴿مَهْدًا﴾، وقرأ الباقون ﴿مِهَٰدًا﴾[3]، والفرق بينهما: أنَّ المَهْدَ مصدرٌ، والمِهادَ اسمُ مصدرٍ، كالفَرْش: المصدر، والفِراش: اسمٌ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلك)، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 436.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 518.
(3) ابن الجزري، تحبير التيسير، ص: 458.

لما يُفْرَشُ، والمعنى على المصدر: جعْلُ الأرضِ نفْسَ المَهْدِ مبالغةً، كأنَّ الأرضَ في حقيقتها مجعولةٌ من المَهْدِ لكثرةِ ما يلزمُها هذا الوصفُ، ويتمكَّن منها، وإمَّا على حذف مضاف، أي: جعلَها ذاتَ مَهْدٍ، وإمَّا بجعلِ المصدر على معنى المفعول اتِّساعًا في المعنى، أي: مُمَهَّدَةً، والمعنى على اسم المصدر (مهادًا) إرادةُ النوعيَّة، أي: نوعٌ محدَّدٌ في التمهيد والرَّاحة لكلِّ إنسانٍ، فالمصدرُ يدلُّ على الجنسيَّة، واسم المصدر يدلُّ على النوعيَّة، فالمَهْدُ هو المعنى المجرَّدُ الجامع لأنواع المُهودِ وألوانها، والمَهْدُ يُثبِتُ حقيقةَ الجنس للأرض في عموم مواضعها، والمهادُ اسم المصدرِ، يدلُّ على النَّوعيَّة، أي: لونٌ مُعيَّنٌ مُحدَّدُ المجال، فيدلُّ على اسم الشَّيءِ الذي يتلبَّس به الفاعلُ، فيُمهَد، كالفِراش الذي هو الشَّيء المحدَّد الذي يفترشُهُ الفاعل، ويلابسه، وأمَّا المصدرُ (المهد)؛ فيدلُّ على معنى الشَّيء قبل ارتكابه وتخصيصه بمُباشرة الفاعلِ له، ولذا فإنَّه لمَّا أراد هنا أن ينبِّهَ على الوصف المعنوي الثابت للأرض؛ عبَّرَ بالمصدر، وحين يريد أنْ ينبِّهَ على مباشرةٍ لنوعٍ من هذا الوصف يعبِّرُ باسم المصدر، هذا؛ لأنَّ اسمَ المصدرِ يدلُّ على الاسم المفهومِ من الحدث، والمصدرُ يدلُّ على الحدث، فاسمُ المصدرِ هو أثرُ المصدر، واسم المصدر يدلُّ بموجبِه على اسم الشَّيء وعلى الذاتِ التي تعلَّق بها، أو باشَرَتْهُ[1].

أو أنَّ المَهْدَ مفردٌ، والمِهادَ جمعُهُ، كفَرْخٍ وفراخٍ وكَعْبٍ وكِعابٍ، والمعنى على الجمع، أي: جَعل كلَّ موضعٍ منها مهْدًا لكلِّ واحدٍ منكم، والمعنى على المفرد: إرادةُ الجنسِ، وهو من دلالات الإفرادِ، فالجمعُ لاستيعابِ مواضعها وأقاليمها، والإفرادُ لكونها في جملتها طبقةً واحدةً[2].

دلالةُ الجمعِ والتنكير في لفظ: ﴿سُبُلًا﴾:

تنكيرُ اللَّفظ تأكيدٌ على التعدُّدِ المستفاد من الجمع

جمعُ لفظ ﴿سُبُلًا﴾ للدَّلالة على توزُّعها في جهات الأرضِ بكثرةٍ،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 518.

(2) ابن عادل، اللباب: 13/ 276، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 436، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 518، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 366.

وتنكيرُ اللَّفظ تأكيدٌ على التعدُّد المستفاد من الجمع ومبالغةٌ في الكَثْرةِ المشتمِل عليها، والمرادُ بالتنكير العمومُ؛ ليشمل جميعَ السُّبل التي يعرفها المخاطَبون، والتي لا يعرفونها.

بلاغةُ الكنايةِ في كثرة السُّبل وتعديدها:

التداولُ النَّفعي حاصلٌ بوفرة السُّبل

كثرةُ السبلِ بدلالة الجمع في قوله: ﴿سُبُلٗا﴾ كنايةٌ عن تسهيل تداولِ المنافع بين أهل الأرض؛ لأنَّ السُّبُلَ إذا كثُرت؛ سَهُل انتقالُ الأغراض من مكانٍ إلى مكان ومن قومٍ إلى قوم، وهذا التداولُ ما يُعرف - حاليًّا - بالاستيراد والتصدير، فلولا السُّبلُ وكثرتها وتوزُّعها في كافَّة جهات الأرض، لتعذَّر هذا التداولُ، وأيضًا هي كنايةٌ عن اختصار الأوقات، فإنَّ وجود السُّبلِ يقرِّب الوصولَ للمقاصد والجهات في أقصر وقتٍ وأقربِ زمن.

دلالةُ لفظِ ﴿وَسَلَكَ﴾ بين التَّعديةِ واللُّزوم:

كثرةُ الاستعمال تسوِّغُ الإيجازَ والاقتضابَ في الألفاظ

الفعلُ ﴿وَسَلَكَ﴾ في قوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ هو (سَلَكَ) المتعدّي، أي: أسلك فيها سبلًا، وهذا مبناهُ على أنَّ ﴿وَسَلَكَ﴾ فعلٌ مشتقٌّ من السُّلوك، والسَّلْكُ - الذي هو الدخول مجتازًا وقاطعًا في السير في الطريق - تشبيهٌ للسائر بالشَّيءِ الدَّاخل في شيء آخرَ، يقال: سلك طريقًا، فحقُّ هذا الفعل أن يتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وهو المدخول فيه، ويُستعمل متعدّيًا بمعنى: أسلكُ، وحقُّه أن يكون تَعدّيه بهمزةِ التعديةِ، فيقال: أسلكَ المسمارَ في اللوح، أي: جعلهُ سالكًا إيَّاه، إلا أنَّه كثر في الكلام تجريدُهُ من الهمزة، كقوله تعالى: ﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧﴾ [الجن: 17]، وكثر كون الاسم الذي كان مفعولًا ثانيًا يصير مجرورًا بـ(في)، كقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾ [المدثر: 42]، بمعنى: أسلككم سقرَ، فصار فعلُ (سلك) يُستعمل قاصرًا ومتعدّيًا[1].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/ 367، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 237.

دلالةُ الواو على العطفِ في قوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾:

جملة ﴿وَأَنزَلَ﴾ معطوفةٌ على جملة الصِّلَة: ﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ﴾[1] عروجًا مِنَ الأرض إلى السَّماء في النِّعَم والآلاء، وبدأ بالأرض؛ لأنَّهم عليها ملابسين لها، وثنّى بالسَّماء؛ ليدلَّ على أنَّ النِّعَم حاصلةٌ للإنسان من تحته ومن فوقه، وفي هذا تعريضٌ بفرعونَ مدَّعي الألوهيَّة؛ إذ لا يقدر على تسخير النِّعَم على جهة الإحاطةِ بجوانبها العلويَّة والسُّفليَّة إلا اللّٰه، وفي العطف بالسَّماء بعد الأرضِ دفْعٌ لغطرسته، فربَّما توهَّم أنَّه قادرٌ على إنعام الأرض بتمكُّنه من أسبابها، فجوِّبِهَ بما لا قِبَلَ له به، ولا تمكُّنَ له في أسبابه، وهو نزول المطر من السَّماء.

النِّعَمُ حاصلةٌ للإنسان من فوقِهِ ومن تحتِهِ

سرُّ استعمال الفعلِ ﴿وَأَنزَلَ﴾ بصيغة الماضي:

التَّعبيرُ بالفعل ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ماضيًا، لإفادة التحقُّق المشهود، الذي لا يرتاب فيه سامع، فإنَّ كلَّ الخَلْق استقرَّ عندهم بالعلم والمشاهدةِ نزولُ المطر من السماء، حتّى صار ذلك مُسَلَّمَةً بدهيَّةً لا يُمتارُ في حصولها، وفيه إشارة إلى أنَّ المطرَ في نزوله على أهل الأرض رزْقٌ مقضيٌّ وإنعام مقدورٌ أزلًا لابدَّ من استيفائه لهم، كما تُستوفى الأرزاقُ والآجال، ولذا عبَّر عنه بالماضي.

الأمطارُ أرزاقٌ مقدورةٌ

دلالةُ إسقاطِ (لكم) في الإنزال:

لم يَقُلْ في السياق الكريم: (وأنزلَ لكم من السماء ماءً)، كما قال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ و﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ نَفْعَ الإنزال بالمطر عامٌّ، فلا يختصُّ بالإنسان وحدَهُ، وإيماءً إلى أنَّ في إنزال الماء من السماء إصلاحٌ عامٌّ يتجاوز منافعَ الإنسان، ويتعدّى مسألةَ وجوده وذاته[2].

نفْعُ الإنزالِ بالمطرِ عامٌّ لا يختصُّ بالإنسان وحدَهُ

(1) صافي، الجدول: 16/ 378.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 367.

سرُّ تقديم شبه الجملة على المفعول:

جُعِلَت السَّماءُ مَحلًّا للنَّظر والاعتبار

تقديمُ شبه الجملة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، على المفعول به ﴿مَآءً﴾ لإفادة الاختصاصِ للعناية والاهتمام، وهو تقديمٌ منطقيٌّ تقديمًا للشَّيء على أَثرِه وما يكون منه، ووجْهُ العناية: إلفاتُ الأنظار إلى السَّماء وهوْلِ إبداعها؛ لأنَّها مقصودةٌ بالنَّظر والاستبصار، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ [ق: 6]، والتقديمُ يفيد الحصر، فإنَّ الإنزالَ لا يكون إلَّا من السَّماء.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

التَّعريفُ للعهد الذِّهنيِّ

أفاد تعريفُ السَّماء هنا العهدَ الذِّهنيَّ، أي: السَّماءُ المعروفةُ والمعهودة لديكم، وفي هذا تنبيهٌ لهم على التَّفكُّر في هذه النِّعم المألوفة.

بلاغةُ الطِّباق في الجمع بين السَّماء والأرض:

الطِّباق من المحسِّنات البديعيَّة اللَّفظيَّة

في ذِكره السَّماءَ والأرضَ طباقُ إيجابٍ؛ حيث إنَّ التَّقابلَ كان بين لفظتَي السَّماء والأرض، لا بين لفظٍ مُثبتٍ ولفظٍ منفيٍّ.

بلاغةُ الإدماجِ:

الكونُ في مُتَواليةٍ متَّصلةٍ من النظام والحركة والتكامل

في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ﴾ إدماجٌ بديعٌ[1] كالمتواليةِ المتَّصلة التي لا تتمُّ إلا باستمرار تواليها ودورانها، فأدمَج نعمةَ وضْعِ الأرضِ مع نعمةِ إخراج النبات منها، فكأنَّها موضوعةٌ للإنتاج والإخراج والتوالد المستمرِّ، ثمَّ أدمَج في هذين نعمةَ إنزال الماءِ من السماء؛ لأنَّهُ سببُ التوالد والعمران الأرضيِّ، ليدلَّ على أنَّ صلاحيَّةَ الأرضِ لا تدوم إلا باتِّصالها المتوالي مع أسباب السَّماء، فإذا انقطع عنها ذلك المددُ العلويُّ؛ خَرِبَتْ، وجَدَبَتْ، فكذلك الشأنُ في صلاحيَّة الإنسان عليها لا يتمُّ وجوده إلَّا باتِّصاله بأسباب السماء في المنهج

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 237.

والوحي، فإذا انقطع عن ذلك؛ ضلَّ وهلك في معاشه ومعاده، وهذا إدماجٌ في غاية الرَّوعةِ من حُسْنِ الإشارةِ وبديع العبارة.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبة إلى التَّكلُّم:

الحكيمُ يُغاير في أسلوبه بحسب قصدِه

عدلَ عن لفظ الغيبةِ في قوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾ إلى صيغة التكلُّم بصيغة التَّعظيم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على الحكاية لكلامِ الله تعالى، تنبيهًا على إظهار ما فيه من الدَّلالة على كمال القدرةِ والحكمة، وإيذانًا بأنَّه مطاعٌ تنقاد الأشياءُ المختلفة لمشيئتِه[1].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِهِۦٓ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ سببيَّةٌ مؤكِّدةٌ للسببيَّةِ المستفادة من الفاء في ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾[2]، وإنزالُ الماءِ سببُ الحياة، والحفاظُ على الماء سببُ استمرارها.

بلاغةُ المجازِ المرسل في: ﴿أَزْوَٰجًا﴾:

تنوُّعُ الثِّمار مع أنَّها تُسقى بماءٍ واحدٍ من آيات الله

في قوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ مجازٌ مرسل علاقتُه اعتبارُ ما سيكون؛ ذلك لأنَّ هذه البذورَ التي سقاها ماء السَّماء لم تُصبح أزواجًا بعدُ، ولكن لأنَّ الغيثَ من شأنِه أن يجعلها كذلك؛ عبَّرَ عن حالها بعد ذلك بقوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾.

فائدةُ استعمالِ ﴿أَزْوَٰجًا﴾ ومجيئه منكَّرًا:

التَّنكيرُ قد يفيد التَّفخيمَ والتَّكثير، وهو الذي اتَّحد نوعُهُ بعلاقةِ الإطلاق

أفاد التَّنكيرُ هنا التَّكثيرَ والتَّفخيم لهذه الأصناف من النَّباتات، وحقيقة الزَّوج في قوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أنَّه اسمٌ لكلِّ فردٍ من اثنين من صنفٍ واحد، فكلُّ واحدٍ منهما هو زوجٌ باعتبار الآخر؛ لأنَّه يصير بسبقِ الفرد الأوَّل إيَّاه زوجًا، ثم غلب على الذَّكرِ والأنثى المقترنَيْن من نوعِ الإنسان أو من الحيوان، قال تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: 27]، وقال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 30.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 367.

﴿٣٩﴾ [القيامة: 39]، وقال: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، ولمَّا شاعت فيه ملاحظةُ معنى اتِّحاد النَّوع؛ تطرَّقوا من ذلك إلى استعمال لفظ الزوجِ في معنى النَّوع بغير قيدِ كونِه ثانيًا لِآخَر، على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق[1].

دلالةُ المصدر ﴿نَّبَاتٍ﴾ على الواحد والجمع:

النَّباتُ مصدرُ نَبَتَ نباتًا

﴿نَّبَاتٍ﴾ في قوله: ﴿أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ﴾ مصدرٌ سُمّي به الشَّيءَ النَّابت، كما سمّي بالنَّبت، فاستوى فيه الواحد والجمع، فالنَّبْتة الواحدةُ فما فوقها، يقال له: (نبات)، ولذا صحَّ أنْ يكون ﴿شَتَّىٰ﴾ - وهو جمعُ شتيت - أن يكون صفةً لـ﴿نَّبَاتٍ﴾ لاستوائه في الجمع والإفراد، فصحَّ وصفُهُ بالجمع، ويصحُّ أن يكون النَّباتُ اسمَ جمعٍ لا واحد له من لفظه، ويحتمل أن يكون اسمَ جنسٍ جمعي، واحده (نَباتَة)[2].

سرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿بِهِۦٓ﴾ على المفعول:

الماءُ أصلُ كلِّ حركةٍ وحياة

قُدِّمت شبهُ الجملة ﴿بِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿أَزۡوَٰجًا﴾؛ لإفادة الاختصاصِ والحصر، أي: بالماء لا بغيره أخرجنا نباتًا.

سرُّ ورود الصِّفة بلفظ ﴿شَتَّىٰ﴾:

الأوزانُ قوالبُ المعاني

﴿شَتَّىٰ﴾ على وزن (فَعلى) جمعُ (شتيت) على زِنَة (فعيل)، و(فَعلَى) جمعٌ لما دلَّ على آفةٍ من هلاكٍ أو نقصٍ أو توجُّعٍ أو بلاءٍ ومكروه، كجرحى وجريح ومرضى ومريض، ولمَّا كان (شتيت) بمعنى المتفرِّق المتباعد المختلف؛ جُعِلَ ذلك بمنزلة ما فيه آفةٌ؛ لأنَّ التفرُّقَ والتشتُّتَ - في أصله - من ضروب الآفاتِ والنَّقص، وهو سببٌ من أسباب التوجُّع[3]، ومفرده على زنة (فعيل - شتيت) صفة مشبَّهةٌ تدلُّ على الثُّبوت لما هو خِلْقةٌ كالطبائع والغرائز، أو ما يُقارِب الطَّبْعَ والخِلْقة، أي: هي أنواعٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 238.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 422.
(3) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 140.

من نباتٍ يلازمُها التفرُّق والمشاكلة في صفاتها من اللون والطَّعم وفي خصائصها، فبعضها خاصٌّ للإنسان، وبعضها خاصٌّ بالحيوان[1].

التشبيهُ البليغُ في وصف الأرض بالمهد:

التشبيهُ البليغ قــائــمٌ عـلى المبالغة والتأكيد

قوله: ﴿ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ تشبيهٌ بليغٌ مؤكِّد، أي: إنَّها لكم كالمهد للصبيِّ[2]، فحذف الأداةَ ووجهَ الشَّبه لتصوير أنَّ المشبَّهَ هو عينُ المشبَّه به على جهة المبالغةِ والتأكيد في اتِّحاد الطَّرفين، وهو هنا من مواضع مجيءِ المشبَّه به حالًا من المشبَّه.

نكتةُ العطفِ بالفاء في قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾:

إخـراجُ المعدومِ من الـعـدمِ إلى الــوجــود من دلائل القدرة

جملة: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، وعطفُهُ بالفاء تنبيهٌ على سببيَّة الإنزال في حصول الإخراج، بخلاف الجُمَل السَّابقة، فقد عطفها بالواو، لتصوُّر الجامع بينها، وانتفاءِ السببيَّة في القصد منها[3].

الموقعُ البيانيُّ لجملة: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ﴾:

الأنبياءُ يبلِّغون الإيمانَ بالبرهان

قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ هي كالبرهان على الإجمال في قوله: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، لدلالتها على كمال القدرة وشمولِ العلم، فيندفع بها إشكالُ أنَّ موسى عليه السلام أجاب بالإجمال في قوله: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ من غير برهنةٍ على جوابه هذا، فجاء قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ دليلًا مشاهدًا على ما أثبته للّه من إحاطةٍ وكمالٍ في عِلمه بالقرون الأولى[4].

دلالةُ التنكير في: ﴿مَهۡدٗا﴾، و﴿سُبُلٗا﴾، و﴿مَآءٗ﴾، و﴿أَزۡوَٰجٗا﴾، و﴿نَّبَاتٖ﴾:

أغـراضُ التنكير تُنتزَع من قرائنِ السياق

التنكيرُ في ﴿مَهۡدٗا﴾ من قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ للعموم، لاستغراق التمهيد جميعَ أنحاء الأرض.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 69، وفاضل السامرائي، معاني الأبنية: 83، وصافي، الجدول: 16/ 378.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 366.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 367.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 366.

والتَّنكيرُ في قوله: ﴿سُبُلًا﴾ للتكثير؛ إذِ الأرضُ مشتمِلةٌ على السُّبُل، لا أنَّ السُّبل في جميع أنحائها.

والتَّنكيرُ في ﴿مَآءً﴾ مِنْ قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إمَّا للتبعيض على تصوُّر أنَّ الماء النَّازل من السماء هو بعضُ المُختَزَنِ فيها، وليس جميعهُ، وإمَّا للتكثير؛ لأنَّ الماء الكثير هو الذي يصلحُ لإخراج الأزواج المتنوِّعة والعديدة من النَّبات.

والتَّنكيرُ في قوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ للتنويع؛ لأنَّ الأزواجَ من النَّبات أنواعٌ وأشكال عديدة.

والتَّنكيرُ في ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ للتعميم والإبهام والتكثير.

حروفُ المعاني نواةُ المعنى وخُلاصة المقصود

معنى (مِنْ) في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: من جهة السَّماء واصِلٌ منها إلى الأرض، و﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيانيَّةٌ لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾.

﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عرَّف موسى ﷺ بالخالق سبحانه في الآية السابقة، وذكرَ آثار ربوبيَّتِه في كونِه بالقدرة والتدبير والتسخير والإنعام، بسَط لهم في هذه الآيةِ، وأطلق لهم الإذنَ فيما سخَّر لهم لينتفعوا، ويتنعَّموا.

الكريمُ سبحانه يحبُّ أن يرى عباده مُستخدِمينَ لِما أنعم به

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱرۡعَوۡاْ﴾: الرَّعْيُ: الحِفْظُ والحِمايَةُ، يُقال: رَعَيْتُ الغَنَمَ رَعْيًا، أيْ: حَفِظْتُها، وهو في الأصل: حِفْظُ الحيوانِ، إمَّا بغِذائه الحافظِ لحَياتِه، وإمَّا بدَفْعِ العدوِّ عنه وإبْعادِه، ويُطْلَقُ الرَّعْيُ على فِعْلِ الرَّاعي مع ماشيَتِه[1].

2) ﴿أَنۡعَٰمَكُمۡ﴾: (نعم) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، مِنْهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللّٰه تعالى على عَبْدِه به مِنْ مالٍ وعَيْشٍ[2]، مُشْتَقَّةٌ مِنَ النَّعيم وهو راحَةُ العَيْشِ ومُلائِمُ الإنسانِ والتَّرَفُّهُ، وبِناؤُها بِناءُ المَرَّةِ من الفِعْلِ كالضَّرْبَةِ والشَّتْمَةِ، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ تُقال للقَليلِ والكثيرِ[3]، والأَنْعامُ: جَمْعُ نَعَمٍ، وهي: البَهائِمُ، وأَكْثَرُ ما يُطْلَقُ هذا الاسْمُ على الإبِلِ، وهو جَمْعٌ لا واحدَ له من لَفْظِه[4]، وسُمّيَتِ البَهائمُ أنْعامًا؛ لِكَثْرَةِ نِعَمِ اللّٰه فيها على خَلْقِه من النُّموِّ وعُمومِ الانْتِفاعِ[5]، والمرادُ بالأنعامِ في الآيةِ: الإبِلُ، والبَقَرُ، والغَنَمُ، والمَعزُ، وأَشْهَرُ الأَنعامِ عند العَرَبِ الإبِلُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رعي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نعم).
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/ 28.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نعم).

3) ﴿لِّأُوْلِي﴾: جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، واحدُه ذا للمُذكَّر، وذِه للمؤنَّث، يُمَدُّ، ويُقصر، فإنْ قصَّرتَهُ؛ كَتبتَهُ بالياء، وإن مَدَدْتَهُ؛ بنيتَهُ على الكسر، ويستوي فيه المذكَّرُ والمؤنث، وأمَّا (أولو)؛ فجمعٌ لا واحدَ له من لفظه، واحده ذو، وأولات للإناث، واحدتُها ذاتٌ، تقول: جاءني أولو الألباب، وأولات الأحمال[1]، والمراد بـ﴿لِّأُوْلِي﴾ في الآية: أصحاب.

4) ﴿ٱلنُّهَىٰ﴾: (نهي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على غايَةٍ وبُلوغٍ، ومِنْهُ أَنْهَيْتُ إِلَيْه الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيَّاهُ، ونِهايَةُ كُلِّ شَيْءٍ: غايَتُهُ[2]، والنِّهية: الغايَة، وكلُّ شَيْءٍ انْتَهَيْتَ إلَيْه؛ فهو نُهْيَةٌ[3]، والنُّهْيَةُ أيضًا: العَقْلُ؛ لِأَنَّهُ يَنْهَى عن قَبيحِ الفِعْلِ والجَمعُ نُهًى[4]، يُقالُ: إِنَّه لَذو نُهْيَةٍ، وإنَّهم لَذو نُهًى وذو مَنْهاةٍ، وقَوْمٌ نَهٍ ونَهَوْنَ ونَهِيْنَ؛ إذا كانوا ذَوي نُهًى[5]، و﴿ٱلنُّهَىٰ﴾ هنا: اسمُ جَمعِ نُهْيَةٍ، أَيِ: العَقْلِ.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

مِنَنُ الله تعالى ودلائلُه واضحةٌ لأصحاب العقولِ السَّليمةِ

يقولُ الحقُّ سبحانه: كلوا - أيُّها النَّاسُ - مِن طَيِّبِ ما أنبَتْنا لكم من الأرضِ مِن الحُبوبِ والثِّمارِ، وارعَوا فيها إبلَكم وبَقَرَكم وغنَمَكم، إنَّ في ذلك لعَلاماتٍ لأولي العُقولِ تدُلُّهم على وحدانيَّةِ اللّٰه وقُدرتِه ورَحمتِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿كُلُواْ﴾ ممَّا قبلها:

الامتنانُ ملازمٌ للانتفاع

جملةُ ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوۡاْ﴾ مقولٌ لقولٍ محذوفٍ وقع حالًا من ضميرِ الفاعل في ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ أي: قائلينَ: كلوا وارعوا أنعامَكم[7]، وهو

(1) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ألا - ألل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نهي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (نهي).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 86، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 24.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 239.

إيذانٌ بالانتفاع بعد الامتنانِ بسببِه مِنَ الإخراج المذكور[1]، وفُصِلَتِ الجملةُ لكونها معمولًا للحال المحذوفة، فالفصلُ لكمال الاتِّصال.

دلالةُ ضميرِ الجمعِ في الخطاب:

خطابُ الإباحةِ مأمورٌ به لئلَّا يقعَ لومٌ في تناول المباح

الخطابُ في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ﴾ عامٌّ للنَّاس كافَّةً لعموم الغرضِ منه، وهو الإذنُ والإباحةُ، ويدخل فيه فرعونَ وقومَهُ دخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّ الخطابَ حاصلٌ فيهم، ودلَّ على العموم سياقتُه بصيغة الجمع، وهو من باب مقابلةِ الجمع بالجمع لقصد التوزيع[2].

دلالةُ فعلِ الأمر ﴿كُلُواْ﴾:

الإباحةُ خطابُ تكليفٍ

فعلُ الأمرِ في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ﴾ للإباحة والإذنِ في الانتفاع بقصد الامتنانِ، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقتُهُ الإطلاقُ والتقييد، فأطلقَ الأمر المُلزِم، وأراد به التخييرَ والإباحة من غيرِ إلزام، أو استعارةٌ تصريحيَّةٌ حيث شبَّه الإذنَ في تناول الشَّيء وصلاحيَّةَ الانتفاعِ به بالأمر به بجامع التكليفِ في كلٍّ[3].

بلاغةُ الالتفاتِ:

العدولُ بالالتفاتِ لغرض تقرير المشروعيَّة

في قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ مع قوله: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ﴾ التفاتٌ من ضمير المتكلِّم إلى ضمير المخاطَبين، لبيان المِنَّة المترتِّبة على إخراج النبات؛ إذ إنَّ هذا النباتَ فيه طعامٌ لكم ولأنعامِكم[4]، والأصلُ قبل الالتفاتِ أن يقالَ: فأخرجنا لكم به أزواجًا من نباتٍ لنطعمَكم وأنعامَكم.

دلالةُ تجاورِ فعلَين بصيغةِ الأمر:

إخراجُ النَّباتِ لأجلِ الأكلِ والرَّعي

توارُدُ فِعلَي الأمر متعاطفَين في الأكل والرعي؛ للدَّلالة على أنَّهما المقصودان أصالةً من حصول الإنبات، فإخراجُ النَّبات لأجل

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 22.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (16/ 239)، والمراد من مقابلة الجمع في ضمير اللفظ ﴿كُلُواْ﴾ بالجمع، أي: المخاطَبين به، لقصد التوزيع، أي: توزيع المنافع المستفادة من الإذن بالإباحة عليهم.

(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 9.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4737.

الأكلِ والرعي، وهما مطلوبان بالجمعِ بينهما، ليصونَ المرء نفسَهُ بالطعام، ويصونَ ما بين يديه مِنَ الأنعام التي هي أمانةٌ عنده بالإطعام والرعي، ففي اقترانِ الفِعلين إعظامٌ لحقِّ الحيوان على الإنسانِ من الرعاية والصِّيانةِ، وفيه إيماءٌ إلى مراعاة كلِّ مَن له في ذِمَّته حقٌّ عليه، ولذا جاء الخطابُ بصيغة الأمرِ للإشارة إلى معنى الحرصِ على القدرِ اللازم في تناول المنافعِ الَّتي أباحَها اللّٰه، وأَذِنَ فيها، ففي الإباحةِ والإذن قدرٌ ضروريٌّ لا بدَّ من تحصيله، وفي صيغة الأمر إيناسٌ عظيم، ليتناول المرءُ ما أباح اللّٰه، وهو مستشرِفٌ منشرِح؛ لأنَّ الإذنَ بالمباح بصيغة الأمر معناه حرص الشَّارع على تناولِ المكلَّف لعطاياه وهداياه، ولو خلا ذلك من قصد الإلزام، وهذا ممَّا يؤنِس النُّفوس، فلا تتناول المباحاتِ بحَرَجٍ.

دلالةُ العطفِ بحرف (الواو):

رعيُ الأنعامِ من تمام الإنعام

قولُهُ: ﴿وَٱرۡعَوۡاْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿كُلُواْ﴾؛ للجمعِ بينهما في الإذن والإباحة، وللإشارة إلى أنَّ رعيَهم للأنعام من تمامِ الإنعام؛ لأنَّهم ينتفعون برعيها، وأنعامُهم من أمتعتهم في الدُّنيا، بل هي من أساس المتاع، فالرعيُ ذاتُهُ نعمةٌ أنعمَ بها عليهم؛ إذ ربَّما تكون لهم أنعام، ولا يجدون مرعاها، فلا يمكنهم أن ينتفعوا بها[1].

سرُّ استعمالِ الفعل ﴿وَٱرۡعَوۡاْ﴾ متعدّيًا:

تتباينُ المصادرُ للفعل الواحد لتباينِه في اللُّزوم والتعدّي

قولُهُ: ﴿وَٱرۡعَوۡاْ﴾ مِنْ (رعى) الذي يأتي لازمًا ومتعدّيًا، فعلى الأوَّل: رعتِ الدَّابَّةُ، وعلى الثاني: رعى الأعرابيُّ دابَّتَهُ، والفرقُ بينهما في المصدر، فمصدرُ اللازم: الرَّعْيُ، ومصدرُ المتعدي: الرعايةُ، والفعلُ هنا في الآية متعدٍّ إلى مفعوله: ﴿أَنۡعَٰمَكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ المقصودَ هو نسبتُهم بالفعل إلى أنعامِهم؛ لأنَّهُ مظهرُ الامتنان ومتعلَّقُه[2].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4738.

(2) السمين، الدر المصون: 8/ 52، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 239.

نكتةُ إضافةِ الأنعام لضميرِ الخطاب:

كلُّ نعمةٍ في طيّها نِعَمٌ

أضافَ الأنعامَ إليهم؛ لأنَّها من منافعِهم وأملاكهم، فهو إدماجُ مِنَّةٍ في مِنَّةٍ: مِنَّةِ امتلاكها في مِنَّةِ التمكُّنِ من رعيها بتوفُّر طعامها، وفيه إشارةٌ إلى منفعتَين: إلى تسمينِها بالرعي والذي يلزم عنه تمامُ طيبِها عند أكلها أو عند بيعها، ففي التركيب كنايةٌ بديعة عن ذلك، أو مجازٌ مرسل علاقتُه السببيَّةُ، فعبَّر عن السَّبب وهو الرعي، وأرادَ المسبَّب، وهو الأكلُ، أو عبَّر بالفعل، وأراد المآل[1].

موقعُ جملةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ ممَّا قبلها:

تجريدُ العقلِ شرطٌ في الانتفاع بالآيات

جملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ تذييلٌ اعتراضيٌّ تأكيديٌّ للاستدلال السَّابق، لأجل إنكار المنكرين؛ تعريضًا بهم ونعيًا على عقولهم، وتحفيزًا للواعين من المُخاطَبين أنْ يُجرِّدوا العقولَ والقلوبَ في اعتناق الدلائل واستيثاقِ البراهين، وفُصِلَتِ الجملةُ لمقتضى الاعتراضِ والتأكيد، والرابطُ بينها وما قبلها حرفُ التَّوكيد الذي أغنى عن العاطف[2].

بلاغةُ المؤكِّدات في جملة الفاصلة:

إنكارُ المخاطَب أو تنزيله منزلةَ المنكِر يقتضي الاستهلالَ بالتوكيد

تأكيدُ الخبر بحرف ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة ولامِ الابتداء؛ لتنزيل المخاطَبين منزلةَ المنكرين؛ لأنَّهم لم ينظروا في دلالة تلك المخلوقاتِ على وحدانيَّة الله، وهم يحسبونَ أنفسَهم مِن أولي النُّهى، بل تصاعدوا في الضَّلال والوهم، فلم يحسِبوا هذه الآياتِ المذكورةَ آياتٍ أصلًا، وإنَّما هي مألوفاتٌ لا يَروا فيها بيِّنةً أو برهانًا، ولذا سيقتِ الجملةُ بالتأكيد الافتتاحي بحرف ﴿إِنَّ﴾، ثمَّ جاء تقديمُ الخبر للاهتمام والتخصيص، والتَّعبيرُ عن المعهودات المذكورة بالإشارة للبعيدِ تأكيدٌ على عراقتها وبُعد رتْبَتِها في الاستدلال، ثمَّ لامُ الابتداء والتأكيد

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4738.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 298، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 239.

المقترنةُ باسم إنَّ المؤخَّر ﴿لَآيَـٰتٍ﴾ لتأكيدِ كونِها آياتٍ في حقيقتِها، وإن رآها المنكرون على غيرِ مستواها في البرهنةِ والوثوقيَّةِ، فسياقةُ التذييلِ على هذا التركيب المحكمِ في التَّأكيد والتحقيق والتخصيصِ؛ ليكون نعيًا على المنكِرِ المنتكِس وتثبتًا للنَّابه البصير[1].

دلالةُ اسمِ الإشارةِ:

تُساقُ الإشارةُ للبعيدِ في مقام المدح العالي أو الذمِّ العظيم

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من شؤونه تعالى العظمى وأفعاله الكبرى في الوجود، وأشار بلفظ البعيدِ، لِما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلوِّ رتبته وبُعد منزلته في الكمال، فهي آياتٌ كاملةٌ شافية وكافية ووافية لمن عقل واهتدى، وفي الإشارة وجازةٌ لفظيَّةٌ أغْنَتْ عن إعادة المذكورات والإطناب في تكريرها[2].

سرُّ جمعِ الآياتِ وغرضِ تنكيرها:

آيةٌ واحدةٌ تكفي سليمَ القلبِ، فكيفَ بالآيات؟

تنكيرُ الآياتِ مع جمع لفظِها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ﴾؛ للتَّفخيم كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةٍ جليلة واضحةِ الدلالة على شؤون اللّه تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى صحَّةِ نبوَّة موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، وفي الجمع إشارةٌ إلى أنَّ الآيةَ العظيمة منها هي مجْمَعٌ لآياتٍ وبصائر كثيرة.

سرُّ استعمالِ النُّهى عوضٌ عن العقول والألباب:

اصطفى النُّهى من أسماء العقل؛ لأنَّه ينهى عن مِثْل صفاتِ فرعونَ

﴿ٱلنُّهَىٰ﴾ جمع نُهْيَةٍ، كالظُّلَم جمع ظُلْمةٍ، سُمّي بها العقلُ لنَهْيِه عن اتِّباع الباطل، وارتكاب القبائحِ، كما سمّي بالعقل والحِجر؛ لِعَقْلِه وحَجْرِه عن ذلك، أي: لذوي العقول النَّاهية عن الأباطيلِ التي من جملتِها ما يدَّعيه الطَّاغيةُ، وتقبلُه منه فئتُه الباغيةُ، وتخصيص كونها آياتٍ بهم مع أنَّها آياتٌ للعالمين باعتبار أنَّهم المنتفعون بها[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 239، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 8/ 275.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 519.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 22.

ويجوزُ أن يكونَ مصدرًا كالهدى، وقوله تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ يقوّي أنَّه جمعٌ؛ لإضافة الجمع إليه، وإن كان المصدر يجوز أن يكون مفردًا في موضع الجمع؛ لأنَّه لا يُثنّى، ولا يُجمع[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النُّهى واللبُّ والحِجْر والعقل:

عقلُ الإنسانِ عاصِمٌ له بقدر ما يُراعيه ويعتبِرُهُ

النُّهى واللبُّ والحِجْرُ والعقل، جميعها أعلامٌ على قوَّة الإدراك الكائنةِ في الإنسان، ولكن لوحظَ في كلِّ اسمٍ منها وصفًا ليس في الآخر، فالنُّهْيَةُ هو العقلُ النَّاهي عن القبائحِ، مِنَ النَّهْي وهو الزجرُ عن الشَّيء[2]، واللُّبُّ[3]: هو العقلُ في حال خلوصِه وصفائِه وتجرُّده للتمييز والإصابة، مِنْ لُبِّ الشَّيء: وهو خلاصتُه النقيَّة، ومن اللبِّ، وهو الخالصُ من كلِّ شيءٍ، والحِجْر[4] هو العقلُ المانع عن القبيح، سمّي بذلك؛ لأنَّه يكون حاجِرًا، أي: مانعًا وحافظًا ومحيطًا بصاحبه عمَّا يَشين، ويضُرُّ، وأصله من الحِجْر، وهو المنعُ من التصرُّف، وأمَّا العقلُ: فمِنْ عَقَل الشَّيءَ؛ إذا قيَّدَهُ بالعِقال، وأصله: الحبْسُ، وسُمّي بذلك؛ لأنَّهُ يَعْقِل: يُدْرِكُ، ويَلْتَقطُ، ويختزنُ العلمَ بالشَّيء مباشرةً أو استنتاجًا[5]، فهو حابِسٌ للمعلومات مُقيِّدٌ لها.

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 423.

(2) الراغب، المفردات: (نهى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (لب)، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (لبب).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حجر).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عقل).

﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

استعمالُ الأقيسةِ والتشبيهات من أنجعِ طرائقِ الاستدلال وأنفعِها

لَمَّا أتمَّ في الآياتِ السابقةِ ذِكْرَ خلقِ الأرضِ ومنافعها؛ استدعى ذلك إكمالَ ذِكرِ المهمِّ للناس من أحوالها، فكان خلقُ أصلِ الإنسان من الأرض شبيهًا بخروجِ النَّباتِ منها، وإخراجُ النَّاس إلى الحشر شبيهًا بإخراجِ النَّبات من الأرض[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُعِيدُكُمۡ﴾: (عود) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَثْنِيَةٍ في الأَمرِ، ومنه العَوْدُ، قالَ الخليلُ: هو تَثْنِيَةُ الأَمرِ عَوْدًا بَعْدَ بَدْءٍ، تقولُ: بَدَأَ، ثُمَّ عادَ، والعَوْدَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ[2]، والعَوْدُ أيضًا: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعد الانصراف عنه إمَّا انصرافًا بالذَّات، أو بالقَول والعَزيمة[3]، والمَعادُ: المصيرُ والمرجعُ، والآخرةُ مَعادُ الخَلْقِ[4]، والمرادُ بالعَوْدِ في الآية: الرُّجوعُ إِلَى شَيْءٍ بَعْدَ مُفارَقَتِه.

2) ﴿نُخۡرِجُكُمۡ﴾: (خرج) أَصْلٌ يدُلُّ على النَّفاذِ عن الشَّيْءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا، والخُراجُ بالجَسَدِ، والخَراجُ والخَرْجُ: الإِتاوةُ؛ لأَنَّهُ مالٌ يُخْرِجُهُ المُعْطِي[5]، الخُروجُ: اسمٌ من أسماءِ يوم القيامةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢﴾ [ق: 42]، أَي: يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فيَخْرُجون من الأَرْضِ[6]، والخُروجُ أيضًا: البُروزُ والظُّهورُ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 240.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(3) الراغب، المفردات: (عود).
(4) الجوهري، الصحاح: (عود).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خرج).

ومنه سُمّي الخوارِجُ بذلك؛ لِخُروجِهم على النَّاسِ[1]، والمُرادُ بالخُروج في الآية: هو إِخْراجُ الخَلْقِ إِلَى الحَشْرِ بَعْدَ إِعادَةِ هَياكِلِ أَجْسامِهم في داخِلِ الأَرْضِ[2].

3) ﴿تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾: التَّارَةُ: الحينُ والمَرَّة، وجَمعُها تاراتٌ، وأَصْلُ أَلِفِها الواوُ، وقالَ ابنُ الأَعْرابيِّ: أَصْلُ أَلِفِها هَمزَةٌ، فلَمَّا كَثُرَ اسْتِعْمالُهُم لَها؛ تَرَكوا الهَمزَةَ، وقالَ بَعْضُهُم: ظَهَرَ الهَمزُ في جَمعِها على فِعَلٍ، فقالوا: تِئَرٌ بالهَمزِ[3]، ومِنْهُ يُقالُ: أَتْأَرْتُ النَّظَرَ إِليه، أَي: أَدمته تارَةً بَعْدَ تارة، وأَتَرْتُ الشَّيءَ: جِئْتُ به تارَةً أُخرى، أَي: مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ[4]، ويَظْهَرُ أَنَّها اسْمٌ جامِدٌ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ مُشْتَقٌّ مِنْهُ[5]، وقيل: أصلُهُ مِن: تارَ الجُرحُ: التَأَمَ[6]، والمُرادُ بالتَّارَةِ في الآية: المَرَّةُ المُتَكَرِّرَةُ، أو كلُّ فِعلَةٍ مُتجدِّدةٍ.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الإنسانُ ابنُ هذه الأرضِ، منها خُـلِـقَ، وإليها يـعـودُ، ومنها يخرج تارةً أخرى

يُخبرُ الحقُّ سبحانه أَنَّ هذه الأرضَ منها خُلِقَ الإنسانُ، وإليها يعودُ، ومنها يُبعث للحساب يومَ القيامة، فقال تعالى: مِن تُرابِ الأرضِ خَلَقْنا - أيُّها النَّاسُ - أباكم آدَمَ الَّذي هو أصلُكم، وأنتم ذريَّتُهُ، وفي الأرضِ نُعيدُكم بعدَ مَوتِكم، وتَصيرونَ تُرابًا في قُبورِكم، كما كنتُم قبل إنشائنا لكم بشرًا سَويًّا، ومِن الأرض نَبعَثُكم أحياءً مرَّةً أُخرَى، كما كنتُم قَبلَ مَماتِكم أحياءً، فنُنشِئُكم منها، كما أنشَأناكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فتَخرُجونَ منها يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ[7].

---

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خرج).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 241.

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (تور)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 241.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (تور).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 241.

(6) الراغب، المفردات: (تارة).

(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 87، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 211، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 507.

والغرضُ من الآية هنا تنزيهُ الرَّبِّ نفسَهُ، وتذكيرُ فرعونَ بأصله، وأنَّه مِن ترابٍ عائدٌ إليه، فلا يغترُّ بدنياه ومُلكِه، وليعلمَ أنَّ أمامَهُ يومًا شديدَ الأهوال، يُسأل فيه عن كلِّ شيءٍ، ويُحاسب على أعماله.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة عمَّا قبلَها:

التباينُ المعنويُّ من كمال الانقطاعِ الموجبِ للفصل

لم يَقُلْ في السياق الكريم: (جعلَ لكم الأرضَ مهدًا، ومنها خلقناكم)؛ لأنَّ الخلقَ المذكورَ مغايرٌ للجعلِ المذكور قبلَهُ في النوع، والتغايرُ من كمال الانقطاع الموجبِ للفصل وتركِ العطف[1].

براعةُ الاتِّساق السّياقي:

خروجُ الأمواتِ بالبعثِ أهونُ من إخراجِ النباتِ من عدم

ذِكْرُ قولِه تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ بعد ذِكرِ النَّبات وإخراجِه من الأرض قد تضمَّن كلَّ إخراجِ أجسامٍ لطيفةٍ من التُّربَةِ الكثيفة، وخروجُ الأمواتِ أشبهُ شيءٍ بخروج النَّبات هذا[2].

دلالةُ تقديمِ شبه الجملة:

محلُّ الامتنانِ والنِّعمةِ أحقُّ بالتقديم

قدَّمَ الجارَّ والمجرور في قوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ للاهتمام والعناية لِوجْه الارتباط بما قبلَهُ، فمَدارُ الكلام على الأرضِ، فكان ضميرُها أحقَّ بالتقديم؛ لأنَّها محلُّ الامتنانِ والنِّعمة، ولإفادة الحصرِ الإضافيِّ، أي: لم نخلقكم إلَّا من تراب الأرضِ مع النُّطفةِ.

معنى (من):

مجيءُ (مِنْ) قد يفيدُ الابتداءَ أو التَّبعيض

(من) في قوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ للابتداء، أي: بدأَ خلقكم منها، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ [السجدة: 7]، ويمكنُ أن تفيد التَّبعيضَ على معنى:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 370.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 520.

أنَّ اللّه خلقَ الإنسان من بعض تراب الأرض، وفي هذا بيانٌ آخرُ، وإضافةٌ نوعيَّةٌ للأرض.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾:

تنزيلُ مُنْتَظَرِ الوقوعِ منزلةَ الواقعِ

التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾، ولم يقل: (نخلقكم)؛ لتغليبِ الموجودِ على المعدوم، أو لتنزيلِ منتظرِ الوقوع منزلةَ الواقع(1).

دلالةُ الخطابِ بالجمع في: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾:

خطابُ الأفرادِ بعموم الجنس

الخطابُ في قوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ خطابٌ للأفراد بعموم الجنسِ، أي: خلقناكم ضِمنَ خَلْقِ أبيكم آدمَ عليه السلام منها، فكلُّ فردٍ من أفرادِ البشر له حظٌّ من خلقِه عليه السلام إذْ لم تكن فِطرتُه البديعة مقصورةً على نفسه عليه السلام بل كانت أنموذجًا منطويًا على فطرةِ سائرِ أفراد الجنس انطواءً إجماليًّا مستَتْبِعًا لجريانِ آثارها على الكلِّ، فكان خلقُهُ عليه السلام منها خلْقًا للكلِّ منها(2).

مجازُ الحذفِ في ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾:

المجازُ بحذف المضافِ بإسنادِ ما للمضافِ إلى المضاف إليه

معنى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾، أي: ابتدَأْنا خلْقَكم من ترابٍ، فيكونُ إسنادُ الخلقِ إليهم مجازًا، والمرادُ خلَقْنا أوَّلَكم وأصْلَكم، فالكلامُ على حذْفِ مضافٍ مجازٌ بالحذف(3).

المجازُ العقليُّ في إسناد الخلقِ للمفعول:

الإسنادُ إلى غيرِ المفعولِ الحقيقيِّ

إسنادُ الخَلق إلى المخاطبين في قوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ مجازٌ عقليٌّ، بإسناد الفعل إلى غيرِ مفعوله الحقيقيِّ؛ لأنَّ الذي خُلِق من الأرض هو أوَّل آبائهم - آدم عليه السلام - وليس هم(4).

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 370.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 520.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 370.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 370.

عمومُ المجازِ:

قولُه: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ يُرادُ به الأصلُ، وهو آدمُ عليه السلام، ويرادُ به الفرعُ (الذريَّة)؛ على معنى أنَّ النُّطفَ متكوِّنةٌ من الغذاءِ من الأرض، فيُرادُ المعنيان الحقيقي والمجازي، على طريقة الجمع بين الحقيقةِ والمجازِ أو عموم المجازِ[1].

الجمعُ بين الحقيقةِ والمجازِ

مجازُ المجازِ في عودِ الضَّميرِ:

الضَّميرُ في قوله: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ للمخاطَبين جرى على أنَّ خَلۡقَهُم من الأرض بمعنى الواسِطة، من خلال أمرين: الأغذيةِ التي تتولَّدُ مِنَ الأرض، ثمَّ الأخلاطِ المتولِّدة من هذه الأغذية، فأَنۡتَجَتِ النُّطفةَ التي تولَّد منها الإنسانُ، فهما معنيان مجازيَّان لِلخَلۡقِ من الأرض، وهو من باب مجازِ المجازِ، أي: الجمعُ بين معنيين مجازيَّين[2].

التَّوسُّلُ للمعنى الحقيقي بواسطتين مجازيَّتَين

إيثارُ حرفِ الوعاءِ على حرف الانتهاء:

إيثارُ حرف الوعاء على حرف الانتهاءِ في قوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾، ولم يقل: (وإليها نعيدُكم)؛ للدَّلالة على الاستقرارِ المديدِ فيها، وعلى اشتمالها عليهم اشتمالَ الظرفِ على المظروف، وأمَّا (إليها نعيدكم)؛ فلا يدلُّ على التخلُّل داخلها والدَّفۡنِ فيها[3].

ضمَّةُ الأرض مَثۡوانا

دلالةُ القصرِ في تقديم أشباه الجُمَلِ:

تقديمُ أشباه الجملِ في قوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ﴾ للاهتمام والقصرِ الحقيقيِّ، أي: لا نعيدُكم إلَّا فيها، ولا نخرجكم إلَّا منها.

الأرضُ صاحِبَتُنا من الميلاد إلى المَعاد

فائدةُ تقييدِ الإخراج بـ﴿تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾:

كونُ هذا الإخراجِ مُقيَّدًا بأنَّه ﴿تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ باعتبار أن خَلۡقَهُم من

التَّارةُ تفيدُ التَّكرارَ المُغايرَ، والمرَّةُ تُفيدُ التَّكرار المغاير والموافق

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 370.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 344.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 22.

الأرض إخراجٌ لهم منها، وإن لم يكن على نهْجِ التارةِ الثانية، ولذا لم يقل: (مرَّةً أخرى)؛ لأنَّ التَّارة هي المرَّةُ المغايرة للمرَّةِ الأولى[1]، فتفيد التَّكرار المُغايرَ، وأمَّا المرَّةُ الأخرى؛ فقد تفيدُ التكرارَ المغايرَ والموافِقَ، والتَّارة في الأصل: اسمٌ للتَّوْر الواحد، وهو الجرَيانُ، ثمَّ أُطلق على كلِّ فعْلةٍ واحدةٍ من الفَعَلات المتجدِّدة كما مرَّ في المرة[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإخراج والبعث:

البعثُ تُلمَحُ فيه الإثارةُ والتحفيزُ وقوَّةُ التَّوجُّه

الإخراجُ: هو إنفاذُ الشَّيءِ مِنْ داخِلٍ كان فيه، أو بعد إيجادِه فيه، فالأوَّلُ كإخراج الشَّيءِ من صندوقٍ كان فيه، والثاني كإخراج النَّبْتِ مِنَ التُّربةِ بعد إيجاد بذرته في داخلها، وأمَّا البعث: فهو إثارةُ الشَّيءِ وتحريكُهُ إلى وِجْهَته، والفرقُ بينهما: أنَّ البعثَ فيه استفزازٌ واستثارة وهو يشتمل على دفْعٍ مُتوالٍ بقوَّةٍ، فليس فيه تؤدةٌ أو تباطؤٌ، والإخراجُ هو إنفاذُ الشَّيءِ، ففيه نوعُ إثارةٍ وتحريكٍ، لكنَّهُ اعتياديٌّ مُطلق، فليس فيه التحفيزُ الذي يكونُ في البعث إلَّا بالتقييد، فيقال: أخرجتُهُ بقوَّةٍ أو باستثارةٍ واستفزاز، كقوله: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43]، فلمَّا عَبَّرَ عن البعث بالخروج؛ قَيَّده بـ﴿سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43]، ولذا قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ﴾؛ لأنَّهُ خروجٌ هادئٌ بطيء[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 313.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 22.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بعث - خرج).

﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦﴾ [طه: 56]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الخلقُ كلُّهم مشتركون في شهودِ إعجازِ الله سبحانه؛ لعمومِ آياته لهم

لَمَّا ذكرَ في الآياتِ السَّابقة آياتِ الكون من الأرض والسَّماءِ، ومهَّدَ بها للمبدأِ والمنتهى، وكانت هذه الآياتُ من عظائمِ الربوبيَّةِ المُعجزة لفرعون وغيره؛ انتقلَ هنا إلى الإخبار بأنَّ فرعونَ رأى الآياتِ الكونيَّةَ العامَّة التي يشترك فيها مع عموم الخلق، ورأى الآياتِ الخاصَّة، وهي معجزاتُ موسى له، ليدلَّ على أنَّه استوفى غايةَ الحجَّةِ وكمال البرهان.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَيۡنَٰهُ﴾: (رأى) أَصْلٌ يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَيْنٍ أو بَصيرةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ[1]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئيِّ، والرَّأْيُ: اعتقادُ النَّفس أحدَ النَّقيضين عن غلبة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[2]، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، وإراءَةُ اللهِ إيَّاهُ الآياتِ: إظْهارُها لَهُ بحَيْثُ شاهَدَها[3].

2) ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: أصلُ الآيةِ: العلامةُ الثَّابتة الدَّالَّةُ على أمرٍ مِنْ شَأْنِه أَنْ يَخْفَى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يُعتبرُ بها، الثَّاني: العلامة، قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيَّته، والوجهان مُتقاربان يصلح

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 242.

استعمالُ أحدِهما في موضعِ الآخر[1]، والآياتُ جَمعُ آيَةٍ، وآياتُ اللّه: عَجائِبُهُ[2]، والمُرادُ بـ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ في الآية: العلاماتُ الدَّالَّةُ على قُدْرَةِ اللّه في خَلْقِه، أَيْ: أَرَيْنا فِرْعَوْنَ آياتِنا الَّتي جَرَتْ على يَدِ موسَى، وهيَ المَذْكورَةُ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿فِى تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾ [النَّمل: 12]، وهيَ انْقِلابُ العَصا حَيَّةً، وتَبَدُّلُ لَوْنِ اليَدِ بَيْضاءَ، وسِنُوُّ القَحْطِ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، والطّوفانُ، وانْفِلاقُ البَحْرِ[3].

3) ﴿وَأَبَىٰ﴾: (أبي) أَصْلٌ يَدُلُّ على الامتِناعِ، أَبَيْتُ الشَّيْءَ آباهُ، وقَوْمٌ أَبيّونَ وأُباةٌ[4]، والإباءُ: شِدَّةُ الامتناعِ وعدمِ القَبول، يُقال: أبى يأبى إباءً، أي: رفض، وامتنع، ولم يَقْبَلْ، فهو آبٍ وأَبِيٌّ وأَبَيانٌ[5]، والأَبِيَّةُ مِنَ الإِبِلِ: الصَّعْبَةُ[6]، والمرادُ بالإباءِ في الآيةِ: الامتناعُ مِنْ فِعْلٍ أو تَلَقّيه.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يقولُ اللّه تعالى مبيِّنًا مدَى تعنُّتِ فرعونَ، واستكبارِه عن قَبولِ الحقِّ: ولقد أَرَيْنا فِرعَونَ جميعَ مُعجِزاتِنا الدالَّةِ على نبوَّةِ موسى، وصِحَّةِ ما يدعو إليه، فكذَّب بها فِرعَونُ، وامتنَعَ عن قَبولِ الحَقِّ[7].

كُفْرُ فرعونَ عِنادٌ؛ لأنَّه رأى الآياتِ عيانًا لا خبرًا

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ﴾ ممَّا قبلَه:

الاعتراضُ يؤنِسُ الحوارَ ويُثْريه

جملةُ: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ حكايةٌ أخرى إجماليَّةٌ لما جرى

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 92.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (إيي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 242.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبيَ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أبا - أبيَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبيَ).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 87، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 211، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 299.

بين موسى عليه السلام وفرعون، فالعطفُ من بابِ عَطْفِ القصَّةِ على القصَّةِ، أو عطف المُجمَل على المُفَصَّل، ويصحُّ أن تكون الجملةُ اعتراضًا بين مقولات موسى وفرعون، والواو اعتراضيَّةٌ، ويصحُّ أن تكون الواو استئنافيَّةً على نيَّةِ الشروع في تقرير معنًى مستقِلٍّ جاء كالخُلاصةِ في التقرير والاحتجاج(1).

بلاغةُ المؤكِّدات في الآية:

الآيةُ الكريمة تؤكِّد جحودَ فرعون وطغيانَهُ بجملة من المؤكِّدات، وهي لامُ القسم، وقد التحقيقيَّةُ، والرؤيةُ البصريَّةُ، ولفظُ (كُلٍّ) الدالُّ على الشُّمولِ والإحاطة(2).

براعةُ الاستهلالِ بالقَسَم:

كمالُ العنايةِ بالمضمون بواسطة القسَم

اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ لام جواب القسم الدَّالة على حذْفِه، والتقدير: (والله لقد أريناه)، ويصحُّ أنْ تكون اللام لتوكيد الإثبات، فالجملةُ مؤكَّدةٌ بها كتوكيد القَسَم، وليستْ بقَسَم(3)، وعلى كُلٍّ فتصديرُها بالقسَمِ أو التوكيد فقط، مع التَّحقيق بـ(قد) يدلُّ على إبراز كمالِ العناية بمضمون الجملة(4)، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مقام الاحتجاج حريٌّ بأنْ يؤكَّدَ، ويُقْسَم عليه؛ لأنَّهُ تمهيدٌ للمؤاخذة والحساب.

دلالةُ عمومِ المشترك في: ﴿أَرَيْنَهُ﴾:

المُبصَراتُ شواهدُ المعارف

مَنْ جَوَّزَ استعمالَ اللَّفظِ في حقيقتِه ومجازِه، أو إعمالَ المشتركِ في معنَيَيْه، يجيزُ إرادةَ الرُّؤيةِ البصريَّةِ والقلبيَّةِ بالجمع بين العَيانِ الحسّي والعِرفان الإدراكي، فهذه ثلاثُ طرائقَ: عمومُ المشتركِ، أو الجمعُ بين الحقيقةِ والمجازِ: فالحقيقةُ للرؤية البصريَّةِ، والمجازُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 241.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 117.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 181.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 22.

للرؤيةِ القلبيَّةِ، أو عمومُ المجازِ، والأصل: هو الحملُ على الرؤية البصريَّةِ؛ لأنَّ الآياتِ من قبيل المُبصَراتِ؛ ولأنَّ معرفةَ فرعونَ صحَّةَ الآياتِ ليسَتْ بمتيقَّنَةٍ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿أَرَيۡنَٰهُ﴾:

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿أَرَيۡنَٰهُ﴾؛ للدَّلالة على كمال تحقيقِ الإراءةِ الحاصلة، وهو إشارةٌ إلى استيفاء البلاغِ من جهة الرَّسول ﷺ.

دلالةُ الإسنادِ إلى نون العظمة: ﴿أَرَيۡنَٰهُ﴾:

اللهُ سبحانه هو الفاعلُ الحقيقيُّ في الموجودات

الإسنادُ إلى نون العظمة في قوله: ﴿أَرَيۡنَٰهُ﴾ لتهويل أمرِ الآياتِ، وتفخيمِ شأنها، وإظهار كمالِ شناعة فرعونَ وتماديه في الطُّغيان[2]، وفي الإسناد إلى ضمير العظمةِ إشارةٌ إلى أنَّ تجليةَ الحقِّ بإراءته للناس أمرٌ ذو بالٍ لا يضطلعُ به إلَّا العظماءُ.

وإسناد فعل الإراءة إلى الله تعالى أنَّ المُظهرَ لها هو موسى عليه السلام، ذلك لأنَّه أجراها على يديه، كما أضاف نفْخَ الرَّوحِ إلى نفسِه تعالى، فقال: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، مع أنَّ النَّفخَ كان من جبريلَ عليه السلام[3].

معنى الإضافةِ في: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

إفـادةُ الإضافـةِ للعهديَّة

التَّعريفُ بالإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ يجري مجرى التَّعريفِ بالعهد، فهو في معنى: (أريناه الآيات المعهودةَ كلَّها)[4]، والمراد: آياتُ التَّوحيدِ في قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾، وآياتُ النبوَّة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ [الإسراء: 101][5].

---

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 53، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 371.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 22، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 344.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 63.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 69.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 63.

اقتران الاستغراقِ بالعهدِ

دلالةُ الجمعِ المُضافِ المُؤَكَّدِ:

الجمعُ المُضافُ في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ يفيدُ العمومَ، ولاسيَّما؛ إذا أُكِّد بالكلِّ[1]، والعمومُ المستفاد من الجمع المضافِ هو للاستغراق العرفيِّ؛ لأنَّهُ يستغرِق الأفرادَ المعهودة فقط من آيات موسى عليه السلام كأنَّه قيل: (ولقد أريناهُ الآياتِ التي أعطيناها لموسى كلَّها) وعليه: فيجتمعُ الاستغراقُ مع العهدِ بهذا الاعتبار[2]، ويكون المرادُ من التأكيد: توكيدَ شمول الأفرادِ بالاعتبار السَّابق، أو توكيدَ شمولِ الأنواعِ على اعتبار أنَّ معجزاتِ موسى عليه السلام جامعةٌ للأنواع التي ترجعُ إليها المعجزاتُ كلُّها، وهي إيجاد المعدوم، وإعدامُ الموجود، وتغييرُ الموجودِ، **فالأوَّلُ**: إيجادُ الضوء في يده عليه السلام، **والثاني**: إعدامُ حبال السَّحرةِ، والثالث: تغييرُ العصا إلى الحيَّةِ[3]، ويصحُّ أن يقعَ العموم المستفاد من الجمع المضافِ المؤكَّدِ على جهة الاستغراق الحقيقيِّ، على اعتبارِ أنَّ موسى عليه السلام أراه الآياتِ التي بُعِث بها، وعَدَّد عليه الآياتِ التي جاءَتْ بها الرُّسلُ قبله عليهم السلام، وهو نبيٌّ صادقٌ، لا فرقَ بين ما يُخْبِرُ عنه، وبين ما يُشاهَدُ به، وفيه بُعدٌ ونظر؛ لأنَّ الإخبارَ بالشَّيء لا يُسمّى رؤيةً له إلَّا بمجاز بعيد، ولأنَّ عدَّه عليه ما أوتي غيره ليس بمعلوم، فضلًا عن أنَّ تعديده ليس ذا فائدةٍ يُعتدُّ بها؛ لأنَّ تعدادَ المعجزات ليس بمعجزة[4].

تأكيدُ شمولِ الأنواعِ أو شمولِ الأفرادِ

بلاغةُ التَّوكيدِ دون الإضافة:

لم يقل: (أريناه كلَّ آياتِنا) بالإضافة، بل عبَّرَ بالتوكيد؛ للدَّلالة على أنَّه لم يرَ كلَّ آيةٍ للّٰه؛ لأنَّها لا تُحصى[5]، فلفظُ (كلّ) وإن كان للعموم، لكن قد يُستعمل في الخصوص عند القرينةِ، كما يقال: دخلتُ السّوقَ، فاشتريتُ كلَّ شيءٍ[6].

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 553.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 371.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 371.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 371.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 163.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 63.

بلاغةُ المجازِ في إراءة الآياتِ كلِّها:

تكذيبُ بعض الآياتِ يستلزم تكذيبَ الكلِّ

نزَّل بعضَ الآيات - وهي الخاصَّة بموسى - بمنزلة الآياتِ كلِّها، في قوله: ﴿أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ فجعلَ إراءةَ بعض الآيات كإراءة الكلِّ، كما أنَّ تكذيبَ بعضِ الآيات يستلزمُ تكذيب الكل[1] مِن باب المجازِ المرسل علاقتُهُ الملزوميَّةُ.

فائدةُ التوكيد مع أنَّ الجمعَ المضاف يكفي عنه:

التَّوكيدُ يفيدُ الاستيفاءَ والكمال في تحقيق الغرض

التَّوكيدُ بلفظ ﴿كُلَّهَا﴾ مع أنَّ الجمعَ المضاف في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ وافٍ في الدلالة على غرضِ العموم؛ للدَّلالة على أنَّه استوفى منه، فلم يبقَ له عذرٌ، لئلا يُتوهَّم فواتٌ أو خفاء، وللدَّلالة على الكمال، كأنَّه قال: (لقد أريناه آياتِنا بكمالها)، فرؤيتُه لهذه الآيات مستوعبةٌ، يرى كلَّها كاملةً[2].

دلالةُ تعديةِ فعل الرؤية:

شهودُ الأبصارِ للآياتِ أجلبُ لليقين

لم يقلْ في السياق الكريم: (ولقد رأى)؛ وإنَّما عدَّاه بهمزة التعديةِ؛ للدَّلالة على إقامة الحجَّة بالبلاغ، ففيه إشارةٌ إلى الواسطة بالوحي والرَّسول، أي: بصَّرناه إيَّاها، وعرَّفناه صحَّتها[3].

دلالةُ إسنادِ الإراءة إلى ضمير المفرد:

المظلومُ الرَّاضي غيرُ معذور

أُسنِدَ فعلُ الإراءة إلى ضمير فرعونَ دونَ قومِه، مع أنَّهم كانوا مُتابِعين له، وموسى كان مبعوثًا لهم جميعًا، فلم يقل: (أريناهم آياتِنا)؛ للدَّلالة على أنَّهم وصلوا في مُتابعته إلى حدٍّ اندغمَتْ فيه إرادتُهم في إرادته[4]، فصاروا كأنَّهم لا إرادةَ لهم إزاءَ إرادته، وصار هو صاحب الرأي الأوحدِ، وهذا يوافقُ قولَهُ تعالى: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: 29] وقوله: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 554.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 48.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 30.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4741.

[الزخرف: 54]، ولا يخفى ما فيه من وضاعة شأنِهم واختفاءِ ذواتهم إلى حدِّ الضياع والبوار.

دلالةُ الوصلِ بالفاء في: ﴿فَكَذَّبَ﴾:

الحقُّ يستفِزُّ المفسدين، فيزدادون كفرًا على كفر

الفاءُ في قوله: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ سببيَّةٌ، والعطفُ بها يدلُّ على أنَّ كفْرَ فرعونَ كفْرُ عنادٍ، ويدلُّ على مُسارعته فيه؛ لأنَّ الآياتِ سببٌ للتصديق، وقد جعلها سببًا للتكذيب، ليدلَّ على توبيخه وفرط عتوِّه وشدَّة طغيانه؛ تنبيهًا على أنَّه كذَّب لظلمه، لا أنَّه التبس عليه أنَّها آياتُ سِحرٍ، ولا يخفى ما فيه من كنايةِ التعريض[1].

دلالةُ التَّضعيفِ في: ﴿فَكَذَّبَ﴾:

التضعيفُ للتعديةِ، أي: نسبَ الآياتِ إلى الكذب[2].

دلالةُ حذفِ متعلّق التكذيبِ:

التَّكذيبُ بالرسول يستتبعُ سائرَ أركانِ الإيمانِ بالهدم

متعلِّقُ التكذيبِ محذوفٌ، لدلالة السياق عليه، وحذَفَهُ تعظيمًا له[3]، وطلبًا للإيجاز، ومراعاةً للفاصلة ألَّا تنخرِمَ، والظاهر أنَّه الآياتُ، واحتُمِلَ أن يكونَ التقديرُ ﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى، وهو الأَوْلى؛ لأنَّ موسى هو المقصودُ بالردِّ والإعراض، وهو الأصلُ، والآيات وسيلتُهُ، فهو حامِلها، فالتَّكذيبُ به تكذيبٌ بكلِّ ما عداه.

دلالةُ العطفِ والتقديم في (التكذيب والإباء):

الإباءُ بعد التكذيب يدلُّ على تحقيق التكذيب

قدَّمَ الكذبَ على الإباء؛ لأنَّ التَّكذيبَ أسبقُ، فقد كذَّب الآياتِ، وأبى قبولَ الحقِّ[4]، وعطفَ الإباءَ على التَّكذيبِ إشارةً إلى عدوانِه في التَّكذيب، فقد يقعُ التَّكذيب من غير تأبٍّ، وفرعونُ كان جامعًا بينهما.

---

(1) البحر المحيط في التفسير: 7/ 345، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 371، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 437.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 163.

(3) السمين، الدر المصون: 8/ 54.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 70.

صفةُ الإباءِ تدلُّ على سبقِ الإصرارِ والعمدِ

دلالةُ العطفِ بالإباء دونَ غيره:

التَّعبيرُ بفعل الإباء يدلُّ على التكسُّبِ والاختيار الذي يتعلَّقُ به الثوابُ والعقاب[1]، فلا يوصفُ بالإباء إلَّا من يتمكَّنُ مِنَ الفعل والتَّرك، بدليل أنَّ اللّه تعالى ذمَّهُ بأنَّهُ كذَّب، وبأنَّه أبى، فلو لم يقْدِرْ على ما هو فيه لم تصحَّ مؤاخذتُهُ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرَّفضُ أعمُّ مِنَ الإباء والامتناع

الإباء والامتناع والرفض:

أصلُ الإباءِ، شِدَّةُ الامتناعِ مع الكراهة، والامتِناعُ مِنَ المنْع، وأصْلُهُ الحَجْزُ بين شيئَين، ولذا يُستعمَلُ في خلافِ الإعطاء؛ لأنَّهُ حجْزٌ بين المُعطَى والعطيَّةِ.

وحاصِلُ الفرقِ بينهما: أنَّ الإباءَ أخصُّ من المنْعِ، في كونِه منْعًا موصوفًا بالشِّدَّةِ التي تعبِّرُ عن العزيمةِ في القصدِ لِمَنْعِ الشَّيء، فالإباءُ لا يكونُ إلَّا بعزْمٍ وعمدٍ، وأمَّا الامتناعُ؛ فقد يقع من غير قصدٍ وعمدٍ ولا تحرٍّ لِمَنْعِه، والإباءُ يقترِنُ بكراهيةِ الشَّيءِ الَّذي يُمتَنَعُ عنه، ولذلك سَمَّوا النَّاقةَ بالآبيَةِ؛ إذا كانت تَعافُ الماءَ، أي: تمتنعُ عنه لكراهيتِه، ويقولون: فلانٌ أخَذَهُ أُباءٌ مِنَ الطعام، بالضَمِّ: كَراهَةٌ، وأمَّا الامتناعُ؛ فأعمُّ من ذلك، فقد يمنعُ الإنسانُ شيئًا لا يَكرهه، فلا يُشترطُ فيه اقترانُ الكراهيةِ به؛ لأنَّهُ مُطلَقُ الحجْزِ بين شيئَين[3].

وأمَّا الرَّفضُ، فهو التَّركُ للشَّيء[4]، فهو أعمُّ مِنَ الامتناع والإباء، فقد يكونُ الرَّفْضُ امتناعًا، وقد يكون إباءً، وقد لا يكون واحدًا منهما؛ لأنَّ الامتناعَ فيه معنى الحَجْزِ بين الشَّيئين،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 48.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 63.
(3) الراغب، المفردات: (أبى)، والسمين، عمدة الحفاظ: (منع)، والفيروزابادي، القاموس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أبى).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رفض).

فالامتناعُ هو تركُ الشَّيءِ لملاحظة شيءٍ فيه، يحجُزُ عن تناوله، فيكون بمنزلة الحاجزِ أو الحائل أو السَّببِ الذي منع التناولَ، وأمَّا الرَّفْضُ؛ فقد يقعُ بغير تلك المُلاحظة، فضلًا عن أنَّه قد يقع عن غيرِ إباءٍ وكراهيةٍ، فهو تركٌ مُسْتَرسَلٌ بلا قيدٍ، ولم يرد هذا الجذرُ في القرآن كافَّةً.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه: 57 - 58]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بئس المتكبِّر في انفعالِه مع رسائلِ الله إليه

لَمَّا ذكر في الآية السابقةِ إراءتَهُ فرعونَ الآياتِ كلَّها، العامَّ منها والخاصَّ؛ أخبرَ هنا عن كيفيَّةِ استجابة فرعونَ بعد رؤيته الآياتِ، وبلاغِ موسى عليه السلام إليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِسِحْرِكَ﴾: (سحر) أَصْلٌ يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه[1]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عن حَقيقَتِه إلى غَيْرِه، فكأَنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أَرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عن وجْهِه، أَي: صَرَفَهُ[2]، تَقولُ العَرَبُ للرَّجُلِ: ما سَحَرَكَ عَن وجْه كَذا وكَذا؟ أَي: ما صَرَفَك عَنهُ[3]، والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ، وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُهُ، ودَقَّ؛ فهو سِحْرٌ، والجَمعُ أَسحارٌ وسُحورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمٍ سَحَرَةٍ، والسِّحْرُ أيضًا: البيانُ في فِطْنَةٍ[4]، والمُرادُ به في الآية: الأُخْذَةُ؛ إذ يَقْتَضي أَنَّ موسى أَراهُ آيَةَ انْقِلابِ العَصا حَيَّةً، وانْقِلابِ يَدِه بَيْضاءَ، فأُخِذَ فرعونُ ممَّا رأى؛ وذَلِكَ ما سَمَّاهُ فِرْعَوْنُ سِحْرًا.

2) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾: أصلُ الإتيانِ: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيلَ للسَّيل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، الزبيدي، تاج العروس: (رهق).

المارِّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ، والإتيانُ قد يُقالُ للمجيء بالذَّات وبالأَمر والتَّدبير، ويُقالُ في الخير، وفي الشَّرِّ، وفي الأعيان، وفي الأَعراض، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النحل: 26]، وقوله: ﴿أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 40][1]، وتقول: أَتَيْتُ الأمرَ من مَأْتاتِه، أي: من مَأْتاهُ، أي: من وجهه الَّذي يُؤتى منه[2]، ويُقالُ: تَأَتَّ لِهَذا الأَمرِ، أَيْ: تَرَفَّقْ لَهُ، والإيتاءُ: الإِعْطاءُ[3]، ومَعْنَى إتْيانه بالسِّحْرِ: إِحْضارُ السَّحَرَةِ بَيْنَ يَدَيْه، أَيْ: فلَنَأْتيَنَّك بسِحْرٍ ممَّنْ شَأْنُهُم أَنْ يَأْتوا بالسِّحْرِ، إِذِ السِّحْرُ لا بُدَّ لَهُ مِنْ ساحِرٍ[4].

3) ﴿مَوۡعِدٗا﴾: (وعد) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَرْجيَةٍ بقَوْلٍ، يُقالُ: وعَدْتُه أَعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بخَيْرٍ وشَرٍّ، فأَمَّا الوعيدُ؛ فلا يكونُ إلَّا بشَرٍّ، يقولونَ: أَوعَدْتُهُ بكذا[5]، والموعدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ، ويكون المَوعدُ مصدرَ (وعدْتُه)، ويكون المَوعدُ وقتًا للعِدَة، والموعدةُ أَيْضًا: اسْم للعِدَة، والميعاد لا يكون إلَّا وقتًا أَو موضعًا[6]، والمَوْعِدُ في الآية يَجوزُ أَنْ يُرادَ به المَصْدَرُ الميميُّ، أَي: الوعْدُ وأَنْ يُرادَ به مَكانُ الوعْدِ، وهَذا إيجازٌ في الكَلامِ[7].

4) ﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ﴾: (خلف) أَصْلٌ يَدُلُّ على مجيءِ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[8]، فالخَلَفُ: المُتَأَخِّرُ، سواءٌ كان تَأَخُّرُه في الزَّمَنِ، أم في الرُّتبَةِ[9]، والخلف من قَوْلِهم: وعَدَني، فأخلفني إخلافًا، والخلفُ الاسْم، والإخلافُ المصدرُ[10]، وضِدُّ الخَلَف: السَّلَفُ، وهو: كُلُّ مَن سَبَقَكَ، وأَمَّا قَوْلُهُمْ: اخْتَلَفَ النَّاسُ في كَذا، والنَّاسُ خِلْفَةٌ، أَيْ: مُخْتَلِفونَ، فمِنَ هذا البابِ؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُم يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِه، ويُقيمُ نَفْسَهُ مُقامَ الَّذي نَحَّاهُ[11]، والمُرادُ بالإِخْلافِ في الآية: أَن يَعِدَ الرَّجلُ الرَّجلَ العِدَةَ، فلا يُنْجِزُها، والنَّهْيُ تَحْذيرٌ مِنْ إخلافِه.

5) ﴿سُوٗى﴾: (سوي) أَصْلٌ يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هذا لا يُساوي

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أتي)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 43.
(2) الجوهري، الصحاح: (أتي).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 244.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 245.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(10) الخليل، العين: (خلف).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).

كذا، أَي: لا يُعادِلُه، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هذا الأَمرِ، أَيْ: سَواءٍ[1]، والتَّسْوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتأْتي بمعنى العَدْلِ والإنْصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيْئَيْنِ؛ إذا عَدَلْتُ بَيْنَهُما[2]، وهي أيضًا: تَقْويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُه، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيْءَ، فاسْتَوى، أيْ: قَوَّمْتُهُ، فاسْتَقامَ[3]، والسَّويُّ يُقالُ فيما يُصان عن الإفراط، والتَّفريط من حيثُ القَدْرُ، والكيفيَّة، ورَجُلٌ سَويٌّ: استوت أخلاقُهُ وخِلقتُهُ عن الإفراط والتَّفريط، والمراد بـ﴿سُوًى﴾ في الآية: اسْمُ وَصْفٍ مُشْتَقٌّ مِنَ الاسْتِواءِ: فيَجوزُ أَنْ يَكونَ الاسْتِواءُ اسْتِواءَ التَّوسُّطِ بَيْنَ جِهَتَيْنِ مَكانًا مُسْتَوِيًا، أَيْ: لَيْسَ فيه مُرْتَفَعاتٌ تَحْجُبُ العَيْنَ، أَرادَ مَكانًا مُنْكَشِفًا لِلنَّاظِرينَ لِيَشْهَدوا أَعْمالَ موسَى وأَعْمالَ السَّحَرَةِ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

طَلَبُ فرعونَ من موسى الموعدَ لإيهام النَّاس بمدى الثِّقة به وبكمال اقتداره

يذكرُ اللّه تعالى ما قاله فرعونُ لموسى عليه السلام على سبيلِ التَّهديدِ والوعيد، فيقولُ: قال فِرعَونُ: هل جِئتَنا - يا موسى - لِتُخرِجَنا من ديارِنا بِسِحرِك هذا؟! فلَنأتيَنَّك بسِحرٍ مِثلِ سِحرِك، فحدِّدْ بيننا وبينك وقتًا معيَّنًا ومَكانًا محدَّدًا نجتَمِعُ فيه، فننظُرُ أيُّنا يغلِبُ الآخَرَ، لا نُخلِفُه نحن ولا أنت، في مكانٍ وسَطٍ بيننا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا﴾ ممَّا قبله:

تعديدُ المقولاتِ موجبٌ للفصل؛ لأنَّه من تقاسيمِ الحوار

جملةُ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لكيفيَّة تكذيب فرعونَ وإبائه[5] في قوله: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾، فبينهما شبهُ كمالِ اتِّصالٍ، ولذلك فُصِلَتْ، فجملةُ الاستئنافِ البيانيِّ لا توصل بالعاطف، لكونها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(3) الجوهري، الصحاح: (عدل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 246.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 23.

جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: فكيف كان تكذيبُهُ وإباؤُهُ؟ أو ماذا قال بعد أنْ كذَّبَ الآياتِ، وأبى قبولَها؟ فأجيب: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ﴾، وهذه الجملةُ من تمام مقولاتِ فرعونَ في محاورتِه موسى عليه السلام، وتعديدُ المقولات موجبٌ للفصل؛ لأنَّهُ من تقاسيم الحوار، وكلُّ قسْم هو شروعٌ جديدٌ في معناه ومَغزاه، فاستحقَّ الاستئنافَ على الفصل والمقصود بالمقولات: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: 49]، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾ [طه: 51]، ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا﴾، ويُلحظُ أنَّ كلَّ مقولةٍ منها مشتملةٌ على إنشاء سؤالٍ، والمسألةُ من دواعي الفصل.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿قَالَ﴾:

من طبائع الملوك وذوي السُّلطةِ ألَّا يتكلَّموا إلَّا عن حيلةٍ وحكمةٍ وسياسةٍ

سياقُ فعلِ القول بصيغة الماضي فيه إشارةٌ إلى سبْقِ إصرارِه وتحقيق قصدِه؛ لأنَّ القولَ إبرازٌ باللَّفظ لما حصل في النَّفس من مُعتقَدٍ وقصدٍ[1]، فالفعل ﴿قَالَ﴾ يدلُّ على أنَّ مَقالَةَ فرعونَ كانت عن تدبيرٍ وتقديرٍ، وهذا من طبائعِ الملوكِ وذوي السُّلطةِ ألَّا يتكلَّموا إلَّا عن حيلةٍ وحكمةٍ وسياسة.

سرُّ إضمارِ الفاعل العائدِ على فرعونَ:

الإيجازُ لغرض الإسراعِ إلى إبراز الغرض

إضمارُ الفاعل العائدِ على فرعونَ، في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا﴾؛ لتعيُّنه والعِرفانِ به، وعدم التباسِه وخفائه، فكان الفاعلُ بالإضمار أحقَّ إيجازًا واختصارًا وإسراعًا إلى الغرض والمضمون بتقصير الكلام وطيِّ ما في إضماره غُنيَةٌ عن إظهاره.

دلالةُ إسنادِ المجيء إلى ضمير الخطاب المتَّصل:

أهلُ البهتانِ هم أعداءُ البرهان

قولُهُ: (جئت) تعريضٌ بأنَّ المجيءَ منه، لا بتكليفٍ من اللّٰه الَّذي أرسله للبلاغ والهداية.

نكتةُ اتِّصال الفعلِ بضمير الجمعِ:

اتِّصالُ الفعل بضمير الجمع من كلام فرعونَ في قوله: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾

(1) الراغب، المفردات: (قول).

للدَّلالة على التَّعظيم، فيقصدُ نفسَهُ، أي: جئتَ تريدُ الانقلابَ على النِّظام، وهو - أي: فرعونَ - النِّظام والكيان؛ لأنَّه رأسُ الحكم والأمر، فقوامُ النِّظام به، ونزَّلَ نفسَهُ منزلةَ الدَّولة بكاملِها، فعبَّرَ بالضمير الجمعيِّ إعظامًا منه لذاتِه، والقرينةُ - في أنَّ الضَّميرَ للتعظيم لا المشاركة الجمعيَّةِ - استصحابُ الحال، وهو أنَّ موسى لم يصدر عنه ما يُشَمُّ منه إخراجُهم من أرضِهم، ويجوزُ أن يكونَ ضمير المتكلِّم المشارك مستعملًا في الجماعة تغليبًا، ونزَّل فرعونُ نفسَه واحدًا منها، وأرادَ بالجماعة جماعةَ بني إسرائيلَ حيثُ قال له موسى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 47]، أي: جئتَ لتخرجَ بعضَ الأمَّة من أرضنا، وتطمعَ أن تتَّبعك جميعُ الأمَّةِ بما تُظهرُ لهم من سحرك[1].

استصحابُ الحالِ أحدَ القرائن المؤثِّرة في البيان

دلالةُ الهمزةِ في: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾:

همزةُ الاستفهام في: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه وادِّعاءِ أنَّه أمرٌ محال، فهو استفهامٌ مجازي، خرج عن حقيقتِه في طلبِ الفهم والعِلم إلى الإنكار والاستهجان، على طريقة المجاز المرسلِ لعلاقة الإطلاقِ والتقييد[2].

الاستفهامُ بقصد الإنكارِ وادِّعاء المُحال

بلاغةُ إدماجِ التعريضِ في البهتان:

قوله: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا﴾ مشتملٌ على الكنايةِ بالتعريض بموسى عليه السلام في نسبتِه إلى الدّوافع الخبيثة والطّوايا المغرضة، فهو ما رجعَ إليهم إلَّا لاستفزازهم من أرضهم، وبناءُ هذا التعريض فُرِّعَ عن البهتان بمحاولة المُحال[3]؛ لأنَّ إخراجَ النَّاس من ديارِهم ليس بمقدور فردٍ، وليس في دعوة موسى عليه السلام ما يُشمُّ منه رائحةُ ذلك[4]، فكان ذلك من فرعونَ بهتانًا بموسى، بنَى تعريضَه به عليه، فأدمجَ

الأفكارُ قوَّةٌ مركزيَّةٌ في البناء أو الهدم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 244.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 528.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 528.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 244.

في تركيب: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ كنايتين: كنايةً عن التعريض والتُّهمة على قصد فرعون، وكنايةً عن البراءة من البهتان بقرينةِ مقالِ موسى عليه السلام ومقامِه.

سرُّ استعمالِ الفعل المضارع:

انتقاءُ الحيَلِ أمارةُ تفوُّقِ المُحتالِ في الشَّرِّ

التَّعبيرُ عنِ الإخراج بالفعل المضارع في قوله: ﴿لِتُخْرِجَنَا﴾ لكونه عبارةً عن تدبيرٍ لم يتمَّ بعدُ، فما زال بصدد المزاولة والمحاولة، وللدَّلالة على تجدُّد وضع الخطرِ المحدقِ بمُلكه، وتصوير مدى خوفه ورعبه.

دلالةُ اعترافِ فرعونَ بالملكيَّة الجماعيَّة للأرض مع قومه:

المستبِدُّ الأنانيُّ يَهرَع لجماعته؛ إذا حدَّق به الخطرُ

على اعتبار أنَّ الضميرَ في: ﴿أَجِئْتَنَا﴾، ﴿لِتُخْرِجَنَا﴾، ﴿أَرْضِنَا﴾ للمشاركة الجمعيَّةِ لا للتعظيم الفرديِّ، فيكون ذلك اعترافًا من فرعونَ بالملكيَّةِ الجماعيَّةِ للأرض مع قومه، على خلاف طريقته في الاستبداد الأحاديِّ في قوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: 51]، وهذا الاعترافُ ليس على حقيقتِه في قصد فرعونَ، بل هو اعترافٌ اضطراريٌّ يلجأ إليه كلُّ طاغية عند تحديق الخطر به، بأن يَقْذِفَ بالمخاوفِ على قومه، ليستحثَّهم على المواجهةِ ساعةَ الخطرِ، ولكنَّه ينساهم، ويستأثرُ عليهم حالَ أمنِه، وهذا من تمام الوضاعةِ ووقاحةِ الطَّبْعِ وتناقُضِ المنطِق وافتضاح الوجوه، الذي يُزاوِلُه كلُّ طاغٍ ممقوت.

سرُّ جعلِ علَّةِ المجيءِ الإخراجُ من الأرض:

الإخراجُ منَ الوطن كرهًا أخو القتل

جعلَ فرعونُ الإخراجَ منَ الأرض موضوعَ بهتانِه لموسى، وعبَّرَ عنهُ بطريق الجمع: ﴿لِتُخْرِجَنَا﴾؛ ليحملَ قومَهُ على غاية المَقْتِ لموسى عليه السلام بإبرازِ أنَّ مرادَهُ ليس مجرَّدَ إنجاءِ بني إسرائيل من أيديهم، إنَّما إخراجُ القبطِ من وطنهم وحيازةُ أموالهم وأملاكهم بالكليَّة حتى لا

يتوجَّهَ إلى اتِّباعه أحدٌ، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة؛ إذ الإخراجُ من الوطن أخو القتل[1].

معنى الباء في: ﴿بِسِحۡرِكَ﴾:

ليس بالسِّحرِ تُنتزَعُ الممالِك

الباءُ في قوله: ﴿بِسِحۡرِكَ﴾ سببيَّةٌ، فجُعِلَ الإخراجُ بسبب السِّحر، أو هي باءُ الاستعانة الدَّالَّة على الآلة، أي: أداتُك في إخراجنا سِحرٌ تستعينُ به، ونكتةُ التَّعبيرِ بهذه الباء: التعلُّلُ والتحيُّر بما لا أصل له؛ إيماءً إلى أنَّه علِم كونَهُ مُحِقًّا حتّى خافَ منه على ملكِه، فإنَّ السَّاحرَ لا يقدر أن يُخرِجَ مَلِكًا مِثْلَ فرعون من أرضِه[2]، وليس بالسِّحر تُنتزَع الممالِك.

سرُّ إضافةِ السِّحر إلى ضمير موسى:

جُبِلَتِ النُّفوسُ على كراهية السَّاحر

إضافةُ السِّحر إلى ضمير موسى عليه السلام في قوله: ﴿بِسِحۡرِكَ﴾ للتَّقليلِ والتهوين، وهو قصْدُ تحقيرِ شأن هذا الَّذي سمَّاه سحرًا، فيما زعمَه على ما أتى به موسى من الآيات، واستفادةُ التحقير ظاهرٌ بقرينة ما بعده من تنكيرِ السِّحر في جملة التَّحدّي بالنَّظير: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾، أي: سحرٍ عظيمٍ كاملٍ يَتفوَّقُ في المقدار، مِثْل سحرك في الجنس والحقيقةِ.

دلالةُ جملةِ الاعتراض ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

انهيارُ نفسيَّةِ الطاغية إذا هُدِّد في نفوذه ومُلكِه

مجيءُ جملةِ النِّداء ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ مختومًا بها التحدّي بالسِّحر في خطاب فرعونَ، تحتملُ ثلاثة أمور:

الأوّل: التَّهوينُ والتَّنبيهُ على أنَّه مُستقِلٌّ له لإحاطته بأمره، أي: يا موسى أنت الذي نعرفه، وربَّيناه على أعيننا، فيَدُنا عليك، وأمرك إلينا.

الثاني: التحسُّر والامتعاض، أي: يا موسى، يا مَنْ ربَّيناه، فاستقوى علينا، فيا بُعدك عنَّا ويا حسرتنا منك!

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 528.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 30.

الثالث: إلفاتُهُ إلى سابق منَّتِه عليه بما يزجره، ويُخجِله عن استمراره فيما هو بصدده.

دلالةُ النِّداء في سياق الخطاب: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

الاســتـعــارةُ التَّـمـثـيـلـيَّةُ في تركيب النِّداء

النِّداءُ في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ مجازٌ مرسل، علاقتُهُ الإطلاقُ والتقييد، فليس على حقيقته في طلب الإقبالِ واستدعاء المنادَى، بل المرادُ منه التعريضُ باقتداره عليه وتمكُّنِه منه انتصارًا لنفسه أمام الملأ الحاضرين، فهو كالمطلوب القريبِ في النِّداء والاستدعاء، ويصحُّ حملُ تركيبِ النِّداء على الاستعارة التمثيليَّةِ بتشبيه حال موسى في استنباه فرعونَ له، فهو مطلوبٌ لغرضِ فرعونَ فيه بالامتنان والتعريضِ والتهديد بحال المنادَى المطلوبِ إقبالُهُ على غرضِ مُناديه.

دلالةُ العطفِ بالفاء في: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾:

الفاءُ حرفٌ يدلُّ على كمال الربط والاتِّصال

الفاءُ في قوله: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا﴾، ومعناها السببيَّةُ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، أي: بسببِ قصدِك من مجيئك أنْ تَخرجنا بسحرِكَ، فأقسِمُ لنأتينَّكَ بسحرٍ مثله، وقد أفاد العطفُ بالفاء سرعةَ التَّعقيب بالردِّ على موسى بمناظرة السِّحر في قَسَمِ فرعونَ، ويصحُّ كون الفاء فصيحةً واقعة في جواب شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا كان ذلك كذلك - والإله الأعظم - لنأتينَّك[1].

معنى اللام:

الـقـسَـمُ على الوعيد تحقيقٌ لإمــكــانــه، وتقريبٌ لِشُهودِه واستحضارِه

اللَّامُ في قوله: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾ لتأكيدِ جوابِ القسم وتحقيقِه، واللام تدلُّ على القسَم المُضمر، والتقدير: (فعزَّتي وجاهي لنأتينَّك)، ولا يقدَّر (والله)؛ لأنَّه من كلامِ فرعونَ، وهو لا يؤمنُ بالله.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 301، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 528، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4742، وصافي، الجدول: 16/ 382.

بلاغةُ التوكيدِ في: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾:

إيرادُ المؤكِّدات لاستيعاب متعلِّقاتها الزَّمنيَّة

جملةُ ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾ جوابُ القسم[1]، وعند وقوع جوابِ القسم فعلًا مضارعًا، فيؤكَّد باللام، فإذا كان الفعلُ المضارع مثْبَتًا مستقبَلًا غيرَ مفصولٍ عن لامِه بفاصلٍ؛ وجَبَ توكيدُهُ بالنّون، واللامُ وحدَها تخلِّص المضارع للحال، وقد تحتمِل - مع الحال - الاستقبالَ؛ إذا دلَّ دليلٌ على ذلك، فإذا دخلتِ النّونُ معها؛ خلَّصتِ المضارعَ للاستقبال، فكأنَّهُ قيل: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾ فيما بعد وقت الخطابِ[2].

دلالةُ تصديرِه كلامَهُ بالقَسَمِ:

حيلةُ القَلِقِ الحَيْران

تصديرُ فرعونَ كلامَهُ بالقسم في قوله: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾؛ ليظهرَ بمظهرِ الواثق، وكأنَّهُ جمعَ أطرافَ النَّصر بين يديه[3]، ولا يخفى ما فيه من قصدِ مبالغتِه في إخفاء قَلَقِه وترهيب موسى وصدِّه، وقرينةُ أنَّه كان يواري بقَسَمِه قَلَقًا يكتُمُهُ: أنَّه رتَّبَ التَّحدّي بالمناظرة على بُهتانٍ اخترعَهُ، لم يتلبَّس به موسى طرفةَ عينٍ، وهذه حيلةُ القلقِ الحيران: أنْ يخترعَ خلافَ الحقيقةِ ليشغلَ الناسَ عن الاقتناع بها، والنَّظر فيها، ويُلهيهم بما يحجبُهم عن اكتشاف اضطرابه وزعزعة موقفِه؛ لئلَّا يسقطَ من أعينهم، فينهار نفوذُه.

دلالةُ نونِ الجمعِ في قوله: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾:

جنونُ العظمةِ بالعلوِّ والطغيان

ضميرُ جمع المتكلِّم في جملة جواب القسم: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾، إمَّا يعودُ على فرعونَ وحدَهُ، وساقها فرعونُ بصيغة الجمع لتعظيم شأنِه، وهي حالةٌ من جنون العَظَمَةِ التي تعتري الفجَّارَ من ذوي السُّلطة؛ إذا جوبِهوا بما يقطعُهم عن مزاولةِ الانفلات والطُّغيان، ويصحُّ أن يكونَ الجمعُ لإشراك قومِه معه، ليكونوا في

(1) صافي، الجدول: 16/ 382.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 176.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 119.

صفِّه في مواجهة موسى عليه السلام ابتدارًا منه وخشيةً أن يستقطبَهم موسى إلى صفِّه.

معنى الباءِ في: ﴿بِسِحۡرٍ﴾:

تعلُّقُ الجارِّ والمجرورِ بالإتيان

الباءُ في قوله: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٍ﴾ للتعدية، ويكون قولُه: ﴿بِسِحۡرٍ﴾ متعلِّقًا بالإتيان، وهو الظاهر، أو للملابسة، ويكون ﴿بِسِحۡرٍ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ مِنْ فاعلِ الإتيان، أي: ملتبسين بسِحْرٍ[1].

دلالةُ إسنادِ الإتيان إلى السِّحر:

تمثيلُ السِّحر ذاتًا يؤتَى بها

إسنادُ الإتيانِ إلى السِّحر في قوله: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٍ مِّثۡلِهِۦ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ السِّحرَ باعتباره قوًى متخيِّلة لا يأتي فرعونُ به، بل الذي يأتي به هو السَّاحرُ الذي يظهرُ السِّحرُ على يديه، وفي الإسناد إلى السِّحر مبالغةٌ في عِظَمِه وتأثيره، بتصويره كأنَّهُ يأتي، فيظهرُ بنفسه، أو بتمثيله ذاتًا تأتي لقوَّة نفاذِه.

دلالةُ التَّقييد بالصِّفة ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾:

الاحترازُ من الإذعانِ للحقِّ بتأكيدِ المغالطةِ والهوى

التقييدُ بالصِّفة ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ فيه تأكيدٌ من فرعونَ على عدم اعترافِه بمعجزةِ موسى عليه السلام فما أتى به سحرٌ يواجَهُ بسحرٍ من نفس جنسِه[2] وأصلِه، لكن يفوقه قوَّةً وهوْلًا عند التَّنافس والمناظرة، كما يدلُّ التقييد بالمثليَّة على اعتداد فرعونَ بمستوى السِّحر الَّذي سيواجه به معجزةَ موسى بصورة علنيَّةٍ حاسمة.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ﴾:

تفريعُ ترتيبِ الموعدِ على الإيعادِ بالتحدّي المُقسَم عليه

الفاءُ في قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ عاطفةٌ أو استئنافيَّةٌ[3]، والمعنى على الاستئنافِ مراعاةُ تمامِ الكلام بالقسم وجوابه، وأنَّ جملةَ ﴿فَٱجۡعَلۡ﴾ انتقالٌ لاقتراح موعد المناظرة، أو فصيحةٌ واقعةٌ في

---

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 54.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 244.

(3) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 8/ 279.

جواب شرطٍ مقدَّرٍ، أي: (إنْ قبلْتَ اللِّقاء، فاجعل)، ومعنى الفاءِ على احتمالاتِها السابقةِ لا ينفكُّ عن معنى التَّفريع[1]، أي: تفريعُ ترتيبِ الموعد على الإيعادِ بالتحدّي المُقسَم عليه.

دلالةُ موقعِ الظَّرف في قوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾:

تأكيدُ المفاصلةِ والمفارقة بينهم وبينه

موقعُ الظَّرفِ بتقديمه في السياق يفيدُ الاهتمامَ والحصرَ، ولذا لم يقل: (فاجعل موعدًا بيننا وبينك)، ولم يكتفِ في السياق بالبينيَّة الجامعة، فلم يقل: (فاجعل بيننا موعدًا) على إرادة جميعِ الأطراف، بل فصَّل، وفَصَل، فأسندَ الظَّرفَ مرَّتين إلى ضميرهم وضميرِ موسى عليه السلام ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ لتأكيد المفاصلةِ والمفارقة بينهم وبينهُ، وهو إيماءٌ إلى تحقُّق الخصومةِ وثبوتها في جانبَين، ولإرادة التحديد والتعيين لخطورةِ الحدث، فإنَّ الوقائع المفصليَّة تقتضي تخصيصًا دقيقًا لأطراف النِّزاع، وتناسبًا مع معنى المفاعلةِ في المواعدة المستفادة من قوله: ﴿مَوْعِدًا﴾ بالتنبيه على المتشاركين فيها.

دلالةُ صيغةِ (مَفْعِل) واتِّساع معناها:

الاتِّساعُ الدَّلاليُّ في الأبنية

قولُهُ: ﴿مَوْعِدًا﴾ جاء بصيغة موجزةٍ في لفظِها، واسعةٍ في مدلولها، فيجوزُ أن يُرادَ به زمانُ الوعدِ، ويرجِّحه قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، ويجوز أن يرادَ به مكانُ الوعد، والمعنى: (بَيِّن لنا مكانًا معلومًا، نعرفُهُ نحن وأنت فنأتيه)، وهذا يؤيِّده قوله: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، ويجوز أن يكونَ مصدرًا ميميًّا، ويؤيِّد هذا قولُهُ: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾؛ لأنَّ المواعدةَ توصفُ بالخُلْفِ وعدمه[2].

توجيهُ القراءةِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾:

النَّهيُ هو طلبُ نفي الفعل، فالنَّهيُ والنفي أخوان

قوله: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ في قراءة الجمهور برفع الفعلِ صفةً لـ﴿مَوْعِدًا﴾ باعتبار معناه المصدري، وقرأه أبو جعفرٍ بجزم الفاء من ﴿نُخْلِفْهُ﴾، والنَّهي تحذيرٌ من إخلافه[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 245.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 425، والسمين، الدر المصون: 8/ 54.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 320، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 245.

وهي على جواب الأمر، وهو قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ﴾.

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَّا﴾:

الاتِّساعُ الزَّمني في نفي المضارع بـ(لا)

﴿لَّا﴾ النافية في قوله: ﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ﴾ أفادتِ الاستقبالَ، فهي تنفي المضارعَ في الحال أو الاستقبال أو الاستمرار بحسبِ سياقِه في الجملة، وإن كان النَّحاةُ يرون أنَّها تخلِّصُه للاستقبال[1]، والظَّاهر أنَّها قد تكونُ للحال، كقوله: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾ [الصافات: 92]، و﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ [النمل: 20]، وقد تكون للاستقبال كهذه الآية، وكقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة: 174]، وقد تكونُ للاستمرار، وذلك نحو قوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [النساء: 148][2].

فائدةُ تكرار (لا) النَّافية:

تـكـرارُ الـنَّـفي للتأكيدِ

كُرِّرَت (لا) في قوله: ﴿وَلَآ أَنتَ﴾، ولم يُكتفَ بها في أوَّلِ ذِكرها بأن يقال: (لا نخلفُهُ نحن وأنت)، لتأكيدِ نفي عدم الخُلفِ من الجانبَين بالنصِّ عليه مع كلِّ طَرَفٍ، للدَّلالةِ على أنَّ عدمَ إخلافِه لا يوجِب عدمَ إخلافِ موسى عليه السلام فقد يقعُ انتفاءُ الخلف من طرفٍ دونَ الآخر[3]، وفي تكرار أداةِ النَّفي - في جهة موسى في خطابِ فرعونَ لموسى - إشارةٌ إلى حرصِ فرعونَ على وفاء موسى بالوعد؛ إظهارًا منه لشدَّة عزمِه وتحقُّقِ إصراره على الإنجاز والإتمام، فليس هو مجرَّدَ اقتراحٍ منه أو تظاهرٍ أو تخلُّص، وفيه: أنَّه غيرُ مُحرَجٍ من موسى بما أراه من الآياتِ التي كذَّبها.

دلالةُ الاحترازِ بضمائر الفصل:

التَّفصيلُ في الضَّمائر لتقرير المُفاصَلةِ في المواقف

لم يَقُلْ في السياق: (لا نخلفُهُ مكانًا سوًى)، بل أتى بضميرَي

(1) الكتاب، سيبويه: 3/ 117.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 206.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 24.

التَّوكيد لَهُ ولموسى في قوله: ﴿نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾، ونصَّ على ضمير موسى، مع إمكان أن يقالَ: (لا نخلفه نحن مكانًا)؛ لأنَّ ﴿نَحۡنُ﴾ يصلح للدَّلالة عليهما معًا وعلى سائر الملأ، لتأكيد المفاصَلة بالخصومة، فناسَبَ المفاصلة في الضمائر، كأنَّهُ قيل: (لا نخلفُهُ نحن، ولا تخلفُهُ أنت)[1]، وقصْدًا منه تفويضَ أمرِ الوعد إلى موسى عليه السلام للاحترازِ عن نسبته إلى ضعف القلبِ، وضيق المجالِ، وإظهارِ الجلادةِ، وإراءة أنَّه متمكِّنٌ من تهيئةِ أسبابِ المعارضة[2]؛ ليظْهرَ كمالُ اقتداره على الإتيان بمثلِ ما أتى به موسى[3]، ولنكتةٍ بديعةٍ: هي الإشارةُ إلى أنَّ عدمَ إخلافِ أحدِ الطَّرفين لا يستلزمُ ألَّا يقعَ الإخلافُ مِنَ الآخر، ولذا نصَّ على الضَّميرين.

دلالةُ تقديمِ ضمير التكلُّمِ على الخطاب:

الإيـــــذانُ بالمسارعةِ إلى عدمِ الإخلاف

تقديمُ فرعونَ ضميرَه على ضميرِ موسى - في قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ - للإيذانِ بمسارعته إلى عدم الإخلافِ[4]، وأنَّه سابقٌ بالحرصِ قبلَهُ، واستحضارًا منه لمقامه في العزَّةِ والمُلْك، فلا أحد يتقدَّمُ عليه في نظره في القولِ والفعل.

دلالةُ التَّصريحِ بضمير الخطابِ:

الجمعُ بين الحزمِ واللّين أمارةُ كياسةٍ وسياسةٍ

في استعمال فرعونَ للضَّمير ﴿أَنتَ﴾ في خطابِ موسى عليه السلام في قوله: ﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾ احتمالُ إشارتِه إلى التَّلطُّف مع موسى بالتصريح بضميره، كأنَّهُ بذلك يتعمَّدُ إظهارَ اعتداده بموسى واعتباره له، وهذا من كياسة الملوكِ وسياستهم، في الجمع بين الحزمِ واللّين في بعض الأحايين.

---

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/ 372، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 253.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 24.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 438.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 24.

دلالةُ جملةِ الفاصلةِ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾:

تتعدَّدُ وجوهُ الإعرابِ تبعًا لتنوُّعِ المعاني المحتملَةِ

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ منصوبٌ بفعل مقدَّرٍ يدلُّ عليه المصدرُ، أي: عُدَّ مَكانًا، أو على أنَّهُ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿فَٱجْعَلْ﴾، أي: فاجعل موعدًا مكانًا، وذلك على أنَّ ﴿مَوْعِدًا﴾ مصدرٌ[1]، أو على أنَّهُ بدلُ اشتمالٍ من ﴿مَوْعِدًا﴾ بأحد معنييه؛ لأنَّ الفعلَ يقتضي مكانًا وزمانًا، فأُبدِل منه مكانه[2]، كأنَّهُ قيل على حذفِ مضاف: (فاجعل مكانَ موعدٍ مكانًا سوًى)[3].

إيثارُ ذِكرِ المكانِ دونَ الزَّمانِ:

الزَّمانُ والمكانُ متلازمانِ لا ينفكّانِ

آثرَ ذِكرَ المكانِ دون الزَّمانِ في قوله: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ لأجل وصفِه بقوله: ﴿سُوًى﴾، أي: عدلًا بيننا في موقعه ومسافته وحيادِه في الحكم، فيكون كنايةً عن الإنصافِ والعدالة والسّواء المعنوي بضمان النَّصَفَةِ وعدم الانحياز، وهذه الأمورُ يوصفُ بها المكانُ دونَ الزمان، فضلًا عن أنَّ كلًّا من الزَّمان والمكان لا ينفكُّ عن الآخرِ، فالزمانيَّةُ لازمةٌ لا تنفصلُ[4].

دلالةُ الوصفِ بـ﴿سُوًى﴾:

الجمعُ بين الدلالةِ الحسيَّةِ والمعنويَّةِ

وصفُ ﴿سُوًى﴾ وهو اسمُ وصفٍ مشتقٍّ من الاستواء بمعنى الوسط، وزنه (فُعَل) بضمِّ الفاء أو كسرها يُجمع بين الدلالةِ الحسيَّةِ والمعنويَّةِ للاستواء، فعلى المعنى المحسوس: هو وصفٌ للمسافة، أي: مكانًا تستوي مسافتُهُ بين الفريقَين، أو هو وصفٌ لجغرافيَّة المكان أي: مكانًا مستويًا لا يكون فيه ارتفاعٌ ولا انخفاضٌ حتى يشاهدَ كلُّ الحاضرين ما يجري متساويين في ذلك، وعلى الدَّلالة المعنويَّة: مكانًا يستوي حالُ جميع الأطراف في الرِّضا والقبولِ به، أو مكانًا

(1) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 8/ 281.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 245.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 31.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 302.

يتحقَّق به العدلُ والانتصاف، فتستوي حالنا فيه، وتكون المنازلُ فيه واحدةً، لا تُعدُّ فيه رئاسةٌ ولا سياسة، بل يتَّحد هناك الرئيسُ والمرؤوسُ والسائسُ والمَسوسُ[1].

بلاغةُ الكنايةِ في تركيب ﴿مَكَانًا سُوًى﴾:

الانكشافُ التامُّ لقضايا الرأي العام

قولُهُ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ كنايةٌ عن إرادة الوضوحِ، وإظهارِ الجَلادةِ وقوَّةِ الوثوقِ بالغلبةِ؛ لأنَّه عبارةٌ عن الانكشاف التامِّ في إجراءاتِ المناظرة وفعاليَّتها، فيلزم عنه ذلك[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 63، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 529.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 529.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ٥٩﴾ [طه: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المؤمنُ هو الأعلى فلا يُخوَّفُ، بل يخوضُ ويواجِهُ

لَمَّا ذكرَ في الآيةِ السابقة جحودَ فرعونَ، وازديادَ كُفْرِه - بعدَ رؤيتِه الآياتِ - ومقالَهُ لموسى بالبهتان والزّور والرمي بالسِّحر، وسؤالَهُ له أنْ يحدِّدَ موعدًا للمناظرة والتحدّي؛ أخبر هنا بجوابِ موسى عليه بتحديدِ الزَّمان واختيار المكانِ وقَبولِ الموعِدِ وإجرائه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلزِّينَةِ﴾: (زين) أَصْلٌ يَدُلُّ على حُسْنِ الشَّيْءِ وتَحْسينِه(1)، والزَّيْنُ: نقيضُ الشَّيْن، زانه الحُسْنُ يزينُهُ زَيْنًا، وازْدانَتِ الأرضُ بعُشبِها، وازَّيَّنَتْ، وتَزَيَّنَتْ، والزّينةُ: اسم جامعٌ لكُلِّ ما يتزيَّنُ به النَّاسُ، وما يَحْسُنُ في أَنْظارِهم مِنْ طَرائِفِ الدُّنْيا، كالحُليِّ والجَواهرِ(2)، والمقصود بـ ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ في الآيةِ: يَوْمُ عيدٍ عَظيمٍ عِنْدَ القِبْطِ، يَتَزَيَّنُ فيه النَّاسُ، ويفرحون، وهو يَوْمُ كَسْرِ الخَليجِ أَوِ الخُلْجانِ، وهيَ المَنافِذُ والتُّرَعُ المَجْعولَةُ على النِّيلِ لإِرْسالِ الزَّائِدِ مِنْ مياهه إِلَى الأَرَضينَ البَعيدَةِ عن مَجْراهُ لِلسَّقْيِ، وذَلِكَ هو أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ (توتَ) القِبْطيِّ، وهو (أَيْلولُ) بحَسَبِ التَّاريخِ الإِسْكَنْدَرِيِّ(3).

2) ﴿يُحْشَرَ﴾: (حشر) أَصْلٌ يدلُّ على الجَمعِ والسَّوقِ والبَعْثِ والانْبِعاثِ، وأَهْلُ اللُّغَةِ يَقولونَ: الحَشْرُ الجَمعُ مَعَ سَوْقٍ، وكُلُّ جَمعٍ حَشْرٌ(4)، والحَشْرُ: جَمعُ النَّاسِ يَوْمَ القيامَةِ، والمَحْشَرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إِليه القَوْمُ، وكذلكَ إِذا حُشِروا إِلى بَلَدٍ أَو مُعَسْكَرٍ أَو نَحْوِه(5)،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (زين)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 269.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 247.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حشر).

ومنه سُمّيَتِ الحَشَراتُ بذلك؛ لِاجْتِماعِها وكَثْرَتِها، ويأْتي الحَشْرُ بمعنى السَّوْقِ، فيُقال: حَشَرَ إِبِلَهُ، أي: ساقَها[1]، والمرادُ بالحَشْرِ في الآية: اجتماعُ النَّاسِ مِن مواضِعَ مُتفرِّقةٍ إلى مكانٍ واحِدٍ.

3) ﴿ضُحَى﴾: (ضحى) أَصْلٌ يَدُلُّ على بُروزِ الشَّيْءِ، فالضَّحاءُ: امتِدادُ النَّهارِ، وذَلِكَ هو الوقْتُ البارِزُ المُنْكَشِفُ[2]، وأمَّا الضَّحْوة: فهو ارتفاعُ أوَّلِ النَّهارِ، والضُّحى - بالضَّمِّ والقَصْرِ - فوْقَهُ، وبه سُمّيَتْ صَلاةُ الضُّحى[3]، قالَ الجَوْهَرِيُّ: الضُّحى مَقْصورَةٌ تُؤَنَّثُ، وتُذَكَّرُ، فمَنْ أَنَّثَ؛ ذَهَبَ إلى أَنَّها جَمعُ ضَحْوةٍ، ومَنْ ذَكَّرَ؛ ذَهَبَ إلى أَنَّهُ اسمٌ على فُعَلٍ مِثْلُ صُرَدٍ ونُغَرٍ، وهو ظرْفٌ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ مثلُ سَحَر، تقول: لقيتُه ضُحًى وضُحى؛ إذا أَرَدْتَ به ضُحى يَوْمِكَ لَم تُنَوِّنْهُ[4]، ويُقالُ: ضَحِيَ الرَّجُلُ يَضْحَى؛ إذا تَعَرَّضَ لِلشَّمسِ، وضَحَى مِثْلُهُ[5]، والمرادُ بالضُّحَى في الآية: وقْتُ ابْتِداءِ حَرارَةِ الشَّمسِ بَعْدَ طُلوعِها[6].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

اختارَ موسى يومَ الزّينةِ لتعلوَ كلمةُ الله أمام النَّاس قاطبةً

قال موسى: مَوعِدُكم هو اليَومُ المخصَّصُ لاجتِماعِ النَّاسِ فيه، وتَزَيُّنِهم وتفَرُّغِهم من أعمالِهم، في المكانِ المعتادِ لذلك، وليُساقَ جَميعُ النَّاسِ من كلِّ ناحيةٍ لِحُضورِ اجتِماعِنا في وقتِ الضُّحَى، حيث تكونُ الرُّؤيةُ واضحةً، والنُّفوسُ مستعدَّةً نشيطة، كونه أوَّلَ النَّهار، فلو امتدَّ الأمرُ فيما بينهم؛ كان في النَّهارِ متَّسَعٌ، وكان ذلك بالمصادفة مناسبًا للسَّحرة، لتسخين الحبال والأدوات المعبَّأة بالزِّئبق[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ضحى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ضحى).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ضحا - ضحى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضحى).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 246.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 90، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 300، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 508.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ﴾ ممَّا قبلَه:

شبهُ كمالِ الاتِّصال بين الجملِ

الجملة في قوله: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جوابٌ من موسى عليه السلام على قول فرعون: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾؛ لأنَّه في معنى السؤال، فبين الجملتين شِبْهُ كمال اتِّصالٍ، ولذلك فُصِلَتْ.

دلالةُ الخطابِ بالجمع في: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ﴾:

الأخذُ بزمام الحوارِ من علامات التمكُّن

الخطابُ بالجمع عائدٌ على فرعونَ وقومِه، على اعتبار أنَّ القائلَ هو موسى عليه السلام، ويصحُّ أن يكونَ من كلام فرعونَ، بأن يكون اقترحَ الموعدَ، ثمَّ بادرَ بتحديدِه، وهذا سائغٌ؛ لأنَّ إدارةَ الأمورِ بيده، ولأنَّهُ المُطالِبُ المقترِحُ، ويكون الخطابُ بالجمع لموسى وهارون، ويُسوَّغُ على أنَّ أقلَّ الجمعِ اثنان على غرار قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ [الأنبياء: 78]، والمقصود داودُ وسليمان عليهما السلام، أو على معنى ما يشبهُ التَّعظيمَ، كعادة الملوك في مراعاة الدبلوماسيَّة والتحفُّظ في خطاب مَن لهم إليه مصلحةٌ، وإن كان أدنى منهم في نظرهم، أو على معنى أنَّه أدخَل جميع الحاضرين في الخطاب، ويدخل فيهم موسى دخولًا أوليًّا، كأنَّه قال: اجتماعنا - يقصد كلَّ مَن حضر - في يوم كذا(1).

نكتةُ ترجيحِ أن يكونَ القولُ من موسى:

إجراءُ المعنى على الظَّاهر السّياقي

يترجَّح أن تكونَ جملة ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ من قول موسى عليه السلام؛ جوابًا على اقتراح فرعونَ، وذلك لثلاث نِكاتٍ:

الأولى: أنَّه جوابٌ لقول فرعونَ: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾، والأصلُ أن يكون لموسى انفعالٌ ومطاوعة لما يُقال في المجلس؛ لأنَّه رسولٌ مؤيَّد، فله نفوذٌ وابتدار في تحديد المُجريات.

الثانية: وهو أنَّ تعيينَ يومِ الزينة يقتضي إطِّلاعَ الكلِّ على ما

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 64.

سيقعُ، فتعيينُهُ إنَّما يليق بالمُحِقِّ الذي يعرف أنَّ اليدَ العليا له، لا المُبْطِل الذي يعرف أنَّهُ لا حيلةَ له إلَّا بالتَّلبيس.

الثالثة: وهو إجراءُ الخطابِ الجمعي على أصله، فإنَّ قوله: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ﴾ خطابٌ للجمع، فلو جعلناه من فرعونَ إلى موسى وهارونَ؛ لَزِمَ إمَّا حملُهُ على التعظيم أو ما يشبهه، وهذا خلافُ الأصلِ في حال فرعونَ معهما، أو على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان، وهو خلافُ الأصل للخِلاف المشهور في ذلك، أمَّا لو جعلْناهُ من موسى عليه السلام إلى فرعونَ وقومِه؛ لاستقام الكلامُ، وجرى الجمعُ على الأصل باطّرادٍ بلا خِلافٍ أو نظر(1).

مجازُ الحذفِ في التركيب:

المصدرُ الميميُّ يدلُّ على منتهى الحدث

قوله: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ فيه مجازٌ بالحذف، أي: موعدكم وعدَ يومِ الزّينة، أو موعدكم مكانُ يوم الزّينة، فالمحذوف هو المضافُ، والتقدير الأوَّلُ: (وعدُ يوم الزّينة)، على اعتبار أنَّ (موعد) - في قولِه: ﴿مَوۡعِدٗا﴾ وقولِه: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ﴾ - مصدرٌ ميميٌّ، والتقدير الثاني للمضاف: (مكانُ يومِ الزينة) على اعتبار أنَّ الموعدَ الأوَّل في السؤال، والموعدَ الثاني في الجواب اسما مكانٍ، ولا تقديرَ لمحذوفٍ؛ إذا عددْنا ﴿مَوۡعِدُكُمۡ﴾ اسمَ زمان؛ لإسناده إلى الزمان بالفعل: ﴿يَوۡمُ﴾، كأنَّه قيل: زمنُ موعدِكم يوم الزَّينة، والإيجازُ بالحذف هنا له نكتةٌ بلاغيَّةٌ بديعةٌ: وهو الاتِّساع في دلالة الجوابِ، فيكون مُطابقًا لجملة السُّؤال وأوسع منها وأجمع(2).

أسلوبُ الحكيم في الجواب:

الأنبياءُ أحكمُ العالمين

جاء جوابُ موسى عليه السلام في قوله: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ على غير طريقةِ السُّؤال، ففرعونُ سألَ عن المكانِ بقوله: ﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 64.

(2) السمين، الدر المصون: 8/ 59.

وأجاب هو ﷺ بالزمان: ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾[1]، وهذا من أسلوب الحكيم الدَّالِّ على التمكُّنِ في الحوار، وأنَّ المُجيبَ أوسعُ وأسبَق وأجمع في القصد من مُرادِ السَّائل؛ كأنَّ الجوابَ وقع منه ﷺ قبل أنْ يُطلَبَ منه، فهو استباقٌ من المجيب للسائل بإظهارِ ما لم يرِدْ في سؤاله، وفيه إيذانٌ بكمال وثوقه من أمره ﷺ، وتوفُّر جاهزيَّته للتحدّي بما لا يتوقَّعُهُ فرعونُ؛ مكتفيًا بذكر الزمانِ المخصوصِ؛ للإشارة إلى استغنائِه عمَّا وردَ في السؤال، وأنَّ كلَّ الأمكنةِ بعد حصول الاجتماعِ بالنسبة إليه سواءٌ، فزادَهُ مِنَ الشِّعرِ بيتًا، ولم يوافِقْ فقط على مكانٍ سوًى، بل رفع سقفَ التحدّي إلى أن يكونَ ذلك في زمانٍ سوًى، أيضًا وهو يومُ الزّينة؛ لأنَّهُ قد يحصلُ الاجتماع في مكانٍ مناسب، لكن في وقتٍ غيرِ مناسب لا ازدحام فيه ولا اشتهار، فيُخِلُّ ذلك بالمناظرة، ولا يخفى ما في هذا الجواب من إحراجِ فرعونَ وإفحامِه.

دلالةُ إيثارِ ذِكْرِ الزمانِ دونَ المكانِ:

دلالةُ الزَّمانِ على المكانِ بطريق الالتزامِ

آثَرَ ذِكرَ الزمانِ دونَ المكانِ في قوله: ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾، ولم يُتابِع على نمط السُّؤال ببيان المكان الواردِ فيه في قوله: ﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾؛ لتكميلِ القصد واستيفاء الغرض، وهذا من كمال الذِّكاء وتمام الحكمة؛ لأنَّه إذا حُدِّد وصفُ المكان، فلم يبقَ إلَّا تعيينُ زمانه، وخيرُ الأجوبةِ ما تمَّتْ به مقاصدُ الأسئلةِ، فحصل بذلك الجمعُ بين الزمان والمكان بمجموع السياق في السؤالِ والجواب بطريق النصِّ على كلٍّ منهما، والجمعُ بين الزمان والمكان في جواب موسى، بدلالةِ الزَّمان على المكان بطريقِ الالتزام؛ لأنَّ يومَ الزينةِ يدلُّ على مكانٍ مشهورٍ يجتمع فيه الناس ذلك اليوم[2].

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9303.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 31.

سرُّ اختيارِ يومِ الزّينة:

حرْصُ الأنبياءِ على إنقاذ النَّاس من النَّار

اختيارُ يومِ الزَّينةِ وتعيينه بالدِّقَّةِ، لإظهار كمالِ قوَّتِه، وكونِه على ثقةٍ من أمره، ليكونَ مشهورًا على رؤوسِ الأشهاد، ويشيع ظهورُهُ بين كلِّ حاضرٍ وبادٍ[1]، ولا يخفى ما فيه من حِرصِ الرَّسولِ ﷺ على اقتناصِ الفرصةِ لتوسيع رقعةِ البلاغِ والدَّعوةِ، لِقصدِ اهتداءِ العددِ الأوفرِ والجمعِ الأعظمِ، ولو لم يكونوا من ذوي الاكتراثِ لأخبارِ فرعونَ.

دلالةُ الإطنابِ والاتِّساعِ في الجواب:

حُسْنُ الجوابِ يدلُّ على حُسْنِ النَّفْسِ والعَقْلِ

أجابَ موسى عليه السلام جوابًا وافيًا، اقتضى إطنابًا في التفاصيل، فكان يمكنُ أن يقتصرَ على ذِكر اليوم فقط، ويكتفي بقوله: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾، ولكنَّهُ أجاب بما تقتضيه المواعيد من النَّصِّ على مكانها ووقتها وتقييد ساعتِها، فقولُهُ: ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ تعيينٌ للوقت، وقوله: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ تعيينٌ للمكان، وقوله: ﴿ضُحٗى﴾ تقييدٌ لمطلق الوقت[2]، وهذا كلُّه يعود إلى حسنِ الجواب وأسلوبِ الحكيم.

موقعُ جملةِ ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ ممَّا قبله:

المصدرُ المؤوَّلُ تنتظمُ فيه دلالةُ الاسميَّةِ والفعليَّةِ في سِلْكٍ واحد

جملةُ ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾، فهي في محلِّ رفعٍ بعطفها على يوم، كأنَّهُ قيل: (موعدكم يومُ الزينةِ، وموعدكم حشْرُ النَّاس)، أو المصدر المؤوَّل من أن والفعل في محل جرٍّ عطفًا على الزّينة، كأنَّه قيل: (يومُ الزينةِ ويومُ حشْرِ النَّاس)[3].

سرُّ بناءِ الفعل ﴿يُحۡشَرَ﴾ لما لم يسمَّ فاعلُه:

بناءُ الفعلِ ﴿يُحۡشَرَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه، لعدم تعلُّقِ الغرض بالفاعل، فالغرضُ متعلِّقٌ بالمفعول (نائبِ الفاعل)، وهو جمعُ النَّاس، والبناءُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 24.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 246.
(3) السمين، الدر المصون: 8/ 60.

للمفعول يدلُّ على أنَّه كان في ذلك اليوم مُنَظِّمون لجموع النَّاس، فيوجِّهونهم إلى أماكنهم في الاجتماع والاحتفال.

نكتةُ اختيارِ الظَّرف ﴿ضُحًى﴾:

خـطَّـةُ الـوقـتِ المناسبِ أساسُ التَّمكين للنصر

اختيارُ وقتِ حشر النَّاس بالظَّرفِ ﴿ضُحًى﴾؛ لأنَّه أوَّلُ النّهار، فإذا امتدَّ الأمرُ في المناظرة؛ كان في النهار متَّسعٌ للناس يستأنفون فيه معايشَهم ومصالحَهم[1]، ولأنَّهُ مظنَّةُ انتباه النَّاس ونشاطهم، والخلاصة: أنَّه اختارَ أظهرَ الأوقات وأجلاها لأظهرِ الآياتِ وأهداها.

معنى (ال) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

اسـتـغـراق الخصوص

(الـ) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ من قوله: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ للعهد، والمرادُ أهلُ مصرَ وشعبها[2]، أو هي للاستغراق العرفيِّ الَّذي يقع في استغراق أفرادِ القوم المخصوصين، وليس في كلِّ أفراد الناس كافَّةً، فيرجع إلى العمومِ الذي أُريد به الخصوصُ، والمرادُ أهلُ مصرَ خاصَّةً من فرعون وجنده وشعب بني إسرائيل، ومن ينضمُّ إلى أحدِ طرفَي المناظرة بالانحياز، ومن ينضمُّ إليهم خاليَ الذِّهن لا به ولا عليه.

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزّينَة والجمال:

الـزِّيـنـةُ أقـرب بـحـال الإبـرازِ والـظُّـهـور من الجمال

أصلُ الجمالِ يدلُّ على مطلَقِ الحُسْنِ[3]، سواءٌ كان ذاتيًّا في الخِلْقَةِ، أم معنويًّا في الخُلُق، أم إضافيًّا خارجيًّا كجمال الحِلْيةِ والزِّينةِ.

وأصلُ الزِّينة: زيادةٌ مُحبَّبَةٌ تُعلَّق بظاهر الشَّيء ناشئةً عمَّا يزخرُ به باطنُهُ[4].

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 439.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 163.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زين).

وعليه: فالزّينةُ أقرب بحال الإبرازِ والظُّهور، وهي زيادةٌ على أصلٍ موجود، وأمَّا الجمالُ؛ فهو عام، فيتعلَّق بجميع الأحوالِ الباطنة والظاهرة والذَّاتيَّةِ والخارجيَّةِ، ولذا صحَّ أن يكون من آثارِ الزينة، فإنَّ الزينةَ تؤدّي إليه، وتُطلَبُ له.

الضُّحى والإشراق:

الضُّحى: أصل (ضحى) يدلُّ على بروز الشَّيءِ وانكشافه[1]، ومنه (الضُّحَى): وقتُ انبساطِ الشمس[2] بالحرارة وانبعاثِها بالدِّفْءِ؛ لأنَّ الشمس يتمُّ بروزها وظهورها بتوهُّجها، وأمَّا الإشراق؛ فأصله يدلُّ على الطُّلوع والفتْح والإضاءة[3]، ومنه شروق الشَّمس وهو طلوعُها، ولذا فهو وقتٌ سابق على الضُّحى، وهو أَعمُّ منه؛ لأنَّ الشروق وضعٌ يلازم الشمسَ حتى تغرب، فهي متحقِّقَةٌ به في جميع أوقات النَّهار، وأمَّا الضحى؛ فهو وقت خاصٌّ بـ"ابتداء حرارةِ الشَّمس بعد طلوعِها"[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضحى).
(2) الراغب، المفردات: (ضحى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شرق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 246.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ۝٦١﴾ [طه: 60 - 61]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

على قدر الطُّغيانِ تكون شدَّة الموعظة

في هاتين الآيتينِ استكمالٌ لبيان كيفيَّاتِ انفعالِ فرعونَ بعد جواب موسى عليه بتعيين الموعدِ، وما كان من مقالِ موسى عليه السلام لهم بعد إنفاذِ تدابيرهم وحضور موعدهم، مُحذِّرًا لهم ومُذكِّرًا بألَّا يرتكبوا إخلالًا بالمناظرة أو احتيالًا، لتقعَ الأمورُ مواقعَها المستقيمة، كما ينبغي لها أن تقعَ وتحصلَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَوَلَّىٰٓ﴾: (ولي) أَصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أَي: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمَّا يَليني، أَي: يُقارِبُني[1]، والتَّولّي قد يكونُ بالجسم، وقد يكونُ بترك الإصغاء والائتمارِ[2]، يُقال: قَدْ ولَّى الشَّيءُ، وتولَّى؛ إذا انصرف هارِبًا ومُدْبِرًا، وتولَّى عنهُ؛ إذا أَعْرَضَ، والتَّولّي يَكونُ بمَعْنَى الإعْراضِ، ويَكونُ بمَعْنَى الاتِّباعِ[3]، فإذا عُدّي بنفسِه؛ اقتَضَى معنَى الولايَةِ، وحُصولِه في أَقْرَبِ المواضِعِ، وإذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربه، فمِنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثَّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63]، والمُرادُ بالتَّولي في الآيةِ:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) الراغب، المفردات: (ولي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).

الانْصِرافُ، وهو هُنا مُستَعْمَلٌ في حَقيقَتِه، أَي: انْصَرَفَ عن ذَلِكَ المَجْلِسِ إِلَى حَيْثُ يُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَى المَدائِنِ لجَمعِ مَنْ عُرِفوا بعِلْمِ السِّحْرِ[1].

2) ﴿كَيۡدَهُۥ﴾: (كيد) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بشِدَّةٍ، قالَ أهلُ اللُّغَة: الكَيْدُ: المُعالَجَةُ، قالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ؛ فأَنْتَ تَكيدُهُ[2]، ويَقولونَ: هو يَكيدُ بنَفْسِه، أَي: يَجودُ بها، كأَنَّهُ يُعالِجُها لتَخْرُجَ، والكَيْدُ: صِياحُ الغُرابِ بجَهْدٍ[3]، هذا هو الأَصْلُ في البابِ، ثُمَّ يُسَمّونَ المَكْرَ كَيْدًا، قال اللّٰه تعالَى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ [الطور: 42]، والكَيْد أيضًا: مصدرُ كاده كَيْدًا وكِدْتُهُ في معنى أردته، وكاد يفعل ويكاد، وهَذا بمَعْنى قَرُبَ[4]، والمُرادُ بالكَيْدِ في الآيَةِ: إِخْفاءُ ما به الضُّرُّ إِلَى وقْتِ فِعْلِه، أَمَّا المقصودُ بجَمعِ الكَيْدِ؛ فتَدْبيرُ أُسْلوبِ مُناظَرَةِ موسَى، وإِعْدادُ الحيَلِ لإِظْهارِ غَلَبَةِ السَّحَرَةِ عليْه، وإِقْناعِ الحاضِرينَ بأَنَّ موسَى لَيْسَ على شَيْءٍ[5].

3) ﴿لَا تَفۡتَرُواْ﴾: أصلُ الفَرْيِ: القَطْعُ والشَّقُّ، والإِفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر[6]، والفِرْيَةُ: الكَذِبُ، فرَى كَذِبًا فرْيًا، وافْتَراه: اخْتَلَقَهُ، وفي التَّنزيلِ العَزيزِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: 38]، أَي: اخْتَلَقَهُ[7]، قال السَّجستاني: "الافتراءُ: العَظيم من الكَذِب، يُقال لمن عمل عملًا، فبالغ فيه: إِنَّه ليفري الفري، يَعْني: ليقطع الأَمر العجيب"[8]، والمُرادُ بالافتراءِ في الآيَة: اخْتِلاقُ الكَذِبِ، والافْتِراءُ الَّذي عَناهُ موسَى عليه السلام هو ما يُخَيِّلونَهُ للنَّاسِ مِنَ الشَّعْوذَةِ[9].

4) ﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾: (سحت) أَصْلٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، القِشرُ الذي يُستأصَلُ، يُقالُ: سُحِتَ الشَّيْءُ؛ إِذا اسْتُؤْصِلَ، وأُسْحِتَ، يُقالُ: سَحَتَ اللّٰه الكافِرَ بعَذابٍ؛ إِذا اسْتَأْصَلَهُ[10]،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 102، و16/ 247.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كيد).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كيد).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 247.
(6) الراغب، المفردات: (فرى).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(8) السجستاني، غريب القرآن، ص: 103.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 249.
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سحت).

والسُّحْتُ: العَذابُ، قالَ اللَّيث: وسَحَتْناهم: بلغنا مجهودَهم في المَشَقَّة عليْهم، وأَسْحَتْناهم لُغَةٌ، ومنه: أَسْحَتَ الحالِقُ شَعَرَهُ؛ إذا استأصلَهُ، وأسْحَتَ الخاتِنُ في خِتان الصَّبي؛ إذا استأصله، وكَذَلِكَ أغْدَفَهُ[1]، ومِنَ البابِ: المالُ السُّحْتُ: كُلُّ حَرام يَلْزَمُ آكِلَهُ العارُ، وسُمّيَ سُحْتًا؛ لِأَنَّهُ لا بَقاءَ لَهُ، وعليه فالمُرادُ بالسُّحتِ في الآية: الاستئصالُ، أي: يستأصلُكم، ويهلككم بعذابٍ شديدٍ[2].

5) ﴿خَابَ﴾: (خيب) أَصْلٌ يَدُلُّ على عَدَمِ فائِدَةٍ وحِرْمانٍ، والأَصْلُ قَوْلُهُم لِلْقِدْحِ الَّذي لا يوري: هو خَيَّابٌ، ثُمَّ قالوا: سَعَى في أَمرٍ، فخابَ، وذَلِكَ إذا حُرِمَ؛ فلَم يُفِدْ خَيْرًا[3]، فالخَيْبَةُ: حِرْمانُ الجِدَة، خابَ يَخيبُ خَيْبَةً: حُرِمَ، ولَم يَنَلْ ما طَلَب[4]، وخَيَّبَه اللّه: حَرَمَهُ[5]، والمُرادُ بالخيبةِ في الآية: انقطاعُ الأمل في الحصول على الشَّيء[6].

6) ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: أَصْلُ الكلمةِ مِنَ الفَرْيِ وهو: القَطْعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أَفْرَى الذِّئْبُ بَطْنَ الشَّاةِ يُفْري فرْيًا، أي: شَقَّهُ، ومِنْهُ الفِراءُ، وهو الجِلْدُ؛ لِأَنَّهُ يُقْطَعُ، ويَأْتي الفَرْيُ بمَعْنَى الصُّنْعِ والاِخْتِلاقِ، وسُمّيَ الكَذِبُ فِرْيَةً وافْتِراءً؛ لِأَنَّ المفتري يَقْتَطِعُ الكَلامَ اِقْتِطاعًا مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِه[7]، والافتراء: الكَذِبُ، والجَمعُ: فِرًى، يُقالُ: افْتَرَى يَفْتَري افْتِراءً، أيْ: كَذَبَ، وقيلَ: الاِفْتِراءُ: الكَذِبُ العَظيمُ، وقيلَ: الكَذِبُ المتَعَلِّقُ بالأَغْراض، ويَأْتي الافْتِراءُ بمَعْنَى: البُهْتانِ والظُّلْمِ[8]، والمرادُ بالافتراءِ في الآية: الكذبُ على اللّه تعالى[9].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قال موسى للسَّحرة: ويلَكم، لا تختلقوا الكذبَ على اللّه ولا تتقوَّلوه عليه، بأن تدَّعوا أنَّ الآياتِ الَّتي ستظهرُ على يديَّ سحرٌ، كما فعَل فرعونُ، فيستأصلُكم اللّه بعذابٍ من عنده، ولا يُبقي منكم، ولا يذر، وقد خابَ، وخسرَ كلُّ من قال على اللّه تعالى قولًا باطلًا لا حقيقة

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (سحت).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 123.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خيب).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خيب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خيب).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/ 255.
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(8) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: 449، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 250.

له، وفرعون أوَّلُ المُبطلين المفترين الخاسرين، فاحذروا أن تسيروا في ركابِه، أو أن تطيعوا لهُ أمرًا[1].

عِظَمُ الافتراءِ يترتَّبُ عليه هَلاكُ الاستئصالِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ ممَّا قبلَه:

سرعةُ الاستجهازِ في إنفاذ المواعيد

الفاءُ في جملة ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ للتفريعِ، لترتيب ما بعدها على قبلَها، فالتوليةُ وجمع الكيد مترتِّبٌ على تعيين موسى عليه السلام للموعد[2]، ويصحُّ أن تكونَ فصيحةً عاطفةً مدخولها على محذوفٍ مقدَّرٍ، أي: (فأقَرَّ موعدَ موسى، فتولى)، والفاء تدلُّ على التعقيب وسرعة الاستجهاز في تنفيذ إجراءاتِ الموعدِ.

سرُّ ورود الفعل ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ ماضيًا:

الشُّروع في التَّخطيط لا يكون إلَّا عن موافقةٍ واقتناعٍ

ورودُ الفعل ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ ماضيًا، دالٌّ على تمام اقتناعه بإجابة موسى عليه؛ لأنَّ حصولَ انصرافِه من مجلس المشاورة إلى تدبير إجراء المناظَرةِ لا يكونُ إلَّا عن موافقةٍ واقتناعٍ.

نكتةُ إظهارِ الفاعل ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾:

صاحبُ الحقِّ واثِقٌ في أناة

أظهرَ الفاعل في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾، ولم يقل: (فتولى، فجمع كيده)؛ لاحتمال الالتباس في الفاعل عندَ الإضمارِ، أهو موسى أم فرعون؟ فصرَّحَ بفاعل التولي والكيد لدفع الالتباسِ فيه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المحِقَّ لا يتكلَّف في استعداده، ولا يُعالِج الكَيْدَ والعنَتَ؛ لأنَّ الحقَّ ظاهرٌ بأيسر سبيلٍ، لا حرج فيه، وأمَّا المبطِلُ؛ فلا يُنجِح باطلَهُ إلَّا بالكيد والمراوغة والتكلُّف في إخفاء الزَّيف لئلَّا يفتضِحَ.

دلالةُ العطفِ بالفاء في: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾:

المبطِلون كائدون

جملةُ ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾؛ للدلالةِ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 93، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 124، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 121.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 247.

التعقيب بينهما، أي: فتولّى منصرفًا، فأسرعَ في استجماع كيدِه وإعداد خُطَّتِه[1].

دلالةُ قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾:

الضعيفُ القَلِقُ مُستَخفٍ بخُطَّتِه

قولُهُ: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى التَّدبير الخفيِّ، وهو ليس دليلَ قوَّةٍ، بل هو دليلُ ضَعْفٍ، بحسب ما توجَّه سابقًا في موقع جملة: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ و﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾ ممَّا قبلها.

سرُّ اختيارِ لفظ ﴿كَيۡدَهُۥ﴾ وإسنادُهُ إلى الضَّمير:

الكيدُ يدلُّ على الحيلةِ المُحكَمَةِ

اختيارُ لفظِ الكيدِ وإسنادُهُ إلى ضمير فرعونَ يتناسبُ مع ما كان فرعونُ يحضِّرُهُ من السِّحر، فالكيدُ يدلُّ على إحكام الاحتيالِ في تحضير الخُطَّةِ، ومبدأُ السِّحر قائمٌ على التَّمويه والخداع الحاصل بالكَيْدِ.

بلاغةُ مجازِ الحذفِ:

الاتِّساعُ الدَّلاليُّ في إيجاز الحذف

يحتملُ أن يكونَ التَّركيبُ في قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾ جاريًا على حذف المضافِ، على تقدير: (فجمع أهلَ كيدِه)، وهم السَّحرةُ، ثم جاء بهم إلى الموعدِ، وهذا يؤيِّده قولُهُ تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨﴾ [الشعراء: 38][2]، ولا يخفى من تقدير الحذفِ هنا من الاتِساع في الدَّلالة بإظهار أنَّ هذا الكيدَ كان عظيمًا، فكأنَّه أخبر عن كيْدَيْن: كيْدِ فرعونَ في نفسِه، وكيدِ فرعونَ في سَحَرَتِه.

نكتةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

التراخي الزَّمنيُّ بين الموعد وإجرائه

العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾؛ للدَّلالة على التّراخي الزمني بين التحضير للفَعاليَّات وإتيان الموعد، فيستغرِق وقتًا طويلًا نسبيًّا بينهما.

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ على المهلة الحقيقيَّةِ والرُّتبيَّة:

وقوع الكيد يسبقه التحضير له

كما تدلُّ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ على التراخي الوقتي في المُهلة الزمنيَّة بين التحضير للموعدِ وإتيانه، وتدلُّ أيضًا على التراخي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 247.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 248.

الرُّتبي؛ لأَنَّ إيقاع المكيدة على الوجه المقصود سابق من خلال استجماع تراتيب المكيدة؛ ولا يظهر أثرُ ما أعدَّه إلا باستجماع تلك التراتيب الكيدية[1].

سرُّ إيثارِ الإضمارِ على الإظهار:

تحقير شأن الكائد مهما تعالى في كيده

إيثارُ الإضمارِ على الإظهار في فاعل ﴿أَتَىٰ﴾، ولم يقل: (فأتى فرعون)؛ لأغراضٍ؛ منها: الاكتفاء بإظهاره الأوَّل في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾، فكان الإضمارُ أنسبَ للإيجاز، ولوضوحه وعدم التباسه، ولاستطالة التقديرِ عند الإظهار؛ لأَنَّهُ على معنى: (فأتى فرعونُ بجندِه)، أو (أتى بأهل كيده)، وهذا إطنابٌ لا حاجة إليه، فاستُغني بالإضمارِ عنهُ.

موقعُ جملة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ ممَّا قبلَه:

مُبادرة المهمِّ بالسّوء أن يكفَّ عن ارتكابه

جملة: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأَنَّ قوله: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ يثير سؤالًا في نفس السامع أن يقول: فماذا حصلَ حين أتى فرعون ميقاتَ الموعدِ؟ فأجيب بأنَّ موسى أراد مُفاتَحة السَّحرة بالموعظة، وهو جملةُ حكاية القَوْلِ والمَقول: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾[2].

مفسِّرُ الضَّمير في قوله: ﴿لَهُم﴾:

المُقرُّ الرَّاضي كالمُباشِرِ الفاعل

الضميرُ في قوله: ﴿قَالَ لَهُم﴾ عائدٌ على السَّحرة، وهو مفهومٌ بالقرائن السّياقيَّة الماضية، وبقرينةِ أَنَّ قولَ موسى واقعٌ عند انعقاد المناظرة، فلا يتَّجهُ بالقول والخطاب إلَّا إلى نظيرِه فيها، وهم السَّحرةُ، ويحتمل أن يكونَ الضَّميرُ للحاضرين جميعًا: فرعونَ وحاشيته والسحرةِ والشَّعبِ، ويكون المرادُ موعظةَ الجميع، لئلَّا يقعَ منهم إقرارٌ على كيْدٍ أو خداعٍ يصدر عن السحرةِ؛ لأَنَّ المُقرَّ في حكم المباشِر.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 248.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 248.

التَّذكيرُ بقانونِ المناظرةِ قبلَ إيقاعِها

سرُّ تقديمِ شبه الجملة على الفاعل:

تقديمُ شبه الجملةِ على الفاعلِ في قوله: ﴿قَالَ لَهُم﴾؛ لاختصاصِهم بالقول وقصره عليهم اهتمامًا وحرصًا منه ﵇ أنْ يُفرِغَ وسعَهُ في تذكيرهم بما يجبُ عليهم في التزام أدبِ المناظرةِ من الوضوح وعدم التَّلبيس.

الأنبياءُ رُحَماءُ بخصومِهم

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ دون سواه:

التَّعبيرُ بلفظِ الويل في مُستهلِّ قوْلِه لهم يدلُّ على خطابٍ من مُستَعلٍ بالحقِّ يُشفِق على خصومه، فيتَخَشَّنُ معهم بما يقتضيه حالهُم من ظهور الزَّيغ عليهم وانتوائِهم المؤامرةَ، ومعنى ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾: هلاكٌ لكم، وهي جملة اعتراضيَّةٌ دعائيَّةٌ[1] بين القولِ ومقوله، وليس الغرضُ الدُّعاءَ عليهم ابتداءً، فإنَّهم لم يستوفوا ما يوجبُ الدُّعاء عليهم بعدُ، بل المرادُ استنباهُهم بأبلغ ما يكون من العبارةِ بما يضمنُ معهُ أن ينصتوا لموعظته وتحذيره، ولذا صدَّر به مقول القول، وهو من براعة الاستهلالِ في النصيحة، وسرُّ الإتيان بعبارة الويل - خاصَّةً - حصولُ الإغراب الذي يقرع الأسماعَ، فلا يفوِّت أحدٌ منهم الانتباهَ إلى خطابه، وإظهارُ ثقة النبوَّةِ وعزَّتها، وتعليقُ الدُّعاء بشرطه من المخالفة؛ إنْ هم افتروا وكذبوا، فالويلُ إنذارٌ بسوء العاقبة لئلَّا يقترفوا أسبابَها، وتصديرُ جملةِ النَّهي به؛ لأنَّهم على شَفا التلبُّس بما سينهاهم عنه.

إيقاعُ الإنذارِ بإشفاقٍ ومَرحمة

سرُّ إضافةِ ضميرهم إلى لفظ (الويل):

لم يقل في السياق الكريم: (ويلٌ لكم) على المبتدأ والخبر، بل أسندَ الويلَ إليهم بطريق الإضافةِ؛ لأنَّ الإضافةَ تحصلُ بأدنى ملابسة، فلا يلزم منها تحقيقُ نسبتهم إلى الويل، أمَّا (ويل لكم)؛ فهو تحقيقُ لحوقِهم بالويل، وهذا يُؤكِّد أنَّ موسى ﵇ كان قاصدًا لنصحِهم لا

(1) صافي، الجدول: 16/ 384.

للدُّعاء عليهم، فالمقامُ مقامُ إنذار بإشفاقٍ ومرحمة، وأيضًا كيف يتحقَّقُ الويل لهم، وهم ما زالوا بصددِ التَّحذير من موجِبه.

سرُّ تقديمِ شبه الجملة على المفعول:

الافتراء حرامٌ كلُّه

تقديمُ شبه الجملةِ على المفعولِ في قوله: ﴿لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ للاختصاص والاهتمام، وتعظيم اللّه سبحانه، فيتعظَّمُ الافتراءُ عليه، ولتحريم الافتراء في أصله على جميع أوجهه، سواءٌ أكان القصد منه كذبًا أم غيره، فالافتراء على اللّه أيًّا كان نوعُهُ هو منهيٌّ عنه، ولذا أُخِّرَ المفعول.

موقعُ جملة ﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾ مما قبلَه:

ارتكابُ النَّهي مؤذنٌ بترقُّب الوعيد

الفاءُ في قوله: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ﴾ سببيَّةٌ واقعةٌ في جواب طلبٍ محضٍ، وهو النَّهيُ عنِ الافتراء، فجملةُ الوعيد بالعذاب مسبَّبةٌ عن ارتكاب النهي[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل السُّحت:

الدلالة على النَّزع التامِّ والانسلاخ العام

عبَّر بفعل السُّحتِ في قوله: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ﴾؛ لأنَّ أصلَ هذه المادةِ يدلُّ على الاستقصاء والنفاد، ومنه سحتَ الحالقُ الشَّعرَ الذي استقصاه، فلم يترك منه شيئًا، ويُستعمل في الإهلاك والإذهاب[2]، فيدلُّ على الاستئصالِ وانقطاع الأثر، وهو كنايةٌ عن المبالغةِ في الإهلاك.

بلاغةُ ردِّ العجز على الصَّدر:

اجتماعُ الجناسِ والتصديرِ

في قوله: ﴿لَا تَفۡتَرُواْ﴾ مع قوله في ختام الفاصلة: ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ ما يسمّى بأسلوب التصديرِ أو ردِّ العجز على الصدر، وهو من محسِّنات البديع اللفظيَّة، ولا يخفى ما بين ﴿تَفۡتَرُواْ﴾ و﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ من جناس الاشتقاقِ.

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 206.

(2) السمين، الدر المصون: 8/ 61.

سرُّ الجمع بين الافتراء والكذب:

المفعولُ المطلق يؤكِّدُ الحدثَ والحدوثَ

الجمعُ بين الافتراءِ والكذبِ في قوله تعالى: ﴿لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ للتَّأكيد، أي: تأكيدِ الحدثِ، وهو مصدرُ الفعل، وذلك على اعتبار أنَّ ﴿كَذِبٗا﴾ مفعولٌ مطلق؛ لأنَّ الافتراءَ في معناه، كأنَّه قيل: لا تكذبوا كذبًا، ويصحُّ أن يكونَ الافتراءُ بمعنى الاختلاق والإحداث، والكذبُ مفعولٌ به، أي: لا تختلقوا، أو لا تحدِّثوا، أو تعملوا كذبًا[1].

بلاغةُ أسلوبِ التجريد في الجمع بين الافتراءِ والكذب:

الكذبُ خلاصةُ الافتراءِ

كما جرى تركيب ﴿لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ على التأكيد في الجمع بين الافتراءِ والكذبِ، فيصحُّ إجراؤه كذلك على أسلوبٍ معنويٍّ بديعٍ يسمّى التجريد، فكأنَّه جرَّد الافتراءَ من جميع ظواهره وصورِه، ثمَّ استخرج منه الكذبَ دون سائر أفراده، كأنَّ الكذبَ هو المعدِنُ والخُلاصةُ التي ينجمِعُ الافتراءُ عليها، فذكر الافتراءَ أوَّلًا، ثمَّ جرَّد الكذبَ عنه، كأنَّه غيرُهُ، رغم أنَّه هو بعينه، للتَّنبيه على المعنى الكامنِ منه، وهو الكذبُ[2].

موقعُ جملةِ: ﴿وَقَدۡ خَابَ﴾ ممَّا قبلَها:

الافتراءُ يستعجِلُ الخَيْبَةَ

جملةُ: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ في موضعِ الحال من ضمير ﴿لَا تَفۡتَرُواْ﴾، وهي مسوقةٌ مساقَ التعليل للنهي، أي: اجتنبوا الكذبَ على الله، فقد خاب مَنِ افترى عليه من قبلُ، ويصحُّ أن تكونَ الجملةُ اعتراضيَّةً مقرِّرة لمضمون ما قبلَها، ويصحُّ اعتبارها استئنافًا نحويًّا[3].

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ الافتراء:

الافتراءُ لا يأتي إلَّا بشَرٍّ

لم يحدِّد في السياق الكريم في قوله: ﴿خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ مجالَ

(1) صافي، الجدول: 16/ 384.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 377.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 25، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 250.

الافتراء ولا جهته، فلم يقل افترى في أيِّ شيءٍ أو على مَن افترى؛ لإرادة العموم، فالافتراءُ كائنًا من كان بأيِّ وجه كان، جميعُه جالِبٌ للخيبة، فكلُّ من تعمَّد كذبًا على الله أو على غيره خائبٌ، فيدخل فيه الافتراءُ المنهيُّ عنه دخولًا أوَّليًّا، أو لأنَّ المتعلِّقَ مفهوم ممَّا قبله، أي: قد خابَ فرعونُ المفتري، ومن كان على شاكلته، فلا تكونوا مثلَهُ في الخيبةِ[1]، وعليه: فالجملة خبريَّةٌ في معنى الإنشاءِ بالنَّهي عن محاكاةِ سبيل الخائبينَ المفترين، ولا يخفى ما في حذفِ المتعلِّق من مراعاةِ الفاصلةِ ألَّا تنخرمَ، وقصدِ الإيجاز.

سرُّ إيثارِ الاسم الموصول ﴿مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

كلُّ مُفْتَرٍ مؤاخَذٌ بما افترى

إيثارُ الاسم الموصول ﴿مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ لإرادة العموم، والموصول المشترك يدلُّ على حصول المؤاخذة على الافتراءِ لجميع المكلَّفين رجالًا ونساء، فكلُّ من تعمَّد الافتراءَ مؤاخَذٌ.

دلالةُ جملةِ الفاصلةِ على تزكيةِ الكليم عليه السلام:

الأنبياءُ ألزمُ الناسِ بما نصحوا به الناس

في تحذيرِ موسى عليه السلام من الافتراءِ ووعيد المفترين، إعلانٌ منه بأنَّهُ لا يتقوَّل على الله شيئًا لم يُؤمرْ بتبليغه؛ لأنَّه يعلم أنَّه يستأصلُهُ بعذابٍ، ويعلم خيبةَ مَنِ افترى على الله، ومن كان يعلم ذلك لا يقْدِم عليه[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراء والبهتان:

البهتانُ هو افتراءٌ مخصوصٌ بما يُدهش

الافتراءُ هو اختلاقُ ما لا حقيقةَ له[3]، وأصلُهُ من الإفراءِ، وهو قطعُ الشَّيءِ لغرض الإفساد[4]، فلوحِظَ في الافتراء كأنَّ المُفتري يقطعُ من عِرض غيره ليُفْسِدَهُ عليه بافترائه، أو لأنَّ الكَذِبَ فيه لمَّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 304، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 25.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 250.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرى).

وقع على غير أصلٍ وحقيقةٍ؛ صار كالجزء الفاسدِ المقطوع عن أصله، فلا إصلاحَ له، وأمَّا البهتانُ؛ فأصلُهُ يدلُّ على تحيُّرٍ واندهاش[1]، وهو كالافتراء في اختلاق الباطل وما لا أصل له، إلَّا أنَّ البهتانَ أخصُّ، فهو الافتراءُ الباطل الذي يُتَحَيَّر من بطلانه، وهو الاختلاقُ الذي يسبِّبُ ذلك الأثرَ من الاندهاش؛ لزيادة الفُحش فيه[2]، وعليه فالبهتانُ: افتراءٌ مخصوصٌ بما يُدهش.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بهت).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بهت).

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢﴾ [طه: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

السِّرِّيَّةُ عند النِّزاعِ تصونُ العلائقَ وتُمهِّدُ لِلوِفاقِ والودِّ

بعد أن أخبرَ في الآية السابقة عن مقالِ موسى ونُصحِه لهم في افتتاحيَّة الحَدَثِ أمام الحشود الحاضرة؛ ذكَر في هذه الآية ما ترتَّب على ذلك من التنازع السِّرّيِّ الحاصل بين فريق السَّحرة؛ ليستخرجوا بيانًا يُعلِنوا فيه موقفَهم قبل بدءِ المناظرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾: أَصْلُ الكلمة مِنَ النَّزْعِ، وهو: القَلْعُ والجَذْبُ، يُقالُ: نَزَعَ الشَّيْءَ مِن مَكانِه؛ إذا قَلَعَهُ، وجَذَبَهُ، وضِدُّه: التَّوافُقُ والاتِّحادُ[1]، والتَّنازُعُ: الاخْتِلافُ والتَّخاصُمُ، يُقال: تَنازَعَ القَوْمُ، أيْ: تخاصَموا، واخْتَلَفوا، ويأتي بمعنى التَّجاذُبِ والتَّدافُعِ، والمُنازَعَةُ في الخُصومَةِ: مُجاذَبَةُ الحُجَجِ ومُدافَعَتُها بين الخَصْمَيْنِ[2]، ومِن مَعاني التَّنازُعِ أيضًا: التَّسارُعُ، والتَّسابُقُ[3]، والمُرادُ بالتَّنازُعِ في الآية: التَّخالُفُ[4].

2) ﴿وَأَسَرُّواْ﴾: (سرّ) أَصْلٌ يدلُّ على إِخْفاءِ الشَّيْءِ، وما كانَ مِنْ خالِصِه ومُسْتَقَرِّه، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهُ عن هَذا[5]، فالسِّرُّ: ما يُكْتَمُ في النَّفْسِ، يُقالُ: أَسَرَّ الشَّيْءَ، أيْ: أخفاهُ، وكَتَمَهُ، وضِدُّهُ: الإِعْلانُ، ويُستَعْمَلُ في الأعيانِ والمَعاني، يُقال: أَسْرَرْتُ إِلَيْه كَلامًا، أيْ: أَخْبَرْتُهُ به خُفْيَةً، وسِرُّ كُلِّ شَيْءٍ: جَوْفُهُ وداخِلُهُ، والجَمْعُ: أَسْرارٌ وسَرائِرُ[6]، والمُرادُ بالإسرارِ في الآية: إِخْفاءُ الكَلامِ عن أَنْ يَسْمَعَهُ سامِعٌ.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 251.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرَّ).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجواهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).

3) ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾: (نجو) أَصْلٌ يَدُلُّ على سَتْرٍ وإِخْفاءٍ، فالنَّجْوُ والنَّجْوى: السِّرُّ بَيْنَ اثْنَيْن، وقيل: أصلُهُ مِنَ النَّجاةِ، وهو أن تَنْجو بسرِّك مِنْ أنْ يطَّلع عَليك، وناجَيْتُهُ، وتَناجَوا، وانْتَجَوا، وهو نَجِيُّ فُلانٍ، وانْتَجَيْتُهُ: اخْتَصَصْتُهُ بمُناجاتي، والنَّجيُّ: المُناجي، ويُقالُ للواحِدِ والجَمعِ، قال تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: 52][1]، والمقصود بالنَّجوى في الآية: الحَديثُ السِّرّيُّ، أي: اخْتَلَوا، وتَحادَثوا سِرًّا ليَصْدُرُوا عن رَأْيٍ لا يَطَّلِعُ عليه غَيْرُهُم[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

كَلِمةُ الحَقِّ تؤثِّر إذا صدرت من إنسانٍ مُخلِصٍ

بعد أن سمع السحرةُ من موسى نصيحتَهُ لهم وتهديدَهُ إيَّاهم بالاستئصالِ والهلاك؛ اختلَفوا، وتجاذَبوا الحديثَ سِرًّا فيما بينَهم، وبالَغوا في إخفائِه مِن فِرعَونَ، وقالوا: إن كان ما جاء به سحرًا، فسنغلِبُهُ، وإن كان من عند اللّه؛ فسيكون له أمرٌ، وهذا حقٌّ وصدقٌ لا شيءَ فيه.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ ممَّا قبله:

النِّزاع ينشأُ من ضعفِ الرَّأي الذي عليه الجماعةُ

الفاءُ في جملة ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ في معنى السببيَّةِ، لتفريعِ تنازعِهم على مقالة موسى بالترهيب في قوله: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ﴾، أي: بسبب ذلك القولِ الرَّهيب الذي أرهبَهم؛ تنازعوا أمرهم، أي: تجادلوا مختلفين غير متَّفقين[3].

مرجعُ الضمير في: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾:

الضَّميرُ في قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ الظاهر عوْدُهُ على السَّحرة[4]؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نجو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 251.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4745.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 377.

لأنَّهم المعنيّون الأوَلُ بمقالة موسى في ترهيبهم بالويل والنَّهي، ويكون معنى تنازعِهم: انقسامَهم حول موسى عليه السلام بعدما قال ما قال، فمنهم يقول: إنَّهُ محقٌّ، ومنهم من يقول: إنَّهُ مبطلٌ، ومنهم من يقول: نؤمنُ به إن ظهرَ أَنَّهُ غيرُ ساحرٍ، والخلاصةُ: أنَّهم اختلفوا حول موقفهم من موسى وما يكون منه في مجريات المناظرةِ بما تقتضيه العادةُ في إثارة المناظراتِ أثناء انعقادِها للموضوعات التي تُبعثُ بالمناقشة والمجاذبةِ بين صفوف الفريق الواحد، مثلما نراه في تحلُّقِ كلِّ فريقٍ حول مدرِّبه ومديره قبل التلبُّس بالجولةِ والمنافسةِ، ويجوز أن يعودَ الضَّمير على منظّمي الحدَث، وهم فرعونُ والملأ[1]، ومعنى تنازعِهم: اضطرابُهم في الحوار والنَّظر بعد مقولة موسى التي افتتح بها اللقاءَ، ويصحُّ أن يدخلَ معهم في الضمير السَّحرة، فإنَّه لا يخلو أن يكون مُمثِّلًا عنهم بمجلس فرعون وحاشيته أثناء التنازع.

إظهارُ الحقيقةِ مؤذنٌ بقلقلةِ مراكزِ الباطل

مرجعُ الضَّميرِ في: ﴿أَمْرَهُم﴾:

الضَّميرُ في قوله: ﴿أَمْرَهُم﴾ الظاهرُ عَوْدُهُ على السَّحرة، أي: أمرُ أنفسِهم فيما هم بصدده، ويمكنُ أن يعودَ الضَّميرُ على فرعونَ وملَئِه، ولا مانع حينئذٍ في دخول السَّحرةِ معهم.

أهلُ الباطلِ يتآمرونَ مِن أجلِ إنفاذِ باطلهم

معنى الإضافةِ في: ﴿أَمْرَهُم﴾:

إضافةُ الأمرِ إلى ضمير السَّحرةِ من شأنه أن يكشفَ مدى انشغالهم به، وأنَّه استولى على تفكيرِهم ووسعهم حتّى بات مُضافًا إليهم، كأنَّهُ مختصٌّ بهم.

تنازُعُ السَّحرة في أمرِ موسى عليه السلام يكشفُ خوفَهم منه

تفكيكُ الضَّمائر السائغ في التَّركيب:

يصحُّ إجراءُ تفكيك الضمائرِ بتباينها في مَرجِعها في الآية، لعدم إخلاله بالنَّظم والمعنى، فالضَّمير في قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ يعود

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 377.

تباينُ الضمائرِ في مُفسِّرِها سائغٌ عند صلاحية المعنى

على السَّحرة، وأمَّا الضمير في: ﴿أَمْرَهُم﴾، فيصحُّ عوْدُهُ على موسى وهارون، على أنَّ أقلَّ الجمعِ اثنان، أو على التعظيم، أي: فتنازعَ السَّحرةُ أمرَ موسى وما ظهر منه، أي: اختلفوا في تقييمه ووجهة النَّظرِ حوله، وبذلك ينفكُّ الضميران في اللَّفظين في مَرجِعهما، وهو تفكيكٌ وتفريقٌ سائغ لصلاحيَّته في المعنى[1].

الكنايةُ في التَّعبيرِ بالتنازع:

التنازعُ المُفضي إلى الاتِّفاق محمودٌ

التَّعبيرُ بالتنازع في قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ كنايةٌ عن لازِمِه من الانقسام والاختلاف وعدم الاتِّفاق، ولا يلزم منه أنَّهم ظلّوا متنازعين، بل ابتدؤوا النِّقاش كذلك، وإن آلَ أمرُهم إلى غيره.

الاستعارة التمثيليَّة في: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾:

التنازعُ اجتذابُ الرأي على إرادة الاستئثارِ به

في قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، بتشبيه حالهم في اختلاف الرأي ومحاولةِ كلِّ صاحبِ رأيٍ أن يقنع المخالفُ له بأنَّ رأيَهُ هو الصّواب، بهيئة من يجذِبُ الثوب عن جسد غيره يريدُ أن ينزِعَهُ عنه، فكذلك المتنازِعُ يريد أنْ ينزِعَ الرأي عن صاحبه، ليُقنِعَهُ برأيه، والتنازُعُ مُفاعلَةٌ تدلُّ على المشاركة والمُطاوعة[2].

دلالةُ الظرفيَّة في: ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

السِّرارُ لا ينفكُّ عن البينيَّةِ الخاصَّة

التَّعبيرُ بالظَّرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يدلُّ على عموم التفاعل والتداوليَّة في محلِّ النِّزاع، لكن في حيِّز الطائفة الخاصَّةِ المتنازِعة لا يشترك معهم فيها غيرهم[3]، فالعموم لكلِّ أفرادِ الخاص، لا لكلِّ أفرادِ الحاضرين، وعلى إحاطتهم له وتحلُّقهم حوله، بما يمهِّد لمعنى السريَّة في الحوار، ويُشعِر به.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 377.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 251.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 251.

موقعُ جملةِ: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ ممَّا قبلَها:

التنازُعُ الخفيُّ أملَكُ للتسوية والحسم من النزاع المُعلَنِ

جملةُ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم جمعوا بين حال التنازع وحال الخفاءِ، فتنازُعُهم محكومٌ بالسريَّة.

دلالةُ الجمعِ بين الإسرار والنَّجوى:

الكتمانُ يعصِمُ من مُضاعفة المخاطِرِ

الجمعُ بين الإسرار والنَّجوى بجعلِ النَّجوى معمولًا لـ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ يفيدُ المبالغةَ في الكتمان، كأنَّه قيل: أسرّوا سرَّهم؛ لأنَّ المناجاةَ ذاتها إسرارٌ، ومعنى إسرارها: المبالغةُ فيها بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يطَّلع عليهم، ولا يعرف ما أسرّوه[1].

المجازُ المرسلُ في: ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾:

النَّجوى كلامٌ سريٌّ

يصحُّ أنْ يكونَ المرادُ بالنّجوى مطلقَ الكلام[2]، فأطلق الخاصَّ، وأراد العام على طريقة المجازِ المرسلِ، علاقتُهُ الخصوصُ، والأصلُ الحملُ على الحقيقة، لكن ساغَ هنا المجازُ لقرينة إسنادِ الإسرار إلى نفْسِ معناه، فمن تصوَّرَ فيه تحصيلَ الحاصل؛ قالَ بالمجاز.

دلالةُ ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ بين الاسميَّة والمصدريَّة:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بين المصدر واسمه

يصحُّ أن يكونَ لفظُ ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ مصدرًا، فالمرادُ به الحدثُ، وهو المعنى المجرَّدُ الذي أظهره، وأبانه فِعلُ المُناجي بالإسرار، ويصحُّ أن يكونَ اسمَ مصدرٍ، وهو مادَّةُ الحوار التي أسرّوها، فهو اسمٌ لِما أسرّوه، والمعنى على المصدر لتأكيدِ الحدثِ، كأنَّه قيل: (أسرّوا إسرارًا)، والمعنى على اسم المصدر: المبالغةُ في كتمان الشَّيءِ الَّذي أسَرّوه (سِرّهم)[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 251، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4745.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 164.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 377.

السّواءُ النّفْسي يميلُ بالمرء إلى حسنِ القصدِ والاختيار

الكنايةُ في تركيبِ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾:

قولهُ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ كنايةٌ عن رغبتِهم في التَّحرّي والاتِّفاق بعد تردُّدهم وتنازُعهم، وهو إشارةٌ إلى أنَّ فيهم خيرًا وأهليَّةً تميلُ بهم إلى حسنِ الاختيار وقصد المعروف(1).

إسرارُ النَّجوى عن موسى عليه السلام

حذْفُ متعلّقِ الإسرارِ:

في قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ حَذَفَ النَّظمُ القرآنيُّ المتعلِّقَ، فلم يحدِّدْ أسرّوا النجوى في أيِّ شيءٍ؟ أو أسرّوا النجوى عن مَن؟ لإرادة الإطلاقِ، لصلاحيَّتِه في أكثر من تقديرٍ، فإذا كان الإسرار من السَّحرةِ - وهو الظَّاهر - فقد أسرّوا عن موسى عليه السلام لأنَّه خصمٌ لهم، فأوَّلُ ما يقع كتمانُهم عنه، ثمَّ يُحتمل أن يقع إسرارُهم عن فرعون أيضًا؛ لئلَّا يطَّلع على اختلافِهم المؤذنِ بتردُّدهم في حال موسى، فيقع الإضرارُ بهم منه، وفيه: أنَّهم كانوا في رهبةٍ من فرعونَ، وحيرةٍ من موسى، ولذا أسرّوا عنه عليه السلام وعن فرعونَ على الاحتمال، والمقطوع به إسرارُهم عن موسى لموقعه في المناظرة، وإسرارهم عن فرعون محتمَلٌ؛ لأنَّهم في محلِّ الرصد، ولا يخلو فريقُهم من وجود مُمَثِّلٍ عنهم هو عَيْنٌ فرعون فيهم، يُطلِعُهُ على كلِّ تفصيلٍ؛ لخطورة الحدَث وجَلَله، فلا يفوت الملك شيءٌ منه، وإذا كان الضَّمير لفرعون وقومه، فإسرارُ النَّجوى كان عن موسى عليه السلام على القطع، وكان عن السَّحرةِ على الاحتمال للعلَّة السابقة، والله أعلم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإخفاءُ في الأعيان والمعاني، ويَغْلُبُ الإسرارُ في المعاني

الإسرار والإخفاء:

الإسرارُ هو إنزالُ الشَّيء منزلةَ السِّرِّ، والسِّرُّ: هو إخفاء الشَّيءِ في النَّفْس، ويُقال: في هذا الكلام سِرٌّ، تشبيهًا له بما يُستودَعُ في

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9306.

النَّفْس، ولذا غلبَ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فلا يُقال: أسررتُ تحتَ الثيابِ قطعةَ خُبْزٍ، بل يقال: أخفيتُ، والإخفاءُ: هو سَتْرُ الشَّيءِ عن الحواسِّ، فلا يُرى، ولا يُسمَع، وكما يُستعمل في الأعيان يُستعمل في المعاني؛ ولذا أسندَ إلى الصُّدورِ، كقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]، واستُعمِل في عموم كلِّ مَخْفيٍّ، كقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: 1]، فالإخفاءُ أعمُّ من الإسرار[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 447 - 533، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خفى، سرر).

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: 63 - 64]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

يُبتَلى المرءُ بعداوة مَنْ أرضاه بسخط الله

لَمَّا ذكر في الآية السابقة تنازعَهم وإسرارهم حول ما أرادوا إعلانَهُ والجهرَ به؛ بيَّن في هذه الآية خطابَهم وكَلِمَتَهم التي أعلنوها أمام الجمهور، وفيها تسجيلٌ لموقفهم ضدَّ موسى وهارون عليهما السلام، فجاء تصريحًا قادحًا أرادوا به كسْبَ موقفٍ بالزور والبهتان أمام فرعونَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾: (سحر) أَصْلٌ يَدُلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه[1]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عن حَقيقَتِه إلى غَيْرِه، فكأَنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أَرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عن وجْهه، أَي: صَرَفَهُ[2]، تَقول العَرَبُ للرَّجُل: ما سَحَرَكَ عَن وجْه كَذا وكَذا؟ أَي: ما صَرَفَك عَنهُ[3]، والسِّحْرُ: تَخْييلُ ما لَيْسَ بكائِنٍ كائنًا، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْم سَحَرَةٍ، والسَّاحرُ: العالِمُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: 49]، يعني: العالم الفَهِم، وسَحَرَهُ أيضًا، بمعنى: خَدَعَهُ، وكذلك؛ إذا عَلَّلَهُ[4]، والمقصود بالسَّاحِرِ في الآية: فاعِلُ السِّحْرِ.

2) ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾: أصلُ الطَّريقِ: السَّبيلُ الَّذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).

أي: يُضربُ، وعنه استُعير كلُّ مسلك يسلكه الإنسانُ في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا[1]، والطَّرِيْقَةُ: الحالُ، ومن خُلُقِ الانسانِ: لَيِّنٌ وانْقيادٌ، وإنَّ في طَرِيْقَتِه لَعِنْداوةً، أي: في لِيْنِه بَعْضُ العُسْرِ، ويُقال: طِرِيْقَةٌ أيضًا، والطَّرِيْقَةُ: أماثِلُ القَوْم، هؤلاء طَرِيْقَةُ قَوْمِهم، والجميع طَرائِقُ[2]، والمُرادُ بالطريقة في الآية: السُّنَّةُ والعادَةُ شُبِّهَتْ بالطَّريقِ الَّذي يَسيرُ فيه السَّائر، بجامِعِ المُلازَمَة[3]، وقيل المعنى: (بجَماعتِكم الأشراف)، فإنَّ الطريقةَ اسمٌ للأفاضِلِ على معنى: أنَّهم الَّذين يُقتَدى بهم، ويُتَّبَعُ آثارُهم[4]، والأوَّل أولَى، واللّه أعلم.

3) ﴿ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾: (مثل) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وهذا مِثْلُ هذا، أَي: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعْنًى واحِدٍ[5]، والمُثْلَى: مُؤَنَّثُ الأَمْثَلِ، وهو اسْمُ تَفْضيلٍ مُشْتَقٌّ مِنَ المَثالَةِ، وهيَ حُسْنُ الحالَةِ، يُقالُ: فُلانٌ أمثَلُ قَوْمِه، أَيْ: أَقْرَبُهُم إِلَى الخَيْرِ، وأَحْسَنُهُم حالًا[6]، وهَؤُلاءِ أَماثِلُ القَوْمِ، أَيْ: خيارُهُم[7]، والمُراد بالمثلَى بالآية: تأنيثُ الأمثلِ، وهو الأفضلُ.

4) ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾: (جمع) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَضامِّ الشَّيْءِ، يُقالُ: جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمعًا[8]، وأَجْمَعْتُ على الأَمرِ إِجْماعًا وأَجْمَعْتُه، والإِجماعُ الإِحْكام والعَزِيمَةُ على الشَّيْءِ، تَقولُ: أَجمعت الخُروجَ، وأَجمعت على الخُروجِ، والإِجْماعُ أيضًا: إِحكامُ النِّيَّةِ والعَزِيمة، أَجْمَعْتُ الرأْيَ، وأَزْمَعْتُه، وعزَمتُ عليْه بمَعْنًى[9]، والمرادُ بقوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾ في الآية: أَمرٌ مِنْ: أَجْمَعَ أَمرَهُ؛ إذا جَعلَهُ مُتَّفَقًا عليْه لا يُخْتَلَفُ فيه[10].

5) ﴿كَيۡدَكُمۡ﴾: (كيد) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، قالَ أهلُ اللُّغَةِ: الكَيْدُ: المُعالَجَةُ، قالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ؛ فأَنْتَ تَكيدُهُ[11]، هذا هو الأَصْلُ في البابِ، ثُمَّ يُسَمّونَ المَكْرَ كَيْدًا، قال اللّه تعالَى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ [الطور: 42]، ويَقولونَ: هو يَكيدُ بنَفْسِه، أَي:

(1) الراغب، المفردات: (طرق).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح: (طرق).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن: 280، والواحدي، البسيط: 14/ 450، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 220.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).

يَجودُ بها، كأنَّهُ يُعالِجُها لتخْرُجَ، والكَيْدُ: صياحُ الغُرابِ بجَهْدٍ[1]، والكَيْدُ: أَنْ يُخْرِجَ الزَّنْدُ النَّارَ ببُطْءٍ وشِدَّةٍ، والكَيْدُ: القَيْءُ، ورُبَّما سَمَّوُا الحَيْضَ كَيْدًا، والكَيْدُ: الحَرْبُ، يقالُ: خَرَجوا، ولم يَلْقَوا كَيْدًا، أَيْ: حَرْبًا[2]، والمقصودُ بالكَيْدِ في الآية: إخفاءُ عَمَلٍ يَضُرُّ المَكيدَ.

6) ﴿أَفْلَحَ﴾: (فلح) أَصْلٌ يَدُلُّ على فَوْزٍ وبَقاءٍ، الفَلاحُ: الفوز والنَّجاة والبَقاء، والسَّحورُ قالوا: سُمِّيَ فلاحًا؛ لِأَنَّ الإِنْسانَ تَبْقَى مَعَهُ قوَّتُهُ على الصَّوْمِ، يقول الرَّجُل لامرأته: اسْتَفْلِحي بأمرِك، أي: فوزي بأمرك[3]، والفَلاحُ أيضًا: النَّجاحُ بحُصولِ المَطْلوبِ، والخَيْبَةُ ضِدُّهُ، يُقال: أَفْلَحَ وأنجحَ؛ إذا أَدْرَكَ مَطْلوبَهُ، ومِنْهُ حَيَّ على الفلاح[4]، والمقصودُ بالفَلاحِ في الآيةِ: الظَّفَرُ بالمَطْلوبِ مِنْ عَمَلِ العامِلِ.

7) ﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾: (علو) أَصْلٌ يَدُلُّ على السُّموِّ والارْتِفاعِ، لا يَشِذُّ عنهُ شَيْءٌ[5]، قال الخليلُ: "أَصْلُ هَذا البِناءِ العُلُوُّ، فأمَّا العَلاءُ؛ فالرِّفْعَةُ، وأَمَّا العُلُوُّ؛ فالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، يَقولونَ: عَلا المَلِكُ في الأَرْضِ عُلُوًّا كَبيرًا، قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 4]، ويَقولونَ: رَجُلٌ عالي الكَعْبِ، أَيْ: شَريفٌ"[6]، العُلُوُّ: ضِدُّ السُّفْلِ، والعُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ المنسوبُ إليهما، والأَعْلى: الأشرفُ والأفضلُ، والاسْتِعْلاءُ في الآية: قد يكون طلبَ العلوِّ المذموم، وقد يكون طلبَ العلاءِ، أي: الرِّفعة، والوجهان مُحتَمَلانِ[7]، فقوله: ﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾ مُبالَغَةٌ في: عَلا، أَيْ: عَلا صاحِبَهُ، وقَهَرَهُ، فالسِّينُ والتَّاءُ لِلتَّأْكيدِ[8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قالَ السَّحرةُ: ما موسى وهارونُ إلَّا ساحرانِ، يريدان أن يُخرِجاكم مِن وطَنِكم؛ أرضِ مِصرَ، بالاستيلاءِ عليها بسِحرِهما الَّذي أظهراهُ، ويَذْهبا بدينِكم وشريعتِكم ومذهبِكم الَّذي هو أفضلُ المذاهبِ، بإظهارِ مذهبِهما، وإعلاءِ دينِهما، قال السَّحَرةُ بعضُهم لبعضٍ:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كيد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كيد).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(6) الخليل، العين: (علو).
(7) الراغب، المفردات: (علا).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 257.

فاجتَهدوا في إحكامِ سحرِكم، واعزِموا كُلُّكم على كيدِ موسى، ثمَّ احضُروا مُجتَمِعينَ في صَفٍّ، فقد فاز اليومَ بمَطلوبِه مَنْ غلَبَ خَصْمَهُ، وقَهَرَهُ[1].

أتباعُ الظَّلَمَةِ والباطِلِ لن يتوقَّفوا أبدًا عن تشويه الحقِّ وأهله

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾ على الاستئناف البيانيِّ:

شبهُ كمالِ الاتِّصالِ بين السؤال والجواب

جملةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، جاءت جوابًا على سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه سأل سائل: فما نتيجةُ التَّنازع وخلاصة ما استقرَّت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور؟ فأجيبَ بما قالوه للناس بعد تمام التَّنازُعِ[2]، والاستئنافُ البيانيُّ من دواعي الفصلِ لِشبه كمال الاتصال، وقد يكونُ الفصلُ لكمال الاتِّصال كما سيأتي.

موقعُ جملة: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾ على البدليَّةِ:

إسرارُ النَّجوى مقولاتٌ خاصَّةٌ يضرُّ تداولها العلنيُّ بأغراض الفوز

جملةُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملة ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، والبدليَّةُ موجبةٌ للفصل، وهو من كمالِ الاتِّصال، ووجْهُ البدليَّةِ: أنَّ إسرارَ النَّجوى يشتمل على أقوالٍ كثيرةٍ ذُكِرَ منها هذا القولُ؛ لأنَّه القولُ الفصْلُ بينهم والرأي الذي خلصوا إليه، فهو زُبْدةُ مَخيَّضِ النَّجوى، وذلك شأنُ التشاور وتنازُعِ الآراء أن يسْفِرَ عن رأيٍ يصدر الجميعُ عنه[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾:

القراءات المتواترة الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾[4]:

أوَّلًا: ﴿إِنَّ هَٰذَيۡنِ﴾ بتشديد ﴿إِنَّ﴾ ونصبِ ﴿هَٰذَيۡنِ﴾ وهي قراءة أبي عمرو، وجاءت جريًا على الأصل، ويجب نصبُهُ (هذين) بالياء؛

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 106، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 32، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 508.

(2) الآلوسي، روح المعاني: (8/ 532).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 251.

(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 321.

لأنَّهُ مثنًّى، و﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرُها مرفوعٌ بالألف. وتوضع الياء ملحقةً في الضبط، وتكون القراءة موافقة للرسم العثماني تقديرًا.

ثانيًا: ﴿إِنْ﴾ بالتخفيف، ﴿هَٰذَٰنِ﴾ بالألف، وهي قراءة ابن كثير[1]: وحفص، وتوجيهها: أنَّ الأصل (إنَّ هذين)، فخُفِّفت (إن) بحذف النّون الثانيةِ، وأُهملت، كما هو الأكثر فيها؛ إذا خُفِّفت، وارتفع ما بعدها بالابتداء والخبر، كقولهم: (إنَّ زيدًا قائمٌ)، فإذا خُفِّفت؛ فالأفصحُ أن يقال: (إنْ زيدٌ لقائمٌ) على الابتداء والخبرِ، واللام الفارقة بين (إن) المخفَّفة والنافية.

ثالثًا: ﴿إِنَّ﴾ بالتشديد، و﴿هَٰذَٰنِ﴾ بالألف، على خلاف الأصل اللغوي المعهود وهي قراءة الباقين؛ لأنَّ ﴿إِنَّ﴾ الثقيلة يجب إعمالُها، فكان الظاهرُ نصبَ ﴿هَٰذَٰنِ﴾، فتكون (هَذَيْن) بالياء، كما في القراءة الأولى، والجواب عنه من وجوه:

الأول: أنَّ ذلك جرى على لغةِ مَن يستعمل المثنّى بالألفِ دائمًا، كلغة بَلْحارِث بن كعب، وخَثْعَم، وزَبيد، وكِنانة.

الثاني: أنّ ﴿إِنَّ﴾ حرفُ جواب، بمعنى (نعَم)، و(إنَّ) التي بمعنى (نَعَم) لا تعمل شيئًا، كما أنَّ (نَعَم) كذلك، وعليه: فـ﴿هَٰذَٰنِ﴾ مبتدأٌ مرفوع بالألف، و﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: لَهُما ساحران، والجملةُ (من المحذوف وخبره) خبرُ ﴿هَٰذَٰنِ﴾، ولا يكون ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرُ ﴿هَٰذَٰنِ﴾؛ لأنَّ لامَ الابتداء لا تدخل على خبرِ المبتدأ.

الثالث: أنَّ الأصلَ: (إنَّه هذان لَهُما ساحران)، فالهاء ضمير الشأن، وما بعدها مبتدأ وخبر، والجملة في موضع رفْعٍ على أنَّها خبرُ ﴿إِنَّ﴾، ثم حُذف المبتدأ، وهو كثيرٌ، وحُذِف ضمير الشأن.

الرابع: أنَّه لمَّا ثُنّي (هذا) اجتمع ألفان - ألف (هذا) وألف التثنية - فوجب حذْفُ واحدةٍ منهما لالتقاء ساكنين، فمن قدَّر المحذوفةَ ألفَ (هذا)، والباقيةَ ألفَ التثنية؛ قلَبَها في الجر والنصب ياءً، ومن قدَّر العكس؛ لم يغيِّر الألف عن لفظها.

الخامس: لمَّا كان الإعرابُ لا يظهر في الواحد - وهو (هذا) - جُعِل كذلك في التثنية،

(1) وله تشديد النون في (هذان)، يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 321.

ليكون المثنّى كالمفردِ؛ لأنَّه فرَّع عليه، فعاد قوله: ﴿هَٰذَٰنِ﴾ لأصل مفرده على البناء، على القول ببناء المثنى؛ إذا كان مفردُهُ مبنيًّا[1].

فجمعت القراءات هنا بين درجات التوكيد في الجملة. وهي تظهر الحالة النفسية التي كان عليها فرعون وقومه لتنفير الناس من موسى وأخيه عليهما السلام، ويعكس صورة من صور التّردّد عند الاتهام.

نكتةُ إسنادِ القولِ لضمير الجمع:

المُصادِقُ على القول كالقائل له

إسنادُ القول إلى ضمير الجمعِ في قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ يدلُّ على صدوره منهم باللَّفظ نُطقًا أو بالإقرار مُصادَقةً، للانتهاء إلى القناعة الجماعيَّة، بأنَّ النَّبيَّيْنِ ساحران، والجمع على المعنى الأوَّل حقيقةٌ، وعلى الثاني مجاز.

ومجيء فعل القول ماضيًا يدلُّ على أنَّ ما في حيّزه من مَقول صادرٌ بعد اتّهام معدّ سلفًا.

دلالةُ استهلالِ القولِ بـ﴿إِنْ﴾:

السِّحرُ لا يخرقُ العاداتِ

افتتاحُ مَقولِ القولِ بـ﴿إِنْ﴾ تأكيدٌ من السَّحرة كونَ موسى وهارون ساحرين؛ لتحقيقِ ذلك عند من يخامِره الشَّكُّ في صحَّة دعوتهما، وجعل ما أظهره موسى من المعجزة بين يدي فرعون سحرًا؛ لأنَّهم يطلقون السِّحرَ عندهم على خوارقِ العادات[2].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم﴾:

التَّعبيرُ بالفعل المضارع يدلُّ على تجدُّدِ الفعل عند تجدُّد دواعيه

الجملةُ في محلِّ رفعٍ صفةٌ لـ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾، والتَّعبيرُ بالفعل المضارع يدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، فضلًا عن دلالته على استحضار الصّورة، والمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُخۡرِجَاكُم﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به لـ﴿يُرِيدَانِ﴾.

(1) ابن هشام، شرح شذور الذهب، ص: 79.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 254.

التقليدُ آفةٌ في عقل المُقلِّدِ وإرادته

بلاغةُ المُحاكاةِ في الاتِّهام:

قولُهم: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ تَبِعوا فيه مقالةَ فرعون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾[1]، وفيه إشارةٌ إلى ذمِّ التقليدِ من غير برهانٍ، وفيه التَّعريضُ بنقص عقولهم؛ لأنَّ المجاراةَ والتقليد على هذا النحو تُهَمَةٌ للمقلِّد في عقله، فكأنَّ اتِّهامهم لموسى - على غرار اتِّهام فرعونَ له - عاد عليهم بالتُّهمة والازدراء لهم.

تحتملُ (من) أن تكونَ للابتداء أو للبيان

معنى ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾:

﴿مِّنْ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ، بمعنى: أنَّ إخراجَهم لكم يبدأ بإخراجِكم من أرضِكم، وقد تكون ﴿مِّنْ﴾ للبيان؛ على معنى: أنَّهُ سيخرجُكم مِن دينِكم، ومن أرضِكم، ومن عاداتِكم... ولا عِبرة بما يُقال: إنَّها تأتي مُرادفةً لـ(في) بمعنى (في أرضكم)، أو مرادفة لـ(عن) بمعنى (عن أرضكم)؛ فإنَّه لا تناوبَ بين هذه الحروف على الصَّحيح.

تلبيسُ الحقِّ لإرادةِ الباطل

نكتةُ ورودِ شبه الجملة: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾:

شبهُ الجملةِ ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ متعلِّقةٌ بالإخراج في قوله: ﴿يُخْرِجَاكُم﴾، ووجهُ التعليقِ بها: التَّنويهُ بأهمّيَّة الارتباطِ بالوطن، كعنصرٍ من عناصر الهويَّةِ، وعامل من عوامل الشَّخصيَّةِ، فإنَّ الإجبارَ على مفارقةِ الأرض، كتفريق الأرواحِ عن أبدانِها بالقتل.

معنى الباءِ في: ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ للسببيَّة أو الاستعانة أو للملابسة، وقد سبق بيانُ مثلها في قوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾.

تأليبُ العداوات على المُصلحين بخلْقِ الإشاعات وترويجِها

موقعُ جملة: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ ممَّا قبله:

جملة: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ داخلةٌ في حيِّز القولِ،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 350.

معطوفةٌ على ما قبلَها[1]، وهي تمامُ الزّور والفجورِ الذي شَهدوا به على موسى وهارون عليهما السلام وأَوْغَروا به صدورَ الحاضرين عليهما.

دلالةُ تعديةِ الفعلِ بحرف الجرِّ:

التعديةُ بالباءِ أبلغُ من التعديةِ بالهمزة

لم يَقُلْ في السياق الكريم: (ويُذهبا طريقتَكم) ببناءِ الفعل لغير المعلوم، وتعديتِه بنفسه للمفعول، بل عدَّاه بالباء، وبناءُ الفعل للمعلوم ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ لتقوية التعدية[2]، ليدلَّ على الاستصحاب والإمساك، ذلك أنَّ التعديةَ بالباء أبلغُ من التعديةِ بالهمزةِ؛ لأنَّ الأولى تقتضي مشاركةَ الفاعلِ للمفعول في الفعل، فأصلُ ذهبَ به: أنَّه استصحبَهُ، كما يقال: ذهبَ السلطانُ بمالِه، وأذهبَ السلطانُ مالَهُ، فالأولى تقتضي أنَّهُ أمسكَ المالَ عنده، وذهبَ هو كذلك معه، والثانية لا تقتضي اصطحابًا، بل ربَّما أخرج المالَ عن حوزته بعيدًا عنه، حتى لو انتزعه من غيره، فقولُه: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ فيه إشارةٌ إلى كمال استحواذِ موسى عليهم وعلى مُلْكِ فرعونَ وسلطانه، حتى يتمكَّنَ تمامَ التَّمكُّنِ من تبديد دينِهم ومحْقِ هويَّتهم، فالتركيبُ مشتملٌ على الكناية كذلك[3].

مجازُ الحذفِ:

المجازُ العقليُّ في حذف المضاف

في قوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ مجازٌ بحذف المضاف، والتقدير: (ويذهبا بأهل طريقتكم)، فنسب إلى المضاف إليه ما كان منسوبًا إلى المضاف، وهو من أبواب المجازِ العقلي، والمرادُ بأهل الطريقة: العمومُ، فيدخلُ فيه الأتباعُ، وهم شعبُ بني إسرائيلَ، والمتبوعون أربابُ المناصب وأصحابُ التصرُّف والمراتب، وهم فرعونُ والملأُ[4].

---

(1) صافي، الجدول: 16/ 386.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4747.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 450، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 71، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 536.

الاستعارةُ في لفظ: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾:

المذاهبُ قائمةٌ بأصحابها

معنى ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾، أي: بالأشراف ذوي الوجاهة القائمينَ على المذهبِ الحافظينَ للدّين، وتسميةُ هؤلاء بالطريقةِ استعارةٌ تصريحيَّة لاتِّباعهم، كما يُتَّبَع الطريقُ بجامع السُّلوك والاحتذاء في كلٍّ[1].

الاستعارةُ في التعبير بالطريقة:

العاداتُ مُلتَزَمةٌ

الطريقةُ هي السنَّةُ والعادةُ، شُبِّهت بالطريق الذي يسير فيه السائرُ؛ لجامع الملازمة، ثمَّ أُطْلِقتْ على كلِّ ما يُلزَم، ويُتَّبع كالمذهب والدين؛ لأنَّه مُلتَزَمٌ كالعادة[2].

بلاغةُ الوصفِ لتحريضهم:

التَّحريضُ على المصلحين بالزّور والإفك

في قوله: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ وصفَ الطريقةَ بـ﴿ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ - وهي تفضيلٌ تأنيث (الأمثل) - للدَّلالة على أنَّها أظهرُ الطرائق وأشرفها، ففيه تزكيةٌ لهم باتِّباعهم للأفضل، وتسويغٌ لإظهار عدواتِهم وتجريحهم لموسى وهارون بأنَّهما ساحران؛ لأنَّهما إذا كانا سببًا في إذهابِ الطريقةِ المثلى، فالغضب منهما، والتجريحُ فيهما سائغٌ، وفيه استفزازٌ للمُخاطَبين وتنفيرهم من موسى؛ لأنَّ الذي يهتمُّ بإزاحة الأمثل الأعلى هو حقيقٌ بالتحريض عليه والنُّفور منه.

بلاغةُ الوصف بالمجاز:

الحقُّ ماثِلٌ لا يتخفّى

وصفُ ﴿ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ مجازٌ؛ لأنَّ الأمثلَ هو الأشبهُ بالحقِّ، والأظهرُ في الثُّبوت، فسُمّي به الأفضلُ[3] على طريقة الاستعارةِ التصريحيَّة، فشبَّهوا الأفضليَّةَ لطريقتهم ومذهبهم على ما سواه، بالشَّيء الماثِل القائم، فلا يعتريه التباسٌ، ولا اشتباه في تعيينه وتحديده، وهو إشارةٌ إلى كونه حقًّا ويقينًا.

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 450، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 536.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 255.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 450.

دلالةُ تأنيثِ (الطريقة):

أنَّثَ لفظَ الطريقة في قوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ باعتبار اللَّفظِ لا المعنى؛ لأنَّهُ يرادُ بها الرجالُ، ويصحُّ أن يكونَ التَّأنيثُ على إرادة الجماعةِ، أي: جماعةِ الرِّجال[1]، وفي التأنيث إشارةٌ إلى اليُسر في العادة التي هي من معاني الطريقةِ، فألمحوا إلى أنَّ مذهبَهم سهلٌ في مأخذه، يسيرٌ في تكوينه بخلافِ التذكير.

مراعاةُ الألفاظِ تقتضي صيانةَ المعنى وعدمَ الإخلالِ به

دلالةُ إفرادِ اسمِ التفضيل ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾:

جاء اسمُ التفضيل مفردًا مؤنَّثًا في قوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ مراعاةً لِلّفظ لا للمعنى؛ لأنَّ اسمَ التفضيل المعرَّف بـ(الـ) تجب مطابقتُهُ مع الاسم المتقدِّم[2]، وهو (الطريقة)، فلفظُها مفردٌ مؤنَّثٌ، ومعناها جمعٌ مذكَّرٌ.

مراعاةُ اللَّفظِ في العوائدِ أظهرُ مِن مراعاةِ المعنى

حسنُ التَّرتيبِ في النَّظمِ:

جاء قوله: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ بديعًا في ترتيبه ونظمه، فافتُتِحَ بالتأكيد، وهذا حالُ المدّعي على غير بيِّنة أن يؤكِّد كلامَهُ لخلوِّه عن البرهان، ثم الاتِّهام بالسحر؛ تهوينًا من أمرهما وإعذارًا لأنفسهم منهما، كأنَّهم قالوا: غايةُ أمرهما السِّحر، فإن غُلِبنا منهما؛ فلا بأسَ أن يُغلَب السِّحر بالسِّحر، فلا أفضليَّةَ لهما؛ إذ الأفضليَّةُ تكون بالإعجازِ لا بالسِّحر، ولو غلَب، ثمَّ نسبوا السحر - أيضًا - لهارون لمَّا كان مشتركًا معه في الرِّسالة وسالكًا طريقتَهُ، وعلَّقوا الحكم على الإرادةِ في: ﴿يُرِيدَانِ﴾ - وهم لا اطِّلاع لهم عليها - مُغالطةً منهم وتزييفًا ومبالغةً في التَّنفير، فإنَّ الطِّباعَ تنفر من السحر ومن مجرَّد رؤية الساحر، فضلًا عن أن يكونَ مُريدًا متعمِّدًا له مقاربًا

المُحتالُ يتذرَّعُ بالمُغالطات لا بالحقائق

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 220.
(2) صافي، الجدول: 16/ 386.

للتلبُّس به، ثمّ جَعلوا غايةَ سحرهما الإخراجَ من أرضهم، ثم بتغييرِ حالتهم من المناصبِ والرُّتب المرغوب فيها، فتدرَّجوا في التنفير حتى بلغوا مداه[1].

موقعُ جملة: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ ممَّا قبلَهُ:

التصريحُ بالمطلوب إثرَ تمهيد المقدّمات

الفاءُ في جملة: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ فصيحةٌ عاطفةٌ مدخولها على محذوفٍ مقدَّر متفرِّع عن المذكور قبله، أي: إذا كان الأمرُ كما ذُكِرَ من كونِهما ساحِرَين يريدان بكم ما يريدان؛ فأزْمِعوا كيدكم، واجعلوه مُجمَعًا عليه بحيث لا يتخلَّف عنه منكم أحدٌ، وارموا عن قوس واحدة، فالفاء رابطةٌ لجواب شرط مقدَّرٍ، والجملة تصريحٌ بالمطلوب إثرَ تمهيد المقدِّمات[2].

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾:

الأصلُ في الأمر أنَّه يفيدُ الوجوبَ، وقد ينصرف إلى غيره بالقرائن

الأصل في الأمر أنَّه يفيدُ الوجوبَ؛ إذا كان على جهةِ الاستعلاء؛ فإن كان هذا الأمر من فرعون لسحرته ومَلَئِه، فلا صارفَ له عن الوجوب، وإن كان بين السَّحرةِ أنفسِهم؛ أفادَ الأمرُ هنا التَّحذيرَ بينهم من الخطر القادم.

دلالةُ إجماعِ الكيدِ:

النّيَّةُ عزمٌ لا يقبلُ التَّردُّدَ والارتياب

إجماعُ الكيدِ في قوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ كنايةٌ عن إحكامِ العزم واستجماعِ الهمِّ وانعقادِ النِّيَّةِ، وهو عبارةٌ عن الإرادةِ الخالصة والقصد المتَّحِدِ المتجرِّدِ عن التشتُّتِ والتردُّدِ.

موقعُ جملة: ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ ممَّا قبله:

الإرادةُ بالقصد تسبقُ الإنجازَ بالفعل

جملةُ ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾[3] لإتباعِ القصدِ الباطني بالقلبِ بالقصد الظاهريِّ بالفِعل، ولذا قدَّمَ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 350.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 26.

(3) صافي، الجدول: 16/ 386.

جمعَ الكيد على إتيانِ الصفِّ؛ لأنَّ الإرادةَ بالقصد مقدَّمةٌ على الإنجاز بالفعل.

بلاغةُ المقابلةِ بين التراكيب:

الإجمــاعُ والاجتماعُ ينتجُ عن القُدرة في إدارة الاختلاف

قوله: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ يتقابلُ مع قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾[1]، والمقابلةُ تدلُّ على أنَّ اختلافَهم كان في بادئ الأمرِ، ثمَّ آلَ إلى الإجماع والاجتماع.

أسلوبُ المحاكاةِ:

تقليدُ السَّحرة لفرعونَ في الأفكار والأقوال

كما أنَّ قولَهُم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ قد حاكَوا فيه فرعونَ بقوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، فكذلك قولهُم هنا: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ﴾ احتَذوا فيه فرعونَ كذلك، وقلَّدوا حالَهُ، كما في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾، وهذا التقليدُ في المقال والحال يدلُّ على اتِّباعهم الأعمى لفرعون ورهبتِهم الشديدةِ منه وسلطانه القاهرِ عليهم، فهم لا ينطلقونَ من منطقٍ حقيقيٍّ أو أهليَّةٍ صالحة، بل ينطلقون على عواهنِهم يجترُّهم الخوف، وتسوقُهم المصلحةُ ولو بأدنى شيءٍ منها.

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

مراعاةُ الفجوة الزمنيَّةِ المعتادة بين التخطيط والتنفيذِ

العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ﴾، لإفادةِ التراخي الزَّمني؛ لأنَّ إتيانَهم صفًّا في ساحة المناظرة متأخِّرٌ في حصوله، فيستغرقُ وقتًا نسبيًّا بعد استجماعِ أمرِهم بالاستعداد بالخُطَّةِ والجاهزيَّةِ النفسيَّة، أو لإفادةِ التراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ تحقيقَ القصدِ بالعمل وإتيانهم صفًّا أهمُّ من مجرَّدِ القصد باستجماع الكيد فقط.

دلالةُ التقييد بالحال: ﴿صَفًّاۚ﴾:

﴿صَفًّاۚ﴾ في قوله: ﴿ٱئْتُواْ صَفًّاۚ﴾ حالٌ من ضمير الجماعةِ في

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 256.

الدلالة على التماسك والنظام

﴿ٱئۡتُواْ﴾، أي: مصطفّين، وفائدةُ التقييدِ بهيئة الاصطفاف؛ لأنَّه أهيبُ في صدور الرَّائين، وأدخلُ في استجلاب الرَّهبةِ من المشاهدين، وأدلُّ على التَّماسُك والنِّظام[1]، والتنكير يفيد العظمة والكمال.

دلالةُ إفرادِ المصدرِ والقَيْد به:

يتمُّ الإنجازُ لمن التزمَ وداوم

لم يقل في السياق الكريم: (ثمَّ ائتوا صفوفًا)؛ لأنَّ ﴿صَفّٗاۚ﴾ مصدرٌ، والأصلُ في المصدر الإفرادُ، ثمَّ هو يصدقُ على الجمع والمفرد على السّواء، ولذا فقولُهُ: ﴿صَفّٗاۚ﴾ حالٌ مؤوَّلة بوصفٍ جمعيٍّ مشتقٍّ، أي: مصطفّين، أو منصوبة على المصدريَّة بفعلٍ محذوفٍ، أي: تَصطفّون صفًّا، والجملةُ مِنَ الفعل والمفعول المطلق حالٌ، ووجْهُ القيْدِ بالمصدرِ للمبالغة في لزومِهم لوصْفِ الاصطفاف مُدَّةَ زمانِ المناظرة، فيدلُّ على لزوم الوصف، كأنَّما استغرقوا في أصل الحدثِ، فصاروا كأنَّ معنى الصفِّ نفسَهُ متجسِّدٌ فيهم من شدَّة إتقانهم وانضباطهم[2].

موقعُ جملة الفاصلة ممَّا قبلَه:

قد فازَ بالمطلوبِ من غلب

جملةُ: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من قِبَلِهم مؤكِّدٌ لما قبلَهُ من الأمرين ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾ و﴿ٱئۡتُواْ﴾، أي: قد فازَ بالمطلوبِ من غلب[3].

بلاغةُ المؤكِّدات في جملة الفاصلة:

التحفيزُ على اجتماعِ الكلمةِ ووحدة الصفِّ

أُكِّدت جملةُ الفاصلة: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ بـ(قد) التحقيقيَّةِ، ومجيءُ الفعل ﴿أَفۡلَحَ﴾ على صيغة الماضي؛ للمبالغة في استنهاضِ همَمِهم وإيقاد عزائمِهم على مواصلة السَّعي وثبات القصدِ في تحقيق اجتماعِ الكلمة ووحدة الصفِّ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 305، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 537.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 442.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 537.

دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

الــنَّــصُّ على الأيَّام المشهودةِ بالوقائعِ المجيدة

التَّنويهُ بالزَّمن في لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ للدَّلالةِ على العهدِ، أي: اليومُ المخصوصُ الَّذي تقع فيه الأحداث، وهو يومُ المواجهةِ بين موسى والسَّحرة؛ لتعيين زمنِ الفلاحِ المذكور دفْعًا لتوهُّم إطلاقه؛ ليدلَّ على أنَّهُ فلاحٌ دنيويٌّ؛ لأنَّهم لم يكونوا يؤمنونَ بأنَّ أمثالَ هذه المواقفِ ممَّا يؤثِّرُ في حال الحياةِ الأبديَّة، وإن كانوا يؤمنون بالحياة الثانية[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَنِ﴾:

الموصولُ العامُّ يُساقُ في مقام الإبهامِ والعموم

آثرَ التَّعبيرَ بالموصول المشترك العام في قوله: ﴿مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إبهام، فلا يُعرَف أيُّ الفريقين منهما سيعلو على الآخرِ، فأفادَ ﴿مَنِ﴾ الإطْلاقَ والإبهامَ في الوعد.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة (استفعل):

مجرَّدُ السعي إلى الفلاح مؤذِنٌ بالفلاح

قوله: ﴿ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ على بناءِ (استفعل)، فيصحُّ أن يكونَ بمعنى (فَعل) والسين والتاء للتأكيد وتحقيق الفِعل، كـ(استجاب واستأخر)، فتكون بمعنى (علا)، ويصحُّ أن تكونَ السّين والتاء للطَّلب، فيكونَ (استفعل) على بابه وأصله، أي: طَلَبَ العلوَّ، وسعى له سعيَهُ، ولعلَّه على هذا المعنى أبلغُ في التحريض، حيث جعلوا الفلاحَ ثابتًا بمجرَّدِ الطلب والسعي للعلوِّ بغضِّ النظر عن إحرازه من عدمه، فكيف بمَنْ يعلو بالفِعل[2]؟

نكتةُ التَّعبيرِ بالاستعلاء:

النَّاسُ في طلَب للعلوِّ إمَّا بحقٍّ وإمَّا بباطلٍ

عبَّرَ بالاستعلاء في قوله: ﴿ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ الاستعلاءَ قد يكون لطلب العلوِّ المذموم، وقد يكون لغيره، وهو - هاهنا - يحتملهما، فلهذا جاز أن يكون هذا الكلامُ مَحكيًّا عن هؤلاء القائلين؛ للتحريض على إجماعهم واهتمامهم، وأن يكونَ من كلام اللّه ﷻ، فالمستعلي موسى وهارون عليهما السلام ولا تحريضَ فيه، والظَّاهرُ الأوَّل[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 257.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 537، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 257.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 537.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ [طه: 65 - 66]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانـتـقـالُ من نـجـوى الـكـلامِ الخفيِّ إلى ظاهر التَّحدّي الجليِّ

لَمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقة حديثَ السّحرة وما أكنّوه فيما بينهم، وأسرّوه في توصيف حال موسى ﷺ فيما ظنّوه، وهم يحثّ بعضهم بعضًا على رباطة الجأش، ووحدة الكلمة، وطلب الاستعلاء على موسى، ناسب أن يذكر السياق ما أعلنوه بعد ذلك في خطابِ موسى ﷺ، فقد بيّن في هذه الآية كيف التَفَتوا في خطابهم لموسى، مُتَحَدّينَ ما عنده من البيّنة، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾؛ ليبيّنوا تمكّنهم من المساواة بين الحالَيْن، باعتبار أنّهم همُ الغالبون في كلا الحالَيْن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعِصِيُّهُمۡ﴾: العَصا أصله واوي، وألقى الرجل عصاه، إذا اطمأن في مكانه، ويُقال: عصًا وعَصَوان، والجمع: العِصيّ، وعَصيَ بسيفه عَصًىً: أخذه أخذَ العصا فضرب به، وأعْصَى الكَرْمُ: أخرج عيدانَه، وفي الحديث: "لا ترفع عصاك عن أهلك"[1]، يُراد به الأدب، ويُقال لعظام الجناح: عِصيٌّ، وعصوتُ الجرحَ: داويتَه، وفاعله العاصي، والعصيان: خلاف الطاعة، واعْتَصَتِ النّواةُ: اشتدَّتْ[2].

2) ﴿يُخَيَّلُ﴾: (خيل) أصلٌ، والخَيال: أصله الصّورة المجرّدة كالصّورة المتصوّرة في المنام، وفي المرآة، وفي القلب بعيد غيبوبة

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم: (18) عن سيدنا أبي الدرداء ﷺ.
(2) ابن فارس، مجمل اللغة: (عصى)، والأصفهانيّ، المفردات: (عصا).

المرئيّ، ثمّ تستعمل في صورة كلّ أمر متصوَّر، وفي كلّ شخص دقيق يجري مجرى الخيال، والتّخييل: تصوير خيال الشّيء في النّفس، والتّخيّل: تصوّر ذلك، ويُقال خَيَّلَتِ السّماءُ: أبدت خيالًا للمطر[1]، والتّخيل: إبداء أمر لا حقيقة له، ومنه الخيال، وهو الطَّيف الطَّارق في النّوم، والمعنى في الآية: أنّ موسى رأى على غير الحقيقة صورة الحبال والعِصيّ كأنّها تسعى.

3) ﴿تَسۡعَىٰ﴾: جذر الكلمة هو (سعي)، وأَوْرد أهلُ اللّغةِ فيه ما هوَ بالواوِ؛ فالصَّوابُ أن يُشارَ لَهُ بالحرفَيْن، فسَعَى: إذا مَشَى، زادَ الرَّاغبُ: بسُرْعَة[2]، وسعى يسعى سعيًا (عَدا)، وهوَ دونَ الشَّدِّ وفوْقَ المَشْي، وقيلَ: السَّعْيُ: الجَرْيُ والاضْطِرابُ، وقيل: العمل والكسبُ، والمَسْعاةُ في الكَرَم والجود، والسِّعاية في أخذِ الصدقات، وسعاية العبد إذا كوتب في عتق رقبته، وساعى الرجل الأَمَةَ: فجَرَ بها، ولا تكون المساعاة إلَّا في الإماء خاصَّة[3]، والسَّعْيُ: المشي السّريع، وهو دون العَدْوِ، ويُستعمل للجدّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا[4]، ومعنى السعي في الآية: المشي والاضطراب.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

السَّحَرَة تحدَّوا موسى لكسره أمام الملأ

تُبيِّن الآياتُ مبادرة السَّحرة حين حان وقت التّحدّي والمنازلة؛ فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾، فقولهم هذا على سبيل التّخيير الذي يبدو فيه التّحدي والتّلويح بالقوة: يا موسى إما أن تلقي أنت عصاك قبلنا، وإمَّا أن تتركنا لنلقي حبالنا وعصيّنا قبلك، وقدّموا موسى عليه السلام على أنفسهم إظهارًا

(1) ابن فارس، المجمل في اللغة: (خيل)، والأصفهانيّ، المفردات: (خيل).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (سعي).
(3) ابن فارس، المجمل في اللغة: (سعي).
(4) الأصفهانيّ، المفردات: (سعي).

للثّقة بأمرهم[1]، إلا أنَّ موسى عليه السلام تركَ فرصة البدء لهم، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة، وهذا ما كانوا يطلبونه كما يظهر من فحوى خطابهم، فامتثلوا أمره وألقوا ما معهم، فإذا حِبالُهم وعِصيُّهُم التي طرحوها، جعلت موسى عليه السلام - لشدة اهتزازها واضطرابها - يُخيَّل إليه من شدة سحرهم أن هذه الحبال والعِصيَّ حيَّات تسعى على بطونها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الجملةِ عن السَّابق:

المبادرات نتاجُ المحاورات ومرتكز المشاورات

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ عن الآية السابقة؛ لأنَّه استئناف بياني[3]، على نهجِ المحاورات فبينهما ما يسمّى في البلاغة شبه كمال الاتصال، فقد وقعت جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، أي: قال السحرة لموسى عليه السلام بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم: إما أن تلقي ما عندك أوَّلًا، وإمَّا أن نكون نحن الملقين لما عندنا[4]، فالآية السَّابقة هي قوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [طه: 64] أثارت سؤالًا مؤدَّاه، ماذا فعلوا بعد أن أجمعوا كيدهم؟ فهذا التساؤل المقدّر تجيب عليه الآية التالية: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾، وهذا هو سرّ فصلها عن سابقتها.

نكتةُ التّعبير بصيغةِ الماضي:

طالبو الاستعلاءِ ينشطون في مبادرات الإلقاء

جاء التَّعبير بصيغة الفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾؛ لأنَّه الأصل في حكاية الحال الماضية، فهو لبناءِ حدثٍ ماضٍ على حدثٍ ماضٍ قبله، فجاء

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 123.

(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 124.

(3) الاستئناف البياني: هو الذي تنقطع عنده الصلة الإعرابية بين الجملة المستأنفة والجملة التي قبلها، وتبقى الصلة المعنوية بينهما، فتكون كلتا الجملتين مستقلّة بنفسها في الإعراب، أمَّا في المعنى فلا بدَّ بينهما من ارتباط يجعل الثانية بمنزلة جواب عن سؤال ناشئ من معنى الأُولى، يُنظر: عباس حسن، النحو الوافي: 4/ 390.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 56.

الفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾ بعد الفعل الماضي ﴿أَفۡلَحَ﴾ [طه: 64]، و﴿ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [طه: 64]؛ ليدلّ القولُ الذي كان منهم على إرادةِ الاستعلاء، وسبيله الذي سلكوه، وهو التَّحدّي المُتضمَّن في قولهم في طلب الإلقاء أوّلًا؛ إذ إنّ غايتهم من قولهم هو الاستعلاء على موسى، وما لديه منَ الحجّة.

نكتة إيثار الضّمير على الاسم الظّاهر:

جمع السَّحرة الضَّميرُ اللفظيُّ كما جمعهم الإثم المعنويُّ

آثر النَّظم الإضمارَ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾، دون الإتيانِ بالاسم الظَّاهر، فلم يقل: (قال السَّحرة)؛ لبيان صلته بما قبله، وأنَّ القائلين هم الذين أجمعوا أمرهم كيدًا ومكرًا، طلبًا للاستعلاءِ، على موسى ﵇، فبعد أن ذكر ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾ [طه: 64] و﴿ٱئۡتُواْ﴾ [طه: 64] ناسب ذلك قوله: ﴿قَالُواْ﴾ على النسق نفسه؛ لبيان استمرارهم هم أنفسهم على ما أضمرته نفوسهم من الباطل، وتحدّي الحقّ الذي جاء به موسى، وأنّ ذلك كلّه كان رأيًا جامعًا لهم، موحِّدًا إيَّاهم على رأي وكلمة وموقف، فقد جمعهم الضَّمير اللَّفظي، كما جمعهم المكر المعنويّ.

فائدةُ النِّداء بأداةِ البعيد:

تصويرُ أثرِ استعمالِ الألفاظِ في الإرهابِ النَّفسيِّ

أفاد النِّداءُ بأداة البعيد (يا) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ تصويرَ مشهد التَّحدّي الصَّادر عن السَّحرة تجاه موسى ﵇، فهم ينادونه نداءَ البعيدِ لإلقاءِ الهيبةِ والخوفِ في نفسِه، فإنَّ للنِّداءِ شأنًا في تحريكِ النُّفوسِ في مثل هذه المواقفِ، وهذا لونٌ من ألوانِ الإرهابِ النَّفسيِّ.

نوعُ ﴿إِمَّآ﴾ ودلالتها:

التَّخييرُ مسلكٌ أسلوبيٌّ اختزاليٌّ

﴿إِمَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ للتّخيير؛ وأدخلَ ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾؛ لأنّها في موضع أمر بالاختيار، وهي في موضع نصب كقول القائل: اختر ذا أو ذا كأنّهم قالوا: اختر أن تُلقي، أو أن نلقي[1].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 14/ 164.

المصدر المؤوّل بين الرّفع والنَّصب:

الإلقاءُ عنوانُ اللّقاء وبابُ الارتقاء

استعمل النَّظم الكريم المصدر المؤوَّل في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾؛ لدلالةِ المصدر المؤوّل على الزّمن، وتدخل ﴿أَن﴾ على المضارع فتصرفه إلى الاستقبال غالبًا، و﴿أَن تُلۡقِيَ﴾ هنا في موضع نصب؛ أي: (إما أن تفعل الإلقاء)، ويحتمل أن تكون في موضع رفع؛ أي (إمَّا هو الإلقاء)[1]، والمعنى أنك تختار أحد الأمرين، وقدّر الزّمخشريّ الرّفع بتقدير: الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، فجعله خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: (إلقاؤك أوَّل)، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾[2]، وللرَّفع قوّةٌ لا تخفى في بيان الإلقاء.

دلالةُ مفردةِ الإلقاء الإشاريّة:

تبييتُ الأعمالِ دليلُ الهيبةِ وأمارةُ الحيرة

دلَّ اختيارُ لفظِ الإلقاءِ في الآيةِ على أنَّ السَّحرةَ علموا أنّ آية موسى عليه السلام في إلقاء العصا[3]، وهو ما يُشير إلى أنَّ السَّحرةَ استعدّوا لأمرٍ يتناسبُ مع معجزةِ موسى عليه السلام، وهو ما يدلُّ على أنَّهم علموا أنَّ ما عنده يبعث على الهيبة والخوف، ويثير الحيرَةَ في النُّفوس، فإنَّ اجتماعَ أهلِ الصَّنعةِ على فردٍ يباريهم في صنعتهم على الملأ ممَّا يدعو إلى العُجْبِ المشوبِ بالخوف.

دلالةُ إضمار الفاعل:

التّهوين من شأن الخصومِ دليلُ الهموم

الفاعل في قوله: ﴿أَن تُلۡقِيَ﴾ مضمر تقديره: (أنت) دلّ عليه النّداء قبله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ فاقتضى السّياق إضمارَه إيجازًا، وهذا الإضمار يدلّ على التّهوين من شأن موسى، وهو ما ينسجم مع فحوى خطابهم لموسى عليه السلام، ولا يخفى أنّ التهوين من شأن الخصم، عاملُ تقويةٍ للنَّفس المضطربة.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 438.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 353.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 353.

نكتة حذف المفعول:

تحديد وسيلة التّحدّي كاشفٌ عن الاستعداد النّفسي

في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ تحديد لميدان المنافسة عندهم، وهو إلقاء العصا، فهم بهذا السّبق في تخيير موسى عليه السلام حدّدوا ما يضمن لهم التّفوّق؛ إذ كان لديهم سابق توقع بأنّ موسى سيُلقي عصاه، وأنّ قدرته الفائقة التي علموا بخبرها قد تتجاوز إلقاء العصا إلى قدرة فائقة أخرى، فلا تكون مُقتصرة على إلقاء العصا فحسب؛ لأنّ لموسى عليه السلام آياتٍ أخرى منها قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف: 108]، ونجد هُنا أنّ في الآية حذفًا للمفعول وهو (العصا)، فلم يُصرّحوا بها؛ بل اكتَفوا بفعل الإلقاء، إذ يبدو أن ذلك هو حدود علمهم وقدرتهم في السّحر وهو الإلقاء للعِصيِّ والحبال، وأن هذا أبرع ما يملكون ويعرفون من السّحر، أو أنّهم اتّفقوا على عنوان التّحدّي؛ فلمّا بدؤوا ذكروا ما اتُّفق عليه.

نكتة تكرار لفظ ﴿إِمَّآ﴾ والعطف بينها:

التّكرار لغرض الاختيار مع بقاء ظاهر التّخيير

كرَّرتِ الآيةُ ذكر ﴿إِمَّآ﴾، وهذا من قبيل التّكرار التّوكيديّ، يراد به إثارة توقّع المتلقي، وتأكيد المعاني، وترسيخها في الذّهن، فتكون فائدة تكرار (إمَّا) توكيدَ التّخيير، وبيانَ رغبتهم في أن يُلقوا هم أوّلًا، ولكنّهم خيّروه ليُثبتوا الحجّة عليه، بأن يختار إلقاءهم أوّلًا، لما عندهم من الحبال والعصيّ.

وأفاد عَطْفُ جملة ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ﴾ على جملة: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ هُنا التّسويةَ والتّخييرَ بين الجملتين.

دلالةُ ذكرِ فعل الكينونة:

الإشـــارةُ إلى الرَّغبةِ في أوليَّة الإلقاء

اختلف التَّعبير بين جملة ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ وجملة: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾؛ فأضافوا فعل الكينونة؛ للدّلالةِ على إشارتهم لموسى عليه السلام بأنَّهم يرغبون في الإلقاء، فإنَّ ذكر فعل الكينونة دون المماثلة في نظم الجملتين بحيث يُقال: (وإمَّا أن نلقي) كافٍ في بيانِ تلك الإشارة، وأنَّه يريدون كينونة الإلقاء السَّابقة لهم.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿أَوَّلَ﴾ وفائدته:

الأوليَّةُ سابقةٌ في التَّأثير حاضرةٌ في الجماهير

تضمَّن ذكر الأوليَّة في قوله تعالى: ﴿أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ الإشارةَ إلى طلبِ الاستعجال، والسّرعة في التّنفيذ؛ فكأنّهم قالوا: إمَّا أن تلقي وإلا سبقناك في إلقاء ما لدينا، وهم إنَّما طلبوا الأوليَّة في الإلقاء باعتبارِ اكتسابِ قوَّة التَّأثير، فإنَّ للأوليَّة تأثيرًا في الأعين الباصرة، فكيف إذا كان سحرًا عظيمًا؟!

كما أفاد استعمالُ اللفظ: ﴿أَوَّلَ﴾ ضرورةَ أن يأتي بعدها ثانيًا؛ ليكتمل التّحدّي، ويضمن السّحرة إلقاء موسى بعدهم، وذلك ثقة بقدراتهم الغالبة لكل ساحر دونهم، فقد حتّموا على موسى بقولهم: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ قبول التّحدّي ودخول المنازلة، وأن يكون مُلقيًا بعد إلقائهم.

دلالة استعمال ﴿مَنْ﴾ الموصولة:

إظهارُ الوحدةِ غـرضٌ في إضعافِ الخصم

أفاد الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ تعظيمَ أنفسهم، لما يجدونه فيها من القدرة على التّفوّق بسحرهم على ما جاء به موسى، و(مَنْ) تقع على المفرد والمثنى والجمع والمذكّر والمؤنّث؛ كأنّهم اعتبروا أنفسهم كالفريق الواحد في إلقائهم أمام موسى ﷺ، فأفاد استعمالها تقوية الإلقاء، واعتبار موسى ﷺ الطرف الثّاني في الإلقاء والتّحدّي.

بلاغةُ الاختزال:

ما من عبارةٍ قرآنيَّة إلا وهي قابلةٌ للشَّرح الطَّويل

في الآية الكريمة إيجازٌ بديعٌ لو شرح لكان هذا بيانه: (فجاؤوا مصطَفّين إلى مكان الموعد، وبِيَد كلّ واحد منهم عصًا وحَبْلٌ، وجاء موسى وأخوه ومعه عصاه، فوقفوا وقالوا: يا موسى إمَّا أن تلقي أولًا ثم نلقي بعدك وإمَّا أن نكون أوّل من ألقى)، وهذا الإيجاز يوحي بالعبارات القليلة إلى المعنى الكُلّيّ لأحداث القصّة الَّتي يفهمها كلُّ واحدٍ.

بلاغة المقابلة المعنوية:

المراوغةُ مسلكُ السَّحرةِ وطريق الفجرة

أفادت المقابلة في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ معنى المراوغة التي سلكها السّحرة في قولهم؛ الذي أرادوا به البدء أوّلًا بإلقاء ما لديهم، "وتحسُنُ المقابَلَةُ في الآيةِ من حيث المعنى، وإن كان من حيث التّركيبُ اللّفظيُّ لم تَحصُل المقابلة؛ لأنَّا قدّرنا: إلقاؤكَ أوَّلُ، ومُقابَلُهُ كونهم يكونون أوَّل من يلقي، لكنه يَلْزَمُ من ذلك أن يكون إلقاؤهم الأَوَّلَ، فهي مقابَلَةٌ معنويةٌ"(1).

فنُّ التّورية في الخطاب:

المستعلي مبتعدٌ عن إبداءِ رغبته متوارٍ عن إظهارِ مقصده

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ فنُّ التَّورية وهو مُنتزَعٌ من التَّقديمِ والتَّأخيرِ، حيث خيَّر السَّحرةُ موسى عليه السلام بين أمرين، أن يُلقي هو أولًا، أو أن يكونوا هم المُلْقين، فلمَّا بدؤوا بذكر موسى عليه السلام كان هذا من ذكر المعنى القريب، ولمَّا ثنَّوا بذكرِ أنفسِهم كان هذا من قريبِ المعنى البعيد، فهم ورَّوا بالابتداءِ بذكر القريبِ، وهم يريدون البعيد، وكان لهم ما أرادوا.

بلاغةُ التَّخييرِ في الخطاب:

التَّخييرُ إبداءٌ للسَّببِ وارتقاءٌ في الشَّغب

ذكر النَّظم الكريم تخييرهم إياه بقوله: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾؛ للإشارة على ثِقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بسحرهم، لاعتقادهم بأنَّ ذلك أفاد إرهابًا له، بقدرتهم وحتميّة نصرهم، وإظهارًا لعدم المبالاة به، وما قيل من أن علّة التّخيير مراعاة الأدب معه(2)، فلا وجه له البتّة؛ بل إنّ مقامهم بحضرة مَلِكِهم الذي يدّعي الألوهية والرّبوبية فيهم - وما طلبوه منه، وما وعدهم إياه - كل ذلك يقتضي أن يحتقروا خصمه، لا أن يتأدبوا معه(3).

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 353 - 354.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 74.

(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 56.

بلاغة فنِّ الاحتباك:

توجيه الأنظارِ إلى من سيحقّق الانتصار

جاء في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ فنُّ الاحتباكِ، وتقديره: (إمَّا أن تُلقي، فنرى ما تأتي به من الخوارق، فنُلقي بعدك، وإمَّا أن نكون أوّل من ألقى، فتُلقي بعدنا)، وفائدة فن الاحتباك الإيجاز؛ وتوجيه النّظر إلى مَنْ سيلقي أوّلًا دون النّظر إلى مَن سيلقي ثانيًا، لقناعتهم بأنّ أوّل من ألقى سيكون له أثر أعظم في قناعةِ النَّاس.

فنُّ رد العجز على الصّدر:

حصر ميدان التّحدّي بالإلقاء

ورد لفظُ الإلقاءِ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾، وهو من قبيل ردّ العجز على الصّدر[1]، وفائدته هنا أنّ السّحرة حصروا الميدان الوحيد بالإلقاء للعصيّ والحبال، الذي لهم فيه ثقة بأنفسهم بالغلبة على ما سيأتي من إلقاء موسى، فهم سيُلقون العصيّ والحبال، وهو سيلقي عصًا واحدةً، وضمنوا ذلك بتكرار لفظة الإلقاء، مع عدم الخروج إلى حالات أخرى من التّحدّي، خشية أن يخرج موسى إلى مستويات أخرى من التّحدّي.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الإضرابِ:

الإعراضُ عن أوَّليَّة الإلقاء دليلُ قوّةِ الارتقاءِ

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ دون أن يقول: (قال ألقوا)، وهو إضرابٌ عمَّا قَبْلَه، وإثباتٌ لِما بعدَه، وهو هنا للعدول؛ لأنّ ما سبقه كلام مُثْبَتٌ، عُدِلَ عنه إلى شيءٍ آخَرَ، والإضراب هو الإعراض عن الشيء بعد الإقبال عليه، أو اختيار أحد أمرين، وهذا ما أفادته العبارة القرآنيّة، فبعد أن خيّر السّحرة موسى بقولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ جاء اختيار موسى عليه السلام بقوله: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾، فأعرض عن أن يكون هو أوّل الملقين، واختار أنْ يكونوا هم كذلك، لرغبتهم فيه.

---

(1) وهو أسلوب بديعيّ مفاده أنْ يكون أحَدُ اللّفظَيْنِ المكرَّرَين أو المتجانسين في أوّل الفقرَة، والآخر في آخِرِها.

غرضُ الأمرِ ﴿أَلۡقُواْۖ﴾:

خرج الأمر في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ إلى معنى التّحدّي؛ لأنّ سياقَ الآية ككلٍّ هو سياق تحدٍّ ومواجهةٍ بين الحقِّ والباطل، فمهما بلغ الباطل من القوّة، فلا بدّ أن ينتصرَ الحقّ، ومهما بلغت قوة السّحرة في التّخييل وسِحْرِ أَعْيُنِ النَّاس؛ فإن فِعْلَ الله في جعل العصا حَيَّةً تسعى وهي تلقف ما يأفِكون هو الأعظم.

الأمـرُ المُكْتَنِـةُ بالتَّحدّي أدعى في إرغامِ المفتري

بلاغةُ الفاءِ الفصيحة:

أفادت الفاء عطف جملة: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ﴾؛ على جملةٍ محذوفةٍ دَلَّ عليها السّياقُ، والتّقدير: (فَأَلْقَوْا فإذا حِبالُهُم)، وهذه الفاء هي الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن المحذوف المقدَّر، فأفاد العطف بالفاء هنا أنّ تلك الحبال والعصيّ خُيّل للنَّاظرين حال إلقائها أنّها تسعى مثل الأفاعي، فتكشف عن سرعة ظهور السّحر وقوّة تأثيره في التّخييل.

بمجرَّدِ إلقاءِ السَّحرةِ خُيِّل للناظرين الوهمُ

نوعُ (إذا) ودلالتها:

(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ﴾؛ للمفاجأة، وهي تختصّ بالجمل الاسميّة، والاسم بعدها مرفوع على الابتداء، فتقدير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ﴾؛ تفاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم، وهذا تمثيل، والمعنى: (على مفاجأته حبالُهُم وعصيُّهُم مُخيّلة إليه السّعي)[1]، "والمفاجأة المستفادة من (إذا) دلّت على أنّهم أعدّوها للإلقاء، وكانوا يخشون أن يمرّ زمان تزول به خاصّيَّاتها فلذلك أسرعوا بإلقائها"[2].

عظيمُ السِّحرِ يجعلُ الثَّابت مفاجأً

نكتةُ إضافة الحبال والعصيّ إلى السّحرة:

أُضيفت الحبالُ والعِصيُّ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ﴾

الصِّناعةُ الخفيَّةُ عملٌ سابقٌ للسحرة ومسلكٌ خفيٌّ للمهرة

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 258.

للسّحرة؛ ليدلّ على أنّ هذه الحبال والعِصيَّ فيها عملٌ مسبَّق وصناعة خفيّة، ودلّ على ذلك التّصريح في الآية بصناعتهم وما وضعوه في هذه العصيّ والحبال، قال تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ﴾، وهذا على خلاف عصا موسى التي لم تُذكر في السّياق، فقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، فمهما كان الذي في يمينه فإنّ آية اللّه ظاهرة لا مَحالة.

ويمكن أن يُستفاد معنى آخر من إضافةِ الحبال والعصيّ إلى السّحرة، هو بيان اختصاصهم بتلك الأفعال السّحريّة التي لا تكون إلا بأفعالهم، ولو كانت تلك الحبال والعصيّ بيد آخرين لما امتلكت تلك الصِّفات التّخييليّة في الحركة والسّعي.

نكتة بناء فعل ﴿يُخَيَّلُ﴾ للمفعول:

تقليل شأن السّحر وتهميش قوّة السّحرة

بناء الفعل ﴿يُخَيَّلُ﴾ لما لم يُسمّ فاعله لنكتة أنّ ثمّة فاعلًا خفيًّا من شياطين الجنّ وراء أفعال السّحرة، على خلاف أفعال الرّسول، أو أفعال اللّه تعالى في إظهار المعجزات، فالبناء لما لم يُسمّ فاعله ﴿يُخَيَّلُ﴾ أفاد تقليلَ شأن ما تفعله السّحرة مُستعينة بتلك القوى الخفية، التي سوف تتهاوى أمام عظيم ما جاء به الرّسول من المعجزات.

توجيه القراءات القرآنية:

أَوْهَمتِ العِصيُّ والحبالُ من حركتها واهتزازها أنها تسعى

قرأ الجمهور ﴿يُخَيَّلُ﴾ بتحتيّة في أول الفعل على أن نائب فاعله المصدر من قوله: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، والمَعْنى يُخيَّل إِلَيْه سعيُها، ويجوز أَن تردّه على السّحر، وقَرَأَ ابْن ذكوان ورَوْح ﴿تُخَيَّلُ﴾ بفوقية في أوّله على أنّ الفعل رافع لضمير ﴿حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾[1]. ردّه على الحبال والعصيّ؛ أي هي تُخَيَّل إليه[2]، و﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾؛ بدل من الضّمير

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 321.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 457.

المستتر بدل اشتمال[1]. فمن قرأ بالتاء ردَّه على الحِبال والعصيِّ؛ لأنّها جمع، وجمع كلّ ما لا يعقل بالتأنيث، ومن قرأ بالياء ردَّه على السِّحر.

نوعُ ﴿مِن﴾ ومعناها:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ للسببيّة كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ [نوح: 25][2]؛ أي يخيّل إليه سعي الحبال والعصيّ لسبب ما فعله السّحرة فيها.

دلالة ورود الجملة ﴿أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ بدل اشتمال:

أقصى ما صنعه السّحرة هو تخييل اهتزاز الحبال والعصيّ

قوله تعالى: ﴿أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ بدل اشتمال لضمير الحبال والعصيّ المُستَكِنِّ في فعل ﴿يُخَيَّلُ﴾؛ إذ إنّ السّحرة ألقوها في وقت واحدٍ؛ وأنّ أقصى ما فعلوه وصنعوه من السّحر، تلك الحركات التي تحدث في الحبال والعصيّ، ثُمّ إنّ كثرتها في ساحة الإلقاء تشوّش على النّاظرين نظرهم، فتبدو وكأنّ السَّاحة تتموّج وتسعى لكثرة حركاتها.

توجيه المتشابه اللّفظي:

الأوّليّة في الإلقاء وإسراع السّحرة في المُنازلة

تقدمت هذه القصة ومعانيها في سورة الأعراف: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 115 - 116] مع اختلاف أن الأوّليّة في سورة طه مصرّح بها: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾؛ فكانت صريحة في أن التّخيير يتسلّط على الأولية في الإلقاء، وأنّه صرّح في سورة طه بأنّ السّحر الذي ألقوهُ كان بتخييل أنّ حبالَهم وعصيَّهم ثعابينُ تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾، فلمَّا اختاروا الأوّليّة في سورة طه أوغل في إظهار عظيم سحرهم وبيّن أدهش شيءٍ فيه؛ وهو أنّ الحبال والعصيّ تحرّكت مثل الحيَّات في تخييل عجيب وسحر للأعين، أمَّا

---

(1) الزمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 74.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 258.

في سورة الأعراف فلم يُظهر طَلَبَ الأوّليّة، ولذلك فإنّه لم يُبرز دقائقَ سحرهم، بل اكتفى بقوله: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإلقاء والرَّمي:

الرّمي بتحديد هدف والإلقاء طرح الشّيء في المحلّ

(لقي) اللّام والقاف والحرف المعتل أصول ثلاثة: أحدها يدلّ على عوج، والآخر على توافي شيئين، والآخر على طرح شيءٍ، فألقيته: نبذته إلقاءً، والشَّيء الطَّريح لقيٌّ[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزمل: 5]، فإشارة إلى ما حُمِّلَ من النّبوّة والوحي، وقوله: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾، فإنّما قال: ﴿فَأُلۡقِيَ﴾ تنبيهًا على أنَّه دهمهم وجعلهم في حكم غير المختارين، أمَّا الرّمي؛ رماه عن القوس بالمِرْماة رَميةً صائبةً، وهو جيد الرّمي والرّماية، وهو من رُماةِ الحَدَقِ، وهو رجل رَمَّاءٌ[2]، فيكون في الرّمي تحديد هدف بغية إصابته، على خلاف الإلقاء الذي يكون للتّعبير عن طرح الشّيء في المكان، والإلقاء للشّيء يكون قريبًا، والرّمي يكون بعيدًا، والرّمي يقتضي القوّة، والإلقاء لا يقتضي ذلك.

العصا والمنسأة:

المِنْسَأَة العصا العظيمة والعصا أعمُّ من ذلك

(العَصا) مُؤَنَّثَةٌ يُقالُ: عَصا والجَمعُ (عِصيٌّ) بِكَسْرِ العَيْنِ وضَمِّها[3]، والمِنْسَأة: العصا العظيمة التي تكون مع الراعي، وإنّما سمّي بها (لأنّ الدَّابة تُنسأ بها)؛ أي تُزجر بها، ومنسأته: العصا بلسان الحبشة[4]، فالمنسأة هي العصا العظيمة، فلم يُذكر هنا أنّ عصا موسى كانت عظيمة، كي لا يُنسب ما حدث إلى عَظَمَة عصا موسى، فمهما كان الذي في يمين موسى من شيء؛ فإنّه سيتحوّل إلى تلك الحيّة العظيمة التي سوف تتلقّف كل ما صنعوا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 16/ 258 - 259.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/ 388.
(3) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 211.
(4) أبو البقاء، الكُلّيّات، ص: 880.

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ [طه: 67 - 68]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقال من ظاهر التَّخييل إلى باطن الخيفة

بعد أن ذكر في الآية السابقة ما رآه موسى عليه السلام من أنّ حبال السَّحرةِ وعِصيِّهم تبدو كأنّها تسعى، ذكر هنا ما دار في نفسه من الخوف، وشدّة الموقف عليه، فجاءه الوحي من السّماء: ألَّا تخفْ إنّك أنت الأعلى، فهو انتقالٌ من بيانِ ما حدث لموسى عليه الصلاة والسلام في الظَّاهر إلى بيانِ ما حدث له في الباطن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَوۡجَسَ﴾: (وجس) أَصْلٌ يَدُلُّ على إحساس بشيء وتسمُّع له، والوَجْسُ: فزعةُ القلب، يُقال: أوجسَ القلبُ فزَعًا، وتوجَّستِ الأذنُ: سمِعتْ فزعًا[1]، والوَجْس: الصّوت الخفيّ، والتَّوجُّس: التَّسمّع، والإيجاسُ: وجود ذلك في النّفس، قال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ [الذاريات: 28]، فالوَجْس: حالةٌ تحصُل من النّفس بعد الهاجِس؛ لأنّ الهاجِسَ مبتدَأُ التّفكير، ثمّ يكون الواجِسُ الخاطرَ[2]، فقوله: ﴿فَأَوۡجَسَ﴾؛ أي: أخفى في نفسه الخوف منهم.

2) ﴿خِيفَةٗ﴾: (خوف) أَصْلٌ يَدُلُّ على الذُّعرِ، والخوف: توقُّعُ مكروهٍ عن أَمارَةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، والتَّخوُّف: التَّنقُّص، وخاوَفَني فلانٌ فخُفتُه: صرت أشدَّ خوفًا منه، والخيفَةُ: الحالة التي عليها الإنسان من الخوف[3]، والمعنى في الآية: تلك الحالة التي كان عليها موسى من الخوف من حِذْقِ السَّحَرةِ.

(1) الخليل، العين: (وجس).
(2) الأصفهانيّ، المفردات: (وجس).
(3) ابن فارس، مجمل اللغة، والأصفهانيّ، المفردات: (خوف).

3) ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: (علو) أَصْلٌ، والعُلُوّ: ضدّ السُّفل، وقد عَلا يَعْلو عُلوًّا وهو عالٍ، فـ(عَلا) بالفتح في الأمكنة والأجسام أكثر، ويُقال: عليَ في المكارم يَعْلَى عَلاءً، وعلا في المكان يعلو عُلوًّا[1]، و(أعلى) صيغة مبالغة، ومقصود بها في الآية: الغالب والظَّافر.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تثبيت المؤمنين إنّما يكون بعونِ رب العالمين

تُبيِّن الآيةُ ما حصل لموسى عليه السلام من صنيع السّحرة، وأنَّه قد أثّر فيه، والإيجاس: الإخفاء والإضمار، والخيفَة: الخوف؛ أي فأخفى موسى عليه السلام في نفسه شيئًا من الخوف، حين رأى حبال السّحرة وعصيّهم تتحرّك وتهتزّ وتسعى، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عندما رأى هذا الأمر الهائل من السِّحر، الذي سيُرهب النَّاس ويؤثّر في نفوسهم، فيصرفهم عن دعوته، فلمَّا جاءه الوحي من عند الله تأييدًا له وتثبيتًا بقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ أي: قلنا له عندما أوجس في نفسه خيفة من فعل السحرة: لا تخف يا موسى ممَّا فعلوه، إنّك أنت الأعلى عليهم بالحقّ الذي معك وهم جاؤوا بالباطل[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتُها:

سحرٌ عظيمٌ يُعقِبُ خيفةً مُسْتَكِنَّة

أفادت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ الدّلالة على سرعة ما أصاب موسى من الخوف والخشية ممَّا رأى، وهذا يدلُّ على قوّة السِّحر الذي ألقاه السَّحرةُ من الحبال والعِصيِّ التي خُيِّل إليه أنّها تسعى؛ فأوجس منها خيفة، ويمكن أن تكون دلالتها كذلك على السّببيّة؛ إذ أوجس خيفة بسبب ما خُيِّل إليه،

(1) ابن فارس، مجمل اللغة: (علو)، والأصفهانيّ، المفردات: (علا).
(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 124.

من حركات ما أُلقيَ من الحبال والعصيّ، وما حدث من خوارق العادات وحركة الجمادات.

سرّ استعمال صيغة الفعل الماضي ﴿فَأَوۡجَسَ﴾:

المقارنةُ بين إيجاس الخيفةِ وإظهار الخوفِ

عندما رأى موسى الحبال والعصيّ المُلقاة كأنّها تسعى؛ أوجس خيفة في نفسه، فجاء الفعل ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ بصيغة الماضي للدّلالةِ على استقرار الخيفة في نفسه عليه السلام، وللإشارةِ إلى ما أصابه قبلها عندما ألقى عصاه فرآها تهتزّ كأنّها جانّ قال تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ [النّمل: 10]، كأنّه قال: أوجس الخيفة هنا، ولم يولِّ مدبرًا بسبب خوفه كما كان في أوّل مرَّة.

نكتةُ استعمال لفظ ﴿فَأَوۡجَسَ﴾:

الخوفُ طبيعة بشرية قد يعتري الأنبياء مظهرٌ من مظاهره

آثر النَّظم استعمال مفردة الإيجاس في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ﴾، وهو عبارة عما يعتري نفس الإنسان إذا وقع ظنّه في أمر على شيء يَسوؤُه، فهو فعل نفسيّ، وقرينة ذلك قوله: ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾[1]، وإيجاس الخوف: إضمار شيء منه، وكان ذلك لطبع الجِبِلَّةِ البشريّة، وأنّه لا يكاد يمكن الخلو من مثله، فخاف موسى أن يخالج النَّاس شكّ فلا يتبعوه[2]، وانتصاب ﴿خِيفَةٗ﴾ على المفعولية؛ أي وجد في نفسه[3]، وقد اقتضى ما حدث في نفس موسى من الخوف من هول ما رأى؛ حتى أتاه الوحي؛ تثبيتًا له بعدم الخوف، وآمرًا له بإلقاء العصا.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

خيفةُ موسى عليه السلام بقيت مستكنَّة في نفسه

أفاد حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 51.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 75.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 52.

﴿مُوسَىٰ﴾؛ أنَّ ما كان من خيفةٍ عند موسى عليه السلام هي في وعاء نفسه لم تظهر للناس ولم يعلم بها أحد، وأنَّها بقيت في نفسه لم يعلم بها إلا اللّه تعالى، وفائدة ذلك أنّ خوفه اقتصر على خشية أن ينصرف النَّاس مبهوتين بما رأوا من سحر السّحرة، دون أن يؤمنوا.

نكتةُ ذكرِ النَّفس لا القلب:

خوف موسى عليه السلام عارضٌ نفسيٌّ لا ثبوتٌ قلبيٌّ

جاء ذكر النَّفس لا القلب في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾، والوَجْسُ: الفزع يقع في القلب[1]، وقد قُيِّد هنا بالنَّفس لا في القلب، فهو وجس محدود لا يمنعه من إنجاز مهمته التي أرسل من أجلها، فالخوف الذي وقع في نفس الرّسول لم يكن مهيمنًا على قلبه، فيمنعه من إنجاز أهم ما أرسل من أجله، وهو دخوله ميدان التّحدي.

بلاغةُ الإطناب بذكرِ القيود:

خيفة موسى كانت على الدَّعوة وتأثر النَّاس بالباطِل

ذِكرُ قيد ﴿فِي نَفْسِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ إطناب؛ ولو قيل: (فأوجس خيفة موسى) لصحَّ الكلام، وفهم المراد، فإنَّ الخيفة لا تكون إلّا في النَّفس، وفائدة هذا الإطناب "الإشارة إلى أنها خيفةُ تفكُّر لم يظهر أثرها على ملامحه، أو جوارحه، وإنّما خاف موسى من أن يَظْهَرَ أمرُ السحرة فيساوي ما يَظهر على يديه من انقلاب عصاه ثعبانًا؛ لأنّه يكون قد ساواهم في عملهم ويكونون قد فاقوه بالكثرة، أو خشي أن يكون اللّه أراد استدراج السّحرة مدّةً، فيُملي لهم بظهور غَلَبِهم عليه، ومدَّةً لما تكون له العاقبة فخشي ذلك"[2].

توجيه المتشابه اللفظيّ في الذِّكر والحذف:

علمُ الملائكةِ مقترنٌ بالظَّاهر وعلم الله مطلقٌ يشمل الظاهر والسَّرائر

في قصَّة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذّاريات: 28]، لم يُذكر قيد (في

(1) الخليل، العين: 6/ 161.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 259.

نفسه) وذلك أنَّ الآية أفادت ظهور الخوف على إبراهيم عليه السلام؛ بدليل قول الملائكة له: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾ [الذاريات: 28]، والملائكة لا يعلمون ما في نفس إبراهيم عليه السلام، ولكنّهم رأوا ذلك قد بدا على جوارحه، بينما قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، فقد قال الله له: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، والله يعلم ما يجول في النّفوس، وما يدور في الخواطر، وإنْ لم يظهر ذلك على جوارح موسى، فذكر مع موسى قيد: ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾، لأنّ النّفس كانت وعاءً لذلك الخوف، غير ظاهرة على جوارحه، ولم يُذكر هذا القيد في شأنِ إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ الخوف بدا على جوارحه وهيئته، فعلمتِ الملائكة بذلك، وطَمأَنَتْه بعدم الخوف ممَّا رأى.

غرضُ تقديم شبه الجملة على المفعول:

الخيفةُ منحصِرةٌ في النّفس محفوظةٌ من اللَّبس

قُدِّم الجار والمجرور ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾ على المفعول به ﴿خِيفَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ﴾؛ للاختصاص، فقد اختصّت النّفس بالخوف، فلم يظهر شيء من بوادره على القول أو الفعل؛ بل بقي الخوف في وعاء النّفس غير ظاهر لأحد من القوم.

توجيه المتشابه اللفظي في التقديم والتأخير:

أنفُسُ الأنبياء مُزكَّاة من أصل خِلْقَتِها

قُدِّم قيد ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾ في قصَّة موسى عليه السلام: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾؛ لأنّ أمر الخوف كان منغلقًا عليه في النّفس؛ أمَّا تأخير قيد ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ [يوسف: 77]، فلأنّ التّغاضيَ عن عداوة الآخرين وكراهيتهم، وعدمَ إظهار ردّ الفعل على ذلك، وإسرارَهُ في النّفس، هو من أخلاق الأنبياء، فقُدِّم ذِكْرُ يوسفَ لبيان أنّها من أخلاق النّبوّة؛ فأَنفُس الأنبياء مُزكَّاة من خِلْقَتِها، مُهيّأة للوحي، نشيطة في تلقّي الرّسالة.

الخيفةُ خوفٌ طبيعيٌّ يُضبط في النُّفوس ويُحبس في الصُّدور

دلالة لفظ ﴿خِيفَةً﴾:

لمَّا قال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةً﴾ لم يبطئِ الوحي عن موسى في الأمر بإلقاء العصا؛ بل إنّ الخيفة اعۡتَرَتۡ نفسَ موسى لِما رآه من المشهد غير المُعتاد عليه وعلى النَّاس، فخاف أن ينصرف النَّاس قبل أن يؤمر بإلقاء عصاه فيفتتنوا، وجاء التَّعبير بـ﴿خِيفَةً﴾ لبيانِ أنَّها أقل من الخوف الأوَّل الذي حصل له عند أمر اللّه تعالى بإلقاء عصاه في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ [النّمل: 10]، فلمَّا جاءه الأمر بإلقاء ما في يمينه تلاشى ما أوجس من الخوف، وعَلِمَ أنّه سَيهزِمُ تلكَ الجموعَ من الأفعال البشريّة؛ لأنّ اللّه تعالى هو الذي سينتصر بقدرته سبحانه، وأنّ المعجزة التي جَرَتۡ على يديه أوّلَ مرّة ستَظۡهَر اليوم مرّة أخرى؛ كيف لا وهي الميدان والقضيّة التي خُلقت من أجلها.

الخيفة خوفٌ لطيفٌ مؤقَّت

نكتةُ صيغة ﴿خِيفَةً﴾:

قوله: ﴿خِيفَةً﴾ اسم هيئة من الخوف، أُريد به مُطۡلَقُ المصدر، وأصله خِوۡفة، فقلبت الواو ياءً لوقوعها بعد كسرة، وإنۡ دلّت على شيءٍ فدلالتها على القلّة والخوف اللّحظيّ أو الآنيِّ الذي سرعان ما يتبدّد، ويستحيلُ قوّةً وعزمًا، بعد أن أتاه الوحي من اللّه بالأمر بالإلقاء.

دفعُ تَوَهُّمِ أنَّه لم تقع من موسى عليه السلام خيفة

فائدة ذكر اسم ﴿مُّوسَىٰ﴾:

ابتدأت الآيات بنداء موسى عليه السلام ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وانتهت بقوله: ﴿خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾، وهو المقصود بالكلام، إذ الخيفة وقعت في نفسه لا في نفس غيره بدليل اللّحاق ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾؛ إذ كان موسى في هذا الموقف مَحَطَّ أنظار النَّاس جميعًا، وليُعلم أنّ موسى عليه السلام سيكون هو الأعلى في هذا التّحدّي، وأنّ المعجزة التي سيأتي بها ستكون مَحَطَّ أنظار النَّاس جميعًا وسببَ إيمان أكثرهم، ولدَفۡعِ توهُّمِ أنَّه لم تقع

في نفسه خيفةٌ، فكان تعيينه مُزيلًا لمثل هذا الوهم، ودفعًا لاحتمال مثل هذا الزَّعم، فموسى ﵇ هو محورُ القضيّة التي ستُزيل عروشَ الفراعنة الطُّغاة، التي بُنيت على إرهاب النَّاس واستعبادهم.

نكتةُ تأخير المسند إليه:

إحاطة موسى ﵇ بمجمل الحدث

أُخِّرَ ذكر المسند إليه وهو الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ فلم يقل: (فَأَوْجَسَ موسَى خيفَةً في نَفْسِه)؛ فتأخير ذكر الفاعل باعتبارِ أنَّه معلومٌ من السّياق، وللإشارةِ إلى أنَّ ذكرَه في هذا السّياق إنَّما هو لدفعِ أوهام الأفهام أن يكون المقصود سواه، ولبيان أنَّ الإيجاسَ كان في نفسِه لم يخرج منها، ولإكرامه في الذِّكر، إذ أحاط اسم موسى ﵇ بمجمل الحدث، وكان هو مَحَطَّ أنظار النَّاس أولًا وآخرًا.

علَّةُ الفصل بين الجمل:

تأييدُ الله تعالى حاضرٌ في عظائمِ الأمور ودقائقها

بين قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾، والآية التي سبقتها، شبهُ كمالِ الاتّصال؛ إذ إنّ الجملتين خبريّتان، فلمَّا قال في الجملة السَّابقة: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ قد يَرِدُ في ذهن المخاطَب عمَّا كان بعد ذلك الإيجاس؟ فجاء قولُه تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ليُبيِّن تأييدَ الله تعالى لنبيِّه ﵇.

نكتةُ ذكر فعل القول:

ذُكر فعل القول ﴿قُلۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ دون أن يُقال: (لا تخف) بحذف ﴿قُلۡنَا﴾؛ لتقويةِ النَّهي: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ في أسماع المخاطبين، وأنَّ النَّهي إنَّما صدر عن الله تعالى بذاته العليَّة.

نكتة التعريف بـ (ال) في قوله: ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾:

تعليلُ علوِّ موسى ﵇ برعايته من الأعلى

ذكر النظم الكريم أن موسى ﵇ سيكون هو الأعلى، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وهو المناسب للإخبار بأنَّه الأعلى، فقد اكتسب

علوَّ المكانةِ بكون الذي يرعاه ويتعاهده هو الأعلى ﷻ، فموسى الأعلى بالنسبة للسحرة والمناوئين، فهو اعتبار نسبي مقيَّد، وعلوُّ الله تعالى مطلَقٌ.

بلاغة الالتفات من الغَيْبَة إلى الخطاب:

الوحي تأييدٌ في المُدْلَهِمَّات وتقويةٌ في الصُّعوبات

التَفَتَ النَّظمُ من الغَيْبَةِ في قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ إلى الخطاب بقوله: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾، وفائدة ذلك الخطاب استحضار الدّعم النّفسي والتّأييد لموسى عليه السلام بعد ما أوجس في نفسه من الخيفة، وعدم الإقبال على التّحدّي، فجاء خطاب الوحي بقوله: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وهو أفضل ما يمكن أن يتلقاه موسى في تلك اللحظات العصيبة والحرجة.

غرضُ إسناد الفعل إلى ضمير العظمة:

قوّة الخطاب هي بشارة لموسى عليه السلام بالنّصر والعلوّ

أُسْنِد فعلُ القول إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾؛ لدلالته على قوة الجهة التي صدر عنها هذا القول، وناسب ذلك سياق الآية، وحدث الخيفة التي أوجسه موسى في نفسه مما رآه من أفعال السّحرة، فجاءته قوة الخطاب بضمير العظمة تأمره بعدم الخوف، وتبشره بتحقيق العلوّ على السّحرة وأفعالهم.

غرضُ النَّهي وبلاغتُه:

الخوفُ مركوزٌ في الفطرةِ لا يُنتزعُ إلَّا بأمرٍ ربّاني

قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾ جاء إلى موسى عليه السلام نهيًا عن الخوف، وتطمينًا بالغلبة، وأمرًا بإلقاء ما في يمينه، وقد تكرر قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ [النمل: 10]، وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١﴾ [القصص: 31]، وعندما أرسله إلى فرعون مع أخيه هارون؛ قال لهما: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]، وذلك دليل على عظيم ما رأى من أفعال السّحرة؛ لكثرتها، إذ لا يُتصوّر أنّ

عصًا واحدةً سوف تكون كفيلةً بابتلاع العِصيِّ والحبال، ثمّ إنّ في ذلك دلالة على أنّ الخوف مركوز في جبلّة الإنسان، ولو كان نبيًّا، حتّى ينتزع منه انتزاعًا ربّانيًّا.

بلاغةُ التوطئة بالنَّهي:

النَّهي توطئةٌ للأمر بإلقاء الثعبان المبين

لَمَّا خرج أسلوب النّهي في قوله: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ إلى معنى التّطمين والتّمكين؛ لأنّ الخطاب من الله تعالى إلى رسوله في أعظم موقف شهده موسى عليه السلام؛ فاقتضى ذلك من موسى الإقبال والمبادرة، فهو توطئة للأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، حيث كان الإلقاءُ لائقًا بمقام النّبوّة الحاملة لأعظم دلالاتها، التي لا يعتريها خوفٌ أو تردُّدٌ.

فائدةُ تجرُّد الخطاب من النِّداء:

النّهي وحيٌ ضمني فناسب حذف النِّداء

تجرَّد قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾ من النِّداء، بخلاف قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ﴾ [القصص: 31]، وذلك لاختلاف السياقين، فالسياق هنا إخبارٌ عن الوحي الإلهامي الذي أوقعه الله تعالى في نفس موسى عليه السلام، وأمّا في السياق الوارد في سورة القصص فهو خطابٌ مباشرٌ من الله تعالى، فناسب النداء.

غرضُ التَّوكيد:

البشارة العاجلة لموسى بالاستعلاء على الخصوم

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ تعليلٌ للأمر بترك الخوف؛ وقد ورد ذكر الخوف في خطاب موسى عليه السلام، ونفيه عن المرسلين، وقد أُكّد هنا بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ لأنّ الرّسول لا يستحوذ على قلبه الخوف، فهو منصور بقوّة الله تعالى، ومؤيّد بالمعجزات التي هي أفعال الله لنصرة رسله، فتضمّن تعليل ترك الخوف بشارة عاجلة لموسى بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وذلك ردًّا على قول السّحرة: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [طه: 64].

بلاغة اجتماع التّوكيدات:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ تقريرٌ لغلبته وقهره، وتوكيد

حرصُ الدّاعي على النّاس علوٌّ وارتقاء

بالاستئناف، وبكلمة التشديد، وبتكرير الضمير، وبلام التّعريف، وبلفظ العلوّ، وهو الغلبة الظّاهرة، وبالتّفضيل[1]، وهو دليل على أن ما خامره عليه السلام من الخوف إنّما هو خوف ظهور السّحرة عند العامّة ولو في وقت ما، وهو وإن كان موقنًا بأن اللّه ينجز له ما أرسله لأجله، لكنه لا مانع من أن يستدرج اللّه الكفرة مدّة قليلة لإظهار ثبات إيمان المؤمنين[2].

دلالة اجتماعِ ضمير الوصل والفصل:

تـوريـثُ الطُّمأنينةِ معينٌ على السَّكينة

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ تكرّر الضّمير للتّوكيد، فبعد أن ذكر ﴿إِنَّكَ﴾ بضمير المخاطب المتصل، ذكر بعده الضمير المنفصل ﴿أَنتَ﴾، فأكّد تطمين المخاطب؛ وهو رسول اللّه موسى عليه السلام؛ أنّه سيكون في أعلى مكانة في ذلك الموقف، وأجَلّ حالة من النّصر والغلبة.

دلالة تعريف الخبر:

الإيـمـاءُ إلى الشّأن المستقبليّ لموسى عليه السلام

أفاد تعريفُ الخبر: ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ التّعظيم، وفيه إيماءٌ إلى ما سيكون لموسى عليه السلام بعد هذا الموقف من شأن عند بني إسرائيل، وأفاد التّعريف بـ (أل) قَصْرَ ذلك العلوّ على موسى تجوّزًا بقصد المُبالغة، وذلك دالٌّ على انهيار الخصم مع ما يملك من عظيم القوّة وقدرة التّحشيد لها.

بلاغةُ الكنايةِ عن الصِّفة:

العلوّ والتّمكين دلالـة النّصر والغَلَبَة

قوله: ﴿أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، أي: الغالب لمن ناوأك في هذا المقام[3]، فيكون العلوُّ هنا كنايةً عن الغلبة، وقد ورد هذا اللّفظ خاصّة ردًّا على ما قاله السّحرة لبعضهم، وهم يستثيرون قواهم وقدراتهم؛ إذ

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 75.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 260.

(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 52.

قالوا: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [طه: 64]؛ حتمًا فإنّ موسى قد سمع ما قالته السّحرة، فجاءه النّصر من اللّه والتّطمين بأنّ العلويّة والفلاح ستكون له ولدعوته في هذا النزال والتّحدّي.

فائدةُ استعمالِ صيغة التّفضيل:

الرَّدُّ على السّحرة والإخبار بنتيجة الإلقاء قبل وقوعه

اسم التفضيل صيغة تشتق من الفعل للدلالة على اشتراك شيئين في صفة وزيادة أحدهما على الآخر فيها، وفائدة هذه الصّيغة هُنا؛ أن موسى عليه السلام سمع من السّحرة أنّهم يريدون أن يكونوا الأعلى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾، فجاء اسم التّفضيل ليُعْلِمَه ويُطمئنه: أنّه سيكون الأعلى عليهم حال إلقائه ما في يمينه، لأنّها المعجزةُ من عند اللّه وتصديقُ اللّه له بالرّسالة، فكان طلبُ علوِّ السّحرة لأنفسهم ضرورةً لتحقّق علوّ موسى عليه السلام أمام تلك الحشود البشريّة، التي جُمعت في مهرجان كبير، فتمّ بمعجزة موسى إنهاءُ كلّ محاولات فرعون؛ من طلب الاستعلاء، وتأليه نفسه، فهي تضمَّنت الرَّدَّ عليهم، وإعطاء نتيجة الإلقاء قبل وقوعه.

الفروقُ المُعْجَميَّة:

(أَعْلَى) و(فوق):

تُستعمل أعلى في المعنويّات أكثر من فوق

أَعلَى الشَّيْء يكون مِنْهُ، يُقال: هوَ أَعلَى النَّخْلَة، يُراد أَنه في نِهايَة قامتها، وتقول: السَّماء فوق الأَرْض، فلا يَقتَضي ذَلِك أَن تكون السَّماء من الأَرْض، وأَعْلَى يَقْتَضي أَسْفَل، وفَوق يَقْتَضي تَحت، وأَسْفَل الشَّيْء مِنْهُ، وتَحْته لَيْسَ مِنْهُ، فيُقال: وضعته تَحت الكوز، ولا يُقال: وضعته أَسْفَل الكوز، بِهَذا المَعْنى ويُقال: أَسْفَل البِئْر، ولا يُقال: تَحت البِئْر[1]، فلمَّا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ أي: الأعلى

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 184.

من بين المُتحدّين، بمعنى التّفوّق في الحجّة والبيّنة، فهو أعلى على مَن هم مِن جنسه مِن البشر المُتحدّين، كما أنَّ الأعلى تُستعمل في المعنويَّات أكثر من استعمال فوق، فحسُن الإتيان بها هنا.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: 69]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذكر الوعد بالعلوّ إلى ذكر وسائله

بعد أن نهى اللّه تعالى نبيَّه موسى ﷺ عن الخوف وطَمأَنَهُ، وبشَّره بأنّه سيعلو على ما جاء به السّحرة، ناسب أن يذكر ما عليه أن يفعله ليتحقَّق له ذلك؛ فأمره بإلقاء العصا التي في يمينه، التي ستكون سببًا في إبطال جميع ما صنعوا من السّحر، والتهام الحبال والعِصيِّ كلّها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَلْقَفْ﴾: جذر الكلمة هو (لقف)؛ ولقفتُ الشيءَ وتلقفتُهُ، إذا أخذتَه أو بَلَعْتَه، لَقِفْتُ الشّيءَ أَلْقَفُهُ، وتَلَقَّفْتُهُ: تناولته بالحِذْق، سواء في ذلك تناوله بالفم أو اليد، واللَّقْفُ: تناول شيء يُرمى به إليك، ورجل لَقْفٌ ثقفٌ؛ أي: سريع الفهم لما يُرمى إليه من كلام، أو رمي باليد، والتّلقُّف: الابتلاع(1)، والمعنى في الآية الكريمة: ابتلعتْها بسرعة.

2) ﴿كَيْدُ﴾: أصل الكلمة هو (كيد)، والكَيْدُ: المَكْر، والاحتيال، وقد يكون مذمومًا أو ممدوحًا، وإن كان يُستعمل في المذموم أكثر(2)، والكَيْدُ: المعالجة، وكل شيء عالجتَه فأنت تكيده، وهو يَكِيدُ بنفسه؛ أي: يَجود بها، وله معانٍ أخرى ذكرتْها المعاجم، ومعنى ﴿كَيْدُ سَٰحِرٖ﴾ في الآية الكريمة: مكرُ ساحر.

3) ﴿يُفْلِحُ﴾: جذر الكلمة هو (فلح)؛ وفلحتُ الأرضَ: شققتَها للزراعة والحرث، والعرب تقول: الحديدُ بالحديد يُفلِح، ولذلك سُمّي

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مجمل اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (لقف).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مجمل اللغة، والأصفهانيّ، المفردات: (كيد).

الأكَّار فلّاحًا، والفَلاح: الفوز والبقاء، وقول الرجل لامرأته: استفلحي بأمرك؛ معناه: فوزي بأمرك، والفلاح: السَّحورُ، والفَلْحُ والفَلاحُ بمعنًى، وقوله في الآية: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ﴾؛ أيّ: لا يفوز ولا يبلغ بُغيته.

المَعْنى الإجْماليُّ:

توجيهات الوحي بالثبات والإلقاء والثقة بالفلاح

يتوالى السياقُ في بيان تأييد الله تعالى لنبيِّه موسى عليه السلام، وإرشادِه لما يجب عليه أن يقومَ به في مواجهة قوّة المكر والخداع: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾؛ فالأمر بإلقاء العصا التي في يمينه، والتي ستكون محور القضيّة كلّها؛ والمراد بما في يمينه عصاه، كما جاء ذلك صريحًا في آيات أخرى منها قوله: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥﴾ [الشعراء: 45]، والمعنى: (وألْقِ يا موسى ما في يمينك، تبتلعْ ما صنعه السّحرة من تمويه وتزوير جعل النَّاس يتوهَّمون أن حِبالَهم وعِصيَّهُم تسعى)، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾ تعليل لقوله: ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾، والتّقدير: (وألْقِ يا موسى عصاك تلقفْ ما صنعوه، فإنّ الذي صنعوه إنّما هو كيدٌ من جنس كيد السّحرة وصنعهم وتمويههم[1]، فإنّ هذا الجنس من النَّاس لا يفلح أبدًا حيث كان، وحيثما أقبل، وأنّى اتجه؛ لأنّه يصنع للنَّاس التّخييل والتّمويه والتّزوير والتّزييف للحقائق[2]، فالسَّاحر لا يفلح في الدّنيا ولا في الآخرة)، وهذا أفظع خسران لإنسان.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

عطفُ الإنشاء على الخبر صورةٌ من صور البيانِ القرآنيّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ للعطف والوصل، وذلك لتحقق الشّرطين بين الجملتين وهما (الاتصال والمُغايرة) فالعلاقة

(1) طنطاوي، الوسيط: 9/ 125.
(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 126.

المعنويّة بين الجملتين قائمة؛ لأنّ قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ جاءت وسيلةً لتحقيق العلوّ على الخصوم في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أمَّا المُغايرة فقائمة؛ لأنّ الجملة الأولى خبرية والثَّانية إنشائية، وهذا الحال بين الجملتين يسميه البلاغيون التّوسط بين كمال الانقطاع وكمال الاتّصال.

غرضُ الأمر:

هولُ الموقفِ قد يُبطئ بالمؤمنِ ما يجب عليه فعله

الغرض من فعل الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ هو توجيه نبيّ اللّه موسى عليه السلام أن يبادر إلى إلقاء عصاه لِتَقعَ الآيةُ الكبرى أمام فرعون وحاشيته وجنوده، وفيه تثبيتٌ لقلبه عليه السلام في موقف المناظرة الكبرى.

لطيفةٌ في استتارِ الضّمير:

اكتناه المعجزة عند ظهورها باليُسر التَّام

في قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ أي وأَلْقِ أنت يا موسى، فالمراد بالضَّمير المستَتر موسى عليه السلام؛ لأنّه هو المُخاطب، وأنّ الفعل لا بدّ أن يأتي من خلال الإلقاء؛ لتكون المعجزة سائرةً على يده، أو على يمينه، فاستتار الضّمير (أنت) دلّ على التّيسير الذي اكتُنِهَ به فِعْلُ موسى عليه السلام؛ لتظهرَ على يده أعظمُ معجزات الدّنيا في ذلك الزّمان، وتلك البقعة من الأرض.

فائدة التّعبير بالاسم الموصول:

مهما صغُرت عصا موسى فهي أعظم من عصيّ السَّحرة

عبّر النَّظم الكريم عن العصا بـ ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ دون الإفصاح عن اسمها، وفائدةُ هذا الإبهام: جائز أن يكون تصغيرًا لها، وتهوينًا لشأنها؛ أي: لا تبالِ بكثرة حِبالهم وعِصيِّهم، وألقِ العصا الوحيدة الصّغيرة التي في يمينك، فإنّها بقدرة اللّه تتلقفها على وحدَتِها وكثرةِ غيرها، وصِغَرِها وعِظَم غيرها، وجائز أن يكون تعظيمًا لها؛ أي: لا يصيبنّك الخوف والهلع ممَّا ألقى السّحرة من الحبال والعصيّ الكثيرة، فإنّ في يمينك

شيئًا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده، فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها[1].

دلالة شبه الجملة:

التَّذكير بالنِّعم السَّابقةِ تمهيدٌ للنِّعم اللَّاحقة

كما أنَّ في هذا التَّعبير ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ تذكيرًا لموسى عليه السلام بيوم التّكليم؛ حين قال له سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]؛ ليحصل له الاطمئنان بأنّها ستؤول الآن إلى الحال التي صارت إليها يومئذ حيّة تسعى، ولذلك لم يقل له: (وألق عصاك)[2]، هذا فضلًا عن الإشارة إلى تعميم شأن ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ فمهما كان الذي في يمين موسى، فإنّ الله سيُحيله إلى تلك الحيّة، التي ستلقف ما صنع السّحرة من الإفك والخداع؛ فمعجزة موسى غير مرتبطة قطعًا بماهيّة العصا، وإنّما هو فعل الله في شيءٍ سيُلقيه موسى بيمينه.

هذا فضلًا عن أنّ الله تعالى خاطب موسى بإلقاء أقرب ما يكون إليه، وهي عصاه التي اختارها بنفسه فيما سبق ليتوكَّأ عليها، أو تعينه على فعل ما شاء من المآرب، فهي أقرب إليه وإلى نفسه، فلا يخافُ منها عندما تأتيه بالمعجزة، ثم ترجع إلى يمينه، بعد ما تلقف ما صنعته السّحرة.

براعة الكناية:

تعزيز الجانب النَّفسيّ قـوّةٌ في مواجهة الباطل

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ كنايةٌ عن موصوفٍ هو العصا، وقرينة الكناية قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: 17 - 18]، ولم يأت التّركيب: (وألق عصاك)؛ لما في لفظ اليمين من معنى اليمن والبركة[3]، ولتقوية موسى عليه السلام بذكر يمينه، فهو أقوى أثرًا في هذا السّياق من ذكر العصا؛ لأنَّه سياقُ تحدٍّ ومواجهةٍ مع الباطل، كما أنَّ فيها إشارةً إلى أنَّ يمين الأنبياء مباركةٌ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 76.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 260.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 356.

ببركة اتِّباع الوحي والعمل بمقتضى الشَّرع، فلو كان يمسك بأيّ شيءٍ كالحبل أو غيره، فإنّ المعجزة ستُظهر نفسها بمجرّد الإلقاء.

لطيفة في استعمالِ لفظ اليمين وإضافتها للمخاطب:

التّيامن في كلّ شيء سُنّة نبويّة

اختار النَّظم لفظَ: ﴿يَمِينِكَ﴾؛ لأنّ التّيامن سنّةٌ نبويّة، وهي سنّة الأنبياء جميعًا، وكان نبيّ اللّه موسى ﵇ يُمسك عصاه بيمينه، فاقتضى أنّ الإلقاء لا بدّ أن يكون باليد اليُمنى؛ إذ لا يتناسب ظهور معجزة مع مخالفة سنّة نبويّة، وأُضيفت اليمين إلى ضمير المخاطَبِ: ﴿يَمِينِكَ﴾ العائد على موسى ﵇؛ لتشريف يمين موسى ﵇، وأنَّه يصدُر عنها المعجزات.

الارتباطُ بين فعل الأمر وجوابه:

بمجرَّدِ الإلقاء يقع الابتلاعُ

جملة ﴿تَلۡقَفۡ﴾ جواب طلب فعلِ ﴿وَأَلۡقِ﴾، وفائدته بيان الارتباط المباشر بين الإلقاء والتّلقّف لما صنعه السّحرة؛ فهو كارتباط النّبيّ بالمُعجزة؛ فالنّبيّ لا يبذل جهدًا في إظهار المُعجزة، وإنّما هو أمر اللّه وفعله في الوقت ذاته، وإنّما يظهر ذلك فحسب على يد النّبيّ ﵊، فبمجرد الإلقاءِ يقع اللقفُ والابتلاع.

نكتةُ إضمار المقصود:

معجزة الله قائمة بفعل الإلقاء لا بحقيقة العصا

أُضمر الفاعل في قوله تعالى: ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ وهو (العصا) للعلم به، ولعدم توجيه الاهتمام بالعصا، وإبراز جانب المعجزة نفسها، وفعل اللّه تعالى فيها، فمهما كان الذي في يمين موسى فإن المعجزة قائمة، وفعل اللّه في التقاف ما صنع السّحرة واقعٌ حتمًا.

تعيينُ المقصود بالتّأنيث في فعل: ﴿تَلۡقَفۡ﴾:

مناسبة التّأنيث للعصا والحيّة معًا

جاء فعل ﴿تَلۡقَفۡ﴾ مؤنَّثًا، والمراد العصا أو الحيّة التي تحوّلت عن العصا، مع أنّ الآية لم تصرّح بها، وقد عُلم في موضع آخر من القرآن الكريم أنّ ما في يمين موسى ﵇ هي العصا، التي كان يتّكئ عليها، فناسب التّأنيث بقوله: ﴿تَلۡقَفۡ﴾؛ للعصا أوّلًا، والحيّة التي

تحوّلت عنها العصا ثانيًا، فدلَّ التَّأنيث على احتمال إرادة العصا أو الحيَّة، والصَّحيح أنَّه عائدٌ على الاثنين؛ فعاد على العصا أوّلًا باعتبارِها في يمينه، وعلى الحيَّة باعتبارِها تلقف، كأنَّه قال: ألقِ العصا تلقف ما صنعوا بعد أن تتحول إلى حيَّةٍ تسعى.

غـرضُ انـقلاب العصا حيّةً هو ابـتـلاعُ صنيع السّحرة

توجيه القراءات القرآنيّة:

في قوله تعالى: ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾، قرأ الجمهور بتشديد القاف وبجزم الفاء ﴿تَلَقَّفۡ﴾ في جواب قوله: ﴿وَأَلۡقِ﴾، وقرأ ابن ذكوان ﴿تَلَقَّفُ مَا﴾ برَفْع الفاء، وخفَّفَ القافَ حفصٌ وحده، وسَكَّن اللَّام ﴿تَلۡقَفۡ﴾ وقرأ البَزّي وصلا بخُلف عنه بتشديد التاء[1]. وعلى قراءة ﴿تَلَقَّفُ﴾ بالرفع تكون على الاستئناف أو على الحال[2]، والمعنى جعلها مُتَلَقفَةَ على حال متوقعة، ومثله قوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾ [المدثر: 6]؛ أي: لا تَمنُنْ مستكثرًا؛ والمعنى أنّ هذه الحيّة وُجِدَتْ ليكون هذا حالها؛ متلقِّفةً لما صنع السّحرة، فلما استنفدت ذلك كلّه عادت لما كانت عليه، ومَنْ قَرَأَ ﴿تَلَقَّفۡ﴾ جزمًا، أو ﴿تَلۡقَفۡ﴾ فعلى جواب الأمر[3]؛ فمن قرأ بالتشديد في القاف والجزم، فالأصل: (تَتَلَقَّفْ)، فحذف إحدى التائين تخفيفًا، فمن قرأ بالتخفيف جعله لَقِفَ الشيءَ يَلْقَفُ لَقفًا، إذا تَلَقَّفَهُ، ومن قرأ بتشديد التاء؛ فإنما أراد أن يشير إلى الأصل. وهما يرجعان إلى معنًى، بمعنى أنّك متى ألقيتها يا موسى فإنها ستلقف ما صنعوا من السّحر.

تلقّفت العصا جميع ما صنع السّحرة

نكتة التّعبيرُ عن العصيّ والحبال بالاسم الموصول:

عبّر النَّظم الكريم عن الحبال والعِصيِّ التي أَبهرتِ النَّاظرين في قوله تعالى: ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ بالاسم الموصول؛ للدلالة على

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 154، وابن الجزري، النشر: 2/ 271، 321.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 76.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 154.

التّهوين والتّحقير من شأن سحرهم، فضلًا عن فائدة أنّها أفادت التّعبير عن عموم ما صنعوا، دون ترك شيء منها، مع كثرتها.

علّة الفصلِ بين الجمل:

المعجزة النّبويّة هي أعظم حدث يمكن أن يشهده بشر

جملة ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ﴾ مستأنفة ابتدائيَّة[1]، وهي تعليلٌ لجوابِ الأمر؛ لأنّ ما صنعوا أهون بكثير مما يتخيّله البشر، وأنّ المعجزة النّبويّة هي أعظم ما يمكن أن يشهده بشر، فاقتضى ذلك الفصلَ بين الجملتين.

نوعُ (ما) ومعناها:

(ما) بين أن تكون موصوليَّة أو مصدريَّة

دلّت جملة ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ﴾ على الخبر البسيط لا على القَصْر، و(ما) هنا موصولة بمعنى الذي، والجملة مركبة من (إنّ) و(ما) الموصولة، و﴿كَيْدُ سَٰحِرٖۖ﴾ خبر (إنّ)، وكتب (إنما) في المصحف موصولة (إن) بـ(ما) الموصولة كما توصل بـ(ما) الكافة في نحو ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ [البقرة: 173][2]، فالمعنى: (إنَّ الذي صنعوا كيد ساحر)، وتحتمل أن تكون (ما) مصدريَّة، والمعنى: (إنَّ صُنْعَهم كيدُ ساحر).

سرّ اختيارِ لفظ ﴿صَنَعُوٓاْۖ﴾:

أفرغ السّحرة خلاصة علمهم في كيدٍ باطل

معنى الصّناعة الإعداد المُسبق، والتّخطيط والدّراسة، وتدلّ الصّناعة أيضًا على الإتقان قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النّمل: 88]، وقد اختار النَّظم التَّعبير عن سحر السَّحرة بالصِّناعة؛ فعلى الرّغم ممَّا بذل هؤلاء السحرة من الجهد والتّعب في صنيعهم، وأنّهم أفرغوا خلاصة علمهم وطاقاتهم في السّحر، إلا أنهم خابوا وخسروا التّحدّي، وذهب صنيعهم في طيّات الغيب، إذ ابتلعت عصا موسى كلّ شيء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 260.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 260.

توجيه القراءات القرآنيّة:

قيمةُ السَّاحر في سحرِه، فإذا بطلَ تلاشت قيمتُه

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخَلفٌ بغير ألف ﴿سِحۡرٖۖ﴾، وقرأ الباقون: ﴿سَٰحِرٖۖ﴾ على وزن فاعل[1].

وحجة من قرأ بألِفٍ أنه لـمَّا أضيف إليه (الكيد) أتى بـ﴿سَٰحِرٖۖ﴾ دون ﴿سِحۡرٖۖ﴾؛ لأنّ (الكيد) إنما يضاف إلى (الساحر) ولا يضاف إلى (السحر). وحجة من قرأ ﴿سِحۡرٖۖ﴾ بغير ألف أنه على إضمار، تقديره: (كيد ذي سِحْر)، فهي كالقراءة الأولى؛ أضيف (الكيد) إلى فاعل السحر فيهما[2].

ومن بلاغة القراءات هنا جمعها بين المُسبِّب والسبب، وهذا يُظهر أنّ حياة السَّاحر وأوقاته كلّها تكون مختصرةً فيما يصنعه من السّحر، ولهذا فإنّه لا يفلح في الدّنيا لخباثة ما يفعل، ولا يفلح في الآخرة لغضب اللّه عليه.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿كَيۡدُ﴾:

السَّاحر يودع كيده في سحره

الكيد هو ضرب من الاحتيال، ويُستعمل في الذَّمِّ والمدح، وهو في المذموم أكثر، ومعنى قوله تعالى: ﴿كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾؛ أي سحره الذي صنعه وجاء به ليُظهره على النَّاس، وفيه دلالة أنّه صَنَع هذا السّحر بكيدٍ ومكرٍ، وأنّه أَوْدَعَ فيه كيدَه ليوهم النَّاس بالقدرة الفائقة القادرة على تغيير الأقدار، والتّحكّم بمصائر البشر.

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾:

سحرُ السَّحرة كيدٌ دنيويٌّ وكفرٌ عقديٌّ

أضيف لفظ ﴿كَيۡدُ﴾ إلى لفظ ﴿سَٰحِرٖۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾؛ باعتبار أنّ كلّ ساحرٍ لا يَخرج عملهُ أو صنيعُه عن هذا المكر وهذه المكيدة، فالسَّاحر في كل الأصقاع والأزمان هو نفسه، فلا فرْقَ بين واحدٍ وآخر؛ لأنّهم يدرُسون الكيد والمكر

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 321.
(2) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 102.

ويُعلّمونه لأمثالهم، قال تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة: 102]؛ وهو فتنة وكفرٌ قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾ [البقرة: 102]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾ [البقرة: 102]، فأفادت الإضافة أنَّ ما صنعوه لا يخرج عن كونه كيدًا يتلاشى مع تلاشي السِّحر.

غرضُ تنكير ﴿سَٰحِرٖۖ﴾:

تهوين أمر السِّحر وتحقيرُ مآله

ورد لفظ ﴿سَٰحِرٖۖ﴾ منكّرًا من أجل تنكير المضاف، لا من أجل تنكيره في نفسه؛ كأنّه قيل: إن ما صنعوا كيدٌ سحريٌّ[1]، وغرضُه تحقيرُ الكيد وتهوينه، فهو لا يخرج عن كونه كيدًا يذهب مع بصيص الحقّ، ونور الإيمان، وأمَّا وصفه بالعظيم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116]، فالمراد به أنَّه سحرٌ عظيمٌ بالنسبةِ للنَّاسِ، وما يظهر للأعين بادي الأمر.

سرّ إفراد لفظ ﴿سَٰحِرٖۖ﴾:

المقصودُ بالسَّاحر الجنسُ لا معيَّن

إفرادُ ﴿سَٰحِرٖۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾؛ إفراد في موضع الجمع؛ لأنّ القصد في هذا الكلام متّجهٌ إلى معنى الجنسية، لا إلى معنى العدد، فلو جمع، لتوهِّمَ أنّ المقصود هو العدد، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾؛ أي هذا الجنس[2]، فسواءٌ أكان السَّاحر مفردًا أم جماعةً فإنَّه لا يفلح أبدًا.

دلالة عطف الجمل الخبريّة:

صنعة السَّاحر تنكشف بالتّأمّل وثبات النّفس

جملة ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ من تمام الجملة التي قبلها ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾؛ فهي معطوفة عليها، وحال من ضمير ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾؛ أي لا يَنجحُ الساحر حيث كان، لأنّ صنعته تنكشف

(1) الزمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 76.
(2) الزمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 76.

بالتأمل وثبات النفس في عدم التأثّر بها[1]، فدلّ ذلك على أنّ السَّاحر في أيّ مكان أو زمان لا يُفلح مهما صنع من السّحر، وأنجز من الخداع.

نكتة تعريف السَّاحر بعد إيراده نكرةً:

السَّاحر اسمٌ يصدقُ على كلِّ صانعٍ للسِّحر

جاء ذكر ساحر في الآية مرَّةً نكرة وأخرى معرفة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾؛ وهو تعريف جنس؛ أي لا يفلح بها كلّ ساحر مهما فعل، ومهما بلغ من قدرات السّحر وعلمه، ومهما عَظُمَ كيدُه، وهذا يدلُّ على إرادة العموم، أي كل ساحر.

فائدةُ اختيار الفعل ﴿أَتَىٰ﴾:

معظم سحرة فرعون أتوا من جهات عديدة

اختير فعل ﴿أَتَىٰ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾، نحو: حيث (كانَ)، أو حَيث (حلّ)؛ لمراعاة كون معظم أولئك السّحرة مجلوبون من جهات مصر، ولرعاية فواصل الآيات الواقعة على حرف الألف المقصورة[2]، وتفيد (أتى) كثرة تغيير مكان السَّاحر؛ فهو لا يحل في مكانٍ واحد، فهو ينتقل من محل إلى محلّ لأسباب منها؛ خوف أن يبطش به النَّاس لما يأتي به من الإفساد في الأرض.

بلاغة الكناية:

تركيب (حيث أتى) كناية عن العمومِ الزّمانيّ والمكانيّ

أفاد التركيب في قوله تعالى: ﴿حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ عموم الأمكنة التي يحضرها، أي: بسحره[3]؛ إذ ينتقل السَّاحر من مكان إلى آخر طلبًا للرّكون إلى جهة قويّة، فهو يأتي لمكانٍ يبحث فيه عن قبولٍ لدى النَّاس، فإذا أتاه لم يفلح فيه، وهكذا، فهو كناية عن العموم المكاني والزماني، وهذا تأكيد للعموم المستفاد من وقوع النّكرة في سياق النّفي؛ لأنّ عموم الأشياء يستلزم عموم الأمكنة التي تقع فيها[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 260.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 261.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 261.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 261.

الفروقُ المُعْجَميَّة:

الإلقاء والقذف:

الإلقاء: يكون للتّعبير عن طرح الشّيء في المكان، ويكون قريبًا، والقَذْفُ: الرمي بالسّهم والحصى والكلام، والقذَّافُ: المنجنيق[1]، وفي القذف قوَّة تبلغ الهدف، أمَّا الإلقاء فهو لعموم الطَّرح؛ فلفظ القذف لا يناسب الآية؛ لأن المراد هو طرح العصا، وهي تلقف بإرادة خارقة، وهو ما يناسبه الإلقاء الذي يدلّ على طرح شيء في محلّه.

القذف يكون بقوّة المقذوف لتحقيق هدف، أمَّا الإلقاء فأَعَمُّ

اللَّقْف والابتلاع:

اللَّقْفُ: تَناوُلُ الشّيء يُرمى به إليك، وهو سرعة الأخذ لما يرمى إليك؛ باليد أو باللّسان[2]، ورجل لَقْفٌ؛ أي: سريعُ الفهم لما يرمى إليه من كلام باللّسان، وسريع الأخذ لما يرمى إليه باليد، واللّقف، مصدر لَقِفْتُ الشّيءَ؛ إذا أخذتَه فأكلتَهُ أو ابتلَعْتَه[3]، والبلع: ازْدِرادُ الشّيء، تقول: بَلَعْتُ الشّيءَ أبلَعُه، والبالوع من هذا لأنّه يبلع الماء[4]، والبَلّوعَةُ: حُفْرَة في الأَرْض تبتلع الماء[5]، وبَلَعَ الماءَ يَبْلَعُ بَلْعًا، أي شرب، وابتلعَ الطّعامَ، أي: لم يَمضغْهُ[6]، فمعنى اللقف في قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾: أنّ العصا تَصَيَّدَتْ حبال السّحرة وعِصيَّهم واحدةً تلوَ الأخرى، فلم تُبقِ منها شيئًا، ومن معجزة هذه العصا أنّها تلقّفت دون أن يكون ثمة مظهرٌ لبلع هذه العصيّ والحبال.

اللقف التقاط الشّيء بالفم، والبلع ازدراد الشّيء

(1) الخليل، العين: 5/ 135.
(2) ابن سِيدَهْ، المُحكم: 6/ 418.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 9/ 131.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/ 301.
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/ 366.
(6) الخليل، العين: 2/ 151.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من عموم موقف التّحدّي إلى خصوص الاستجابة

لّما جاء أمرُ اللّه تعالى موسى ﷺ بإلقاء العصا لِتَلْقَفَ سِحْرَ السحرة، ووقع الحقُّ بلَقْفِ الحبال والعصيّ، ورأى السّحرة ما رأوه من عجيب ما حدث لسحرهم، الذي هو أعلى ما يمكن أن يأتي به ساحر في وقتٍ سادَ فيه السّحر وعلا شأنه؛ ناسب هنا أن يذكر ردَّة فعل السّحرة، عندما رأوا سحرهم يتلاشى أمام عصا موسى، إذ علموا أنَّ صنيعه ليس له، بل للّه تعالى، فهم أعلَمُ القوم بحقائق السِّحر، فألقى السّحرة بأنفسهم ساجدين؛ إيمانًا باللّه تعالى، قائلين: آمنَّا برب العالمين، ربِّ هارون وموسى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأُلْقِيَ﴾: الأصل (لقى)، واللَّقَى: الشيء المُلقَى الطَّريح، وكلُّ شيءٍ صادف شيئًا أو استقبله فقد لقيه، وألْقاهُ: طرحه، تقول: ألقِه من يدك، وألْقِ به من يدك، وألْقَى إليه المودَّةَ وبالمودَّةِ، والتَقَوْا وتَلاَقَوْا بمعنًى، واسْتَلْقَى على قفاه، وتَلَقَّاهُ؛ أي: استقبله[1]، والمعنى في الآية: فألقى السَّحرة بأنفسهم على الأرض سُجَّدًا.

2) ﴿سُجَّدٗا﴾: جذر الكلمة هو (سجد)؛ السُّجودُ أصله: التّطامُنُ والتّذلُّلُ، وكلُّ ما ذَلَّ فقد سجد، والإسجاد: إدامة النظر، وحكى بعضهم أن السَّاجد في لغة طَيِّئ: المُنْتَصِب، وقال أبو عمرو: أَسْجَدَ، إذا طأطأ رأسه وانحنى، والسُّجود المقصود في الآية هو السجود المعروف ودلالته الإيمان والإذعان، وأفادت صيغة سُجّدًا معنى السُّجود الجمعيّ في سرعة دون تردّد مع تنوّع مقامات السَّاجدين،

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، والرَّازي، مختار الصحاح: (لقى).

وهي كقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [النساء: 154]؛ أي: متذلّلين منقادين، وقوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يوسف: 100][1].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إلقاء السّحرة بأنفسهم ساجدين طلبًا لرحمة الله ومغفرته

تكشف الآية عن المفاجأة الكبرى لموسى ﷺ، ولفرعون ومَلَئه والحاضرين جميعًا، فقد آمن السّحرة حين رأوا ما رأوا من تحوّل عصا موسى، قال تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، والحقّ أن التّعبير بقوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ يدل على قوة البرهان الذي عاينوه، حتى لكأنّهم أَمسَكَتْ بهم قوّة وألقَتْهُم ساجدين لعِظَم المعجزة التي عاينوها، وهم قد كانوا في أعلى طبقات السّحر، فلمَّا رأوا ما فعله موسى خارجًا عن صناعتهم، عرفوا أنّه ليس من السّحر البتّة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفاء الفصيحةِ ودلالتها:

تدلُّ الفاءُ الفصيحةُ على طيِّ أحداثٍ تُفْقَهُ من السّياق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ فصيحةٌ، عاطفة على محذوف يدلّ عليه قوله: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، وقد دلّت على سرعة استجابة السَّحرةِ لداعي الإيمان؛ لما عرفوا من الحقِّ الذي جاء به موسى، وهذه الفاء الفصيحةُ معرِبَةٌ عن جمل غنيَّة عن التّصريح، هي: فزالَ الخوفُ من نفس موسى، وألقى موسى ما في يمينه، فصارت حيَّةً، وتلقَّفَتْ حبالَهم وعِصيَّهم، وعَلِمَ السحرة أن ذلك معجزة، فخرّوا سجَّدًا لله على وجوههم قائلين آمنا برب هارون وموسى[3].

(1) الأصفهانيّ، المفردات: (سجد).
(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 126.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 541.

مناسبةُ اختيارِ مفردةِ الإلقاء:

عند اكتمالِ التَّوبة يكتمل خضوعُ الأوبة

ناسب وصف سجود السّحرة أن يأتي النَّظمُ بلفظ الإلقاء في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ مع إلقائهم حبالهم وعصيّهم، وقد كان أمر السّحرة عجيبًا؛ إذ أَلۡقَوا حبالَهم وعِصيَّهم للكفر والجحود، ثُمَّ أَلۡقَوا رؤوسَهم بعد ساعة للشّكر والسّجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين!؟[1]، وفي ذلك دلالة على صدق توبتهم؛ إذ ألقوا بجباههم على الأرض التي ألقَوا عليها سحرهم في موقف واحدٍ، فعلوا ذلك تائبين للّه سبحانه، وطلبًا لمغفرة اللّه عمَّا فعلوه من السّحر.

فائدة بناءِ فعل الإلقاءِ للمفعول:

الإيمانُ إذا نزلَ بساحةِ القلوب أزال شوكَ الذنوب

بُني فعلُ الإلقاء، الذي هو الطَّرح على الأرض، في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعله؛ دون أن يقولَ: فألقى السَّحرةُ أنفسَهم على الأرضِ، لتصويرِ أنَّ هنالك قوّةً خارجةً عن إرادتهم، جعلتهم يُلۡقَونَ على الأرض ساجدين، وهي قوّة الإيمان، ووسيلتها الإقناعيَّة ما رأوه من عظيم المعجزة التي اخترقت لحظتها قُلوبَهُم؛ فصرّحوا بما في قُلوبهم من طاقة وعزيمة؛ فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

بلاغة المجاز المرسل:

استعمالُ الوصفِ السَّابقِ للسَّحرةِ للتَّعريفِ لا لبيانِ الحال

عند سجودِ السَّحرةِ للّه ربِّ العالمين إيمانًا برسالةِ موسى عليه السلام تخلَّوا عن وصفِ السِّحر، ومع ذلك فقد سمَّاهم اللّه بهذا الوصفِ في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾؛ وذلك نظرًا إلى حالهم الماضية[2]، فهو من باب المجاز باعتبار ما كان من حالهم الأولى، ودلّ ذلك المجاز على سرعة إيمانهم، وانتقالهم من أسوأ حال

(1) الزمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 76.
(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 126.

إلى أفضل ما يتمنَّاه إنسان، من فضل اللّه ورضاه، فلمَّا قالوا كلمة الإيمان أمام فرعون؛ توعّدهم بتقطيع أطرافهم وبتصليبهم فإنّهم قد نالوا منازل الشّهداء.

نكتةُ استعمال صيغة (فُعَّل):

السّجود تعبير عن الرّضوخ والاستكانة

أتى النَّظم الكريم بصيغة المبالغة: ﴿سُجَّدَا﴾ على وزن (فُعّلًا) في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدَا﴾؛ لفائدة شمولهم كلّهم بالسّجود، ودلالة المبالغة في البقاء على حال السّجود، ممَّا يوحي بعظيم معجزة موسى، وما أحدثته من إخضاع العقول، وإرهاب النّفوس، كما أنَّها دلَّت على معنى السُّجود الجمعيِّ في الآن نفسِه دون تردّد مع تنوّع مقامات السَّاجدين؛ فجمع التّكسير يدل على التفاوت في السّجود، أما جمع المذكر السَّالم، فيدل على اكتمال الحدث صفًّا واحدًا، فالفرق بين جمع التّكسير والمذكّر السَّالم هو في انتظام الحركة وانسجامها، ويدعم هذا أيضًا قول اللّه تعالى: ﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدَا﴾ [النساء: 154]؛ أي: حال كونكم سُجّدًا، فقد استخدم لفظة ﴿سُجَّدَا﴾ [النساء: 154] لا (ساجدين).

بلاغةُ الإطنابِ:

تصوير سرعةِ السُّجود الجمعيِّ

عَدَلَ النَّظم الكريم عن أن يُقال: (فسجدوا) إلى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدَا﴾، وهذا إطنابٌ، وتكمن بلاغتُه في بيان سرعة السّجود للّه سبحانه خوفًا وطمعًا؛ فإنَّ لمفردة الإلقاءِ نوعًا من تصويرِ سرعةِ السُّجودِ للّه تعالى؛ لأنَّهم خافوا أن يصيبهم غضبُ اللّه تعالى، لَمَّا رأوا من عظيم المُعجزة، وطمعوا أن يغفر اللّه خطاياهم، فدلَّت طريقة سجودِهم على المسارعة في الخضوع لمعجزة اللّه التي قهرت قدرتهم في صناعة السّحر، وتمام التّوبة والخضوع له سبحانه وعبّر النظم بالسّجود عن الإيمان، وعدم المبالاة بما يمكن أن يَحيق بهم فرعون وجنوده من العذاب والتّقتيل.

علّةُ الفصلِ بين الجملتين:

فصل النَّظم الكريم بين جملة ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾، وجملة ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، فإعلان إيمانهم جاء بالفعل المرئي المشاهد للجميع ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ ثم بالقول المسموع ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، والنَّص دالٌّ على أنّهم أعلنوا إيمانهم بعد السّجود، لكنّ السّجود لا يكون إلا بعد الإيمان كما هو متقرِّرٌ ولا يخفى، وعليه فيكون إيمانهم سابقًا لسجودِهم، لكنَّ الآية ذكرتِ السُّجودَ الظَّاهر قبل التَّصريح بالإيمانِ بألسنتهم، فهي من باب بيان الأفعال، فيكون فصل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ بيانًا لسببِ سجودهم، وهذا هو سببُ الفصل بين الجملتين.

إيمان السَّحرة سبق سجودَهم في الواقع، وسجودُهم سبق إيمانَهم في النَّظم

تنوّع دلالة جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾:

جملة ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يصح أن تكون في موضع الحال؛ أي: ألقوْا قائلين، ويصح أن تكون بدل اشتمال من جملة ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾؛ فإن سجودهم اشتمل على إيمانهم، ويمكن أن تكون مستأنفةً ابتدائيةً لافتتاح المحاورة بينهم وبين فرعون، وإنَّما آمنوا باللّه حينئذ لأنّهم أيقنوا أن ما جرى على يد موسى ليس من جنس السّحر، فعلموا أنّه آية من عند اللّه[1]، ويصحّ أن تكون هذه المعاني قد تحقّقت كُلّها في جمع السّحرة، تقسيمًا على اختلاف درجات فهمهم، وتأثّرهم بما رأوا من تحوّل عصا موسى.

تَحتَمِلُ الحاليَّة أو البدليَّة أو الاستئناف

تعيينُ مَرْجعِ ضميرِ ﴿قَالُوٓاْ﴾:

عاد الضّمير في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ على السّحرة الذين سجدوا بعد ما رأوا مُعجزة موسى ؛ ليدلّ قولُهم على ثبوت الإيمان في قلوبهم، واختيار طريق التّوبة، قبالة

ثبات السّحرة على مسلك الإيمان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 262.

ما سيحدث لهم من عذاب تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم، وهذا ما توعّدهم به فرعون.

نكتةُ اختيارِ كلمة ﴿ءَامَنَّا﴾:

أوّل ما نطق به السّحرة بعد مُعجزة موسى

أوّل كلمة قالها السحرة بعد سجودهم هي كلمة الإيمان في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، الإيمان باللّه وبرسالة موسى وهارون عليهما السلام؛ فقد جاءتهم الأدلّة التي جعلتهم يوقنون أنّ ما جرى على يد موسى إنّما هو من فعل اللّه تعالى؛ لأنَّهم كانوا قد وصلوا في علم السّحر إلى أعلى درجاته، فلمَّا رأوا هول ما جاء به موسى عليه السلام وعظيم ما جرى على يده، أيقنوا كامل اليقين أنّ ذلك من عند اللّه تعالى.

توجيه تعريفِ الربِّ بالإضافة:

التَّلويحُ لفرعون بصريحِ الإيمان باللّه تعالى

جاءَ التَّعريف باللّه سبحانه وتعالى بذكر عنوان الرُّبوبيَّة والإضافةِ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾؛ لأنّ اللّه سبحانه وتعالى لم يكن يُعرف بينهم يومئذ إلا بهذه النّسبة؛ فقد كان لهم أربابٌ يعبدونها ويعبدها فرعون[1]، ووجهٌ آخر أن يكون ذلك من باب الوضوح في إعلان الإيمانِ، أي: آمنا بربِّ مَنْ كفرتَ بدعوته، فيكون تلويحًا لفرعون عليه اللعنةُ بالإيمان باللّه تعالى.

فائدة ذكرِ ﴿هَٰرُونَ﴾:

شراكة هارون لموسى عليهما السلام في الدّعوة والنّبوّة

ذُكر هارون عليه السلام في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾؛ لأنَّه كان شريكًا لموسى في الدّعوة إلى اللّه، قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠﴾ [طه: 29 - 30]؛ ولأنّه أرسلهما وأيّدهما بالحماية والمعجزة، وجعلهما شركاء في أمر النّبوّة، فذكره على ألسنِ السَّحرة دليلٌ على مكانته تلك، وإن لم يكن له ذكرٌ في إلقاء العصا.

إيمانُ السَّحرة لم يكن متعلِّقًا بشخصِ موسى بل بدعوته والحقِّ الذي جاء به

توجيه المتشابه اللفظي في التقديم والتأخير:

قدَّم النظم الكريم ذكر هارون على ذكر موسى عليهما السلام في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 262.

تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾؛ بينما تقدّم ذكرُ موسى على هارون عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف: 121 - 122]؛ فيُسأل عن سرِّ ذلك؟

عند تدقيقِ النَّظر في سياق آيتي الأعراف وطه نجد أنّه في كلا المَوْضِعَين أُخِّر ذكرُ موسى عليه السلام، ففي سورةِ طه قُدِّم عليه ذكرُ ﴿هَٰرُونَ﴾، وفي سورةِ الأعراف قُدِّم عليه ذكرُ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١﴾ [الأعراف: 121]، ففي كلِّ آية أُخِّر ذكرُ موسى عليه السلام، مرَّةً بتقديم هارون، وأخرى بتقديمِ العالمين، فموسى عليه السلام على كلا الحالين متأخِّرٌ من حيث الذِّكر، وهذا يدلّ على أمور، منها:

الأوّل: عامٌّ دلاليٌّ، وهو أنَّ السّحرة حين آمنوا، لم يُؤمنوا بسبب تعلّقهم بشخص موسى عليه السلام، وإنَّما كان بسبب إيمانِهم بدعوته، وهم بذلك يقرِّرون حقيقةً مفادها؛ أنَّ الارتباط هو ارتباط باللّه سبحانه وتعالى؛ ذلك أنَّ فرعون أراد أنْ يجعلَ الدّعوة -أي: دعوة موسى عليه السلام- في أنظار النَّاس دعوة شخصيّة، وبالتالي يجعل الخصومة بينه وبين موسى، لا بينه وبين اللّه، ومن ثمَّ تضيعُ الحقيقة.

لذلك عندما قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [الأعراف: 104]، سارع الملأ إلى التضليل والاتّهام فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠﴾ [الأعراف: 109 - 110]، فمارسَ الملأُ منهجَ الإضلالِ والتَّضليل، والنَّاس لا يعلمون إلا ظاهرًا من القول؛ لذا ينزلقون وراء التمويهات حتَّى تنقطع بهم السّبل، لكنَّ هذا الأمر لا يخفى على أهل العلم - أي: السّحرة - فهم من يُدرِك أبعادَ الأقوال، ومرامي الكلامِ، ومن أجل ذلك كان قولُ السَّحرةِ مدروسًا غيرَ قلقٍ ولا نافرٍ، فقدَّم بعضُهم ذكرَ العالمين، ثمَّ قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف: 122]، لبيان أنَّ الاستجابة كانت لدعوة موسى لا لشخصه، فالإيمانُ هو بربِّ العالمين أوّلًا، لا باعتباره ربَّ موسى فحسب، ولإغاظة فرعون ببيانِ أنَّ إيمانَهم كان بربِّ العالمين الذي سأل عنه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ [الشّعراء: 23]، فكأنَّهم يُجيبونه عن سؤالِه لموسى عليه السلام، وينفون عنه كذلك أن يكونَ ربَّ العالمين، وقدَّم الفريقُ الآخرُ ذكرَ هارون على موسى لأجل هذا الغرض بالذَّات، فأرادوا

قطعَ تمويه فرعون، فقلبوا السّحر على السَّاحر، ويظهرُ أنَّ الفريقَ الذي قدَّمَ ذكرَ العالمين كان أبلغَ في ردِّه، وأقوى في حجَّته، وأنسبَ لعمومِ السّياقِ، قال الآلوسي: "للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربَّى موسى عليه السلام فلو قدموا موسى لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون"[1].

وبالتالي نكون قد علمنا أنَّ السّحرة فريقان، سلك كلٌّ منهم سبيلًا في الجواب، مع اتفاقهم على تأخير ذكر موسى عليه السلام؛ كي لا تكون القضيَّة شخصيَّةً بَيْنَ موسى وفرعون، وذلك نابعٌ من فهمهم لشخصيّة فرعون التمويهيَّة، فكان تأخيرُ ذكره بعد ذكر العالمين من فريق، وتأخير ذكره بعد ذكرِ هارونَ من الآخر، ولكلٍّ بيانُه وفائدتُه في بيانِ الكلام.

وأما الوجه الآخر: فهو خاصٌّ سياقيٌّ، فتقديمُ هارون على موسى عليهما السلام؛ لأمرٍ اختصَّ به سياقُ سورة طه، وهو إكرامُ هارون عليه السلام: فقد أُكرم في مطلع السّورة عندما طلب موسى عليه السلام من ربِّه أن يجعل هارون وزيرًا له: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢﴾ [طه: 29 - 32]، وكان الإكرامُ الثَّاني بإجابة الله طلب موسى عليه السلام: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه: 36]، ثم كان الإكرام الثَّالث بخطابِ الله لهما بصيغة التَّثنية: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ [طه: 43]، ثم الإكرامُ الرَّابع بأنْ أخبر عن كليهما: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه: 45]، وهكذا الإكراماتُ تَتْرى لهارون عليه السلام في سورة طه على وجه الخصوصِ، فناسب أن يكون تقديمُ ذكرِ هارون عليه السلام في هذه السّورة على وجه الخُصوص كذلك[2]، وقال ابن عاشور"وتقديم هارون على موسى هنا وتقديم موسى على هارون في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [121 - 122] لا دَلالَةَ فيه على تَفضيل ولا غيره، لأَنَّ الواو العاطفة لا تفيد أكثر من مُطلق الجمع في الحكم المعطوف فيه"[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 541.

(2) المثنى عبد الفتاح، الإيضاح والتقييد، ص: 239 فما بعدها.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 262.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

انحراف مسيرة التّحدّي بسجود السّحرة وتوبتهم

بعد أن ذكر في الآية السَّابقة مشهد إيمان السّحرة وسجودهم لله، ناسب أن يذكر في هذه الآية المشهد المنتظر ممَّن كان ينتظر النَّصر المبين من السحرة المجلوبين، وما توعّد به فرعون أولئك السّحرة الذين أعلنوا إيمانهم أمام الملأ، فكيف آمن هؤلاء وهم الذين عقد عليهم فرعون الأمل في النّصر على موسى، وما سيأتي به من خوارق العادات؛ فتوعّدهم بأشدّ العذاب، فهو انتقالٌ من مشهدٍ إلى مشهدٍ أعجب منه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاذَنَ﴾ (أذن) أَصْلانِ مُتَقارِبانِ في المَعْنَى مُتَباعِدانِ في اللَّفْظِ، أَحَدُهُما أُذُنُ كُلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ العِلْمُ، أَذِنْت لَهُ في كذا أَطلَقت لَهُ فِعْلَهُ والاِسْمُ الإِذْنُ ويَكونُ الأَمرُ إِذْنًا، وكَذا الإرادَةُ نَحْوُ: بِإِذْنِ اللّه، وأَذِنْت لِلعَبْدِ في التِّجارَةِ فهوَ مَأْذونٌ لَهُ، وأذن بالشَّيْءِ إِذْنًا وأَذَنًا وأذانًا وأَذانَةً: عَلِمَ به، وفَعله بإِذْني وأَذْني؛ أَيْ: بعِلْمي، وأَذِنَ له في الشَّيْءِ إِذْنًا: أَباحَه له، واسْتَأْذَنَه: طَلَبَ منه الإِذْنَ، وأَذِنَ لَهُ عليه: أَخَذَ لَه منه الإِذْنَ، وأَذِنَ إِليه أَذَنًا: اسْتَمَع، وأَذِنَ لِلَّهْوِ: اسْتَمَعَ ومالَ، والإِذْنُ في الشّيء: السَّماح[1]؛ وهو المُراد به في هذه الآية؛ أي: قبل أن أسمح لكم.

(1) ابن سِيدَهْ، المحكم، والأصفهَانيّ، المفردات: (أذن).

2) ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾: (صلب) أصلٌ، والصُّلْبُ: الشّديد، والصَّلْبُ: تعليق الإنسان للقتل، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: 157]، والصَّليبُ: أصله الخشب الذي يُصَلَبُ عليه(1)، والمقصود في الآية: لأُعلِّقَنَّكم للقتل.

3) ﴿جُذُوعِ﴾: (جذع) ثَلاثَةُ أُصولٍ: أَحَدُها يَدُلُّ على حُدوثِ السِّنِّ وطَراوَتِه، والأَصْلُ الثّاني: جِذْعُ الشَّجَرَةِ، والثّالِثُ: الجَذْعُ، مِنْ قَوْلِكَ جَذَعْتُ الشَّيْءَ إذا دَلَّكْتَهُ؛ وجذع النّخلة: عودُها، وجمعه جُذوع، وجَذَعْتُهُ: قطعتَه قَطْعَ الجِذع(2)، والمعنى المقصود في الآية: هو عود النخلة.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

عنوان الظّالمين الوعيد والتّهديد والتّعذيب الشّديد

بيَّنت الآية الكريمة ما تَوعَّد فرعون به السّحرة، بعد أن خرّوا لله تعالى ساجدين: فأنكر عليهم ذلك واتّهمهم بخيانته والتآمر عليه كونهم آمنوا بموسى وصدقوه في دعوته قبل أن يأذن لهم بذلك، وجعل انقيادهم لموسى دليلًا على أنّه كبيرُهم ومعلِّمُهم فنون السّحر، وكان غرض فرعون من هذا القول صرف النّاس عن التأسّي بهم، والإيمان بما آمنوا به، ثمّ إنّه اقتضى أن يظهر أمام قومه بمظهر الثابت والمتماسك بعد أن استبدّ به وبهم الخوف والهلع، من هول ما رأوه(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

ردودُ أفعالِ الطُّغاة على مُخالفيهم خارجةٌ عن نطاقِ القَبول

فُصلت جملة: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ عن الجملة التي قبلها: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لما بينهما من شبه كمال الاتّصال، فإنَّ إعلان السَّحَرة عن إيمانِهم بربِّ هارون وموسى، وهو على النَّقيضِ

(1) الخليل، العين، وابن سِيدَهْ، المُحكَم، والأصفهانيّ، المفردات: (صلب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مجمل اللغة، والأصفهَانيّ، المفردات: (جذع).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 128.

ممَّا أراده فرعون، يُثير سؤالًا عن موقفه من إيمانِهم، وما الذي قاله وفعله بعد ذلك؛ فإنَّ شأنَ مثل هذا الصَّنيعِ أن يُحرِّك كوامنَ النُّفوس؛ فتسأل ماذا كان رد فرعون؟ فيأتي الجواب بهذه الجملة المتوالية في معانيها ودلالاتها.

فائدة التّعبير بفعل ﴿قَالَ﴾:

الحقُّ منبلجٌ في لسانٍ والباطلُ منفلجٌ في آخر

اختار النَّظم فعل ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ لمقابلة الفعل ﴿قَالُوٓاْ﴾، فإنَّ النَّظم عقد مقابلةً بين قولين متناقضين، قول الواثق بدين اللّه تعالى، وأنَّ الحقَّ قد بلج على لسانه، وقول المراوغ المكذِّب لدين اللّه تعالى، وأنَّ الباطلَ قد انفلج في لسانه.

توجيه المتشابه اللفظي في الحذف والذكر:

انقسام السَّحرة فريقين في إعلانِ الإيمانِ استدعى اختلاف النَّظم في الحذفِ والذِّكر

طوى النَّظم الكريم التَّصريح باسم فرعون في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ فلم يقل: (قال فرعون) كما ذكره في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ﴾ [الأعراف: 123]، وسرُّ ذلك أنَّ القُرآن يُشير من خلال فنِّ الحذف والذكر إلى أنَّ المقابلة في الأعراف أمسَتْ واضحةً جليّةً بَيْنَ الحقِّ والباطل بأجلى صوره، إنها بَيْنَ ربِّ العالمين وفرعون، فلمَّا قال السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف: 121 - 122]، ذكر اسمَ فرعون، وأمَّا هنا فحذفه لعدم ذكره في المقابل، فهم نطقوا بالإيمان بربِّ هارون وموسى، وبناءً على ذلك فإننا نفهم أن كلًّا من فريقي السّحرة سلك طريقًا في إجابة فرعون غير طريق الفريق الآخر؛ وكان تعقيب النَّظم بالحذفِ والذِّكرِ ليُنبِّه على الفرق بين القولين.

توجيه القراءات القرآنيّة:

الخبر والاستفهام جاءا للإنكارِ والتّوبيخ

قَرَأَ الأصبهاني عن ورش عن نافع، وقنبل بخلفه عن ابن كثير، وحفص، ورويس عن يعقوب قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمۡ﴾؛ على لفظ

الخَبَر[1]، وتوجيهه أنَّه خبرٌ مستعملٌ في التّوبيخ[2] والإنكار، وقَرَأَ الباقون ﴿ءَءَامَنتُمۡ﴾ بهمزتين، الثَّانيَة ممدودة والأولَى للاستفهام[3]، وهم على أصولهم في التحقيق والتسهيل، وهو للتّوبيخ والتّقريع؛ فاستوت القراءتان في كونهما محمولتين على التَّوبيخ والإنكار.

براعة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿ءَامَنتُمۡ﴾:

آثر النّظم صيغةَ الفعلِ الماضي: ﴿ءَامَنتُمۡ﴾ دون أن يقول: (أتومنون)، وذلك لتأتي على معنى الخبريَّة والاستفهام، ولإلباسهم تهمة الخيانة، أي: أنتم آمنتم له في الماضي، وقد وقع ذلك منكم والآن أتيتم لتُكملوا الخيانةَ معه، فهو ليس إيمانًا طارئًا بل إيمان قديم، وهو ما يُؤكِّد أنَّ فرعون استعمل في خطابِه جميع الألفاظ الدَّالة على اتِّهام السَّحرة بأنَّ إيمانَهم ليس إيمانًا بل هو أمرٌ آخر بُيِّت بليلٍ.

المراوغون يبحثون عن أسباب إيقاع التُّهمة بالمخالفين

توجيه المتشابه اللفظيّ في اختيار حروف المعاني:

اختار النّظم الكريم حرفَ اللام في قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ دون الباء فلم يقل: (به) كما في آية الأعراف ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: 123]، وذلك أنَّ الآية هنا كشفت عمَّا يجول في نفس فرعون من اتّهام السّحرة بأنَّهم آمنوا بشخص موسى لا بدعوته، مع أنَّ موسى متأخِّر في اللَّفظ! فآثر اللام، أي: آمنتم لأجله، وهنا تبدو المسألة شخصيَّة.

استنكر فرعون الإيمانَ بموسى في سياق، والإيمانَ بالله في آخر

والفريق الآخر من السّحرة لمَّا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١﴾ [الأعراف: 121]، كان ردُّ فرعون: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 123]، فتعدّى الفعلُ بالباء لا باللام، أي أنّه أنكر عليهم إيمانَهم بالله لا بموسى فحسب[4].

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 421.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 263.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 421.
(4) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/ 672، والمثنى عبد الفتاح، الإيضاح والتقييد في إعجاز القرآن المجيد، ص: 241.

نكتةُ إيراد ظرف الزّمان ﴿قَبۡلَ﴾:

إيمان السّحرة بالله هو الجريمة التي استحقوا عليها العذاب والصّلب

فائدة ظرف الزّمان ﴿قَبۡلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ الدّلالة على المنع لا على احتمال وقوع الإذن بالإيمان، فمعنى العبارة: من غير أن آذن لكم في الإيمان له، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف: 109]، والحقيقة أنّها لن تنفد كلمات ربّي أبدًا، وكذلك الأمر هنا فإنَّ فرعون لن يأذن بتاتًا، لكنَّه ذكر ذلك من قبيل المبالغةِ في الإنكار.

ويصح أن تُحمل على التَّمويه على النَّاس، أي: لو طلبتم الإذن لأذنت لكم، ففيه إعلامٌ بغطرسته وجبروته، وأنَّ الإيمانَ باللّه تعالى متوقفٌ على الإذن منه، وهذا غاية ما تصله ألسنُ الطُّغاة من الجبروت في الملكوت.

نكتةُ اختيار جملة المصدر دون الاسم:

الإيماءُ إلى احتماليَّة وقوعِ الإذن بالإيمان تمويهًا وكذبًا

الموصول الحرفيّ: هو كل حرف أوِّلَ مع صلته بمصدر ولم يحتج إلى عائد، وقد اقترنت صلته هنا بالحرف ﴿أَنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ فيكون تأويله بالمصدر: (إذني لكم)، ولم يأتِ النَّظم (آمنتم له قبل إذني لكم) للتَّمويه عليهم بأنَّ الإذنَ قد يصدر عنه في المستقبل، وهذا في غايةِ السَّفالة في الكذبِ والمراوغة، ودلالتها على الهيمنة التي يُدار فيها اختيار الفرد والمجتمع الفرعونيّ؛ أن يجرؤ أحدٌ على شيء إلا أن يكون له إذن من فرعون.

بلاغةُ اختيارِ مفردة الإذن:

المجرمُ يُظهر نفسَه على أنَّه رحيمٌ بالعبادِ رؤوفٌ بالبلاد

استنكر فرعون أن يؤمن السَّحرة بموسى عليه السلام فقال: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ وهي مقاربة منه وبعض إذعان[1]، فلما رأى فرعون إيمان السّحرة؛ اختلق علّة إعلانهم الإيمان قبل الاستئذانِ منه، وعدّ

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 53.

ذلك جرأةً عليه، وأوهم أنّهم لو استأذنوه لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنّهم تواطؤوا مع موسى من قبلُ؛ فأظهروا العجز عند مناظرته، ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأنّ موسى لم يأت بما يعجز السّحرة؛ إدخالًا للشّك على نفوس الذين شاهدوا الآيات[1]، وإنّما هو تواطؤ وخيانة من السّحرة، ولذلك حوَّل القضيَّة بين كونها مجابهةً لإظهار الحقّ، إلى كونها مؤامرةً على النَّاس، وأنَّ السَّحرة كانوا أداة موسى عليه السلام في ذلك.

دلالةُ اختيارِ مفردة ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾:

تعليقُ الهزيمةِ بالأوهامِ شِنْشِنَةُ المغلوبين أمام العوام

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ جملة تعليليّة تحمل ملمح المكابرة والمناورة، للتّعمية على الحقّ وطمس معالمه، وقد دلّ لفظ: ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ على معنى أنّه أَسْحَرُ منكم، وأعلمُ بفنون هذا الخداع البصريّ، الذي برع فيه السّحرة واشتهروا به، لا بمعنى الكبير شرفًا وقدرًا ومكانةً، يريد: أنّه أَسْحَرُهم وأعلاهُم درجةً في صناعتهم، فتكون كلمة (كبيركم) كنايةً عن المعلّم الأوّل والسَّاحر الذي تَركَنُ إليه السّحرةُ.

براعةُ استعمال الاسم الموصول:

الاستنتاج الباطل قد ينطلي على العوام لكنَّه لا يُحرِّك ساكنَ أفهام العلماء

الاسم الموصول (الذي) وأخواته ممَّا فيه (أل)؛ وُضعَ توصُّلًا إلى وصف المعارف بالجمل[2]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، جاء فيه الوصف اسمًا موصولًا، وكبيركم معرّفٌ بالإضافة، فيكون الاسم الموصول قد أفاد تعريف الكبير بأنّه معلِّمُهُمُ السّحرَ، وأستاذُهم الذي يرجعون إليه، وفائدةُ استعمالِ الاسم الموصول بيانُ أنَّه هو الذي علّمهم السِّحر دون غيره، فاتّسمت وظيفة الاسم الموصول بالاختصاصِ، فإنَّ فرعون قد استخلص من الموقف أنَّ هناك سحرًا عظيمًا قام به السَّحرة، وسحرًا أعظم -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 263 - 264.

(2) ابن جنّي، الخصائص: 1/ 321.

حسب ادِّعائه الكاذب - أتى به موسى عليه السلام، فنتيجة ذلك أنَّ الذي علَّم السِّحر هو الذي أتى بالسِّحر الأعظم، وهذا الاستنتاج الباطل قائمٌ على مهارة المراوغة والتَّدليس على النَّاس، ففيها أنَّ الطُّغاة يمتلكون أدوات إقناع العوام، لكنَّهم لا يستطيعون تحريك ساكن الأفهام لدى العلماء.

بلاغة الكناية عن الصفة:

من أفلس في الحجَّة لجأ إلى التُّهمة

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ كنايةٌ عن صفة الخيانة، ففرعون كنَّى عن الخيانة التي كانت من وراء ظهره - فيما يُظهره للنَّاس - بهذا اللّون من التّعليم المريب، فكأنَّه يقول لهم: أنتم تواطأتم على ما فعلتم[1]، وأتيتم بما أتيتم به ليقع له النَّصر العظيم، فهي خيانةٌ عُقدت بالخفاءِ، ومؤامرةٌ جلبت البلاء.

دلالة ترتيب المفعولين:

الاتِّهامُ مصدرُ إلهامِ الطُّغاة وأصلُ أفكار البُغاة

فعل (علَّم) في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾؛ أخذ مفعولين، وهو فعلٌ ماضٍ من أفعال اليقين، فاعله مستترٌ، والكاف مفعول به أوّل، و﴿ٱلسِّحۡرَۖ﴾ مفعول به ثانٍ[2]؛ وقد تقدَّم ذكر الضَّمير على السِّحر؛ للإيماءِ أنَّه تعليم خاصٌّ بهم، أي علَّمكم السِّحر على وجه الخصوص، وبعنايةٍ واهتمام، وهذا يُؤكِّد ما أثاره فرعون من الاتِّهام بالخيانة المدبَّرة.

بلاغةُ الفاء الفصيحة:

بناءُ التّهديدِ والوعيدِ على إيمانِ السَّحرة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾؛ هي (الفاء) الفصيحة، وهي التي حُذف فيها المعطوف عليه مع كونه سببًا للمعطوف؛ فسمّيت فصيحة؛ لأنها تفصح عن محذوف، وتفيد بيان سببيته، أو هي الدَّاخلة على جملة مسَبَّبة عن جملة غير مذكورة، وقد جاءت هنا

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 33.
(2) الدعَّاس، إعراب القرآن: 2/ 264.

فصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: (إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيان شأني فيكم ... فلأقطعنَّ)[1].

نكتةُ المبالغةِ:

المبالغةُ في الوعيدِ دليلُ امتلاءِ الجوفِ بالحَنَقِ الشَّديد

في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾؛ استُعمِلَ القسم ونونُ التّوكيدِ الثّقيلة وتضعيف الفعل للمبالغة في الوعيدِ بعذابِ تقطيع أطرافهم؛ لأنَّه أراد من ذلك أن يجعلهم عبرة للنَّاس جميعًا؛ ثمّ إنّ أعدادهم كثيرة؛ فتقطيع أعضائهم من خلاف يقتضي تقطيع مئات الأطراف، وهذا بحدّ ذاته مبالغة في التّقطيع وإسرافٌ في الدّماء، ووحشيّة في الأداء؛ لأنّه عقاب جماعة كبيرة، وفئة كاملة من النَّاس لم تأت بذنب سوى أنّها سجدت للّه وآمنت به سبحانه.

بلاغةُ اختيار مفردة التَّقطيع بهذه الصيغة:

المبالغة في عذاب السّحرة عبرة للنَّاس

وفي قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ بوزن (لأفَعِّلَنَّ)، وصيغة (التّفعيل) هي صيغة مبالغة؛ لتحقيق غرض التّخويف والصّدّ عن الإيمان؛ إذ لجأ فرعون إلى اتّهام السّحرة بالخيانة، والوعيد بتقطيع الأطراف والصّلب، ولعلّ ذلك من أعظم ما يخطر ببال إنسان من شديد العذاب، والتقطيع: شدّة القطع، ومرجع المبالغة إلى الكيفية، وهي ما وصفه بقوله: ﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾؛ أي مختلفة؛ بألَّا تقطع من جانب واحد بل من جانبين مختلفين؛ أي تقطع اليد ثمّ الرجلُ من الجهة المخالفة لجهة اليد المقطوعة، ثم اليد الأخرى، ثم الرّجل الأخرى[2].

بلاغةُ المجاز العقلي:

الآمر والمأمور شريكا الجريمةِ والطُّغيان

أسند فرعون التَّقطيع لنفسه في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم﴾، مع أنّه لن يقوم بذلك بنفسه، فهذا إسناد مجازيّ، فالأمر لفرعون، والتّنفيذ للجند، فقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 381.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 264.

﴿وَأَرۡجُلَكُم﴾ مجاز عقليّ علاقته السّببيّة، لأنّ فرعون بيده الحكم والأمر، فيأمر بأن تقطّع أيديهم وأرجلهم فيكون ما أمر به هو سبب وقوع العقاب عليهم.

توجيه المخصوص بالذِّكر:

الأيدي والأرجل التي لا تخدم الظّالم يقطعها

خصّ فرعون الأيدي والأرجل بالتقطيع في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾؛ لأنّها هي أعضاء الحركة والتّنقّل، ولأنّ السّاحر تجوّل بقدميه ليستحصل على السّحر، وعمل بيديه ليصنع السّحر ويأتي به، فلمَّا آمنوا بموسى توعّدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ والظّاهر: أنّ القطع على هذه الكيفيّة كان شعارًا لقطع المجرمين، فيكون ذكر هذه الصفة حكاية للواقع لا للاحتراز عن قطع بشكل آخر؛ إذ لا أثر لهذه الصّفة في تفظيع، ولا في شدّة إيلام، إذا كان ذلك يقع متتابعًا[1].

نكتة تقديم الأيدي على الأرجل:

الأيدي أصلُ الأمر في حركةِ الإنسانِ

قُدِّم ذكرُ الأيدي على الأرجل في قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم﴾؛ لأنَّ الأيدي أخصّ بالقطع من الأرجل؛ لأنّها هي العضو الفاعل غالبًا؛ فهؤلاء السّحرة ألقوا حبالهم وعصيّهم بأيديهم؛ فلمَّا آمنوا باللّه توعّدهم بقطع أيديهم لأنَّهم ألقوا الحبال والعصيّ بالأيدي، وأضاف إليها الأرجل؛ لأنّها هي العضو السَّاعي والسَّائر في الأرض.

نوعُ ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها:

تقطيع الأعضاء بالمخالفة إرهابٌ وتخويفٌ

حرف ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾؛ ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضوِ العضوَ وهي مع المجرور بها في حيز النَّصب على الحال؛ أي لأقطعنّها مختلفات[2]؛ لأنها إذا خالف بعضها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 264.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 33.

بعضًا فقد اتصفت بالاختلاف[1]، فلا يكون للعضو المقطوع قيمة؛ أو تحديد؛ وإنّما تكون الأهميّة والابتداء في ذلك للمخالفة حصرًا، فيكون مخالفًا للعضو المقطوع قبله، فدلّ قوله: ﴿مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ على عدم المبالاة بقيمة أيديهم وأرجلهم، فالمهم في التّقطيع أنّها من خلاف، وفيه ما فيه من التبشيع والتّخويف.

نكتةُ المبالغةِ في صيغة ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾:

كثرة التّصليب وشدّة دقّ الأجساد في الجذوع

قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ والتّصليب: مبالغة في الصّلب، والصّلب واحد؛ هو ربط الجسم على عود مُنتصب أو دَقُّهُ عليه بمسامير، وأمَّا سرّ المبالغة فيه فراجع إلى كثرة من سيُصلب من النَّاس في وقت واحدٍ، فقد جمع فرعون كلّ السّحرة المعروفين في ذلك اليوم، أو قد ترجع المبالغة إلى الكيفية أيضًا بشدّة الدقّ على الأعواد[2].

توجيه المجاز العقلي:

أوامر فرعون هي سبب التَّصليب

في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ مجاز عقلي لإسناد الفعل إلى غير فاعله، فوعيد فرعون للسّحرة بتقطيع أطرافهم، وصلبهم، لن يقوم به فرعون بنفسه، إنّما سيكون سببًا في وقوعها؛ لأن فرعون سيأمر بعضًا من جنده بفعل ذلك، وقرينة ذلك استحالة أن يفعل فرعون ذلك بنفسه، ففرعون يأمر وينهى، هذا أوّلًا، ثم إنّ هذه العملية تتطلّب من القوة والجهد ما يتعذر على الواحد إنجازها، فهو مجاز عقليّ علاقته السّببية.

التَّصليبُ ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الصّلب في جذوع النّخل أو عليها

قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ يحتمل أن يكون حقيقة، وفي التفسير أنه نقر جذوع النّخل حتى جوّفها ووضعهم فيها

(1) الزمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 77.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 265.

فماتوا جوعًا وعطشًا وكمدًا، ويحتمل أن يكون مجازًا وله وجهان: **أحدهما:** أنّه وضع حرفًا مكان آخر، والأصل على جذوع النّخل، (في) بمعنى (على) مجازًا، من حيث إنّه شبّه تمكّن المصلوب بالجذع، بتمكن المظروف في الظّرف وهذا هو المشهور، **والثاني**: أنّه شبّه تمكُّنهم بتمكّن من حواه الجذع واشتمل عليه[1].

بلاغة الاستعارة المكنيّة التّبعيّة:

تصوير حنق فرعون بإرادته أن تكون الجذوع قبورًا للسّحرة

قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾، في الكلام استعارة مكنيّة تبعية، وإجراؤها: أنّه شبّه استعلاء المصلوب على الجذع، بظرفيّة المقبور في قبره، فشبّه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشّيء الموعى في وعائه، فلذلك قيل: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾[2]، فتكون جذوع النخل هي قبورهم.

أو نقول: إنَّ الحرف (في) استعارة تبعية تابعة لاستعارة متعلق معنى (في) لمتعلق معنى (على)، فعدل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظّرفيّة تشبيهًا لشدّة تمكّن المصلوب من الجذع بتمكن الشّيء الواقع في وعائه، وتعدية فعل ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ بحرف ﴿فِي﴾ مع أنّ الصّلب يكون فوق الجذع لا داخله؛ ليدلّ على أنّه صلب متمكن يُشبه حصول المظروف في الظّرف[3].

وفي هذه الاستعارةِ تصويرٌ لشدَّة حنقِ فرعون على السَّحرةِ، حيث إنَّهم يريدهم في كرانيب النَّخل، بعد أن يشُدَّ وثاقهم فيها.

سرُّ عطفِ التَّصليبِ على التّقطيع:

التّقطيع لإنشاءِ العذاب والتّصليب لإزهاقِ الرّوح

خصَّ فرعون عليه اللعنة نوعَي العذاب التَّقطيع والتَّصليب، فأمَّا التَّقطيع فلغرض بيان شدّة الآلام، وقد يؤدّي إلى موت صاحبه أو

(1) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 8/ 76.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 78.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 265.

لا يؤدّي إلى ذلك؛ فيأتي التّصليب، والتّصليب لغرض العبرة لمن مرّ عليهم فشاهدهم وعلم ما فعلوه، فيموت من لم يمت بتقطيع أطرافه، وفي الجمع بينهما ترقّ في شدّة العذاب والعقوبة؛ لِأَن الغَرَض من الصلب التشهير(1).

توجيه المتشابه اللّفظي في استعمال حروف العطف:

(الـواو) للجمع و(ثم) للتراخي

قوله في سورة الأعراف: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ١٢٤﴾ [الأعراف: 123 - 124]، على حين في سورة طه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، وقال في سورة الشّعراء: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ٤٩﴾ [الشعراء: 49].

فاختصت سورة الأعراف بـ ﴿ثُمَّ﴾ [الأعراف: 124] والأُخرَيانِ بـ (الواو)؛ وذلك لأنّ السورتين اللتين اختصّتا بـ (الواو) هما المبنيتان على الاقتصاص الأكثر، والبسط الأوسع، و(الواو) أشبه بهذا المعنى؛ لأنّه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقًا لما قبلها؛ كالتّعقيب الذي يفاد بـ(الفاء)، ويجوز أن يكون متراخيًا عنه كالمهلة التي تفاد بـ (ثمّ)؛ لا بل يجوز أن يكون ما بعدها مقدَّمًا على ما قبلها، ومجامعًا لها؛ إذ هي موضوعة للجمع ولا ترتيب فيها، فكانت (الواو) أشبه بهذين المكانين، و(ثم) تختص بأحد المواضع التي تصلح (الواو) لجميعها، فلما كان مقتصرًا بها على بعض ما وضعت له (الواو)، استعملت حيث اختصرت الحال، فلذلك خصت ﴿ثُمَّ﴾ [الأعراف: 124] بسورة الأعراف، و(الواو) بالسورتين الأخيرتين(2).

(1) الكفويّ، الكُلّيَّات، ص: 679.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/ 678 - 679.

دلالة عطف جملة ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ على جملة جواب القسم:

الخطابُ مباشرٌ للسَّحرة بالعذابِ الحسيِّ وإيماءٌ للنَّاس بالعذابِ المعنويِّ

عطفت جملة: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ على جملة: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ بحرف الواو لإضافة العذاب المعنوي بعد العذاب الحسي، والمعنى (أنّ علمكم بشدّة عذابي سيكون مع تقطيع أيديكم وأرجلكم وتصليبكم، وما في ذلك من التّخويف والتّرهيب، ممَّا سيكون من الشّدة والبلاء ساعة التّقطيع والتّصليب)؛ فهو خطابٌ مباشرٌ للسَّحرةِ، وخطابٌ إيمائيٌّ للنَّاس، كأنَّه قال: (من لم يعلم بعد هذا العذاب مَنِ الأشدُّ عذابًا؛ فلينتظر مصير السَّحرةِ).

بلاغةُ المقابلةِ بلفظ ﴿أَيُّنَآ﴾:

تحدّي فرعون بإظهار قوته وجبروته لتحقير المقابل

أراد فرعون بقوله: ﴿أَيُّنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا﴾؛ نفسه وموسى عليه السلام بدليل قوله: ﴿لَهُۥ قَبۡلَ﴾ واللام مع الإيمان في كتاب اللّه لغير اللّه تعالى، كقوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: 61]، وفيه دليل على اقتداره وقهره، وما أَلِفَهُ من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى عليه السلام، واستضعاف له مع الهزء به؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء[1].

ولعلّه أراد بالمشتركَيْن نفسَه وربّ موسى سبحانه لأنّه عُلِمَ من قولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أن الذي حملهم على الإيمان به هو دعوة موسى إلى التّوحيد والإيمان باللّه سبحانه؛ أي وستجدون عذابي أشد من العذاب الذي حُذِّرتُموه، ويدل على أن ذلك مراد فرعون ما قابل به المؤمنين قوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ بقولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ أي خير منك وأبقى عملًا من عملك، فثوابه خير من رضاك وعذابه أشدُّ من عذابك[2].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 78.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 265.

نكتة تعليقِ فعل ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ عن العمل:

شدَّةُ الكفرِ تورِّث مظنَّةَ امتلاكِ المستقبل

فعل ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا﴾ معلَّقٌ عن العمل لوقوع الاستفهام في آخره، والمعنى: (ولتعلمنّ ما سأفعل بكم من التنكيل والتعذيب، حينها ستعلمون شدّة عذابي، وأنّه أعظم وأكبر من عذاب ربّكم الذي تؤمنون به)، فالعلم سيكون مَحَطَّ اختبارِ مَن سيكون أشدَّ عذابًا من الآخر، وهذه هي كلمات التّحدّي التي أطلقها فرعون؛ ولعلّ هذا أقصى ما يستطيع فعله؛ ليذيق السّحرة المارقين عن سبيله أشدّ العذاب.

دلالة حذفِ المسند إليه:

تطرف فرعون في الإرهاب والتّخويف

دلَّ لفظُ ﴿أَشَدُّ﴾ مع المسند إليه المقدّر (هو) على المبالغة بتنوّع أصناف العذاب التي لم تُذكر في تهديد ووعيد فرعون من التقطيع والتّصليب، ليأتي بزيادة في إرهاب المُخاطبين، والوعيد بالتّنكيل بهم، فقد حصر شدّة عذابه على أنّها لا مثيل لها، متحدّيًا إله موسى كِبْرًا وعُتوًّا، بعد ما رأى منه المعجزة العظيمة.

دلالة لفظ ﴿عَذَابٗا﴾:

إخفاء أصناف العذاب والتّلويح بها

لفظُ: ﴿عَذَابٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا﴾ دلّ على الجانب الخفيّ من العذاب، ممَّا لم يُحكَ في السّياق القرآني الذي هدّد به فرعون، وتوعّد السّحرةَ الذين آمنوا، وفائدة ذلك للمعنى أنّ فرعون سلك أسلوبًا آخر في التّهديد والوعيد؛ أخفى فيه خيارات العذاب، وهذا ما ينعكس سلبًا على نفوس المخاطبين زيادة في التخويف.

بلاغة المجاز العقلي:

إصرار فرعون على التنكيل بالسّحرة

دلّ فحوى الخطاب في قوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ على أنّ فرعون قصد في خطابه هذا أنّه هو من سيقوم بأعمال التّعذيب بنفسه، ليذيقهم شدّة ذلك، وهذا مجاز عقليّ علاقته السّببيّة؛

لأنّ فرعون حقيقة سيكون سببًا في اتخاذه قرار تعذيبهم، وأنّ عذابهم سيكون من قِبَل جنود فرعون أو مَن سيؤمر بهذا العمل، وأفاد هذا المجاز العقليّ بيان إصرار فرعون على التّنكيل بالسّحرة تحت نظره وإشرافه.

دلالة كثرةِ المؤكِّدات:

تصوير الاضطراب النّفسيّ لغطرسة فرعون وجبروته

دلّت كثرةُ المؤكِّدات على لسان فرعون في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ و﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ و﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ و﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ على بلاغة القرآن الكاشفة عن غطرسة فرعون وجبروته، وهذه التأكيدات دلّت على الاضطراب النّفسي الذي أصاب فرعون عند سجود السّحرة وإعلانهم الإيمان، وعدم الاكتراث بفرعون وما يتوعّد به، فجاءت التّأكيدات المتوالية في كلامه على شديد العذاب الذي سيصيب من خرج عن طوعه لغايات منها: إظهار جبروته في لحظة الفشل أمام النَّاس، في يوم الزّينة الذي يحشر فيه النَّاس جميعًا، وتوعّد السّحرة بأعظم العذاب؛ طلبًا لصدّهم ورجوعهم عن قرارهم، وإرضاء لجبروته الذي تبدّد بطريقة غير متوقّعة.

بلاغة التّذييل:

تصعيد فرعون لخطاب الانتقام والعذاب

قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ تذييل مقرّر لمضمون ما قبله، وتضمّن هذا التّذييل زيادة في التّوكيد، واختصارًا لجميع ما ذُكر من التّهديد والوعيد بالعذاب والصَّلْبِ؛ فقال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ على غرار ما سبق من التّوكيد في قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ والإصرار على سوء الانتقام.

إيثار صيغةِ المضارع في الأفعال:

لم يكن الوعيد بالعذابِ بل باستمراره وعدم طروِّ الرّحمة

إيثار المضارع في الجمل الثّلاث في قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ و﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ و﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾؛ لأنّ وقوع الوعيد يكون آتيًا بعد النّطق به، وأفاد المُضارع التّجدّدَ في طرائق التّعذيب؛ لأنّه حدّد أوّلًا تقطيع

الأطراف والصّلب، ثُمّ توعّد بأشدّ العذاب، ولعلّ هذا ما لم يُصرّح بتفاصيله، فيكون المضارع قد دلّ على تجدّد حالات التّعذيب وطرائقه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُذوعُ والأعجاز:

أعجاز النّخل أصولها، وجذعها جميع ساقها

وردت أعجاز النخل مع الخاوية والمنقعر، ومعنى الخاوية والمنقعرة واحد، يدلك على ذلك قوله تعالى في قصة قوم عاد: ﴿صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: 7]، وقال في موضع آخر يذكر هلاكهم أيضًا: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، فمعنى الخاوية والمنقعر في الآيتين واحد، وهي المنقلعة من أصولها حتى خوى منبتها، ويقال انقعرت الشَّجَرة، إذا انقلعت[1]، و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾ [القمر: 20]: أصول نخل[2]، و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: 7]: متآكلة الأجواف[3]، أما جذع النّخل فهو السَّاق كلّه.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: 1/ 264.
(2) الكفويّ، الكُلّيَّات، ص: 151.
(3) الكفويّ، الكُلّيَّات، ص: 437.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ [طه: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جوابُ الصَّابرين ثقة ويقين

لَمَّا ذكرت الآيات السَّابقة تهديد فرعون للسّحرة الخارجين عن حكمه وطاعته؛ لأنهم آمنوا مع موسى وألقوا بأنفسهم سجّدًا، ناسب أن يذكر هُنا جوابهم عن ذلك بما يدلّ على حصول اليقين التَّام، والبصيرة الكاملة لهم في أصول الإيمان والدّين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّؤۡثِرَكَ﴾: جَذْر الكلمة هو (أثر) لهُ ثَلاثَة أُصولٍ: تَقديمُ الشَّيءِ، وذِكرُ الشَّيْءِ، ورَسمُ الشَّيءِ الباقي؛ والأثَرُ: ما بقي من رسم الشّيء، وسُنن النّبي ﷺ: آثاره، ويُقال لضربة السّيف: أثره، وآثرتُ الرَّجلَ: قدَّمتَه، وأثَرْتُ الحديثَ؛ أيْ: ذكرتَه عن غيرك[2]، ومعنى قوله: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾؛ أيْ: لن نُفضّلكَ ونختارَ ما جئتَ به.

2) ﴿فَطَرَنَاۖ﴾: جَذْر الكلمة هو (فطر)؛ وأصل الفَطْرِ: الشّقُّ طولًا[3]، والفِطْرة: الخِلْقة، وفَطَرَ اللهُ الخَلْقَ: خَلَقَهم، وابتدأ صَنْعة الأشياء[4]، وأوجد الشَّيء وأبدعه على هيئة مُترشِّحة لفعل من الأفعال، وقوله: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾؛ أي: أبدعنا وأوجدنا[5].

3) ﴿فَٱقۡضِ﴾: جذر الكلمة هو (قضى)؛ والقضاء: الحُكْم، والقَضاء: المَنيَّة؛ لأنَّها تقضي على الميت، والقَضاءُ: فصل الأمر قولًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 77.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأصفهَانيّ، المفردات: (أثر).
(3) ابن سيدَهْ، المُحكم: (فطر).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مجمل اللغة: (فطر).
(5) الأصفهَانيّ، المفردات: (فطر).

كان ذلك أو فعلًا[1]، وسائر ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى إتمام الأمر وإنهائه[2]، والمُراد في الآية: فاحكُم ما تراه.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الاتّزان النّفسي للفئة المؤمنة تجاه اضطراب فرعون وطغيانه

بعد أن استقرّ الإيمان في قلوب السحرة، قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث، فقال السّحرة في رَدِّهم على تهديد فرعون لهم: لن نختارك ونُفضِّلك على ما ظهر لنا من المعجزات التي جاءنا بها موسى، ولن نختارك ونُفضّلك على الذي خلقنا وأوجدنا في هذه الحياة، وقوله: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ تصريح منهم بأنّ تهديده لهم لا وزن له عندهم، وردٌّ منهم على ما توعَّدهم بأشد العذاب.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآية عن السَّابقة:

إذا أشرق القلب بنورِ الإيمان تلاشت الظُّلمةُ بنورِ الرَّحمن

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ على طريقة المحاورات، فبعد وعيد فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ ... ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ جاء قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ بمنزلة الجواب على سؤال افتراضيّ يُفهم من الجملة السَّابقة، وهو: (فماذا سيقول ويفعل هؤلاء السّحرة أمام تهديدات فرعون لهم وتوعّده بعذابهم)، فاقتضى ذلك الفصل بين الجملتيْن كما يُفصل الجواب عن السؤال، واستأنف بقوله: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

تناسق صيغ الأفعال:

ثباتُ السَّحرة يُقابل عنادَ الفجرة

الفعل الماضي في قوله: ﴿قَالُواْ﴾ دلّ على حدث ماضٍ بالنّسبة إلى

(1) الأصفهَانيّ، المفردات: (قضى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (قضى).

حدث ماضٍ قبله؛ هو قول فرعون لهم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾؛ فجاء قولهم ردًّا وبيانًا وخلاصة لموقفهم تجاه فرعون في حياتهم المتبقيَة معه، فقد اختاروا ألَّا يُؤْثِروا عبادتَه على عبادة اللّه وطاعتَه على طاعة اللّه، فقد اتّضح الهدى وبانت البيّنات في هذا الموقف العظيم المهول.

نكتةُ التَّعبيرِ عن الفاعل بالضَّمير:

وحـدة مـوقف السّـحرة في اختيار سبيل الإيمان

أُضمر الفاعل في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ عوضًا عن الاسم الظّاهر؛ فلم يقل: (قال السَّحرة)؛ ليدلّ على وحدة القول، فكان قولهم في هذا الموقف العصيب قولًا واحدًا، ولم تظهر أقوالٌ نشاز تشوّه المشهد القوليّ كلّه على مدار المُحادثة، مع ما فيها من القسوة والوعيد بالتّقطيع والصّلب الواقع بهم لا محالة، فقد أحدثوا في أمرهم حدثًا عظيمًا، ووقفوا بوجه أَعْتى طغاة الحياة، ولم يأبهوا بأعظم تهديد يمكن أن يواجه بشرًا.

نكتةُ النّفي بأداة ﴿لَن﴾:

حسمُ القضايا الكبرى بالمعاني العظمى

دلَّ النّفي بأداة ﴿لَن﴾ على النّفي المؤكَّد في المستقبلِ، فكأنَّهم قالوا: لن نُؤْثِرَ طاعتك وعبادتك على طاعةِ اللّه تعالى وعبادته لا في الحال ولا في الاستقبال ممَّا كان منَّا ماضيًا، ولن نُفضّل عبادتك على عبادة اللّه، ولن نؤثر ما عندك على ما عند اللّه من البيّنات، وفيه أنَّه على المؤمن أن يَحْسِمَ القضايا الكبرى بالمعاني العظمى، فإنَّ المؤمن عُرضةٌ لأن يقع في مزالقِ الحياةِ، فعليه أن يتجنَّب ذلك بما فيه تثبيتٌ لإيمانه، وتقويةٌ لبرهانه.

دلالة اختيار مفردةِ الإيثار:

إجاباتُ السَّحرة جـمـعـتْ بين تعليلِ العقل وإيمانِ القلبِ

دلَّت كلمةُ الإيثار في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على أنَّ فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما توعَّدهم به؛ فقالوا ردًّا عليه: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ جوابًا لما قاله، وتقتضي

مفردة الإيثارِ التَّفضيل بين أمرين، وبيَّنوا العلَّةَ وهي أنَّ الذي جاءهم بيِّناتٌ وأدلَّة، والذي يذكره فرعون لا يعدو أن يكونَ محض الدنيا، وأنّ منافع الدّنيا ومضارّها لا تعارض منافع الآخرة ومضارَّها[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾:

إيثار الحقِّ على الباطلِ ثابت لا رِجعةَ عنه

دلَّت صيغة المضارع: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ على الزمن الحاضر والمستقبل، كما أنَّ هذه الصيغة أفادت تجدُّدَ إيثار الحقِّ على الباطل، أي: لن نؤثرك اليوم وغدًا فاصنع ما أنت صانع، فلن يكون شيءٌ في المستقبل ممَّا وقع منَّا في الماضي؛ إذ كُنَّا عبيدًا لك، مؤتمرين بأمرك، أما الآن ومستقبلًا فلن يكون من ذلك شيءٌ فلن نؤثرك ونفضّل عبادتك وحفاوتك بذلك على عبادة اللّه وما سيأتينا من نعيمه ورضاه في الآخرة.

نكتة المجاز بحذف المضاف:

مساومةُ المراوغين إنَّما تكون على الطَّاعة والإذعان

حُذف المضاف في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾؛ إذ التَّفضيل بين فرعون وما جاءهم من البيِّنات مقتضٍ حذف مضاف يناسب المقابلة بالبيِّنات[2]؛ أي لن نؤثر طاعتك، على ما جاءنا من البينات الدَّالة على وجوب طاعة اللّه تعالى، والهداية التي استقرّت في قلوبنا، وفائدة هذا الحذف ودلالته أنّه جعل فرعون بكل ما يملك من القوّة والجبروت، وكل ما يمكن أن يُعطيه لهؤلاء السّحرة لو أنّهم أطاعوه في كفّة، وما جاء من البيّنات والهدى من اللّه في كفّة مقابلة موجزة عظيمة فلا يمكن معها أن ترجح كفة فرعون أبدًا.

بلاغةُ المقابلة الضِّمنيَّة:

رهان الطغيان خاسرٌ أمام عظيم شأن الرحمن

دلَّ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾؛ على وجود مقابلةٍ ضمنيَّةٍ بين ما عرضه فرعون وما اختاره

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 77.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 266.

السَّحرة، فالإيثار هو التفضيل؛ والمعنى: (لن نُؤْثِر طاعتك أو دينك على ما جاءنا من البيّنات الدَّالة على وجوب طاعة اللّه تعالى)، وبذلك يلتئم عطف ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ﴾؛ أي لا نؤثرك في الرّبوبية على الذي فطرنا[1]، وفي الآية مقابلة واضحة بين من استحقّ العبادة وهو اللّه تعالى الخالق الموجِدُ على غير مثال سابق، وبين طاغية يتجرّأ بقوة ما يملك من عرض الدّنيا على الخالق وخلقه، فيجعل من نفسه إلهًا بغير حقّ، هذا من جانب، وبين البيّنات والمعجزات التي أظهرها اللّه للنَّاس ليؤمنوا، وبين الجبروت والقسوة والوعيد بالقتل من فرعون من جانب آخر.

الفطرُ السّليمة تكشفُ الحقَّ من الباطلِ

ويظهر من قولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أنّ من غريزة الإنسان اللّجوء إلى معبود يعبده، وفطرته السّليمة تكشف له عن الإله الحق الذي يستحقّ العبادة سبحانه، فقد اتّخذ السّحرة فرعون إلهًا لهم، ولكنّهم لمَّا رأوا الحقّ لجؤوا إليه، وتركوا ما كانوا يعبدون من دون اللّه؛ لأنهم علموا بالبيّنات أنّ اللّه هو وحده من يستحقّ العبادة سبحانه.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول:

كلُّ ما جاء عن اللّه عظيمٌ فلا مُساومةَ ولا مُداهنة

دلَّ الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على التّعظيم والتّفخيم؛ لأنّ هذه البيّنات جاءت من عند اللّه سبحانه، فاستمدّت عظمتها وقوّتها وصدقها ورصانتها من عظيم شأن اللّه سبحانه، وكانت هي عنوان الإيمان والهداية، واختيار أداة ﴿مَا﴾ لبيانِ عموم الذي جاء، أي كلُّ ما جاءنا لن نؤثرك عليه، فلا مُساومة ولا مُداهنة.

بلاغةُ الإسناد المجازي:

تشخيصُ البيّنات أمتنُ أثرًا وأرسخُ معنًى

أُسند المجيء في قوله تعالى: ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى البيّنات، والبيّنات لا تجيء وإنّما يُجاء بها، فهو مجاز عقليّ علاقته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 266.

المُسبّبيّة؛ لأنّ موسى ﷺ هو الذي جاء بالبيّنات ولم تأت هي، وقرينة ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، وفائدة هذا المجاز الإيجاز والتّشخيص، فتكون البيّنات قادرة على إحداث الهداية في قلوب النَّاس ورسوخ الإيمان فيها؛ فهو تصويرٌ للبيِّنات وتشخيصٌ لها.

نوع الواو ودلالتها:

التَّرقي في ذكر أدلّة الإيمان

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ﴾ عاطفةٌ على جملة ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[1]، والتّقدير: (لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات وعلى الذي فطرنا)؛ أي: (وعلى طاعة الذي فطرنا وعبادته)[2]، وتكون بذلك قد أفادت التّرقي من ذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى؛ فذكروا البيّنات التي شاهدوها، ثمّ ذكروا اللّه تعالى الذي خلق البيّنات وخلقهم فأحسن خلقهم.

أو تكون الواو للقَسَم، والموصول مُقْسَمٌ به، وجواب القسم محذوف دَلَّ عليه ما قبله[3]، والمعنى: (واللّه الّذي أنشأنا من عدم، لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات)؛ فأكَّد السّحرةُ بالقسم لفرعون أنَّهم لن يتركوا هذا الأمر أبدًا.

نكتة التّعبير بالاسم الموصول:

الخالق وحده هو من يستحقّ العبادة

جيءَ بالاسم الموصول في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ﴾ للإيماءِ إلى التّعليل؛ لأنّ الفاطر هو المستحق للإيثار على غيرِه، فكأنَّهم قالوا: لن نؤثرك على اللّه تعالى لأنَّه هو الذي خلقنا من عدم، وأنت مخلوقٌ مثلنا، فكيف لنا أن نترك من خلق ونعبد من خُلِق؟!

نكتةُ تقديم البينات على ذكر الفاطر:

ذكرُ البيّنات توطئةٌ لذكرِ الدَّليل

أخَّر النَّظم الكريمُ ذكر ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ﴾ على ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ

(1) طنطاوي، الوسيط: 9/ 128.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 77.
(3) طنطاوي، الوسيط: 9/ 128.

﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ وذلك توطئة لذكر الخالق ﷻ؛ لأنّ البيّنات دليلٌ على أنّ الذي خلقهم أراد منهم الإيمان بموسى ونبذ عبادة غير اللّه، ولأنّ فيه تعريضًا بدعوة فرعون للإيمان باللّه تعالى[1]، كما أنَّ فيه ترقّيًا بذكر الأدنى فالأعلى.

بلاغةُ إيثار مفردةِ (فطر):

المعرفة في العقولِ لا تنفع ما لم تتحوّل إلى إيمانٍ صادقٍ في القلوب

اختار النَّظم الكريم مفردة (فطر) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾، ومعناها: أوجدنا على غير مثال سابق؛ وقد دلَّت هذه المفردة على أنّ السّحرة كان لهم علمٌ مسبَّقٌ بالخلق والخالق؛ لكنّ طغيان فرعون وإرهابه لمجتمعه كتم هذه المعارف السّماويّة في الصّدور، ولم يتفوّه أحد من القوم بتلك المعارف قطعًا، وهذا أمرٌ تاريخيٌّ حيث إن تاريخ بني إسرائيل في مصر يُبرهن على معرفتهم باللّه تعالى، فلمَّا جاءت البيّنات ووقع الإيمان في قلوب السّحرة، صرّحوا بها وأطلقوا لها العنان غير آبهين بما يمكن أن يحدث لهم.

نكتةُ التّعبير بضمير الجمع:

المؤمنون يدٌ واحدةٌ في تكاتفِها واجتماعِها

أسند النَّظم الكريم فعل الفَطْر إلى ضمير الجمعِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ إيمانهم بذلك هو إيمانٌ صادرٌ عن الجميعِ، وهم بمثابة رجلٍ واحد، وفائدة ذلك بيان عظيم فضل اللّه تعالى على جماعة المتكلّمين وهم السّحرة الذين آمنوا، فأنّى يُستبدل هذا الفضل العظيم بمن لا فضل له.

غرضُ الأمر وبلاغته:

الأمرُ محمولٌ على التَّسويةِ أو التَّهكُّمِ بوعيد المأفون

خرج الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ عن معناه الظَّاهر إلى معنى التّسوية؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ يصدق على ما توعدهم به من تقطيع الأيدي والأرجل والصّلبِ؛ أي: اصنع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 266.

ما أنت صانع وأنفذ ما أنت مُنفذ فقد قضى قضاؤك[1]، "أي سواء علينا ذلك بعضه أو كلّه أو عدم وقوعه، فلا نطلب منك خلاصًا منه جزاء طاعتك فافعل ما أنت فاعل، فإنّ عذابك لا يتجاوز هذه الحياة، ونحن نرجو من ربنا الجزاء الخالد"[2].

أو أن نجعل الأمر محمولًا على اللامبالاة بوعيده وتهديده، ففيه تهكُّمٌ بوعيده، فقول السّحرة: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ لا على معنى أنهم أمروه بذلك، لكن أظهروا أن ذلك الوعيد لا يزيلهم البتّة عن إيمانهم، وعمّا عرفوه من الحقّ علمًا وعملًا[3]، فأظهروا استخفافهم بوعيده وتعذيبه؛ إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرّسل وما يأتون من معجزات بيّنات، فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته[4].

بلاغة القصر ودلالته:

تَـوقُ النّـفـوس المؤمنة إلى نعيم الآخرة

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، هو قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ؛ لأنّ ما قضاه فرعون في هذه الحياة الدنيا لا يتجاوزه إلى القضاء في الآخرة، فهو قصر حقيقيّ[5]، وإنّما قالت هذه الفئة المؤمنة ذلك لِما رأته أو عَلِمَته من نعيم الآخرة، فلمّا وضعت الدّنيا وزخرفها قبالة نعيم الآخرة ودرجاتها وجنانها؛ تلاشى وانتفى تأثير الدّنيا في العقول والقلوب المؤمنة الصّادقة، وتاقت النّفوس إلى الآخرة واشتاقت لها طالبة رضاء الله ومغفرته وذلك هو الفوز العظيم.

دلالة الحذف:

تـنـزيـلُ فرعـون مـنـزلـةَ عـوامِّ النّاس

حُذِف نداء فرعون الدّال على الفاعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 16/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 267.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 77.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 266.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 267.

﴿هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ﴾؛ فلم يقل: (إنَّما تقضي يا فرعون هذه الحياة الدنيا) تهوينًا من شأنه، وتحقيرًا لما يقول ويهدد بفعله، فصار خطابهم له كخطابهم لعامتهم من النَّاس، لا احتراس فيه من غضبه، ولا خوف مما يمكن أن يدور عليهم من جبروته وسطوته، وهذا ما جعل الأمر يختلف عمَّا قبل، فإنَّ فرعون أراد أن يكون السَّحرةُ له، فأرادهم اللّه تعالى لموسى ، فانقلبت موازين القلوب والعقول، وسقطت هيبة المأفون، واضْمَحَلَّتْ رهبة الملعون.

فنُّ بديعِ الجناس:

هوان قضاء فرعون أمام إيمانِ المؤمن

في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي﴾ جناس اشتقاق بين صيغتي الأمر واسم الفاعل والفعل المضارع، وهو دالٌّ على هوان قضاء فرعون إلى قضاء اللّه تعالى، فإنّه لن يخرج فرعون في قضائه الذي سيقضيه عن علم اللّه ومشيئته سبحانه، ثمّ إنّ قضاء فرعون الذي سيقضيه في الفئة الذين آمنوا، هو من شأن قضاء الدّنيا، فيستوي عند أهل التّوبة والإيمان ما سيقضيه؛ لأنّهم طامعون بمغفرة اللّه سبحانه.

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارة:

نبذ الحياة الدّنيا وتحقير شأنها

أفاد استعمالُ اسمِ الإشارةِ المؤنَّثِ في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ تشخيص الحياة الدُّنيا وتنزيلها منزلةَ الشَّيء الحاضر بجميعِه، مع ما أفاده اسمُ الإشارةِ من التّحقير، فيُراد به استحضارُ ضعفِ المُشار إليه وحقارته، والتّعريض بفرعون ومَلَئه وما هم فيه من الغباوة، فالمُخاطب لا يتميّز الشيء عنده إلا بالحس.

بلاغةُ الاتِّساق والتَّعريض بذكر الصفة:

اتِّساق المتفاضلاتِ والتَّعريضُ بالباقيةِ الآجلة

وُصفت الحياة بالدُّنيا في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ دون الاكتفاء بذكر الموصوف، فلم يقتصر على: ﴿هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بل زاد وصفها بـ﴿ٱلدُّنۡيَآ﴾ لبيان وجه المفاضلة بين الحياة الدنيا القريبة

العاجلة، مع الحياة الآجلة الباقية، وهذا متّسقٌ مع مفردة الإيثار التي أفادت معنى المفاضلة بين طاعة فرعون وطاعة الرَّحمن، فهم كما قدَّموا طاعةَ اللّه تعالى، قدَّموا الدَّار الباقية، فكان ذكر الوصفِ ﴿ٱلدُّنۡيَآ﴾ تعريضًا بالآخرة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَطْرُ والخَلْقُ والذَّرْءُ والبَرْءُ:

معانٍ متقاربةٌ يختصُّ كلٌّ منها بمعنًى من معاني الخلقِ والإيجاد

الفَطْر: إظهار الحادث بإخراجه من العدم إلى الوجود؛ كأنّه شقّ عنه فظهر، وأصل الباب الشّق، ومع الشق الظهور، وفطر اللّه الخلق: أظهرهم بإيجاده إياهم؛ كما يظهر الورق إذا تفطَّر عنه الشجر، ففي الفَطْر معنى الإظهار بالإخراج إلى الوجود.

والخَلْق: التّقدير، يُقال: خلقت الأديم إذا قدَّرْتَه خُفًّا، أو غيره، وخلق الثّوب، وأخلق؛ لم يبقَ منه إلا تقديره.

والذَّرْءُ: الإظهار، ومعنى: ذرأ اللّه الخلق أظهرهم بالإيجاد بعد العدم، ومنه قيل للبياض؛ الذرأة لظهوره وشهرته، وملح ذرآني لبياضه.

والبَرْءُ: تمييز الصورة، وقولهم برأ اللّه الخلق؛ أي ميّز صورهم[1].

فهي معانٍ متقاربة، تدور حول الإيجادِ، فالفطر هو الشَّق والإخراج، والخلق تقدير المفطور، والذرء إظهار بعد العدم، والبرء التَّمييز.

القضاء والحكم:

الحُكْم فصْلُ الأمرِ على التّمام ومَنْعُ الخصومة، والقضاء الفَصْل في الأمر أو الحكم

(القضاء) يقتضي فصل الأمر على التّمام من قولك: (قضاه)؛ إذا أتمّه وقطع عمله، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾ [الأنعام: 2]؛ أي فصل الحكم به، وقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]؛ أي فصلنا الإعلام به، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [سبأ:

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 95 و224 و241 و407.

14]؛ أي: فصلنا أمر موته، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصّلت: 12]؛ أي: فصل الأمر به.

وأمَّا (الحكم) فيقتضي المنع عن الخصومة من قولك: أحكمتُه إذا منعتَه، ويجوز أن يُقال: الحكم فصلُ الأمرِ على الأحكام بما يقتضيه العقل والشّرع، فإذا قيل: حكم بالباطل؛ فمعناه أنّه جعل الباطل موضع الحقِّ، ويُستعمل الحكم في مواضع لا يستعمل فيها القضاء؛ كقولك: حكم هذا كحكم هذا؛ أي: هما متماثلان في السّبب أو العلة أو نحو ذلك[1]، فالحكم وُجِد لمنع الخصومة، والقضاء هو الفصل فيها.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 430.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الأسبابِ بعد ذكر الاختيار

بعد أن بيّن السّحرة ما هم عليه من الإيمان؛ وتحدّيهم لفرعون بقولهم: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ وردّوا على تهديده قائلين ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾؛ ناسب أن يُذكر هنا سبب هذا الاختيار المصيري الذي اختاروه؛ فقالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾: جذر الكلمة هو (خطأ)؛ والخَطَأ ضد الصَّواب[1]، ويُقال: أخطأ في المسألة وفي الرّأي[2]، والخَطيئَةُ والسّيّئة يتقاربان، لكن الخطيئة أكثر ما تُقال فيما لا يكون مقصودًا إليه في نفسه، بل يكون القصد سببًا لتولّد ذلك الفعل منه، والجمع الخطيئات والخطايا، والخاطِئُ؛ هو القاصد للذّنب[3]، والمقصود في الآية: ما صدر عن السَّحرة قبل إيمانهم.

2) ﴿أَكۡرَهۡتَنَا﴾: جذر الكلمة هو (كره)؛ قيل: الكَرْهُ والكُرْهُ واحد، وقيل: الكَرْهُ: المشقّةُ التي تنال الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحمل عليه بِإِكْراهٍ، والإِكْراهُ يُقال في حمل الإنسان على ما يكرهه[4]، والمعنى في الآية: أَجْبَرْتنا.

(1) ابن فارس، مجمل اللغة: (خطو)، والسّبتيّ، مشارق الأنوار: (خطأ).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خطأ).
(3) الأصفهانيّ، المفردات: (خطأ).
(4) ابن سيدَة، المُحكم، والراغب، المفردات: (كره).

3) ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾: جذر الكلمة هو (بقي)؛ وبقي الشيء يبقى بقاءً، والبَقْوى والبُقْيا بمعنًى، وفلان يَبْقي الشَّيءَ، إذا رقَبَهُ ورَصَدَه، والبَقاء: ثباتُ الشَّيء على حالِه الأولى، وهو يُضادّ الفَناء[1]، والمقصود في الآيةِ: أنَّ ما عند الله تعالى أنفع وأدوم مما سواه من الباطل.

❁ المَعنى الإِجْماليُّ:

إذا نزل الإيمانُ بساحات القلوبِ هُزِم الشَّيطان في أعالي العقول

تُبيِّن الآية سببَ إقدامِ السّحرة على تركِ السِّحر، والانقلاب على فرعون هذا الانقلاب المصيري، وهو الإيمان باللّه تعالى، ورجاء ما عنده وأن يغفر لهم خطاياهم، وخصّوا السّحر بالذكر مع دخوله في خطاياهم، للإشعار بشدَّة نفورهم منه، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ ردٌّ على قول فرعون لهم: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾، والمعنى: أنّ اللّه تعالى هو خير ثوابًا منك، وأبقى جزاء وعطاء، فإنّ ثوابه سبحانه لا نقص معه، وعطاءه أبقى من كل عطاء[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بين الجمل:

بيانُ العللِ يُزيلُ العجب ويُبدِّد التُّهم

فُصل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ لأنَّه استئناف بيانيّ جرى مجرى التعليل للجملة السَّابقة، فقد بيّنوا هنا سببَ استهانتهم بالحياة الدّنيا، والتسوية بين ما يمكن أن يفعله فرعون أو أن يمتنع عنه، وأن ذلك التّهديد والوعيد لن يثنيهم عن اختيارهم، وما ذاك إلا بفعل الإيمان، وعلّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾، فالجملة الثَّانية جوابٌ عن سؤالٍ افتراضيٍّ أثارته الجملة الأولى.

---

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، الراغب، المفردات: (بقي).
(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 130.

فائدةُ التّوكيد وتنوُّعه:

جاء تأكيد الخطابُ بأداةِ (إنَّ) والجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾؛ لإفادةِ الاستقرار والثّبات، وتبيين استقرار الإيمان في قلوبِهم، ورسوخه في دواخلهم، وفائدة ذلك أنّ المخاطب قد أنكر عليهم إيمانهم، وظنَّ أنَّه سيثنيهم بالتّهديد والوعيد، فجاء الأسلوب مُؤكَّدًا بأداة (إنَّ) والجملة الاسميَّة ليُعلم أنه لا عودة عن الإيمان، وأنّ ما رأوه مِن حقّ المعجزة والنّبوّة والرّسالة قد منحهم مِن قوّة اليقين ما لا رادَّ بعده إلى عصيان وكفر مهما بلغت أساليب فرعون إكراهًا وتهديدًا.

إذا استقرَّ الإيمان فلا محيدَ عنه ولا رجعةَ إلى نقيضه

نكتةُ التّعبير بضمير الجمع:

دلَّ التَّعبير بضمير الجمعِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا﴾؛ على وحدة مقال السَّحرةِ التائبين، وبيان الثّقة العامّة بينهم إيمانًا وتصديقًا بالرّسالة، وما جرى من أفعال اللّه على يد موسى عليه السلام، وأنّهم قد وصلوا جميعًا دون استثناءٍ إلى مرحلة يقينيّة من الإيمان والمعرفة بعظيم شأن اللّه تعالى، ودلَّ على ما في ذلك الاجتماع على كلمة الإيمان من قبل السّحرة من أثر على المجتمع كلّه؛ من زعزعة الولاء لفرعون، والتَّفكّر في معجزة موسى، وما يؤدّيه ذلك من الدخول في دين اللّه، ونبذ ما يدّعيه فرعون وملؤه.

توحُّدُ السّحرة في صفّ التّوحيدِ كسرٌ صنمَ الشِّركِ

دلالة التَّعبير بالماضي: ﴿ءَامَنَّا﴾:

يدلّ قولُ السَّحرةِ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ بصيغة الماضي على رسوخ الإيمان في القلوبِ، وأنّه قد لامس شغافها، وارتكز فيها، فأصبح الموجِّه والمرشد، فلا سبيل في الرَّجعةِ عنه.

معنى الباء ودلالتها:

لا إيمان مطلقًا إلا برب العالمين

الباء في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّنَا﴾ لتعدية الفعل آمنًّا، مع وجودِ معنى

السَّببيَّة؛ فإنَّ اختيارَ الباء للدَّلالة على أنَّ الإيمان باللّه تعالى كان بسببٍ بيِّنٍ، لا أنَّه جاء اعتباطًا.

بلاغةُ اختيارِ عنوانِ الرّبوبيّة:

الرُّبوبيَّة أصلُ الخلقِ وسببُ العبادةِ والباعث على الطَّاعة

اختير عنوانُ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّنَا﴾ لبيان وجه السَّببيَّة، فإنَّ اللّه تعالى الذي فطَرهُم من عدم هو المستحِقُ للإيمانِ والعبادةِ والطَّاعةِ الحقَّة، وما دونه فباطلٌ لا يستحق الطَّاعة فضلًا عن العبادةِ إلَّا بأمر اللّه تعالى، وهو إظهارٌ لعنوانِ الرُّبوبيَّة في مقام إنكارِها من المأفون؛ لإظهار الثَّباتِ والعزيمة الصَّادقة والقناعة الحقَّة بربِّ العالمين الذي تجاهله فرعون حين قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ [الشعراء: 23].

معنى اللَّام ودلالتها:

أوَّل الغايات التَّجاوز عن الخطيئات

دلّت اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ على التّعليل، فاللّه تعالى يغفر الذنوب والخطايا، وعجيب شأن هؤلاء السّحرة كيف ترسّخ في نفوسهم كمالُ الهداية في لحظات الإيمان هذه؟! وكيف بُنِيت المغفرة والتّجاوز عندهم عمَّا سبق من الآثام والكبائر بمجرّد الإيمان اليقينيّ الذي حصل منهم؟! وفي ذلك مَحَطُّ اقتداء بهم قائم إلى يوم القيامة.

فائدةُ الإضافة إلى ضمير الجمع:

الاعتراف بالذنوبِ إقرارٌ نبيلٌ واسترحامٌ حكيم

أُضيفت الخطايا في قوله تعالى: ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾ إلى ضمير الجمعِ، ولم يُقل: (الخطايا) بالتَّعريف بأل، بل نسبوها إلى أنفسهم، فلم يُبرِّئوا أنفسهم من تلك الخطايا، وذلك إقرار نبيل واسترحامٌ حكيم، مع بيانِ أنَّهم كانوا مُكرهين على فعلها، في قولهم: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

غرضُ استعمال الموصول العموميّ:

دلّ الاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا﴾ التي

تقع على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل، وسبق ورودها في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، وما في يمينه هو العصا، والغرض الذي سيقت من أجله (ما) هنا هو بيانُ عموم ما أَكْرَه فرعونُ السّحرةَ عليه من تعلّم السّحر ومزاولته، فأفادَ ذلك بيانَ كثرةِ عملهم به حتّى عمّ أوقاتهم وحياتهم، ولكثرته أصبحوا مُكرهين على قضاء أوقاتهم كلّها في تعلّم السّحر والتّفوّق فيه.

الإكـــراه على السِّحر عمَّ كلَّ ما من شأنه أن يخدمَ فرعون في حكمه

نكتة خطاب فرعون بضمير المفرد:

خاطب السَّحرةُ فرعون في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا﴾ بضمير المفرد تحجيمًا لما يراه في نفسه من العظمة والرّبوبيّة والعلوّ؛ وهو الذي جرى على لسانِه طغيانُ الكبر وغطرسة الخيلاء حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: 24]، فجاء الخطاب بضمير المفرد لكسر هذه العُنْجُهيَّةِ التي تلبَّسَ بها فرعون، وهَيمنَتْ على عقول النَّاس وقلوبهم.

التـهـويـن من شأن فرعون في نفوس المؤمنين

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ:

استُعمل حرفُ الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾؛ ليدلّ على الهيمنة والسّطوة، والإشارة هنا إلى مسألتين: **الأولى**: إكراه فرعون للسَّحرة أن يمارسوا السّحر بكلّ ما أوتوا من القوة، **والثّانية**: ما وصلوا إليه من براعة السّحر وعلمه، الذي أصبح في نهاية الأمر مدعاة لهم إلى الإيمان؛ لأنهم أعظم من برع فيه، فلمَّا رأوا ما جاء به موسى علموا يقينًا أنّه ليس من السّحر في شيء.

نـهـايـةُ الإكـــراه مُـتـارَكـةُ العملِ والكفرُ بصاحبه

براعةُ استعمال مفردة الإكراه:

اختار النَّظم مفردة: ﴿أَكۡرَهۡتَنَا﴾ ليدلَّ على حالِ السَّحرةِ في عدم رغبتهم بالقيام بالسّحر، ولعلّ ذلك بسبب ما فيه من أذيّة لهم، فالسّحر عمل مخالف للفطرة البشريّة، على أن الإكراه عذرٌ للتّبرُّؤِ من عواقب الأفعال المُرديَة؛ فيُسأل عن سرِّ إيرادِ هذه المفردة،

الإكـــراهُ حكمُ الأصـــلِ ومـع الاعـتـيـادِ طلبَ السَّحرة الارتيادَ

أي: لماذا قالوا أكرهتنا وهم قاموا به متطلعين إلى المكانةِ الأعلى، طالبين الأجر، فإن كان إكراهًا فلا ذنب عليهم، وإن كان بإرادتهم كما يوحي السّياق فلماذا سُمّي إكراهًا؟!

والجواب عن ذلك أنَّهم أُكرهوا في بدايةِ الأمر على السِّحر وتعلمه واستعماله في الباطل المؤيِّد لحكم فرعون، فحُكْمُه باطلٌ قائمٌ على شعوذةٍ وتمويهٍ، والذي كان منهم مع مرور الأيَّام الاعتياد على مثل هذا الصَّنيعِ؛ فلمَّا طلبوا العزَّة بالسِّحر كان باعتبارِ الاعتيادِ مع لِحاظِ أنَّهم مُكْرَهون في الأصل، وعليه فاستعمال هذه المفردة دالٌّ على أنَّ الإكراه كان هو الأصل، وما طلبوه بعد ذلك بحكم الاعتيادِ على المكرهات.

بلاغة التّذييل:

أعتى عبارات الوعيد تردُّها أرسخ عبارات العبيد

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ في موضع الحال، أو معترض في آخر الكلام للتّذييل، أي: إنّ اللّه خير لنا بأن نؤثره منك، وإرضاء اللّه خير من إرضائك، ونعيم اللّه خير وأبقى منك، أي: جزاؤه في الخير والشرّ أبقى من جزائك فلا يهولنا قولك: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾، فذلك مقابلة لوعيده مقابلة تامة[1]، وفي العبارة تذييلٌ قصدوا به الردَّ على قول فرعون لهم: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾[2]، فكانت هذه العبارة خلاصة ما يمكن ذكره أمام فرعون أعتى طغاة العصر.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَطايا والسيئات والآثام والذنوب:

الخطايا أعمُّ الألفاظِ والإثم ما كان عن عمدٍ

الخطيئة قد تكون من غير تعمد ولا يكون الإثم إلا تعمدًا، ثم كثر ذلك حتى سُمّيت الذنوب كلُّها خطايا، كما سميت إسرافًا، وأصل الإسراف مجاوزة الحدِّ في الشّيء[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 267.

(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 130.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 222.

وأما الذّنب: فيُطلق على ما يُقصد بالذَّات، وكذا السّيئة والخطيئة تغلب على ما يقصد بالعَرَض؛ لأنّها من الخطأ، وقيل: الخطيئة السيئة الكبيرة، وقيل: الخطيئة ما كان بين الإنسان وبين اللّه تعالى، والسّيئة ما كان بينه وبين العباد[1].

الإكراه والإلزام والإيجاب:

الإكــــراه إلــزام باطل، والإلـزام فـــي الــحـــقِّ والــبـــاطـــل، والإجبار على ما يُكره

الإكراه: حَملُ الغير على ما يكرهه بالوعيد، أو الإلزام والإجبار على ما يكره الإنسان طبعًا أو شرعًا، فيُقدِم على عدم الرضا، ليرفع ما هو أضر[2].

والإِلزام يكون في الحقّ والباطِل، يُقال: ألزمته الحقّ وألزمته الباطِل، والإيجاب لا يسْتَعْمل إِلَّا فيما هوَ حقّ؛ فإن استُعمل في غَيره فهوَ مجاز، والمراد بِه الإِلزام.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 221.
(2) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 33.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥﴾ [طه: 74 - 75]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

مَرْجِعُ النَّاس إلى الله تعالى ليأخذ كلٌّ جزاءه

بعد أن بيّن في الآية السَّابقة أنّ ما عند اللّه هو خير وأبقى؛ فقد ناسب أن يذكر هنا حال الفريقين من المؤمنين والكافرين عند اللّه يوم القيامة؛ وذلك في صورة تقابليّة؛ بيّن فيها مجيء المؤمن والمجرم إلى لقاء اللّه وحسابه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُجۡرِمٗا﴾: جذر الكلمة هو (جرم)؛ والجُرْم: القطع، والذَّنب، وفِعله الإجرام، والمُجرِمُ: المُذنب، والجارِمُ: الجاني[1]. "والمُجرِم: فاعل الجريمة؛ وهي المعصية والفعل الخبيث، والمجرم في اصطلاح القرآن: هو الكافر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: 29]"[2]، وهو المعنى المُراد في الآيةِ.

2) ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾: جذر الكلمة هو (درج)؛ والدُّرَج: سُفَيْط صغير تَدَّخر فيه المرأةُ طيبها وأداتها، ويُقال للمنزلة: دَرَجَةٌ إذا اعتُبِرَتْ بالصّعود دون الامتداد على البسيطة، كدرجة السّطح والسُّلَّم، ويعبّر بها عن المنزلة الرفيعة[3]، والمعنى المحوري: ضمٌّ أو احتواءٌ في مَضَمٍّ للنقل أو معه برفق، أي: شيئًا بعد شيء[4]، والمعنى المراد في الآية: المنازل.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مجمل اللغة: (جرم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 268.
(3) الأصفهانيّ، المفردات: (درج).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (درج).

3) ﴿ٱلۡعُلَىٰ﴾: أصل المادة (علو)، والعُلُوّ: ضدّ السُّفل، وقد عَلا يَعْلو عُلوًّا وهو عالٍ، فـ(عَلا) بالفتح في الأمكنة والأجسام أكثر، ويُقال: عليَ في المكارم يَعْلَى عَلاءً، وعلا في المكان يعلو عُلوًّا[1]، وقيل: إنّ (عَلا) يُقال في المحمود والمذموم، والمعنى في الآية: الرفيع المنزلة.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان تفاوت أحوال النّاس يوم القيامة

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ يصح أن يكون كلامًا مستأنفًا ساقه الله تعالى لبيان سوءِ عاقبة المجرمين، وحُسْنِ عاقبة المؤمنين، ويصح أن يكون من بقيَّة كلام السّحرة في ردهم على فرعون، والمعنى: (مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ يوم القيامة في حال كونه مُجْرِمًا)، أي: مرتكبًا لجريمة الكفر والشّرك بالله تعالى؛ فإنَّ لهذا المجرم جَهَنَّمَ يُعذَّب فيها عذابًا شديدًا؛ ومن مظاهر هذا العذاب؛ أنه ينتهي به إلى الموت ثمّ لا يجهز عليه فيستريح؛ بل يُعاد جِلدُه ويُجَدَّدُ عذابُه، فهو لا يحيا حياة هنيّة[2]، ثم بَيَّنَ سبحانه حُسن عاقبة المؤمنين أنّه: مَنْ يَأْتِه مُؤْمِنًا به إيمانًا حقًّا، وقَدْ عَمِلَ الأعمال الصَّالِحاتِ بجانب إيمانه، فأولَئِكَ الموصوفون بتلك الصفات لَهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح الدَّرَجاتُ العُلى؛ وهي المنازل الرَّفيعة، والقرب من الله تعالى[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الاعتراض في الآية:

الموعظة في كلام المؤمنين

الجُمل في هاتين الآيتين معترضة بين حكاية قصّة السّحرة، وبين ذكر قصّة خروج بني إسرائيل، ساقها الله موعظة وتأييدًا لمقالة المؤمنين من قوم فرعون، وقيل: هي من كلام أولئك المؤمنين،

(1) ابن فارس، مجمل اللغة: (علو)، والأصفهانيّ، المفردات: (علا).
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 53.
(3) طنطاوي، الوسيط: 9/ 130.

ويُبْعِده أنّه لم يَحْكِ نظيرَه عنهم في نظائر هذه القصّة[1]، وفائدتها أنّها جاءت تأييدًا لموقف السَّحرة أمام طغيان فرعون، فهذا الموقف ذُكر في القرآن كأنموذج لمواقف الثّبات على الإيمان أمام طغيان الطّغاة وجبروتهم.

نكتةُ توالي المؤكّدات:

التأكيد لمن في صدره شكّ في صدق الرّسالة النّبويّة

دلَّ ورودُ (إنّ) و(تكرار الضّمير) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ على التّوكيد، وفائدة ذلك أنّ الخطاب هنا موجَّهٌ للشُّهود من النَّاس وآل فرعون، وإلى فرعون نفسه، أولئك الذين في صدورهم شكٌّ من صدق الرّسالة النّبويّة، وعند بعضهم إنكارٌ لما فعله السّحرة؛ فجيء بالمؤكِّدات لإثبات صدق الكلام.

نكتة استعمال ضمير الشّأن:

توجيه النّظر لِمآل من يأتي ربَّه مجرمًا تنبيهًا وتحذيرًا

الهاءُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ ضمير الشأن والقصة[2]؛ يعني أن الأمر والشأن كذا وكذا[3]، وكان بالإمكان أن يقول: (إنّ من يأتي ربّه)، فذكر ضمير الشّأن في موضع الإضمار، والهاء كناية عن الحديث[4]، وذكر الضّمير مع اشتمال الجملة على جهنم وهي مؤنثة؛ لأنّها في حكم الفضلة إذ المعنى: (من يأت ربَّه مجرمًا يُجزَ جهنم)[5]، وهكذا يتوجّه النّظر إلى ذلك الفرد الذي سيكون حتمًا أحدَ اثنين، فإمَّا أن يأتي ربه مجرمًا، أو أن يأتيه مؤمنًا.

دلالة اسم الشّرط الجازم:

عدالةُ الله مطلقةٌ لا يُستثنى منها مجرمٌ

أداةُ الشّرطِ (مَنْ) تكون للعقلاء، قال سيبَوَيْه: "(مَنْ) وهي للمسألة عن الأناسيّ، ويكون بها الجزاء للأناسيِّ"[6]، وقد دلّ اسم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 268.
(2) أبو البقاء، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 898.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 77.
(4) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 35.
(5) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 29.
(6) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.

الشّرط الجازم ﴿مَن﴾ على حتميّة أن يقع ما ورد في سياق الآية من الجزاء على المجرم، فمن يأت ربه مجرمًا كافرًا فمن المحتوم أن يحقّ عليه عذاب جهنّم، ويكون ذلك جزاءَ عمله وإجرامه في الدّنيا، وهي صادقةٌ على عمومِ المجرمين، فدلَّ ذلك على عدم استثناءِ مجرم من ذلك الوعيد، فأفاد العدالة المطلقة للّه ربِّ العالمين.

بلاغةُ التَّعريض في إيرادِ عنوانِ الرّبوبية:

إنــكــار المجـرم أفضال الله عليه

ذُكر عنوانُ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمًا﴾؛ لبيانِ أنَّ مردَّ المجرم إلى الذي خلقه وسوَّاه ورزقه ورعاه، وهو الذي سيتولَّى أمرَه، بأن أوجده وجعل له جميع ما يصلحه، لكنّه أنكر وكفر وعاند وعصى وتجبَّر، فكان ذكرُ الرُّبوبيَّة ههنا فيه إيماءٌ إلى الوعيد، وإشارةٌ إلى التَّهديدِ بالتَّعريضِ لما كان من المجرمين في الدُّنيا من مزاحمة خصائص الرُّبوبيَّة التي هي للّه وحده.

دلالةُ الإسناد المجازيِّ:

المــجــرمُ يــأتي مرغمًا للحسابِ مضطرًّا للجزاءِ

أُسند الإتيان في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمًا﴾ إلى المجرمِ؛ مع أنّه سيُقاد إلى اللّه وإلى الآخرة مُرغمًا وقدرًا من اللّه تعالى، وذكر ذلك مجازًا لأنّه سيُؤتى به لا محالة، وستقوده أعضاؤه الرجلان والعينان وغيرها إلى ذلك اللقاء؛ فأُسند الإتيان إليه باعتبارِ الاضطرار، وهو وإن لم يكن راغبًا فيه إلّا أنّه سيُؤمر فيمتثل، ويمكن أن يكون ذلك على المجاز العقليّ، بعلاقة الحالية، فذكر حاله أنّه مضطرٌّ للمجيء غير مخيَّر فيه.

بلاغةُ الكناية:

لقاءُ الله تعالى ليس كـأيِّ لقاءٍ فـفـيـه شــدَّةُ الـوعـيـد وبـالـغُ التَّهديد

المجرمُ يأتي يومَ القيامةِ إلى موضع الحسابِ والجزاء، لكنَّ الآية جعلت ذلك الإتيان إلى اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمًا﴾، فجعل اللّه تعالى إتيانهم موضعَ الوعد إتيانًا إليه مجازًا كقول إبراهيم

عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: 99][1]، وذلك لبيانِ المقصد، فأمَّا كلام إبراهيم عليه السلام فمقصودُه تحقيقُ الرحمةِ والقبول والهداية، وأمَّا إتيان المجرم فالحساب والجزاء، فكان ذلك كناية عنهما، وسرُّ العدول عن التَّصريح بالجزاء إلى ذكر اللّه تعالى المبالغة في بيان معاني الوعيد والتَّهديد، فإنَّ أثرَ إتيانِ الرَّبِّ ليس كأثرِ إتيانِ موضع الحساب.

بلاغة المجاز المرسل:

استُخدمت لفظةُ ﴿مُجْرِمًا﴾ في سياق يوم القيامة، وهي وصف له في الزّمن الماضي، إذ المجرمُ هو مجرمٌ في الدُّنيا، وأمَّا الآخرة فلا موضع فيها للإجرام، وهذا محمولٌ على المجازِ المرسل باعتبار ما قد كان، وفائدته الإيحاء بأنّ صفة الإجرام تظل ملازمة له حتى يواجه العقاب على إجرامه يوم القيامة[2]، وهذا الاستصحابُ لونٌ من ألوان العذاب النَّفسيِّ؛ فإنَّ المجرم إذا ذُكِّر بإجرامِه في موضع العقابِ آلمه ذلك أشدَّ الألم؛ لعدم الفكاك عنه، ولما سيلاقيه بسببه.

استصحابُ وصفِ الإجرامِ عذابٌ نفسيٌّ والتزامٌ جزائيّ

معنى الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، دلّت على سرعة تحقُّق الجواب إن وقع الشّرط، فمن يأت ربه مجرمًا، فستقع عليه العقوبةُ السَّريعة، بأن تكون له نار جهنّم دائمة إلى ما شاء اللّه، حاله فيها أنّه لا يموت ولا يحيا.

سرعة إنزال العقوبة بالمجرم يوم القيامة

معنى اللامِ ودلالتها:

اللام في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ لامُ الاستحقاق؛ أي هو صائر إليها لا محالة؛ وهي قسمته في الآخرة ونصيبه ممَّا قسم اللّه للعباد يوم الحساب؛ فقد استحقّها جزاءً وفاقًا على ما قدّم من عمل،

صيرورة المجرم إلى جهنّم استحقاق له

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 79.

(2) عبد السلام الرَّاغب، وظيفة الصّورة الفنّيّة في القرآن، ص: 75.

ويكون عذابه متجدّدًا فيها؛ فلا هو ميت؛ لأنّه يُحِس بالعذاب، ولا هو حيّ؛ لأنّه في حالةٍ الموتُ أهون منها.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة:

جهنَّم مأوى المجرمين ومهوى المتكبِّرين

قُدِّمت شبه الجملةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ على اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ لإفادةِ تخصيصه بهذا العقاب، وهو أن يَرِدَ جهنّم وتكون له حَظًّا ونصيبًا، جزاءً على ما أفرط في التّجاوز والإجرام، وفرّط في التزام حدود اللّٰه تعالى، والمراد بتخصيص جهنَّم له، أي في الخلودِ والاستحقاق، إذ دخول النَّار يكون لغير المجرمين من عصاةِ المؤمنين، لكن ليس على سبيل التَّخليد.

توجيه تخصيص نفي الموتِ بالذِّكر:

الجزاءُ من جنس العملِ والحسابُ من مرصوصِ الألم

خصَّ النَّظمُ نفيَ الموت في قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ بالذِّكرِ؛ لأنَّ هذا الحال مختصٌّ بالكافر المجرمِ، فإنّه معذّب عذابًا ينتهي به إلى الموت، ثم لا يُجهَزُ عليه فيستريح؛ بل يُعاد جلده ويجدّد عذابه، فهو لا يحيا حياة هنية، ولا يموت فيرتاح[1]، وخصَّ النَّظم هذا العذاب بالذّكر مع المجرمِ؛ لأنَّه كان في الدُّنيا يسعى خلفَ النَّاس ليُعذِّبهم بالفقر والجوعِ والأعمال الشَّاقة وقتل الرجال واستحياء النِّساء، فكان ذلك العذاب لأولئك المساكين أشبه ما يكون بمن يحيا وهو يتمنَّى الموت، فكان العذابُ من جنسِ العمل.

فنُّ الطِّباق:

المجرم فيه روحٌ لا تؤهله للحياةِ ولا تُنزع منه فيموت

أفادت واو العطف في قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ الجمع بين حالتين متقابلتين، وهو من أصعب وأعقد الأحوال، وهو حال لا يُمكن تخيّله؛ لأنّه أحد أحوال الآخرة، إذ جمع بين انتفاء الموت وانتفاء الحياة، فلا يُقدّم أحدهما على الآخر ولا يؤخّر، وهذا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 66.

من الطِّباق التَّحسينيّ، فاجتماع نفي الموت ونفي الحياة صورةٌ لا يعرفها البشر، ومآلها شيءٌ واحدٌ، وهو وجودُ الرّوح في الجسدِ على هيئةٍ غير معهودةٍ غايتها نيل العذاب، ونزول العقاب.

توجيه المتشابه اللّفظي:

اختلاف الأوصاف من أعظم دواعي تغيير النَّظم الجليل

وردت عبارة الجزاءِ بلا عاطف في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾؛ لأنّها سُبقت بلام الاستحقاق فليس شيءٌ أعظمَ من ذلك، والجملة حال، أي له جهنَّم حال كونه لا يموت ولا يحيا، ففيها نفيٌ للأمل، أمَّا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾ [الأعلى: 12 - 13]؛ فعطف عبارة الجزاء بحرف التَّراخي ثم؛ لأنَّ هذه الحالة أشدّ من صلي النَّار، فكأنّها بعده في الشّدّة[1]، فأخبرت الآية أنَّ الأشقى سيصلى النَّار الكبرى فيُعذَّب فيها، ثم بعد هذا العذاب يأتي عذابٌ أشد وهو أنَّه لا يموت فيها ولا يحيا، فاختلف النَّظم في الآيتين.

دلالة المُضارع في ﴿يَمُوتُ﴾ و﴿يَحۡيَىٰ﴾:

المجرمون عذّبوا النَّاسَ بألوانِ العذابِ فيُعذَّبون بمثلِها جزاءً وفاقًا

دلّ المضارع في قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ على التّجدّد والاستمرار؛ فإنّ هذا المُعذَّب في حالة طلبٍ للحياة، أو حالة طلب للموت، لكنّه لا يُعطى هذه ولا هذه، فيبقى في حالة لا تُعرف ولا توصف، وهذا من أشدِّ أنواعِ العذابِ في الآخرة، فإنَّ المجرمين في الدُّنيا يتوعدون النَّاس بألوانٍ من العذاب التي يتمنَّون معها الموت فلا يجدونه، تلذُّذًا بذلك، وطلبًا لإشباع إجرامِهم، فكان هذا الجزاء مماثلًا لصنيعِهم في الدُّنيا.

نكتةُ تأخيرِ ذكر المؤمنين:

السّياقُ في شأنِ فرعون فناسب البَدْء بالمجرمين

العطف بالواو بين الحالين لبيان التَّقابل بينهما، وبدأ بذكر المجرمين؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ جاء بعد ذكر إجرام فرعون وحاشيته ومن دار في دائرته،

(1) ابن جزي، التّسهيل: 2/ 475.

وفيها دلالة على جمع النَّاس كلّهم يوم القيامة مؤمنهم وكافرهم، فيُجزى كُلٌّ بما عمل، فلا تنفع الشّفاعة يومئذٍ إلا من أذن له الله تعالى.

بلاغةُ المجازِ في لفظ ﴿مُؤْمِنًا﴾:

الإيمانُ وصفٌ يُصاحبُ المؤمنين في القيامة فيُدخلهم الجنَّة

دلَّ وصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنًا﴾ على الحال التي يأتي عليها أهل الإيمان، وهو مجازٌ مرسلٌ باعتبارِ ما كان من أعمال الإيمانِ، فإنَّ الآخرة دار جزاء لا دار عمل، فهي حالٌ سابقةٌ تستصحب صاحبها لنيل جزائه في الآخرة، وللإيمانِ آثارٌ في الآخرةِ، كما قال ﷺ: "إن أمتي يُدْعَوْنَ يوم القيامة غرًّا محجَّلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يُطيل غرَّته فليفعل"[1]، وهذه واحدة من أوسمة المؤمن يوم القيامة.

دلالة حرف التحقيق:

إذا تحققت الأعمال الصَّالحة استُحقَّت الدَّرجات العالية

أفاد افتتاح الجملة بحرف التّحقيق في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الاهتمامَ، وتحقيقَ وقوع تلك الأعمال الصَّالحات من قبل المؤمن؛ ليتحقق اتِّصاف المؤمن بعمل الصَّالحات ويلتزم بتلك الأعمال، فاستحقَّ بذلك الدَّرجات العالية من الجنّة.

بلاغة المجاز المرسل:

الصَّالحات هي واجبات الأعمال الرَّافعة للملامةِ

لا يُراد من لفظ الصَّالحات في قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استغراقُ جميع الصَّالحات المتصوَّرة، من الفرائض والنوافل والطَّاعات، إذ قد يأتي المؤمن بما عليه من الواجبات وبعض النوافل فيدخل في الوعد، وظاهر اللَّفظ: يقتضي أن يكون آتيًا بكلِّ الصَّالحات، وذلك بالاتِّفاق غير معتبر، ولا ممكن، فينبغي أن يحمل ذلك على أداء الواجبات[2]، فالصَّالحات هنا بمعنى الواجبات؛ فهذا مجاز مرسلٌ علاقته الكليّة.

(1) أخرجه البخاري، واللفظ له، حديث رقم: (136)، ومسلم، حديث رقم: (246).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 79.

نكتةُ استعمال اسم الإشارة:

استحقاق المؤمنين للدَّرجات العليا من الجنّة

الإتيان باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ للتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما سبق اسمَ الإشارة[1]، وأفاد كذلك التّعميم، فإنّ كل من اتّصف بهذه الصّفات فإنّ له الدّرجات العلى من الجنّة، فللجنّة درجات، ولكلّ درجة من يستحقّها من أهل الإيمان والأعمال الصَّالحة.

بلاغة الالتفات من المفرد إلى الجمع:

لا يكتملُ نعيم الجنَّة إلَّا بالتحاقِ المؤمن بأهله المؤمنين

انتقل الخطاب من ذكر المفرد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾؛ لتعميم الجزاء على جميع المؤمنين العاملين، المتّصفين بصفات الصّلاح، وفيه إشارةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطّور: 21]، فأدّى الالتفات من المفرد إلى الجمع بيان معنى هذه الآية الكريمة؛ أي دلّ على إلحاق المؤمن بأهله؛ أمه وأبيه، وإخوته، من الذين استحقّوا تلك الدّرجات من الجنّة، فيعيشون فيها عيشة راضية، ولا يهنأ الإنسانُ إلَّا مع أقاربِه وأهل بيته.

دلالةُ لام الاستحقاق:

اللام في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ لام الاستحقاق؛ لأنّ الدّرجات العلى هي ليست ملكًا لبشر لكنّها استحقاق للمؤمنين لما قدّموا في الحياة الدّنيا وعملوا الصَّالحات.

بلاغةُ الكناية:

القربُ من الله تعالى أعلى جزاء يسعد به المؤمنون

التَّعبير بالدَّرجات العلا في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ كنايةٌ عن القرب من اللّه تعالى، ويمكن أن تكون درجات الجنَّات حقيقة؛ فيكون تفسيرها قوله بعدها: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 269.

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وفي الآية تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر؛ لأنّه تعالى جعل الدّرجات العُلا من الجنّة لمن أتى ربّه بالإيمان والأعمال الصَّالحة، فسائر الدّرجات التي هي غير عالية لا بدّ وأن تكون لغيرهم، وما هم إلا العصاة من أهل الإيمان[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإجرامُ والمعصية:

الجرم: الذنب، والجمع: أجرام، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾ [الأعراف: 40]؛ قال الزّجّاج: المجرمون ههنا، الكافرون؛ لأنّ الذي ذكر من قصتهم التّكذيب بآيات اللّه والاستكبار عنها[2]، وكلُّ مجرم في القُرآن فالمُراد بِه الكافِر[3]، والمعصية ما يقع من فاعله على وجه قد نهي عنه أو كره منه[4].

الجـرمُ ذنـب، والمعصية ما يقع من فاعله على وجه قد نُهيَ عَنه

جَهَنّم والسّعير والجحيم والحريق:

جهنم: سميت نار الآخرة بها لبُعد قعرها، والسّعير هو النَّار الملتهبة الحرَّاقة تسمى حريقًا في حال إحراقها، والحريق النَّار الملتهبة شيئًا وإهلاكها له، ولهذا يقال وقع الحريق في موضع كذا، ولا يُقال وقع السّعير؛ فلا يقتضي قولك: السّعير ما يقتضيه الحريق، ولهذا يقال فلان مِسْعَرُ حَرْبٍ كأنّه يشعلها ويلهبها، ولا يقال: مُحْرِق، والجحيم نارٌ على نارٍ وجَمرٌ على جمرٍ[5].

جهنَّم الاسم العلم، والسَّعير لحرِّها، والجحيم لتراكمِ نيرانها، والحريق لالتهابها

الدَّرَجاتُ والدَّركات:

(درك) الدَّال والرَّاء والكاف أصل واحد، وهو لحوق الشّيء بالشّيء ووصوله إليه، يقال أدركت الشّيء أدركه إدراكًا، وتدارك

اختصاصُ الدَّرجات بالجنَّة والدركات بالنَّار

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 79.
(2) ابن سِيدهْ، المُحكم: 7/ 414.
(3) الكفويّ، الكُلّيَّات، ص: 802.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 503.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 278.

القوم: لحق آخرُهم أولَهم، فأمَّا قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النمل: 66]، فهو من هذا؛ لأنَّ علمهم أدركهم في الآخرة حين لم ينفعهم، ومن ذلك الدَّرْك، وهي منازل أهل النار، وذلك أنَّ الجنَّة درجات، والنَّار دركات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]، وهي منازلهم التي يدركونها ويلحقون بها[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 2/ 269.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه: 76]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الجزاء إلى وصفه

بعد أن ذكر في الآية السَّابقة حالَ المؤمنين عند الله يوم القيامة، وأنّ لهم الدّرجات العلا، ناسَبَ أن يُفسّر تلك الدّرجات العلا، ويصفها في هذه الآية فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَدۡنٖ﴾: (عدن) أَصْلٌ، والمعدِن: مركز كل شيء، والعَدْن: الإقامة، وعَدَن بمكان كذا: استقرَّ، ومنه المَعدِن لمُستقَرِّ الجواهر[1]، وقوله تعالى في الآية: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾؛ أي أماكن إقامة دائمة لا تنقضي.

2) ﴿تَزَكَّىٰ﴾: (زكا) أَصْلٌ، وقيل: سُمّيت الزكاة بذلك؛ لأنَّها مما يُرجى به زكاة المال، وهو زيادته ونماؤه، وقال قوم: سُمّيت زكاةً؛ لأنها طُهْرَة، والزَّكاءُ: النَّماءُ، و(زَكَّاهُ) أيضًا أخذَ زَكاتَهُ، و(تَزَكَّى) تَصدَّقَ، و(زَكا) الزَّرْعُ يَزْكو (زَكاءً) بِالفَتْحِ والمَدِّ أَيْ: نَما[2]، والمعنى في الآية: تَطَهَّرَ من المعاصي.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وصف الدّرجات العُلا من الجنّة

تُبيِّن الآية ما يكون للذين آمنوا في الآخرة من جنَّاتٍ باقية دائمة تجري من تحت أشجارها وثمارها الأنهارُ خالِدينَ فيها خلودًا أبديًّا، وذلِكَ العطاء الجزيل الباقي جزاء من تزكى؛ أي: من تطهّر وتجرّد من دنس الكفر والمعاصي[3].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والأصفهانيّ، المفردات: (عدن).
(2) الأصفهانيّ، المفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (زكا).
(3) طنطاوي، الوسيط: 9/ 130.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الآيةِ عن السَّابقة:

تفسيرُ الدَّرجات بالجنَّات

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل من الدرجات[1]، فبعد أن ذكر الدّرجات، جاء ذكر الجنَّات ليُعلم أنّ تلك الدّرجات هي في جنَّات عدن، ويمكن أن يكون المعنى أنّ الدّرجات تدلّ على أنَّ الذين تقربوا من اللّه استحقّوا بها جنَّات عدن تجري من تحتها الأنهار، ففُصلت الآية عن السَّابقة لأنَّ الجنَّات بيانٌ وتعريفٌ للدَّرجات المذكورة في الآية السَّابقةِ، وهذا من كمال الاتصال الذي هو أحد موجبات الفصل بين الجملِ.

غرضُ جمع الجنَّات:

تكثيرُ الجنَّات وتعظيمُ شأنِها فجزاءُ المؤمن أعظمُ من أن يُدْرَك

جاء لفظ الجنَّات في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ مجموعًا للتّكثير، ولبيان عظيم ما أصابه المؤمنون من الخير والفضل والجزاء، وقد جاءت هُنا لبيان الدّرجات العلا فناسب جمعها لجمع الدّرجات، ويمكن أن يكون المراد ما قاله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن: 46]، ويمكن أن يكون المُراد أنَّ نَصيبَ كلّ واحدٍ من المكلَّفين جنَّةٌ على حِدَة[2]، واللّه أعلم بحقيقة مراده، وفضله يسع الجميع بما لا طاقة لعقل بشرٍ عن دركه.

سعةُ احتمال اللَّفظ لدلالاتٍ عديدة:

العَدْن اسمٌ جامعٌ للخيرِ الثَّابت والنَّفع الدَّائم

معنى العدن الإقامة، ومنه المَعْدِن؛ لأنّ حجره مقيم فيه ثابت[3]، فيجوز أن يكون المعنى: (أولئك لهم جنات إقامة دائمة)، بمعنى الخلود، كما يُقال: هذه دار إقامة، ويجوز أن يكون ﴿عَدۡنٖ﴾ اسمًا لموضع معين من الجنّة وهو وسطها وأشرف أماكنها[4]، ويمكن أن

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 34.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 104.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 514.

(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 104.

يكون هذا الاسم للجنّة؛ لأنّ من يدخلها فإنّه مقيم فيها، لا يرغب بالتّحوّل عنها لما فيها من النّعيم المقيم، وهذه المعاني قد تكون مرادةً؛ فإنَّ دلالة النَّظم تحتمل ذلك كلَّه.

نكتةُ التَّعبير بالمضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾:

جريان الأنهار في الجنان بتدفّق دائم لا يزيد ولا ينقص

جاء فعل الجريانِ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بصيغة المضارع؛ ليدلَّ ذلك على التّجدّد والاستمرار، إذ لا ينتهي هذا الجريان إلى حدٍّ معيّن، فهي جنَّات مستمرّة أنهارها بجريانها دون حدٍّ، فلا تنضب ولا تنقطع، ولا تزيد ولا تنقص، وما في ذلك من دلالة الحياة الخالدة.

جريان الأنهار بين الحقيقة والمجاز:

حقيقةُ جريانِ أنهارِ الجنَّة غيبٌ نَكِلُ علمَه إلى الله تعالى

الأنهار لا تجري وإنّما الماء الذي فيها هو الذي يجري، فأسند الفعل إلى غير فاعله؛ إذ أسند الجري إلى الأنهار لا إلى الماء، فهو مجاز عقليّ علاقته المحليّة، ومحلّ ما وطِئت أقدامهم تتفجّر مياه الأنهار وتجري، وهذا التَّوجيه للمجاز شائعٌ بين بعضِ البيانيّين، والقول الآخر أنَّ أنهار الجنَّة تجري على الحقيقة من غير أخاديد، فإسناد الجريان للأنهار هذا تعبيرٌ حقيقيٌّ لا مجازيٌّ، والأولى من ذلك كلِّه أن نكل حقيقةَ العلم إلى الله تعالى؛ لأنَّ ذلك غيبٌ محض.

نكتة تقديم ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

تتفجّر أنهار الجنان محلَّ ما وطِئَت أقدامُ المؤمنين

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لتسليط الضَّوءِ على مكان الجريان قبل ذكره، فإنَّ النَّفس تتطلع دائمًا إلى موضعِ جريان الأنهار، ولما في التَّقديم من التَّشويقِ، وفيه بيانٌ لجمال وروعة ما يمكن أن يلقى المؤمن وما يُعايش من مشاهد في جنان الله يوم القيامة.

بلاغةُ التَّعريضِ بذكرِ الخلودِ:

جاء ذكرُ الخلود في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ بعد ذكر الصَّلْبِ

بعد انقضاءِ الحياةِ الدُّنيا يكون الخلود متاعَ أهلِ الجنّة

والتعذيب في الدنيا، وقد خاطبَ السَّحرةُ فرعونَ: ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾، فعُلم أنّ نعيم اللّه لا نهاية له أبدًا، فكان قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ يُعطي الانطباع والتّصوّر عن غثاثة الدّنيا، وزهادة قيمتها، فمهما فعل الطّغاة وتجبّروا في الدّنيا فإنهم خاسرون، ومهما ملكوا وحازوا فهم فقراء أمام عطاء اللّه وخلود أهل الجنّة فيها.

غرضُ استعمال الموصول:

التزكية شرطٌ في الجزاءِ العظيم

استُعمل الموصول في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ لغرض التّعميم، فكلّ من تزكّى نالَ جنةَ عَدْنٍ خالدًا فيها، وفيها أيضًا معنى التّعريض بأولئك الذين يأتون مجرمين كافرين منكرين لرسالات الأنبياء.

دلالة الفعل الماضي ﴿تَزَكَّىٰ﴾:

على قدر التّزكية يكون الاستحقاق

دلَّ الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ على ثبوت التّزكية للمتزكّي ووقوعها، وأنّها صفة دائمة من صفاته، والتّزكية هنا هي التّطهّرُ حقيقة كتزكية المال، أو مجازًا كتزكية النّفس من كل ما هو مُسْتَقْبَحٌ مُستَكْرَهٌ، فعلى قَدْرِ أفعاله في التّزكية فإنّه يرقى في درجات الجنّات.

بلاغةُ التذييل:

جزاءُ الجنَّةِ بسببِ التَّزكية في الدُّنيا

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وقع موقع التّذييل لما سبقه؛ إذ تضمّن إيجازًا لما سبق من تعدادِ الجزاء الذي وُعِدَ به المُتّقون المؤمنون، وذلك جزاء أعمالهم من الإيمان القلبي الذي يظهر على الجوارح؛ أعمالًا صالحة، وعبادات، وإصرارًا على الحق، ويقينًا، وعزيمة.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 77 - 79]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

إيمان السحرة عجّل بإغراق فرعون، وإنجاء بني إسرائيل منه

في الآيات السَّابقة ذكر حال موسى مع السّحرة الذين تَخلَّوْا عن كفرهم، وآمنوا بالله تعالى لَمَّا رأوْا معجزة العصا، ثم ما وقع لهم مع فرعون، وفي الآيات هنا "شروعٌ في ذِكر إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوّهم"[1]، و"حكايةٌ إجماليةٌ لما انتهى إليه أمرُ فرعونَ وقومِه، وقد طويَ في البَيْن ذِكرُ ما جرى عليهم من الآيات المفصّلات الظاهرة على يد موسى عليه السلام بعد ما غَلب السحرةَ في نحوٍ من عشرينَ سنةً حسبما فُصِّل في سورة الأعراف"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: (وحي) "الوحْي: الإشارة والكتاب والرِّسالة، وكل ما ألقيتَه إلى غيرك حتى يعلمه: وحيٌ، وأوحى اللّهُ ووحى، قال: وحى لها القرار فاستقرت، والوحي: السريع، والوحى: الصوت"[3]، والمعنى المحوريُّ: تحصيلُ شيءٍ في الأثناء لطيف المادة حادّ الأثر أو قويِّه[4]، والوحي: الكلام والإعلامُ الخفيُّ، والسُّرعة، والإلهام، وكلُّها معانٍ مُرادةٌ في الآية الكريمة.

2) ﴿أَسۡرِ﴾: الأصل: (سرو)، والسَّرْو: سخاءٌ في مُروءة،

(1) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 3/ 446.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 31.
(3) ابن فارس، مجمل اللُّغة: (وحي).
(4) جبل، المُعجمُ الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (وحي).

والسِّرْوة: سهمٌ صغيرٌ، والسَّرْو: كشف الثوب وغيره، والسَّرْو: شجر، وأرض مسروَّة من ذلك، والسُّرَى: سيرُ اللَّيل، والسَّريَّة: خيلٌ تبلغ أربع مائة، والسَّارية: سحابة الليل، يُقال: سرى ليلًا وأَسرى، قال:

أَسْرَتْ إليك ولم تكنْ تسري[1]

والمعنى المحوريُّ: نفاذ الشَّيء الدَّقيق المُمتد (في أو من) أثناء محوُطة بقوة، كالنِّصال في الدُّروع[2]، والمعنى في الآية الكريمة: السَّير بهم ليلًا.

3) ﴿فَٱضْرِبْ﴾: (ضرب) أَصْلٌ واحِدٌ، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُحْمَلُ عليْه، من ذلك: ضَرَبْتُ ضَرْبًا، إِذا أَوْقَعْتَ بِغَيْرِكَ ضَرْبًا، ويُسْتَعارُ منْهُ ويُشَبَّهُ به الضَّرْبُ في الأَرْضِ تِجارَةً وغَيْرَها مِنَ السَّفَرِ، قالَ تعالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النِّساء: 101]، ويَقولونَ: إنَّ الإِسْراعَ إلى السَّيْرِ أَيْضًا ضَرْبٌ[3]، والمعنى المِحوريُّ: غِلَظٌ يُخالط الشَّيء الرّخو أو يُداخله مداخلة قويَّةً فيتماسك أو يشتدّ؛ كالجليد[4]، وقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ﴾ يعني: فاجعل، أو: فاتخذ.

4) ﴿طَرِيقًا﴾: (طرق) أَرْبَعَةُ أُصولٍ؛ أَحَدُها: الإِتْيانُ مَساءً، والثَّاني: الضَّرْبُ، والثَّالِثُ: جِنْسٌ من اسْتِرْخاءِ الشَّيْءِ، والرَّابِعُ: خَصْفُ شَيْءٍ على شَيْءٍ[5]، والمعنى المحوريُّ: امتدادُ الشَّيء الغضِّ الأثناء طولًا بقوةٍ داخليَّةٍ أو ضغطٍ خارجيٍّ: كالنَّخلة[6]، والطَّريقُ: "السّبيل الذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ؛ أيْ: يُضرب؛ وعنه استُعير كلُّ مَسْلَكٍ يسلكه الإنسانُ في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا"[7].

5) ﴿يَبَسًا﴾: (يبس) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على جَفافٍ، يُقالُ: يَبِسَ الشَّيْءُ يَيْبَسُ ويَيْبِسُ، واليَبْسُ: يابِسُ النَّبْتِ، وقيل: هو جَمعُ يابِسٍ، واليَبَسُ: المَكانُ يُفارِقُهُ الماءُ فَيَيْبَسُ، ويُقالُ:

(1) ابن فارس، مجمل اللُّغة: (سرو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (سرو - سرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضرب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (ضرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طرق).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (طرق).
(7) الراغب، المُفردات: (طرق).

يَبِسَتِ الأَرْضُ: ذَهَبَ ماؤُها ونَداها، وأَيْبَسَتْ: كَثُرَ يَبْسُها[1]، والمعنى المحوريُّ: جفافُ الشَّيء بذهاب رطوبته ونَداه منه؛ كالحَطَب والبقول، ومنه: "اليَبَس - بالتحريك: المكان يكون رطبًا ثم ييبس[2]؛ وهو المعنى المقصود في الآية.

6) ﴿دَرَكًا﴾: (درك) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو لُحوقُ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ ووُصولُهُ إِلَيْه، يُقالُ أَدْرَكْتُ الشَّيْءَ أُدْرِكُهُ إِدْراكًا[3]، والمعنى المحوريُّ: لحاقٌ أو تعلقٌ بطرَفِ الشَّيء أو أقصاه: كالقَعْر في عُمق البئر وأقصاها الممتد[4]، والدَّرَكُ: أَقْصَى قَعْرِ الشّيءِ، والدَّرَكُ أيضًا: إِدْراكُ الحاجَةِ ومَطْلِبه، وأَدْرَكْتُه ببَصَري: رأَيْتُه[5]، والدَّرك: اسْم مصدر من الإِدْراك[6]، والأخير هو المعنى المقصود بقوله ﴿دَرَكًا﴾ يعني: لحاقًا ووصولًا.

7) ﴿فَغَشِيَهُم﴾: (غشي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَغْطِيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، والمعنى المحوريُّ تَغطّي الشَّيء بكثيف يعُمُّه: كغشاء السَرج والجَفن.، إلخ[7]، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشّيه، والغِشاءُ: الغِطاءُ، والغاشِيَةُ: القيامَةُ، لِأَنَّها تَغْشَى الخَلْقَ بِإِفْزاعِها، ويُقالُ: رَماهُ اللَّه بِغاشِيَةٍ، وهو داءٌ يَأْخُذُ كَأَنَّهُ يَغْشاهُ، والغِشْيانُ: غِشْيانُ الرَّجُلِ المَرْأَةَ[8]، ومعنى ﴿فَغَشِيَهُم﴾ في الآية: غطَّاهم من الموج ولفَّهم.

8) ﴿ٱلْيَمِّ﴾: (يمّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على قَصْدِ الشَّيْءِ وتَعَمُّدِه وقَصْدِه[9]، والمعنى المحوريُّ: تجمُّع لطيفٍ مُتَّصل المادة (أيْ: متسعها) متراكمها: كاليَمِّ بتفسيراته المذكورة[10]، واليَمُّ: البَحْرُ، وقيل: لُجَّةُ البَحر، وقال أبو عبيدة: "واليمُّ: مُعْظَمُ البحر[11]، "ويُمَّ الرَّجُلُ: غَرِقَ في اليَمِّ، ويُمَّ السَّاحِلُ يَمًّا: غَطَّاهُ اليَمُّ"[12]، ويكون المعنى في الآية على ما تقدَّم شرحه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (يبس).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (يبس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (درك).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (درك).
(6) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (درك).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (غشو - غشي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (يَمَّ).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (يمم).
(11) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 19.
(12) ابن سِيده، المُحكم: 10/ 579.

۞ المَغنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه تعالى أنه أمَر موسى عليه السلام أن يَخرُج بِقومه ليلًا؛ فرارًا من بطش فرعون، "وذلك بعد سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم إلى الحقِّ ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوًّا وفسادًا"[1]، وأنه سبحانه وجَّه نبيّه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه ماء البحر لينفلق عن طُرقٍ تجفُّ فورًا ويتيبّس طينها وماؤها، وأنه عليه السلام سيكون آمنًا، لا يخاف أن يدركه فرعون، ولا يخشى أن يُغرِقه البحر.

وأخبر أن فرعون حشد جنوده وخرج بهم لإدراك موسى عليه السلام ومن معه، وإعادتهم إلى حوزته وتأديبهم على انشقاقهم، فابتلع البحر فرعون وجنوده، وطمَّهم بمائه، وبذلك أهلك فرعون نفسه وجنده، ولم يهدهم سبيل الرشاد الذي وعدهم به.

اللــه تـعـالى يجعل لعباده مــن الضـيـق مخرجًا لا يخطر بِبالهم

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها في المطلع:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ لاستئناف إخبارٍ عن موسى، والجملة ابتدائية، والواو عاطفةٌ قِصَّة على قصة[2]، وفي الاستئناف إخبارٌ عن شيء من أمر موسى عليه السلام وبينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان، حدث فيها لموسى عليه السلام وفرعون حوادث، غدر فيها فرعون ونكث الآيات حتى أوحى اللّه إلى موسى عليه السلام أن يُخرج بني إسرائيل في الليل[3].

يــحــســن الاستئناف بعد طول الفصل

نوع اللام ودلالتها في: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

"اللام في ﴿وَلَقَدۡ﴾ هي الموطِّئة للقسم"[4]، وفي "تصديرها بالقسم إبرازُ كمال العناية بمضمونها، أي: وبِاللّه لقد أوحينا إليه

الله تعالى يغيِّر بعض نواميس الكون انتصارًا لعباده

(1) حقي، إسماعيل، روح البيان: 6/ 276.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 269.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 360.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 446.

ﷺ أن أَسْرِ بعبادي الذين أرسلتُك لإنقاذهم من مَلَكة فرعونَ"[1]، ويبدو أن القسم هنا متوجِّهٌ لانتزاع أيِّ شك قد يخالط النفوس في أمر شَقِّ البحر طُرُقًا تيبس في تلك اللحظات، فهذا مكمن الغرابة التي تقتضي التوكيد بالقسم، لا مجرد الإيحاء إلى موسى عليه السلام، ولا تكليفه بضرب البحر بالعصا، فكل ذلك وارد لا يُشَكّ فيه.

دلالة ﴿وَلَقَدۡ﴾ في المطلع:

يُغيِّر النظم القرآني الأسلوبَ بِـ (قد) حين ينتقل إلى حدَثٍ جديد

جاءت ﴿وَلَقَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ "للاهتمام بالقصَّة؛ ليُلقي السامعون إليها أذهانهم، وتَغَيُّرُ الأسلوب في ابتداء هذه الجملة مُؤْذِنٌ بأنّ قصصًا طويت بين ذِكر القصتين، فلو اقتصر على حرف العطف لَتُوُهِّم أنّ حكاية القصَّة الأولى لم تزل متَّصلة؛ فتوهم أن الأمر بالخروج وقع مواليًا لانتهاء محضر السَّحَرَة، مع أن بين ذلك قصصًا كثيرةً ذُكِرت في سورة الأعراف وغيرها"[2].

نكتة التعبير بالإيحاء:

من الإيحاء ما يقذفه الله تعالى في نفس العبد

الإيحاء المقصود هنا هو الإيحاء الخاص بالمرسلين؛ من حيث إرسالُ مَلَكٍ يبلّغه عن اللّه تعالى مراده من خلقه، بخلاف إيحاء الإلهام، الذي يقذفه اللّه تعالى في نفوس من يشاء من عباده، كما أوحى اللّه تعالى إلى أم موسى أن ترضعه ثم تضعه في التابوت، ثم تقذفه في البحر؛ يأخذه عدوٌّ له سبحانه وتعالى وعدو لموسى عليه السلام.. إلى آخر تفاصيل ذلك الإيحاء.

إعلامُ موسى الأمرَ بالمسير ليلًا يناسبُ معنى الخفاء في لفظ الوحي

وتقدّم أنَّ من معاني الوحي لغة الإعلام في خفاء، والسّرعة، والأمر، وكلُّ هذه المعاني مُرادةٌ ههنا؛ فالوحيُّ لموسى عليه السلام أمرٌ يُلمح منه طلب سرعة الاستجابة، ومعنى الإعلام خَفاءً فيه يناسبُ المسير ليلًا؛ لكون الليل أصلَ الخفاء والاستتار؛ فاصطفاؤه في هذا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 31.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 269.

الموضوع فيه قصدٌ دقيق يناسب سياق الآية، ولا ينافي هذا بوجه معنى التّحقيق والتّقرير والعناية بالمضمون بدلالة: اللام، وقد، وصيغة الماضي، بل إنّ في الاعلامِ بخفاءٍ إشارةً بيّنة إلى الاحتراز، والتحوّط، والحذر.

وجه التناسب بين ﴿وَلَقَدْ﴾ والماضي ﴿أَوْحَيْنَآ﴾:

تحقيق وعد الله بإنجاء المرسلين

دخول ﴿وَلَقَدْ﴾ على الماضي في ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ يحقِّق التناسُب التامّ؛ إذ إن ﴿وَلَقَدْ﴾ تحقيقية، وصيغة الماضي في ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ أيضًا تحقيقية، أي: تفيد تحقُّق الوقوع؛ وبذلك التناسُب يتمّ التكامل، ومما يُهَيِّئُ لهما معًا ويُؤازرهما في إتمام التناسُب دخولُ اللام الموطِّئة للقسم؛ تأكيدًا لهذا الإيحاء، وتقريرًا له.

بلاغة مجيء المسند إليه ضميرًا بنون العظمة:

العظيم ﷻ هو الذي إذا أخبر بشيء كان محقَّقًا

أوثر استعمال ضمير العظمة (نا) في قوله تعالى ﴿أَوْحَيْنَآ﴾؛ فالعظيم ﷻ هو الذي إذا أخبر بذلك كان محقَّقًا، مقطوعًا به، لا شكّ فيه، وهكذا تتآزر طبائع عناصر التركيب على تقريرِ الحدَث وتأكيدِ وقوعه، وبيانِ واسع قدرته جلَّ في علاه.

لطيفة تعدية الإيحاء بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

نجاة العباد غاية إرسال الرسل

في إيثار تعدية الإيحاء إلى موسى عليه السلام بحرف الانتهاء ﴿إِلَىٰ﴾ دون (اللام) في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾، فلم يقل: (ولقد أوحينا لموسى)؛ إشارة إلى الغاية التي من أجلها كان الإيحاء إليه عليه السلام؛ وأن الغاية هي نجاةُ قومه، وأن الأمر هنا ليس لتحقيق غاية لموسى عليه السلام، وإنما لتحقيق غاية إنجاءِ قومه من فرعون وشرِّه.

معنى ﴿أَنْ﴾:

﴿أَنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ مفسِّرةٌ؛ لأنَّ الوحيَ فيه

معنى القول، أو مَصدريةٌ حُذِف عنها الجارُّ[1]، أيّ: أوحينا إليه بِأن أَسْر بعبادي.

غرض الأمر ﴿أَسْرِ﴾:

معنى ﴿أَسْرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ﴾: "أي: سِرْ بِهم من مِصرَ ليلًا"[2]، وهذا الأمر - مع صدوره من الربِّ القادر القاهر - ليس فيه من معاني الإلزام والقهر ما فيه من العناية الرحمانية بهم، و"الحكمة في أن يسري بهم ليلًا أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدوِّ؛ فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك، وليكون عائقًا عن طلب فرعون ومُتَّبِعيه، وليكون إذا تقارب العسكران لا يَرى عسكرُ موسى عسكرَ فرعون؛ فلا يهابوهم"[3].

أوامرُ الله تعالى لعباده كلُّها خيرٌ لهم، وبركةٌ عليهم

إيثار لفظ الإسراء دون غيره:

وجَّه الله تعالى نبيّه موسى ﵇ بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ دون غيره من مثل: أن اخرُج؛ لأن لفظ الإسراء يوجز من المعاني ما لا يوجزه لفظ الخروج وغيره؛ ففي الإسراء معنى السير ليلًا، وفيه معنى التلطُّف في الخروج، وفيه الحفاظ على السِّرّية، وفي ذلك تدريب للأمة على منهج الأخذ بأسباب النجاة وأخذ الحيطة في مثله ما أمكن، وإلا فالله تعالى القادر على إهلاك فرعون في البحر كان قادرًا على إهلاكه في القصر دون إسراء ولا إغراق.

في قصة نجاة موسى ﵇ وقومه تدريبٌ على الأخذ بالأسباب

نوع الباء ودلالتها في ﴿بِعِبَادِي﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ تفيد المصاحبة، وتوجِّه موسى ﵇ إلى العناية بقومه، وتلمح له بضرورة الالتحام بهم، وعدم السّهو عنهم؛ فهم رصيدُ الإيمان مِن الخلق في حينه، وهم الذين تحدَّوْا فرعون وجنده، قائلين صراحة: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ

الإمام المسلم يَلتحم برعيته، ويهتمّ لشأنهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 31.
(2) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 31.
(3) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 80.

﴿قَاضٍۖ﴾، وهكذا تكون عناية المسؤول برعيّته؛ يكترث لشأنهم، ولا يستأثر بخير دونهم.

عباد الله تعالى يحظون بالقُرب، وينالون الكرامات

نكتةُ التعبير بصيغة ﴿بِعِبَادِى﴾:

في ذِكر اسم (عباد) في قوله تعالى: ﴿بِعِبَادِى﴾ مزيد تكريم للموصوفين به؛ إذ إن وصف العبودية بصيغة ﴿بِعِبَادِى﴾ في القرآن الكريم يأتي في مقامات التقريب لهم والمِنّة عليهم والتشريف لهم؛ لأنهم (عباد) محبّون لربهم ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63]، بخلاف وصف العبودية بصيغة ﴿لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: 46] فإنه يجيء في مقامات قَسْرِهم على الإذعان، وغيره ممَّا هو من ذلك بسبيل، كما في قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: 46].

عباد الله تعالى موضع تشريف وتكريم بإضافتهم إليه تعالى

لطيفة الإضافة في ﴿بِعِبَادِى﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿بِعِبَادِى﴾ إضافة تكريم وتشريف، إلى ما فيها من "إظهار المرحمةِ، والاعتناءِ بأمرهم، والتنبيه على غاية قُبح صنيعِ فرعونَ بهم؛ حيث استعبدهم وهم عباده ﷻ، وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل"[(1)]، كذلك فيها "إيماءٌ إلى تخليصهم من استعباد القِبط، وأنهم ليسوا عبيدًا لفرعون"[(2)]، بل عباد للّٰه تعالى؛ فكانوا جديرين بـ "إضافتهم إلى نفسه ﷻ لإيمانهم"[(3)] الذي طهّرهم من أدران الكفر.

إذا أراد الله تعالى شيئا هيَّأ له الأسباب

دلالة الفاء في الفعل ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾:

الفاء في الفعل ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ "عاطفة"[(4)] للفعل ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ على الفعل ﴿أَسۡرِ﴾، وفي إيثارها دون سواها من أدوات العطف توجيه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 31.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 270.
(3) الكرماني، لباب التفاسير: ص1830.
(4) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 266.

موسى عليه السلام نحو متابعة الأحداث المأمور بها دون توانٍ؛ وقد ظهر بعد ذلك أنّ أجل فرعون وجنده كان في علم اللّه تعالى قد آنَ، واللّه تعالى إذا أراد شيئا هيَّأ له الأسباب، وكل شيء عنده جل جلاله بمقدار.

معنى فعل الضرب:

قد يجري الله تعالى على أيدي الصالحين ما لا يخطر على بال

التّعبير بالضرب في قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ يحتمل معنى الضرب الحقيقي، أي: ضرب ماء البحر بالعصا؛ فينفلق، ويحتمل الضرب المجازي، أي: إنشاء طريق في البحر، أي: فاجعل، أو فاتخذْ لهم، أو بيِّن لهم طريقًا يسلكونه في البَحْرِ، قال أبو حيَّان: "والظاهر أن لفظة ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ هنا على حقيقتها من مسِّ العصا البحرَ بقوة وتحامُل على العصا، ويوضحه في آية أخرى ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: 63]؛ فالمعنى: (أن اضرب بعصاك البحر لينفلق لهم فيصير طريقًا)؛ فتعدَّى الضرْب إلى الطريق بِدُخول هذا المعنى، فلما كان الطريق متسبَّبًا عن الضرب جُعِل كأنه المضروب"[1].

نوع اللام ودلالتها:

لأجل عباد الله يَخرِق الله جل جلاله بعض النواميس

(اللام) في قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ﴾ تدُل على أن سبب أمر موسى عليه السلام بضرب البحرَ هو أن ينفلقَ ليَمُرَّ بنو إسرائيل فيه دون عدوّهم؛ فينجوا ويهلك عدوّهم، فأفادت (اللام) قصرَ غاية ضرب البحر لنجاة بني إسرائيل وحدهم.

نكتة تقديم ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول:

في قصة نجاة موسى عليه السلام وقومه على الأخذ بالأسباب

في تقديم النظم الكريم القيدَ بالجار والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول في جملة ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقًا﴾ دلالةٌ على اختصاص هؤلاء العائد عليهم الضمير في ﴿لَهُمۡ﴾ بهذه الخصيصة، وأن تغيير ناموس البحر من السيولة إلى اليبوسة ما كان إلا لأجل هذه الفئة المظلومة، وذلك يبعث في نفوس من يُظلم الثقةَ في معية اللّه تعالى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 361.

له، وقُدرته على نُصْرته إياه، حتى وإن اقتضى الأمرُ تغييرَ بعض قوانين الكون من أجله.

نكتةُ تنكير ﴿طَرِيقًا﴾:

طريق نجاة موسى وقومه عجيب لم يُعْهَد

جاء التعبير بـ ﴿طَرِيقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ منكَّرًا لِغرابته وتَفرُّده في بابه وعدم اعتياد مثله؛ ذلك أنه كان ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، لم يُعهَد له مثال، ولا خطر لأحد من الخلق على بال، و"المراد بالطريق هنا جنسُه؛ فإن الطرق التي حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر كانت اثني عشر طريقًا بعدد أسباط بني إسرائيل"[1].

براعة التقييد بالجار والمجرور ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾:

قدرة الله تعالى على تعطيل الأسباب مطلقةٌ

من بَراعات النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أنْ قَيَّد ضَرْب الطريق بكونه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ إذ البحر أبعدُ ما يُتوقَّعُ أنْ يُجعَل فيه طريقٌ، والأعجب أن يكون هذا الطريق ﴿يَبَسًا﴾ لا بَلَل فيه ولا رطوبة، وهذا يُجَلّي جانبًا من جوانب قدرة الله تعالى المطلقة التي لا تَحُدُّها حدود على تعطيل الأسباب، وخرق نواميس كونه لمن يشاء من عباده.

لطيفة تعريف ﴿ٱلْبَحْرِ﴾:

شقّ طريق يَبَسٍ في البحر آية صدقٍ لموسى عليه السلام

تعريف ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ - وإن كان لبيان العهد؛ إذ هو في رأيٍ بحر القلزم[2] البحر الأحمر الفاصل بين مصر ومدين - فإنه تعريفٌ يُضفي على البحر خطورة، ويُبين عن كمال صفة البَحْريّة فيه؛ مما يُجَلّي عظمة الإعجاز في إنشاء هذا الطريقِ اليابس في أعماقه؛ الطريقِ الذي حصل شَقُّه ويُبْسُه في لحظته، على إثْر ضرْب نبي الله عليه السلام البحرَ بتلك العصا التي باركها اللّه تعالى.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 132.
(2) حقي، إسماعيل، روح البيان: 6/ 276.

بلاغة المجاز في إيقاع الضرب على الطريق:

من كمال قدرة الله تعالى فلق البحر العظيم بالعصا الصغيرة

في إيقاع الضرب على الطريق في قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الضرب إنما أوقِع على البحر لا الطريق، والعلاقة بين البحر والطريق هي المكانية؛ إذ الطريق ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، وكذلك في إيقاع الضرب على الطريق مجاز لغويٌّ مُرسَل؛ إذ الطريق مسبَّبٌ عن الضرب، وضرب البحر سببٌ في إنشائه، والعلاقة حينئذ المسبَّبيَّة، و"الأصل: اضرب البحر ليصير لهم طريقًا يبسًا"[1]، ويمكن النظر إليه على أنه مجاز مرسل لعلاقة ما سيكون؛ لأن الطريق وُصِف باليبس، الذي سيؤول إليه.

وكل ذلك على رأي مَن حمل الضرب على ظاهر معناه اللغوي؛ وهو الأنسب للمقام؛ لأن هذا وذاك مِن فيض إيقاع الضرب الحقيقي على المفعول ﴿طَرِيقٗا﴾؛ مما يبين عظمة اللّه تعالى وكمال قدرته على تحويل البحر إلى طريق يابس، بِمجرد ضرْبِ ذلك البحر الهائل بعصًا صغيرة يمكن أن تحملها يدُ نبيّ اللّه تعالى.

موقع ﴿يَبَسٗا﴾:

وصف الطريق المنشأ في البحر حديثًا باليبس يؤكّد المعجزة

لفظ ﴿يَبَسٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ "مصدرٌ، جُعِل وصفًا لـ ﴿طَرِيقٗا﴾ مبالغةً، ووجه المبالغة فيه أنه يدفعُ تَوَهُّمَ بقاءِ بقية طينٍ أو بَلَلٍ في الطريق بعد انشقاق ماء البحر عنه، فـ"ما كان فيه وحْلٌ ولا نَداوة، فضلًا عن الماء"[2]، فقرَّر ذكرُ الوصف ﴿يَبَسٗا﴾ أن الطريق صار فور ضرب البحر ممهَّدًا لعبور موسى عليه السلام ومن معه بلا أيّة عوائق، أو محاذير.

سر إيثار مفردة ﴿يَبَسٗا﴾ دون سواها:

هول منظر الانشقاق يتطلّب التّطمين

"اليَبَس - بفتح المثناة والموحدة، ويقال: بسكون الموحدة - وصفٌ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 546.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 80.

بمعنى اليابس"[1]، وفي إيثار النظم الكريم التعبيرَ به وصفًا للطريق تمامُ الاتِّساق مع غرضِ تطمين موسى عليه السلام وأهل رفقته؛ لأن تيبُّس الطريق وثباته يمكّن من العدْوِ عليه بلا كبير جهد، بخلاف الطريق المبلّل أو الذي فيه طبقة طين ووحَل، فصار طريق البحر خيرًا لهم وأيسر عليهم من طريق البَرّ بما فيه من صخور ورمال.

بلاغة الطباق بين ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ و﴿يَبَسٗا﴾:

من كمال العظمة الإلهية تحويل الضدّ إلى ضدّه فورًا

من براعة النظم القرآني في قوله تعالى: ﴿طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ الجمع بين النقيضين: (البحر) و(اليبس)، وضمُّهما متلاصقين: ﴿ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾؛ وتلك المفارقة العجيبة تكشف عن كمال العظمة الإلهية في تحويل الضدّ إلى ضدّه في لحظة من الزمن.

بلاغة التعبير بنفي الخوف في جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾:

قضى الله تعالى أنه لا يخاف لديه المرسلون

جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ "حالٌ من المأمور - وهو موسى عليه السلام -، أي: آمِنًا مِن أن يُدرِكَكم العدوُّ، أو صفةٌ أخرى لِـ ﴿طَرِيقٗا﴾"[2]؛ أي: طريقًا لا يُخاف فيه الدَّرَك أو الضرر، و﴿لَّا﴾ للنفي على القراءة التي تثبت الألف، "أي: لا تخاف لحوق فرعون وجنوده، ولا تخشى غرق البحر، ليس على النهي، ولكن على رفع الخوف عنه والأمن عن أن يدركهم ويلحقهم؛ ألا ترى أنه قال: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: 61 - 62]"[3].

وبشارةُ اللّه تعالى لنبيه موسى عليه السلام بِنفي الخوف عنه تارة، وبنهيه عنه أخرى تكرَّرتْ في القرآن الكريم في مقامات شتى وقعت لموسى عليه السلام، منها مقام نداء اللّه تعالى إياه أوَّلَ مرةٍ حين آنَسَ نارًا فذهب يلتمسها لأهله، وأمره اللّه تعالى بِرمي العصا فاستحالت حيّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 270.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 31.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 296.

تسعى؛ فخاف ﷺ فبشَّره اللّه تعالى بأنه لا يخاف لديه المرسلون، ونهاه عن الخوف.

كما طمأنه اللّه تعالى وأمّنه من الخوف حين ألقى السّحرة حبالهم وعصيَّهم وخُيِّل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفةً، وطمأنه هنا حين رأى البحر من أمامه والعدوَّ من خلفه.

دلالة المضارعة في جملة: ﴿لَّا تَخَافُ﴾:

نفيُ المضارع يسلبه التجدُّد، ويحيله المعنى إلى الثبوت

صيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ تدلّ على تأكُّد روح الطمأنينة والأمان في نفس موسى ﷺ في هذا الموقف العصيب، وهذا معهود له ﷺ منذ أن أخبره اللّه تعالى بذلك في أوَّل البعثة حين قال اللّه تعالى له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠﴾ [النمل: 10].

ودخولُ النفيِ على الفعل المضارع يسلُبه دلالة التجدُّد والحدوث، ويُحيلهما إلى عكسهما من دلالة الدوام والثبوت، كما يسلبه نفس معناه، ويقرّر عكسه لفاعله؛ فالخوف هنا يُسلَب بالنفي ليحلّ محله عكسُه مِن الأمن والطمأنينة، كما يُسلب بالنفي تجدُّد الخوف؛ ليحل محله دوامُهما.

دلالة النفي أو النهي في: ﴿لَّا تَخَافُ﴾:

تطمين نبي الله بين الإخبار والنهي عن الخوف

قرأ حَمزَة بسكون الفاء ﴿لَّا تَخَفۡ﴾ جزمًا وقَرَأَ الباقونَ ﴿لَّا تَخَافُ﴾ رفعًا بِألف(1).

ووجْهُ قراءة حمزة أن ﴿لَّا﴾ جازمة للنّهي وسَقَطت الألف لسكونها وسُكون الفاء، ويفيد أسلوب النهي استثارة قلب موسى ﷺ لقطع دوافع الخوف، وصدّها عن أن تداخل قلب نبيٍّ يقول: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: 62]، وتكون جملة ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ بعدها من

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 421.

باب الاستئناف(1) لبيان حال موسى ﷺ من طمأنينته بإنفاذ وعد الله تعالى له.

ويجوز أن تكون ﴿لَّا تَخَفْ﴾ مجزومة جوابًا للطلب ﴿فَٱضْرِبْ﴾، "فَهو على المجازاة الَّتي هيَ جَواب الأَمر كَأَنَّهُ قالَ: (اضْرِب فإنَّك إن تضرب لا تخف) كَقَوْلِه ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [الشعراء: 62]"(2).

وقَرَأَ الباقونَ ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ بِالرَّفْع على الإخبار، فتكون لا نافية، ويكون المعنى أحد ثلاثة وجوه:

الأول: على الحالية وصاحب الحال موسى ﷺ، أي: "لَسْتَ تَخاف دَرَكًا؛ لأن فرعون يغرق قبل خروجه من البحر"(3).

الثاني: أنه "صفة للطريق، والعائد محذوف، أي: ولا يخاف فيه"(4).

الثالث: أنه ابتداء "على القطع مِمَّا قبله فيكون تَقْديره: (واضْرِبْ لَهُم طَرِيقًا)، ثمَّ أخبر فقالَ: (أَنْت غير خائِفٍ ولا خاشٍ)؛ أي لست تخاف"(5).

لطيفة اختصاص موسى دون قومه بِبُشْرى عدم الخوف والخشية:

في ثباتِ القائد ثباتُ أتباعه، وفي اهتزازه اهتزازُهم

كان الأمرُ في الجملة السابقة ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ خاصًّا بِموسى ﷺ فقط؛ وعلى سبيل الحقيقة؛ لأنه هو الذي سيضرب، وتلك معجزتُه هو دونهم، ومن دواعي نَفْي الخوف عن موسى ﷺ وحدَه هنا في منطوق الآية الكريمة - أيضًا - اتِّساق مع الأمر السابق ﴿فَٱضْرِبْ﴾؛ مِن حيث إنَّ جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ حالٌ مِن ضميره ﷺ في الفعل ﴿فَٱضْرِبْ﴾، أيْ: اضرب ثابتًا غير خائف.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 459.
(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 155.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 898.
(5) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 460.

وكذلك نفيُ جُملَتَي ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ "اقتصر على وعْدِه دون بقيَّة قومه؛ لأنه قدوتهم؛ فإذا لم يَخَفْ هو تشجَّعوا، وقوي يقينُهم، فهو خبرٌ مرادٌ به البُشْرى"(1).

وكذلك في اختصاص موسى ﷺ بالبشارة لفظًا دون أهل رفقته من بني إسرائيل - إشارةٌ إلى أفضليته عليهم؛ فهو سبب نجاتهم، وهو سبب كل خير عليهم من الله تعالى.

دلالة حَذْف متعلّق ﴿تَخَٰفُ﴾:

أمـــان مـوسى وقـومـه مـن فـرعـون في ذلك اليوم وبعده

حُذِف متعلِّق الفعل ﴿تَخَٰفُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ وهو ظرفُ المكان (فيه)، أي: في ذلك الطريق اليبَس، والمعنى: "(لا تَخافُ فيه دَرَكًا)، وحُذِف (فيه) كما تقول: زيدٌ أَكْرَمتُ، تريد: أَكْرَمتُهُ، وكما قال ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48] أيّ: (لا تجزي فيه)"(2)، وحذف الظرف ههنا يُفيد الإطلاق، ويبشِّر موسى ﷺ وقومه بعموم الأمن والأمان في جميع أحوالهم بعد هلاك فرعون وملئه.

دلالة التعبير بالدَّرَك مادّةً وصيغةً:

في نَفْي الدّرك أمانٌ مِن الإغراق وطمأنةٌ من اللحاق

من معاني كلمة الدَّرَك اسمُ مصدر من الإدراك، والمعنى: (لا تخاف إدراك العدو)، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾، أي: (لا يصل إليك فرعون وجنوده ولا يَلحقونك)(3).

وفي نَفْي الدرك تأمينٌ مِن الغرق؛ إذ كان النزول إلى الأسفل دركاتٍ، كما أن الصعود إلى الأعلى في المقابل درجاتٌ؛ وفي القاموس: "النارُ دَرَكاتٌ، والجنةُ دَرَجاتٌ، والقعرُ الآخِرُ، أي: الأسفل في جهنم: دَرَكٌ"(4)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 270.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 444.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 376.
(4) الجوهري، الصحاح: (درك).

﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]، وفي لفظ الدَرَك تطمينٌ لهم من الجهتين دَفْعةً: من جهة الوراء - أي: من إدراك فرعون إياهم -، ومن جهة الأمام؛ أي: من غرقهم في قاع البحر، فلما كان الدَّرَك - مادّةً وصيغةً - يجمعهما؛ أغنى عن ذكرهما جميعًا، فلم يقل سبحانه: لا تخاف من فرعون إدراكًا أو لحاقًا، ولم يقل في المقابل: (ولا تخاف غرقًا).

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾:

ضاعف الله تعالى لموسى عناصر الطمأنينة

الواو في جملة ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ عاطفةٌ على جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾؛ وفي العطف دَعْمٌ لِعامل الطُّمأنينة في نفسه ﵇، ونفوس أهل رفقته المؤمنين من السحرة الذين آمنوا خصوصًا، وبني إسرائيل عمومًا، وقد "تكون (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ للاستئناف، لا للعطف"[1]، هذا على قراءة حمزة بجزم (تخف).

معنى ﴿وَلَا﴾:

جمع الله لكليمه موسى الأمان كله

﴿وَلَا﴾ في قوله تعالى لموسى ﵇: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ نافية، وجملتها معطوفة على قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾، فجمع لموسى ﵇ الأمان من دَرَكَ العدو ومن الغرق.

ويحتمل أن تكون ناهية على قراءة حمزة بالجزم في (لا تخف) وثبتت الألف فيها للفاصلة، وهي - وإن كان ظاهرها للنهي - غير أنها إلى إفادة الإيناس والتطمين أقرب؛ لأن النهي صادر ممّن يقدر على حِفظ عبده من الخوف وعواقبه.

لطيفة إيثار التعبير بالخشية:

من إيناس الخائف تعديد أسباب الأمان له

إذا كانت "الخشية شدّة الخوف"[2] ففي نفي الخوف عمومًا عن موسى ﵇ وقومه ثم نفي الخشية خصوصًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ انتزاعٌ لِكلِّ أسباب الخوف الذي قد يلحقه من جُرّم فرعون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.

وجنده، ولكل أسباب الخشيةِ التي قد تُثار في نفسه مِن عواقِب اقتحامه وقومه البحر.

وهكذا ساق اللّه تعالى له سبب أمنٍ بعد آخر؛ فهو عليه السلام بشرٌ؛ قد يعتريه الخوف؛ والخشية؛ وبنفيهما من لدنه سبحانه يتطامنُ القلب.

دلالة المضارعة في قوله: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾:

عظيم الفضل بدوام الأمن

تدلُّ المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ على الوعد بدوام أمنه عليه السلام وأمانه؛ إذ إنّ النفي الداخل عليها يسلبها دلالتها الصرفية من التجدُّد والحدوث، كما يسلبها دلالتها اللغوية من الخشية والفَرَق؛ ليبقى عليه السلام آمنًا مطمئنًّا إلى سلامته وسلامة قومه من فرعون وجنوده، ومن الغرق والدرَك.

براعة تقديم السّبب على المُسبّب:

إسعافُ الفَزِعِ بوسيلة الخلاص أهمُّ مِن تقديمِ وعْدِه بالنَّجاة

في تقديم قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ مسارعة إلى تطمين موسى عليه السلام بِذكر سَبب النجاة والتوجيه إلى باب الفرَج، قبل ذِكر النتيجة والمسبَّب، وهو ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾، وفي ذلك يكمُن منهج إسعاف الملهوف الفَزِع.

سرّ حذف مفعول ﴿تَخۡشَىٰ﴾:

التدرُّجُ من الخصوص في نفْي الأدنى إلى العموم في نفي الأخطر

حَذْف مفعول ﴿تَخۡشَىٰ﴾ بعد ذكر مفعول ﴿تَخَٰفُ﴾ يفيد "العموم، أي: لا تخشى شيئًا، وهو عامٌّ مرادٌ به الخُصوص، أي: لا تخشى شيئًا مما يُخشى مِن العدوّ، ولا مِن الغرق"[1]، فـ"لا تخاف أن يدركك فرعون، ولا تخشى أن تغرق"[2].

نكتة تقديم نفي الخوف على نفي الخشية:

قُدِّمتْ جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ على جملة ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾؛ تعجيلًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/ 247.

الخوف من المحقَّق، والخشية من الآتي

بتطمينه عليه السلام وقومِه؛ لغلبة ظنهم أنهم مُدْرَكون من عدوِّهم، فـ"الخوف هو مما يَجيئه مِن ورائه، والخشية مما يلقاه من أمامه"(1)، وما يجيؤه مِن ورائه هو الخطر المُحقَّق، وما يلقاه من أمامه هو الخطر المتوقَّع، والخطر المحقَّق أحوجُ إلى التَّطمين من الخطر المتوقَّع؛ لذلك قُدِّم.

سر تكرار (لا) في جملتي ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾:

في تكرار نفي الخطر مزيد تطمين للخائف

فائدة تكرار (لا) في مثل هذه الجمل الانتفاء على كل حال؛ إذ لو أسقطت: (لا)؛ لاحتمل الانتفاء بقيد الاجتماع، تقول: ما قام زيد وعمرو، بل أحدهما، ولا يقال: ما قام زيد ولا عمرو، بل أحدهما(2)، فالمعنى يختلف في ذكر (لا) عنه في إسقاطها، فإذا أسقطتَها احتمل المعنى نفيَ قيامهما على كل حال مجتمعَيْن أو متفرِّقَيْن، واحتمل المعنى أيضا أنهما لم يقوما مجتمعين، بل قام كلٌّ منهما على انفراد، فإذا جئت بـ (لا) صار الكلام نصًّا على المعنى الأول(3)، فنفَى سبحانه وتعالى الخوف وشدّته الممثّل بلفظ (الخشية) عنه عليه السلام مجتمعين ومنفردين أيضًا، وفي ذلك مزيدُ تطمينٍ لموسى عليه السلام، اقتضته خطورة اللحظة التي يعانيها.

نوع (الفاء) ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ﴾ فصيحة، عاطفة على مقدّر يدل عليه الكلام السابق، أي: فسَرَى بِهم موسى عليه السلام، فأتْبعهم فرعون(4)، وهذه (الفاء) تدل على التعقيب ومسارعة فرعون وجنده للحاق بموسى ومن معه رغبة في المكر بهم.

دلالة استعمال (الإتْباع) دون (الاتِّباع):

الإتْباع اللحوق والإلحاق، والاتِّباع الاقتداء

معنى ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ يعني: تتبّع أثرهم مع جنوده

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 811.
(2) ابو حيَّان، البحر المحيط: 2/ 288.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 208.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.

حتى لحِقهم، "يقال: أتْبعتُهم، أي: تبِعتُهم، وذلك إذا كانوا سبقوك فلحِقتهم، ويؤيده أنه قُرِئ (فاتّبعهم) من الافتعال، وقيل المعنى: (أتْبعهم فرعونُ نفسَه)؛ فحُذِف المفعولُ الثاني"[1]، و(الاتِّباع) يغلُب عليه من معانيه الاقتداء بالغير في خلق أو دين أو غيرها من الأمور المعنوية، وفي الإتْباع - تخفيفًا - إيماءٌ بسرعة اللحاق، والتّعجّل في اقتحام البحر سعيًا الى إدراك موسى عليه السلام وقومه، ودخول الفاء على الفعل يتَّسِق مع هذا التوجيه في الدلالة على السّرعة.

دلالة الفعل الماضي ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾:

مـن صـفـات المجرمين الإصرارُ على الجُرم

تُلْمِح صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ - بما تتضمنه من دلالة على تحقّق الوقوع - الى تصميم فرعون على الفتك بهم، وعدم التراجع عن قراره، على الرغم ممَّا لاح له من معجزة انفلاق البحر، بل إن فرعون قد خدع نفسه، وزعم أن البحر إنما انشقّ لطاعته - كما في بعض الأخبار - ؛ فاقتحم بلا تَرَوٍّ.

نكتة ذكر الوصف ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ دون اسمه الصّريح:

كلُّ ظالمٍ عاتٍ مستبدٍّ متكبِّرٍ فرعونُ

لم يذكر القرآن الكريم ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ باسمه العلم قطُّ، بل ذكره دائمًا بِلقبه هذا؛ وذلك لأنّ الغرض يختصُّ بظلم فرعون وكفره لا باسمه، ومعلوم أن كل مَن حكم مصر قديما كان يلقّب بالفرعون، و"كلّ عاتٍ متمرِّد فرعونُ، والعُتاة: الفراعنة، وقد تفرعن، وهو ذو فرْعَنَةٍ، أي: دهاءٍ ونُكْرٍ"[2]، و"الفَرْعَنَةُ: الكِبْرُ والتَّجَبُّر، وفِرْعَوْنُ كُلِّ نَبِيٍّ مَلِكُ دَهْره"[3].

وكل هذه الصفات الذميمة اجتمعت في رجلٍ بلغت به الجُرْأة أن يقول للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]، و﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم

(1) الكرماني، لباب التفاسير: ص1435.
(2) الجوهري، الصحاح: (فرعن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فرعن).

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]؛ ففي إيثار ذِكر لقب ﴿فِرْعَوْنُ﴾ دون اسمه إلماحٌ إلى ما اجتمع فيه من مفاسد الفرعنة من البَغْي والظُّلْم - للناس ولنفسه -، فما أقبحه مِن لقب ذميم! وما أعظم النظم الكريم من قوْل بليغ.

نوع (الباء) ودلالتها في ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾:

الظالم أجبن من مواجهة المظلوم وحده، وإنما يحتمي بذيوله

معنى (الباء) في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ المعيّة والمصاحبة، أي: أتبعهم فرعون مع جنوده وبصحبتهم، وكذلك تفيد الإلصاق، أي: أتبعهم ملتحمًا محميًّا بجنوده؛ ففي تلك الباء يتجلّى كيد فرعون بالمؤمنين، وحشده كل جنده وقوته للمكر بهم، أو أنّ يكون المعنى: "(ألحقهم جنودَه، وكان معهم)؛ فتكون (الباء) زائدة، وقيل: (الباء) للحال"[1]، "كما تقول: خرج زيدٌ بسلاحه، أو (الباء) للتعدّي لمفعولٍ ثانٍ بحرف جرّ؛ إذ لا يتعدَّى (أتبع) بنفسه إلا إلى حرفٍ واحدٍ"[2]، وهكذا تُثْري (الباء) التركيبَ بِفيضٍ من الدلالات الكاشفة عن ملابسات الحدث، ولو سقطت لضاع ذلك العطاء الغزير.

نكتة تعريف الجنود بالإضافة لا بـ (أل):

المستبدّ الضّال يتّخذ من الأعوان جنودًا على شاكلته

تدلّ الإضافة على التخصيص، ومعناها في قوله تعالى: ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ اتخاذُ فرعونَ جنودًا على شاكلته ظلمًا واستبدادًا، وإخلاصًا لعقيدته الفاسدة، وأنهم كانوا من أهل صفوته، الذين تحقَّق فيهم الولاء الكامل له، ويقرّر ذلك ما صرّح به القرآن الكريم من استكبارهم معه؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩﴾ [القصص: 39]؛ فخطّأهم معه في حكم عامّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾

(1) الكرماني، لباب التفاسير: ص1435.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 362.

[القصص: 8]؛ مما استوجب إغراقهم معه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ [القصص: 40].

دلالة (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم﴾:

الله تعالى يملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم﴾ تدلُّ على فوريّة الأخْذ، وسرعة الإهلاك، كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ [القصص: 40]؛ إذ حانت اللحظة المحتومة بعد إرخاء العنان لفرعون، واستدراجه إلى الهاوية، وهو غافل عن التوبة والإنابة.

إيثار لفظ (الغَشْي):

إذا حلّ هلاك الله تعالى بالظالم طوَّقَه تطويقًا لا يقع تحت التصوُّر

التعبير بـ (الغَشْي) في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم﴾ يدلُّ على أن أسباب الهلاك قد لفَّتْهُم من كل جانب، وأنه قد عَلاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الأمر الهائلِ، الذي لا يُقادرُ قدرُهُ، ولا يُبلَغ كُنْهُه، ويكمنُ مدارُ التهويلِ والتفخيمِ في خروجِه عن حدود الفهم والوصفِ، لا على سماعِ تفصيل القصة[1]؛ وفي ذلك من التخويف لكل فرعون ظالم ما لو تدبّره لتاب وأناب وتحسّب.

براعة حذف متعلّق ﴿غَشِيَهُمۡ﴾:

إظهارٌ للهلع من هول عموم الحالة لا خصوص الغرق

حُذِف متعلّقُ ﴿غَشِيَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا غَشِيَهُمۡ﴾؛ إذ إنّ التقدير: (ما غشيهم من مستفظَع التعذيب والإهانة ما نالهم)، ففي هذا الحذف إشارة إلى هَوْل اللحظة، وعموم أسباب الخطر لا خصوص الغرق، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ [يونس: 22]، وفي الحديث الشريف: "لَمَّا أَغْرَقَ اللّه فِرْعَوْنَ قالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: 90]، فقالَ جبْرِيل: يا مُحَمَّدُ، فلَوْ رَأَيْتَني وأنا آخُذُ مِنْ حالِ البَحْرِ فأَدُسُّهُ في فيه؛ مَخافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ"[2]، وكأن المخلوقات كلها بدْءًا من الملائكة الكرام

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 32.

(2) الترمذي، سنن الترمذي، الحديث رقم: (3107).

تتضافر على إهلاكه، وهذا "من جوامع الكلم التي تستقلّ مع قِلّتها بالمعاني الكثيرة"[1]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: 53 - 54].

إشارة التّعبير بالماضي ﴿فَغَشِيَهُم﴾:

من غباء الظالم التهوُّر في اتخاذ القرارات المُبيرة له

التّعبير بالماضي ﴿فَغَشِيَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ يقطع بِغَمرِهم بأسباب الهلاك، وشمولهم بأسباب الضياع جملةً، مع ما تحمله صيغة الماضي من دلالة على تحقّق الوقوع وحتميّته.

مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم﴾:

من الأفعال ما يعطي المعنى وعكسه؛ باعتبار متعلّقين ضِدَّيْن

قال أبو حيَّان: "الظاهر أن الضمير في ﴿فَغَشِيَهُم﴾ في الموضعين عائد على فرعون وقومه، وقيل: الأول على فرعون وقومه، والثاني على موسى عليه السلام وقومه، وفي الكلام حذفٌ على هذا القول تقديره: (فنجا موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه)"[2]، وهذا من عجَب النظم الكريم؛ إذ يعطي الفعل المعنى وعكسه باعتبار متعلّقين ضدَّيْن.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

أيسر جند الله تعالى كفيل بإهلاك أعتى العتاة

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ بيانية للإبهام الذي في الموصول ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، فالمبهم الذي غشيهم كان من اليم الذي تسبب في إغراقهم وإهلاكهم.

سر اختلاف التّعبير بين لفظ ﴿ٱلْيَمِّ﴾ و﴿ٱلْبَحْرِ﴾:

المؤمن موضع تشريف وعلو مكانة، والكافر في ضعة وسوء مآل

ذكر في معنى اليم أنّه: لجّة البحر، وقعره الذي لا يُدرك، ووصفُ (اليمّ) بالعمق، والتردّد في الأمواج، والتلاطم، والتموّج يناسب تمامًا العقوبة بالإغراق لجمعٍ كبيرٍ من الناس مدجّجين بأسلحتهم للمكر بالمؤمنين، ولذلك نجد اقتران لفظ (اليمّ) في القرآن بمشاهد الانتقام والعقاب إغراقًا، في حين آثرَ لفظ (البحر) مع

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 376.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 363.

موسى عليه السلام وقومه وعدلَ عن استعمال لفظة (اليمّ)؛ إذ فيه - فضلًا عن عموم معناه - مراعاة لهم، وحَيْدة من نسبة العقوبة إليهم، وإعلاء لشأنهم إثرَ ما عانوه من أذى فرعون وقسوته معهم، ولكون لفظ (البحر) ممَّا يعبَّر به عن مواطن النِّعَم، والخيرات.

نوع ﴿مَا﴾ وأثرها في تهويل المشهد:

في إبـهـام (مـا) الموصولة إبهامُ العذاب وتهويله

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ موصولةٌ؛ وفي اصطفاء ﴿مَا﴾ الموصولة إرادة التفخيم والتعظيم أو التهويل؛ لأنّ الإبْهام الذي يوحي به اسم الموصول مع صلته يومئ إلى ذلك، إذ هو أَهْولُ مِنَ النَّصِّ على قَدْرِ (ما)[1]، والمعنى: (فغَشيَ فرعَوْنَ وجُنودَه من اليمّ ما غَشيَهُم منْ أمرٍ مَهولٍ جدًّا)، فدَلَّ الإبهام في الموصول وصلته عَلى عِظم الأمر المهول الذي غشيهُم[2].

دلالة تكرار جملة ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾:

مـا يـعـانـيـه الـظـالـم عند هـلاكـه مـمـا لا يُحاط بِهَوْلِه

تكرار قوله تعالى: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ "يفيد ما أفاده قوله ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾؛ إذ من المعلوم منه أنهم غشيهم غاشٍ؛ فتعين بالتكرار أنّ المقصود منه التهويل، أي: بلغ من هول ذلك الغرق أنه لا يُستطاع وصفه"[3]، وهو - كما سبق القول - "من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم ما لا يعلم كُنْهَهُ إلا الله"[4].

موقع جملة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾:

شؤمُ القائد ينال أتباعه

جملة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ ابتداء بخبر جديد للدلالة على عاقبة فرعون إجمالًا، أو على الاستئناف البياني جوابًا لسؤال مقدر: ما مآل فرعون؟ أو ما ملخص قصة فرعون.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 55.
(2) الميداني، البلاغة العربية: 1/ 432 - 433.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 272.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 78.

ومما يشهد للابتداء أنه ذكر في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ بأنه ما كان منه قبل حادثة الغرق، وقوله ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ للمبالغة في التهكم إذ قد ادعى من قبل أنه يهدي للرشاد فقال ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر: 29][1].

بلاغة التعبير بالإضلال:

إضلال الفرعون قومَه يؤثِّر في حياتهم كلها

"الإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصِّل، ويستعمل بكثرة في معنى الجَهالة، وعَمَلِ ما فيه ضُرٌّ"[2]، فالتعبير بالإضلال في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ يحمل دلالتين، كل منهما حصل من فرعون في قومه: الدلالة الأولى: "حَمْلُه إياهم على الضلالة"[3]، الدلالة الثانية: أنه غيَّبهم في باطن البحر، ومن هذا الإضلال قوله تعالى حكاية لإنكار الكفار البعث: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: 10]، فإضلال فرعون قومَه إضلالٌ عامٌّ شامل لجميع أنواع الإضلال.

بلاغة المجاز العقلي في ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾:

من تسبَّب في شرٍّ تحمَّل تبعاتِه

لَمَّا كان فرعون سببا لإضلال قومه أُسنِد إليه إضلالهم؛ فقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ ذلك أنّه "سلك بهم مسلكًا أدَّاهم إلى الخَيبة والخُسران في الدّين والدّنيا معًا؛ حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائلِ الدنيويّ المتصل بالعذاب الخالدِ الأخروي"[4]، وبذلك الفعل المشؤوم يَحمل فرعون أوزارًا مثلَ أوزار قومه الذين أضلّهم؛ لقول الرسول ﷺ: "من سنّ سنة حسنة فعُمِل بها من بعدِه كان له أجرها ومثلُ أجر مَن عمل بها من غير أن يُنْتقَص من أجورهم شيءٌ، ومن سَنَّ سنة سيئة عُمِل

(1) القنَّوجي، فتح البيان: 8/ 259.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 272.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 407.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 32.

بها مِن بعده كان عليه وِزْرُها ووِزرُ مَنْ عمل بها ولا يَنْقُص ذلك من أوزارهم شيئًا"[1].

دلالة حذف متعلّق ﴿وَأَضَلَّ﴾:

حذفُ متعلّقات الأفعال القرآنية يُثري دلالات السياقات

تتنوَّع تقديراتُ متعلِّقِ الفعل ﴿وَأَضَلَّ﴾ ما بين (أضلّ عن كذا)، و(أضلّ في كذا)؛ فإنّ فرعون أضلّهم في البحر؛ لأنهم غرقوا فيه، وأضلّهم عن الدين[2] الحقّ، وبذلك الحذف يفيض التركيب بالدلالات الكاشفة، التي تتآزر على بيان الإشارات المتنوعة المقصودة، مع وفْرة اللفظ ووجازة التركيب، وتركيز ذهن المتلقي على جريمة نسبة الإضلال لفرعون من جهة، وجريمة إيقاع إضلاله على قومه من الجهة الأخرى.

دلالة إيثار لفظ (القوم) دون (الملأ):

الملأُ رؤوسُ القوم، والقومُ سوادُ الأمة

آثر النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ ذكرَ (القوم)؛ لأن "قوم الرَّجل: شيعته وعشيرته"[3]، وأقرباؤه الذين يجتمعون معه في جَدٍّ واحد، وكلّ من يقوم الرئيس بأمرهم، أو يقومون بأمره، وهؤلاء من أضلّهم فرعون وصرفهم عن طريق الهُدى.

أما "الملأ فهم الجماعة من الناس الرؤساء"[4]، و"أَشْراف النَّاس ووُجوههم؛ قالَ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ [البَقَرَة: 246] و﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأَعْرَاف: 60]"[5]، وهؤلاء كانوا أهل ضلال في أنفسهم؛ لأنهم كانوا منتفعين بذلك، مثل قارون وهامان وأضرابهما من المقربين لفرعون.

لطيفة الإضافة في قوله: ﴿قَوْمَهُۥ﴾:

قومُ القائد أوْلى الناس بِنُصْحه ورعايته لا بإضلاله

إضافة (قوم) إلى ضمير ﴿فِرْعَوْنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَوْمَهُۥ﴾

(1) أخرجه أحمد في مسنده، عن جرير بن عبد الله البَجَليِّ، برقم، (19200).
(2) الكرماني، لباب التفاسير: ص1436.
(3) رضا أحمد، معجم متن اللغة: (قوم).
(4) البندنيجي، التقفية في اللغة: (ملأ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ملأ).

تزيد جرمَهُ جُرمًا؛ لأنهم قومُه الذين كان يجب عليه إخلاص النّصح لهم، والأخذ بأيديهم إلى بَرّ السّلامة، لا أنْ يُضلَّهم؛ فيوردَهم موارد الهلاك الدّنيوية والأخروية كما فعل فرعون بـ ﴿قَوْمَهُۥ﴾.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾:

ما هدى قومَه مَن أضلّهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ عاطفة على جملة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ﴾، وهذا العطف "إما مِن عطف الأعمّ على الأخصّ؛ لأن عدم الهدى يَصدُق بترْك الإرشاد مِن دون إضلال، وإما أن يكون تأكيدًا لفظيًّا بالمرادف؛ مؤكِّدًا لِنفي الهُدى عن فرعون لِقومه؛ فيكون قوله ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيدًا لـ ﴿وَأَضَلَّ﴾ بالمرادف، كقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: 21]"[1].

أو أنه عطف من باب التهكُّم بفرعون الذي قال لقومه ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾[2] [غافر: 29]، فما هداهم ولا نفعهم بل أضلَّهم وأهلكَهم.

دلالة نفي الهدى بـ﴿وَمَا﴾:

إضلال الفراعين أقوامَهم أمرٌ مؤكّد

﴿وَمَا﴾ في جملة ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ نافيةٌ هدايةَ فرعون ﴿قَوْمَهُۥ﴾ صراحة، مؤكِّدة إضلاله إيَّاهم في جملة ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾؛ وذلك إزراءٌ عليه، وتحذير من مثله، ونفي الهدى عن فرعون في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تقريرٌ وتأكيد لإثبات الإضلال المذكور قبل هذه الجملة له، والمعنى: "﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: من أول أمره إلى هذه النهاية، المؤكدة بقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾"[3].

بلاغة الطباق بين الفعلين ﴿وَأَضَلَّ﴾، و﴿هَدَىٰ﴾:

في المستبدّ تجتمع صنوف الشرّ

من بديع نظم القرآن الكريم جمعُه بين إثبات الإضلال لفرعون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 272.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 78.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 55.

ونفي الهداية عنه؛ ليجتمع فيه الشرّ والفساد بكل اعتبار، ولو اكتفى النظم الكريم بإثبات الإضلال له دون نفي الهداية عنه لَربما تَوهّم متوهِّم أن فرعون قد يتأتى منه هداية غير قومه مع إضلالهم هم، فلما نصّ عليهما معا حقَّقهما معا في نفس المتلقي، وتركه متيقِّنا من خلوّ فرعون من كل خير.

نكتة إطلاق الفعل ﴿هَدَىٰ﴾ بعد تقييد الفعل ﴿وَأَضَلَّ﴾:

الـظـالـمـون لا يُرجى منهم خير

أَطلَق النظم الكريم الهداية المنفية عن فرعون لقومه في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾، والتقدير: (وما هداه الله)، أو: (وأضل فرعون قومه وما هداهم)، أو: (وما هدى نفسه)[1]، غير أنّ إطلاق فعل ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ يوفِّر عناية السَّامع على التأكُّد من نفي الهداية عن فرعون نفيًا عامًّا جملةً وتفصيلًا، نفى هدايته عن قومه وعن غير قومه، وأنه شخص مشؤوم لم يكن فيه خير لأحد البتَّةَ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإسراء والسُّرى:

الـسُّـرى سير الـلـيـل عامّته، والإسـراء سير بعضه

السُّرَى سَيْرُ الليلِ عامَّته، يذكَّرُ ويُؤَنَّثُ[2]، ويقال: سَرَى وأَسْرى لغتان قُرِئتا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: 81]، و﴿فَٱسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بِقَطْع الهمزة وبِوصْلها[3]، وزيادة القيد بالجار والمجرور ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: 81] مع الإسراء تدعم القول بأن الفرق بينهما أن السُّرَى سير عامة الليل، وأن الإسراء سير بعض الليل، ويؤكّد ذلك تفسير الفعل ﴿أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: 1] في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] بأنّه كان في جزء من الليل، والله تعالى أعلم.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 296.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سرى).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: 2/ 196.

الدرك واللحاق:

الدرك لحاق وإصابة، واللحاق لا تشترط فيه الإصابة

الدَّرك من الإدراك، و"الإدراك: اللحاق والإصابة"(1)، أما اللحاق فإدراك فقط، ولا يشترط فيه الإصابة، فالآية الكريمة تطمئن موسى عليه السلام أنه لن يُدرَك ولن يُصاب بأذى.

الغَشْي والتغطية:

الغَشْيُ يَلُفّ المغشيّ، والتغطية تستره

"الغشاء قد يكون رقيقًا يبين ما تحته ويتوهم الرائي أنه لا شيء عليه لِرِقَّته، ومِن ثَمّ سميت أغشية البدن وهي أعصابٌ رقيقة قد غُشّيَ بها كثير من أعضاء البدن، مثل الكبد والطحال، فالغطاء يقتضي سَتْرَ ما تحته والغشاء لا يقتضي ذلك، ومن ثَم قيل: غُشي على الإنسان؛ لأن ما يَعتريه مِن الغَشْيِ ليس بشيء بَيِّن، والغطاء لا يكون إلا كثيفًا ملاصقًا، وقيل: الغشاء يكون من جنس الشيء، والغطاء ما يقتضيه من جنسه كان أو من غير جنسه؛ ولذلك تقول: تغطَّيت بالثياب، ولا تقول: تغشَّيت بها، فإنِ استُعمِل الغشاء موضع الغطاء فعلى التوسع"(2).

(1) الكرماني، لباب التفاسير ص314.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية: ص385.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ
مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ
وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه: 80 - 82]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

من أعظم المِنن إنجاؤه تعالى عبدَه المظلوم

ذكرت الآيات السابقة أن فرعون أتْبَع موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل، حين ضَرب موسى البحر فانشقّ طُرُقًا يابسة بقدرة اللّه تعالى فنجا المؤمنون وغرق فرعون وجنوده، و"لما كان هذا موجبًا للتشوُّف إلى ما وقع لبني إسرائيل بعده؛ قال اللّه تعالى شافيًا لهذا الغليل: أقبلنا على بني إسرائيل مُمتنّين بما مَضى وما يأتي قائلين: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَانِبَ﴾: (جنب) أَصْلانِ مُتَقارِبانِ، أَحَدُهُما: النَّاحيَةُ، والآخَرُ البُعْدُ[2]، والمعنى المحوريّ: ناحيةٌ من الشَّيء خارجية غليظة أو شديدة تُكْمِل تجوُّفه وتحفظ ما بأثنائه، كجانِبَي الوادي يُكْملان تجوُّفه ويحفظان ماءه[3]، والجانب: الناحية، وكذلك الجَنَبَة[4]، و"الجَنْبُ والجَنَبةُ والجانبُ: شِقُّ الإِنْسانِ وغَيْرِه، تَقولُ: قَعَدْتُ إِلى جَنْب فُلانٍ وإِلى جانِبه، بِمَعْنًى[5]؛ والمراد بالجانب في الآية الكريمة: ناحية من نواحيه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 318.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (جنب).
(4) الجوهري، الصحاح: (جنب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جنب).

2) ﴿ٱلطُّورِ﴾: (طور) أَصْلٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِدٍ؛ وهو الامتِدادُ في شَيْءٍ مِنْ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ؛ مِنْ ذَلِكَ: طَوارُ الدَّارِ؛ وهو الَّذي يَمتَدُّ مَعَها مِنْ فِنائِها، وطَوَّدَ في الجَبَلِ: طَوَّفَ، كَأَنَّهُ فِعْلٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الطَّوْدِ[1]، والمعنى المحوريُّ: الامتدادُ حولَ الشَّيء أو بإزائه: كطَوار الدَّار والفِناء[2]، وقيل: الطّور هو الجبل العظيم، والطّورُ المُراد في الآية: جبلٌ مشهورٌ بأرض سيناء بمصر.

3) ﴿ٱلْمَنَّ﴾: (منّ) أَصْلانِ أَحَدُهُما يَدُلُّ على قَطْعٍ وانْقِطاعٍ، والآخَرُ على اصْطِناعِ خَيْرٍ[3]، والمعنى المحوريُّ: الاحتواءُ على قوةٍ محدودة؛ أيْ: مشوبةٍ برقّة أيّ نقصٍ فيها أو ضَعْفٍ بحيث لا يُكتَفَى بها أو يُعْتَمَد عليها وحدها[4]، و﴿ٱلْمَنَّ﴾: شيءٌ كالطَّلِّ فيه حلاوةٌ، يسقط على الشَّجر[5].

4) ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: (سلو) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خَفْضٍ وطيبِ عَيْشٍ؛ ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: فُلانٌ في سَلْوَةٍ مِنَ العَيْشِ؛ أَيْ: في رَغَدٍ يُسَلّيه الهَمّ، ويَقولُ: سَلا المُحِبُّ يَسْلو سُلُوًّا، وذَلِكَ إِذا فارَقَهُ ما كانَ بِهِ مِنْ هَمٍّ وعِشْقٍ[6]، والمعنى المحوريُّ: احتواء الشيء في أثنائه على ما له قوة خاصة وفيه غَناءٌ وكفاية؛ كالسمن للشاة[7]، وقيل: السّلوى: طائر، ويجوز أن يكون ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ كلاهما إشارة إلى ما أنعم الله تعالى به عليهم، وهما شيءٌ واحد، لكن سمَّاه مَنًّا إذِ امتنَّ به عليهم، وسمَّاه سلوى إذْ كان لهم به التّسلّي[8]، والمعنى الأوَّل هو ما نرجحه في الآية.

5) ﴿تَطْغَوْا۟﴾: (طغى) أَصْلٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهو مُجاوزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ، يُقالُ: هو طاغٍ، وطَغَى السَّيْلُ، إِذا جاءَ بِماءٍ كَثيرٍ[9]، والمعنى المحوريُّ: ارتفاع الشَّيء باستغلاظٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طور).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (طور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (منَّ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (منن).
(5) الراغب، المُفردات: (منن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (منَّ).
(7) جبل، المُعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (سلو - سلى).
(8) الرَّاغب، المُفردات: (منن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طغى).

وتجاوزٍ حتى يَغْشَى ويُغَطّي ما حوله؛ كأعلى الجبل المستَصْعِب[1]، والطُّغيان أصله: مُجاوزةُ الحَدِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: 11]، ثم استُعمِل في شدَّة الظُّلم؛ لأنَّه تجاوُزٌ لِحدِّ الصِّفة[2]؛ ومعنى ﴿تَطْغَوْاْ﴾ في الآية الكريمة: يظلمُ بعضكم بعضًا، أو: تُسرفوا في الأكل وتُسيؤوا معاملة النِّعم.

6) ﴿فَيَحِلَّ﴾: (حلّ) لَهُ فُروعٌ كَثيرَةٌ ومَسائِلُ، وأَصْلُها كُلُّها عِنْدي فتْحُ الشَّيْءِ، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ[3]، والمعنى المحوريُّ: فكُّ ما كان مَشدودًا (أيْ: مَرْبوطًا موثَقًا) أو تَسْييبُه فيَسْلَسُ هو أو يَسْلَسُ أمرُ ما كان يضمه كتسيب اللبن والبول[4]، وحَلَّ العذابُ يَحِلُّ بالكسر؛ أي: وجب، ويَحُلّ بالضَّمِّ؛ أيْ: نزل، وقُرِئَ بهما قوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: 31] فبالضم؛ أيْ: تنزل، وحَلَّ الدَّيْنُ يَحِلُّ حُلولًا، وحَلَّتِ المرأةُ؛ أي: خرجتْ من عدَّتها"[5]؛ فحلول الغضب في الآية الكريمة معناه: وجوبه ونزوله.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـتـابُـع الـنِـعـم يوجب صيانتها، وإلا تقلبت ونزل الغضب

يمتنُّ اللّه تعالى في هذه الآيات الكريمات على بني إسرائيل بجليل النعم التي أولاهم إياها، فيقول تعالى: يا بني إسرائيل أُذَكّرُكم نعمة إنجائكم من تسلُّط فرعون وظلمه إياكم، ونعمة إنزال الكتاب عليكم؛ إذ أنزلناه على نبيكم عند جانب الجبل الأيمن، ونزلنا عليكم ألذّ المطعومات دون جُهد منكم، وذلكم المنّ والسلوى. فـ "كلوا يا بنى إسرائيل من الطيبات التي رزقكم اللّه تعالى

(1) جبل، المُعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (طغو - طغى).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر: (طغى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلَّ).
(4) جبل، المُعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (حلل - حلحل).
(5) الجوهري، الصحاح: (حلل).

إياها، واشكروه عليها، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التي شرعناها لكم، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم غضبي، ونزل بكم عقابي، ومَن حَقَّ عليه غضبي ونزل به عقابي فقَدْ هَوى إلى النار"[1]، ومن أذنب ثم تاب فلْيَطْمئن إلى أن مغفرتي الواسعة تناله، فأنا كثير المغفرة لِمن استجمع - بعد فعل الذنب - مجموعة من الشروط: أن يتوب من ذنوبه، وأن يجدّد إيمانه، وأن يعمل الصالحات، وأن يستمرّ على الهُدى.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة النداء بـ (يا) في المطلع:

الله تعالى ظهير المظلومين

مِن تمام التناسُب بين دِقّة التركيب هنا والوفاء بمقتضيات المقام والسياق - نداءُ بني إسرائيل بأداة البعيد (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ ذلك أنّ المقام مقامُ امتنان، وتذكير بالأفضال الرحمانية عليهم سواء كان الخطاب لجيل اليهود على عهد رسول اللّه ﷺ يُذكّرهم بفضل اللّه تعالى على آبائهم، الذين عاصروا تلك الأحداث عقب إهلاك فرعون وجنوده، أو كان الخطاب هنالك لآبائهم مباشرة، والقرآن الكريم يحكيه لرسول اللّه ﷺ.

دلالة ﴿قَدۡ﴾:

تحقيق النّعمة إيقاظٌ للغافل، وتذكيرٌ له

من دواعي تأكيد الفعل ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ بـ ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم﴾ تذكيرهم بتلك المِنّة العُظمى، والتصريح بتحقّقها إيقاظًا لهم؛ لأنهم غفلوا عن مقتضياتها مِن إدامة الحمد والشكر لِموليها ﷻ.

سر التعبير بـ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ دون (نجّينا):

ليس في صيغة الفعل (أنْجَى) مِن الشِّدّة والمعاناة، والتلبّث والتمهّل

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 135.

إنـجـاءُ موسى عليه السلام مِن الغرقِ كان يسيرا وسريعا

في التنجية، ما في صيغة الفعل (نجّى)، والإنجاءُ مِن الغرقِ في قصّة موسى عليه السلام وقومه كان إنجاء يسيرًا وسريعًا خاطفًا، بحسب مقتضى سرعة هذا الحدث المعلوم؛ لذلك كان من المناسب في مقام امتنان اللّه تعالى على بني إسرائيل بالإنجاء إيثار التّعبير بصيغة التخفيف ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ دون التّعبير بصيغة الفعل المشدّد الثقيل (نجّينا).

دَلالَةُ الإسْنادِ في: ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾:

إنجاءُ موسى وقومه عظيم، لا يقدر عليه إلا عظيم

الإنجاءُ الذي أسنده اللّه تعالى إلى ضمير عظمته ﷻ في قوله تعالى: ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ إنجاءٌ عظيم جليل؛ بل لم يُعهَد حتى في خيال الإنسان؛ ذلك إنه شَقّ البحر على سَعته، وقيام الماء على جانبي الشقّ متماسكًا، وتمهيد طريق يابس في قعر البحر، وتنحية كل ما قد يعوق عن سلوكه والمشي فيه، وهذا الإنجاء بأضعف الأسباب وهو ضرب العصا يقتضي قوةً وعظمَةً لا تكون إلا لمن إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وذلك ما يُلفت إليه إيثار ضمير العظمة فاعلًا للفعل ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾، دون إسناده لغيره من وصف الربّ أو الإله أو غيرهما.

توجيه القراءات في ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾، و﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾، و﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

ما يصدر عن العظيم عظيم

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿أَنجَيۡتُكُم﴾، ﴿وَوَٰعَدتُّكُمۡ﴾، ﴿مَا رَزَقۡتُكُمۡ﴾ بالتاء مضمومة على لفظ الواحد من غير ألف في الثلاثة، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وألف بعدها فيهن. وحَذَفَ الأَلِف بَعْدَ الواوِ مِنْ ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ أبو عمرو وأبو جَعْفَر ويعقوب: ﴿وَوَعَدۡنَٰكُمۡ﴾[1].

ووجه قراءة الجمهور الأفعال الثلاثة بنسبتها إلى نون العظمة؛ لِما في الأفعال المذكورة من عظيم قدرة اللّه تعالى، فقد أنجاهم من عدوهم بمعجزة عظيمة؛ وهي فلق البحر بالعصا وضرب الطريق اليبس فيه، وواعد نبيه موسى عليه السلام جانب الطور وامتن عليه فيه

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 321.

بنعمة التوراة، ورزقهم وهم في التيه بخير الطعام؛ المن والسلوى، ولا يقدر على ذلك إلا العظيم المستحقُّ للعبودية وحده.

أما قراءة حمزة والكسائي وخلف بإسناد الأفعال إلى ضمير المتكلم التاء؛ وهي راجعة للّه تعالى، ففيها إشارة لطيفة من زيادة معنى الامتنان والتفضل باختصاص اللّه تعالى بني إسرائيل بفضله وإنعامه، فالذي فعل ذلك كلَّه هو المتكلِّم الواحد القهَّار سبحانه.

دلالة المفعول في ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾:

المِنَن الإلهية العظيمة عمَّت بني إسرائيل جميعًا

في مجيء مفعول (أنجينا) ضمير المخاطبين (كم) جمعًا تنويهٌ بشمول المِنَنِ الإلهية العظيمة بني إسرائيل كلّهم فرادى وجماعةً؛ إذ لم يُستثنَ من الانتفاع بها أحدٌ منهم، وهذه حقيقة مقرّرة لا تُدفَع؛ فأيهم لم يُنجِه اللّه تعالى من تَسلُّط فرعون؟ ومَن منهم لم يشرِّفْه اللّه تعالى بالتوراة؟ ومن منهم - بل ومَن مِن الخلق جميعًا - من لم يرزقه اللّه ﷻ من الطيبات؟

معنى ﴿مِّنْ﴾:

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ تفيد المجاوزة، أي: جاوزناهم ذلك الشر وخلّصناهم منه، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: 138].

سر إيثار لفظ ﴿عَدُوِّكُمْ﴾:

كل ظالم فرعونٌ، وكلُّ فرعونَ عدوٌّ

المقصود بـ ﴿عَدُوِّكُمْ﴾ في الآية الكريمة فرعون[1]، وبرغم ذكره بوصف الفرعون في القرآن الكريم قريبًا من سبعين مرة؛ بيدَ أنّ الذكر الحكيم آثرَ ذكره هنا بصفة العداوة دون وصف (فرعون)؛ وذلك لخصوصيّة الإشارة هنا؛ إذ فيه تذكيرُ بني إسرائيل بما أذاقهم من سوء العذاب.

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 407.

وليس وراء تذبيح الأبناء واستحياء النساء واستعباد العباد مِن عداوة وعذاب؛ لذلك كان ذِكر فرعونَ بوصف العدوّ هنا مِن مقتضيات النظم الكريم، ومن الوفاء بحق المقام في الصميم، وفي ذلك إيحاءٌ بأن كل ظالم إنما هو فرعون، وأن كل فرعون إنما هو عدوٌّ؛ فينبغي الحذر منه.

دلالة الإضافة في ﴿عَدُوِّكُمْ﴾:

الإضافة في ﴿عَدُوِّكُمْ﴾ إضافة اختصاص، توحي بأنّ لكل قومٍ عدوَّهم الخاص بهم، الذي قد يتسلّط عليهم، فيظلمهم، ويستبدّ عليهم، فهو عدوهم مهما كانت درجة بعده أو قربه منهم، وتخصيص عداوة فرعون بهم يناسب شدّة تنكيله بهم، وإيذائه لهم، وتسلّطه عليهم، وكأنّه لا عدوَّ له غيرهم، وما ذاك إلا لشدّة خطرهم عليه؛ إذ فضحوا ألوهيته المزعومة المدّعاة.

لكل قومٍ عدوُّهم، قد يتسلط عليهم فيستبدّ بهم ويظلمهم

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ للعطف على جملة ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾، لتُعدِّد على بني إسرائيل أفضالَ اللّه تعالى فضلًا بعد فضل، ومِنَنَه عليهم مِنَّةً بعد مِنّة؛ وتستدعي تلك المِنَنُ شُكْرَ نعمِه تعالى، وعدم الطغيان فيها، ووعدُ اللّه تعالى إتيان موسى عليه السلام التوراة في جانب الطور الأيمن بعد إغراق فرعون[1]، فضلٌ كبير طوّق اللّه به بني إسرائيل بعد نجاتهم لو يعلمون!

كانت نعم الله تعالى على بني إسرائيل عديدة

نكتة إسناد ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ إلى نون العظمة:

في إسناد فِعل المواعدة إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ اطّرادٌ على نسق الآية الكريمة من تتابع إسناد تلك المِنَن إلى ضمير العظمة، وفي ذلك تنويه بعظمتها؛ إذ الفعل الصادر من العظيم عظيم: ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ ... ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ ... ﴿وَنَزَّلۡنَا﴾

الفعلُ الصادر عن العظيم عظيمٌ

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 216.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ ... ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾، ويبدو أنّ ذلك الوعد هو المذكور في قوله: ﴿۞وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: 142]، وقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: 51]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ [طه: 86]، وهو الوعد بإنزال التوراة، وقيل فيه غير ذلك(1).

نكتة إيقاع المواعدة على بني إسرائيل:

كل خير ينزل على النبي يصل إلى أمته لا محالة

أوقعتِ المواعدةُ في الآية الكريمة من الله تعالى على بني إسرائيل، والواقع أنها أوقعتْ على موسى عليه السلام؛ و"إنما عُدّيَ المواعدةُ إليهم لأنها لابَسَتْهُم، واتصلتْ بهم حيث كانت لِنبيهم ونُقبائهم، وإليهم رجعتْ منافعُها التي قام بها دينُهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم مِن سائر نِعَمِه وأرزاقه"(2).

وفي تعدية تلك المواعدة إليهم "إعطاءٌ لِمقام الامتنان حقَّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11] حيث نُسِب الخَلْق والتصوير للمخاطَبين، مع أنّ المخلوق كذلك هو آدمُ عليه السلام"(3).

موقع ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ من الإعراب:

انتصب ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ على الظرفيَّة المكانية؛ لأنه لاتِّساعه بمنزلة المكان المبهم(4)، ويجوز أن يكون مفعولًا ثانيًا للفعل ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾، "ولا يكون ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ ظرفًا؛ لأنه مخصوص"(5) أي: مُحدَّدٌ ليس مبهمًا.

نكتة تعريف ﴿ٱلطُّورِ﴾ بأل:

جبل الطور علمٌ لتكليم الله تعالى موسى على جانبه

جاء ﴿ٱلطُّورِ﴾ هنا معرّفًا بـ (أل) العهدية؛ لأنه هو الطّور المعلوم، المعرّف بالإضافة المميِّزة له في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 74.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 79.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 408.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 274.
(5) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 899.

سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾ [المؤمنون: 20]، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾ [التين: 1 - 2].

عِلَّة إيثار لفظ ﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ وصفًا:

اليُمن خصيصة إيمانية، ورمز التفاؤل المحبوب في كل شيء

قال الماتريدي: "لسنا ندري أن ﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ هو اسم ذلك الجبل، أو سَمَّاه ﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ ليُمنِه وبركته، وقال ﷻ في آية أخرى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [القصص: 30]، أو سماه ﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ من يمين موسى عليه السلام، فإنْ كان من اليُمنِ والبركة فهو كذلك؛ لأنه به كان بَدْءُ وحي موسى عليه السلام "[1]، و"قال المفسرون: ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد أن طور سيناء عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام"[2]، "فإذا قيل: خُذْ عن يمين الجبل فمعناه: عن يمينك من الجبل"[3]، ذلك أنّ المرادَ باليَمين الإضافة إلى ذي يَمينِ إنسانٍ أو غيره[4]، وسواءٌ كان إيثار الصيغة لِبَعث التفاؤل في نفوسهم؛ لأنها صيغة التفضيل من اليُمن، أو من الإضافة إلى ذي يَمينٍ، فكلاهما يُبشِّر بالخير؛ وهو يناسب العطاءَ الرحمانيَّ لِنبيّ اللّه موسى عليه السلام، ولأمّته في زمان البعثة إلى بني إسرائيل.

سرُّ حذف سبب المواعدة:

مـواعـدة الله تـعـالى عـبـدَه لازمـة العـطـاء الجزيل

ذكر القرآن الكريم مواعدةَ اللّه تعالى نبيَّه موسى عليه السلام وقومَه في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾، ولم يَذكر سببَها، وسببُها كما يقول العلماء "إعطاؤه التوراة لهدايتكم وإصلاح شأنكم، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: 142]"[5]، ومع أن

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 297.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 83.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 447.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 56.

(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 133.

سبب المواعدة ما ذكره العلماء بيدَ أن حذفه يُفْسح لاجتنائهم من تلك المواعدة بركاتٍ كثيرة، وخيراتٍ وفيرة.

عطاءات الله تعالى لعباده عديدة ومنوّعة

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ﴾ عاطفةٌ، تَجمعُ عليهم مِنَّة أُخرى إلى المِنّة السَّابقة ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾، وتُعدِّدُ عليهم من أفضال الله تعالى ما عساه أن يقوِّمَهم على الجادّة؛ فلا يطغوا في النِّعم، كما أمرهم الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾.

اختصاص بني إسرائيل بجملة من النعم

لطيفة تقديم القيد في جملة: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ﴾:

تقديم القيد بالجار والمجرور في جملة: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ﴾ يؤكّد لهم فضل الله تعالى عليهم، وإتحافهم بتلك النعمة الجليلة - نعمة المنّ والسلوى -، حيث أنزلهما عليهم "في البرّيّة"[1]، إذ كانوا مُعْدِمين، معرَّضين للهلاك، وخَصَّهم دون غيرهم بمثل هذه النعمة العظيمة.

حاجة الإنسان إلى الشُّرب مقدَّمة على حاجته إلى الأكل

نكتة تقديم ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ على ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾:

﴿ٱلۡمَنَّ﴾ مما يُنْتَفَع به مباشرة، بلا حاجة إلى معالجة ذبْحٍ وشَوْيٍ وغيرهما مما تحتاجه السّلوى حتى تؤكل؛ ولعلّ ذلك النفع المباشر هو نكتة تقديم ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ على ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾، وكذلك يؤخذ من تقديم ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ على ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أن حاجة الإنسان إلى الشُّرب مقدَّمة على حاجته إلى الأكل.

الصالح يتبصَّر النِّعَم فيشكرها، والطالح يجهلها فيكفرها

توجيه تخصيص ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ بالذكر:

اختصّ الله تعالى ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ بالذّكر دون سائر النعم لما تفرّدا به من عدم حاجتهما إلى الجُهد في التحصيل؛ فإنهما كانا يُساقان لبني إسرائيل بلا أدنى جُهد.. فالله تعالى "يُذَكِّرُ هؤلاء ما

(1) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 37.

وسّع على أوائلهم مِن الرزق وأخصهم؛ ليستأدي[1] بذلك الشكر على ما أنعم عليهم، وذلك تذكير لنا، ولِمَن وسَّع عليه ذلك؛ إذ لم يَزل علينا يوسِّع الرزقَ مِن أوّل عُمرنا إلى آخره"[2].

نكتة ترتيب المِنَن الثلاث: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾:

إنـجـاء العبد من عـدوه أجلّ النِّعَم عليه؛ إذ تمنحه حرية العبادة

امتنَّ اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة على بني إسرائيل بِمِنَن ثلاث: الإنجاء من فرعون، وإنزال التوراة - وهذه المِنَّةُ لازِمُ مواعدتهم جانبَ الطور -، وتنزيل المنّ والسلوى عليهم، وذكرت الآية الكريمة تلك النِّعَم على هذا التّرتيب الدّقيق، فـ"قدَّم سبحانه نعمة الإنجاء من العدو؛ لأنها من باب دَرْءِ المضارِّ وهو أهم من جلب المنافع ومن ذاق مرارة كيد الأعداء ثم أنجاه اللّه تعالى؛ علِم قدْر هذه النعمة ... ، وثنَّى ﷻ بالنعمة الدينية؛ لأنها الأنف في وجه المنافع، وأخَّر ﷻ النعمة الدنيوية؛ لكونها دون ذلك؛ فتَبًّا لِمَن يبيع الدين بالدنيا"[3].

موقع جملة ﴿كُلُواْ﴾ من الإعراب:

جملة ﴿كُلُواْ﴾ استئنافية للبيان؛ إذ لمَّا قدّم ذِكْرَ ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أُثير في الذهن سؤال: ما وجْه الإفادة منهما؟ فجاء الجواب مفصولًا: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

غرض الأمر بالأكل:

أوامر الله تعالى لعباده كلّها خير لهم

الأمر بالأكل في جملة: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ يفيد الامتنان، ويلفت إلى تنوع النّعم وتعدّدها، كذلك هو "أمر إباحة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: 2]"[4]، وجملة ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ مقول قول محذوف، "أي: قُلنا: يا بنى إسرائيل، وحَذْف القول كثيرٌ في القرآن"[5].

(1) ليطلب بذلك منهم تأدية الشكر على ما أنعم عليهم.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 297.
(3) الألوسي، روح المعاني: 8/ 550.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 83.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 79.

مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ﴾:

نعم الله تعالى تستوجب حمده، لا الطغيان فيها

الضمير في ﴿كُلُواْ﴾ يرجع إلى (بني إسرائيل)، "يعني قال لهم: كلوا من حلالات ما رزقناكم"[1]، وهو ضمير جمعٍ يفيد أنه تعالى كان ينزل عليهم من ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ ما يكفيهم جميعًا، ولا يحتاجون معه إلى شيء آخر، وذلك من تمام النعمة، وموجبات حمده ﷻ وشكره، وعدم الطغيان.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾:

الطيبات لا تكاد تتناهى؛ فما نِلْناه منها طَعِمناه طيِّبًا

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ تفيد التبعيض، أي: كلوا بعض ما رزقناكم ممَّا يروق لكم من أصناف الرزق، وما يكفيكم منها، وفي حرف الجر ﴿مِن﴾ بهذا المعنى التبعيضي إلماحٌ إلى أنّ عدد الطيبات لا يحيط بها إنسان، والواقع جارٍ بتنوُّعها وكثرتها إلى ما لم يصلنا بعد.

بلاغة الوصف بالـ﴿طَيِّبَٰتِ﴾:

للعبد أن يصطفي مِن الطيبات ما تشتهيه نفسه

وصف ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ وصف شامل لـ "ما يستطيبه الطبع أو الشرع"[2]، ومما "أَحله الله تعالى منه نوعًا وكسَبًا"[3]، ولمَّا ذُكِر وصف الطيبات بعقِب ذكر ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾؛ دَلّ على أن تمام اللذة وكمال الفائدة للجسم يتحقق في تلك النِّعَم، ووصف الطيبات "يحتمل وجهين: **أحدهما**: أن يكون قوله: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: من حلالات ما رزقناكم، فإن كان على هذا ففيه دلالة أنه يرزق ما ليس بحلال ابتلاءً لعباده، **والثاني**: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: ما تَطيب به أنفسُكم؛ ففيه دلالة أنه يجوز لنا أن نختار من الأطعمة ما هو أطيبُ إن كان على ما تستطيب به الأنفس"[4].

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 407.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 550.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1051.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 297.

وفي التوجيه إلى أكل الـ ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ توجيهٌ - بمفهوم المخالفة - إلى النهي عن أكل ما ليس من الـ ﴿طَيِّبَٰتِ﴾، والماحُ بوجوب الحذَر منه؛ فتَحقّق إيجاز جملتين من جملة، وما جاء هنا ضِمنًا جاء في مواضع أخَر من الذِّكر الحكيم صريحًا، وبهذا تتلاقى تعاليمُ الذِّكر الحكيم على تأصيل الأحكام وتثبيتها.

معنى ﴿مَا﴾:

إبهام الموصول يناسب سعة رزق الله تعالى تنوّعًا وكثرة

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ اسم موصول مبهم الدلالة، يوحي بكثرة الأرزاق التي أفاضها اللّه تعالى على بني إسرائيل في زمن التيه، وهكذا نِعم اللّه تعالى على عباده في كل جيل وقبيل كثيرةٌ ومتنوِّعة، والموصول ﴿مَا﴾ يجمع صنوف الطيِّبات مهما تعدَّدت؛ وعلى ذلك فهو عنصر إيجاز بليغ؛ لأنه يغني عن تعدادها واحدة واحدة.

سر إيثار الرزق دون غيره:

نفْعُ الرزق للعباد فوريٌّ ومباشر

آثرَ النَّظم الكريم لفظ (الرّزق) في قوله تعالى: ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ فنبَّه بني إسرائيل إلى عظمة ما متَّعهم اللّه تعالى به من صنوف الأرزاق، ممَّا يرمز إليه التّعبير بـ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾، وقد فسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ بـ "أعطيناكم"[1]، غير أن الرزق أدخلُ في النَّفع، وأوضحُ مباشَرةً إلى المطعوم والمشروب من العطيّة التي فُسِّر بها؛ لذلك كان ذكر الرزق أنسب لمقام الامتنان من الإعطاء.

دلالة الماضي في قوله تعالى: ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

رزق الله تعالى لعباده محقّق

يدلُّ الماضي في قوله تعالى: ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ على تَحقُّق إنزال الأرزاق الكثيرة والمنوَّعة من عند اللّه تعالى على بني إسرائيل، وأنهم فِعلًا باشروا التمتُّع بها، والنهلَ من خيراتها وبركاتها، وفي

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 407.

ذلك امتنانٌ كبير عليهم؛ يضطرُّهم إلى الخَجَل المانع مِن الطُّغْيان في تلك النِّعم، التي رزقهم اللّه تعالى إياها، كما أتى به الأمر بعدُ.

نكتة إسناد الرزق إلى ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

هبة العظيم رزقٌ عظيمٌ، جزيلٌ

ومن تمام الامتنان على بني إسرائيل إسنادُ الرزق إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ لأنه يوحي بعظمة الأرزاق التي يمتنّ بها العظيم؛ إذ العظيم يرزق الرزق العظيم، ويعطي العطاء الجميل والجزيل.

معنى (الواو) في: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ "عاطفة"[1]؛ تجمع بين تكليفين - أمرٍ ونهْيٍ -: ﴿كُلُواْ﴾، و﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ في ترتيب بديع؛ فرتَّبت النهيَ عن الطغيان على الامتنان؛ فهيَّأ الامتنان للتحذير.

دلالة النهي بـ ﴿وَلَا﴾:

مجاوزة الحدّ تُفضي إلى الإضرار بالمتجاوِز

﴿وَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ ناهيةٌ نهيًا حقيقيًا؛ "عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم"[2]، وفيها "تحذيرٌ لهم مِن تجاوز الحدود التي شرعها اللّه تعالى لهم؛ إذ الطغيان مجاوزة الحدّ في كل شيء"[3]، ومجاوزة الحدّ في كل شيء تفضي إلى مخاطر تضرّ بالمتجاوزين.

دلالة إطلاق الطغيان دون تقييده:

كلّ صور الطغيان محرّمة

أُطلق النظم الكريم الطغيانَ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾، ولم يقيّده بصورة معينة من صور تجاوز الحدّ؛ تعميمًا لتحريم كل صور الطغيان وصنوفه ودرجاته، ومن الطغيان "الإخلالُ بِشكره ﷻ، والتَعدّي لِما حَدَّ لكم فيه، كالترفُّه والبَطَر والمنع من المستحَقّ، وقال

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 267.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 275.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 134.

القشيري: مجاوزة الحلال إلى الحرام، أو بالزيادة على الكفاف وما لا بُدَّ منه؛ فزاد على سدِّ الرمق، أو بالأكل على الغَفْلة والنسيان، وقيل: لا تدَّخروا، فادَّخروا فتعوَّدوا، وقيل: لا تُنفِقوه في المعصية"[1].

مرجع الضمير وبلاغة الظرفية في جملة ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾:

لا يليق بالعبد الطغيان في نعَمٍ يتقلّب فيها

الضمير في القيد بالجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ "راجع إلى الموصول الذي هو ﴿مَا﴾ أي: كلوا من طيبات الذي رزقناكم"[2]، أي: "الرزق الذي أفاضه الله تعالى عليهم بلا حساب، حتى لقد كان ظرفًا يحتويهم ويشتمل عليهم، ويَحُفُّ بهم من كل جانب، إنه خير كثير، ورزق غَدَقٌ، وهذا الرزقُ الغَدَقُ إذا صادف نفوسًا خبيثة، بَشِمَتْ به، وتداعت عليها العلل والأسقام، وتحوّل به الإنسان إلى حيوان ضارٍّ شرس"[3].

بلاغة الاستعارة:

نعم الله تعالى عظيمة يصول العباد فيها ويجولون

حرف الظرفية (في) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ "استعارة تبعية؛ حيث شبه مُلابَسَة الطغيان للنعمة بِحُلول الطغيان فيها - أي في النعم -، تشبيها للنعمة الكثيرة بالوعاء المحيط بالمنعَم عليه، على طريقة المكنيَّة، وحرفُ الظرفية قرينتُها"[4]، وتكمن بلاغة هذه الاستعارة في المبالغة في تعظيم أمر النِّعم التي أولاها الله تعالى بني إسرائيل؛ تَنوُّعًا وكَثْرةً؛ إذ صوّرها النظم الكريم بأنها محيطة بهم وهم يتقلبون فيها.

دلالة المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾:

في النهي عن الطغيان في النِّعَم أمرٌ بالثبات على شكرها

دخول النهي على الطغيان في صيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ تحذير من الوقوع في أي من الأمرين: الطغيان في النعم،

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 408.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 75.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 813.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 275، بَشِمَتْ به: أكثرتْ منه حتى التخمة.

وتجديدِه؛ بحيث يحذر العبادُ الطغيانَ في النعمة، ويلتزمون ضدّه من الثبات على الاعتدال فيها، والدوام على شكر المنعم ﷻ عليها.

دلالة (الفاء) في: ﴿فَيَحِلَّ﴾:

الطغيان في النِّعَم سببُ حلول النِّقَم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ فاء السببية، وجملة ﴿فَيَحِلَّ﴾ "جواب النهي، وقيل: هو معطوف؛ فيكون نهيًا أيضًا، كقولهم لا تمددها فتشقَّها"[1]، وهو "تحذير لبنى إسرائيل، وتهديدٌ لهم من أن تُبْطِرُهُم تَبْطِرَهُم هذه النعمة، ويَغرَّهم باللّه الغرور"[2].

بلاغة الاستعارة في لفظ الحلول:

غضب الله تعالى على مستحقّيه كالأثقال المصبوبة من عُلوٍّ

في الفعل ﴿فَيَحِلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ استعارة؛ إذ إنّ "الحلول يكون في الأجسام، ثم استعير لغيرها وشاع؛ حتى صارت حقيقة فيه"، و"الحلولُ: النزولُ والإقامة بالمكان، شُبِّهَتْ إصابةُ آثار الغضب إياهم بِحُلول الجيش ونحوه بديار قوم"[3]؛ ففي التصوير بالاستعارة تهديد مخيف بعموم العذاب وإحاطته، من شأنه حمل المخاطَبِ به على مجانبة أسبابه.

نكتة التعبير بالمضارع ﴿فَيَحِلَّ﴾:

تنزُّلُ غضبِ الله تعالى وعذابِه على الطاغين يتنوَّع ويتتابع

التعبير بالمضارعة في قوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ﴾ بعد التحذير من الطغيان في جملة ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ من شأنه أن يستدعي تلك اللحظة الخطيرة، ويستحضر حالة حلول غضب المنتقم ﷻ أمام أعينهم كأنها معايَنة، ثمّ إنّ المضارعة تُهدِّدهم بأن حلول غضبه ﷻ أيْ: عقابه - سيكون - إن طغوا - متتابعًا عليهم، متجدِّدًا لا يخبو، وهذا وذلك من التحذير عن الطغيان والتخويف منه أشد التخويف.

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 899.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 813.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 275.

توجيه القراءات في: ﴿فَيَحِلَّ﴾، و﴿يَحْلِلْ﴾:

قَرَأَ الكِسائيُّ بِضَمِّ الحاءِ: ﴿فَيَحُلَّ﴾ واللَّامِ مِنْ ﴿يَحْلُلْ﴾، وقَرَأَ الباقونَ بِكَسْرِ الحاءِ واللَّامِ مِنْهُما[1].

وجوب العذاب وتحققه على من وقع عليه غضب الله تعالى

فمَنْ قَرَأَ ﴿فَيَحُلَّ﴾ و﴿يَحْلُلْ﴾ فهو من الحُلول، وهو: النزول[2]، فيكون المعنى: (نَزَل عليه غضبي)، ومَنْ قَرَأَ ﴿فَيَحِلَّ﴾ و﴿يَحْلِلْ﴾ فهو بمعنى: يَجبُ[3]، فالمعنى: (وجب عليه غضبي واستحقه).

وبذلك يؤدّي الفعل ﴿فَيَحِلَّ﴾ معنى الفعلين (يجب، وينزل)، أي: تأصيل الحكم وإصداره وتنفيذه دَفعة. فقد يقول قائل: إنّه قد نزل عليهم غضب اللّه لكنّه لم يضرّهم؛ فأتت القراءة الأخرى لرفع هذا التّوهّم بأنه نازل بهم لا محالة؛ لأنّه وَجَبَ عليهم.

سر التقييد بحرف الاستعلاء:

حرف الاستعلاء يخيّل للطاغي أن العقاب يتصبَّب من فوقه

(على) حرف مصوِّر بطبعه؛ يفيد علوَّ شيء على شيء، وهو في قوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ﴾ يصوِّر هبوط العقاب مَن أعلى، ويخيّل أنه مصبوب من السّماء؛ وذلك مرعبٌ على حدّ قوله تعالى: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: 171]، وقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: 26]، من حيث أثر التهديد وقوة التخويف.

نكتة التعبير بلفظ ﴿غَضَبِيۖ﴾:

غضب الله مقت وعذاب شديد

معنى ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ أي: "يجبُ، وينزلُ عليكم عذابي"[4]؛ فـ"غضب اللّه تعالى عُقوباتُه"[5]، ومعلوم أنّ العلاقة بين الغضب المذكور والعذاب المقصود هي السببيّة، وإذا كان المذكور الغضب والمقصود العذاب كان في إسناد الحلول إلى الغضب تجوُّزٌ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 321.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 156.
(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 156.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 407.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 79.

في الإسناد، من باب المجاز العقلي لعلاقة السببية؛ وسرُّ بلاغة هذا التجوُّز الإيحاءُ بأنّ مجرّد حُلول الغضب إنما هو في حد ذاته عذابٌ وعقوبةٌ، يشقى بها العبد الطاغي، وفي ذلك ما فيه من التحذير من غضب اللّه ﷻ.

و"الغضب صفة وصف اللّه تعالى بها نفسه إذا انتُهكت حرماته، تظهر آثارها في المغضوب عليهم - نعوذ باللّه من غضبه ﷻ - "[1].

معنى ﴿وَمَن﴾:

﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي﴾ مبتدأ مضمَّنة معنى الشرط، وهي اسم موصول بمعنى (الذي)، ومِن قيَمِها البلاغية التهيئةُ لِذكر جملة الصلة ﴿يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي﴾ بما فيها من تهديد بحلول العذاب، وأنه غضب اللّه تعالى على المذكورين.

براعة تكرار الاسم الظاهر ﴿غَضَبِي﴾:

ما أشقّ غضب اللّه تعالى على مستحقّيه

في تكرار الاسم الظاهر ﴿غَضَبِي﴾ دون ضميره في قوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ تحذيرٌ شديدٌ لبني إسرائيل من الطغيان في النِّعَم، وفي الإظهار كذلك مزيدُ تهديد ووعيد لمن يطغى في نعم اللّه تعالى وطيبات ما رزقه؛ والضمير لا ينهض بما ينهض به الاسم الظاهر في تأدية الدّلالات المقصودة.

معنى (الفاء):

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ "رابطة للجواب"[2] بالشرط ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ﴾، وفيها إيحاءٌ بسرعة هويِّ مَن يحلل عليه غضب اللّه ﷻ، وهلاكه وسقوطه إلى حيث لا عودة.

دلالة تأكيد الفعل ﴿هَوَىٰ﴾ بـ ﴿فَقَدۡ﴾:

التعبير بالماضي وبين يديه ﴿فَقَدۡ﴾: ﴿فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ يقطع بتحقُّق

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 76.
(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 267.

سقوط مَنْ غَضِبَ اللّهُ عليه في المهاوي، وأنه قد كُتِب وسُجِّل في سجلات المغضوب عليهم، الهالكين.

سر اصطفاء مفردة ﴿هَوَىٰ﴾:

حلول الغضب الإلهي يودي بالمغضوب عليه

الفعل ﴿هَوَىٰ﴾ "أصله الوقوع مِن عُلوٍّ كالجبل، ثم استعمل في الهلاك لِلُزومه له"(1)، وهنا "يُشَبَّه الذي وقع في طامّة أو ورْطة بعد أنْ كان بِنَجْوةٍ منها بالساقط، و﴿هَوَىٰ﴾ أي: في جهنم، وفي سخط اللّه ﷻ، وقيل: أُخِذ الفعل من لفظ الهاوية وهو قَعْر جهنم"(2)، ففي الفعل ﴿هَوَىٰ﴾ كناية عن الضياع والهلاك.

بلاغة الاستعارة في الفعل ﴿هَوَىٰ﴾:

من يحلل عليه غضب الله تعالى هالك لا محالة

الهويُّ السّقوط من أعلى، وهذه أصل دلالته الحسّية، ثم "استُعير للهلاك الذي لا نهوض بعده، كما قالوا: هوتْ أُمُّه؛ دعاءً عليه، وكما يقال: ويلُ أُمِّه، ومنه: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: 9]، فأريد هويّ مخصوص، وهو الهويّ مِن جبلٍ أو سطحٍ بِقرينةِ التهديد"(3)، وتكمُن بلاغة تلك الاستعارة في المبالغة في هلاكه؛ إذ السقوط أقوى صورة لدقّ العُنُق، والهلاك التام، الذي لا نهوض بعده.

دلالة (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾:

الجمع بين ذِكر الرحمة وذكر العذاب ترهيبًا وترغيبًا

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ عاطفة ما بعدها - من سعة رحمة اللّه تعالى للتائبين - على ما قبلها من الترهيب الشديد لمن حل غضب اللّه عليه بالخسران المبين، لتجمع للعباد بين ترهيب وترغيب، وخوف ورجاء."لما حذَّر اللّه تعالى غضبَه والطغيان في نعمه فتح باب الرجاء للتائبين، والتوبة فرض على جميع الناس بقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 550.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 56.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 276.

[النور: 31]"[1]، ويَبدو أنّ بناء ذِكر الرحمة على ذكر العذاب - في كل مواضع ذلك من القرآن الكريم[2] - فيه طَيٌّ لأسباب التّرهيب داخلَ أسبابِ الترغيب[3].

غرض التوكيد بـ ﴿وَإِنِّي﴾ في جملة ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾:

أكّد النّظم الكريم الخبرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ لإمكان وقوع الشكّ في أن تُدرِكَ مغفرةُ اللّٰه تعالى ذلك الطاغي؛ بعدما ﴿هَوَىٰ﴾ هويًّا وُصِفَ في التّفاسير بأنه "لا نهوض بعده"[4]، ثم إنّ الإخبار بمغفرة اللّٰه تعالى من الجلال بمكان؛ وبخاصّة مع صيغة المبالغة ﴿لَغَفَّارٌ﴾ التي تدلّ على المبالغة في الغفران؛ لذا حسُن تأكيد الخبر كما يقول ابن حجر في دواعي التوكيد: "وقَدْ يَكونُ التَّأكيدُ مِنْ جِهَةِ أَنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمَّا يُهْتَمُّ به وإنْ لم يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"[5].

من المعاني ما يؤكَّد لِعَظمته وإنْ لم يوجد مُنْكِر

معنى اللام في قوله تعالى: ﴿لَغَفَّارٌ﴾:

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لَغَفَّارٌ﴾ هي لام التوكيد "المزحلقة"[6]؛ ووجه تأكيد الخبر هنا هو ما سبق في غرض توكيده بـ ﴿وَإِنِّي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾.

مغفرةُ اللّٰه تعالى لِمَن تاب وآمن وعمل صالحًا مؤكَّدة

سر إيثار المغفرة في قوله تعالى: ﴿لَغَفَّارٌ﴾:

آثر النظم الكريم التعبير عن الخبر بالمغفرة هنا في قوله تعالى: ﴿لَغَفَّارٌ﴾ وذلك لِما للمغفرة من خصيصة المحو؛ فالمغفرة من "الغفر:

إذا تاب الطاغي كان حقيقًا بِسَتْر ذنوبه وتكفير طغيانه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 56.
(2) بمراجعة مواضعِ ذِكْر الجنة ونعيمها والنار وجحيمها مجتمِعَيْن، أو ذِكر أصحابِ هذه وأصحاب تلك متواليَيْن - تتأكّدُ غَلَبَةُ ذلك الترتيب في الذِّكْر الحَكِيم، يقول ابن عاشور: "عادَةُ القُرْآنِ في تَعْقِيبِ النِّذارَةِ بِالتَّبْشِيرِ لِلرَّاغِبِ في التَّوْبَةِ تَذْكِيرًا لَهُ بِإمْكانِ تَدارُكِ حالِهِ"، يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 252.
(3) أحمد محمد سعيد ، مِنْ بَيانِ القُرْآنِ الكريم عَنْ تَمايُزِ أوصاف أصناف النَّعِيمِ في جِنانِ سُورَةِ الرحمن بحث منشور في مجلة تدبُّر - جامعة الإعلام السعودية - العدد الخامس عشر رجب، 1445هـ/ يناير 2024م، ص: 89.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 276.
(5) العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري: 1/ 74.
(6) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 267.

السّتر والتغطية"[1]، وإذا تاب الطاغي في النعمة وثاب إلى اللّه تعالى كان حقيقًا بسَتْر ذنوبه وتكفير طغيانه.

لطيفة التّعبير بصيغة ﴿لَغَفَّارٌ﴾:

اللّه تعالى كثير المغفرة

جاء الخبر ﴿لَغَفَّارٌ﴾ في صيغة المبالغة (فعَّال)، أي: "كثير الغفران"[2]؛ ليليق بعظمة المغفرة الربَّانية؛ ويناسب حجم الجرم؛ فإن جُرم الطاغي في النعمة عظيم؛ يحتاج في محْوه إلى مغفرة عظيمة، فلا يناسبه منها إلا المدلول عليها بهذه الصيغة؛ ولا يؤدّي مؤدَّاه المُراد المقصود في سياقه مثلًا -: وإني لغافِرٌ، أو لأغفرُ لمن تاب.

دلالة (اللام):

من آب ورجع عن الطغيان؛ استحق رحمة الغفار المنان

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ هي لام الاستحقاق؛ فمَن تحوّل مِن الطغيان إلى التوبة والإيمان، وعمل الصالحات، وحسُن حاله؛ صار جديرًا بمغفرة اللّه تعالى، وستر عيوبه، ومحو سيئاته.

معنى ﴿لِّمَن﴾:

الإبهام في الاسم الموصول يشمل كل من يريد إلى اللّه الوصول

﴿لِّمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ موصولة؛ وإبهامها يسمح بشمولها جنسَي الرّجال والنساء، أفرادًا وجماعاتٍ، ويتّسع لجميع مَن تنطبق عليه الشّروط - من التوبة والإيمان، وعمَل الصالحات.

سر التّعبير بالتوبة في قوله تعالى: ﴿لِّمَن تَابَ﴾:

التوبة تستلزم تمام الإيمان

ذِكر التوبة هنا يستلزم الثَّبات على الإيمان النَّقيّ الخالص من الشرك؛ فـ"عن سُفيان: كنَّا نسمع في قوله ﷻ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾، أي: من الشرك، ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بعد الشرك، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: صلى وصام ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ مات على ذلك، وهذا أحسن ما قيل في الآية"[3]، و"التوبة النصوح: التي يُقْلِع بها التائب عما كان فيه،

(1) السمين، عمدة الحفاظ: 3/ 166.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 408.
(3) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 37.

ويَعزِم على ألَا يعود إليه أبدًا، ويندم على ما فعل، فإن كانت المعصية في حقّ آدمي يُزاد على ذلك أَن يبرأ منها؛ بِردّ الحقّ إلى صاحبه إن كان مالًا ونحوه، وبتمكينه من نفسه أو طلب عفوه إن كان حيًّا"[1].

نكتة تقديم التوبة على الإيمان:

التوبة قبل العمل؛ من باب التخلّي قبل التحلّي

من وجوه الدّقة في النظم الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ تقديمُ فِعل التوبة على فِعلَي الإيمان وعمل الصالحات؛ فذلك من تحقيق التخلية قبل التّحلية، والتوبة تَبَرُّؤٌ من الشرك وتوابعه، ويأتي بعدها تعميرُ القلب بالإيمان الخالص، ثم يَدعَم الإيمانَ عمل الصالحات.

معنى الواو:

الإيمان دعوى تفتقر إلى دليل، ودليله عمَلُ الصالحات

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عاطفة، تجمع للعبد الذي تاب بين الإيمان والعمل الصالح، وهما اليقين القلبي والتطبيق الخارجي؛ إذ الإيمان دعوى تفتقر إلى دليلٍ، ودليله ﴿عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

بلاغة التعبير بلفظ (الصلاح):

عمل الصالحات مقدّمة الإصلاح

في التّعبير بالصلاح في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ تصريحٌ مباشر بالثمرة المرجوّة من حركة العباد في هذه الحياة الدّنيا؛ فتدخل فيه العبادات، كما تدخل فيه المعاملات، كما تدخل فيه الصناعات والتجارات والزراعات؛ إذا أُتقِنتْ كلها على وفْق مرضاة اللّه تعالى، وفي ذكر عمل الصلاح دون تعدّيه إلى الإصلاح إيحاءٌ بأن عمل الصالحات توطئة للترقّي إلى الإصلاح.

والقرآن الكريم يُكثر من ذِكر الصلاح ومشتقاته حتى فاقت مواضعُ ذِكر الصلاح والصالحين والصالحات وغيرها من مشتقاته مئةً وستين موضعًا، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فيما يقترب

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1052.

من ستين موضعًا، وذلك دليل العناية بالصلاح والإصلاح في نظر الدين الحنيف؛ حتى كأن الإيمان لا يصدُق في نفس المؤمن حتى يُثمر العمل الصالح.

لطيفة حذف المفعول، والاكتفاء بصفته ﴿صَٰلِحًا﴾:

الأرقى إنتاج الصالح قولًا أو فعلًا، لا مجرد مباشرة العمل

درج الذِّكر الحكيم على حذف المفعول في جملة ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، و﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة مريم: 25] في أغلب مواضعه وإقامة وصفه ﴿صَٰلِحًا﴾، و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مقامه؛ إذ التقدير: (عمل عملًا صالحًا، وعملوا الأعمال الصالحات)، وفي حذف المفعول (عملًا) وإقامة وصفه ﴿صَٰلِحًا﴾ مقامه إشارة إلى أنّ غاية الدين إلى الصالح أيًّا كان عمله، وأن المهمّ هو إنتاج الصالح لا مجرد العمل.

وهذا التركيز على ذكر الصلاح والإصلاح، وتنحية ما يَشغل عنه - وإن كان موصوفهما - يوحي بعناية الدين الحنيف بهما، ويوفِّر عناية المتلقي على التقاط تلك العناية المقصودة، ويَحضُّه على العمل على تحقيق الصلاح والإصلاح في كل ما يأتي وما يذر.

دلالة تنكير الوصف ﴿صَٰلِحًا﴾:

كلُّ صالح مقبولٌ بغضّ النظر عن حجمه ونوعه

تنكير الوصف ﴿صَٰلِحًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يُضفي عليه عظمة وجلالًا وكمالًا؛ ويوحي بأن كل صلاح مقبولٌ، مهما كان نوعه: ضخمًا كبيرًا أو ضئيلًا صغيرًا.

بلاغة التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ بعد (الواو):

الشأن - بعد تحصيل الهُدى - في الاستمرار عليه

التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ بعد (الواو) في قوله تعالى: ﴿تَابَ وَءَامَنَ﴾ ... ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ يقوّي تفسير الاهتداء هنا بالمداومة على الثلاثة السابقة: ﴿تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، وعليه فـ﴿ثُمَّ﴾ هنا "ليست لتباين المرتبتين، بل لتباين الوقتين"[1]، وهي تفيد نوعي "التراخي في الرتبة، حيث استُعيرتْ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على التباين بين الشيئين

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 85.

في المنزلة، كما كانت للتباين بين الوقتين في الحدوث، ومعنى ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾: استمر على الهُدى وثبت عليه، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف: 13]"[1].

دلالة الاهتداء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾:

تمامُ الهداية في الدوام على الهُدَى

فسّر العلماءُ الاهتداء هنا بتفاسير عديدة، وذلك من ثراء الدّلالات القرآنية، "قال الفراء: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾: علم أنّ لذلك ثوابًا وعليه عقابًا"[2]، وقال أبو السّعود: "وقوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: استقام على الهُدى، إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ لم يستمرّ عليه بِمَعْزلٍ من الغفران"[3]، فـ"الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح مما قد يَتَّفِق لكل أحدٍ، ولا صعوبة في ذلك، إنما الصعوبة في المداومة على ذلك والاستمرار عليه"[4].

براعة تأخير الفعل ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾:

الثبات على الهدى دليل صدق الإيمان

المراد من الاهتداء هنا "الاستمرار على تلك الطريقة؛ إذا المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة حتى يستمرَّ عليه في المستقبل ويموت عليه، وعلم أن ذلك بهداية اللّٰه وتوفيقه، وبقي مستعينًا باللّٰه في إدامة ذلك من غير تقصير، ولزِم الاعتقاد المبني على الدّليل، والعمل الصالح إشارة إلى أعمال الجوارح"[5]، فمعنى ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾: "ثم استقام، وثبت على الهدى؛ وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح"[6]، فتأخيره ذِكرًا بعد الأفعال ﴿تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ من براعة النظم القرآني الكريم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 276.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 37.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 33.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 85.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 84.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 377.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطغيان والعتوّ والبغي:

البغي الاستطالة، والطغيان مجاوزة الحد مع القهر، والعتوُّ المبالغة في المكروه

"الطغيان مجاوزة الحدّ في المكروه، مع غلبةٍ وقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11] يقال: طغى الماء: إذا جاوز الحدّ في الظُّلم، والعتو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطغيان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8] قالوا: كل مبالغ في كِبْر أو كُفْر أو فساد فقد عتا فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة: 6] أي: مبالغة في الشدة"(1).

و"البَغْيُ: التعدّي، وبَغى الرجل على الرجل: استطال، وبَغَتِ السماءُ: اشتدّ مطرها، وبغى الجُرح: ورم وترامى إلى فساد، وبَغى الوالي: ظَلَم، وكل مجاوزة في الحدّ وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء، فهو بغيٌّ"(2).

الهويّ والسقوط:

الهويُّ سقوط بِقوّة وسُرعة، والسُّقوط مطلَق وقوع

"السّينُ والقافُ والطَّاءُ أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الوُقوعِ، وهو مُطَّرِدٌ، مِنْ ذَلِكَ سَقَطَ الشَّيْءُ يَسْقُطُ سُقوطًا، والسَّقَطُ: رَديءُ المَتاعِ"(3)، والهويّ من "هَوى الشَّيْءُ يَهوي هَويًّا، وهويًّا"(4)، "هَويًّا إذا هَبَطَ، وهويًّا بالضَّمِّ إذا صَعد"(5).

(1) العسكري، الفروق اللغوية: ص337.
(2) الجوهري، الصِّحاح: 6/ 2281.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقط).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (هوى).
(5) الخطابي، غريب الحديث: 1/ 417.

﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي
وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ
بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه: 83 - 85]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

لا يحلّ للعبد أنْ يَتقدَّم على ما شَرَع الله تعالى ولا أنْ يتأخر عنه

لما ذكر في الآيات السابقة مواعدة اللّه لنبيه موسى وقومه عند الطور، استكمل في هذه الآيات الخبر عن حال موسى إذ خرج بقومه "ثم عَجِل شوقًا إلى ربه ﷻ، وخلَّف السبعين ليلحقوا به - قال اللّه تعالى هنا -: (ما الذي حَمَلَك على العَجَلةِ حتى خلَّفت قومك وخرجت مِن بينهم؟)"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡجَلَكَ﴾: (عجل) أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على الإِسْراعِ، والآخَرُ على بَعْضِ الحَيَوانِ[2]، والمعنى المحوريُّ: سَبْقٌ بتحصيل الشَّيء قبل وقته؛ كالمقصود بتلك العجاجيل، ومثلها الإِعْجالة: ما يُعَجِّله الرَّاعي من اللَّبن قَبْل الحلب[3]، والعَجَل: العَجَلَة، ورُبَّما قيل: عَجِلٌ وعَجُلٌ، لغتان، واسْتَعْجَلْتُه؛ أيْ: حَثَثْتُه وأَمَرتُه أن يُعَجِّل في الأمر، وأَعْجَلْتُه وتَعَجَّلْتُ خَراجَه؛ أيْ: كَلَّفْتُهُ أن يُعَجِّلَهُ، وعَجِّل يا فلان؛ أيْ: عَجِّلْ أمرَكَ، ورجُل عجلان، وامرأة عَجْلَى، وقوم عِجال، ونساء عَجالى[4].

2) ﴿أَثَرِي﴾: (أثر): الأثر: بقيَّة ما ترى من كُلّ شيء[5]، وأَثَرُ

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (عجل).
(4) الخليل، كتاب العين: (عجل).
(5) الخليل، العين: (أثر).

السَّيْفِ: ضَرْبَتُه، وأُثْرُهُ: فِرِنْدُه ووشْيُه، والسَّيْفُ مَأْثورٌ، ويَجوز أَنْ يَكونَ الذي يَأْثُرُه قَرْنٌ عن قَرْنٍ[1]، والمعنى المحوريُّ: بقيةٌ (أو علامة) تبقى من جِرْمِ الشيء ثابتة تَخْلُفه[2]، وأَثَرُ الشَّيءِ: حصول ما يدلُّ على وجوده، يُقال: أثر وأثّر، والجمع: الآثار، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27][3]، ومعنى ﴿أَثَرِى﴾ في الآية الكريمة: طريقي، ويكون المُراد: قومي خلفي يقتفون أثري ليلحقوا بي.

3) ﴿فَتَنَّا﴾: (فتن) أَصْلٌ يَدُلُّ على ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ[4]، والمعنى المحوريُّ: إذابةُ مادةٍ باطن الشَّيءِ وتحويلُها بإدخالها نارًا حاميةً[5]، وجِماعُ مَعْنى الفِتْنَةِ في كَلامِ العَرَبِ الابْتَلاءُ والامتِحانُ، وأَصلها مأخوذٌ من قَوْلك: فتَنْتُ الفِضّةَ والذَّهَبَ إذا أذبتَهما بالنَّار ليتميَّز الرَّديء من الجَيِّد، ومن هَذا قَول الله جلّ وعزّ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: 13]؛ أي يُحَرقون بالنَّار، ومن هَذا قيل للحجارة السّودِ الَّتي كَأَنَّها أَحرِقتْ بالنَّار: الفَتينُ[6]، والمعنى في الآية الكريمة: ابتلينا أو اختبرنا.

4) ﴿ٱلسَّامِرِىُّ﴾: السَّامِرةُ قبيلةٌ من قبائلِ بني إسرائيل، إليهم نُسِبَ السَّامِريُّ؛ قال الزَّجَّاج: "وهم إلى هذه الغايَةِ بالشَّامُ يُعرفونَ بالسَّامِريّين"، وقالَ بعضُ المُفسَّرين المُفسِّرين: السَّامِريُّ رجلٌ من أَهْلِ كِرْمانَ[7].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

ذكر الله ﷻ في هذه الآيات أنه " لمَّا أنجى بني إسرائيل وغرَّق فرعون - وعد بني إسرائيل وموسى عليه السلام أن يصيروا إلى جانب طور سيناء ليُكَلِّمَ فيه موسى عليه السلام، ويناجيه بما فيه صلاحُهم بأوامرهم ونواهيهم، فلما أخذوا في السير تعجَّل موسى عليه السلام للقاء ربه"[8].

فقال الله تعالى له - وهو أعلم -: (وما حَمَلَك على العجلة، وترْكِ قومك يا موسى؟)

(1) ابن عبَّاد، المحيط: (أثر).
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (أثر).
(3) الراغب، المفردات: (أثر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (فتن).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (فتن).
(7) ابن سيده، المحكم: (سمر).
(8) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 56.

عظيم شوق الأنبياء لمناداة ربهم إذ هم أعلم الخلق به

فأجاب ربه تعالى؛ فقالَ: (هم بِالقرب مني يأتون على أثري من بعدي)[1]، "فقال الله تعالى لموسى ﵇: (فإنّا قد أَوقعنا قومك في الابتلاءِ والاختبار؛ ليظهر في واقع الأمر مدى صدقهم في الإيمان وضعفهم فيه، والذي حملهم على الضلال وفتنهم حتى عبدوا العجل هو السامريّ)"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾:

ليس للعبد أن يجتهد فيما أُمِر به أمرًا محدَّدًا

(الواو) هنا استئنافية؛ إذ طويَتْ تفاصيلُ غرق فرعون وجنوده، ونجاة موسى ﵇ وقومه، وبدأ هنا قَصَّ أبرز تفاصيل المرحلة القادمة، من عجلة موسى ﵇ لمناجاة ربه ولقائه، ومن فتنة السامري التي أحدثها بين بني إسرائيل.

دلالة ﴿وَمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾:

الإنكار بصيغة الاستفهام أخفُّ على المنكَر عليه

﴿وَمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ استفهامية للإنكار و"اللوم، والَّذي يُؤْخَذُ مِنْ كَلام المُفَسِّرينَ وتُشيرُ إِلَيْه الآيَةُ: أَنَّ موسَى تَعَجَّلَ مُفارَقَةَ قَوْمِه لِيَحْضُرَ إِلَى المُناجاةِ قَبْلَ الإبَّانِ الَّذي عَيَّنَهُ اللّه لَهُ، اجْتِهادًا مِنْهُ ورَغْبَةً في تَلَقّي الشَّريعَةِ حَسْبَما وعَدَهُ اللّه قَبْلَ أَنْ يُحيطَ بَنو إِسْرائيلَ بِجَبَلِ الطّورِ، ولَم يُراعِ في ذَلِكَ إِلَّا السَّبْقَ إِلَى ما فيه خَيْرٌ لِنَفْسِه ولِقَوْمِه، فلامَهُ اللّه على أَنْ غَفَلَ عَنْ مُراعاةِ ما يَحُفُّ بِذَلِكَ مِن ابْتِعادِه عَنْ قَوْمِه قَبْلَ أَنْ يوصيَهُمُ اللّه بِالمُحافَظَةِ على العَهْدِ ويُحَذِّرَهُم مَكْرَ مَنْ يَتَوَسَّمُ فيه مَكْرًا"[3].

معنى ﴿عَن﴾:

تفيد ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾ المجاوزة،

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 209.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1053.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 277.

أي: وما سبب مجاوزتك أهلَ رفقتك إلينا؟ فإنه عليه السلام "لما انتهى إلى الجَبَل، وخلّف السبعين رجلًا الذين اختارهم، عَجِل شوقًا إلى كلام ربه وأمرهم بِأنْ يَتّبَعوه إلى الجبل"[1].

دلالة إضافة (قوم) إلى الضمير:

قوم الرجل عزوتُه؛ يريبه ما يريبهم، ويضرّه ما يضرُّهم

في إضافة لفظ (قوم) الأول في جملة: ﴿أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾ إلى ضمير الخطاب مؤازرةٌ لِدلالة العتاب الكامنة في هذا السؤال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾؛ إذ إنهم قومُه وأهلُه وعُزْوتُه، ورصيدُه في هذه الدنيا مِن المؤمنين؛ فأنَّى له أنْ يتجاوزَهم ويسبقَ فينفردَ بذلك الفضل دونهم؟

وفي إضافة لفظ (قوم) الثاني في جملة: ﴿فَتَنَّا قَوۡمَكَ﴾ إلى ضمير المخاطب - موسى عليه السلام - تهويلُ أمر فتنتهم في نفس موسى عليه السلام؛ فهم قومه الذين بذل ما بذل لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فها هم ينتكسون إلى ما كان قد انتشلهم منه.

دلالة النداء بـ(يا) والتصريح باسمه عليه السلام:

من الرحمة بالمخاطَب المُعاتَب إيناسُه بندائه باسمه

النداء بـ (يا) المختصّة بِنداء البعيد في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ يحمل من الإيناس والملاطفة لنبي اللّه تعالى موسى عليه السلام ما يهوِّن عليه ثِقَل العتاب واللوم والإنكار؛ لأن الذي عاتبه هو صاحبُ الجلالة جل جلاله، حتى لقد "داخله عليه السلام من الهيبة، والإجلال، والتعظيم للّه جل وعلا ما أذهله عن الجواب المطابق"[2]؛ فجاءت أداة البعيد لتشعره ببعد منزلته عند ربه سبحانه وتعالى، وتترفّق به في هذا المقام المهيب.

ومما يَدّعم تلك الملاطفة وذلك التخفيف ويقرر قصد إيناسه عليه السلام بهذه الأداة نداؤه عليه السلام باسمه الصريح مباشرة ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ إذ إن ذكر الاسم دليل الرضا والمحبّة، وإلا فما كلّمه اللّه تعالى حينئذ أصلًا.

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 408.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 4/ 77.

من كرم المُعاتِبِ منحُ المُعاتَبِ فرصةً لبيان عذره

علة فصل جملة ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ﴾:

فُصِلتْ جملة ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ﴾ عن جملة السّؤال السَّابقة ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لأن جملة الاعتذار استئناف بياني؛ إذ يترقّب الذهنُ إجابةً عن سؤالٍ تثيره فيه الجملة السابقة يقول: ماذا كان عُذّر موسى عليه السلام الذي اعتذر به عن ذلك الخطأ الذي عاتبه فيه ربّه جل جلاله؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، وفي إفساح اللّه تعالى لموسى ليقدِّم عذره تعليمٌ للناس، بأنَّ الخطأ مهما كان جسيمًا، والمعاتِب ذا سلطان، والمذنب ضعيفًا؛ ينبغي له منحه فرصة الاعتذار.

موقع جملة ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ من الإعراب:

جملة ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ﴾ "في محل نصبٍ، مقولُ القول"[1]، وهي دليل "على أنهم كانوا سائرين خلفه، وأنه سبقهم إلى المناجاة، واعتذر عن تعجُّله بأنه عجِل إلى استجابة أمر اللّه تعالى مبالغة في إرضائه"[2].

غرض تقديم المسند إليه ﴿هُمۡ﴾:

قوم الإمام مُهمَّتُه التي يجب عليه العنايةُ بها

﴿هُمۡ﴾ في جملة: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ﴾ "ضميرٌ منفصل، في محلّ رفع مبتدأ"[3]، وقد قدَّمه موسى عليه السلام وبَنَى عليه الكلام؛ لأنه محلُّ العتاب من ربّه، وسبب اللوم والإنكار، فقدّم موسى عليه السلام ضمير قومه ﴿هُمۡ﴾ لاسترضاء ربّه سبحانه وتعالى؛ وقد علِم عليه السلام حينئذ أن قومه مُهمَّتُه التي يجب العنايةُ بها، وعدم تجاوزهم وإن كان السببُ طلبَ مرضاة اللّه تعالى، وأنهم هم سبب مرضاته جل جلاله.

لطيفة تجريد اسم الإشارة ﴿أُوْلَآءِ﴾ من هاء التنبيه:

﴿أُوْلَآءِ﴾ هنا "بمعنى: هؤلاء"[4]، وهذا الموضع أحد موضعين

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 268.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 278.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 268.
(4) الكرماني، لباب التفاسير: ص1439.

لا ثالث لهما في الذكر الحكيم لإسقاط (ها) التنبيه من اسم الإشارة (هؤلاء)؛ وتحرير وجه حذف (الهاء): أنّ المقام هنا مقام اعتذار وانكسار، فلمح موسى ﷷ وجّه السؤال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾، وأيقن أنه يتضمن إنكار العجلة، لأنّها في الظاهر إغفالٌ للقوم، وإيهام التعظُّم عليهم؛ لذلك أجاب موسى ﷷ معتذرًا لِرَبِّه تعالى عن الأمرين جميعا[1]؛ فقدّم بين يدي جوابه بهذا الاعتذار المغلف بالانكسار: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾، وهو جواب اللّوم المتضمَّن، ثمّ ثنّى بذكر جواب السؤال الصريح - سببِ الإعجال -: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، وعلى ذلك فالمقام والسياق يقتضيان من موسى ﷷ أن يحتشد في تحرير جملة الاعتذار، وأن يتحاشى العناصر غير الخادمة في هذا المقام؛ لذلك أسقط موسى ﷷ الـ (هاء) من الأسلوب كله؛ فلم يذكرها في الضمير ﴿هُمۡ﴾ قائلا: (ها هم)، ولم يثبتها في الإشارة ﴿أُوْلَآءِ﴾ قائلا: (هؤلاء)، بل أسقطها منهما جميعا؛ لأن إثباتها يناقض الاعتذار الذي يجب أن يكون هامسًا، يُهَوِّن من فراقه قومَه، فيظهره كأنه ليس فراقًا، وكأنهم لاحقون به على خُطا قدميه مباشرة.

من البراعة في الاعتذار حشدُ عناصر التودُّد لِنَيْل الصفح عن الأخطاء

وإنّ من خصائص (ها) التنبيه أن تنشر الجَلَبَة، وتستثير اللحظة؛ لذلك أسموها (ها التنبيه)؛ فلو ذُكرت هنا لأشعرت برخاوة المساحة الزمنية وبُعد المساحة المكانية بينه ﷷ وبين قومه، وهذا ما يتحاشاه؛ فأسهم إسقاطُها في تلطيف المقام؛ لأنهم لن يكونوا على أثره وهم (هؤلاء) بالـ (ها) المشعرة بالإبعاد والانتشار، وتوحي بتنافر المعاني وتَعاديها، وتحلّ وثاقة التركيب.

قُربُ النبيّ من قومه وأدبُه مع ربّه خُلقُ الأصفياء

علّة إيثار اسم الإشارة ﴿أُوْلَآءِ﴾ دون (أولئك):

(أولاء) لِما قرُب، و(أولئك) لِما بعُد، والكاف للخطاب ودخلها

(1) البيضاوي، انوار التنزيل: 4/ 35.

اختيار اسم الإشارة للقريب أنسبُ للتّعبير عن قربهم منه

معنى البعد؛ لأنّ ما بعُد عن المخاطب يحتاج من إعلامه وإنه مخاطب بِذكره لِما لا يحتاج إليه ما قرُب منه لِوضوح أمره[1]، واستعمال اسم الاشارة القريب إقرار بقربهم منه، وإنهم مع سيرهم بعده قريبون منه، ومن ثمّ فالاختيار مناسبٌ للاعتذار.

لطيفة التعبير بالأثر:

بقاء الأثر دليل القرب الزماني والمكاني

"قال بعضهم: إن موسى - صلوات اللّه عليه - خرج بنفر من قومه إلى الجبل؛ ليأخذ التوراة، فعجِل حتى خلَّفهم وتركهم وراءَه، فعند ذلك قال له ربه تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وقال بعضهم: لم يخرج بنفر، ولكن خرج وحده وترك قومه، فأصابهم ما أصاب من الافتتان بالعجل الذي اتخذه السامري، فعلى التأويل الأول، أي: هم يجيؤون على أثري، وعلى التأويل الثاني، أي: تركتهم على ديني وسبيلي"[2]، فالمقصود بالأثر على القول الأول معناه الحسيّ الحقيقيّ، أي: "ماشين على آثار مشيي قبل أن ينطمس لم أسبقهم إلا بشيء جرت العادة في السبق بمثله بين الرفاق، هذا بناء منه على ما كان عهد إليهم، وأكد فيه عليهم"[3].

والأثر على القول الثاني مستعمل في معنى مجازي على سبيل التمثيل، أي: هم على ديني وعقيدتي، وكأنهم يتتبعون آثار خُطاه، فيسيرون عليها خطوة خطوة.

بلاغة الكناية في لفظ الأثر:

في الكناية دليلُ صدق القضية

ووراء التّعبير بالأثر في جملة: ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ كنايةٌ عن القُرب؛ لأن بقاء الأثر يدلّ على عدم تباعد الزمن بينهما؛ إذ الأثر يتلاشى بِتَطاوُل الزمن، فكونهم على أثره ﵇ يدلّ على قُربهم منه زمانًا،

(1) العسكري، الفروق اللغوية: ص85.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 299.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 322.

ويلزم ذلك قربهم منه مكانًا، وبلاغة الكناية هنا أنها تزيد الكلام قوة في إثبات صحّة الخبر.

بلاغة الإضافة في لفظ ﴿أَثَرِى﴾:

نسبة الأثـر الى النّفس من تمام الاعتذار

من تمام الاعتذار الذي جاء في جواب موسى ﷺ أن أضاف الأثر إلى نفسه في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾؛ لأنه بإزاء إضافة (القوم) إليه في عتاب اللّه تعالى إياه: ﴿قَوۡمِكَ﴾.

معنى (الواو) في جملة ﴿وَعَجِلۡتُ﴾:

لا يقدحُ الاجتهادُ الخطأُ في مرتبة المؤمنين، وإنْ كانوا أنبياء مرسلين

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ﴾ "حالية بتقدير قد أو عاطفة"[1]، والمعنى على كون الواو حالية: هم قريبون لاحقون بي، والحال أنني قد قصدتُ أن أتعَجَّل إلى لقائك، فسبقتهم معتقدًا جواز ذلك.

سر اختيار مفردة العجلة:

العجلة الحكيمة في الدين ممدوحة

من عطاء التعبير بالعجلة في جملة: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ﴾ أن العجلة "ممدوحةٌ في الدين، قال اللّه تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: 133]"[2]، وعَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "التُّؤَدَةُ في كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا في عَمَلِ الآخِرَةِ"[3].

دلالة التّعبير عن العجلة بالماضي:

السعي لتحقّق وقوع الفعل وجهةٌ للطاعة والانقياد

صيغة الماضي في ﴿وَعَجِلۡتُ﴾ تناسب التّعبير بمفردة العَجَلة؛ بما في الماضي من دلالة تحقُّق الوقوع، وما في العَجَلة من دلالة سرعة الحصول، ويناسب معنى تحقّق وقوع الفعل خطاب الربّ ﷻ؛ لما يتضمّنه من معنى الطاعة والانقياد، وتحرّي الرضا.

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 268.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 85.

(3) أبو داود، سنن أبي داود، الحديث رقم: (4810).

العجلة إلى الله خير

دلالة تقييد العَجَلة بالجار والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾:

من عناصر التلطُّف في اعتذار موسى ﷺ تقييدُه الإعْجال بالجار والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ إذ قال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ﴾؛ لأن العجلة مذمومة في كل شيء، لكنها لو كانت إلى الله تعالى كانت محمودة.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيۡكَ﴾ على جملة النداء:

الله تعالى وحده المستحق للمسارعة إليه بالصالحات

لأن مناط العبودية هو في إخلاص العمل إليه ﷻ؛ كان من البلاغة تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾ على جملة النداء في جملة: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ﴾، لبيان أن العجلة من نبي الله موسى ﷺ إنما هي إلى الله وإلى رضاه جل في علاه، وهكذا "من لزمه أمرُ الله وفرضُه؛ لزمه الإسراع والعجلة إلى القيام بأدائه، إذا لم يكن هناك سببٌ يمنعه عن التّعجيل له والقيام به، والله أعلم"(1).

معنى حرف الغاية (إلى):

(إلى) في جملة ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ﴾ للغاية، بمعنى: "إلى مكان وعدك"(2)؛ لأن "الله تعالى لم يكن في الجبل؛ فالمراد: إلى مكان وعدك"(3) الذي أمرتني بالحضور إليه في الموعد المحدّد.

دلالة حذف أداة النداء:

نداء العبد ربَّه تعالى بلا أداة نداء دليلُ الحبّ ومظِنَّةُ القبول

حذفُ أداة النداء في جملة: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ﴾ أنسبُ لمقام الاعتذار مِن ذكرها؛ لأنه دليل القرب في الوصال، بل هو دليل حبّ العبد ربّه ﷻ، وبناء عليه يكون حذفه مظنة القبول، وبُشرى التقريب إن شاء الله تعالى.

براعة إظهار لفظ (الربّ):

أظهر موسى ﷺ اسم المخاطب الجليل ﷻ في قوله: ﴿وَعَجِلۡتُ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 299.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 366.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 86.

﴿إِلَيۡكَ رَبِّ﴾؛ لما في ذلك من "مزيد الضراعةِ والابتهال؛ رغبةً في قَبول العذر"[1]، وهكذا يحشد ﷺ كل عناصر الاعتذار، ويتوسّل بها إلى رضوان الله تعالى في هذا المقام الجليل، وهذا يعلِّم مَن أخطأ أن يجتهد في تقديم كل ما يهيِّئ لقبول الاعتذار من عناصر التودّد في الأسلوب.

مَن اجتهد فأخطأ عليه أنْ يجدَّ في تقديم الأعذار بتودُّدٍ لعله يُقبَل

سر التعبير بعنوان الربوبية:

في التّعبير بعنوان الربوبية ﴿رَبِّ﴾ في جواب موسى ﷺ ربَّه تعالى: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ "مزيد ضراعة وابتهال؛ رغبة في قبول العذر"[2]؛ إذ (الربُّ) رمز الجمال والرحمة والعطاء؛ فلجأ إليه ﷺ تقرُّبًا به ﷻ إليه، وتوسُّلًا به ﷻ لديه.

(الربُّ) رمز الرحمة؛ يُتَقَرَّب به إليه سبحانه، ويُتوسَّل به لديه تعالى

معنى (اللام) في: ﴿لِتَرۡضَىٰ﴾:

(اللام) في قول موسى ﷺ: ﴿لِتَرۡضَىٰ﴾ "للتعليل"[3]، أي: "لتزداد عني رضًا، وهذا دليل على جواز الاجتهاد"[4]، وهذا "متضمِّنٌ لبيان اعتذاره ﷺ، وحاصلُه عرضُ الخطأ في الاجتهاد، ونحو هذا الإسراعُ - المزيلُ للخشوع - إلى إدراك الإمام في الركوع؛ طلبًا لأنْ يكون أداءُ هذا الركن مع الجماعة التي فيها رضا الرب تعالى؛ فإنهم قالوا: إن ذلك غير مشروع"[5].

صحّةُ النيّة مظنّة الصفح عن خطأ صاحبها

دلالة التعبير بالرضى:

التعبير بالرضا في تعليله ﷺ خطَأَه في العجلة إلى ربه تعالى في قوله: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ مظنّةُ الصفح عن خطئه؛ إذ رضا الربّ تعالى غايةُ غايات العبد في كل عمل يعمله؛ فإذا طلب

استصحاب الضعفاء في معنى حصول رضاه ﷻ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 34.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 553.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 268.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 377.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 552.

الرضا باجتهاد خاطئ شفع له طلب الرضا.. "ولولا أنه استنطقه لما أخبر به موسى عليه السلام، قال: يا موسى إنّ رضائي في أن تكون معهم، وألّا تسبقهم، فكونك مع الضعفاء الذين استصحبتهم - في معاني حصول رضائي - أبلغ من تقدّمك عليهم"(1).

براعة حذف متعلق الفعل ﴿لِتَرۡضَىٰ﴾:

أعلى مقامات العبودية طلب رضا الله تعالى في نفسه

في حذفه عليه السلام متعلّق الفعل ﴿لِتَرۡضَىٰ﴾ دِقّةٌ وبراعة تليق بمقام الربّ عز وجل؛ ذلك أن المعنى: (وعجلت إليك ربِّ لترضى عنّي)، غير أن وراء حذف هذا المتعلق (عنّي) غاية جليلة لموسى عليه السلام، هي أجلُّ من طلبه الرضى لنفسه، فلم يقيّد موسى عليه السلام رضا اللّه تعالى بمرضيٍّ عنه معيَّن، بل أطلق فقال: ﴿لِتَرۡضَىٰ﴾؛ وفي ذلك الإطلاق طلب لتحقُّق رضاه سبحانه وتعالى في نفسه وعلى الإطلاق، وراءه أنَّ غاية موسى عليه السلام من تلك العجلة تحصيل الرضا لنفسه، بل تحقيق الرضا للّه تعالى على الإجمال، وما أبدَع ذلك اللمح منه عليه السلام في مقام الاعتذار، وما أروعه من كل عبد يتغيَّاه في كل مقام!

بلاغة التعبير بالمضارع ﴿لِتَرۡضَىٰ﴾:

قد يستعمَل الفعل المضارع لإفادة الدوام مع الاستمرار

في التّعبير بالمضارع في قول موسى عليه السلام: ﴿لِتَرۡضَىٰ﴾ طلبُ استمرار رضا الربّ سبحانه وتعالى، ورجاءُ "تحصيل دوام الرضا، كما أنّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ المراد به دوام الاهتداء"(2)، وعلى ذلك فالمضارع هنا يفيد الدوام والثبوت والرجاء في رضا اللّه في كل حين.

سر فصل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا﴾:

قد تتسبّب العَجَلةُ في خسارة كبيرة؛ فهي غير مرغوبة دومًا

جملة ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا﴾ كلام اللّه تعالى، وما قبلها كان كلام موسى عليه السلام؛ لذلك فإن جملة ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا﴾ "استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكايةِ اعتذار موسى عليه السلام، وهو السرُّ في وروده على صيغة

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 470.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 85.

الغائبِ، لا أنه التفاتٌ منَ التكلم إلى الغَيبة؛ لِما أنَّ المقدَّرَ فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلُّم، كأنه قيل من جهة السامعين: فماذا قال له ربه ﷻ حينئذٍ؟ فقيل: قال ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾"[1].

معنى (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا﴾:

العجلة قد تؤدي إلى الضلال

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا﴾: "لترتيب الإخبار بما ذُكر من الابتلاء على إخبار موسى عليه السلام بعَجَلَته، لكن لا لأن الإخبارَ بها سببٌ موجِبٌ للإخبار به، بل لِما بينهما من المناسبة المصحِّحة للانتقال من أحدهما إلى الآخر؛ من حيث إن مدارَ الابتلاءِ المذكور عَجَلَةُ القوم، فإنه روي أنهم أقاموا على ما وصَّى به موسى عليه السلام عشرين ليلةً بعد ذهابه، فحسَبوها مع أيامها أربعين، وقالوا: قد أكملنا العدةَ، وليس من موسى عليه السلام عينٌ ولا أثر"[2].

غرض التوكيد بـ(إنّ) و﴿قَدْ﴾:

من الأساليب التربوية للتقويم اللومُ المعلّل الحامل على الإقناع

من مقتضيات التوكيد بـ (إنّ) و﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا﴾ أن فيه نوعَ "ملام على التّعجل؛ بأنه تسبَّب عليه حدوث فتنة في قومه؛ ليُعلِمه ألا يتجاوزَ ما وقَّت له ولو كان لرغبةٍ في ازديادٍ من الخير"[3].

وجاء "هذا الخبر على وجه الاختصار؛ لأنه لم يَذكر ما جرى من القصّة؛ لأنّه ذُكر في موضع آخر، فهاهنا اختصر الكلام وقال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾، يعني: ابتلينا قومك مِن بعد انطلاقك إلى الجبل"[4].

دلالة التعبير بصيغة الماضي في: ﴿فَتَنَّا﴾:

كل ما كان في علم الله تعالى سيكون

من وجوه الإعجاز في التّعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا﴾ "إخباره تعالى بهذه الفتنة عند قدومه عليه السلام قبل وقوعها؛ وذلك إما باعتبار تحقُّقها في علمه تعالى، وإما باعتبار التّعبير عن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 34.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 34.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 278.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 408.

المتوقَّع بالواقع، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 44]؛ أو لأن السامريّ كان قد عَزَم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام، وتصدَّى لها بترتيب مبادئها؛ فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها"[1].

سر إسناد فتنتهم إلى الله تعالى:

كل ما يصدر عن العباد بإقدار الله تعالى ومشيئته

في قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا﴾ "أضاف الافتتان إلى نفسه؛ لما قيل من جعل العجل جسداني من لحم ودم وروحاني، فإن قيل: ما معنى إجراء ما أجرى على يدي السَّامري مع ضلالة من الآية؟ قيل: هو - والله أعلم - أنه لو ادعى لنفسه الرسالة، لكان لا يتهيأ له ذلك، لكنه إنما ادعى أنه إله وآثار العبودية فيه ظاهرة قائمة، يعرف كل أحد أنه ليس بإله، وأما الرسالة فإنه يجوز أن تشتبه على الناس، وتلتبس عليهم؛ فيمنع الله ﷻ مَن ليس برسول إذا ادَّعى الرسالة إقامة دلالة الرسالة لاشتباهها على الناس، وأما الألوهية فلا يمنع عن إجراء ذلك؛ لأن آثار العبودة وأعلام العجز فيها ظاهرة يعرفها كل أحد"[2].

"وإسناد الفتنة إلى الله تعالى باعتبار أنه مُقَدِّرُه وخالق أسبابه البعيدة، وأما إسناده الحقيقي فهو الذي في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ لأنه السبب المباشر لضلالهم المسبب لفتنتهم"[3].

الابتلاء اختبار يميزُ الله به السويَّ من الرديّ

و"إنما ابتلاهم الله تعالى بما ابتلاهم ليتميز منهم المستعدُّ القابل للكمال بالتجريد مِن القاصر الاستعداد المنغمِس في المواد، الذي لا يُدرِك إلا المحسوس، ولا يتنبَّه للمجرَّد المعقول؛ ولهذا قالوا: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ أي: برأينا؛ فإنهم عبيد بالطبع، لا رأي

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 410.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 299.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 279.

لهم ولا ملكة، وليسوا مختارين، لا طريق لهم إلا التقليد والعمل، لا التحقيق والعلم"[1]، أي: أنه ﷻ قد "خلّى بينهم وبين أنفسهم، وما ينضَح منها مِن مكر وضلال؛ فتركهم ليَدِ السامريّ يضلّهم ويذهب بهم في مذاهب الضلال"[2].

دلالة استعمال مفردة الفتنة دون الابتلاء:

الفتنة أشدُّ الاختبار

"الفتنة: أشدُّ الاختبار وأبلغه"[3]، "أي ابتليناهم بعبادة العِجل مِن بَعد ذهابك مِن بينهم، وهم الذين خلَّفهم مع هارون عليه السلام "[4].

فلمَّا كان الذنب الذي وقع فيه بنو إسرائيل عظيمًا وصفه القرآن الكريم بالفتنة؛ بل هو أعظم الفتَن؛ لأنه الشرك بالله تعالى، وقد بلغ بنو إسرائيل من الانحطاط في هذه الفتنة إلى حيث يعبدون عِجْلًا.

معنى ﴿مِنۢ﴾ ونكتة ذكرها قبل الظرف:

القائد الحقُّ هو حامي القوم؛ فلا يُؤتون إلا بغيابه

القائد حصن قومه الحصين، الذي لا يؤتى قومه إلا من بعده، قال البقاعي: "لما كانت الفتنة لم تستغرق جميع الزمن الذي كان بعده، وإنما كانت في بعضه، أدخل الجارّ فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أي خالطناهم بأمر من أمرنا مخالطةً أحالتهم عما عهدتَهم عليه، وكان ذلك بعد تمام المُدَّة التي ضربتَها لهم، وهي الثلاثون بالفعل وبالقوة فقط، من أول ما فارقتَهم بِضَرْبك لتلك المدة باعتبار أن أول إتيانك هو الذي كان سبب الفتنة لزيادة أيام الغيبة بسببه؛ لأنا زدنا في آخر المدة بمقدار ما عجِلتَ به في أوَّلها، فلما تأخر رجوعك إليهم حصل لهم الفتون بالفعل، فظنوا مرجمات الظنون"[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 595.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 816.
(3) العسكري، الفروق اللغوية: ص217.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 34.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 323.

عـلى الإمـام الارتـباط بقومه حتى يطمئن إلى رسوخ الإيمان فيهم

دلالة تقييد الفعل ﴿فَتَنَّا﴾ بالظرف ﴿مِنۢ بَعۡدِكَ﴾:

في تقييد الفعل ﴿فَتَنَّا﴾ بالظرف ﴿مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ - أي: "من بعد انطلاقك إلى الجبل"[1] - تركيزٌ على تخطئته في عجلته ﷺ عن قومه؛ وكأن عجلته سببُ انتكاستهم؛ حيث تركهم ولمَّا يَثْبُت الإيمان في قلوبهم.

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾:

(الواو) في جملة ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ "عاطفة"[2] على جملة ﴿فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾، وقد تكون حالًا، أي: قدَّرنا فتنتهم والحال أنّ السَّامري كان السببَ المباشِرَ لإضلالهم.

دلالة اختيار مفردة الإضلال:

مـن تسـبب في شيء نالته آثاره

التّعبير بالإضلال في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ صريحٌ في اختلال عقيدتهم؛ بحيث إنهم قد خرجوا من الإيمان الخالص إلى الشرك الموبق، والإضلال عن سبيل الله تعالى أعظم الذنوب؛ لأنه يحمّل المضِلَّ آثام كفر غيره إلى آثام كفره هو.

بلاغة المجاز العقلي:

مـن تسـبب في شيء أُسنِد إليه

أُسنِدَ الإضلالُ إلى السَّامري في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية فعن ابن عباس أنّ السَّامريّ كان سبب إضلالهم[3]؛ إذ " كان هو المدبّرَ في الفتنة، فقال لهم: إنما أخلفَ موسى ﷺ ميعادَكم لِما معكم من حُليّ القوم وهو حرامٌ عليكم؛ فكان من أمر العجل ما كان"[4]، ومن المعلوم أنّ "جميع المنشآت تضاف إلى منشئها في الظاهر، وإن كان الموجد لها في الأصل هو الله تعالى"[5].

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 210.
(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 268.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 217.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 34.
(5) الخازن، لباب التأويل: 3/ 210.

نكتة حذف متعلّق الإضلال في ﴿وَأَضَلَّهُمُ﴾:

متعلّق الإضلال في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾: "طريق الرّشد"[1]، أي: تسبّب السَّامري في إضلالهم عن سبيل الرشاد، وحذف هذا المتعلِّق يفيد العموم، أي أنه يدخُل في الإضلال عن سبيل اللّه تعالى كلُّ إضلال، وأنه لا إضلال أخطر منه، وقد أوضح في الأعراف كيفية إضلاله لهم قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: 148] إلى قوله ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: 148]، أي: اتخذوه إلهًا، وقد صنعه السَّامريّ لهم من حُليّ القبط فأضلّهم بعبادته[2].

لا إضلال أعظم من الإضلال عن سبيل الله تعالى؛ فيدخُل فيه كل إضلال

سرّ ذكر ﴿ٱلسَّامِرِيُّ﴾ بصفته دون اسمه:

لم يُذكر في القرآن الكريم اسم السَّامريّ، كما لم يذكر اسم فرعون - لعنهما اللّه تعالى -؛ وفي ذلك إماتةُ ذكر أهل الباطل، والاكتفاء بذكرهم بوصف قبائحهم؛ للتحذير منها كما في الفرعنة، أو ذكر قبائلهم وبلدهم كالسَّامري.

في طيّ أسماء أهل الضلال إماتة لذكرهم

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنة والاختبار والابتلاء:

الفتنة أشدّ الاختبار وأبلَغُه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، ويكون في الخير والشّر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]، وقال تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 16 - 17]، فجعل النعمة فتنة؛ لأنه قصد بها المبالغة في اختبار المنعَم عليه بها، كالذهب إذا أريد المبالغة في تعرُّف حاله أُدخل النار، واللّه تعالى لا يختبر العبد لتغيير حاله في الخير والشر؛ وإنما المراد بذلك شدة التكليف[3].

الاختبار يسير والفتنة اختبار شديد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 324.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 78.
(3) العسكري، الفروق اللغوية: ص217.

الفتنة ابتلاءٌ وزيادة فهي أعمٌّ

والفتنة أعمٌّ من الابتلاء، فهي ابتلاءٌ وزيادة، كما أن أفعال الابتلاء تأتي مسنَدَةً إلى اللّٰه تعالى بالاسم الظاهر، وبالضمير العائد إليه سبحانه، بخلاف (الفتنة) فلا تأتي الأفعال منها مسندة إلى الاسم الظاهر مطلَقًا؛ لأن من معاني الفتنة ما لا يكون حَسَنًا، ومن هنا فـ(الفتنة) في القرآن الكريم قد جاءت على عدة معانٍ، منها: الابتلاء، والصَّدّ عن السبيل، والعذاب، إلخ[1].

(1) مؤلفون مختلفون، نتائج البحوث وخواتيم الكتب: 2/ 336.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾ [طه: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يُفْزِعُ قائدَ القوم ما يلحق قومه مِن شرّ

في الآيات السَّابقة أخبر الله ﷻ نبيَّه موسى عليه السلام أنه عرَّض قومَه - بني إسرائيل - بعد أنْ تعجل عنهم إلى موعد ربّه تعالى، أنه عرَّضهم لِفِتْنَة عبادةِ العجل بسبب السَّامريّ؛ ممَّا أفزع موسى عليه السلام، واقتضى ذلك ذِكرَ ردِّ فعله هنا في سياق قَصِّ الأحداث؛ فقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسِفٗاۚ﴾: (أَسف) أَصْلٌ يَدُلُّ على الفَوْتِ والتَّلَهُّفِ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، يُقالُ: أَسِفَ على الشَّيْءِ يَأْسَفُ أَسَفًا، والأَسِفُ الغَضْبانُ[1]، والمعنى المحوريُّ: جفافُ أثناءِ الشَّيء وذهابُ نحوِ البَلال منها؛ كالأرض التي لا تنبت فقدتْ خيرها وخصوبتها[2]، والأَسَفُ: الحُزن والغضب معًا، وقد يُقال لكلِّ واحدٍ منهما على الانفراد، وحقيقتُهُ: ثَورانُ دمِ القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان ذلك على مَن دونَه؛ انتشر فصار غضبًا، ومتى كان على مَن فوقه انقبض فصار حُزنًا[3]، والمعنى في الآية الكريمة: حزينًا غاضبًا.

2) ﴿يَعِدۡكُمۡ﴾: (وعد) أصلٌ يَدُلُّ على تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ[4]، والموعِدُ: موضع التّواعُدِ وهو الميعادُ، والمَوْعِدُ مصدرٌ وعَدْتُه، وقد يكون الموعِدُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أسف).
(3) الراغب، المفردات: (أسف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).

وقتًا للعِدَة، والموعِدَة: اسم للعِدَة[1]، والوعْدُ يكون في الخير والشَّرِّ؛ يُقال: وعَدْتُهُ بِنَفْع وضُرّ، وعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، والوعيدُ في الشَّرِّ خاصَّةً، يُقال منه: أَوْعَدْتُهُ، ويُقال: واعَدْتُهُ وتَواعَدْنا، قال اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22]"[2]، ومثله قول اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة.

3) ﴿أَفَطَالَ﴾: (طول) أَصْلٌ يَدُلُّ على فضْلٍ وامتِدادٍ في الشَّيْءِ[3]، ومنه: طالَ الشَّيْءُ يَطولُ طوْلاً، والأَطْولُ: نَقيْضُ الأَقْصَر، والطّوالُ: الأَهْوجُ الطّوْلِ، وامرَأةٌ طوالَةٌ، والطّولُ: جَماعَةُ الطَّويْلِ، والطّيالُ: لُغَةٌ في الطِّوالِ، وطالَ فلانٌ فلانًا: فاقَه في الطّوْلِ، والطِّولُّ: الطَّويْلُ، والطِّولُ: الحَبْلُ الطَّويْلُ جدًّا[4]، والمعنى في الآية الكريمة واضح.

4) ﴿فَأَخۡلَفۡتُم﴾: (خلف) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها أَنْ يَجيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ، والثَّاني خِلافُ قُدَّام، والثَّالِثُ التَّغَيُّرُ[5]، والمعنى المحوري: كَوْن أو بقية بعد ذاهب أو وراءه في ظهره، كالغُصن في الجِذْع بعد يبسه[6]، والخَلْفُ: ضدّ القُدَّام، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 255]، والخُلْفُ: المخالفة في الوعد، يُقال: وعدني فأخلفني؛ أيْ: خالف في الميعاد[7]، والمعنى في الآية واضح.

5) ﴿مَّوۡعِدِي﴾: فضلًا عمَّا سبق بيانه في معنى ﴿يَعِدۡكُمۡ﴾؛ فـ"واعَدَه الوقتَ، والموضِعَ، وواعَدَه فوعَده؛ يعني: كانَ أَكثر وعْدًا مِنْهُ"[8]، والموعد المقصود في الآية: العهد.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُكمل السّياق الكريم قَصَّ الأحداث فيذكر رجوع موسى عليه السلام إلى قومه بعد أن علم فتنة السامري، وقد أصابه من الغضب والحزن ما أصابه، فذَكَّرهم بجليل نعمة اللّه عليهم من الوعد الحسن بإنزال التوراة ومغفرة الذنوب، ثم قال لهم: "أوعَدَكم ذلك فطال عليكم

(1) الخليل، كتاب العين: (وعد).
(2) الراغب، المفردات: (وعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طول).
(4) ابن عبَّاد، المحيط: (طول).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خلف).
(7) الراغب، المفردات: (خلف).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (وعد).

العهد، وضِقتم ذرعا بطول الزمن؟! أم أردتم أن تفعلوا فعلًا يكون سببًا في حلول الغضب عليكم والعذاب من ربكم؟! فأخلفتم موعدي، ولم تقيموا على عهدي"[1].

مما يُغضِب المؤمنَ ويؤسفه اختلالُ دين قومه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾:

المسارعة إلى الرجوع وتدارك الفتنة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾"استئنافية"[2]، يحكي ترتيب الأحداث، وليست تَعْقيبيّة فوريّة تُسرِّع الحدث تلو الخبر، إنها تستأنف قَص موقف جديد، بعد ذكر مقامه عليه السلام بين يدي ربّه عز وجل؛ إذ كان يتلقّى الألواح، وأخبره الله تعالى بِفِتْنَة قومه على يد السَّامري.

أي "بعد ما استوفى الأربعين يومًا وأخذ التوراة، لا عَقيبَ الإخبار بالفتنة؛ فسببيّةُ ما قبل الفاء لِما بعدها إنما هي باعتبار قيدِ الرجوعِ المستفادِ من قوله تعالى ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾ لا باعتبار نفسه، وإن كانت داخلةً عليه حقيقةً؛ فإن كونَ الرجوعِ بعد تمام الأربعين أمرٌ مقرَّر مشهر، ولا يذهبُ الوهمُ إلى كونه عند الإخبار بالفتنة، كما إذا قلتَ: شايعتُ الحُجَّاجَ ودعوتُ لهم بالسلامة فرجعوا سالمين، فإن أحداً لا يرتاب في أن المراد رجوعُهم المعتادُ لا رجوعُهم إثرَ الدعاء، وأن سببيةَ الدعاءِ باعتبار وصفِ السلامة لا باعتبار نفس الرجوعِ"[3].

نكتة إظهار لفظ موسى مع أنَّ حقه الإضمار:

ذكر المرسلين والمؤمنين بأسمائهم لعلو منزلتهم

إظهار اسم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ تشريفٌ له عليه السلام، وإكرام لقومه - لو يعلمون -، وأنه عند الله تعالى بمكان؛ فهو الكليم الذي كلمه الله تعالى تكليمًا، وكلُّ مَن ذُكر اسمه في القرآن الكريم من الأنبياء والمرسلين والمؤمنين له عند الله تعالى خصوصية ومنزلة سامية.

(1) حجازي، التفسير الواضح: 2/ 501.
(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 268.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 34.

موقع جملة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ﴾:

جملة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ﴾ استئنافية؛ وهو "استئنافٌ مبني على سؤالٍ ناشئ من حكايةِ رجوعِه كذلك، كأنه قيل: فماذا فعل بهم عليه السلام؟ قيل: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ﴾"(1).

دلالة ﴿إِلَىٰ﴾:

هداية الأقوام غاية الرُّسل عليهم السلام بعد إرضاء الله تعالى

تُشعِر ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بانتهاء غاية موسى عليه السلام بعد رضاء ربه عز وجل إلى قومه؛ وذلك لأن اللّه تعالى عاتبه فيهم؛ فكان رجوعه إليهم ومحاولته استنقاذهم من ضلال السامريّ غايتَه الأولى، وأنه كان لا همّ له إلا تداركهم والأخذ بأيديهم؛ ولذلك عَنَّف أخاه هارون عليه السلام، وحرّق العجل، وتوعّد السَّامري.

نكتة الإضافة في قوله تعالى: ﴿قَوۡمِهِۦ﴾:

قـومُ الـرّجـل أخصّ به

جاءت إضافة القوم - في مقام الرّجوع - هنا إلى ضمير موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ - مطابَقةً لإضافتهم إليه - في مقام اللوم والعتاب - هناك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ﴾؛ وكأن تلك الإضافة هنا رمزُ التصحيح الذي تداركه موسى عليه السلام؛ تكفيرًا لخطئه في التعجل دونهم، وكأنه لَمَّا علّمه اللّه تعالى حقّ ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ عليه بالعتاب هناك - حزم أمره وعقد نيّته أن يكون رجوعه إلى ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ خاصّة، وجعلَهم شأنه، والعمل من خلال العناية بهم على إرضاء الربّ سبحانه وتعالى، الذي عاتبه فيهم.

دلالة التعبير بلفظ ﴿غَضۡبَٰنَ﴾:

يسوء الأنبياءَ والمرسلين فسادُ أقوامهم

الغضب انفعال للنفس، وهيجان ينشأ عن إدراك ما يسوؤها ويسخطها دون خوف، والوصف منه غَضْبان(2)، وهو على زنة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 35.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 281.

(فَعْلان) من أبنية الصفة المشبهة وتدل على الامتلاء والخلو وعلى حرارة الباطن نحو: عطشان وغرثان وريان، ومن معانيها: الطروء، والحدوث، وعدم الثبوت، وهي معانٍ تناسب حال موسى ﵇ المشعرةُ بامتلائه بالغضب مع حرارة باطنة متقدة؛ ثم إنّ الغضبَ وضعٌ طارئٌ له غير ثابت ولا مستمر، حدث إثر عودته الى قومه ولم يدم طويلًا بعد معاتبته الشّديدة لأخيه هارون.

دلالة التعبير بلفظ (الأسف):

غضب الأنبياء إذا انتهكت حرمات الله

الأسف: انفعال للنفس ينشأ من إدراك ما يَحْزُنها، وما تكرهه مع انكسار الخاطر، والوصف منه (أَسِفٌ)(1)، و"هو النهاية في الغضب، والنهاية في الحُزْن، وهكذا جبل اللّه تعالى رُسُلَه وأنشأهم على نهاية الغضب للّه ﷻ، والأسفِ له تعالى عند معاينتهم الخلاف للّه سبحانه والتكذيب له؛ كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف: 6] الآية، وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8] - واللّه تعالى أعلم - "(2).

سر الجمع بين صيغتي ﴿غَضۡبَٰنَ﴾ و﴿أَسِفٗاۚ﴾:

حزن الأنبياء على التفريط في دين الله تعالى

الجمع بين صيغتي المبالغة: (فَعْلان)، و(فَعِل) في وصفَي موسى ﵇: ﴿غَضۡبَٰنَ﴾ و﴿أَسِفٗاۚ﴾ يدلّ على أنه كان "شديد الغضب أو حزيناً"(3)، و"غضبُه من حيث له قدرةٌ على تغيير منكرِهم، وأسفُه - وهو حزنه - من حيث علِم أنه موضعُ عقوبة لا يَدَ له بدفعها، ولا بُدَّ منها"(4).

"وقد اجتمع الانفعالان في نفس موسى ﵇؛ لأنه يسوؤه وقوعُ ذلك في أُمَّته وهو لا يخافهم، فانفعاله المتعلّق بحالهم غضبٌ، وهو أيضا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 281.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 300.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 378.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 367.

يَحزنه وقوعُ ذلك وهو في مناجاة الله تعالى، التي كان يأمُل أن تكون سببَ رضى الله تعالى عن قومه، فإذا بهم أتوا بما لا يُرضي الله ﷻ ؛ فقد انكسر خاطره بين يدي ربه ﷻ"[1].

علة فصل جملة ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

الإمام لا يُشايع قومه على باطل

جملة ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ مستأنفَةٌ لـ "ابتداء وصفِ قيام موسى عليه السلام في جماعةِ قومه وفيهم هارونُ وفيهم السامري، وهو يَقرَعَ أسماعهم بزَواجر وعْظِه؛ فابتدأ بِخطاب قومه كلِّهم "فلمَّا دخل المحِلَّة رآهم حول العِجل، فأبصر ما يصنعون حوله ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾"[2]، وقد علِم أن هارون لا يكون مُشايِعًا لهم؛ فوجَّه الخطاب إليه بقوله: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ﴾ [طه: 92].

دلالة النداء بـ (يا):

لــوم الــرُّسـلِ أقوامَهم لا يخلو مِن شفقة ولين

النداء بـ (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ يوحي بأنه عليه السلام "وبَّخ قومه"[3]؛ وأنَّ "افتتاحَ الخطاب بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تمهيدٌ لِلَّوْمِ؛ لأن انجرار الأذى للرجل من ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ أحقُّ في توجيه الملام عليهم، وذلك قوله ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾"[4].

كما أن نداءهم بـ (يا) يحتمل أنه عليه السلام يُقرِّبهم بالأداة التي تشعرهم بِبُعْد المنزلة؛ "مستعطفاً لهم ﴿يَٰقَوۡمِ﴾"[5]؛ وأنه لا يَدلُّهم إلا على الخير، ويخشى عليهم غضب الله تعالى؛ لأنهم قومه.

بلاغةُ الاستفهام في: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ﴾:

تغليف الإنكار فــي أسـلـوب الاستفهام أرفق بالمنكَر عليه

الاستفهام في: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ﴾ "إنكاريٌّ؛ حيث نُزِّلوا منزلة مَن زعم أن الله تعالى لَم يَعِدهم وعدًا حَسَنًا؛ لأنهم أَجرَوا أعمالهم على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 281.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 408.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 58.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 282.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 326.

حالِ مَن يزعم ذلك؛ فأنكر عليهم زعمهم، ويجوز أن يكون استفهامًا تقريريًّا، وشأنه أن يكون على فرض النفي"[1]، وتغليفُ الإنكار في أسلوب الاستفهام أرفق بالمنكَر عليهم، والقائد لا يكون عونًا للشيطان على أتباعه، وإنما يتلطَّف بهم ما أجدى فيهم التلطُّفُ استقامةً.

سرّ التّعبير بلفظ (الوعد):

قالوا إنّ " الوعْدَ يَقْتَضي الإنْجازَ"[2]، ففي التّعبير بالوعد في جملة ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ "إشارة إلى أنَّ اللّه تعالى إذا وعَد قومًا لا بُدّ له من الوفاء بالوعد"[3]؛ فكان ذلك أدعى لاستمساك بني إسرائيل بدينهم، وأجدرَ ألّا يخضعوا لإضلال السامري ويعبدوا العجل، لكنهم مع ذلك عمَّا قريب ضلّوا ضلالًا كبيرًا.

إذا وعَـدَ اللـهُ تعالى وعدًا وفى به

دلالة المضارع المجزوم بـ (لم):

المضارعة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ تفيد معنى استمرار أمر وقَع، وهكذا "كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بـ (لم) إذا تقدّمتها همزةُ استفهام - كقوله هنا: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ فيه وجهان معروفان: الأول: أنّ مضارَعته تنقلب ماضِويّة، والثاني: أن نفيَه ينقلب إثباتا، فيصير قوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ بمعنى: وعَدَكم، ووجْه انقلاب المضارعة ماضوية ظاهرٌ؛ لأن (لم) حرفُ قلبٍ؛ تقلِب المضارع مِن معنى الاستقبال إلى معنى المّضيَ - كما هو معروف -، ووجه انقلاب النّفي إثباتًا أن الهمزة إنكاريّة؛ فهي مضمَّنة معنى النفي؛ فيتسلط النفي الكامن فيها على النّفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النّفي إثبات فيؤول إلى معنى الإثبات"[4].

(لـــم) تـقلـب صيغةَ المضارَعة ماضِويّة، ونفيَه إثباتا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 282.
(2) وزارة أوقاف الكويت، الموسوعة الفقهية الكويتية: 44/ 72.
(3) حقي، إسماعيل، روح البيان: 5/ 415.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 82.

نكتة إيقاع الوعد على ضمير الجماعة:

اللهُ تعالى نصير المظلومين

في إيقاعه ﷺ الوعدَ على ضمير الجماعة في قوله: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ﴾ إيحاءٌ بأنّ المنفعة مِن هذا الوعد تعمُّهم جميعًا، وأنّهم جميعًا - باعتبارهم مظلومين من فرعون، واللّهُ تعالى نصير المظلومين كائنين من كانوا - حين تداركَهم بالإنجاء من شرّ فرعون تداركَهم جميعًا، وحين وعدهم الوعود الحسنة وعدهم جميعًا؛ فكان ذلك أوقع في لومهم وتعنيفهم؛ لِما انحرفوا إليه من ضلال.

لطيفة إسناد الوعد إلى وصف الربوبية دون الألوهية:

وصف الربوبية رمز الرّحمة والعطاء

أَسند موسى ﷺ الوعدَ إلى وصف الربوبية دون وصف الألوهية في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ﴾ لِما في وصف الربوبية من الرحمة والعطاء؛ فأضاف ﷺ الوعد إليه تحقيقًا لوجه خُسرانهم؛ بتفويتهم ذلك الخير العميم، الذي كان ينتظرهم من ربهم ﷻ.

دلالة إضافة (الرب) إلى ضمير المخاطبين:

إضافة لفظ الربوبيّة إلى العبيد مظهر لطْف بهم

في إضافة وصف (الربّ) إلى ضمير المخاطبين في: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ﴾ إظهارُ لطفِه ﷻ بهم، وقد عاينوا ذلك اللطف بأم أعينهم؛ إذ رأوا فرعون وجنده يغرقون بما كان سببًا في نجاتهم، ومع ذلك غلبهم طبعُهم الذليل، فارتدّوا يعبدون عجلًا جسدًا لا قيمة له.

دلالة تنكير المفعول ﴿وَعۡدًا﴾:

وعد العظيم ﷻ عظيمٌ

تنكير المفعول ﴿وَعۡدًا﴾ يدلّ على أنّه وعَدهم بفضل كبير؛ لذلك يقول الشيخ الشنقيطي: "وأظهر الأقوال عندي في المراد بهذا الوعد الحسن: أنَّه وعَدَهم أنْ يُنزِّل على نبيّهم كتابًا فيه كلُّ ما يحتاجون إليه مِن خيرِ الدنيا والآخرة، وهذا الوعد الحسن المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ الآية"[1]؛ فنعم الوعد وعدُ الربّ الرحمن الرحيم!

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 81.

بلاغة وصف الوعد بـ ﴿حَسَنًاۚ﴾ دون (صدقًا):

وعْد الله تعالى لا يكون إلا حَسَنًا

الوعد الحسَن هو ما كان وعدًا صِدقًا وكان فيه زيادةٌ من الحسن والإحسان؛ ولذلك قالوا: "الوعدُ الحَسَنُ هو: وعْدُه ﷻ موسى عليه السلام بإنزال التوراة، ومواعدته ثلاثين ليلةً للمُناجاة، وقد أعلمهم بذلك، فهو وعدٌ لِقومه؛ لأنّ ذلك لصلاحهم، ولأن اللّه تعالى وعدهم بأن يكون ناصرًا لهم على عدوهم، وهاديًا لهم في طريقهم، وهو المَحكيّ في قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾"[1]؛ فـ"يكون وعدا حسنًا في منافع الدين، وفي منافع الدنيا"[2].

بلاغة الاستفهام بالهمزة:

طول المدد مظنة الغفلة والنسيان

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ للاستفهام، وهو استفهام "مفرَّعٌ على قوله ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ﴾، وهو استفهام إنكاريّ، أي: ليس العهد بوعد اللّه إياكم بعيدًا"[3]، ومن أغراض هذا الاستفهام أيضًا "التقرير، فالمراد من قوله ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ حملُهم على أن يُقرّوا بذلك فيقولوا: بلى هكذا"[4]، و"لمَّا جرت العادة بأن طول الزمان ناقضٌ للعزائم، مغيِّرٌ للعهود، وكان عليه السلام قريبَ العهد بهم - أنكر طول العهد بقوله مستأنفاً عما تقديره: (هل ترك ربكم مواعيدَه لكم وقطع معروفه عنكم؟)"[5].

معنى (الفاء) في: ﴿أَفَطَالَ﴾:

عهد الله تعالى وثيق، لا يجوز نقضه

(الفاء) هنا تفيد العطف على مقدَّرٍ، والتقدير: (أوعَدَكم بذلك فطال بكم الزمانُ فاختللتم؟)، يريد "أنَّ العهد الذي بينهم وبين اللّه تعالى لم يَطُل حتى ينسوه، وأنه ليس هذا عهدًا تَلَقَّوْه عن آبائهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 282.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 88.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 282.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 4/ 82.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 326.

وأجدادهم، بل هو عهدٌ معقود مع هذا الجيلِ نفسه؛ فكيف ينسى هكذا سريعًا؟"[1].

دلالة التّعبير بلفظ (طال):

وعْد الله تعالى وعهدُه محقَّقان قطعًا، طال زمانهما أم قَصُر

"المراد بطول العهد طولُ المُدَّة، أي: بُعدها، أي: لم يَبعُد زمنُ وعْدِ ربِّكم إياكم حتى يكون لكم يأسٌ من الوفاء؛ فتكفروا وتُكذِّبوا مَن بلَّغكم الوعد، وتعبدوا ربًّا غير الذي دعاكم إليه مَن بلّغكم الوعد؛ فتكون لكم شُبْهَةُ عُذرٍ في الإعراض عن عبادة الله تعالى ونسيان عهده"[2].

"وطول العهد يحتمل أمورًا: أحدها: أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من إنجائه إياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة في أوائل سورة البقرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: 16]"[3]، "والشيء قد يُنْسَى لطول العهد"[4]، لكن العهد هنا ما طال، لكن نقضوا وانقلبوا "كما يعتري أهلَ الرذائل الانحلالُ في العزائم لضعف العقول وقلة التدبر"[5].

بلاغة تقديم الجار والمجرور:

الجيل الأوّل مِن الأمّة أشدّها استمساكا بدينه

تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ في جملة: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ في سياق الاستفهام يفيد قوة الإنكار وشدّة التعنيف، ويُلمح إلى معنى القصر؛ فالمُدّة لم تطُل، وكأنه يقول لهم من خلال ذلك التقديم: إنّ هذه المدة لا يطول مثلها إلا على ضعاف الإيمان، لا على طليعة الأمة أمثالِكم؛ فإنها أربعون يوما فقط، أو عشرون يوما بلياليها - كما في بعض الروايات -، تلك التي فصلت بين ترك نبيّ الله تعالى إياهم وبين ارتدادهم وعبادتهم العجل.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 817.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 282.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 88.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 234.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 327.

نكتة ذكر العهد بعد الوعد:

في ذكر ﴿ٱلۡعَهۡدُ﴾ بعد (الوعد) في جملة: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ تطويقٌ منه ﷺ لهم في هذا المقام الأسِف؛ بالجمع بين نوعي العقود الشرعية بين العبد ودينه، فالعهد التزامٌ منهم يجب الوفاء به، والوعد مكافأة لهم، وتفضُّلٌ عليهم، وعدهم اللّه تعالى إياه.

يجب على المؤمن الوفاء بعهده، والوعد مكافأة الربّ تعالى فهو مضمون

دلالة تعريف ﴿ٱلۡعَهۡدُ﴾:

"العهد: معرفةُ الشيء وتذكُّره، وهو مصدرٌ يجوز أن يكون أُطلق على المفعول كإطلاق الخَلق على المخلوق، أي: طال المعهود لكم وبعُد زمنُه حتى نَسيتموه وعملتم بخلافه، ويجوز أن يبقى على أصل المصدر، وهو عهدهم اللّهَ تعالى على الامتثال والعمل بالشريعة"[1]، ويمكن أن يكون المقصود به في جملة: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ " الزمان، يريد: مُدّة مفارقته لهم، يقال: طال عهدي بك، أي: طال زماني بسبب مفارقتك، وعَدوه أنّ يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلَفوا موعِده بعبادتهم العجل"[2].

يتميز عهد الله تعالى عن عهود غيره

نوع ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

﴿أَمۡ﴾ في جملة: ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ﴾ "بمعنى (بل)، وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعُدولٌ إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحلّ عليكم غضبٌ من ربكم"[3]، ويجوز أنَّ تكون ﴿أَمۡ﴾ "حرفَ عطفٍ معادلٍ للهمزة"[4].

مَن نقض عهد الله كمن طلب نـزول غضبه تعالى عليه

بلاغة المجاز في ذكر إرادة حلول الغضب:

في جملة: ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٌ﴾ ذُكِرت إرادةُ حلول الغضب وهو المسبَّب (حلول الغضب) وأُريد سببها وهو (عبادة

الإقبال على المعصية اختيارًا بمثابة إرادة عقوبتها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 283.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 82.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 310.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 230.

العجل)، "والمعنى: (أم أردتم أن تصنعوا صنيعًا يكون سبب غضب ربكم)"[1]؛ فـ"سُمّي العذاب غضبًا من حيث هو ناشئ عن الغضب"[2].

والذي أوجب ذلك التأويلَ أن "قوله: ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ لا يمكن إجراؤه على الظاهر؛ لأن أحدًا لا يريد ذلك، ولكن المعصية لمَّا كانت توجب ذلك - ومُريد السبب مُريدٌ للمسبَّب بالعرض - ؛ صحَّ هذا الكلام"[3]، "فلا يكون كفركم إذَن إلا إلقاءً بأنفسكم في غضب اللّه تعالى، كحالِ مَن يُحبّ أن يحلَّ عليه غضب من اللّه تعالى"[4].

بلاغة الاستعارة التمثيلية:

الإقبال على المعصية اختيارًا يعدُّ دليلا على حُبِّ عقوبتها

بناءً على ذِكر المسبَّب ﴿غَضَبٞ﴾ وإرادة سببه (عبادة العجل) "ففي جملة: ﴿أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ استعارةٌ تمثيليّة؛ إذ شُبِّه حالُهم في ارتكابهم أسباب حلول غضب اللّه تعالى عليهم بدون داعٍ إلى ذلك - بِحال مَن يُحب حلول غضب اللّه ﷻ عليه؛ إذ الحُبُّ لا سببَ له"[5].

معنى ﴿أَن﴾ والتعبير بالجملة المصدرية:

الجملة المصدرية تُحقق من الإشارات ما لا يحققه المصدر المؤوَّل

﴿أَن﴾ في جملة: ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ﴾ مصدريّة، أي: أم أردتم حُلول غضب ربّكم عليكم؟ وإيثار التّعبير بالجملة المصدرية على الاكتفاء بالتّعبير بالمصدر المؤوَّل لإعطاء دلالات الجملة من مضارعة الفعل ﴿يَحِلَّ﴾، والتخويف بحرف الاستعلاء في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، وتقديمه، وما إلى ذلك ممَّا يأتي تفاصيله بعد - إن شاء اللّه تعالى -.

دلالة المضارعة في قوله تعالى: ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ﴾:

المضارعة في قوله تعالى: ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ﴾ تفيد تفاقُم

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 217.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 368.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 88.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 283.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 283.

يمكن أن تحل آثار غضب الله تعالى على مستحقيه في الدنيا والآخرة

حلول الغضب عليهم، وتتابُع أثره من العقوبات وتزايُدها إلى غير نهاية، وتجدُّدها عليهم هنا في الدنيا - حيث لا يمنع النَّصُّ ذلك - فقرًا ومرضًا وفَقْدًا، وغير ذلك، وتنوُّعه بتنوُّع أصناف العذاب المعدّ للكافرين هناك في الآخرة جحيمًا وزمهريرًا، وغير ذلك حيث الخلود في العذاب بلا موت - والعياذ باللّه تعالى من حال أهل النار.

بلاغة الاستعلاء المجازي:

النجاة من غضب الله تعالى غاية أسمى

(الحلول) معنى حقيقيٌّ، لكن تعدية الفعل ﴿يَحِلَّ﴾ بحرف الجرّ (على) في جملة: ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٌ﴾ يفيد أنّه حلولٌ مجازيّ، إلا إذا أريد به العذاب المترتب على الغضب، وآثر ﵇ ذكر حلول الغضب على حلول العذاب لأن غاية العبد الفوزُ بإرضاء ربه تعالى قبل الفوز بجنانه، والنجاة من غضبه ﷻ قبل الخوف من نيرانه.

لطيفة تقديم الجار والمجرور:

معصية الجيل الأوّل من الأمة تستوجب الغضب الأشد

تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في جملة ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٌ﴾ يتآزر مع بقية خصوصيات النظم في الجملة؛ إذ يُسهم في تهويل الخطر وتخويف القوم؛ لأن التقديم يوحي بأنهم كأنهم سيصيرون هم بخاصّة هدفَ الغضب، وأنهم لا يشاركهم فيه أحد غيرُهم؛ لأنهم جيل الرسالة، ورفاق الرسول ﵇، وشاهدوا المعجزات وعاينوا صدق ما أنزل إليهم، فتقديم القيد بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ عنصر تأكيد، يقضي بحلول الغضب عليهم لا محالة - إن داموا على عبادة العجل ولم يتوبوا منه إلى اللّه تعالى -.

فائدة إيثار مفردة الغضب:

عاين اليهود من آثار الغضب الإلهي ما كان جديرًا بحملهم على الاستقامة

في اختيار مفردة الغضب في جملة ﴿يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٌ﴾ تهديدٌ خطير؛ لأن التلويح بحلول غضب الربّ ﷻ عليهم صراحةً باعثٌ لليأس في نفوسهم من النجاة إنْ هم ظلّوا على شِركهم بعبادة العجل، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة إلا بالتوبة النصوح، والنّدم التامّ على تلك

الانتكاسة المخزية، والعزم على عدم العود إلى الشرك، وهؤلاء القوم بخاصّة قد عاينوا معجزات اللّه تعالى على يد موسى ﵇، مِن تحوّل العصا إلى حيّة ضخمة تسعى، تَلتهِمُ حبالَ السحرة وعِصيَّهم، ثم تعود إلى يديه ﵇ عصًا صغيرة، ومن شَقّ البحر بضربة عصا طُرُقًا يابسةً، ومن إغراق فرعون وجنده في نفس طرق نجاتهم، فهؤلاء القوم بخاصّة قد عاينوا آثار غضب الربّ سبحانه حينما يغضب؛ فلِتَخويفهم بغضبه ﷻ أبعادٌ أخرى لا يفهمها غيرهم.

دلالة تنكير لفظ: ﴿غَضَبٌ﴾:

غضب الجليل خطير مهما كان قليلًا

تنكيرُ ﴿غَضَبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٌ﴾ يفيد التهويلَ من خطره مهما كان قليلًا، ويعظِّم الترهيب منه في نفوس المرتدّين بعبادة العِجل، وفي نفس كلّ عاصٍ؛ فهو مهما ظنّه الظانُّ يسيرًا غضبٌ خطيرٌ، لا يُحاط بهول عقوبته.

معنى ﴿مِّن﴾:

أفظعُ الغضب ما يكون مصدرُه ومبتدَؤه من الربّ ﷻ

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تَزيد التهديد في نفوسهم تخويفًا؛ ذلك أنها تُفصح عن مصدر الغضب ومبتدَئه؛ إنه ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ فما أشدّه وما أضرَّه! فهل يُطيقونه أو يقومون له؟ لا شكّ أنهم به مهلكون، وهم - كما سبق التنبيه - مِن أوعى الناس بخطورة غضبه ﷻ، وشدّة انتقامه وبطشه إنْ غضب.

براعة الإضافة في التهديد بأن يكون الغضب ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

لا يليق الانتكاس إلى ما لا يليق بحق الربّ الكريم ﷻ

في إضافة ضمير بني إسرائيل إلى الربّ ﷻ في تهديد موسى ﵇ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ دلالتان دقيقتان:

الأولى: تهديدية دقيقة؛ لأن الربّ الذي هو مصدر العطاء والتربية والخير، و"مالك أمرِكم على الإطلاق"[1] - سيكون هو مصدر نقمتكم وعذابكم حين يغضب.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 35.

الأخرى: كبيرة جليلة أيضًا؛ تتمثل في إخجال القوم - إن كانوا يفهمون - ؛ لأن حقّ الربّ سبحانه الذي يربي، ويتعهّد عباده بالعطايا والمنح كان يستوجب عليهم أن يكونوا ذوي أصْل، وأن يَخجلوا من الانتكاس إلى عبادة عِجْلٍ، عبادةً تَنِمّ عن تفاهتهم، وسفاهة أحلامهم.

بلاغة الاحتباك:

الاحتباك يحقق للتركيب إيجازًا بارعًا، ووثاقة متينة

في قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ﴾ احتباك بلاغي دقيق؛ إذ "سألهم عن تعيين أحد الأمرين، مع أن طول العهد لا يمكن ادّعاؤه، فقال - ما معناه -: (أطال عليكم العهد بزيادة عشرة أيّام فنَسيتُم، فلم يكن عليكم في الإخلاف جُناح؟ أم أردتم أن يحلَّ عليكم الغضب فعاندتم؟)؛ فكان الاحتباك بِذِكر طول العهد الموجب للنسيان أولاً؛ الذي هو دليل على حذف العناد ثانياً، وبذِكر حلول الغضب ثانياً؛ الذي هو دليل على انتفاء الجناح أولاً، وذلك إيجاز يحقق للتركيب المتانة والتواثق البارع.

وسِرُّ ذلك أنَّ ذكر السبب، - الذي هو طول العهد -، أدلُّ على النسيان، - الذي هو المسبَّب -، وأنّ إثباتَ الغضب، - وهو المسبَّب -، أنكأُ من إثبات سببه، - الذي هو العناد -"[1].

معنى (الفاء):

العاصي يكون بين الضعف البشري، والاستهانة بالعقوبة

(الفاء) في جملة: ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ "تفريع على الاستفهام الإنكاري الثاني"[2]، و"ترتيب ما بعدها على كل واحدٍ من شِقَّي الترديد؛ على سبيل البدلِ، كأنه قيل: أنسيتم الوعدَ بطول العهد فأخلفتموه خطأً؟ أم أردتم حلولَ الغضب عليكم فأخلفتموه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 327.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 283.

عمداً؟"[1]، فالحاصل أن العبد العاصي يكون بين سيطرة الضعف البشري عليه، والاستهانة بعقوبة المعصية.

دلالة التعبير بالإخلاف:

إخلاف موعد الرسول ﷺ من شرّ الذنوب والمعاصي

في التعبير بالإخلاف في جملة: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ تصريح بالمخالفة الظاهرة الصريحة المتعمَّدة؛ وفي ذلك التصريح تحقيق الجُرم عليهم، وإلزام الحُجة إياهم؛ لأنه صريح في سَبْق عَقْدِ موعدٍ بينهما، وأنهم نقضوه، وخذلوا أنفسهم بنَكْثه، وفي ذلك ما فيه من بيان صَغارهم، وما فيه من حطٍّ من شأنهم.

دلالة التعبير بالإرادة:

من عمل الخطيئة تحمّل هو تبعاتها

التّعبير بالإرادة في جملة: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ يُلقي باللائمة عليهم هم، وعلى نيَّتهم، وتعمُّدهم عمل ما يجلب غضب الرب ﷻ عليهم، فـ"معنى إرادتهم حلول الغضب عليهم، أنهم فعلوا ما يستوجب ذلك - وهو طاعتهم للسامري في عبادتهم للعجل -"[2]، وفيه تنبيه لهم بأنكم "تعمدتم الخلاف؛ فيحل عليكم غضب من ربكم"[3].

مرجع ضمائر الخطاب في الآية:

تكرار ضمير المخاطب في تراكيب الإنكار عليه أكثر إيلامًا له

الضمائر في: ﴿يَعِدْكُمْ﴾، ﴿رَبُّكُمْ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾، ﴿أَرَدتُّمْ﴾ - إلى آخرها - تعود كلها إلى بني إسرائيل الذين ارتدوا إلى عبادة العجل؛ والذين خاطبهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾، وكثرة تلك الضمائر - التي بلغ عددها في هذه الآية وحدها سبعة - يزيد من تأثير اللوم، ويفاقم عليهم ضغْط الإنكار والتهديد؛ مما سيضطرهم إلى التنصُّل الكاذب من تلك المسؤولية - مسؤولية الرِّدَّة -، كما سيأتي في الآية الآتية.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 35.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 138.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 300.

سر التعبير بالموعد ودلالة الإضافة:

في جملة ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ تصرُّفٌ بارع في الإضافة؛ لأنه يحتمل أن يكون الموعد قد صدر من موسى عليه السلام لبني إسرائيل، كما يحتمل أنْ يكون الموعدُ قد صدر منهم لموسى عليه السلام، وفي التأويل الثاني لـ﴿مَّوۡعِدِي﴾ "وجهان: أحدهما: أن المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجيء على أثره، والثاني: ما وعدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع إليهم"[1].

قبول الإيمان عهدٌ على النفس لله تعالى ولدينه ولرسوله عليه السلام

وفي إضافة المصدر إلى مفعوله في ﴿مَّوۡعِدِي﴾؛ قصدٌ إلى زيادة تقبيحِ حالِهم؛ فإن إخلافَهم الوعدَ الجاريَ فيما بينهم وبينه عليه السلام منْ حيثُ إضافتُه إليه عليه السلام أشنعُ منه من حيث إضافتُه إليهم[2]، والمعنى على التأويل الآخَر أنهم "ظنوا بنبيّهم ظنّ السّوء في خُلفه الوعد، فلحِقهم شُؤّم ذلك حتى زاغوا عن العهد، وأشركوا في العقد، وكذلك يكون الأمر إذا لم يَفِ المرء بعقده"[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العهد والوعد:

"(العهد) ما كان من الوعد مقرونًا بشرط، نحو قولك: إن فعلتَ كذا فعلتُ كذا، وما دمتَ على ذلك فأنا عليه، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115] أي: أعلمناه أنك لا تُخرج مِن الجنة ما لم تأكل مِن هذه الشجرة، و(العهد) يقتضي الوفاء، و(الوعد) يقتضي الإنجاز، ويقال نَقَضَ العهد وأخلفَ الوعد"[4].

العهدُ ما كان مشروطًا ويقتضي الوفاء، والوعد ما كان بلا شرط، ولا يشترط الوفاء

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 88.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 35.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 471.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 379.

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾ [طه: 87]

كلُّ عذر يتعلّل به من كفر بعد إيمانه مرفوض، مردود عليه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عنَّف موسى عليه السلام في الآيات السابقة بني إسرائيل بسبب ارتدادهم وعبادتهم العِجل - اقتضى ذلك منهم أن يُقدِّموا له هنا اعتذارهم عن ذلك، وأن يتعللوا بالأعذار المُمكنة وإن كانت واهيةً، ومنها أنهم غُلِبوا على أنفسهم، وأنهم لم يملكوا لذلك دفْعًا؛ فكان ما كان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَلۡكِنَا﴾: (ملك) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أَملَكَ عَجينَهُ: قَوّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوّيْتُهُ[1]، والمعنى المحوريُّ: إمساكٌ أو امتساكٌ بشدَّةٍ أو قوةٍ مع شمولٍ، ومِلاكُ الأَمر: قِوامه، وخلاصته، أَو: عنصره الجَوْهَري، يُقال: القلب مِلاك الجَسَد[2]، والمقصود بقولهم ﴿بِمَلۡكِنَا﴾ أيْ: بإرادتنا الحُرَّة.

2) ﴿أَوۡزَارٗا﴾: (وزر) أَصْلانِ صَحيحانِ: أَحَدُهُما المَلْجَأُ، والآخَرُ الثِّقَلُ في الشَّيْءِ، الأَوّلُ الوَزَرُ: المَلْجَأُ[3]، والأوزار: الأثْقال؛ من ذلك قول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [مُحمَّد: 4]؛ معناه: أثقالُها"[4]، وفي بعض المعاجم: "أَوْزَرَ الشَّيْءَ: ذَهَبَ به، واسْتَوْزَرَ: نَحْوُه"[5]، وعليه يكون المقصود ما ذهبوا به، والمقصود بالأوزار في الآية الأثقال؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ملك).
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (ملك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وزر).
(4) الأنباري، الزَّاهر: (وزر).
(5) ابن عبَّاد، المحيط: (وزر).

وهي الحُليُّ الذي كان بنو إسرائيل قد استعاروها من القبط قبل خروجهم مع موسى عليه السلام.

3) ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾: (قذف) أَصلٌ يَدُلُّ على الرَّميِ والطَّرْحِ[1]، والمعنى المحوريُّ: دَفْعٌ بغلظٍ إلى مسافةٍ بعيدةٍ؛ كالسفينة في الماء بجريها مع ضخامتها[2]، وقَذَفَ بالحِجارَةِ يَقْذِفُ بالكسرِ قَذْفًا: رَمَى بها يُقالُ: هُم بَيْنَ حاذِفٍ وقاذِفٍ، فالحاذِفُ بالعَصا، والقاذِفُ بالحِجارةِ، نَقله الجَوْهَريُّ، ويُقالُ أَيضًا: بَين حاذٍ وقاذٍ، على التَّرخيم، وقالَ اللَّيْثُ: القَذْفُ: الرَّميُ بالسَّهْمِ والحَصَى والكَلامِ وكُلِّ شيءٍ[3]، والمقصود في الآية: ألقيناها ورميناها.

4) ﴿أَلۡقَى﴾: (لقي) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها يَدُلُّ على عِوجٍ، والآخَرُ على تَوافي شَيْئَيْنِ، والآخَرُ على طَرْحِ شَيْءٍ[4]، والمعنى المحوريُّ: تحصيلٌ بالمقابلة مواجهةً أو تماسًّا؛ أَيْ: بقوَّةٍ[5]، ولَقَّاهُ الشَّيءَ تَلْقِيَةً: أَلْقاهُ إِلَيْه، وبه فسَّر الزجَّاجُ قولَه تَعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: 6]؛ أَي: ﴿يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [القصص: 86] القُرْآن وحيًا مِن عِنْدِ اللَّه تَعالَى[6]، والإِلْقاءُ: طرحُ الشَّيء حيث تلقَّاه؛ أي: تراه، ثم صار في التّعارف اسمًا لكلِّ طرحٍ[7]، وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الاعتذار عن الكفر بعد الإيمان مما لا يُعذَر فاعله

في هذه الآية الكريمة بدأ بنو إسرائيل "يعتذرون بالعُذْر البارد، يخبرونه عليه السلام عن تورُّعِهم عما كان بأيديهم من حُليّ القِبط، الذي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قذف).
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (قذف).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قذف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لقى).
(5) جبل، المُعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (لقى).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (لقى).
(7) الراغب، المفردات: (لقى).

كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر"[1]. "قالوا: ما فعلنا ذلك باختيارنا، ولكنا كنَّا نحمل أَعباءً وأحمالًا مِن ذهب المصريين فظنَنَّاها موضعًا للمؤاخذة؛ لأنها ليست ملكًا لنا، وإنما استعرناها من المصريين في عيدنا لنردها إليهم بعد حين، فأَلقينا بها في النار تخلصًا منها كما فعل السَّامريّ وكما أَمَرَنا"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

فُصلتْ هذه الجملة عما قبلها لأن جملة ﴿قَالُواْ﴾ للاستئناف البياني؛ لأنها " جرَتْ في المحاورة جوابًا عن كلام موسى عليه السلام "[3]، فبين الآيتين كمال اتصال.

مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا﴾:

ينال الصالح من غبار ذنوب الطالح ما يوجب عليه منعَه منه

الضمير في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا﴾ يعود إلى "الذين لم يَعبدوا العجل فكأنهم قالوا: (إنا ما أخلفنا موعدك بملكنا)، أي: (بأمرٍ كنا نملك)، وقد يضيف الرّجل فعل قريبه إلى نفسه كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: 50]، ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسًا﴾ [البقرة: 72] وإن كان الفاعل لذلك آباءهم لا هم؛ فكأنهم قالوا: الشُّبْهة قويت على عَبَدَة العِجل؛ فلم نقدر على منعهم عنه، ولم نقدِر أيضًا على مفارقتهم؛ لأنا خِفْنا أن يصير ذلك سببًا لِوُقوع التفرقة وزيادة الفتنة، أو هو قول عَبَدَة العِجل، والمراد أن غيرنا أوقع الشُّبْهة في قلوبنا، وفاعل السبب فاعلُ المسبَّب، ومخلِفُ الوعد هو الذي أوقع الشبهة فإنه كان كالمالك لنا"[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 310.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1055.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 283.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 89.

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا﴾:

أُسْنِد القولُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا﴾ إلى جميع بني إسرائيل مع أن "القائل بعضهم، الذين تصدَّوْا مجيبين عن القوم كلهم وهم كبراء القوم وأهل الصلاح منهم"[1]، فهو "عامّ يراد به الخاصّ، أي قال الذين ثبتوا على طاعة اللّه تعالى: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾، أي: لم نملِك ردّهم عن عبادة العجل"[2]، وإذا كان ذلك اعتذار أهل الصلاح الذين لم يعبدوا العجل فإنهم فهموا أن اللوم والإنكار موجَّهٌ إليهم جميعًا - مَن عَبَد العجل ومن لم يعبده.

إذا وقعت المعصية توجه اللوم والعتاب على من رآها وسكَت عنها

معنى ﴿مَآ﴾:

﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ نافية، اقتضاها إنكارُ موسى عليه السلام في قوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ ... ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ فنفوا تعمُّدَ مخالفته صريحًا كذلك؛ فبنوا كلامهم على تقديم أداة النفي صريحة.

سر تكرارهم الموعد باسمه الصريح في ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ﴾:

كرَّرَ المعتذِرون لموسى عليه السلام موعدَه صريحًا في قولهم: ﴿مَوۡعِدَكَ﴾، ومضافًا إلى ضميره، وكان السياق لإضمار الموعد فيقولوا: ما أخلفناه بملكنا.، لكنهم أعادوه منفيًّا بِنَفس الصورة ﴿مَوۡعِدَكَ﴾ مُطابَقَةً لِذِكره في جملة الإنكار: ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾؛ في محاولة للتنصُّل من تلك التهمة الخطيرة، وتأكيدًا على يقظتهم للحفاظ على (موعده) الذي يتهمهم بإخلافه، و"الموعد الذي أخلفوه أنْ وعَدهم أربعين، فعدّوا الأربعين عشرين يوماً وليلة، وظنّوا أنهم قد استكملوا الميعاد، وأسعدهم السامريُّ أنهم قد استكملوه"[3].

مِن أصول الجواب البناءُ على مقدمات السائل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 283.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 38.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 418.

بلاغة الطباق بين (الإخلاف) و(الموعد):

الجمع بين الضدين يزيد الحسَن حُسنًا والقبيح قُبحًا

بين (الإخلاف) و(الموعد) في قولهم: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ﴾ طباقٌ خفيّ؛ إذ الموعد يتعلق في الغالب بالوفاء، وبين الإخلاف والوفاء طباقٌ؛ فطابَق النظمُ الكريم بين الإخلاف ومتعلَّقِ ضدِّه، ومطابقتهما تستثير النفس بما بينهما من صدمة التضاد، وتُبَغض إليها الإخلاف.

معنى (الباء) في قولهم: ﴿بِمَلۡكِنَا﴾:

إنما يملك اتخاذ القـرار سيّدُ نفْسِه

(الباء) في قولهم: ﴿بِمَلۡكِنَا﴾ تفيد معنى المصاحبة، أي: لم نُخلف موعدك مستصحبين امتلاك قرارنا في اتخاذ القرار بذلك الإخلاف، وبهذا التأويل يتأكد رأي عبد القاهر القائل بأن النفي الداخل على جملة فيها قيد يمحِّض النفي ويصوِّبه على القيد بخاصة(1)، والقيد هنا بالجارِّ والمجرور ﴿بِمَلۡكِنَا﴾؛ فيكون النفي بـ ﴿مَآ﴾ في قولهم: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ مسلَّطًا عليه...

كما تفيد (الباء) في قولهم: ﴿بِمَلۡكِنَا﴾ معنى السببية، أي: لم نُخلف موعدك متسبِّبين به إلى ذلك الإخلاف، متعمِّدين إياه، معتمدين عليه، وهكذا يصطفي النظم الكريم من الأدوات والعناصر التركيبية ما يلملم معاني القوم وما حاولوا الإيحاء به معتذرين.

سر التعبير بالملك دون الإرادة:

الانـهـماك في طلب الدنيا يؤدي إلى الخطرِ في الدين

عبّر قوم موسى عليه السلام بصريح لفظ (الملك) دون الإرادة في قولهم: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ لِتسليط النفي على أخصّ ألفاظ القُدرة على الإخلاف؛ وهو القدرة على امتلاك القرار، والمعنى: (لم يقع منا "بِطاقَتِنا، أو لم نملك اختيارنا، أو لم نملك

(1) قال رحمه الله تعالى: "مِن حُكْم النفي إذا دَخل على كلامٍ، ثُمَّ كان في ذلكَ الكلام تقييد على وَجْهٍ من الوجوهِ، أن يتوجَّه إلى ذلكَ التقييدِ، وأن يقعَ له خصوصًا"، ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 279.

أنفسنا)"[1]، وبهذا حاولوا نفْي القضية من أصلها، ونفْضها عنهم بالكليّة، قال القشيري: "وكذلك الحرامُ من حطام الدنيا لا يَخلو من شؤم أثره؛ فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين حرامًا عليهم، فاستعاروا الحُليَّ من القبط، وآل إليهم ما كان في أيديهم مِن الملك، فكان سبب عبادتهم العجل، كذلك مَن انهمك في طلب الدنيا مِن غير وجهٍ حلال، يكون على خطر من رقّة دينه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23]"[2].

توجيه القراءات في قولهم: ﴿بِمَلْكِنَا﴾:

المبالغة في الاعتذار عن الجُرْم الذي كان منهم

قَرَأَ نافع وأبو جعفر وعاصِمٌ بِفَتْحِ الميم ﴿بِمَلْكِنَا﴾، وقَرَأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بِضَمِّها ﴿بِمُلْكِنَا﴾، وقَرَأَ الباقونَ بِكَسْرِها ﴿بِمِلْكِنَا﴾.

فمَنْ قَرَأَ ﴿بِمَلْكِنَا﴾ فهو مَلْكُ الرجل، تقول لكل شيء ملَكْتَه: هذا مِلْكُ يميني، ومن قرأ بالكسر ﴿بِمِلْكِنَا﴾ فمعناه: ما ملكته؛ أي: بقُدْرتنا، ومَنْ قَرَأَ ﴿بِمُلْكِنَا﴾ فمعناه: بِسُلْطاننا[3].

وعلى ما في المعاني الثلاثة من تقارب إلا أنه يبيّن عن شِدَّة اعتذار قوم موسى عليه السلام عن فِعلتهم، فكأنّهم يقولون: (ما مَلَكْنا الصواب بفعلنا، بل أخطأنا، وكان ذلك فوق قدرتنا وطاقتنا بسبب ما كان من مَكْر السّامريّ وإضلاله).

وإن كان هذا اعتذارَ الصالحين عن جريمة المرتدّين فمعناه: "(لم نُطِقْ ردَّ عَبَدَةِ العجل مِن عظيم ما ارتكبوا لكثرتهم وقلتنا)، وقد جاء في الرواية أن الذين لم يعبدوا العجل كانوا اثني عشر ألفًا، وافتتن الباقون بالعجل، وكانوا جميعًا ستَّ مائة ألف"[4].

(1) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 2/ 552.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 471.
(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 157.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 217.

معنى (الواو) في: ﴿وَلَٰكِنَّا﴾:

(الواو) في ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ للعطف، أو الاستئناف، والقوم "فسَّروا العُذر المجمل، فقالوا: ولكنَّا حُمِّلْنا أوزارًا من زينة القوم"[1]، أو الواو للحال؛ أي: والحال والواقع أنه حصل كذا وكذا؛ فلا تلُمنا.

توجيه التعبير بـ ﴿وَلَٰكِنَّا﴾:

في اقتطاع مال الناس بأي حيلة مذمّة على فاعله

أفادت ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ في قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا﴾ "استدراكًا عما سبق، واعتذارًا ببيان منشأ الخطأ، أي: (حملنا أحمالاً مِن حُليّ القبط التي استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر باسم العُرْس)، وقيل: كانوا استعاروها لِعيدٍ كان لهم، ثم لَم يردّوها إليهم؛ مخافة أن يقفوا على أمرهم، وقيل: لَمَّا رَمَى البحرُ أجسادَ القبط وكان غالبُ ثيابهم الذهبَ والفضة - التقطها بنو إسرائيل، فهي زينة القوم التي صيغ منها العِجل"[2]، و"الاستدراك راجعٌ إلى ما أفاده نفي أنْ يكون إخلافُهم العهد عن قصدٍ للضلال، والجملة الواقعة بعده وقعتْ بإيجاز عن حصول المقصود من التنصُّل مِن تَبِعَة نكْث العهد.

توجيه القراءات في قولهم: ﴿حُمِّلْنَآ﴾:

تنوُّع القراءات يُثري الدلالات

قُرئَ الفعل ﴿حُمِّلْنَآ﴾ بفتح الحاء والميم المخفّفة: ﴿حَمَلْنَآ﴾ بإسناد الحمل إليهم وهي قراءة أبي عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ورَوْح وخلف، وبضمّ الحاء وتشديد الميم المكسورة: ﴿حُمِّلْنَآ﴾، وهي قراءة الباقين[3]، "على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، أَي: أُمِرْنا بِحَملها، وحمَّلَنا السامريُّ"[4].

"فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: حَمَلْنا مع أنفسنا ما كُنَّا استعرْناه مِن القوم، ومَن قرأ بالتشديد فمعناه أنّ موسى عليه السلام حمَلهم على

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 89.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 411.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 322.
(4) ابن زنجلة، حجة القراءات: ص462.

ذلك، أي: أمرهم باستعارة الحُليِّ والخروج بها، فكأنه ألزمهم ذلك، أو: جَعلنا كالضامن لها إلى أنْ نؤدّيها إلى حيث يأمرنا اللّه تعالى، أو: أنّ اللّه تعالى حمَّلهم ذلك، على معنى أنَّه ألزمهم فيه حُكْم المَغْنَم"[1].

سر التعبير بالأوزار دون الأحمال:

النظم القرآني يصطفي من المفردات أعظمها دلالات

التعبير بالأوزار دون الأحمال في قولهم: ﴿حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا﴾ يمُدّ السياق بِفيّض من المعاني والدلالات لا يمدّه به التعبير بالأحمال، فمن دلالات ﴿أَوۡزَارٗا﴾: الإشارة إلى أنها "تبعاتٌ وآثامٌ حيث لم تكن الغنائمُ تحِلّ حينئذ"[2]، وأنها "حليّ القبط التي استعرناها منهم"[3]؛ وسمّيت ﴿أَوۡزَارٗا﴾ "لكثرتها"[4]، ثم في اصطفاء التعبير بالأوزار أيضا تلوينٌ للأسلوب؛ وذلك بذكر التحميل في ﴿حُمِّلۡنَا﴾، وذكر الأوزار في ﴿أَوۡزَارٗا﴾ فذُكِرا معا، ولو جاء المفعول (أحمالًا) - في غير القرآن الكريم - لحصل التكرار هكذا: ولكنَّا حمِّلنا أحمالًا، وذلك ثقيل - كما ترى.

بلاغة تنكير ﴿أَوۡزَارٗا﴾:

الفطِن يتبصَّر آثار قراره قبل اتخاذه فلا يزِلّ، وغيره ينزلق فيضلّ

حاول المعتذِرون بتنكير ﴿أَوۡزَارٗا﴾ إقناعَ موسى ﷺ بكثرة تلك الأوزار وثِقَلها؛ إلى درجة أنهم اضطروا إلى قذفها والرمي بها؛ مما ترتَّب عليه استغلالُ السامريِّ الموقفَ وصناعة العجل، وإيهامهم وخداعهم بأن هذا العجل هو الإله الذي ذهب موسى ﷺ للقائه، وأن "السَّامريّ قال لهم: إنّها أوزار الذنوب، والمال الحرام؛ فانبذوه في النَّار، وكان صائغًا"[5]؛ وأنهم وثقوا فيه ففعلوا، فسقطوا في مهاوي الشرك.

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 89.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 35.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 82.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 89.
(5) النيسابوري، محمود بن أبي الحسن، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 2/ 553.

كثرة متاع الدنيا أوزارٌ تُثقل ولو كانت حلالًا

دلالة جمع الأوزار:

ويلتقي مع تنكير ﴿أَوۡزَارٗا﴾ في قولهم: ﴿حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا﴾ جمعُها؛ لتأكيد ضعفهم عن مقاومة أسباب الردّة إلى عبادة العجل؛ فقد "كانت كثيرة من جهة، وكانت نهبًا واختطافًا من جهة أخرى"[(1)]؛ فكان الثِّقَل حسّيًّا ومعنويًّا؛ وذلك فيما يحسبون أعذارٌ مقبولة، ولكن الشرك بالله تعالى لا عُذر له.

معنى ﴿مِّن﴾ في قولهم: ﴿مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾:

﴿مِّن﴾ هنا للتبعيض؛ فتفيد بطريق الكناية أن القِبط كانوا ينهبون الذهب، فكل ما استعاره منهم اليهود، وما قذفه البحر إلى الساحل بعد غرقهم فيه - بعضُ ما لديهم من زينة.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ عهدية، أي: القِبط الذين غرقوا، "يعني ما أخذوا مِن قوم فرعون حين قَذَفَهم البحرُ مِن الذهب والفضة، فكذلك فعل السامري فاتَّبَعناهُ"[(2)].

دلالة (الفاء) في قولهم: ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾:

سرعة استجابتهم لإضلال السامري

(الفاء) في قولهم: ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ عاطفة، تفيد الفورية والمباشَرة، أي أنهم قذفوا أوزار الزينة وأحمالها في النار فور عِلمهم بأنها سببٌ للآثام، أو فور علمهم أنها سببُ احتباس موسى عليه السلام عنهم، يعتذرون بأنهم لم يحتفظوا بها، بل فرّطوا فيها تحقيقًا للصواب الذي أقنعهم به السَّامريّ.

سر استعمال مفردة القذف دون الرمي:

أهل الضلال يتخذون من القيم الطيبة ذريعة إلى فرض ضلالهم

في تعبير القوم بمفردة القذف دون الرمي في قولهم: ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ إيحاء بِهوان تلك الزينة عليهم، وزُهْدِهم في الإبقاء عليها؛ برغم

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 818.

(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 189.

نفاستها المفهومة من تنكيرها، وكثرتِها المأخوذة مِن جمعها في ﴿أَوۡزَارٗا﴾، و﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ يعني: ألقيناها ورميناها، أي: "في النار؛ طلبًا للخَلاص مِن إثمها، وقيل: المعنى: (طرحناها إلى السامري لِتبقى لديه حتى يرجع موسى عليه السلام فيرى فيها رأيه)"[1].

لطيفة حَذْف متعلّق القذف:

التخلُّص من الحرام غاية المؤمن بغض النظر عن مكان رميه

حُذِف متعلِّق القذف في قولهم: ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾؛ ولا بُدَّ من مكان يُقذَف فيه المقذوف، وقد "ذكروا في تحديد ذلك الموضع وجوها، منها أنها "حفرة كان هارون عليه السلام أمَرهم بِجَمع الحُليّ فيها؛ انتظارًا لِعَوْدِ موسى عليه السلام، أو: قذفوها في موضعٍ أمَرَهم السامريُّ بذلك، أو: قذفوها في موضعٍ جَمعٍ فيه النار"[2]، ولطيفة حذف هذا المتعلق قصدهم توفير عنايته عليه السلام على دلالة القذف والتخلُّص من الحرام، بغضّ النظر عن مكانه، وعدم تعلُّق ذهنه بمتعلق القذف.

معنى الفاء في ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾:

أهل الضلال يتقنون التمويه على ضلالهم

الفاء في قولهم: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ عاطفة[3]، تفيد سُرعة قذف السامريّ ما كان معه فور قذفهم أوزار الزينة، وفي ذلك دَعْمٌ لاعتذارهم؛ وتأكيد على أن خداع السامري إياهم كان محبوكًا، وأنه تمكّن من الإيقاع بهم دون قصْد منهم.

بلاغة التشبيه:

عوام الناس ينخدعون بأفعال كبرائهم

التشبيه في قولهم: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ تشبيه مجمل خاطف، يجمع بين فِعل السامريِّ العام وفِعل القوم في مطلق الإلقاء؛ ذلك أن الإلقاءَيْن مختلفان؛ فبنو إسرائيل ألقَوْا حُليًّا، والسامريّ "أراهم أنه يُلقى حُليًّا في يده مثل ما ألقوا، وإنما ألَقَى التُّربة التي

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 449.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 89.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 268.

أخذها مِن مَوْطِئِ حَيْزومَ فرسِ جبريل، أوحى إليه وليُّه الشيطانُ أنها إذا خالطتْ مَواتًا صار حيوانًا"[1]، لذلك أجمل النظم التصوير.

لطيفة التعبير باسم الإشارة للبعيد:

عبّر القوم بإشارة البعيد في قولهم: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ إبعادًا لذلك الحدَث المُخزي، وتبرُّؤًا منه، وإيحاءً بإبداء الندم والشعور بالخجل، من خلال لام البعد في إشارة البعيد (ذلك).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القذف والرمي والإلقاء:

القذف أشدُّ من الرميُ، وكلاهما في المحسوسات والمعنويّات

"القَذْفُ: الرَمي بقوة، والقَذْف: الرمي بالحجارة"[2]، و"الرَّميُ يقال في الأعيان كالسّهم والحجر، نحو: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، ويقال في المقال، كناية عن الشّتم كالقذف، نحو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور: 6]"[3]، و"الإِلْقاءُ: طَرْحُ الشيءِ حيث تلقاه، أي: تراه، ثم صار في التّعارف اسما لكلّ طرح، قال: فكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ"[4].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 82.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قذف).
(3) الراغب، المفردات: (رمى).
(4) الراغب، المفردات: (لقى).

﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد قذفِ الحُليِّ في النّار وإذابتها بيَّن ما صُنِعَ من مُذابِ تلك الحُليِّ

لمّا بيَّن النَّظمُ الجليل ما اعتذر به بنو إسرائيلَ عن مخالفتهم تعاليمَ موسى عليه السلام باتِّخاذ العجل، بأن نسبوا ذلك إلى السّامريّ الذي أمرهم بقذف الحليِّ في النّار، وقذفَ معهم السّامريُّ ما معه من الحُليِّ في النّار؛ بيَّن النَّظمُ الجليلُ في هذه الآية ما صنعه لهم السّامريُّ من تلك الحُليّ، فقال: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾[1]، فالآيةُ من تمام المحاورةِ التي أجراها النَّفرُ من بني إسرائيلَ مع موسى عليه السلام لبيان ما حصلَ بشأن العجل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَسَدٗا﴾: (جسد) أصلٌ يَدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ، واشْتِدادِهِ، مِنْ ذَلِكَ جَسَدُ الإِنْسانِ[2]، والجَسَد كالجسم لكنَّه أخصُّ، وكُلُّ خَلْقٍ لا يأْكلُ، ولا يَشْرَبُ مِنْ نَحْوِ الملائِكَةِ والجِنِّ مِمّا يَعْقِلُ، فهو جَسَدٌ، وكانَ عِجْلُ بَني إسرائيل جَسَدًا يَصيحُ لا يأْكلُ، ولا يَشْرَبُ[3]، قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾، أي: كتلة لا روحَ فيها، فالجسدُ يقعُ على ما لا يَتغذّى مِنَ الجماد[4]، فعُبِّرَ بالجسد هنا؛ لبيان حقيقةِ العجلِ المذكورِ ابتداءً.

2) ﴿خُوَارٞ﴾: (خور) أَصْلٌ يَدُلُّ على صَوْتٍ، وخارَ الثَّوْرُ يَخورُ،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جسد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جسد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جسد).

وذَلِكَ صَوّتُهُ[1]، فالخُوارُ صوتُ البَقرِ، والغَنَم، والظِّباءِ، والسِّهام، وقَدْ خارَ يَخور خوارًا: صاحَ[2]، وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، أي: صوتٌ، خُواره خفيفٌ؛ إذا دخلتِ الرّيحُ جوفَه، والخَور: اللّين، ومنه: رجلٌ خوّارٌ، أي: جبانٌ، وكأنّهم تصوَّروا أنَّ الصَّوت لا يكون إلّا عند خوفٍ[3]، فكان خُوارُه صوتَ حفيفِ الرّيح؛ إذا دخلتْ جوفَهُ[4].

3) ﴿فَنَسِيَ﴾: (نسي) أَصْلٌ يَدُلُّ على إغْفالِ الشَّيْءِ، وتَرْكِه[5]، والنِّسْيان، بِكَسْرِ النّونِ: ضِدُّ الذِّكر والحِفظ، نَسِيَه نِسْيًا ونِسْيانًا[6]، وهو تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ، إمّا لضَعْفِ قلبِه، وإمّا عن غفْلةٍ، وإمّا عن قصْدٍ حتى يَنْحَذِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ[7]، والمرادُ به أنّ بني إسرائيل اتّهموا موسى بترك ما كان عليه منَ الإيمان[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

صناعةُ العجلِ وإظهارُه مِنَ الحُليِّ المُذابةِ

يخبرُ النَّظمُ الكريم أنَّ النَّفرَ من بني إسرائيلَ قالوا لموسى في اعتذارهم: إنَّ السّامريَّ قد صنعَ منَ الذَّهب الذي نتج من إذابة الحُليِّ عِجلًا جسدًا بلا حياةٍ، يخورُ خُوارَ البقر، فقال الذين ضلّوا منهم للآخرين: هذا هو إلهكُم وإلهُ موسى، ولكنَّه نَسيه، وغَفَل عنه[9].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الفاءِ في مُفتتحِ الآية:

الإخبارُ بإخراجِ العجلِ مُتفرِّعٌ عنِ الخبرِ الأوَّلِ

عطفَ النَّظمُ الجليل قولَه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خور).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خور).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خور).
(4) الواحدي، البسيط: 14/ 499.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نسا).
(7) الرّاغب، المفردات: (نسى).
(8) الواحدي، البسيط: 14/ 501.
(9) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 318.

﴿خُوَارٌ﴾ على جملة: ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾ [طه: 87][1]، وآثرَ العطفَ بالفاء للدَّلالة على أنَّ الخبرَ في الجملة الثّانيةِ المتضمِّنةِ إخراجَ العجلِ متفرِّعٌ عنِ الخبر في الجملة الأولى المتضمِّنِ الإخبارَ بإلقاءِ الحُليِّ، فعطفَ بالفاء تفريعًا خبرًا على خبرٍ[2]، ذاك أنَّ خروجَ التّمثالِ لَمّا كان عقبَ إلقائه؛ جُعِلَ كأنَّه المتسبِّبُ في ذلك[3]، فهذه الآيةُ امتدادٌ طبيعيٌّ وسهلٌ لِما قبْلَها؛ لأنَّ فاعلَ الإخراج مذكورٌ في فاصلة ما قبْلَها: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾.

نُكتةُ العُدولِ عنِ التَّكلُّمِ إلى الغيبةِ:

بيانُ المقصودِ بإظهارِ الوثنِ تبرئةً لأنفُسِهم

عدل النَّظمُ الجليلُ عنِ التَّعبير بصيغةِ الخطابِ (لنا) إلى التَّعبير عنِ الغائبين ﴿لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، فالضَّميرُ عائدٌ إلى غير المتكلّمين، وإنَّما جعلوا الإخراجَ للغائبين للدَّلالةِ على أنَّ قائِلي هذا الكلام لموسى لم يكونوا ممَّن اعتقدَ إلهيةَ العجلِ، فهذا القولُ من حكاية قولِ القوم لموسى، فهو من تمام المعذرةِ التي اعتذر بها المجيبون لموسى، فيكونُ العدولُ مِنَ التَّكلُّم إلى الغيبةِ دالًّا على قصد القائلين به أن يُبرِّئوا أنفسَهم من أن يكون إخراجُ العجل لأجلِهم، أي: أخرجه لمن رغبوا في ذلك[4]، وأرادوا من ذلك الإشارةَ إلى أنَّهم لم يكن في مَقدرةِ السّامريّ إضلالُهم، فلم يقصدْهم بالإخراج، فيؤولُ الكلامُ إلى أنَّهم ابتغَوا تأكيدَ ثباتهم على الإيمان، وعلى عهدِ موسى ووصيَّته، وفيه أيضًا استهجانٌ لنسبةِ أمرِ العجلِ إلى المتكلِّمين[5]، وجعْلُ الضمير للغيبة يُؤيِّدُ قولَ مَن جعل هذا كلامَ مَن لم يعبدِ العجلَ، والمعنَى عندَ مَن

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 408.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 40.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 285 - 286.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 40.

جعلَه مِن كلام العابدينَ: أنَّهم دلّوا بذلك الالتفاتِ على البراءةِ منه والاستقذارِ له[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإخراجِ مادَّةً وصيغةً:

إظهارُ العجلِ المصنوعِ بخفاءٍ أشدُّ تأثيرًا في إضلالِ النّاسِ

عبَّرَ القرآنُ بالفعلِ ﴿فَأَخۡرَجَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾؛ للدَّلالة على إظهارِ ما كان محجوبًا، فالعجلُ كان محجوبًا مستورًا عنهم، وهذا يشيرُ إلى أنَّ السّامريَّ قد صنعه بحيلةٍ مستورةٍ عنهم، ولم يخرجْه لهم حتّى أتمَّه[2]، وهذا ديدنُ المشركين الذين يُخفون ما يثيرُ سؤالَ النّاس عن حقيقة هذه الأصنام، فإنَّهم يصنعونَها بالخفاءِ، ويظهرونَها بشكلٍ حسنٍ.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

افتراءُ الضّالِ المقصودُ منه زعامةُ النّاسِ باصطناعِ وثنٍ لهم

علَّق النَّظمُ الجليلُ فعلَ الإخراج بشبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ لبيان أنَّ مقصودَه من ذلك الفعلِ هؤلاءِ النّاسُ، وعلَّةُ ذلك الفعلِ الحصولُ على اهتمامهم والتَّأثيرِ بهم، ويشيرُ ذلك إلى أنَّ غرضَه لم يكنِ البحثَ عنِ الحقِّ، بل كان طالبًا لزعامة النّاسِ بإضلالهم عنِ الحقِّ ليتَّبعوه بعبادةِ العجلِ الذي صنعَه بيدِه.

غرَضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لَهُمۡ﴾:

غايةُ الضّالِّ أن يُضلَّ النّاسَ جميعًا

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾، فلم يُقَل: (فأخرج عجلًا لهم)؛ فأخَّر ذكْرَ العجلِ مع كونه هو المفعولُ به الصَّريحُ؛ وذلك للاعتناء بالمقدَّم، والتّشويقِ للمؤخَّر[3]، فبيانُ المقصودِ من إخراج العجْلِ على ذكْرِ العجلِ ذاتِه أبلغُ في إظهار سوءِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 286.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 36.

نيَّته وفظاعةِ جريمته، فهو لم يُشرك بنفسِه حسبُ، بل طلبَ الشِّركَ للنّاس وإضلالَهم، وهذا أبلغُ جُرمٍ وأشنعُه.

فائدةُ استعارةِ العجلِ للصّنمِ:

أسوأُ النّاسِ مَن يبتغي ضَلالَ النّاسِ

كان الظّاهرُ أن يقال: (فأخرج لهم صنمًا)؛ لأنَّه لم يكن حيًّا، وإنَّما عبَّرَ القرآنُ بالعجلِ؛ لإفهامِ شدّةِ إحكامِ السّامريّ حيلتَه على القوم؛ لعظيم رغبتِه في إضلالِهم، فاحتالَ حتى جعلَه كالعجْلِ، لا يكادُ يفترقُ عنه في شيءٍ، قال البقاعيُّ: "ولمّا كان شديدَ الشَّبَه للعُجولِ؛ قيل: ﴿عِجۡلٗا﴾"[1]، فاستعار له العجلَ؛ للمطابقة بينهما في جُلِّ جهاتِ الشَّبَه.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿عِجۡلٗا﴾:

حقارةُ المتَّخَذِ إلهًا دليلٌ على ضحالةِ الشِّرك

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ العجلِ بصيغةِ التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ تقليلًا لشأن العجلِ وتحقيرًا له؛ فمهما كان حالُ العجلِ وصفتُه؛ فإنَّه لا يُخرجُه عن كونه عِجلًا، ولن تُكسبَه أيُّ صفةٍ أن يكون معبودًا بحال منَ الأحوال.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿جَسَدٗا﴾:

العجلُ الذي أُخرِج لهم جثَّةٌ جامدةٌ لا روحَ فيها

وصفَ النَّظمُ الجليل العجْلَ بكونِه جسدًا في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾[2]، وأجازَ بعضُ أئمَّة التَّفسيرِ أن يكونَ بدلًا منَ العجلِ، والغرضُ من ذلك التَّنبيهُ على أنَّه أخرجَه لهم على شكل صورةٍ مجسَّدةٍ؛ لينفيَ أنَّه مجرَّدُ صورةٍ منقوشةٍ على طبق من فضة أو ذهبٍ[3]، والجَسَدُ هو الجسمُ الذي لا حياةَ فيه، وهو يرادفُ الجُثَّةَ، فأراد به أنَّه جثَّة فقط، صُنع من ذهب لا روح فيه[4]، والغرضُ من ذلك التَّنبيهُ على ضلالِهم بحيث إنَّهم عبدوا جمادًا لا ميزةَ له،

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 322.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 408.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 286.

(4) الزّجاج، معاني القرآن: 2/ 377، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 59.

وهو أقلُّ رُتبةً منَ الحيِّ، وإذا كان الحيُّ منَ المخلوقات لا يستحقُّ العبادةَ؛ فمنَ الأولى ألّا يعبدوا جمادًا.

صفةُ العجلِ أنَّه يُصوِّت، فامتاز بذلك عن التَّماثيل

وصفَ النَّظمُ الجليلُ العجلَ بوصفٍ ثانٍ بالجملةِ الاسميَّة(1)، في قوله تعالى: ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ والغرضُ من وصْفِه بذلك استقصاءٌ للصِّفات التي ميَّزت هذا العجلَ، ومِن ثَمَّ العلمُ بأنَّ هذا العجلَ لا يمتازُ بما يجعلُ العقلاءَ يُعرِضون عنِ الإله الحقِّ الذي أنجاهم من فرعونَ قُبَيل ذلك، وفيه إشارةٌ إلى حماقة الذين عبدوه، فهو لا يمتازُ بغير الخُوارِ، ولا يُخرجُه ذلك عن كونه عجلًا، فهلِ التَّصويتُ ميزةٌ ترفعُه لأن يكون إلهًا؟ وبالجملةِ ففي النَّصّ على هذا الوصْفِ إقامةٌ للحُجَّةِ على مَن عبَدَ هذا العجلَ، وإقناعٌ للمتلقّين في كلِّ زمانٍ ومكان بسوء حالِهم عقلًا وقلبًا ونفسًا، وكذلك مَن في حُكمِه في كلِّ عصرٍ ومَصرٍ وجنسٍ، بأنَّ عليه أنْ ينظرَ في صفاتِ مَن يعبدُ، هل هي صفاتُ مَن يكونُ إلهًا حقًّا؟ ولهذا افتتح القرآنُ أوَّلَ سورةٍ من سورِه بالتّعريفِ بالإله الحقّ صاحبِ هذا الكتابِ الذي لا ريبَ فيه.

نُكتةُ تقديم شبْه الجملةِ ﴿لَّهُۥ﴾:

أسمَى ما بلغَه العجلُ أنَّه يخورُ فسلبَ عقولَ الضّالّين

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبْهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على المسنَدِ إليه في قوله تعالى: ﴿جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾، وأصلُ الكلام: (جسدًا خوارٌ له)؛ وذلك لأنَّ المسنَدَ إليه النَّكرةَ لا يصحُّ أن يُبتدَأ به؛ لأنَّ التَّنكيرَ لا يدلُّ على معيَّنٍ، فلا ينتفعُ السّامعُ بهذه النَّكرةِ المتقدِّمة، فعند ذلك يُصارُ إلى تخصيص النَّكرةِ أو تأخيرِها، وفي الآية الكريمة أخَّرَ النَّظمُ الجليلُ النَّكرةَ، وقدَّم عليها شبْهَ الجملة المتضمِّنةَ الضَّميرَ الذي يعود على العجل، ثمَّ جيء بلفظ الخُوارِ النَّكرةِ، فعُلِمَ أنَّ المرادَ نسبةُ الخُوار إلى هذا العجل، وفي تأخير الخُوار الدّالِّ على ميزة

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 408.

هذا العجل تشويقٌ إلى ذكر سببِ اتِّخاذهم له إلهًا، فذكر السَّببَ أنَّه خُوارُ عجلٍ حسب.

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَقَالُواْ﴾:

المبادرةُ إلى الشِّرك والدَّعوة إليه بلا تريُّثٍ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ بحرف الفاء العاطفةِ في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾؛ للدَّلالة على السَّببيَّةِ، أي: فتسبَّبَ عن ذلك الإخراجِ أنَّ الذين تابعوه قالوا ذلك عَقبَ الإخراجِ[1]، فتدلُّ الفاء على أنَّهم بادروا بتلك المقولة، ويشيرُ إلى سرعة افتتانِهم بهذا الوثن، بحيث إنَّهم آمنوا به، ثم أعلنوا إيمانَهم، وراحوا يَدعون إليه قومَهم الآخرين، فتبنَّوا الدَّعوةَ إليه بلا رويَّة فكرٍ وبلا مراجعةٍ، فهو لاقى هوًى في أنفسهم، فعجَّلوا الاستجابةَ، وبادروا بالدَّعوةِ، وهذا تصويرٌ دقيقٌ للشّقاءِ الذي اختاره هؤلاء لأنفسِهم.

فائدة المقابلة بين موقفي السحرة وقوم موسى:

قدرُ الأنبياءِ تحمُّلُ معارضةِ قومِهم، والصّبرُ على أذاهم

وفي قولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ تصويرٌ للشّقاء الذي لقيَه موسى وهارونُ مِن قوم موسى المقابلَ لسحرةِ فرعونَ، الذين بمجرَّد رؤيتِهم لمعجزةِ موسى مِن انقلاب العصا حيَّةً وغير ذلك؛ خَرّوا سُجَّدًا للّه قائلينَ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: 70]، فالتَّقابُلُ بينهم مقصودٌ؛ ليظهرَ كيف اختار هؤلاء السّحرةُ السّعادةَ بالصَّبرِ على العذابِ الذي سيلقونَه مِن فرعونَ؟ وكيف اختارَ هؤلاء الشّقاءَ؛ دون داعٍ ومُرغِّبٍ.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة القريب ﴿هَٰذَآ﴾:

تعيّنُ الإلهِ بتشخيصِه ماديًّا تراه أعينُهم

عبَّر النَّظمُ الجليلُ عنِ العجل باسمِ الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾؛ لأنَّ بني إسرائيلَ قد اعتادوا في مصرَ عبادةَ العجلِ، فلمّا رأوا العجلَ الذي أخرجه

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 330.

السّامريُّ، وقد جاء على صورة المعبودِ الذي عرفوه من قبلُ، ورأوا أنَّه يزيدُ عليه بالخُوار؛ أظهروا اليقينَ بأنَّه هو الإلهُ الحقيقيُّ الذي عبّروا عنه بقولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّهم كانوا يُثبتون إلهًا محجوبًا عن الأبصار، وكانوا يَطلبون رؤيتَه، كما حكى النَّظمُ الجليلُ عنهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النّساء: 153]، حينئذٍ توهَّموا أنَّ هذا هو الإلهُ[1]، كما أنَّ في الإشارة تعْيينًا للإله، فهو يدلُّ على تأكيدِهم على ألوهيَّتِه الشّاخصةِ، فدفعوا بذلك مَن عاندَهم عن وجود إلهٍ غيرِه.

نُكتةُ إضافةِ الإله إلى ضميرِ المخاطَبِ:

تلقينُ المخاطَبِ عقيدتَه يَسلبُ منه قُدرةَ الاحتجاجِ

أُضيفَ لفظُ الإله إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾؛ تعريفًا للإله بنسبتِه للمخاطَبين، تلقينًا لهم وسلبًا للرَّدِّ منهم، فلو قالوا: (هذا هو الإله)؛ لكان سبيلُ المدافعةِ مُتاحًا، ولكنَّهم نسبوه إلى المخاطَبين إسقاطًا لِما في جعبتِهم من ردٍّ قد يتفوَّهون به، فهو كما قال فرعون: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38]، وقوله: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر: 29].

فائدةُ العطْفِ وتَكرارِ لفظِ الألوهيَّة:

استنادُ الباطلِ على أسماءِ الصّالحين لخداعِ النّاسِ

حكى النَّظمُ الجليلُ عنِ القائلين أنَّهم عطَفوا الإلهَ المضافَ إلى موسى على الإله المضافِ إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، والغرضُ من هذا العطفِ بيانُ مقصدهم من المحاجة بأنَّ العجلَ هو الإلهُ الحقُّ في نظرهم، (فهو إلهُكم، وكذلك هو نفسُه إلهُ موسى)، فأرادوا بذلك قطْعَ الاحتجاجِ الذي قد يتبادرُ في أذهان السّامعين بأن يقولوا: إذا كان هذا إلهَنا؛ فمن هو إلهُ موسى؟ فبادروا بعطْفِ (إله موسى) ردًّا على السُّؤال المتوقَّعِ؛ وحثًّا لهم على إعلان الإيمانِ به.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 287.

عوْدُ الضَّميرِ في قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾:

نسيانُ الإله الحقِّ مبدأُ الضَّلال

ذكر أئمَّةُ التَّفسير في الضَّمير المستترِ في الفعل ﴿فَنَسِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أنّه عائدٌ على موسى ﷺ، أي: (نسيَ موسى ربَّه - الذي هو العجلُ - ، وذهب يطلبُه في الجبلِ)[1]، فيكونُ هذا من كلام بني إسرائيلَ الذين عبدوا العجْلَ، ويجوزُ أن يكونَ الفاعلُ هو السّامريُّ، فيكونَ الكلامُ إخبارًا منَ الله تعالى عنِ السّامريِّ، أي: (نسيَ دينَه وطريقَ الحقِّ)[2]، وبجعلِ الضّميرِ لموسى يمتدُّ خيطُ استدلالِ القائلينَ على باطلِهم، وتكتملُ صورةُ برهانِهم، وصورةُ إحساسِهم الشّديدِ بأنَّهم ليسوا على شيءٍ، وفي باطلٍ عظيمٍ.

معنَى الفاءِ في قوله ﴿فَنَسِيَ﴾:

من صُوَرِ ضعْفِ أهلِ الباطلِ احتشادُهم على دفْعِ كلِّ اعتراضٍ قد يردُ عليهم

فرَّع النَّظمُ الجليلُ بالفاء العاطفةِ قولَه تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ على قولِه جلَّ شأنه: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، والمعنى - على كون الضمير عائدًا إلى موسى ﷺ - : (فتسبَّبَ عن أنَّه إلهُكم أنَّ موسى نسيَ - بعُدوله عن هذا المكان - موضعَه فذهب يطلبُه في مكانٍ غيره، أو نسي أن يذكرَه لكم)[3].

"وتفريع فنسي يحتمل أن يكون تفريعًا على ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ تفريعَ علّة على معلول، فالضمير عائد إلى السامري، أي قال السامري ذلك لأنه نسي ما كان تلقّاه من هَدْي. أو تفريع معلول على علّة، أي قال ذلك، فكان قوله سببًا في نسيانه ما كان عليه من هدى إذ طبع الله على قلبه بقوله ذلك فحرمه التوفيق من بعد"[4].

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 408.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 59، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 379.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 331.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 287.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجسم والجسد:

الجسدُ أخصُّ مِنَ الجسم، فهو الجسمُ ذو الأعضاءِ

الجَسَد كالجسم لكنه أخصُّ، فلا يقال الجسدُ لغير الإنسان من خلْقِ الأرض، وأيضًا فإنَّ الجسد ما له لونٌ، والجسم يقال لِما لا يَبِينُ له لونٌ، كالماء والهواء(1)، والجسدُ هو الجسم ذو الأعضاء سواء كان حيًّا أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: 34]، والجسدُ هو الذي لا يعقل ولا يميِّزُ إنَّما هو الجثَّة(2)، أي: أخرج لهم صورةَ عجلٍ مجسَّدةٍ بشكلِه وقوائمه وجوانبه(3)، والجَسَد كالجسم لكنَّه أخصُّ، باعتبار أنّ الجسم كلُّ شكل أو صورة، لإنسان أو حيوانٍ أو جمادٍ، بخلاف الجسدِ فيشملُ من المغتذية جسدَ الإنسان، ويشمل من غير المغتذية من كُلِّ خَلْقٍ لا يأْكلُ، ولا يَشْرَبُ مِنْ نَحْوِ المَلائِكَةِ والجِنِّ مِمّا يَعْقِلُ(4)، وآثرَ في الآية الكريمة التَّعبيرَ بالجسد دون الجسم للدَّلالةِ على كونه تجسَّد بجثَّة.

الفرق بين النِّسيان والغفلة:

النّسيانُ أخصُّ مِنَ الغفلةِ فهو انمحاءُ الشَّيء مِنَ الذِّهن

النِّسْيان: ضِدُّ الذِّكر والحِفظ(5)، وهو تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ، إمّا لضَعْفِ قلبِه، وإمّا عن غفْلةٍ، وإمّا عن قصْدٍ حتى يَنْحَذِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: 115](6)، أمّا الغفلة: فأصلُها يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، وأغْفَلْتُهُ: إذا تَرَكْتَهُ على ذِكْرٍ مِنْكَ لَهُ(7)، الغَفْلَةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ(8)،

(1) الرّاغب، المفردات: (جسد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 19.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 286.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جسد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نسا).
(6) الرّاغب، المفردات: (نسى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(8) الرّاغب، المفردات: (غفل).

فعبَّر النَّظمُ الجليلُ في الآية بالنِّسيان دون الغفلة للدَّلالة على انمحاء ذكرِه من قلبه، لا مجرَّدِ السَّهوِ عنه، وهذا أبلغُ في الاستدلالِ على صحَّة مضمونِ قولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إثرَ إعلانِ ألوهيَّةِ العجلِ يُثارُ إنكارُ العقلاء وتعجُّبُهم

بعد أن بيَّن النَّظمُ الجليلُ أنَّ السّامريَّ أخرجَ لهم منَ الذَّهب عِجلًا لا حياةَ فيه، وجعل فيه ثقوبًا تصوِّتُ صوتَ الخُوار، ووصفوه بالألوهيَّة؛ عقَّبَ على ذلك في هذه الآيةِ بالإنكارِ على فعْلِهم ذلك، والتَّعجُّبِ منَ النّاس كيف يَعبدون ما لا يردُّ لهم جوابًا، ولا ينفعُهم، ولا يضرُّهم؟

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمْلِكُ﴾: (ملك) أصْلٌ يَدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّة، يُقالُ: أملَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، مَلَكَ الإنْسانُ الشَّيْءَ يَملِكُهُ مَلْكًا، والاسْمُ المِلْكُ؛ لِأَنَّ يَدَهُ فيه قَوِيَّةٌ صَحيحَةٌ[1]، فالمُلْك ضبطُ الشَّيءِ المتصرَّفِ فيه بالحكم، والمَلْك والمُلْكُ والمِلْك احْتواءُ الشَّيْءِ والقُدْرَةُ على الاسْتِبْدادِ بِهِ[2]، ومعنى ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ في الآية: لا يقدرُ على أن يدفع عنهم ضرًّا، وأن يجلبَ لهم نفعًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنكارُ على العقلاءِ لعبادتِهم ما لا يعقلُ

يُنكرُ النَّظمُ الكريمُ على الضّالّين من بني إسرائيلَ، وهم الذين عبدوا العجلَ، قائلًا: فكيف لا يرون أنَّ هذا العجلَ الذي يعبدونه لا يُكلِّمُهم، ولا يرجعُ عليهم بردٍّ من قولٍ ولا إجابةٍ، ولا ينفعُهم، ولا يضرُّهم؟[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ملك).
(3) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 318.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآية عن سابقتِها:

مَن تصدّى لحكايةِ الفتنة مُضطرٌّ لتبرئةِ نفسِه خلالَ كلامِه

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ للاعتراض بين الجُملِ التي سيقت لبيان أصلِ الفتنةِ، فجاءت بين الآيات في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾ [طه: 87]، والجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾، فتكونُ الجملةُ المعترضةُ ليست من حكاية كلامِ القوم، ويجوزُ أن يكون من حكاية كلامِهم، وهمُ الذين تصدّوا لخطاب موسى ﷺ ممَّن بقيَ على الإيمان مع هارونَ ﷺ، فيكونُ الغرضُ منَ الاستئناف إعلامَ موسى أنَّهم بقوا على التَّوحيد، وحفظوا وصيَّة موسى[1]، ويظهرُ في الآية الملاطفةُ في الرَّدّ والإنكارِ على ما هو سياقُ السّورة.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

الاستفهامُ إنكارٌ على عدم رُؤيتِهم ما يُرى بلا جهدٍ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاستفهام المجازيّ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ إذِ المرادُ ليس الاستخبارَ، بلِ الإنكارَ على شناعة صنيعِهم، والتَّنبيهَ على غباوتهم؛ لأنَّ هذا العجلَ المتَّخذَ من هذه الأجرام لا يصلحُ للإلهيّةِ، وأنَّ الإله ينبغي أن يكونَ سامعًا لدعاء عابدِه، عالمًا بأفعاله، دافعًا عنه المضارَّ، مثيبًا ومعاقبًا، مع أنَّ دليلَ السَّمع شاهدٌ ببُطلانه[2]، فأنكرَ عليهم عدمَ رؤيتِهم أنَّه مجرَّدُ عجلٍ، وأنَّ ذلك منَ الظُّهور بمكانٍ، فكيف يدّعون الإلهيّةَ للعجل، وهم يرونَه لا يتكلّمُ، ولا يستطيعُ نفعَهم ولا ضرَّهم، وأنَّه غيرُ قادرٍ على التَّحرُّك منَ الأصل، فعجزُه ظاهرٌ عن نفع نفسِه وغيرِه[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 288.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 288 - 289.

تقريرُ الرّؤيةِ علَّةُ الإنكارِ

وثمَّةَ من يرى أنَّ الاستفهامَ ههنا للتّقرير؛ لأنَّ اللّه تعالى يُقرِّرهم بحصول الرّؤيةِ لهم، ومع تحقُّقِها فقد ضلّوا بعبادة العجْلِ من دون اللّه تعالى، وتقريرُهم هذا هو علَّةُ إنكارِ اتِّخاذهم العجلَ معبودًا من دون اللّه تعالى[1].

معنَى الفاء، ودلالتُها على المحذوفِ:

تُفصِحُ الفاءُ عن محذوفٍ مقدَّرٍ يدلُّ على تعاميهم عن الحقّ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالفاء الفصيحةِ بعد الاستفهام الإنكاريِّ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾؛ لأنَّها عطفتِ الفعلَ على مقدَّرٍ يقتضيه السّياقُ، يكون بين الاستفهام وفعلِ الرُّؤية، والتَّقديرُ: "أحُرموا العقلَ الهاديَ، فلا يتفكّرون، ولا ينظرون بنظرِ البصيرةِ أنَّ هذا المتَّخَذَ من هذه الأجرام لا يصلحُ للإلهيّة، أم عَموا، وصَموا، فلا يهتدون إلى أنَّ الإلهَ ينبغي أن يكون سامعًا لدعاء عابدِه، عالمًا بأفعاله، دافعًا عنه المضارَّ، مثيبًا ومعاقبًا"[2]، وحذْفُ ما عطَفَت عليه الفاءُ ما بعدها في مِثْلِ هذا المقام للعُموم؛ لأنَّ ما يقتضيه المقامُ كثيرٌ من أوصافهم وطبائعِهم الشّاذّةِ القبيحةِ، وإنَّما جرت عادةُ المفسِّرين على تحديد أشدِّها قُربًا مِنَ السّياق.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرّؤيةِ مادَّةً وصيغةً:

العلمُ بالرُّؤيةِ البصريَّةِ أبلغُ علْمٍ وآكدُه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ تعبيرًا عن رؤيتِهم ذلك بأعينِهم، فهي رؤيةٌ بصريّةٌ، ولكنَّها كنايةٌ عنِ العلم والاعتقاد، ولا سيَّما عند تعليق الرُّؤية بقوله: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾؛ فإنَّ عدمَ امتلاك النَّفعِ والضُّرِّ لا يُرى بالبصر، والمرادُ انتفاءُ رؤية أثرِ انتفائهما[3]، وقد آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد استحضارًا لتلك الحالةِ الفظيعةِ في ذهن السّامع؛ استدعاءً

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 324.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 288.

للأفكار عليهم[1]، وقد استغنى القرآنُ بالتَّعبير بـ﴿يَرَوۡنَ﴾ مادَّةً وصيغةً عنِ التّصريح بقُبحهم وضعفِ عقولهم وشذوذِ نفوسِهم وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى؛ لأنَّ سياقَ السّورةِ الحِلْمُ عنِ المدعُوين، والتَّرفُّقُ بهم، وملاطفتُهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الرّؤيةِ:

حُملتِ الرّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ على العلمِ المطلقِ على سبيل الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ بجامع قوَّةِ الإدراك في كلٍّ منها[2].

دلالةُ التَّركيب ﴿أَلَّا﴾:

إيجازُ التَّعبيرِ بجمعُ التأكيدَ مع النَّفي

وُصِل في رسم المصحف الكريم بين (أنْ) و(لا)، فكُتِبتا ﴿أَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾، فأدخل (أنْ) المخفَّفة على (لا) النّافية، واسم إنَّ محذوف، وهو ضميرُ الشَّأن والتَّقديرُ: (أنَّه لا يرجعُ إليهم قولًا)[3]، فالرُّؤيةُ متسلِّطة على الشَّأن والحقيقة، وهي أنَّ هذا العجْلَ عاجزٌ عنِ الكلام، وليس الضَّميرُ للعجل، فكونُ الضَّمير للشَّأن يدلُّ على المبالغة في انتفاء قدرته على الكلام؛ لأنَّه بمعنى أنَّ انتفاءَ قدرته عن ردِّ الجواب حقيقةٌ ظاهرةٌ لهم؛ بل للدّلالة على كمال ظهورِ الحقيقة المطلوبِ إثباتُها، وهذا إبلاغٌ فوق الإبلاغ المستفادِ مِن تسلُّط الرّؤيةِ البصريّة، قال أبو السعود: "وتعليقُ الإبصارِ بما ذُكِرَ مع كونه أمرًا عدميًّا؛ للتّنبيه على كمال ظهورِه المُستدعي لمزيد تشنيعِهم وتركيكِ عقولِهم"[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَرۡجِعُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عجزُ الأوثانِ دائمٌ مستمرٌّ، ظاهرٌ للمشركين

عبَّر النَّظمُ الجليلُ عن عجز العجلِ بنفيِ ردِّه الكلامَ في قوله

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 229.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 324.
(3) الخطيب، السراج المنير: 2/ 480.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 632.

تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ فهو لا يجيبُ القولَ؛ لأنَّ "ذلك محلُّ العبرةِ من فقدانه صفاتِ العاقل؛ لأنَّهم يدعونَه، ويُثنون عليه، ويمجِّدونَه، وهو ساكتٌ لا يشكرُ لهم، ولا يعدُهم باستجابةٍ، وشأنُ الكامل؛ إذا سمع ثناءً أو تلقّى طُلبة أن يُجيبَ"(1)، وقد آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع للدّلالةِ على دوام انتفاءِ ردِّه الكلامَ، فهو تعبيرٌ عن دوام عجزِه، وفي المضارع دعوةٌ لهم إلى حوار العجلِ بغرضِ أن يرجعَ إليهم قولًا، وتَكرارُ ذلك تحدٍّ لهم، وإقامةٌ للحجّةِ عليهم، وهذا تعنيفٌ لهم، وسياقُ السّورة يجمع بين الملاطفةِ والتّعنيفِ.

نُكتةُ تعديةِ الإرجاعِ بـ (إلى):

انتفاءُ انتفاعِ الضّالِّ من وثنِه خصوصًا يُفصِحُ عنِ الضَّلالِ الشَّديدِ

علَّق النَّظمُ الجليلُ فعلَ الإرجاع بحرف الجرِّ الدّالِّ على الغاية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، مبالغةً في ذمِّهم، فلم ينفِ عنه القولَ مطلقًا؛ إذ لم يقل: (لا يرجع قولًا)، بل جعل نفيَ ردِّ الجواب عنهم حسب، فأخرج النَّفيَ مخرجَ التَّخصيص مبالغةً في ذمِّهم؛ إذ إنَّهم يُصرّون على عبادته دون أن يجدوا منه ردًّا ولا جوابًا.

مَنْ ينتظرُ منَ الصّنمِ الجمادِ ردًّا فهو أهلٌ للسّخريةِ والتّعنيفِ

وفي التَّعبير بـ (إلى) بَسْطُ جناحِ التَّحدّي لهم، والمعنَى على هذا: حاوروه، وادْعُوه، وأثنوا عليه حتى يرجعَ إليكم قولًا، ولو بعد مدّةٍ طويلةٍ يكونُ فيها ما يكونُ منكم مِن ذلك، ومِن انتظارِ أن يرُدَّ عليكم بقولٍ، فالتّعبيرُ بـ (إلى) يتناغَمُ مع التّعبير بالمضارع: ﴿يَرْجِعُ﴾ في نور دلالته المتعلّقةِ بتحدّيهم، والسّابقِ ذكرُها، وفي التَّعبير بها تهكُّمٌ بهم وتعنيفٌ لهم، على معنى: وإن طال الحوارُ بينكم مِن جهتكم، وثناؤكم عليه ودعوتُكم إيّاه، فلن يرجع إليكم قولًا، ويظهرُ ما ذكرنا مِنَ الفوائد؛ إذا قارنتَ بين ما عليه النَّظمُ الكريمُ، وبين أن تقولَ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 288.

غير القرآن: (يرجع لهم) بوضع اللام التي يكونُ معها معنَى السُّرعة والسُّهولة في موضع إلى التي يكونُ معها معنَى البُطء والثِّقل والطّول.

فائدةُ تقديم شبه الجملةِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول:

دلائلُ عجزٍ في الأوثان ظاهرةٌ بانتفاء نفعِ مَن يعبدُها خصوصًا

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على المفعول في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ وأصلُ الكلام: (لا يرجع قولًا إليهم)؛ لأنَّهم لمّا اتَّخذوا إلهًا تراه أعينُهم، ويخاطبونَه عيانًا، فكان ينبغي أن يلاحظوا كونَه جمادًا كأيِّ شيءٍ آخرَ، فقدَّم شبهَ الجملة المتضمِّنةَ ضميرَهم للدَّلالة على أنَّ انتفاءَ الإرجاع واقعٌ عليهم؛ لأنَّهم هم مَن خاطبَه، فهو - وإن لم يردَّ الجواب مطلقًا - ولكنَّه نفاه عنهم خاصَّة لنفيِ أسبابِ اتِّخاذه إلهًا، فهو كأنَّه أجاب غيرَهم، ولكنَّه امتنع عن إجابتِهم على وجه الخصوص، وفي هذا مبالغةٌ في التَّشنيع عليهم والإنكارِ على رؤيتِهم انتفاءَ ردِّه الجوابَ وإصرارِهم على عبادته، وفي التّقديم أيضًا: تحريكُ بواعثِ النَّفسِ ضِدَّ الإله الباطلِ الذي لا يمنُّ عليهم بقولٍ؛ كما حنّوا، ولجَؤُوا إليه، وأثنوا عليه، ودعوه إلهًا يتقرَّبون إليه، ويقتربون منه، وهذا خطابٌ للعقل، وبالجملة فالتّقديمُ يدحضُ كونَ العجل إلهًا.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿قَوۡلٗا﴾:

العجزُ عن لفظِ قولٍ ما دليلُ العجزِ عن فعلٍ مّا

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ القول بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾؛ للمبالغة في بيان عجزِ هذا الوثن، فهو لا يردُّ عليهم قولًا أيَّ قولٍ مهما كان مقدارُه، ووقوعُ النَّكرة في سياق النَّفي يدلُّ على الاستغراق، فهو نفيٌ يستغرق جميعَ الأقوال، فهو لا يقول لفظةً واحدةً ولا حرفًا.

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ﴾:

عطفَ النَّظمُ الجليل انتفاءَ قدرة العجلِ على النَّفع والضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ على انتفاء قدرتِه على

العجزُ عنِ الكلامِ والأفعالِ يُثير العجَبَ مِن اتِّخاذه إلهًا

الإجابة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ للدَّلالة على عجزه التّامِّ، فهو عاجزٌ عنِ الخطاب، وكذلك عاجزٌ عنِ الضُّرِّ والنَّفع، والمرادُ بذلك بيانُ شدَّة الإنكارِ في اتِّخاذهم له إلهًا، أي: فكيف تتَّخذونه إلهًا، وهو بهذا العجزِ الظّاهرِ[1]، فالجملة المعطوفةُ داخلةٌ في "حيِّزِ الرُّؤية، أي: أفلا يرون أنَّه لا يقدرُ على أنْ يدفعَ عنهم ضرًّا، أو يجلبَ لهم نفعًا، أو لا يقدرُ على أنْ يضرَّهم؛ إن لم يعبدوه، أو ينفعَهم؛ إن عبدوه"[2].

نُكتةُ التَّعبير بـ ﴿يَمۡلِكُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

افتقارُ الوثَنِ دائمٌ في كلِّ الأزمنة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يَمۡلِكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ نفيًا لقدرتِه على ميزةِ النَّفع والضُّرِّ، نفيًا متجدِّدًا دائمًا، فهو لا يفعلُ ما يطلبون منه بأيِّ زمنٍ منَ الأزمان، فلا يأتي زمانٌ ما سيكون مجيبًا لهم ولا دافعًا للضُّرِّ عنهم، ولا جالبًا لنفعهم، وهذا يدلُّ على شناعة اتِّخاذهم له إلهًا؛ إذ انتفى ذلك عنه نفيًا متجدِّدًا.

المُلك صفةُ الإله الحقِّ، فلن يملكَ غيرُه دفْعَ ضرٍّ أو جلبَ نفعٍ مهما طُلبَ منه

وفي المضارع: تحريكُ بواعث التَّحدّي في نفوس هؤلاء الضّالين؛ بأن يحاولوا أن يطلبوا مِنَ العجل جلبَ نفع، أو دفعَ ضرٍّ، وأن يُكرِّروا ذلك، وأن ينتظروا النّتيجةَ، وينظروا فيها، وفي التَّعبير بمادة: ﴿يَمۡلِكُ﴾: إيجازٌ، يظهر لو عُبِّر بغيرها، نحو: ولا يدفع عنهم ضرًّا، ولا يأتي لهم بنفع، وفيه إيماءٌ إلى صفةٍ مِن صفاتِ الإله الحقِّ إله موسى، فهو الذي يملك كلّ شيءٍ سبحانه وتعالى.

علَّةُ تقديم نفي إرجاعِ القول على ملك الضُّرِّ والنَّفع:

العجزُ عنِ الكلامِ أظهرُ في بيانِ ضلالِ الشِّرك

قدَّم النَّظمُ الجليل نفيَ قدرة العجلِ على إرجاع القول على نفي قدرتِه على الضُّرِّ والنَّفع في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 379.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 36.

﴿يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ لأنَّ ظهورَ العجز عنِ الكلام أسرعُ من ظهور العجزِ عنِ النَّفع والضَّرِّ، فكان أدلَّ على كونِه ليس إلهًا، فإنَّهم قد يدافعون بأنَّ الضُّرَّ والنَّفع قد يتأخَّر ظهورُهما، فقدَّم ذكرَ ما لا يمكن دفعُ انتفائه، وفي هذا التَّقديم جريٌ على نَهج التَّرقّي في الإنكار والرَّدِّ؛ تلطُّفًا معهم وملاينةً.

معنى اللّام في ﴿لَهُمْ﴾:

ليس بقُدرة إلهٍ مصنوعٍ أن ينفع عبادَه المخلصين بشيءٍ

علَّق النَّظمُ الجليل الفعلَ ﴿يَمْلِكُ﴾ باللّام الجارَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾ [المائدة: 76]، وذلك لبيان الغايةِ من نفيِ القدرة والاستطاعة على النَّفع والضُّرِّ، أي: لا يملك ذلك لأجلِهم، وفي هذا بيانٌ لعجز العجلِ عنِ الرُّتبة التي ادَّعوها له.

نُكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿لَهُمْ﴾:

انتفاءُ نفعِ الإله لمن يعبدُه دليلُ عجزِه عن نفعِ الآخرين

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، وكان أصلُ الكلامِ أنْ يُقال: (لا يملك ضرًّا ولا نفعًا لهم)؛ لإخراج الكلامِ مخرجَ التَّخصيص؛ لأنَّ انتفاء الضُّرِّ والنَّفعِ عنِ العجل متحقِّقٌ عمومًا وخصوصًا، فهو لا ينفعُهم، ولا ينفع غيرَهم، فالنَّفيُ ينبغي أنْ يكون عامًّا، ولكنَّه جاء به بأسلوب التَّخصيص للمبالغة في الذَّمِّ والإنكار عليهم، فهو لا يملك لهم على وجه الخصوص نفعًا ولا ضرًّا، فكان ينبغي للعاقل منهم ألّا يعبدَه، ولا يتَّخذَه إلهًا، وفي تقديم: ﴿لَهُمْ﴾ هنا ما في تقديم: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ في قوله: ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، مِن كونِه خطابًا للعقل بأنَّ هذا الذي تدَّعون أنَّه إلهٌ في أبصاركم وبصائرِكم لا يلطفُ بكم، ولا يرحمُكم، ولا يتقرَّبُ منكم، ولا يتودَّدُ لكم، فهل هذا إلهٌ لكم؟.

نُكتةُ تقديمِ نفيِ الضُّرِّ على نفيِ النَّفع:

الخلوُّ منَ القدرة ظاهرٌ بنفي العجزِ عنِ الضرِّ أكثرَ من نفيِ العجزِ عنِ النَّفع

قدَّم النَّظمُ الجليل نفيَ الضُّرِّ على نفيِ النَّفع في الذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ ليقطعَ عذرَهم واحتجاجَهم في اعتقاد إلهيَّته، وعبادتهم له؛ لأنَّ "عذرَ الخائف من الضُّرِّ أقوى من عذر الرّاغبِ في النَّفع"[1]، كما أنَّ انتفاءَ القدرة على إلحاق الضَّرر أبلغُ في إظهار العجز، فإنَّ مَن لا يستطيعُ أنْ يُوقعَ الضَّرر أنّى يكون نافعًا؟ وفي تقديم الضّرِّ على النفع إبرازٌ لسخافة عقولِ هؤلاء عند إقدامهم على عبادة هذا العجلِ؛ فهو لا يملك أدنى خصائصِ المعبوديَّة، وهي دفعُ الضر، فما بالنا بالنفع؟ وهذا التّقديمُ أيضًا أبَرُّ بسياق الإنكارِ والتّقبيح بالاستفهام بالهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾؟.

غرضُ التنكيرِ في ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾:

العجلُ لا يملك بحالٍ منَ الأحوال قدرةً ما على نفعٍ ما أو ضرٍّ ما

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغِ التَّنكير عنِ الضُّرِّ والنَّفع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ للدَّلالة على انتفاء قدرتِه على تحقيق أيِّ نفع كان، أو دفع أيِّ ضرٍّ كان، فوقوعُ النَّكرة في سياق النَّفيِ يدلُّ على الاستغراق والعُموم، وفي ذلك مبالغةٌ في انتفاء قدرة العجلِ على النّفع والضُّرِّ فالنَّفيُ يستغرقُ كلَّ ما يُمكن أن يُقالَ له: نفع أو ضرٌّ، والمرادُ المبالغةُ في الإنكار عليهم، وبيانِ حماقتهم في اتِّخاذ العجل معبودًا، وهذا التّنكيرُ في نور دلالتِه هذه مِن شأنه أنْ يَشُقَّ على أنفسِهم؛ لو كانوا يعقلون، فهو مِنَ الشّقاء، والمشقّةُ أحدُ عُنصرَيِ السّياقِ الكلّي للسّورة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 289.

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾ [طه: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الدَّلائلُ العقليَّةُ تُؤكِّدُ بالدَّلائلِ النَّقليَّةِ

بعد أن أنكر القرآنُ فعلَهم بعبادةٍ ما لا يردُّ لهم جوابًا، ولا ينفعُهم، ولا يضرُّهم؛ "بيَّن سبحانه موقفَ هارون عليه السلام من هؤلاء الجاهلين الذين عبدوا العجلَ"(1)، ومنَ المناسبة أنَّه لمّا ذكرَ الدَّليلَ العقليَّ الدّالَّ على ظهور عجزِ العجلِ عن نفعهم وضرِّهم؛ لينفي عنه صفةَ الإلهيَّة؛ أتْبَعَهُ بذكر الأدلَّةِ النَّقليَّةِ والوعظ، فأكَّد تبليغَ هارونَ عليه السلام لهم ووعظَهم، وتذكيرَهم باللّه تعالى الرَّحيمِ بهم، فالآيةُ مِن تمام ما قبْلَها في نور هذا، ومِنَ الملاطفة بالمدعوّين والملاينةِ معهم ترتيبُ هذيْنِ الدّليليْنِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُتِنتُم﴾: (فتن) أصْلٌ يَدُلُّ على ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ(2)، وأصلُها مأْخوذ مِنْ قَوْلِكَ: فتَنْتُ الفِضَّةَ والذَّهَبَ؛ إذا أذبتُهما بِالنّارِ؛ لِتُمَيِّزَ الرَّديءَ مِنَ الجيِّدِ(3)، وجُعِلَتِ الفتنةُ كالبلاء في أنَّهما يُستعملان فيما يُدفع إليه الإنسانُ من شدَّةٍ ورخاءٍ، وهما في الشِّدَّة أظهرُ معنًى وأكثرُ استعمالًا(4)، والمرادُ به في الآية الكريمة الابتلاءُ، أي: ابتُليتُم به(5).

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةُ الضّالّين وتذكيرُهم بتوحيد الرَّحمن

يُخبر النَّظمُ الكريم مؤكِّدًا بالقسمِ أنَّ هارونَ عليه السلام قال للذين

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 140.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فتن).
(4) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 502.

ضلّوا من بني إسرائيلَ من قبل أن يرجعَ موسى إليهم واعظًا لهم ومستعطفًا: "يا قوم إنَّما اختُبرتم بهذا العجلِ؛ ليظهرَ المؤمنُ منكم منَ الكافر، وإنَّ ربَّكم الرَّحمنُ لا غيرُه، فاتَّبعوني فيما أدعوكم إليه من عبادة اللّه، وأطيعوا أمري في اتِّباع شرعِه"(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ افتتاح الجملةِ بالواو:

حشدُ الأدلَّةِ السَّمعيَّةِ والعقليَّةِ على بُطلانِ الوثنيَّةِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾(2)، فجمعَ بين الإنكارِ عليهم برؤيتهم له عاجزًا، وبين وعظِ هارونَ لهم، فجمع بين الدَّليل العقليِّ والدَّليل السَّمعيِّ، وأجاز أئمَّةُ التَّفسير أن تكون الواو حاليَّةً، فتكون الجملةُ حالًا من فاعل ﴿يَرَوْنَ﴾ مقرِّرةً لجهة الإشكال ومؤكِّدةً للإنكار، أي: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾، والحالُ أنَّ هارون قد نبَّههم، ووعظَهم، فكيف لا يرون أنَّ العجل لا يستحقُّ الإلهيّةَ، وقد ذكَّرهم بأنَّه فتنةٌ فتنَهم بها السّامريُّ، وأرشدهم إلى إلههم الحقِّ(3)، فتمَّ لهم منَ الدَّلائل ما يُحتِّم عليهم اتِّباعَ سبيلِ التَّوحيد، ولكنَّهم أصرّوا، واستكبروا.

دلالةُ التّوكيد باللّام وقد:

براءةُ هارونَ بتأكيد وقوع وعظه ودعوتِه للتَّوحيد

جمع النَّظمُ الجليلُ بين (لام القسم)، وحرفِ التَّحقيق (قد) الدّاخلِ على الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ تأكيدًا لمضمونِ الكلام(4)، وتأكيدُ الخبر يحقِّقُ سماعَهم موعظةَ هارون، وأنَّه قد وفّى بعهده لموسى عليه السلام، كما

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 318.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 229.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 289 - 290.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 409.

أنَّ التَّأكيدَ هنا يفيدُ "إبطالَ ما في كتاب اليهود من أنَّ هارونَ هو الذي صنعَ لهم العجلَ، وأنَّه لم يُنكر عليهم عبادتَه"[1]، وفي هذا التّأكيدِ تودُّدٌ إليهم، وإقامةٌ للحجَّة عليهم، فهو تعنيفٌ في ملاطفةٍ، وتقريبٌ في تأديبٍ قاسٍ.

الدّافعُ للصَّدعِ بالدَّعوة ضدَّ عبادةِ الوثَن مقصودٌ بها الضّالّون

معنَى اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾:

علَّق النَّظمُ الجليل فعلَ القول بشبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ علَّةَ ذلك القول أنَّها كانت لأجلِهم، كما يشيرُ إلى وصول القولِ إليهم، فقد قاله بمحضرٍ منهم، وهم يسمعونَه، وفي ذلك تأكيدٌ على تبليغهم بالموعظة والإرشاد، وفيها معنى النّفعِ، أي: إنّه قال لهم قولًا ينفعُهم، وهي نحوُ اللام في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ [البقرة: 286]، وهذا يعني حرصَه عليهم هدايةً ونجاةً.

نُكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

إنَّما سيقَ القولُ لأجلِ القومِ فتقديمُ ذكرِهم أبلغُ في الاهتمام

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على مقول القول في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾؛ لأنَّ مقولَ القول طويلٌ، فتقديمُ ما حقُّه التَّأخير أبلغُ في هذا المقام؛ وذلك حتّى لا يقعَ شيءٌ منَ التّفكُّك في الكلام، ووقوع اللَّبس، كما أنَّ في تقديم شبه الجملة المتضمِّنةِ الضَّميرَ العائدَ على القوم اهتمامًا بهم؛ لأنَّ القول إنّما سيق لأجلِهم إنباءً بعظيم حرصِه على هدايتهم ونجاتِهم منَ العقاب الدّنيويّ والأخرويّ، فهو يُقْبِلُ عليهم إقبالًا عظيمًا؛ بدليل إضافتِهم إليه في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

بدءُ موعظةِ هارون دون تريُّثٍ لعودةِ موسى

أدخل النَّظمُ الجليلُ حرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾ قبلَ ظرفِ الزَّمان ﴿قَبۡلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 290.

بِهِۦٓ﴾، ويجوزُ أن تكون دالَّةً على التَّبعيض، أي: "ولمّا كان قولُهم في بعض ذلك الزَّمان، قال: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: من قبل رجوعِ موسى"[1]، ويجوزُ أن تكون ابتدائيَّةً، أي: ابتدأ قولَه لهم ذلك في زمان كائنٍ قبل بدء موسى بعودتِه، وذلك للدَّلالة على أنَّ هارون لم يتوانَ في إبداء النُّصح لهم ووعْظِهم، وأنَّه لم يتكاسل عن ذلك بأن ينتظرَ عودة موسى أوِ اقترابَ أجل عودتِه، ثم يشرعُ في النُّصح، بل كان مبادرًا وغيرَ مُنتظر لعودةِ موسى.

فائدةُ حذفِ المضاف إليه في قوله: ﴿قَبۡلُ﴾:

موعظةُ هارونَ لقومه قبل رجوعِ موسى

حذفَ النَّظمُ الجليل المضافَ إليه من ظرف الزَّمان ﴿قَبۡلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦٓ﴾ طلبًا للإيجاز، فلمّا عُلِمَ التَّقديرُ، وظهر المعنى، كان الحذفُ أولى، والتَّقديرُ: (قال لهم ذلك قبل رجوعِ موسى)[2].

نُكتةُ النِّداء بـ (يا) وفائدتُه:

شحذُ الأسماعِ تهيئةٌ لما يردُ من بليغِ الوعظِ

افتتحَ النَّظمُ الجليل الخطابَ بحرف النِّداء (يا) الدّالِّ على التَّنبيه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦٓ﴾ تمهيدًا لمقام النَّصيحة[3]، فإنَّ النِّداءَ يقتضي الإقبالَ منَ السّامع فيطرق ذهنَه؛ دلالةً على خطورة شأن الخطابِ المسبوق بالنِّداء وعلوِّ أهميَّته، وفي النِّداء بـ: (يا) التي هي لنداء البعيد: تنبيهٌ على إدراكه غفلةَ قومِه وما فيها مِن بلاءٍ عظيمٍ.

غرضُ ندائِهم بوصفِ (قوم) دون (يا بني إسرائيل):

استلطافُ المدعوِّ أسلوبٌ قويمٌ في الدَّعوة

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالنِّداء بلفظِ القوم دون اللَّفظ الدّالِّ على أصلهم (بني إسرائيل) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 331.
(2) الخطيب، السراج المنير: 2/ 480.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 290.

﴿هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾؛ وذلك لأنَّه طلبَ استمالتَهم واستعطافَهم، فخاطبَهم بلفظ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ الذي يجمعُهم به بنسبتهم إليه، إظهارًا لحرصِه عليهم، وإشارةً إلى أنَّه يمحضُهم النُّصحَ، ويبتغي لهمُ الخيرَ، وينفي عن ظنِّهم أنَّه قد يكذبُ عليهم، أو يبتغي بهمُ الشَّرَّ والضَّلالَ.

بلاغةُ القصرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ ونوعُه وغرضُه:

مواجهةُ الباطل بحقيقة حالِه منهجٌ أصيلٌ في الإصلاحِ

حصرَ النَّظمُ الجليلُ الأمرَ الذي هم فيه بأنَّه فتنةٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾، أي: ما هو إلّا فتنةٌ لكم، وليس ربًّا، وإنَّ ربَّكم الرّحمنُ الذي يرحمُكم في سائر الأحوال[1]، وهو قصرُ موصوفٍ على صفة، فقصرَ أمرَهم على كونِهم مفتونين، وهو قصرُ قلبٍ؛ لأنَّهم ظنّوا أنَّهم على حقٍّ، ولكنَّهم بالحقيقة في فتنةٍ واختبارٍ به، والغرضُ من حصر أمرِهم بذلك أن يجتمع فكرُهم ونظرُهم؛ ليَنتبهوا على ما هم فيه، أي: (قد اختُبِرتم في صحَّة إيمانِكم وصدِّقكم فيه وثباتِكم عليه)[2]، ويُؤتى بالقصر لتقويةِ مضمونِ الكلام وتأكيدِه وتقريرِه في الذِّهن.

سبيلُ الدَّعوة إلى الله تعالى الرِّفقُ والموعظةُ الحسنةُ

وإذا كان المخاطَبون مُنكرين لمضمون القصرِ بدليل ظنِّهم حقيَّتَهم وبطلانَ غيرهم، فكان القصرُ قصرَ قلبٍ؛ كان الظاهرُ أن يكون القصرُ بـ: (ما وإلا) على القاعدة التي قرَّرها البلاغيون، مِن أنَّ الخبر بالنّفي والإثباتِ يكون للأمر يُنكرُه المخاطَبُ، ويشكُّ فيه، وإنَّما وضع القرآنُ: ﴿إِنَّمَا﴾ موضعَ: (ما وإلا)؛ لبيان أنَّ هارون أدَّى هذا المعنى لهم في تلطُّف ولينٍ ورحمةٍ ورفقٍ وما جرى في هذا الطريق مِن المعنى؛ لأنَّ: ﴿إِنَّمَا﴾ تردُ في المعنى الذي لا يُنكره المخاطَب، ولا يجهلُه، ولا يدفع صحَّته، بل يكونُ عالمًا به مسلِّمًا به، أو لما يُنزَّلُ هذه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 290.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 331 - 332.

المنزلةَ، فلم يجمع عليهم هارونُ مشقَّةً على مشقَّة؛ فكونُهم في فتنةٍ مشقَّةٌ، ولو عبَّر بـ(ما وإلا)؛ لكان مشقَّةً أخرى.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فُتِنتُم﴾ من حيث مادَّتُها وصيغتُها:

لا أشدَّ مِن اختبارٍ يقعُ في الاعتقادِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن معنى الاختبار بلفظِ الفتنةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾، أي: (ابتُليتُم واختُبِرتم بالعجلِ، فإنَّ اللّه تعالى عرَّضكم للاختبارِ لمعرفة صحَّةِ إيمانِكم وصدقِكم فيه وثباتِكم عليه)[1].

وجيء به بالبناء للمفعول تفخيمًا لشأن الفاعل، وهو اللّه تعالى، فهو الذي يبتلي عبادَه، ويختبِرُهم، كما أنَّ في حذف الفاعل مع معرفته إيجازًا في التَّعبير، وفيه أيضًا الاهتمامُ بالفتنة لذاتها لا بالنَّظرِ إلى كونها من معيَّن، فالفتنة ذاتُ شأنٍ خطيرٍ لذاتها.

معنَى الباء في قوله: ﴿بِهِۦۖ﴾:

علَّق النَّظمُ الجليلُ فعلَ الفتنة بحرف الجرّ (الباء) في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾، وهو يدلُّ على الواسطة هنا، فيدلُّ على واسطة الاختبارِ وآلتِه، فالفتنةُ واقعةٌ بهذا "التَّمثال في إخراجه لكم على هذه الهيئةِ الخارقةِ للعادة"[2].

معنَى الواوِ في: ﴿وَإِنَّ﴾:

بعدَ بيانِ الضَّلالِ وجوبُ تبيينِ بديلِه وهو الحقُّ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾؛ فهي مشاركةٌ لها في الكلام الذي سيق النِّداءُ لأجله، فهي من ضِمن جواب النِّداء[3]، فلمّا أكَّد لهم أنَّهم فُتنوا بعبادة العجل؛ بيَّن لهم معبودَهم الحقَّ، وهو الرَّحمنُ ﷻ، فأرشدَهم إلى الحقِّ بعد أن زجرَهم عنِ الباطل[4].

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 379، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 331 - 332.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 332.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 410.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 37.

دلالةُ التَّوكيدِ بـ (إنّ) والجملةِ الاسميَّةِ:

رفعُ الأوهام بتأكيدِ صفة الرَّحمةِ في الإله الحقِّ

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّةِ المفتتَحةِ بحرف التَّأكيدِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ تأكيدًا لمضمون الخبر، وللدَّلالة على ثبوتِ المعنى، فهو حقيقةٌ منَ الحقائق الثّابتةِ لا يعتريها جدالٌ ولا خلافٌ، وإنَّما أكَّد الخبرَ لكونهم اعتقدوا خلافَه، فشأنُهم شأنُ المنكر لمضمونه، فأكَّد ردًّا على وهمهم، ولَمَّا حصَل بجملة: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ تخليةُ ما في قلوبهم ونفوسهم مِمّا اعتراهم مِن حدثِ العجل؛ حلَّاها بجملة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، واستثمر التّخليةَ المهيِّئةَ لتمكين ما يحلُّ محلَّ الذّاهبِ بها، فأكَّد مضمونَ الجملة بأكثرَ من مؤكِّدٍ؛ ليمكِّنَه في قلوبهم ونفوسِهم.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميرِهم:

التَّذكيرُ بسابقِ الإحسانِ سبيلٌ لبلوغِ المقصدِ الرَّفيعِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ تذكيرًا لهم بسابق الرَّحمةِ والإحسانِ، أي: ربُّكم الذي ربّاكم، وأحسنَ إليكم بعد أن أخرجَكم منَ الموت إلى الحياة[1]، وذلك لتلينَ قلوبُهم لوعظه، ويثوبوا إلى رُشدهم وتركِ عبادة الوثنِ الذي صنعته يدُ السّامريِّ، فأضاف الرَّبَّ إلى ضمير المخاطَبين طلبًا لإيقاع الأثرِ البليغِ في نفوسهم.

فائدةُ إيثارِ اسمِ الرَّحمن:

لا أحْوَجَ من عاصٍ إلى رحمة ربِّه

خصَّ النَّظمُ الجليل ذكرَ اسمِ الرَّحمن دون غيره في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، وأتى به بعد لفظِ الرُّبوبيَّة؛ "لأنَّه كان يُنبِّئُهم بأنَّهم متى تابوا؛ قَبِلَ اللّٰهُ توبتَهم؛ لأنَّه هو الرَّحمنُ الرَّحيم، ومِن رحمته أن خلَّصهم من آفات فرعونَ"[2]، فالغايةُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 332.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 92.

من ذلك الرِّفقُ بهم واستمالتُهم للتَّوبة وتشويقُهم لها، والرّحمنُ عامٌّ الرّحمة والإنعام، فمِن شأنه أن يشملَهم؛ إذا رجعوا إليه.

معنَى الفاءِ في: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾:

اتّباعُ النُّبوّةِ مُترتِّبٌ على الإيمانِ بالله تعالى

أدخل النَّظمُ الجليلُ الفاء على فعل الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي﴾؛ للدَّلالة على ترتيبِ ما بعدها على ما قبْلَها، فترتَّب الأمرُ بالاتِّباع على مضمون الجُملتَين السّابقتَين، أي: "إذا كان الأمرُ كذلك؛ فاتّبعوني في الثّبات على الدّين"[1].

دلالةُ الأمرِ بصيغةِ الاتِّباع:

لا يُتصوَّرُ إيمانٌ بلا جهدٍ وتكلُّفٍ للمُتابعةِ

عَبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الأمر بصيغة الافتعال منَ الفعل (تبع) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾؛ للدَّلالة على حثِّهم ببذل غايةِ جهدِهم في الرُّجوع إلى الله ونبْذِ عبادةِ العجل[2]، وذلك لِما في صيغة الافتعال من دلالةٍ على التَّكلُّف والاجتهاد؛ فمَن كان ربُّه الرحمنَ؛ فعَلَ ما في وسعِه وما يشقُّ عليه؛ حتى يرضيَه.

دلالةُ عطفِ طاعة الأمرِ على الاتِّباع:

طاعةُ الشَّريعة من تمام الإيمانِ بالنُّبوّة

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الأمرَ بالطّاعة على الأمرِ بالاتِّباع في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾؛ وذلك لأنَّه رتَّب الطّاعةَ على الاتِّباع، فأمرَهم بمعرفة حقِّ النُّبوَّةِ منَ الاتِّباع والإذعان، ثم عطفَ عليه الأمرَ بالامتثال إلى الشَّريعة؛ لأنَّها متأخِّرةٌ عنِ النُّبوة ومترتِّبةٌ عليها[3]، وعطفُ: ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ على مجموع ما قبلَها - والذي منه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ - يُفْهِمُ أنَّ المُتَّبَعَ والمُطاعَ أمرُه في الحقيقة هو الله الرّبُّ الرحمنُ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 37.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 332.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 92.

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ﴾:

الإيمانُ بالنُّبوَّة مُلزِمٌ للطّاعة

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الأمر بالطّاعة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾؛ للدَّلالة على وجوب طاعة أمرِه باعتباره نبيًّا؛ لأنَّه صادرٌ من أعلى رُتبةٍ إلى الأدنى، فذكَّرهم بوجوب الطّاعةِ بعد ذكر مُقتضيها، وهو اتِّباعُ النُّبوَّة.

نُكتةُ إسنادِ الطّاعة إلى الأمرِ دون نفسِه:

الأمــرُ بطاعة الشَّريعةِ أوقعُ في القَبول مِنَ الأمــر بطاعةِ الشَّخصِ

آثر النَّظمُ الكريمُ إسنادَ الطّاعة إلى الأمر دون طاعته نفسِه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، فلم يُقل: (وأطيعوني)؛ وذلك لأنَّ الطّاعة في الدّين ليست للشَّخص، بل للشَّريعة والتَّعاليم، فلا تعتبرُ بطاعة الشَّخص لذاتِه، بل لِما أُمِرَ به من أحكام الشَّريعةِ التي يدعو إليها، وإنَّما خاطبَهم بذلك تخفيفًا عليهم من وقْعِ الأمر، فإنَّ الإنسانَ يأنفُ من طاعة إنسانٍ آخرَ في الغالب، فأخبرهم ضِمنًا أنَّهم إذ يطيعونَه؛ فإنَّهم لا يُطيعون شخصَه، بلِ الأمرَ الشَّرعيَّ، وفي ذلك أيضًا مراعاةٌ لحالاتهم النَّفسيَّةِ والقلبيَّةِ الضّعيفة؛ إذ هم مالوا إلى عبادة هذا العجلِ، فكيف تكون نفوسُهم وقلوبُهم ضعفًا وخِفَّةً؟ وهذا ذكاءٌ مِنَ الدّاعي.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنة والابتلاء:

الفتنةُ أخصُّ مِنَ الابتلاء في الدَّلالةِ على الاختبار؛ فهي أشدُّ الابتلاءِ

الابْتِلاء: في الأصل، التَّكليفُ بالأمر الشّاقّ[1]، ولا يكونُ إلّا بتحميل المكارِه[2]، والفتنةُ ما يتَبَيَّنُ بها حالُ الإنْسان من الخَيْر والشَّر، يُقال: فتنت الذَّهَبَ بالنّار، لتعلم أنّه خالصٌ أو مَشوب[3]، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنَّها مشتقَّةٌ مِنَ الحرقِ بالنّار، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ

(1) الكفوي، الكليات، ص: 34.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 216.
(3) الكفوي، الكليات، ص: 692.

عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13][1]، وإنَّما آثرَ أن يعبِّر عنِ الاختبار بالفتنة في هذا الموضع؛ لأنَّ فتنةَ النّاس بتعريضِهم للابتلاء بشأن الإيمانِ والاعتقادِ أمرٌ بالغُ الشِّدَّة والخطورة، لِما له من أثرٍ خطيرٍ في الحكمِ على مصير العبدِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217.

﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾ [طه: 91]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ استعطافِهم بالنُّصحِ والوعظِ أعلنَ القومُ إصرارَهم على الضَّلال

بعدَ أن بيَّن النَّظمُ الجليل أنَّ هارونَ عليه السلام أمحضَهمُ النُّصحَ وأصدقَهمُ الوعظَ؛ بيَّن أنَّ "هذه النَّصيحةَ الحكيمةَ من هارونَ لهم لم تجدْ أُذُنًا صاغيةً، بل قابلوا نصيحتَه لهم بالاستخفاف، والتَّصميم على ما هم فيه من ضلالٍ؛ إذ قالوا في الرَّدِّ عليه: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾، أي: سنستمرُّ على عبادة العجلِ، وسنواظبُ على هذه العبادةِ مواظبةً تامَّةً"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

2) ﴿نَّبۡرَحَ﴾: (برح) أَصْلٌ وهو الزَّوالُ والبُروزُ والانْكِشافُ[2]، وأرض بَراح: واسِعَةٌ ظاهِرَةٌ لا نَباتَ فيها ولا عُمرانَ، والبَراح، بِالفَتْح: المُتَّسِعُ مِنَ الأرض لا زَرْعَ فيه ولا شَجَرَ، وبَرِحَ بَرَحًا وبُروحًا: زالَ، والبَراحُ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ: بَرِحَ مكانَهُ، أي: زالَ عَنْهُ، وصارَ في البَراح، وما بَرِحَ يَفْعَلُ كَذا، أي: ما زالَ، ولا أَبْرَحُ أفعل ذاكَ، أي: لا أزال أفعلُه، وبَرِحَ الأرضَ: فارَقَها، وقولُه جلَّ شأنه: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾، أي: لَنْ نَزالَ[3]، وخصَّ بالإثبات، كقولهم: لا أزال؛ لأنَّ برح وزال اقتضيا معنى النّفيِ، و(لا) للنَّفي، والنَّفيان يحصلُ من اجتماعِهما إثباتٌ، وعلى ذلك قولُه ﷺ: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الكهف: 60][4]، والمرادُ به في الآيةِ الكريمةِ: لن نزالَ مُقيمين على عبادة العجلِ[5].

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 141.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (برح).
(4) الرّاغب، المفردات: (برح).
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 502.

3) ﴿عَٰكِفِينَ﴾: (عكف) أصلٌ يَدُلُّ على مُقابَلَةٍ وحَبْسٍ، يُقالُ: عَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ عُكوفًا، وذَلِكَ إقْبالُكَ على الشَّيْءِ، لا تَنْصَرِفُ عَنْهُ[1]، وعَكَف على الشَّيْءِ: أقبل عليه مُواظِبًا لا يَصْرِفُ عَنْهُ وجْهَهُ، وقيلَ: أقامَ[2]، والعُكوفُ: الإقبال على الشَّيء وملازمتُه على سبيل التَّعظيم له[3]، والعكوف: "الملازمةُ بقصد القُربة والتّعبّد، وكان عبدةُ الأصنام يَلزمونها، ويطوفون بها"[4]، ومعنى ﴿عَٰكِفِينَ﴾: مُقبلين إليه بنفوسنا، غيرَ منصرفين عنه بقلوبنا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإصرارُ على المعصيةِ والضَّلالِ والعزوفُ عن نداءِ الإيمان والوعظِ

يخبرُ النَّظمُ الكريم أنَّ القومَ الذين عبدوا العجلَ من بني إسرائيل قد قالوا في ردِّهم على نُصح هارونَ ووعظِه لهم بأنَّنا سنستمرُّ، وندومُ على عبادة هذا العجلِ، ونواظبُ عليها مواظبةً تامَّةً حتّى يرجعَ إلينا موسى[5]، فأعلنوا إصرارَهم وعزوفَهم عن دعوة هارونَ عليه السلام.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الجملةِ في صدرِ الآية عمّا تقدَّمَها:

الإجابةُ بجفاءٍ بعدَ الوعظِ والنُّصحِ الأمين

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنَّ سائلًا سأل لمّا سمعَ ما قال هارونُ عليه السلام لهم قائلًا: فماذا كان جوابُهم وردُّهم بعدما بيَّن لهم الأمرَ، فلم يبقَ دونَه بيان؟ فقيل: قالوا ذلك بفظاظةٍ وجمودٍ[6]، ولم يحتج العطفَ؛ لأنَّها وقعت في سياق محاورةٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عكف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عكف).
(3) الرّاغب، المفردات: (عكف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 290.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 141.
(6) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 332.

والرّابطُ بين الآيتين تصديرُ الآية بفعل القول[1]، فالاتِّصالُ بين هذه الآية وما قبلها اتِّصالٌ خفيٌّ كما هو معلومٌ.

دلالةُ النَّفي بـ ﴿لَن﴾:

من عظيم الجحودِ إغلاقُ بابِ الملاطفة مع من يُظهرُ الحرصَ والرِّفقَ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بحرف النَّفي ﴿لَن﴾ الدّالِّ على نفي المستقبلِ نفيًا مؤكَّدًا في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾؛ للدَّلالة على استمرارهم على عبادةِ العجل، وأنَّهم سيُواظبون عليه مواظبةً تامَّةً[2]، فكان جوابُهم مُعبِّرًا عن تصميمِهم على المداومةِ على عبادة العجلِ وإصرارِهم عليه، فنفَوا الانفكاكَ عنه مستقبلًا ردًّا ورفضًا لدعوة هارونَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿نَّبۡرَحَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إصرارُ جماعةِ الضَّلالِ مُتجدِّدٌ راسخٌ في قلوبِهم

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالفعل (برح) الدّالِّ على الزّوال في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ فلمّا سلَّط عليه النَّفيَ؛ صار بمعنى انتفاءِ الزَّوال، تعبيرًا عن ملازمتهم لعبادته، أي: لن نزالَ مُقيمين على عبادة العجلِ[3]، وقد آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع للدَّلالة على دوام انتفاءِ مفارقتِه، فنفيُ المضارع يدلُّ على تجدُّد النَّفي لا نفي التَّجدُّد، فصيغةُ المضارع تحقيقٌ وتمكينٌ لنفيِ الزّوال، وقد جاء التَّعبيرُ بصيغة الجمع تأكيدًا على كونهم مُتَّفقين مُجمعين على هذا القول والرَّأي، وأنَّهم قد صاروا حزبًا للباطل.

نُكتةُ تعليقِ الخبرِ ﴿عَٰكِفِينَ﴾ بحرف الاستعلاء (على):

شغفَ العجلُ قلوبَهم حُبًّا ورسخَ في معتقدِهم

علَّقَ النَّظمُ الجليلُ العكوفُ بحرف الجر (على)[4] الدّالِّ على الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 283.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 141.
(3) الواحدي، البسيط: 14/ 502.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 410.

﴿إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة تمسُّكهم به، والمبالغةِ في تمكُّن محبَّته من قلوبهم وثباتِهم على عبادتِه، فهم نفَوا الزّوالَ عنِ العكوف المتمكِّن على العجلِ، وذلك إبلاغٌ في تخلية قلوبِهم ونفوسِهم ممَّا أراد هارونُ أن يملأها ويُحلّيَها.

دلالةُ تقديمِ شبه الجملة على الخبر:

تخصيصُ العبادةِ بالوثن إصرارٌ وتمسُّكٌ بالضَّلال

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على خبر الفعلِ النّاقصِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ وأصلُ الكلام أن يقال: (لن نبرح عاكفين عليه)؛ وذلك للدَّلالة على تخصيصِهم إيّاه بالعكوف، أي: لن نبرح نخصُّه بالعكوف، ولا نعكفُ على غيره[1]، تعبيرًا عن شدَّة تمسُّكهم به وحبِّهم له، كما حكى عنهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: 93]، وفي هذا إهمالٌ شديدٌ للتّعبير بالرّبّ والرّحمن على لسان هارونَ لهم، ففي العجل ما يجعلُهم حريصين عليه ومُقبلين إليه بهذه الصِّفة الشّديدةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَٰكِفِينَ﴾ موقعًا ومادَّةً وصيغةً:

ثباتُ الضّالّين على ضلالهم مجتمعين على زيغهم

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ العكوفِ خبرًا عنِ الفعل النّاقص في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾؛ للدَّلالة على الإقامة على عبادة العجل، وقد جاء التَّعبيرُ باسم الفاعل للدَّلالة على ثبوت المعنى، أي: إنَّهم ثابتون على العكوفِ عليه عكوفًا لا ينتقض بالزَّمان، وكونُه مجموعًا يدلُّ على صدور قولهم ذلك عن إجماع واتِّفاقٍ، أي: "مقيمين مُستديرين مجتمعين، وإن حاربنا في ذلك"[2]، وفي مادّة: ﴿عَٰكِفِينَ﴾ منَ الفصلِ والحسم ما به يُواجهون نحوَ: ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾؛ لأنَّ هذيۡنِ الأمريۡنِ حسمٌ وقطعٌ لضرورة تركِهم عبادةَ العجل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 290.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 332.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿حَتَّىٰ﴾:

ذرُّ الرَّمادِ في العيونِ بخداع المؤمنين بالكاذبِ منَ الوُعود

قيَّد النَّظمُ الجليلُ العكوفَ الذي انتفى عنه الزَّوالُ بحرف الجرِّ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ وهو حرفٌ دالٌّ على الغاية[1]، أي: إلى أن يرجع إلينا موسى، فجعلوا رجوعَ موسى عليه السلام إليهم "غايةً لعُكوفهم على عبادة العجلِ لكنْ لا على طريق الوعدِ بتركِها عند رجوعِه عليه السلام، بل بطريق التَّعليل والتَّسويفِ، وقد دسّوا تحت ذلك أنَّه عليه السلام لا يرجِع بشيءٍ مبينٍ تعويلًا على مقالة السّامريِّ"[2].

نُكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿إِلَيۡنَا﴾ على الفاعل:

الاستكبارُ على أشُدِّه بحصرِ عودةِ موسى بهم

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على الفاعل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ وكان أصلُ الكلام أن يقال: (حتَّى يرجع موسى إلينا)؛ لأنَّهم لم يريدوا مطلقَ الرُّجوع، بلِ الرُّجوعَ إليهم خاصَّةً إظهارًا لتعنُّتهم، واستكبارًا منهم، فكأنَّ موسى إنَّما يرجع لأجلِهم، وأنَّهم المثابةُ التي يعودُ إليها موسى.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 410.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 37.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾ [طه: 92 - 93]

بعدَ مساءلةِ القومِ يأتي التّحرّي عن سلوكِ الوصيِّ فيهم

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد أن حكى النَّظمُ الجليلُ ما وقع من محاورةٍ بين موسى عليه السلام وقومِه؛ انتقل النَّظمُ لحكاية ما وقعَ من محاورةٍ بين موسى وأخيه هارونَ عليهما السلام[1]، فبيَّن تعالى ما قال موسى لأخيه هارونَ بعد رؤيتِه ضلالَ قومه بعبادة العجلِ وتركِ التَّوحيد[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَعَكَ﴾: (منع) أصلٌ يدلّ على خلافِ الإعْطاءِ[3]، المَنْعُ: أن تَحولَ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشَّيْءِ الَّذي يُريدُهُ، مَنَعَه يَمنَعُه مَنْعًا ومَنَّعَه، فامتنَعَ مِنْهُ، وتمنَّع[4]، قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم﴾ [الحشر:2]، أي: ظنّوا أنَّ الحصون تحجزُ بينهم وبين مَنْ يريدُهم، والمنعُ في الأصل الحجزُ بين شيئين، وهو ضدُّ العطيَّة؛ لأنَّ الحاجزَ يحجزُ بين المعطي والعطيَّة[5]، يقال: رجل مانعٌ ومنّاعٌ، أي: بخيلٌ، قال الله تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:7]، وقال جلَّ شأنُه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف:12]، أي: ما حمَلك؟ وقيل: ما الذي صدَّك، وحمَلك على ترك ذلك؟[6] فمعنى: ﴿مَنَعَكَ﴾: حالَ بقوةٍ بينك وبين أن تتّبعني في الأخذ على أيدي هؤلاء الظّالمين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 291.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (منع).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (منع).
(6) الرّاغب، المفردات: (منع).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التّقصّي عن موقفِ هارونَ إزاءَ شركِهم

يُخبر النَّظمُ الكريمُ أنَّ موسى قال لأخيه هارونَ ﵉ على سبيل اللّوم والمعاتبةِ: ما الذي منعك من أن "تتّبعني في الغضبِ عليهم لدين اللّه حين رأيتَهم عاكفين على عبادة العجلِ، أفعصيتَ أمري فيما قدَّمتُ إليك من قولي: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]، وفيما أمرتُك به من الصّلابة في الدّين؟ لأنَّ وجودَك فيهم، وقد عبدوا غيرَ اللّه تعالى يعدُّ تهاونًا معهم فيما لا يصحُّ التّهاونُ فيه"(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآياتِ عمّا سبقَها:

استئنافُ التّحرّي بعد سؤالِ القومِ بسؤالِ القائدِ المستخلَفِ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ سيقت للإجابة عن "سؤالٍ نشأ من حكايةِ جوابهم لهارونَ ﵇، كأنَّه قيلَ: فماذا قالَ موسى لهارون ﵉ حين سمع جوابَهم له؟ وهل رضيَ بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهدَ؟ فقيل: قال له، وهو مغتاظٌ قد أخذ بلحيته ورأسه: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾"(2).

فائدةُ النِّداءِ لأخيه بـ (يا) واسمِه:

التّنبيهُ بالنّداء على خطورة الخطابِ والإقبالِ عليه

خاطب النَّبيُّ موسى ﵇ أخاه بالنِّداء في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ تنبيهًا على جسامة الخطْبِ، وتمهيدًا للتَّوبيخ في مضمون الخطاب، فالنِّداءُ يستدعي منَ السّامع إطراقَ سمعِه، بخاصَّةٍ إذا كان في سياق حديثٍ عن أمرٍ جلل، وإنَّما أفرد هارونَ بالخطاب دون سائرِ القوم لكون موسى يعلمُ أنَّ "هارونَ مخصوصٌ من قومه بأنَّه لم يعبدِ العجلَ؛ إذ لا يجوزُ عليه

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 142.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 37.

ذلك؛ لأنَّ الرِّسالة تقتضي العصمةَ، فلذلك خصَّه بخطابٍ يناسبُ حالَه بعد أن خاطب عمومَ الأمَّة بالخطاب الماضي، وهذا خطابُ التَّوبيخ والتَّهديدِ على بقائه بين عبدةِ الصَّنم"[1]، والخطابُ بذكر الاسم أنسبُ في مقام العتاب من الخطاب بلفظ (أخي) ونحوِه مِن الأوصافِ، والنِّداءُ بـ(يا) التي هي لنداء البعيد؛ للإيماء إلى البُعد الذي بين موسى وهارون بالمخالفةِ التي قام بها هارونُ في نظر موسى، والتي يتضمَّنها قولُه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِّۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾، فـ(يا) توطئةٌ لذلك، ولأجل تلك المخالفةِ، وذلك البُعدِ جرَّدَه مِن وصفِ الأُخُوَّة ونحوِها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ المجازيِّ:

انتفَى المانعُ عنِ المتابعة حتّى أحوجَ البحثَ عنه بسؤالٍ يَستقصيه

استعمل النَّظمُ الجليلُ الاستفهامَ لغرضٍ مجازيٍّ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾، فليس المرادُ استخبارَ هارونَ، بلِ الإنكارَ عليه، أي: "لا مانعَ لك منَ اللَّحاق بي؛ لأنَّه أقامَه خليفةً عنه فيهم، فلمّا لم يمتثلوا أمرَه؛ كان عليه أن يردَّ الخلافةَ إلى مَن استخلفَه"[2]، فنفى أن يكون هناك مانعٌ يمنعُه، فأنكر عليه عدمَ فعلِ ذلك.

بلاغة تضمينِ الفعلِ ﴿مَنَعَكَ﴾ معنًى (حمل):

المنعُ يدلُّ على الحملِ على الفعلِ لاستقامةِ النَّفي

أجاز أئمَّةُ التَّفسير في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ أن يكونَ الفعلُ ﴿مَنَعَكَ﴾ متضمِّنًا معنَى (حمل)، أي: "(ما حمَلك على ألّا تتّبعني)؛ فإنَّ المنعَ عنِ الشّيء مُستلزمٌ للحمل على مقابلِه"[3]، وإنَّما جعلوه متضمِّنًا ذلك لدخولِ حرف النَّفي على الاتِّباع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِّۖ﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 291.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 291.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 37.

فالفعلُ ﴿مَنَعَكَ﴾ يدلُّ على انتفاء المعنَى، ثمَّ تعقيبُه بنفيِ الاتِّباع سيدلُّ على إثبات المعنى؛ لأنَّ نفيَ المنفيِّ إثباتٌ، ويكونُ المعنى: أنَّك مُنِعَت من انتفاء المتابعةِ وعليه، فالمتابعةُ مثبتةٌ، وهذا خلافُ المعنى المرادِ، فحَكَمَ جمهرةٌ من أئمَّة التَّفسيرِ بزيادةِ (لا)، وذهب آخرون إلى تضمين الفعلِ معنَى الحمل، وتكونُ (لا) باقيةً على النَّفيِ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِذۡ﴾:

مفارقةُ الباطلِ واجبةٌ وقتَ حصولِ الضَّلال

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بظرف الزَّمان الدّالِّ على الماضي ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾، والعاملُ فيه الفعلُ ﴿مَنَعَكَ﴾، فطلبُ المفارقة يجب أن يحصلَ حين ظهورِ ضلالهم، أي: "أيُّ شيءٍ منعكَ حين رؤيتِك لضلالهم أن تتبعني في الغضبِ للّه تعالى والمقاتلةِ مع من كفرَ به"[1]، فكان الواجبُ عند موسى عليه السلام مفارقتَهم حالَ فعلِهم الضَّلالَ دون تريُّث، أو توانٍ، ففي النَّصّ على زمان المخالفةِ والضّلال بـ ﴿إِذۡ﴾ تعظيمٌ لذلك الوقت؛ مِمَّا يترتَّبُ عليه ما يطلبُه موسى مِن هارونَ مِنَ المفارقةِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالرّؤية:

تحقُّقُ العلمِ برؤيتِهم عيانًا يوجبُ الانصرافَ عنهم اتِّباعًا

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بفعل الرُّؤيةِ عنِ العلم في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ للدَّلالة على العلم اليقينيّ، فهو عَلِمَهُم مشاهدةً لا معنًى، ففي التَّعبير بذلك تأكيدُ تحقُّقِ معرفتِه، والمقصودُ من ذلك تأكيدُ الإنكار، وتشديدُ التَّوبيخ على عدم المتابعةِ، حيث تحقَّقَ العلمُ بضلالِهم، فكيف تبقَى معهم، ولم تتابعْني؟ ووراء ذلك مِن المعنى تعظيمُ ما كان منهم مِن ضلالٍ مِن شأنِه أن يستوجبَ ما يطلبُه موسى مِن هارونَ، وما قام به موسى مِن لوم أخيه هارونَ هذا اللّومَ مع توبيخِه وتعنيفِه والتّشديدِ عليه.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 37.

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ الماضي: ﴿ضَلُّوٓاْ﴾:

تحقُّقُ الضَّلال علَّةٌ دافعةٌ لمفارقتِهم

آثر النَّظْمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي ﴿ضَلُّوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق ضلالِهم وتأكيدِ وقوعه وحصولِه، وهو علَّةُ إنكارِ موسى على هارونَ عَلَيۡهِمَا السَّلَامُ عدمَ مفارقتِهم ولحاقِ موسى.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ ﴿ضَلُّوٓاْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ضَلُّوٓاْ﴾ كنايةٌ عنِ اتّخاذ العجلِ إلهًا وعبادتِه من دونِ اللّه تعالى، ويحتملُ وجهًا آخرَ للكنايةِ: وهو نفيُ موسى السَّببَ عنِ المسّبب، وهو عدمُ الاتِّباع(1).

نُكتةُ تقديمِ قوله: ﴿إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾:

تقديمُ السَّببِ الموجِبِ للمتابعةِ يُفصحُ عن وجوبِ المفارقةِ

قدَّم النَّظْمُ الجليلُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ ظرفَ الزَّمان: ﴿إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ على المفعول به، وهو المصدرُ المؤوَّلُ من أن والفعلِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾، فلم يُقَل: (ما منعك أن تتَّبعني؛ إذ رأيتهم ضلّوا)؛ فقد قدَّم ذكرَ السَّبب الدّافعِ على وجوبِ الاتِّباع - وهو ضلالُهم - على ذكر المفعولِ به - وهو المتابعةُ - لأنَّه مسبَّبٌ عنِ الضَّلال، فقدَّم السَّببَ على النَّتيجة، ففي ترتيبِ: ﴿إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ تصويرٌ للواقع؛ وبيانُ أنَّ هارونَ رتَّبَ شيئًا على شيءٍ لا يترتَّبُ عليه، وأنَّ مضمونَ ما أُضيفت إليه إذ: ﴿رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾، كان من شأنه أن يحملَك بقوَّةٍ على تركِهم، والأخذِ على أيديهم، واللّحاقِ بي، وقد مكَّنَ القرآنُ هذا المعنى بأنْ جعَل: ﴿إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ في آيةٍ مستقلّةٍ مع ما قبلَه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؛ وليتوجَّه الاستفهامُ المعنِّفُ هارونَ بتقديم: ﴿إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾، ونظمَه في آيةٍ مستقلة، وفيه أيضًا تهويلٌ لشأن الحدث، وهو الضَّلالُ لبيانِ أنَّ المذكورَ لاحقًا واجبٌ إزاءَ هذا الضَّلال وهو متابعةُ موسى ومفارقتُهم.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 327.

دلالةُ التَّركيبِ ﴿أَلَّا﴾:

ناسبَ اختيارُ لا النّافيةِ توكيدَ مُعاتبةِ موسى لهارونَ عليهما السلام

وُصِل في رسم المصحف الكريم بين (أنْ) و(لا)، فكُتبتا ﴿أَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾، فأدخل (أنْ) المصدريّةَ على (لا) النّافية، أي: ما منعك أن تتّبعني[1]، وقد درج جمهورٌ من المفسِّرين على أنَّ (لا) زائدةٌ، والغرضُ منها التَّوكيدُ، وهي كما في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، فـ (لا) "مزيدةٌ للتّأكيد؛ لأنَّ النّافيَ إذا زيدَ في كلامٍ كان نافيًا لضدِّ مضمونِه، فيفيدُ إثباتًا للمضمون ونفيًا لضدِّه، فيكونُ ذلك في غاية التَّأكيد"[2]، واصطفاءُ لا النّافية؛ لمناسبتِها معنى المخالفة، والبُعدِ الذي بين موسى وهارون، ولِما فيها من ألفِ مَدٍّ تصوُّرُ صراخَ موسى المعنويَّ في وجه هارون، وتصوُّرُ المخالفةَ والمباعدةَ بينهما أيضًا، وذهب الحذّاقُ منَ النُّحاة إلى أنَّها ليست مزيدةً، بلِ الكلامُ على التّضمين السّابقِ ذكرُه، والمعنى:"ما حمَلك على عدم الاتّباع فإنَّ المنعَ عنِ الشّيء مُستلزمٌ للحمل على مقابلِه"[3].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ ودلالتُه:

وقوعُ المنعِ على الاتِّباعِ يَنصبُه على المفعوليَّةِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ عنِ المفعول به للفعلِ ﴿مَنَعَكَ﴾ بالمصدر المؤوَّلِ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾، فالمصدرُ مفعولٌ به ثانٍ للفعلِ ﴿مَنَعَكَ﴾[4]، فـ(أن) حرفٌ مصدريٌّ ينصبُ الفعلَ المضارع، وأجاز معرّبو القرآن الكريم أن يكونَ هذا المصدرُ في محلِّ جرٍّ بحرف جرٍّ محذوفٍ متعلّقٍ بالفعل ﴿مَنَعَكَ﴾، والتَّقديرُ: (ما منعك من اتّباعي)[5]، وفي حذف حرفِ المعنى: (مِن) تنبيهٌ على قوّةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 60.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 41، والخطيب، السراج المنير: 2/ 481.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 560.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 560.
(5) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 411.

سببيَّةِ اتِّباعِه وسرعتِه مِن كون موسى أصلًا لهارونَ، ومِن عظيمِ ضلالِ مَن عبدَ العجلَ مِن دون اللّه ﷻ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿تَتَّبِعَنِۖ﴾:

غايةُ الحزمِ اتِّباعُ الحقِّ والهدايةُ بعدَ الضّلالِ

فُسِّرت جملةُ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ بإرادة الحزمِ مع بني إسرائيل لغرضِ حملِهم على اتِّباع الحقِّ لمّا زاغوا عن سبيله، وضلّوا ليكونَ في العبارةِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ[1].

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

عـدمُ تـوقُّـعِ معـصيـةِ الأخ لأخيه

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ للإنكار والتوبيخ، فهو استفهامٌ مفرَّعٌ على الإنكار في الاستفهام الأوَّل في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾، فهو إنكارٌ ثانٍ على مخالفة هارونَ عليه السلام لأمر أخيه، وفيه إيماءٌ للتَّقرير والتَّهديدِ[2].

معنَى الفاء ودلالتُها على المحذوف في قوله: ﴿أَفَعَصَيۡتَ﴾:

ترتُّبُ المعصيةِ عن الاستكبارِ ترتُّبَ المسبَّب على السَّببِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ بالفاء[3]، وذلك للدَّلالة السَّببيَّةِ، أي: "فتكبَّرت عن اتِّباعي، فتسبَّبَ عن ذلك أنَّك عصيتَ ﴿أَمۡرِي﴾"[4]، فعطف النَّتيجةَ على السَّبب، فالمعصيةُ مترتِّبةٌ على الامتناع عن المتابعة.

دلالةُ إضافةِ الأمر لضميرِ المتكلِّم:

أمـرُ الأنـبـيـاءِ مـوجـبُ الاتِّـبـاع، فلا يُتصوَّرُ عصيانُ الصّالحين له

أضاف النَّظمُ الجليلُ لفظَ الأمر إلى ضمير المتكلَّم في قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ إشارةً إلى الأمر الذي أمرتُك به من

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 328.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 292.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 412.
(4) الخطيب، السراج المنير: 2/ 481.

القيام بمصالحهم[1]، كما أنَّ الإضافة إلى ضميرِ المتكلِّم – وهو النَّبيُّ المرسلُ – يدلُّ على فخامة الأمر، ومِن ثَمَّ على وجوب اتِّباعه، ليستقيمَ الإنكارُ والتَّوبيخُ، كما أنَّه يبيِّن وجهَ المعصية، فالأمرُ صادرٌ من جهة المشرِّع الواجبِ اتِّباعُه.

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 380.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤﴾ [طه: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ حقيقةِ الموقفِ بعد إبداءِ التَّأنيبِ والعتاب

بعد أن حكى النَّظمُ الجليلُ ما قال موسى لأخيه هارونَ عليهما السلام، على سبيل اللَّوم والمعاتبةِ بعد رؤيته ضلالِ قومه بعبادة العجلِ؛ حكى ما ردَّ به هارونُ عليه السلام مجيبًا عن علَّة اكتفائه بوعظِهم، "وكأنَّ موسى عليه السلام كان يريدُ من أخيه هارونَ عليه السلام موقفًا يتَّسمُ بالحزم والشِّدَّةِ مع هؤلاء الجاهلين، حتّى ولو أدَّى الأمرُ لمقاتلتِهم، وهنا يردُّ هارون على أخيه موسَى ردًّا يبدو فيه الرِّفقُ والاستعطاف، فيقول: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ﴾"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَأْخُذْ﴾: (أخذ) أصلٌ يدلّ على حَوْزِ الشَّيْءِ وجَبْيِه وجَمعِه، تَقولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا(2)، الأَخْذُ: خِلافُ العَطاءِ، وهو أيضًا التَّناوُلُ، أخذت الشَّيْءَ آخُذُه أخذًا: تَناوَلْتُهُ؛ وأَخَذَه يأْخُذه أَخْذًا، ويُقالُ: خُذِ الخِطامَ وخُذْ بالخِطام بِمَعْنًى، يُقالُ: أُخِذَ فلانٌ بِذَنْبِه، أي: حُبِسَ وجوزيَ عليه، وعوقِب بِه(3)، والأَخْذُ: حوزُ الشيء وتحصيلُه، وذلك تارةً بالتَّناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾ [البقرة: 255](4)، ومعنى ﴿لَا تَأْخُذْ﴾ في الآية: لا تتناولْ لحيتي ورأسي بقوّةٍ.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 142.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(4) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

2) ﴿تَرۡقُبۡ﴾: (رقب) أصْلٌ يَدُلُّ على انْتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيْءٍ[1]، والتَّرَقُّبُ: الانْتِظارُ، وكَذلِكَ الارْتِقابُ[2]، والرّقيبُ: الحافظ، وذلك إمّا لمراعاته رقبةَ المحفوظ، وإما لرفعِه رقبتَه، قال تعالى: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود: 93]، وقال تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ [التوبة: 10][3]، ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18]، أي: يتَلَفَّت منَ الخوف ينْتَظِرُ الطَّلب، ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ٥٩﴾ [الدخان: 59]، أي: فانتظرِ النَّصر الذي وعدناك إنَّهم مرتقبون فيما يَظنّون الدوائرَ عليك[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة: لم تحفظْ وصيَّتي[5].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

المحافظةُ على تماسكِ الجماعةِ ونبْذِ الفتنةِ، وترجيح المصلحةِ العامَّةِ

يخبرُ النَّظمُ الكريمُ أنَّ هارونَ عليه السلام قال لموسى تهدئةً لغضبه بتحريك عاطفةِ الرَّحِم: يا ابنَ أمّي لا تمسك بلحيتي ولا بشعري؛ فإنّي لستُ عاصيًا لأمرك، فما حملني على البقاءِ معهم، وعلى تركِ مقاتلتِهم بعد أن عبدوا العجلَ، إلّا خوفي من أن تقول لي: إنَّك بعملِك هذا قد جعلتَ بني إسرائيلَ فرقتَين متنازعتَين، ولم تتبعْ وتُطعْ قولي لك: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]، فبقيتُ معهم ناصحًا واعظًا، حتّى تعودَ أنت إليهم، فتتداركَ الأمرَ بنفسك[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ قولِه تعالى: ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ﴾:

الغلظةُ في الإنكارِ تُدفعُ بحسنِ الخطابِ والتَّذكيرِ بآصرةِ الرَّحِمِ

فصل النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رقب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رقب).
(3) الرّاغب، المفردات: (رقب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رقب).
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 506.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 143.

﴿بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت للإجابة عن سؤال نشأ منَ المحاورة، فبعد إنكار موسى على هارون عليهما السلام، كأنَّه قيل: فبماذا أجاب هارونُ على ذلك الإنكار والتَّوبيخ؟ فقيل: قال مجيبًا له باستعطاف ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ﴾[1]، مذكِّرًا إيّاه بأمِّه ترقيقًا لقلبه بعد ذلك الإنكارِ الشَّديدِ.

فائدةُ النِّداء بـ ﴿يَبۡنَؤُمَّ﴾ دون يا أخي:

التّذكيرُ بالأمّ أكثرُ إثارةً واستجلابًا للرقّةِ والعطفِ

آثر النَّظمُ الكريمُ النِّداءَ بلفظ الأمِّ دون الأخ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ فعدل من قوله: (يا أخي) إلى ﴿يَبۡنَؤُمَّ﴾؛ طلبًا لرقَّة قلبه والاستشفاعِ بالتَّذكير بالأمِّ؛ "لأنَّ ذكر الأمِّ تذكيرٌ بأقوى أواصر الأخوَّةِ، وهي آصرةُ الولادة من بطن واحدٍ، والرّضاعُ من لبانٍ واحدٍ"[2]، فإذا استعظم موسى حقَّ الأُمِّ؛ رقَّ قلبُه لهارون؛ لأنَّها يَسوؤها ما يسوءُ هارونَ، وهي أرقُّ مِن الأبِ[3]، وخصوصُ هذا النّداءِ مقابلٌ لاشتدادِ موسى على هارون، فالتّقابلُ بينهما واضحٌ.

دلالةُ إضافةِ الابنِ إلى الأمِّ دون الأب:

الأمُّ أرقُّ قلبًا مــنَ الأبِ، والتّذكيرُ بها أجلبُ للعطفِ وتحقيقِ المأمول

أضاف النَّظمُ الجليلُ لفظَ الابن إلى الأمِّ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾؛ لأنَّ التَّذكيرَ برابطةِ الأخوَّة منَ الأمِّ أكثرُ ترقيقًا واستعطافًا[4]، فذكَّره بالأمِّ خاصّةً وإن كان شقيقَه من أبيه كذلك؛ لأنَّ الأمَّ تُساء بما يسوء ابنَها أكثرَ منَ الأب؛ لأنَّها أرقُّ منه قلبًا[5]، والملاطفةُ في الخطاب مِمَّا تأسَّسَتْ عليه السّورةُ مِن مقاصدَ.

(1) الخطيب، السراج المنير: 2/ 481.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 292.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 41، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 633.
(4) الواحدي، البسيط: 14/ 504.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 334.

دلالةُ النَّهيِ عن أخذ اللِّحيةِ والرَّأس:

طلبُ الرَّحمة والاستعطافِ بعد بيانِ حسنِ الفعل والحكمةِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بأسلوب النَّهيِ في قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ طلبًا للاسترحام والاستعطافِ، فليس النَّهيُ هنا دالًّا على إيجاب تركِ الفعل؛ لأنَّه من أدنى رُتبةٍ إلى أعلى، فهو التماسٌ واسترحامٌ لعدم التَّأنيبِ والإذلالِ بأخذ اللِّحية والرَّأس، وليس الأخذُ بهما دليلًا على الاستخفاف؛ لأنَّ العادة في ذلك الزَّمان لم تكن كذلك، بل كان يجري ذلك مجرى القبضِ على اليد، والعاداتُ تختلفُ أحكامُها بحسب الزَّمان[1].

نُكتةُ فصلِ جملةِ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾:

الحكمةُ من الفعل تنمُّ على مقصدٍ نبيلٍ وأثرٍ خطيرٍ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا، علَّل به تركَ التَّشديدِ عليهم بأنَّ ذلك قد يُفضي إلى تفرُّقهم ومقاتلتِهم[2]، فالاستئنافُ سيقَ لتعليلِ ما أوجب طلبَه في قوله: ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ مبيِّنًا الدّاعيَ إلى ترْك مقاتلتِهم، ومُفصحًا عنِ انتفاء عصيانِه لأمر أخيه، بل هو ممتثلٌ به، أي: إنّي لو قاتلتُ بعضَهم ببعض؛ فسيتفرَّقون، فلذا خشيتُ ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بمقاتلتِهم[3]، وإنَّما كان تفرُّقهم متوقَّعًا منهم؛ لأنَّه لو خرج عنهم لتبعَه جماعةُ المؤمنين منهم، وتخلَّف مع السّامريِّ من عبدَ العجلَ، وربَّما أفضى ذلك إلى القتال بينهم، فخشي هارونُ أن يقول موسى: لم تعملْ بوصيتي لك فيهم، وتحفظْها، وهي قوله: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾ [الأعراف: 142]، ولم تراعِ ما أمرتُك به من حسن الخلافةِ والإصلاحِ.

---

(1) الواحدي، البسيط: 14/ 505، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 38،
(2) الخطيب، السراج المنير: 2/ 481.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 38.

سرُّ حذفِ النّونِ في قوله: ﴿إِنِّي﴾:

رُبَّ حذْفِ حرفِ مبنًى؛ أفاد جملةً مِنَ المعنى

لَمَّا كان موسى غاضبًا بشدّةٍ، ولائِمًا هارونَ بقوة متَّهمًا له بمخالفتِه وعصيانِه، وكان ذلك ممّا يُوجِعُ هارونَ ويؤلِمُه حسّيًّا ومعنويًّا، وكان هارونُ قد قال له: ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾، فأَفْهَم ذلك أنَّ هارونَ يملك عذرًا ما، فاستجاب له موسى، وسمِعه، ورحِمَه؛ أسرع هارونُ إلى الجواب الذي يُبرِّئه، فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إلى آخره، وحذْفُ النون - مطلقَ حذفٍ - يصوِّرُ معنى السُّرعة؛ لأنَّ حروف الكلمة مع الحذف تقِلُّ، وهذا أدعى إلى السُّرعة، وفي حذف النّون تنبيهٌ على ضجر هارونَ وضيقِ نفسه؛ مِن أثر أَخْذِ يديْ موسى بلحيته ورأسه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخشيةِ دون الخوفِ:

تفرُّقُ القوم وهم أمّةٌ واحدةٌ يورثُ خشيةً عظيمةً

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالخشية دون الخوف في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾؛ لأنَّ الخشيةَ أخصُّ مِنَ الخوف، فهي خوفٌ مع تعظيم ممّا يُخافُ منه[1]، أمّا الخوف؛ فهو خوفٌ عن أمارةٍ ظاهرةٍ أو مظنونةٍ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَن﴾ المصدريَّةِ وموقعِ المصدرِ المؤوَّلِ:

دوامُ الملامةِ والتَّعنيفِ هو الدّافعُ لاتِّباعِ الحكمةِ في السُّلوك

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بـ ﴿أَن﴾ المصدريَّة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهي ناصبةٌ للفعل المضارع، وينسبكُ منها ومنَ الفعل بعدها مصدرٌ، وهو في موضع نصبِ مفعولٍ به للفعل خشيَ، وقد آثر التَّعبيرَ بالمصدر المؤوَّل منَ الفعل المنصوب بـ ﴿أَن﴾ لدلالته على الزَّمن المستقبل، فهارونُ لم يكن يخشى القولَ على وجه الإطلاق، بل كان يخشى ذلك لمّا يجيء موسى في المستقبل، والتّجدُّدُ في المضارع ﴿تَقُولَ﴾ يرمزُ إلى

(1) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(2) الرّاغب، المفردات: (خوف).

استمرار مضمونِ القول في نفس موسى، وأنَّه لا يكون قولًا يقوله مرّةً، وانتهى الأمرُ، بل يظلّ يذكرُه لهارون، وذلك في حالة أن يكون من هارونَ ما يطلبُه موسى منه.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَرَّقْتَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كلُّ تفرُّق ذو أثرٍ جسيمٍ، وسوءٍ عظيمٍ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ عنِ التَّفريق بالفعل على وزن (فعَّل) في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالة على التَّكثير والمبالغة، فإنَّ وقوعَ الاختلاف بين القوم في شأن الاعتقادِ والتَّوحيد، ثمّ النُّزوعَ إلى التَّغليظ عليهم بالمقاتلة أوِ النَّبذ: يُنتج التَّفرُّقَ العظيم بين أبناء القوم، فعبَّر بصيغة التَّكثير مبالغةً في بيان عظيم سوءِ أثرِ ذلك التَّفرُّق، وفي ذكرِهم باللّفظ الدّالّ على توحُّدهم وقوَّتهم - وهو: ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ - دليلٌ على عِظم هذا التّفرق، وعِظم أثره السيّئ.

نُكتةُ الإظهارِ بعد الإضمارِ في: ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

ذِكْرُ إسرائيلَ تنويهٌ بسوءِ ذلك التَّفريقِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الظّاهر دون الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فلم يقل: (فرَّقت بينهم)؛ إشارةً إلى أنَّهم أبناءُ رجلٍ واحدٍ[1]، فأظهر اسمَ أبيهم الأوَّل تنويهًا بمكانة العذرِ الذي قدَّمه، بأنَّه خشي تفريقَ أمَّةٍ مجتمعةٍ منتسبةٍ إلى أبٍ واحد، فالتّعبيرُ بـ: ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، مناسبٌ لذكر التَّفريقِ المحذورِ منه بين القوم، إيماءً إلى شناعة ذلك التَّفريق؛ إذ إنَّه يقعُ بين أبناء يَنتسبون إلى واحدٍ، ويبيِّنُ ذلك عظمَ خشيته، وكونَها نابعةً عن حكمةٍ ودرايةٍ، ولو قيل: (بين قومي)، أو (بين قومك)، أو (بين قومنا)؛ لَما كان ذلك.

بلاغةُ الجناسِ في ﴿بَيْنَ بَنِيٓ﴾:

جمع النَّظمُ الجليلُ بين لفظَين متَّفقَين في الحروف، ولكنَّهما

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 38.

مختلفان في ترتيبها في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وهو ما يُسمّى جناسَ القلْب والعكس(1)، فاللَّفظان مختلفان في ترتيب الحروف فقط، وهو نحو (فتح، وحتف) في قولهم: "حُسامُهُ فتْحٌ لأوليائه، حتْفٌ لأعدائه"(2)، وفي جمعِ هذين اللَّفظَين في عبارة واحدةٍ جماليَّةٌ لفظيّةٌ تثيرُ انتباهَ السّامع إلى الاهتمام بهما، وهو المرادُ من بيان هارونَ بذكر بني إسرائيل، فعبَّر موسى بهذا اللَّفظ لينبِّهه على أنَّ التَّفريق وإن كان مذمومًا؛ فإنَّه أشدُّ ذمًّا لو كان في ذرّيَّة رجلٍ واحدٍ، وفي اختلاف ترتيبِ الحروف الذي هو قِوامُ هذا الجناس تمكينٌ لمعنى التّفريق الذي يُشتِّتُ النّاسَ، ويجعلُهم لا يَقرُّون بحالٍ؛ تنبيهًا على عِظَمِ الاحتجاج بذلك التّفريقِ.

جماليَّةُ اللَّفظِ بتَكرارِ شبيهه تُلفتُ النَّظرَ إلى اللَّفظِ الدّالِّ على أنَّهم أبناءُ أبٍ واحدٍ

معنَى الواو في قوله: ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وذلك لتشريك الجملة الثّانيةِ بالخشية منَ القول المذكورِ قبْلهم في الجُملتين في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ﴾، أي: إنّي خشيتُ أن تقول مجموعَ الجملتين، فتنسبَ إليَّ تفريقَهم، ونَبذي وصيَّتِك(3)، ومجيءُ هذه الجملة دليلٌ على ما يُفهمُه التّجدُّدُ في: ﴿قَوۡلِي﴾ مِن استمرار مضمونِ مقول القولِ في نفس موسى؛ لو فعل هارونُ ما كان موسى يطلبُه، ويتوقّعُه منه.

تعدَّدت أسبابُ الخوف، فخوفٌ مـنَ التَّفريق وخوفٌ مـنَ الاتِّهام

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَرۡقُبۡ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ المراقبةِ والتَّرقُّبِ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾؛ للدّلالة على

مراعاةُ وصيّةِ النَّبيِّ أمرٌ مُلزمٌ لكلِّ تابعٍ

(1) جناس القلب، أو تجنيس التَّقليب، أو جناس العكس: هو أن يتوافق اللَّفظان في حروفهما، ولكنَّهما يختلفان في ترتيبها، يُنظر: ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص: 30، وعصام، الأطول: 2/ 462.

(2) عصام، الأطول: 2/ 462.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 561.

خوف هارونَ من اتِّهامه بانتفاء مراعاةِ وصيَّة موسى، فالمرادُ منَ الفعل ﴿تَرْقُبْ﴾ المراعاةُ والحفظُ للوصيَّة، فنفى عن نفسه الإهمالَ والتَّقصير في حفظ وصيَّةِ أخيه، وهذا إمعانٌ مِن هارونَ في تبرئة نفسِه ممّا رماه به موسى؛ كنايةً عن شديدِ ما أَلَمَّ به منه، وما قيل في دلالة التّجدُّد في المضارع ﴿تَقُولَ﴾ يقال هنا فيها في المضارع ﴿تَرْقُبْ﴾.

فائدةُ إضافةِ القولِ إلى ضميرِ المتكلِّم:

إضافةُ القولِ إلى النَّبيِّ تفخيمٌ لشأنِ المقولِ وإشارةٌ إلى إيجابِه

أضاف النَّظمُ الجليلُ لفظَ القول إلى الضَّمير المرادِ به موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، إشارةً إلى وصيَّتِه في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]، وهي إضافة تدلُّ على التفخيم لشأن المقولِ لكونه صادرًا من نبيٍّ مرسَلٍ، وهذه العبارةُ ليست من كلام موسى، بل هي ممّا خشيَ هارونُ أن يقوله له موسى عند عودتِه، فدلَّ ذكرُ القولِ المضافِ إلى موسى في هذا السّياق على اهتمام هارون بوصيَّةِ أخيه، وحضورِها في ذهنه، وأنَّه رجَّح البقاءَ مع قومه لِما في ذلك من مصلحةٍ تتوافق مع مقولةِ موسى عليه السلام، فلمّا قال: ﴿تَقُولَ﴾؛ كان مُقبلًا على موسى، فانسجم مع ذكره بقوله: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾، ومع ﴿خَشِيتُ﴾، ومع ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾، ودلَّ على أنَّ الأصلَ أنَّ موسى كان حاضرًا، ووصيَّته في ذهن هارونَ، وهو غائبٌ كما هو حاضرٌ الآن.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوف والخشية:

الخشيةُ أخصُّ مِنَ الخوف، فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ

الخَوْف توقُّعُ مكروه عن أمارةٍ مَظنونةٍ، أو مَعلومةٍ، كما أنَّ الرَّجاءَ والطَّمعَ توقُّعُ محبوب عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، ويُضادُّ الخوفَ الأمنُ[1]، والخَشْيَة خَوفٌ يَشُوبُه تَعْظيمٌ، وأكْثَرُ ما يكونُ ذلكَ عَنْ عِلْم

(1) الرّاغب، المفردات: (خوف).

بِما يُخْشى مِنْه[1]، فالخَشيةُ خَوفٌ مخْصوصٌ، يَلْزَمُه التَّعْظيمُ؛ فلِذا جاءَ في كلام هارونَ ﵇، فتعلَّق خوفُه بمكروهات عَلِمَ أنَّها ستكون، ولمّا كان شأنُ تلك المكروهات عظيمًا؛ كان خوفُه من وقوعها شديدًا عظيمًا، فعبَّر عن ذلك بالخشيةِ لا بالخوف.

(1) الرّاغب، المفردات: (خشي).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ٩٥﴾ [طه: 95]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد اعتذارِ القومِ وعتابِ الخليفة فيهم، الشُّروعُ بحساب رأسِ الفتنةِ

بعد أن حكى النَّظمُ الجليل اعتذارَ هارونَ عليه السلام وسماعَ موسى له موضِّحًا حكمتَه ببقائه دون مقاتلتِهم والغلظةِ عليهم؛ بيَّن النَّظمُ في هذه الآية أنَّ موسى عليه السلام اتَّجه بغضبِه إلى السّامريِّ، الذي هو رأسُ الفتنة ومدبِّرُها، فأخذ يزجرُه، ويوبِّخُه، فقال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطْبُكَ﴾: (خطب) أصله الكَلامُ بَيْنَ اثْنَيْن، يُقالُ: خاطَبَهُ يخاطِبُهُ خِطابًا، والخُطْبَةُ: الكَلامُ المَخْطوبُ بِهِ، والخَطْبُ: الأمرُ يَقَعُ؛ وإنَّما سُمّيَ بِذَلِكَ لِما يَقَعُ فيه مِنَ التَّخاطُبِ والمُراجَعَةِ[2]، والخطبُ: سببُ الأمر، تقول: ما خَطْبُكَ؟[3] ويتخصّص بالأمر العظيم الذي يكثُرُ فيه التَّخاطُبُ، قال تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ﴾[4]، وجعله ابنُ منظور عامًّا؛ صَغُر الأمر أو عَظُم.

والخَطْبُ: الأمرُ الَّذي تَقَع فيه المخاطَبةُ، والشأْنُ والحالُ؛ ومِنْهُ قَوْلُهُم: جَلَّ الخَطْبُ، أي: عَظُم الأمرُ والشَّأن، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾ [الحجر: 57]؟ وجَمعُهُ خُطوبٌ[5]، وهو أمرٌ طارئٌ يتطلَّب التفاتًا خاصًّا، بأن يجمعَ الذِّهنَ والهمَّةَ في مواجهته[6].

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 143.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطب).
(3) الجوهري، الصحاح: (خطب).
(4) الرّاغب، المفردات: (خطب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خطب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خطب).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـشُّـروعُ بمساءلةِ زعيمِ الـضَّـلالـةِ عن شـأنِـه وجـرمِـه ومحاكمتِه

يخبرُ النَّظمُ الكريمُ أنَّ موسى عليه السلام اتَّجه إلى السّامريِّ يسألُه عن جُرمِه الفاحشِ، وما جاء به منَ الأمر العظيم، فقال: فما شأنُك يا سامريّ؟ وما الذي دعاك إلى ما فعلْتَه منَ الضَّلال[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

اسـتـئـنـافُ الـتَّـحـرّي عـنِ المسبِّبِ الأوَّلِ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّها سيقت مساقَ الجواب عن سؤالٍ "نشأ من حكاية ما سلفَ من اعتذارِ القوم بإسنادِ الفساد إلى السّامريّ واعتذارِ هارونَ عليه السلام، كأنَّه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماعِ ما حُكيَ منَ الاعتذارَين واستقرارِ أصلِ الفتنةِ على السّامريّ؟ فقيل: قال موبِّخًا له: إذا كان الأمرُ هذا؛ ﴿فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾"[2]، وتحوُّلُ خطابِ موسى عليه السلام إلى السّامريّ يَنطوي على معنَى تصديقِه هارونَ، واستجابتِه له بكفِّ يديه عن لحيته ورأسِه، وتحوُّلِه منَ الاشتداد عليه إلى التّرفُّق به، ثمّ تحوَّلَ غضبُه واشتدادُه إلى السّامريِّ، فقال: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؟.

معنَى الفاءِ في ﴿فَمَا﴾:

سـؤالُ موسى لـلـسّـامـريِّ مُتسبِّبٌ عن بيانِ القومِ وهارونَ

بعد أنِ استأنف النَّظمُ الجليلُ بتوجيه الخطابِ إلى السّامريِّ في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ جاء بالفاء الدّالَّةِ على السَّببيَّة؛ لأنَّ موسى عليه السلام جعل ما نُسبِ إلى السّامريِّ سببًا في سؤاله عمّا حملَه على صنيعِه ذلك[3]، فتصديرُ السُّؤال بالفاء يدلُّ على أنَّه مترتِّبٌ على ما سبقَ من سؤالِ موسى للقوم ولأخيه هارونَ،

---

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 318.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 561.
(3) الخطيب، السراج المنير: 2/ 481.

وكان جوابُهم يدلُّ على جلالة الخطْبِ[1]، فترتَّبَ على ذلك سؤالُ السّامريِّ عن هذا الخَطْب الجللِ، وفي الفاء دلالةُ حرصِ موسى على أمر الدّين الإسلاميّ الحنيفِ، والاحتياطِ له، والدّفاعِ عنه، والاهتمامِ بشأنه، وما جرَى في هذا الطّريق مِنَ المعنى؛ لأنَّها تخلو مِن معنى التّعقيب والسّرعةِ.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

سؤالُ رأسِ الباطلِ يكشفُ حقيقتَه وضلالَه على مشهدٍ مِنَ الملأ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاستفهامِ الحقيقيِّ في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ للبحث عن غرضِ هارونَ وبيانِ المصيبة التي أتى بها، أي: ما شأنُك، وما الأمرُ العظيمُ الذي صدرَ عنك؟ فالاستفهامُ جيء به للسُّؤال عنِ السَّبب الباعثِ على ذلك الأمرِ، وإنَّما سأله بذلك أمامَ النّاس ليُظهِرَ لهم ضلالَه وبُطلانَ كيدِه باعترافه[2]، وليبيِّنَ للنّاس أنَّ ما جاء به محضُ افتراءٍ وكذبٍ، ومِن شأن الأمرِ الخطْبِ أن يُستَفْهَمَ عنه.

سرُّ إيثارِ لفظِ الخطْبِ دونَ الشّأنِ:

يُستعمَلُ الخطْبُ في المكاره، ويُستعملُ الشّأنُ في المحامد

أوثرَ لفظُ ﴿خَطْبُكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ دون قوله: (شأنك)؛ لأنَّ الخطبَ أكثرُ ما يُستعمل في المكاره والنّوائب، في حين يُستعملُ لفظُ الشّأن في المحامد؛ فناسب لفظُ (الخطب) شنيعَ فعلِ السّامريِّ وقبيحَ صُنعِه[3].

غرضُ النِّداء بـ (يا):

بُعدُ الكافرِ عنِ الإيمانِ حتّى نودي لبُعدِه

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف النِّداء الدّالِّ على التّنبيه والبُعدِ في قوله تعالى: ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ مع أنَّ السّامريَّ قريبٌ بقرينة المخاطَبة؛ وذلك لبيانِ بُعدِه عن الحقِّ بحيث صارَ لا بدَّ أن يُنادَى لينتبهَ إلى الخطاب، كما أنَّ النِّداء بعد الاستفهامِ تأكيدٌ للمقصود بالخطاب، فالسُّؤالُ

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 231.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 561 - 562.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 329.

مرادٌ به أنت لا أحدٌ غيرُك، فيكون المخاطَبُ مضطرًّا للإجابة لتعيينِه بالسُّؤال، كما أنَّ ذلك يشيرُ إلى تفرُّغ المتكلِّم من مخاطبةِ الآخرين والانصرافِ إليه، دليلًا على أهميَّة الخطابِ، وتنبيهًا للسّامريِّ على أهميَّة هذا السُّؤالِ وضرورةِ الإجابة عنه بصدقٍ؛ لأنَّ السّائل مُتفرِّغٌ لبيان الحقيقةِ، ولا يصرفُه عن ذلك صارفٌ.

فائدةُ التَّصريحِ باسمِ السّامريِّ:

إيرادُ الاسمِ يُراعي حالَ جهالةِ المخاطَبِ، ويدفعُ وحشةَ السُّؤالِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ مخاطبةَ السّامريِّ باسمِه في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؛ لجعل الخطابِ بلا غلظة؛ "ولعلَّ موسى لم يغلظْ له القولَ، كما أغلظ لهارونَ؛ لأنَّه كان جاهلًا بالدّين، فلم يكن في ضلالِه عجبٌ، ولعلَّ هذا يؤيِّدُ ما قيل: إنَّ السّامريَّ لم يكن من بني إسرائيلَ، ولكنَّه كان منَ القبطِ أو من كرمان، فاندسَّ في بني إسرائيل، ولمّا كان موسى مبعوثًا لبني إسرائيل خاصّةً ولفرعونَ وملئِه لأجل إطلاقِ بني إسرائيلَ؛ كان اتِّباعُ غيرِ الإسرائيليين لشريعة موسى أمرًا غيرَ واجب على غير الإسرائيليين، ولكنّه مرغَّبٌ فيه لما فيه منَ الاهتداء، فلذلك لم يعنِّفه موسى؛ لأنَّ الأجدرَ بالتّعنيف همُ القومُ الذين عاهدوا اللّٰه على الشّريعةِ"[1]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ مقصدَ السّورةِ الإعلامُ بإمهال المدعوّين، والحِلْم عنهم، والترفُّقِ بهم[2]، كما أنَّ مخاطبتَه باسمِه تدلُّ على تعْيينِه بالسُّؤال لبيانِ وجوبِ المجيءِ بجوابٍ مبينٍ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخطْب والشَّأن:

الخَطْبُ الأمرُ يَقَعُ؛ وإنَّما سُمّيَ بذَلِكَ لِما يَقَعُ فيه مِنَ التَّخاطُبِ والمُراجَعَةِ[3]، وهو الأمرُ العظيمُ الذي يكثُرُ فيه التَّخاطُب، قال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 294.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 3.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطب).

الخطبُ والشَّأنُ يدلّان على عِظمِ الأمرِ، والخطبُ مختصٌّ بما يحوجُ إلى التَّخاطُبِ

تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾[1]، وهو أمرٌ طارئٌ يتطلَّبُ التفاتًا خاصًّا، بأن يجمعَ الذِّهن والهمَّةَ في مواجهته[2]. أمّا الشَّأن؛ فأصلُه يَدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: ما هَذا مِنْ شَأْني، أيْ: ما هَذا مِنْ مَطْلَبِي والَّذي أَبْتَغيه[3]، والشَّأْنُ: الخَطْبُ والأمرُ، والحالُ الَّذي يشينُ، ويصلحُ، ولا يُقالُ إلّا فيما يَعْظمُ مِن الأَحْوالِ والأُمورِ[4]، فكلاهما يدلُّ على الأمرِ العظيم، ولكنَّ الخطبَ يختصُّ بما يقع فيه من تخاطُبٍ، وعليه فإنَّ الخطْبَ ليس عظيمًا لذاته، بل لِما يقعُ فيه من اختلافٍ وإشكالٍ يُحْوِجُ إلى التَّخاطبِ، فالخطْب أخصُّ من الشَّأن، وفي ذلك يقول ابنُ عطيَّةَ: "ما خطبك؟ كما تقول ما شأنك؟ وما أمرك؟ لكنَّ لفظةَ الخطْب تقتضي انتهارًا؛ لأنَّ الخطْبَ مستعملٌ في المكاره، فكأنَّه قال: ما نَحسُك؟ وما شُؤمُك؟ وما هذا الخطْبُ الذي جاء من قِبَلِك؟"[5]، فاستعملَ في الآية لفظَ الخطب لِما في السّياق من دلالةٍ على التَّوبيخ واستعظامِ أمرِ السّامريِّ، ولأنَّه تضمَّنَ التَّخاطُبَ والسُّؤالَ والجوابَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (خطب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خطب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شأن).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (شأن).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 61.

﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦﴾ [طه: 96]

بعدَ سؤالِ الضّالِّ عن شأنِه أظهرَ استعلاءَه بادِّعاء العلْمِ والتَّفرُّدِ به

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد أن حكى النَّظمُ الجليلُ شروعَ موسى عليه السلام في محاكمةِ السّامريِّ، وسؤاله عن شأنِه وما فعلَ؛ حكى في هذه الآية ما ردَّ به السّامريُّ جوابًا عن سؤالِ موسى، فقال: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾[1]، فعزف عنِ الاعتذار بنسبة فعْلِه إلى العلم، فأظهر نفسَه بمظهرِ العالم إزاءَ وضعِه تحت سؤالِ المحاكمةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَصُرۡتُ﴾: (بصر) أَصْلٌ يدلّ على العِلْم بالشَّيْءِ، يُقالُ: هُوَ بَصيرٌ بِهِ[2]، بَصُرَ به بَصَرًا، وأبْصَرَهُ وتَبَصَّرَهُ: نَظَرَ إليه هَلْ يُبْصِرُه، والبَصَرُ: العِلْمُ، وبَصُرْتُ بالشَّيْءِ: عَلِمتُهُ؛ قالَ : ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾، والبَصيرُ: العالمُ، وقَدْ بَصُرَ بَصارَةً، والتَّبَصُّر: التَّأمُّل والتَّعَرُّفُ، والتَّبْصيرُ: التَّعْريفُ والإيضاح، ورجلٌ بَصيرٌ بالعِلْم: عالمٌ بِهِ[3]، البَصَر يقال للجارحة النّاظرة، نحو قولِه تعالى: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: 77]، وللقوَّة التي فيها، ويقال لقوَّة القلب المدركة: بَصيرَةٌ وبَصَر، وجمع البصر أبْصار، وجمع البصيرة بَصائِر، يقال من الأوَّل: أبصرت، ومن الثاني: أبصرته، وبصرت به، ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة: العلمُ، أي: علمتُ ما لم يعلموا[5].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 144.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(4) الرّاغب، المفردات: (بصر).
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 507.

2) ﴿فَقَبَضۡتُ﴾: (قبض) أَصْلٌ يَدُلُّ على شَيْءٍ مَأْخُوذٍ، وتَجَمُّعٍ في شَيْءٍ[1]، والقَبْضُ: خِلافُ البَسْطِ، قَبَضَه يَقْبِضُه قَبْضًا، والانْقِباضُ: خِلافُ الانْبِساطِ، وقَبَضْتُ الشَّيءَ قَبْضًا: أخذته، والقَبْضة: ما أخذتَ بجمعِ كفِّك كُلِّه، فإذا كانَ بأصابعك؛ فهيَ القَبْصةُ، بِالصّادِ، والقَبْضُ: التّناوُلُ للشّيءِ بيَدِكَ مُلامَسةً[2]، قال تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةً﴾، فقَبْضُ اليد على الشيء جَمعُها بعد تناوله[3].

3) ﴿أَثَرِ﴾: (أثر) أصلٌ يدلُّ على رَسْمِ الشَّيْءِ الباقي، والأَثَرُ بَقيَّةُ ما يُرَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وما لا يُرَى بَعْدَ أَنْ تَبْقَى فيه عَلَقَةٌ، وأَثَرُ السَّيْفِ ضَرْبَتُهُ[4]، والأثر: بَقيَّةُ الشَّيْءِ، والجَمعُ آثارٌ وأُثور، وخَرَجْتُ في إِثْرِه وفي أَثَرِه، أي: بَعْدَهُ، وائتَثَرْتُه وتَأَثَّرْته: تَتَبَّعْتُ أثره؛ والأَثَرُ، بِالتَّحْريكِ: ما بَقيَ مِنْ رَسْمِ الشَّيْءِ[5]، وأَثَرُ الشّيءِ: حصولُ ما يدلُّ على وجوده، يقال: أثر وأثَّر، والجمع: الآثار، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27]، ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غافر: 21]، ومن هذا يقال للطَّريق المستدلِّ به على مَن تقدَّم: آثار، نحو قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ٧٠﴾ [الصافات: 70][6]، والمرادُ به في الآية الكريمة: أثرُ فرسِ الرَّسول، يعني من حيث وضعَ عليه حافرَه[7].

4) ﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾: (نبذ) أَصْلٌ يَدُلُّ على طَرْحٍ وإِلْقاءٍ، ونَبَذْتُ الشَّيْءَ أَنْبِذُهُ نَبْذًا: أَلْقَيْتُهُ مِنْ يَدي[8]، والنَّبْذُ: إلقاءُ الشَّيء وطرحُه لقلَّة الاعتداد به، ولذلك يقال: نَبَذْتُهُ نَبْذَ النَّعْلِ الخَلِقِ، قال تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾ [الهمزة: 4]، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: 187] لقلَّة اعتدادِهم به، وقال: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة: 100] أي: طرحوه لقلَّة اعتدادِهم به[9]، والمرادُ به في الآية الكريمة: ألقيتُ تلك القبضةَ في صورة العجلِ[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبض).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قبض).
(3) الرّاغب، المفردات: (قبض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أثر).
(6) الرّاغب، المفردات: (أثر).
(7) الواحدي، البسيط: 14/ 509.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبذ).
(9) الرّاغب، المفردات: (نبذ).
(10) الواحدي، البسيط: 14/ 509.

5) ﴿سَوَّلَتۡ﴾: (سول) يدلّ على استرخاء بعض الشيء وتدلّيه للينِهِ مع احتوائه ثقيلًا[1]، والتَّسْويلُ تَفْعيلٌ مِنْ سَوَلِ الإنسان، وهُوَ أُمنيَّته أن يَتَمَنّاها، فتُزَيِّن لِطالِبِها الباطلَ وغيرَه مِنْ غُرور الدُّنْيا، وأصل السُّول مَهْمُوزٌ، اسْتُثْقِلت ضَغْطة الهَمزَة فيه، فخفَّفوه[2]. والتَّسْويلُ: تزيينُ النَّفس لما تحرصُ عليه، وتصويرُ القبيح منه بصورة الحسن[3]، وسَوَّلَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ كذا: زَيَّنَته لَهُ، وسَوَّلَ لَهُ الشيطانُ: أغْواه.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

حكايةُ بدايةِ الضَّلالِ وسبْقِ الإصرارِ

يُخبر النَّظمُ الكريمُ أنَّ السّامريَّ أجاب موسى عليه السلام حين سأله عن شأنه بأنَّه قال: إنّي "رأيتُ ما لم يَرَوه، وهو جبريلُ عليه السلام على فرس، وقتَ خروجهم منَ البحر وغرقِ فرعون وجنودِه، فأخذتُ بكفّي ترابًا من أثر حافرِ فرسِ جبريل، فألقيته على الحليِّ الذي صنعتُ منه العجلَ، فكان عجلًا جسدًا له خُوارٌ بلاءً وفتنةً، وكذلك زيَّنت لي نفسي الأمّارةُ بالسّوء هذا الصّنيعَ"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ قوله: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ﴾:

لمّا سُئِلَ السّامريُّ؛ شرعَ في ردِّ الإجابة

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت لبيانِ جوابِ السّامريّ، فكأنَّه قيل: فماذا أجابَ السّامريُّ عن سؤال موسى؟ فقيل: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾[5]، وتصديرُ الجملة بفعل القولِ بلا عاطفٍ لِما في المحاورةِ من ربطٍ بين الجُمل يُغني عنِ الرَّبط بحرف العطف، فالتّواصلُ بينهما خفيٌّ.

---

(1) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سول).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سول).
(3) الرّاغب، المفردات: (سول).
(4) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 318.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 335.

توجيهُ القراءات في: ﴿يَبۡصُرُواْ﴾:

الجمع بين الخطاب والغيبة في الحوار للشمول

قرأ حمزة والكسائي وخلَف بالتاء: ﴿تَبۡصُرُواْ﴾، ردُّوه على الخطاب في قوله: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ﴾ [طه: 95]، فهم خاطبوه مواجهة فردَّ خطابهم مواجهة، وقرأ الباقون بالياء على الغيبة أي: (بما لم يبصر به بنو إسرائيل) المذكورين في قوله تعالى: ﴿فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94] [1]. وبلاغة القراءتَيْن تتجلى فيها نبرة التعالي والعجرفة التي كان يتحدث بها السامري؛ فلسان حاله: (أنا بذكائي علمتُ ما لم تعلموه أنتم، ولا يعلمه بنو إسرائيل).

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ عنِ العلم بلفظِ البصرِ:

الثِّقةُ بالمعلومِ كالثِّقة بالمُشاهَدِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ البصرِ مجازًا عنِ العلم في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾، أي: "علمتُ بما لم يعلموا به، ومنه قولُهم: رجلٌ بصيرٌ، أي: عالمٌ"[2]، ومن ذلك تسميةُ المعرفة الرّاسخة بصيرةً في قوله تعالى: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108][3]، فالتَّعبيرُ عنِ العلم بالبصر يدلُّ على العلم القطعيِّ المؤكَّدِ، كما أنَّ رؤيةَ المرء الأشياءَ بعينه تدلُّ على وثاقة علمِه بالمشاهَد، فكذلك البصيرةُ تدلُّ على وثاقة العلم بالمعلوم، فعبَّر السّامريُّ بذلك إشارةً إلى أنَّه حين عملَ ما عملَ؛ كان على علمٍ يقينيٍّ مؤكَّدٍ.

معنَى الباء في ﴿بِمَا﴾:

تحقيقُ العلْمِ بالمُشاهَدِ وتمكُّنُه منه

أدخل النَّظمُ الجليلُ حرفَ الجرِّ الباء على مفعول فعْلِ الإبصار في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ فمعنى بَصُرْتُ به: أبصرتُهُ[4]، وإنَّما أدخل الباءَ الدّالَّةَ على الإلصاق لتأكيدِ المعنى، فالعلمُ الذي ادَّعاه بزعمه قد وقعَ على وجه التَّأكيد بما لم يعلمه غيرُه، فعِلْمُه قد حلَّ بالمعلوم، وارتبط به إشارةً إلى قوَّة علمِه بذلك.

---

(1) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 105، وابن الجزري، النشر: 2/ 322.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 95.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 295.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 95.

معنى (ما):

عظمة الموقف المشاهَد

عبَّر النَّظمُ الجليلُ عنِ المعلوم بالاسمِ الموصولِ (ما) في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾، وهو اسمٌ دالٌّ على الإبهام والعموم؛ وذلك تفخيمٌ لشأن المعلوم وتعظيمٌ له، فإنَّ التَّعبيرَ عن الشَّيء بأسلوب الإبهامِ يخلعُ عليه مهابةً وتفخيمًا لا يتأتّى منَ التَّعبير عنه بأسلوب التَّعيينِ والتَّحديد، فأشار إلى أنَّ ما رآه شيءٌ عظيمٌ.

معنى الفاء في ﴿فَقَبَضۡتُ﴾:

علَّةُ القبضِ مترتِّبةٌ على حدوثِ المعرفةِ المؤكَّدةِ

عطف النَّظمُ الجليلُ القبضَ على البصر بحرف العطفِ الفاء، في قوله تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ القبضَ قد تسبَّب عن تلك المشاهدةِ العظيمةِ، أي: فكان ما أبصرتُه سببًا في أن قبضتُ منه قبضةً واحدةً[1]، كما أنَّه يدلُّ على التَّعقيب على وجه البِدارِ والسُّرعة، فلمّا رأى ما رأى؛ تعجَّل بقبض يدِه عليه، فالتّعبيرُ بالفاء هو نتاجُ الخصوصيّاتِ السّابقِ ذكرُها في نور دلالاتِها المذكورةِ: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾.

وجهُ التعبيرِ بلفظِ ﴿قَبۡضَةٗ﴾ صيغةً ودلالةً:

الحرصُ الشَّديدُ يقتضي تحقيقَ الغايةِ عاجلًا تحقيقًا وافيًا من أوَّلِ مرَّةٍ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالمصدر الدّالِّ على المرَّة في قوله تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، فالقبضةُ مصدرٌ يدلُّ على إيقاع الفعل مرَّةً واحدةً[2]، والتَّعبيرُ بهذا المصدر يدلُّ على تأكيد وقوع الفعل مرَّةً واحدةً، فهو مفعولٌ مطلقٌ، كما أنَّ مصدرَ المرَّة هنا يعبِّرُ عن شدَّة الحرصِ على تلك القبضةِ، بحيث إنَّها كانت وافيةً محقَّقةً لما فُعلت لأجله، وفي ذلك تصويرٌ لخطر المقبوضِ، وأنَّ السّامريَّ أدرك ذلك حين بصُر بما لم يُبصروا به.

(1) الخطيب، السراج المنير: 2/ 481.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 39.

معنى ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾:

بعضُ الأثرِ يحقِّقُ المطلوبَ

أدخل النَّظمُ الجليلُ حرفَ الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ للدَّلالة على التَّبعيض، أي: قبضتُ بعضَ أثرِ الرَّسول، والجارُّ والمجرور يدلُّ على صفة القبضةِ، أي: إنَّ هذه القبضةَ متَّصفةٌ بأنَّها كائنةٌ من بعضِ أثرِ الرَّسول[1]؛ لأنَّ أثرَه أكثرُ مِن قبضةٍ، وهذا الوصفُ: (كائنةً مِن أثر الرسول) تمكينٌ لدلالة ذكرِ: ﴿قَبۡضَةٗ﴾ كمصدر ودلالةِ تنكيرِها، فبعضُ أثرِ الرَّسول فَعَلَ ما حدثَ من تجسيد العجل.

دلالةُ التَّعبير عن جبريلَ بالرَّسول المعرَّف بـ (أل):

شرفُ الملاكِ إنَّما كان لتحمُّلِه رسائلَ الله تعالى لعبادِه

عرَّف النَّظمُ الجليلُ الرَّسولَ بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه معهودُ الذِّكر، وهو جبريلُ عليه السلام[2]، وإنَّما سمّاه بالرَّسول دونَ جبريل؛ لأنَّه لم يكن يعرفُه إلّا بهذا الوصفِ، ولأنَّه أراد التَّنويهَ بأنَّه عرف أنَّه رسولٌ مبعوثٌ له شأنٌ[3]، ففي التَّعبير بلفظ الرَّسولِ دونَ جبريلَ إشارةٌ إلى أنَّه قد رآه في حالة إرسالِه إلى موسى؛ تأكيدًا لرؤيتِه، وفي ذكرِه بالرِّسالة أيضًا إدراكُه عِظَمَ أثرِه؛ مِمَّا هيَّأ له أن يُقْبِلَ على أن يأخذ قبضةً منه، فيفعلُ ما فعلَ منها.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾:

المسارعة إلى توظيف القبضة في وقتها المناسب

عطف النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ بالفاء للدَّلالة على ترتُّب النَّبذِ على القبضِ، وهذا مؤسَّسٌ على اليقين بخطر تلك القبضةِ، وبتوقُّع ما أراده منها.

(1) مجموعة من المؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1405.

(2) الخطيب، السراج المنير: 2/ 481.

(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 232.

معنَى الواوِ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

جاء الاستئنافُ تذييلًا وثناءً على فعلِه

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجملةَ بالواو الاستئنافيَّةِ[1] في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾، وجيءَ بالجملة الاستئنافيَّةِ تذييلًا لما قدَّم من كلامٍ[2]، والمرادُ منه الثَّناءُ على فعلِه بما في مضمون التَّشبيه من تفخيمٍ، للتّوكيد الخفيِّ منَ الثّانية لِما قبْلَها.

معنَى الكافِ ودلالةُ التَّشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تفخيمُ التَّسويلِ وتعظيمُه بتشبيهِه بنفسِه

أدخل النَّظمُ الجليلُ كافَ التَّشبيه على اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾، والمرادُ تشبيهُ المشارِ إليه بنفسِه، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143][3]، فاسمُ الإشارة يشيرُ إلى مصدر الفعلِ سوَّل، أي: سوَّلت لي نفسي تسويلًا كائنًا مثلَ ذلك التَّسويل[4]، فالمرادُ من هذا التَّشبيه تهويلُ التَّسويل الذي قدَّمته له نفسُه، هو من باب تشبيه الشّيء بنفسه؛ مبالغةً في تقرير معنى المشبَّه به ومقصودِه.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة للبعيد ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

عظمةُ مكانةِ ذلك التَّسويلِ حتّى غدت بعيدةً

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ للدَّلالة على المبالغةِ في شأن التَّسويلِ المذكورِ، فالإشارةُ بالبعيدِ للمعاني يدلُّ على قوَّة تلك المعاني وعُلوِّ مكانتِها وشدَّتها، فاسمُ الإشارة الدّالُّ على البُعد يفيدُ تفخيمَ المشار إليه في هذا السّياق[5].

دلالةُ التَّعبير بالتَّسويل مادَّةً وصيغةً:

حرصُ النَّفسِ على الشَّيءِ تجعلُ القبيحَ حسنًا

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿سَوَّلَتۡ﴾ في قوله تعالى:

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 414.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 231.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 297.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 39.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 39.

﴿فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾؛ للدَّلالة على أنَّ السّامريَّ كان حريصًا على صناعة العجلِ وإخراجِه لهم؛ لأنَّ التَّسْويلَ يدلُّ على تزيينِ النَّفسِ لِما تحرصُ عليه، وتصويرِ القبيحِ منه بصورة الحسنِ[1].

فائدة التعدية باللام في: ﴿سَوَّلَتۡ لِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ جاءت اللام للدَّلالة على علَّة التَّسويلِ وغايتِه، أي: سوَّلتْ لأجلي؛ لأنَّ التَّسويلَ وقعَ له، وفيه تأكيدٌ للمعنى وذلك بتعيين المقصودِ بالتَّسويل.

الغايةُ منَ التَّسويل إرضاءُ شهوةِ النَّفسِ وحرصِها

نُكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿لِي﴾:

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾، فلم يقل: (سوَّلت نفسي لي)؛ للدَّلالة على تخصيص ذلك التَّسويلِ به دون غيره، فقدَّم بيانَ المقصود بالتَّزيين على المزيِّن للاهتمام بالعلَّة الدّافعةِ للفعل، وبهذا التَّقديم يرجع آخرُ الكلام إلى أوَّله؛ إذ قال: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾؛ فكذلك زُيّن له هو خصوصًا، وذلك للتَّعبيرِ على أنَّ الحرصَ على العجلِ إنَّما كان لغايتِه هو، وإرضاءً لما في نفسه منَ الضَّلال، وفيه أنَّ نفسَه كانت مقبلةً على صُنع هذا العجلِ بشدَّة، وكانت ذاتَ رغبةٍ عظيمةٍ في ذلك.

تخصيصُ التَّسويلِ بالعلَّةِ الأصلِ وهي إرضاءُ الذّاتِ

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

التّزيين والتَّسويل:

التَّسْويلُ: تزيينُ النَّفس لِما تحرصُ عليه، وتصويرُ القبيحِ منه بصورة الحسنِ، وسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ كذا: زَيَّنَتْه لَهُ، وسَوَّل لَهُ الشيطانُ:

التَّسويلُ أخصُّ مِنَ التَّزيين؛ فهو تحسينُ ما تحرصُ عليه النَّفسُ، والتَّزيينُ عامٌّ

(1) الرّاغب، المفردات: (سول).

أغْواه، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد: 25][1]، وأمّا التَّزيينُ؛ فمِن (زَيَنَ) وهو أصْلٌ يَدُلُّ على حُسْنِ الشَّيْءِ وتَحْسينِهِ، فالزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، يُقالُ: زَيَّنْتُ الشَّيْءَ تَزْيينًا، وأزْيَنَتِ الأرْضُ، وازَّيَّنَتْ، وازْدانَتْ؛ إذا حَسَّنَها عُشْبُها[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (سول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ٩٧﴾ [طه: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ الاعترافِ بإضلالِ النّاسِ وفتنتِهم عن دينهم بيَّن العقوبةَ المستحقَّةَ

بعد أن ذكر النَّظمُ الجليلُ ما قاله السّامريُّ في جوابه عن سؤال موسى في محاكمته؛ شرع النَّظمُ في بيان العقوبة التي حكم بها موسى، وقد جعلها عقوبتَين في الدُّنيا وفي الآخرة[1]، وهذا حسمُ النّبوّةِ والشَّريعةِ، والحقُّ أن يُعقب الاعترافُ ومعرفةُ الحق بالعقاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِسَاسَۖ﴾: (مَسَّ، مسس) أصلٌ يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[2]، والمسُّ يقال فيما يكون معه إدراكٌ بحاسَّة اللَّمس[3]، ويُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَهُ بيَدِكَ، ثُمَّ اسْتُعيرَ للأخْذِ والضَّرْبِ؛ لأنَّهما باليَدِ، واسْتُعيرَ لِلجماعِ؛ لأنَّه لَمسٌ، وللجُنون كأنَّ الجنَّ مَسَّتْه؛ يُقالُ: بِه مَسٌّ مِنْ جُنونٍ، وقوله تعالى: ﴿لَا مِسَاسَۖ﴾، أي: لا تُخالِطُ أحدًا، حَرَّمَ مُخالَطَةَ السّامِرِيِّ عُقُوبَةً لَهُ، ومَعْناهُ، أي: لا أَمَسُّ، ولا أُمَسُّ[4]، أي: لا تخالطُ أحدًا، ولا يخالطك، وأمرَ موسى بني إسرائيل ألّا يخالطوه، ولا يؤاكلوه، ولا يقربوه[5]؛ لأنَّه متميِّزٌ عنِ النّاس، ويستثمرُ تميّزَه فيما يضرُّهم فقط.

2) ﴿ظَلْتَ﴾: (ظَلَّ، ظلل) أَصْلٌ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، وهو

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (مسس).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 510.

الَّذي يُسَمَّى الظِّلَّ، وظَلَّ يَفْعَلُ كَذا؛ وذَلِكَ إذا فعلَهُ نَهارًا؛ لِأَنَّ الظِّلَّ شَيْءٌ يُخَصُّ بِه النَّهارُ، وذَلِكَ أَنَّ الشَّيْءَ يَكونُ لَهُ ظِلٌّ نَهارًا، ولا يُقالُ: ظَلَّ يَفْعَلُ كَذا لَيْلًا؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ نَفْسَهُ ظِلٌّ[1]، كَما لا يَقُولُونَ: باتَ يَبِيتُ إلّا بِاللَّيْلِ، ومِنَ العَرَبِ مَنْ يَحْذِفُ لامَ (ظَلِلْتَ) ونَحْوِها، قالَ تَعالَى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ﴾[2]، والمرادُ به في الآية الكريمة: إلهُك الذي طفقتَ تعبدُه، وظللت عليه مُقيمًا[3].

3) ﴿عَاكِفًاۖ﴾: (عكف) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُقابَلَةٍ وحَبْسٍ[4]، عَكَف على الشَّيْءِ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ عَكْفًا وعُكوفًا: أقبل عليه مُواظِبًا لا يَصْرِفُ عَنْهُ وجْهَهُ، وقيلَ: أقامَ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٖ لَّهُمْۚ﴾ [الأعراف: 138]، أي: يُقيمون[5]، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيْءِ وملازمتُه على سبيل التَّعظيم له، والاعْتِكافُ في الشَّرع: هو الاحتباسُ في المسجد على سبيل القُربة، ويقال: عَكَفْتُهُ على كذا، أي: حبستُه عليه[6].

4) ﴿لَنُنسِفَنَّهُۥ﴾: (نسف) أَصْلٌ يَدُلُّ على كَشْفِ شَيْءٍ، وانْتَسَفَتِ الرّيحُ التُّرابَ، كَأَنَّها كَشَفَتْهُ عَنْ وجْهِ الأَرْضِ وسَلَبَتْهُ[7]، نَسَفَ البِناءَ يَنْسِفُهُ: قَلَعَهُ من أَصْلِه[8]، وقَدِ انْتَسَفَ الطّائِرُ الشَّيْءَ عَنْ وجْهِ الأرض بمِخْلَبه، ونَسَفَهُ، ونَسَفَ البعيرُ الكلأ يَنْسِفُه؛ إذا اقْتَلَعَهُ بأصله، وانْتَسَفْتُ الشَّيْءَ: اقْتَلَعْته، وانْتَسَفَ البِناءَ: استأْصله، نَسَفْت البِناءَ نَسْفًا؛ إذا قلَعْته، والمِنْسَفَة آلَةٌ يُقْلَعُ بها البِناءُ[9]، نَسَفَتِ الرّيحُ الشَّيْءَ: اقتلعَتْه، وأزالَتْهُ، قال تعالى: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾ [طه: 105]، ونَسَفَ البعيرُ الأرضَ بمُقَدَّم رِجْلِه؛ إذا رَمَى بترابه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾، أي: نطرحُه فيه طَرْحَ النُّسافَة، وهي ما تثورُ من غُبارِ الأَرْض[10]، والمرادُ به في الآية الكريمة: نقضُ العِجل لتذهب به الرّيحُ، وهو: التَّذرِيةُ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ظلل).
(3) الواحدي، البسيط: 14/ 512.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عكف).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عكف).
(6) الرّاغب، المفردات: (عكف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسف).
(8) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (نسف).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (نسف).
(10) الرّاغب، المفردات: (نسف).
(11) الواحدي، البسيط: 14/ 514.

5) ﴿ٱلۡيَمِّ﴾: (يمّ، يمم) اليَمُّ: البَحْرُ، وقيل: لُجَّةُ البَحر، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: 7][1]، ويَقَعُ اسمُ اليَمِّ على ما كانَ ماؤُهُ مِلْحًا زُعاقًا، وعلى النَّهْرِ الكَبيرِ العَذْبِ الماءِ، ولا يُثَنَّى، ولا يُكَسَّرُ، ولا يُجْمَعُ جَمعَ السَّلامَةِ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نهايةُ المحاكمةِ بإعلانِ العقابِ وسوءِ المآلِ

يُخبر النَّظمُ الكريمُ أنَّ موسى عليه السلام، قال للسّامريِّ - لمّا أقرَّ بذنبه، واعترف بما جنت يداهُ، وذكر له ما يبيِّن مصيرَه في الدُّنيا وفي الآخرة-: ما دمتَ قد فعلتَ ما فعلتَ، فإنَّك في مدَّة حياتك تعاقبُ بالنَّبْذِ مِنَ النّاس، وأن تقول لهم إذا ما اقترب أحدٌ منك: لا مِساسَ، فلا تمسَّ أحدًا، ولا يمسُّك أحدٌ، ولا تخالط أحدًا، ولا يخالطك أحدٌ[3]، أي: قال له: "فاذهب فإنَّ عقوبتك في الحياة الدُّنيا أن تعيش منبوذًا تقول لكلِّ أحد: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ، وإنَّ لك موعدًا لعذابك وعقابك، لن يُخْلفك اللّه إيّاه، وسوف تلقاه، وانظر إلى معبودك الذي أقمت على عبادته لنُحرِّقنَّه بالنّار، ثم لنُذرونَّه في البحر ذروًا لتذهبَ به الرّيحُ؛ حتّى لا يبقى منه أثرٌ"[4]، فالجزاءُ مِن جنسِ العمل.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾:

سببُ الحكم بالعقوبةِ مبنيٌّ على الكفرِ والعصيانِ

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجملةَ بحرف الفاء العاطفةِ الدّالَّة على السَّببيَّة في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾، عطفًا على فعل مقدَّرٍ تقديرُه: لقد كفرتَ، فلمّا سمع موسى عليه السلام ما قال السّامريُّ؛ قال له لقد كفرت باللّه تعالى: ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾، فهي

(1) الفيروزابادي، البصائر: (يم).

(2) الزبيدي، تاج العروس: (يمم).

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 146.

(4) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 318.

لربط المسبَّب بالسَّبب، أي: لقد كفرتَ باللّه، فتسبَّب عن ذلك أنّي أقول لك: اذهب، فجملةُ ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾ معطوفةٌ على جملة (كفرت) المقدَّرة[1].

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بفعلِ الأمر في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ للدَّلالة على إيجاب خروجِه منَ القوم طريدًا[2]، فهو أمرٌ له بالانصراف والخروجِ منَ الأمّة، أو هو أمرٌ للزَّجر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾ [الإسراء: 63]، كما يجوزُ أن يرادَ به إظهارُ عدم الاكتراثِ بحاله[3]، والأوّلُ هو أظهرُها بقرينةِ ما بعده: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾.

معنَى الفاء في: ﴿فَإِنَّ﴾:

تحريمُ مماسَّتِه ومخالطتِه علَّةُ الطَّردِ من بين القومِ

صدَّر النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ بالفاء الدّالَّةِ على التَّعليلِ[4]، فالجملةُ تعليلٌ لفعلِ الأمر ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾، فعلَّةُ طردِه من بينهم أنَّه سيتلقّى عقوبةً هي الأشدُّ منَ المفارقة، فالجملةُ "إخبارٌ بما عاقبه اللّه به في الدُّنيا والآخرة، فجعل حظَّه في حياته أن يقول لا مساسَ، أي: سلبَه اللّه الأنسَ الذي في طبعِ الإنسان، فعوَّضه به هوسًا ووسواسًا وتوحُّشًا، فأصبح متباعدًا عنِ مخالطة النّاس، عائشًا وحدَه لا يتركُ أحدًا يقتربُ منه"[5]، فعلَّةُ طردِه منَ الأمَّة أنَّ عقوبتَه بعدم المخالطةِ والمماسَّةِ تقتضي خروجَه من بينهم، والتّصريحُ بالعلّيَّة والسّببيّةِ بالفاء إبلاغٌ في إيلامِه في سياق تقريرِ عقابِه؛ باستحضارِ ما تسبَّبَ فيه مِمَّا كان منه.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 416.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 381.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 298.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 39.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 298.

معنَى اللّامِ في ﴿لَكَ﴾:

ثباتُ العقوبةِ لا تنفكُّ عن السّامريِّ كحقٍّ لا يزولُ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ باللّام الجارَّة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾؛ للدَّلالة على استحقاقِ ما لا يمكن أن ينفكَّ عنه، وذلك لإرادة اللّه تعالى به ذلك[1]، فالتّعبير باللّام لَفَتٌ إلى اختصاصه بما يستحقُّه، ولن ينفكَّ عنه، وهو ما كان منه مِن صُنعِ العجل، وما نشأ عنه.

دلالةُ شبه الجملةِ الظَّرفيّةِ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

ثبتَ العقابُ ما بقيَ السّامريُّ حيًّا

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بشبه الجملةِ الدّالةِ على الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾، وذلك للدَّلالة على أنَّ قولَه ذلك سيدومُ مدَّةَ حياته[2]، فتقييدُ القول بأنّه كائنٌ في الحياة يُبيِّن طولَ هذا العقاب، وهذا من أشدِّ التَّنكيل والعقاب.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

الحياةُ للمرء هي عمرُه الذي يعيشُه فيها

عرَّف النَّظمُ الجليلُ الحياةَ بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾؛ للدَّلالة على الحياة المعهودةِ، وهي الحياة الدُّنيا، وهي مقيَّدةٌ عرفًا ببقائه حيًّا فيها، فالمرادُ منَ الحياة حياتُه، فجُعِل له في مدَّة حياته أن يقول: (لا مساسَ)[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّلِ من أن والفعل المضارع:

استمرارُ المقولة لدوامِ العقابِ مدَّةَ الحياة

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالمصدر المؤوَّل من أن والفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ دون التَّعبير بالمصدر الصَّريحِ، فلم يقل: (إنَّ لك في الحياة قولك لا مساس)؛ وذلك للدَّلالة على تجدُّد هذه المقولة لِما في الفعل المضارع من دلالةٍ على التَّجدُّد والدَّوام، وهو مناسبٌ للتَّعبير بالظَّرفية في قوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ فلمّا جعلَ تلك

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 336.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 61.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 298.

العقوبة مستمرَّةً طولَ حياته؛ ناسب ذلك التَّعبيرَ عنِ المقولة بالفعل المُشعر بالدَّوام.

معنى ﴿لَا﴾ في ﴿لَا مِسَاسَ﴾:

تحريمُ المسِّ بأي صورةٍ ومقدارٍ تحريمًا شاملًا

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ حرفِ النَّفي ﴿لَا﴾ الدّالِّ على نفي الجنس[1] في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، وذلك للدَّلالة على تأكيد النَّفي وشمولِه، أي: لا مماسَّةَ موجودةٌ، فنفى وجودَ الماسَّة نفيًا يشملُ جنس المسِّ كلَّه صغيرَه وكبيرَه وبأيِّ صفةٍ كان، فيحرمُ عليه إيقاعُ اللَّمس بأيِّ شكل كان، وهذا أبلغُ مِنَ الإتيان بلا النّافيةِ التي تدخلُ على فعلٍ مضارعٍ: (لا يمسني)، وهذا ينطوي على عظيم جُرمِه وقبيحِ صُنعِه.

غرضُ التَّعبير عنِ النَّهي عنِ المساس بالإخبار عنه:

ثبتُ التَّحريم حتّى كأنَّه صار خبرًا واقعًا يُتحدَّثُ عنه

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ النَّهي عنِ المماسَّة بالإخبار عنها في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ دون أن يقول: (لا تمسَّ أحدًا)؛ لأنَّ النَّهيَ بالإخبار أبلغُ في الدَّلالة على وجوب الاجتنابِ، فالعُدولُ عنِ النَّهي الصَّريحِ إلى النَّهي بالخبر فيه مبالغةٌ في بيان الحرمةِ وضرورةِ التَّمسُّك بها، فكأنَّ علَّةَ ألّا يمسَّه أحد؛ لِما يلحقُ به مِن داءٍ نفسيٍّ، أصلٌ فيه، كما تميَّز بما ترتَّبَ عليه صنعُه العجلَ، واختُصَّ به، فكان أصلًا فيه لا فرعًا له.

دلالةُ التَّعبير بالمساسِ مادَّةً وصيغةً:

ثبوتُ انتفاء المساس، فلا ينتقضُ بزمنٍ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم ﴿مِسَاسَ﴾ دون الفعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، فلم يجعل له أن يقول: (لا تمسَّني)؛ وذلك للدَّلالة على انتفاء المعنَى انتفاءً ثابتًا لا ينتقضُ بزمن، ولا بحدثٍ ما، وهو متناسبٌ مع شبه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 61.

الجملة ﴿لَكَ﴾ التي أخبرت عن كونِ ذلك استحقاقًا ثابتًا له، فقد "سلبه اللّه الأنسَ الذي في طبعِ الإنسان فعوَّضه به هوسًا ووسواسًا وتوحُّشًا، فأصبح متباعدًا عن مخالطة النّاس، عائشًا وحده لا يترك أحدًا يقترب منه، فإذا لَقِيَهُ إنسان؛ قال له: لا مساس، يخشى أن يمسَّه، أي: لا تمسُّني ولا أمسُّك"[1].

وفي قوله ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ إيجاز، فهو بمعنى: (لا تَمَسُّني ولا أَمَسُّك)، فأوجز العبارتين في لفظٍ واحدٍ.

نُكتةُ حذفِ متعلَّقِ المساس:

حرَّم عليه المسَّ عمومًا مبالغةً في النِّكاية به

حذف النَّظمُ الجليلُ متعلَّقَ المساس المنهيِّ عنه في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾، فلم يبيِّن ما يَحْرُم عليه مماسَّتُه، وذلك ليكون التَّحريم شاملًا كلَّ ما يمسُّ منَ النّاسِ، فالتَّعميمُ جيء به للمبالغة في التَّحريم وتأكيدِ شموليَّته، كما أنَّ الحذف فيه منَ الإيجاز البليغِ ما يجعله متَّصفًا بحسنِ البلاغة، فلو أراد أن يبيِّن ما يَحْرُمُ عليه أن يمسَّه بأن يقول: لا مساسَ لبشر من رجل أو امرأة، صغيرٍ أو كبيرٍ وغيره من الأوصاف، فالحذفُ أغنى عنِ الإطالة، فكان في غاية الإيجاز مع الإيفاء بالدَّلالة التّامَّة.

معنى الواو في: ﴿وَإِنَّ﴾:

الجمعُ بين العقوبتَين في الدّارَين إخبارٌ بسوء الحالِ والمآلِ

عطف النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾[2]، فعطفَ الإخبارَ عن عقوبته في الآخرة على عقوبته في الدُّنيا، فجمع بالواو بين عقوبتَي الدُّنيا والآخرة.

دلالةُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ للإخبار عن عقوبته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 298.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 416.

وعدُ الآخرة وعدٌ محقَّقُ الوقوعِ

في الآخرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على ثبات المعنى وقوَّةِ المضمون، وتصديرُ الجملة بحرف التَّأكيد (إنَّ) تقويةٌ للخبر وتحقيقٌ لوقوعه في المستقبل؛ لأنَّه لمّا كان وعدًا؛ ناسب تأكيدُه لتحقيق وقوعِه؛ تنزيلًا للسّامريِّ منزلةَ مَن ينكرُ مضمونَ الخبر؛ لأنَّ صُنْعَهُ العِجلَ يجعلُه كذلك، ومعاملةُ موسى إيّاه بهذه الصفة تذكيرٌ له بما كان منه؛ ليقيم عليه الحجَّةَ؛ حتى يعلم أنَّه يستحقُّ هذا العقابَ، وإذا كان مِن شأن مضمونِ الخبر إيلامُ السّامريِّ؛ لأنَّ الذي يقدرُ على تحقيق العقابِ الدّنيويِّ يقدرُ على تحقيق الأخرويِّ، فإنَّ في تأكيد الخبرِ إبلاغًا في هذا الإيلام؛ لأنَّه تمكينٌ لتقرير مجيئه في النَّفس، فتُملأ به، ويشيعُ في جميع جنباتها، فيكونُ مَعاقبًا في الدُّنيا بما في قوله: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾؛ وهو يفكِّرُ فيما سيكونُ في الآخرة ممّا يُلفتُ إليه قولُه: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾.

الاستعارةُ التَّهكُّميَّةُ في التَّعبير باللّامِ في ﴿لَكَ﴾:

الهزءُ والتَّهكُّمُ بالضّالِّ أبلغُ من مطلقِ الإخبارِ بالعذابِ

استعار النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بحرف اللّام الجارَّةِ الدّالَّةِ على العطاء الحسنِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾ للتَّهكُّم، والمرادُ عليك، كقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7]، أي: فعليها[1]، فجعل الموعودَ به مِنَ العذاب في الآخرة له، فهو كالإخبار بموعودٍ حسنٍ يُؤتى به للمكافأة الحسنةِ، فشبَّه العقابَ الموضوعَ عليه بالمكافأةِ له على سبيل التَّهكُّم، وحذفَ المشبَّه به، وأبقى منه حرفَ الجرِّ في ﴿لَكَ﴾، فهي استعارةٌ مكنيةٌ؛ لأنَّ المشبَّه به محذوفٌ، وهذه الاستعارةُ تُحقِّقُ ما ذُكر في تأكيد الخبرِ، مِنَ الإبلاغِ في الإيلام.

نُكتةُ تقديمِ شبه الجملةِ ﴿لَكَ﴾:

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على المسنَدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 298.

إليه اسم (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾، وذلك للدَّلالة على تخصيص مخاطبته بهذا الوعد، وإن كان وعدُ الآخرة وعدًا عامًّا لكلِّ أحدٍ، ولكنَّه أجراه عليه مجرَى الاختصاص به مبالغةً في التَّفرُّغ له للعقاب والحسابِ في ذلك اليوم، وللإشعار بخصوصيَّةِ موعدِه، من حيث ما سيكونُ فيه مِن عقابٍ خاصٍّ به؛ كما اختُصَّ بسببه في الدّنيا.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿مَوۡعِدٗا﴾:

جمعُ النّاس في موعدٍ واحدٍ يُفصحُ عن موعدٍ عظيمٍ جليلِ الشَّأن

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ الوعد بصيغة التَّنكيرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ لِما في التَّنكير من دلالةٍ على المبالغةِ في التّوعّد، فجاء به نكرةً تفخيمًا لشأن هذا الوعيدِ، وهذه المعاني في تنكيرِ الوعد ترْشَحُ على ما سيكونُ في هذا الموعد من عقابٍ له.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ للجملة المنفيّة: ﴿لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾:

نفيُ الإخلافِ تأكيدٌ لوقوعِ الوعدِ مستقبلًا

وصف النَّظمُ الجليلُ الوعدَ بالجملة الفعليَّةِ المنفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾؛ للدَّلالة على تأكيد تحقُّقه ووقوعِه في المستقبل، أي: "لن يُخلفك اللّه موعدَه الذي وعدَك على الشِّرك والفسادِ في الأرض، يُنجزه لك في الآخرة بعدما عاقبَك بذاك في الدُّنيا"[1]، فأفاد الوصفُ تأكيدَ إنجاز هذا الوعدِ، فهو وعدٌ منتفيةٌ عنه أسبابُ الإخلاف نفيًا مؤكَّدًا.

توجيه القراءات في ﴿لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾:

الجمع بين الغيبة والخطاب لتأكيد وقوع الموعد

قَرَأَ ابْن كثير وأَبُو عَمرو ويعقوب ﴿لَّن تُخۡلِفَهُۥۖ﴾ بِكَسْر اللَّام، أي: (لن تُخلفَه أنْت يا سامري)؛ أي: لن تغيب عَنهُ على وجه التهدد، أي: ستصير إلَيْه مريدا أو كارهًا؛ فلا يكون لَك سَبيل إلَى أن تخلفه، فهو خبر في معنى الوَعيد. وقَرَأ الباقُونَ ﴿لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 381.

بِفَتْح اللّام، وحجتهم في ذَلِك أن المَعْنى: (أن لَك من اللّه موعدا بِعَذابِك على إضلالك بني إسْرائيل حين عبدُوا العجل لن يخلفكه اللّه) فلَمّا كانَ الموعد مُسْنَدًا إلَى اللّه جلّ وعزَّ لم يحسن إسْناد الخُلْف إلَى السامري؛ إذْ كانَ الخلف إنَّما يجْري في الكَلام مِمَّن وعد، لا من المَوْعُود كَما قالَ اللّه جلّ وعزّ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الرُّوم: 6]، وَكَذَلِك معنى ذَلِك: (لن يخلفكه اللّه)، ثمَّ رُدَّ إلَى ما لم يسم فاعله[1]. ومن بلاغة القراءات هنا أن السامري جمع في خطابه السابق بين الخطاب والغيبة في ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾؛ فجمع اللّه له هنا التهديد بين الخطاب والغيبة أيضا على سبيل المشاكلة.

دلالةُ العطف في ﴿وَٱنظُرۡ﴾:

النَّظرُ إلى تدمير وثنِه جزءٌ منَ التَّنكيل به بعد عقوبتِه بإخراجِه منَ الأمَّة

عطف النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾[2]، فبعد أن بيَّن عقوبةَ السّامريِّ عطفَ عليه ما سيحلُّ بوَثنِه، فلمّا "ذكرَ ما للإله الحقِّ من القدرةِ التّامَّةِ في الدّارَين؛ أتبعَه عجْزَ العجلِ"[3]، فعطف ما سيحلُّ بإلهِه الذي صنعَه على عقوبتِه التي تلقّاها، ليكونَ استئصالُ الضَّلال تامًّا.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱنظُرۡ﴾:

عجزُ الصَّنم ظاهرٌ لكلِّ مُبصِرٍ، فمطلقُ النَّظرِ يكشفُ ضلالَ عابِديه

عبَّر النَّظم الجليل بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱنظُرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ عجزَ الصَّنم ظاهرٌ يراه كلُّ مبصرٍ، فأمره بالنَّظر إلى العجلِ حالَ تعريضه للامتهان والتَّدمير ليُبيِّنَ عجزَه وحقيقتَه، "فجعل الاستدلالَ بالنَّظر

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 463، وابن الجزري، النشر: 2/ 322.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 416.
(3) الخطيب، السراج المنير: 2/ 483.

إشارةً إلى أنَّه دليلٌ بيِّنٌ لا يحتاجُ المستدِلُّ به إلى أكثرَ منَ المشاهدة؛ فإنَّ دلالةَ المحسوساتِ أوضحُ من دلالة المعقولاتِ"[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِلَٰهِكَ﴾ وإضافتِه إلى ضميره:

نسبةُ المعبود (العجل) إلى صانعِه تحقيرٌ للصّانع والمصنوعِ

أضاف النَّظمُ الجليلُ لفظَ الإله إلى ضمير السّامريِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على كونه إلهًا في زعم السّامريّ ليس إلّا[2]، وفي هذه الإضافة دلالةٌ على التَّهكُّم والتَّحقير للإله المزعوم[3]، أي: هو ليس إلهًا للنّاس بحالٍ منَ الأحوال، بل هو إلهٌ نُسب إليك؛ لأنَّك صنعتَه، فكيف يكون المصنوعُ إلهًا؟.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

وصفُ الوثن بما لا يستحقُّ ينبِّهُ على شدَّةِ الضَّلال

آثر النَّظمُ الكريمُ وصفَ الإله بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾، وذلك لما يدلُّ عليه مضمونُ صلةِ الموصولِ منَ التَّنبيه على الضَّلال والخطأ، أي: إلهك المزعومُ الذي لا يستحقُّ أن يُعكفَ عليه[4]، كما أنَّ مضمونَ هذه الصِّلة يبيِّنُ استحقاقَ السّامريِّ لذلك العقابِ الشَّديدِ، فهو لم يصنعِ الإلهَ حسب، بل بقيَ عليه معتكفًا حريصًا شديدَ العبادة.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ظَلۡتَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تخفيفُ الفعلِ يعبِّرُ عن قِصرِ المدَّةِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿ظَلۡتَ﴾ المخفَّفِ في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ دون أن يقول: (ظلَلْتَ)؛ للدَّلالة على أنَّه دام على عبادته مدَّةً يسيرةً جدًّا[5].

وعَبَّرَ عنِ الحذفِ بتخفيفِ التّضعيفِ، وفُهِمَ منهُ دلالتُهُ على قِصَرِ مدَّةِ إقامةِ السّامريّ على عبادةِ العِجْلِ؛ فإنَّ الفعلَ معَ الحذفِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 299.
(2) الخطيب، السراج المنير: 2/ 483.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 299.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 299.
(5) الخطيب، السراج المنير: 2/ 483.

أقلُّ حروفًا منهُ معَ الإثباتِ، وهذا ظاهرٌ، لكنَّ سياقَ القَصَّةِ دالٌّ على قِصَرِ المُدَّةِ المذكورةِ، وكونُ الفعلِ: ﴿ظَلۡتَ﴾ ماضيًا يُفْهِمُ هذا، وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾، فكانَ في الفعلِ الماضي: ﴿ظَلۡتَ﴾ والحذفِ فيه تمهيدٌ لقولِهِ: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ عن معنى (دام) بـ(ظلَّ):

التغرير بالأتباع من خلال إظهار شدّته في عبادة العجل مُرائيًا

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل (ظلَّ)، دون الفعل (دام) في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾؛ لأنَّ الفعل (ظلَّ) يدلُّ على أنَّ الاسم متَّصفٌ بالخبر طولَ مدَّة النَّهار، وهو يدلُّ مجازًا على معنى المداومة؛ لأنَّ غالبَ الأعمال تكونُ في النَّهار[2]، وفي إيثار الفعل الدّالِّ على الملازمة بالنَّهار إشعارٌ بأنَّ السّامريَّ كان يشتدُّ بعبادة العجلِ وقتَ النَّهار رياءً للنّاس وتشجيعًا لهم لعبادتِه، وأنسبُ وقت لذلك هو النَّهار؛ إذ قد يراه جميعُ القوم.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة على الخبر:

تخصيصُ العجلِ بالاعتكاف دون غيره من ضلالات السّامريِّ

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على التَّخصيص، أي: (الذي خصَّصت عبادتَك له دون غيره، أي: دونَ اللّه تعالى)[3]، وفي تقديم: ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ﴿عَاكِفٗاۖ﴾ تهكُّمٌ واستهزاءٌ آخرُ بالسّامريّ؛ لأنَّه يعني: أنَّ هذا الإلهَ إلهُ السّامريِّ فيه أو به ما يقتضي أن يظلَّ السّامريُّ عليه عاكفًا، والحالُ أنَّ فيه وبه ما يباعدُ بينه وبينه كالبعدِ بين المشرق والمغرب.

دلالةُ التَّعبيرِ عن الاعتكاف بالاسم:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ عن معنى الاعتكافِ باسمِ الفاعل في قوله

(1) عبد الله سرحان، الإعجاز القرآني في حذف حروف المباني والمعاني، ص: 117.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 299.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 299.

رسوخُ صفةِ الاعتكافِ في السّامريِّ دليلٌ على جِدِّه في الشِّرك

تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ للدَّلالة على أنَّ الاعتكافَ على هذا الوثنِ قد ثَبت للسّامريِّ، فهو لا يفارقُه، ولا ينقطعُ عنه، فدلالةُ الاسم على ثبات المعنى يرادُ منها هنا تأكيدُ اتِّصافه بصفة الاعتكافِ والانقطاعِ له دون غيره، وفي ذلك ذمٌّ شديدٌ لقوَّة شركِ السّامريِّ.

معنَى اللّام في ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ ودلالةُ التَّأكيدِ في الجملة:

إنكارُ تدميرِ الإلهِ المزعومِ يقتضي ردَّ الإنكارِ بالتَّأكيدِ

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجملةَ باللّام الدّالَّة على القسم المحذوفِ في قوله تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾، وتقديرُ الكلام: واللّه لنحرقنّه، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ في اليَمِّ نَسْفًا[1]، وقد أكَّد الفعلَ بنون التَّوكيدِ الثَّقيلةِ إظهارًا لعظمة اللّه تعالى، وتحقيقًا للوعد[2]، فالتَّأكيدُ يدلُّ على قطعيَّة وقوعِ هذا الوعد، فجمعُ القسم مع التَّأكيد تقويةٌ لحدوث الموعودِ به، ولعلَّ التَّأكيدَ مناسبٌ لمِن اعتقد بأنَّ العِجْلَ هو إلُهه، فهو ينكرُ أن يقعَ في هذا الإله المزعوم ذلك الوعدُ المحتوُم، فجيءَ بالتَّأكيد مع القسم ردًّا على ذلكم الإنكارِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضعَّفِ للدَّلالة على التَّحريق:

تَكرارُ الحرقِ مبالغةٌ في إظهارِ العجزِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضعَّف ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ دون (نحرِقُه) في قوله تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ لِما في التَّضعيف من دلالةٍ على التَّكثير وتقويةِ المعنى، والمعنى: أنَّنا نحرقُه مرَّةً بعد مرَّة[3]، وذلك للمبالغة في التَّنكيل به وإظهارِ ضعفه وعجزه على أبلغِ وجهٍ.

توجيه القراءات في ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾:

تعددُ صيغِ الألفاظِ دلالةٌ على تنوعِ طرقِ الإذلالِ للإلهِ المزعومِ

قَرَأَ ابْنُ وِرْدانَ عَنْ أبي جعفر بِفَتْحِ النُّونِ وضَمِّ الرّاءِ مخففةً:

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 147.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 337.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 236.

﴿لَّنَحۡرُقَنَّهُۥ﴾، وهيَ قِراءَةُ عَليِّ بْنِ أبي طالِبٍ رضي الله عنه، وقرأ ابن جمّاز عن أبي جَعْفَرٍ بضم النون وبِإسْكانِ الحاءِ وتَخْفيفِ الرّاءِ مكسورةً: ﴿لَّنُحۡرِقَنَّهُۥ﴾، وقَرَأ الباقُونَ بِضَمِّ النُّونِ وكَسْرِ الرّاءِ مشددةً[1]. فأما قراءة الجمهور ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾، فهي مِنْ: (حَرَّقه يُحرِّقُه) بالشديد، ثم أُكِّد الفعل بنون التوكيد الثقيلة، مبالغة في التحريق. وفيها تأويلان: أظهرُهما: أنها مِنْ حَرَّقه بالنار. والثاني: أنه مِنْ (حَرَق نابُ البعير): إذا عَضَّ ببعضِ أنيابه على بعضٍ. والصوتُ المسموعُ منه يُقال له الصَّريفُ، والمعنى: (لنَبْرُدَنَّه بالمِبْرد بَرْداً نمحقُه به كما يفعل البعيرُ بأنيابه بعضها على بعض). وأما قراءة ابن وردان ﴿لَّنَحۡرُقَنَّهُۥ﴾ فهي من (حرق) الثلاثي؛ قال أهل اللغة: "وحَرَقَ نابُ البَعير يَحْرِقُ ويَحْرُقُ حَرْقا وحَريقا: صَرَفَ. وحرَقَ الإنْسان وغيره نابَه، يَحْرُقُه، ويحْرِقُه حَرقا وحُريقا وحُرُوقا فعل ذَلِك من غَيْظٍ وغضبٍ". وأما قراءة ابن جمّاز ﴿لَّنُحۡرِقَنَّهُۥ﴾ فهي من (أحْرق) الرباعي؛ فيجوز أن يكونَ (أحْرق وحرَّق) بمعنًى، كـ: (أنْزَل ونَزَّل). يقول أهل اللغة: "وأحْرَقَتْه النّار وحَرَّقَتْه فاحترَقَ وتَحَرَّقَ"[2]. فهذه القراءات المتواترة جمعت كل أنواع الإذلال والمهانة لهذا الإله المزعوم؛ من المبالغة في الحرق، ومن البرد بالـمِبْرَد. فحين نبرد الشّيء يتطاير الشّرر منه، وكلما بردناه بشدة يخرج شرر أكثر وأكثر حتّى يصبح كالنّار، وهذا يشير إلى القراءة الأخرى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾، وبرْدُه بالمبرد شيئاً فشيئاً يدل على عجز هذا الإله - العجل - عن إنقاذ نفسه.

دلالةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

رُتبةُ النَّسفِ أبلغُ في الإعدامِ والإذلالِ منَ التَّحريق

آثر النَّظمُ الكريمُ العطفَ بحرف العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالِّ على

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 322، وتحبير التيسير، ص: 462.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/322، والسمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 99، وابن سِيدَهْ، المحكم والمحيط الأعظم: 2/ 574، وقمحاوي، قلائد الفكر، ص: 102.

التَّراخي في قوله تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾؛ للدَّلالة على التَّراخي في الرُّتبة؛ وذلك لأنَّ النَّسفَ أشدُّ في إعدام العجلِ من إعدامه بالتَّحريق، كما أنَّه أذلُّ له[1]، فأخَّر ذكرَ النَّسف عن ذكر التَّحريق؛ لأنَّه أبلغُ منه وأشدُّ، فجاء بـ ﴿ثُمَّ﴾ بينهما لترتيب تلك الرُّتبةِ، فجعل النَّسفَ أبعدَ وأعلى في الإذلال منَ التَّحريق، وهذا لا محالةَ جارٍ على طريق السُّخريّةِ بالسّامريّ ومَن في حكمه؛ وإن كان معناه حاصلًا لا محالةَ.

معنَى اللّامِ في ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ ودلالةُ توالي المؤكِّداتِ في الجملة:

الوعدُ بالنَّسف المؤكَّدِ أبلغُ في بيان قوَّةِ الوعد

أدخل النَّظمُ الجليلُ لامَ القسم في مُفتتح الجملةِ للدَّلالة على القسَم المحذوفِ في قوله تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ تأكيدًا لمضمون الخطابِ، وقد جمع مع القسَم منَ المؤكِّدات نونَ التَّوكيد الثَّقيلةَ، والمفعولَ المطلقَ تأكيدًا للوعد وتحقيقًا لصدقِ الإيفاء به[2]، كما أنَّ في تأكيده بالمفعول المطلقِ إشارةً إلى أنَّه تعالى لا يتردَّدُ في ذلك، إظهارًا لانتفاء موجباتِ الخشيةِ منه؛ إذ إنَّه ليس بإلهٍ[3].

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّةِ في شبه الجملة:

نسفُ العجلِ في البحر استئصالٌ للباطلِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بشبه الجملة الدّالَّةِ على الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ للدَّلالة على تذريةِ الصَّنم وتفتيتِه إلى أجزاء صغيرةٍ تتلاشى في البحر، فلا يبقى منها جزءٌ يمكنُ أن يذكِّرهم بالعجل، فجعل البحرَ ظرفًا للتَّذرية والنَّسفِ إشارةً إلى استئصال العجلِ استئصالًا لا يبقى معه أثرٌ، يمكنُ أن يُتَّخذ للافتتان في قابل الأيامِ، وهذا هو الأسلمُ في إزالة الباطل.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 300.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 337.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 300.

دلالةُ تعريفِ اليمِّ بالألف واللّام:

عرَّف النَّظمُ الجليلُ لفظَ اليمِّ بالألف واللّام الدّالَّتين على العهد في قوله تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾؛ للدَّلالة على البحر ذاتِه الذي أغرق اللّه تعالى فيه آلَ فرعون[1]، فهو اليمُّ الذي عُهد ذكرُه في السّورة، ففي تعريفه بـ(أل) استحضارٌ لما يحقّقُ عظيمَ التّرهيب في نفس السّامريّ وفي نفوس أمثالِه.

البحرُ أُغرقَ فيه فرعونُ ونُسف فيه العجلُ

دلالة التعبير بـ﴿ٱلۡيَمِّ﴾ في السياق:

لّما كان اليمُّ يُطلقُ على ما كانَ ماؤُهُ مِلْحًا زُعاقًا، وعلى البحرِ العميقِ المتلاطمِ الأمواجِ؛ ناسبَ اختيارُه مكانًا للنّسفِ؛ إذ إنَّ التّلاطمَ يُسهمُ في هذا النّسف، فضلًا عمّا يُثيرُه من مشهدِ رعبٍ للمرميِّ فيه، ولذلك ارتبط اليمُّ بمواضع الخوفِ والعذابِ والإغراقِ، في حين يُطلقُ البحرُ في الغالب على مواضعِ استجلابِ النِّعم والخيراتِ.

ارتباطُ اليمِّ بمواضعِ العقوبةِ والعذابِ يناسبُ لفظَ النّسفِ

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿نَسۡفًا﴾:

أكَّد النَّظمُ الجليلُ فعلَ النَّسف بالمفعول المطلقِ في قوله تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾، فجاء بالمصدر ﴿نَسۡفًا﴾؛ للدَّلالة على تأكيد معنَى النَّسفِ وتقويةِ الإخبارِ به، ولا يدلُّ على تأكيد مضمونِ الجملة كاملةً، بل يؤكِّدُ المعنى في الفعل (نسف) فقط، فهو يشيرُ إلى أنَّ النَّسف مرادٌ على وجه الحقيقة، فلا يظنُّ السّامعُ أنَّه قد يرادُ مطلقُ التَّقطيع والتَّكسير، وذلك مبالغةٌ في إذلاله وتهوين شأنه، وإيغالٌ في استئصالِه بحيث لا يبقَى منه شيءٌ صغيرٌ.

تأكيدُ النَّسفِ ليقطعَ الظَّنَّ بأنَّه مجرَّدُ تكسيرٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

المساس واللّمس:

اللَّمسُ أصلُه من (لمس) يَدُلُّ على تَطَلُّبِ شَيْءٍ ومَسيسِه أيْضًا،

(1) الخطيب، السراج المنير: 2/ 483.

المسُّ أخفُّ من اللَّمس، والنَّهيُ عنه أبلغُ في شدَّة التَّحريمِ

تَقولُ: تَلَمَّسْتُ الشَّيْءَ؛ إذا تَطَلَّبْتَهُ بيَدِكَ، واللَّمسُ أصْلُهُ باليَدِ ليُعْرَفَ مَسُّ الشَّيْءِ، ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى صارَ كُلُّ طالِبٍ مُلْتَمِسًا[1]، وهو: إدراكٌ بظاهر البَشرة، كالمسِّ، ويُعبَّر به عنِ الطَّلب، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: 8][2]، أمّا المسُّ؛ فيَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[3]، ويُستعملُ بمعنى إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، فمِنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرٍ: ما يُصيبُ مِنْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ؛ إذا حَلَّ به[4]، فاللَّمس أبلغُ وأقوى في التَّعبير عن تلاقي البَشرتين من المسِّ؛ لأنَّه يدلُّ على طلب الشَّيء وتلمُّسه باليد ومسِّه، ولذلك استعملَ المسَّ لما كان خفيفًا، كقوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83][5]، فآثر في الآية الكريمة التَّعبيرَ بالمسِّ للمبالغة في حرمة المسِّ عنه بحيث إنَّه يحرمُ عليه حتّى تلاقي البَشرةِ الخفيفِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمس).
(2) الرّاغب، المفردات: (لمس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 126.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾

[طه: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الشِّرك وعقوبةِ أسيادِه يُتبعُ ببيان الإله الحقِّ

بعدَ أن بيَّن النَّظمُ الجليلُ ضلالَ السّامريِّ، وما جاء به منَ الشِّرك؛ قصرَ الألوهيَّةَ على اللّه تعالى، فلمّا فرغَ من إبطال الباطلِ؛ شرع النَّظمُ في بيان الحقِّ وتحقيقِ الدّين الحقِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسِعَ﴾: (وسع) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ الضّيقِ والعُسْرِ، يُقالُ: وسُعَ الشَّيْءُ واتَّسَعَ[2]، والسَّعَةُ تقالُ في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل كالقُدرةِ والجودِ ونحوِ ذلك، والوُسْعُ منَ القدرة: ما يفضلُ عن قدر المكلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، وقولُه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأعراف: 89] وصفٌ له نحو: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البقرة: 268]، عبارةٌ عن سَعَةِ قدرته وعلمِه ورحمتِه وإفضالِه، كقوله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأنعام: 80][3]، و سُبحانَهُ وتَعالى الواسِعُ: هو الَّذي وسِعَ رِزْقُه جميعَ خَلْقِه، ووَسِعتْ رحمتُه كُلَّ شَيْءٍ وغِناه كُلَّ فقرٍ، وهو الكثيرُ العطاءِ الَّذي يَسَعُ لِما يُسْأَلُ، ويُقالُ: الواسِعُ المُحيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾[4]، والمرادُ به في الآيةِ الكريمة: أنَّ علمَه تعالى تامٌّ، ولم يَضق علمُه عن شيءٍ، فلا يخفى عليه شيءٌ[5].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(3) الرّاغب، المفردات: (وسع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وسع).
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 515.

المَعْنى الإجْماليُّ:

حصرُ الألوهيّةِ بإلهٍ واحدٍ أحاطَ علمُه بكلِّ شيءٍ وهو الله تعالى

يخبرُ النَّظمُ الكريمُ النّاسَ مخاطبًا إيّاهم بعد إيراد قصَّةٍ تبيِّنُ عظمةَ التَّوحيد وفظاعةَ جريمةِ الشِّرك، معرِّفًا إيّاهم بإلهِهم الحقِّ الواحدِ، نافيًا أن يكون العِجل إلهًا، أي: ليس هذا بإلهكم، وإنَّما المستحقُّ للعبادة والتّعظيم اللّه الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادةُ إلّا له، فكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، وهو الخالقُ لكلّ شيء، هو العالمُ بكلّ شيء، وقد أحاطَ بكل شيء عدًّا، فلا يعزبُ عنه مثقالُ ذرّة في السّماوات ولا في الأرض، وما تسقطُ من ورقة إلّا يعلمُها ولا حبّةٍ في ظلماتِ الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتابٍ مبينٍ"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾:

التَّعقيبُ على إبطالِ الشِّرك بإعلانِ التَّوحيدِ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ، سيقتْ لإحقاق الحقِّ وإبطالِ الباطل، فأبطلَ ما جاء به السّامريُّ مِنَ الشِّرك، وبيَّن أنَّ المستحقَّ للعبادة والتَّعظيم هو اللّه تعالى وحده، فهو العالمُ بكلٍّ، ولا تخفَى عليه خافيةٌ في الأَرض ولا في السَّماء[2].

لا وجْهَ للتّسويةِ بين الخالقِ والمخلوقِ

وجامعُ التّقابلِ والتضادِ مِن شأنه أن يتطلَّب الواوَ؛ لتعطف مضمونَ هذه على مضمون الحديثِ عن إله السّامريِّ؛ لِما بينهما مِنَ التوسُّط بين الكمالَين، كعطفِ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ١٤﴾ [الانفطار: 14] على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ١٣﴾ [الانفطار: 13]، ولكنَّ الواوَ غابت إبلاغًا في نفي التّسويةِ بينهما من كلِّ جهةٍ؛ لضعف النُّفوسِ التي عبدتِ العجلَ مِن دون اللّه ومِثْلِها في كلِّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ؛ مِمَّا يقتضي هذا الإبلاغَ الحاسمَ الفاصلَ بين المخلوقيّةِ والخالقيّةِ.

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 147.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 148.

غرضُ الالتفاتِ من ضمائرِ التَّكلُّم إلى الغيْبةِ:

خطابُ الأمَّة بالحقيقة المطلقةِ، وتحقيرُ السّامريِّ بالإعراضِ عنه

التفت النَّظمُ الجليلُ في الخطاب من صيغةِ المخاطَب المفرد إلى خطاب الجمعِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، فلم يقل: (إنّما إلهك)؛ وذلك للإعراضِ عن خطاب السّامريِّ تحقيرًا له وتهوينًا، ولئلّا يلتبسَ خطابُ الرّسول محمَّد ﷺ أو خطابُ كلِّ من يتأتّى خطابُه مِن أمَّة رسولِنا أمّة الإجابة بخطاب السّامريِّ، فجاء الخطابُ بالجمع لتنزيه الرّسول وأهلِ الإيمان عن الالتباس بهذا السّامريِّ، وتنبيهًا للسّامعين مِن الذين عبدوا العجلَ، ومَن في حكمِهم على خطئِهم، وتقريرِ حقيقةِ التَّوحيد[1]، كما أنَّ مضمونَ الجملة ليس ممّا يخصُّ المحاورةَ مع السّامريِّ، بل هي حقيقةٌ مطلقةٌ، ولمّا كان القومُ مشاركين بالجُرم بطاعة السّامريِّ؛ وُجِّهَ الخطابُ إليهم تعليمًا لهم وتبيينًا للحقِّ.

بلاغةُ القصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾ ونوعُه وغرضُه:

حصرُ صفةِ الألوهيَّةِ بالله تعالى على خلاف ظنِّهم وما اعتقدوه

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بأسلوب الحصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ تأكيدًا لمضمون الجملةِ وتقويةً للخطاب، وهو قصرُ قلبٍ؛ لأنَّهم ظنّوا عكسَ المضمون وخلافَه؛ إذ "لمّا أراهم بطلانَ ما هم عليه بالعيان؛ أخبرهم بالحقِّ على وجه الحصر"[2]، وهو قصْرُ صفةٍ على موصوفٍ، فقصرَ صفةَ الألوهيَّة على اللّه تعالى.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول وصلتِه:

تأكيدُ التَّوحيد بوصْفِ الإله بالوَحدانيَّة

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الموصول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾؛ لبيان صفةِ اللّه تعالى[3]، والصِّفةُ هي ما تضمَّنَتْه صلةُ الموصول من دلالةٍ على الحصر، فقصرُ الألوهيّةِ عليه هي صلتُه، فاختصاصُه بالألوهيّة مِن شأنه هو وحدَه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 300.
(2) الخطيب، السراج المنير: 2/ 483.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 417.

وهذا إبلاغٌ ظاهرٌ في تقرير التّوحيدِ وإحقاقِ الحقِّ، ومن ثَمَّ هو إبلاغٌ ظاهرٌ في تقرير بطلانِ غيرِه.

بلاغةُ القصرِ بالاستثناءِ بعدَ النَّفيِ في كلمة التَّوحيدِ ونوعُه:

وَحدانيَّتُه تعالى ثابتةٌ لعموم النّاسِ لا للمخاطَبين حسب

عقَّب النَّظمُ الجليلُ جملةَ القصر في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ بقصرٍ آخرَ بأسلوب الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، وذلك تأكيدٌ لمضمون القصرِ، والفرقُ بين الجملتَين: أنَّ القصرَ في الجملة الأولى مضافٌ إليهم، فاقتضى حصْرَ ألوهيَّة الله تعالى فيهم، وذلك لا يلزمُ أن يكون لغيرهم إلهٌ غيرُه[1]، فجاء بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ إطلاقًا لوَحدانيَّته وإلهيَّته للنّاس جميعًا؛ ولذلك جيء بـ(ما) و(إلّا)؛ لأنَّ كثيرًا منَ النّاس يُنكِرُ مضمونَ الخبر، ويدفعُه.

نُكتةُ فصلِ قوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾:

العلمُ بكلِّ شيءٍ دليلٌ على صفةِ الوَحدانيَّة المحصورة في الله تعالى

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا[2]، سيقت للجواب عن سؤالٍ نشأ من حصرِ الألوهيَّة بالله تعالى وحده، فكأنَّه قيل: كيف كان إلهًا واحدًا لجميع النّاس؟ فقيل: كان كذلك؛ لأنَّه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾، ومن صفاتِ الإله العلمُ بكلِّ شيء، وهذه الجملةُ يلزم منه ما قبْلَها، وهي مما يلزمُ ما قبْلَها؛ فبينهما توكيدٌ خفيٌّ، وبينهما كمالُ اتّصالٍ؛ فلهذا غابتِ الواو.

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿وَسِعَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

شرطُ الإلهيّةِ إحاطةُ علمِه بكلِّ شيءٍ في الوجود

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿وَسِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ للدَّلالة على إحاطتِه تعالى بعلم كلِّ شيءٍ إحاطةً تامَّةً؛ لأنَّ الواسع يحيطُ أكثرَ بكلِّ ما كان دونَه[3]، وفي ذلك تعبيرٌ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 152.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 417.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 301.

عن علَّة اتِّصافِه بالتَّوحيد ﷻ، فعلمُه الذي يحيطُ بكلِّ شيءٍ يدلُّ على كونِه الخالقَ الواحدَ، والتَّعبيرُ بصيغةِ الفعل الماضي دون الوصْفِ بالاسم للدَّلالة على تحقُّق علمِه بحدوث الأشياءِ، فكلُّ شيءٍ يحدثُ، ويقعُ في الدُّنيا؛ فإنَّ علمَ اللّه تعالى سابقٌ له، فهو تأكيدٌ لسَعةِ العلم وشموله.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظ العموم ﴿كُلَّ﴾:

شمـلَ علـمُه الأشـيـاءَ، فـالـخـفـايـا مكشوفةٌ له ﷻ لا يقصرُ علمُه عنها

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظِ العموم ﴿كُلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾، وإضافتِه للنَّكرة للدَّلالة على شمول علمِه تعالى لكلِّ شيءٍ، وما صحَّ أن يُطلق عليه لفظُ شيءٍ؛ فهو محاطٌ بعلم اللّه تعالى، فعمومُ العلم يشيرُ إلى أنَّ علمَ اللّه تعالى كائنٌ بجميع الكائناتِ، شاملًا لذواتِهم وأعمالِهم، أي: وسع علمُه كلَّ شيءٍ فلا يضيقُ علمُه عن شيءٍ، ولا يُعجزُه شيءٌ، أي: لا يقصرُ عن الاطِّلاع على أخفَى الأشياء[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالتَّمييز:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالعلم المنتصِبِ على أنَّه تمييزٌ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾، وهو تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعل، ثم نُقل الفعلُ عنِ العلم إلى لفظِ ﴿كُلَّ﴾، ونُصب العلمُ على التَّمييز والتَّفسيرِ لتلك السَّعةِ، والتَّقديرُ: (أحاط علمُه بكلِّ شيءٍ)[2]، فهو ميَّز نسبةَ السَّعةِ إلى اللّه تعالى، جيء به لتَبْيين بأيِّ شيءٍ كانت تلك السَّعةُ، فدلَّ على أنَّ السَّعةَ كائنةٌ بالعلم، أي: علمُه تعالى وسعَ الأشياء كلَّها، فلا تغيبُ عنه[3]، فوقوعُه تمييزًا يعني: أنَّه المقصودُ بالسَّعة، وما عليه التَّنزيلُ أبلغُ في تقرير إحاطةِ اللّه بكل شيءٍ؛ إلماعًا إلى الجبروتِ والتَّملّك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 301.
(2) الواحدي، البسيط: 14/ 515، والخطيب، السراج المنير: 2/ 483.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 301.

والمِلْكِ والمُلْك والقهرِ والعلوّ والسّطوة، فيرجعُ إلى قوله في المطلع: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾ [طه: 3].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿عِلۡمٗا﴾:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ العلم بصيغةِ التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾؛ دلالةً على التَّعظيم والتَّفخيم، فلمّا ذكرَ ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ الدّالَّ على العموم؛ ناسبَ أن يفسِّر ذلك العمومَ بعلمٍ عامٍّ شاملٍ لا يُدرَك شأنُه، ولا يُحاطُ بهِ، فكان التَّنكيرُ أنسبَ لذلك.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ دوام القصّ المبين بعد خِتام قـصَّـة مـوسى الـكـلـيـم مع السّامريِّ المهين

لمّا ذكر النَّظمُ الجليل قصَّةَ موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون، ثمَّ قصَّتهما مع السّامريِّ على الأسلوب البليغ والسَّبيل القويم، وما أفضتْ إليه عقبى المخالفة، واتِّخاذ العجْلِ مع اللّه، تحدّيًا لإرادته بالتَّوحيد، ومخالفةً لهدي موسى وهارون الرَّشيد، والتَّأكيد على أنَّ ذلك انحرافٌ يستحقُّ تنديدًا وذمًّا، وأنَّ اللّه قد وسع كلَّ شيء علمًا؛ بيَّن أنَّ مثل هذا القصص يعادُ بمثل هذا الأسلوب البديع والمثال الرَّفيع، فقال للرَّسول الأكرم ﷺ: إنَّنا نقصُّ عليك - أيُّها النَّبيُّ - مِن أخبار الأمم، زيادةً في علمك، وإجلالًا لقدرك، وتسلية لقلبك، وإذهابًا لحزنك، بما وقع لأمثالك من الرُّسل ممَّن سبقك، وتكثيرًا لبيِّناتك، وزيادةً في معجزاتك، موعظة للسّامع وتأكيدًا للحجَّة على النّاس[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقُصُّ﴾: (قصص، قَصَّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَتَبُّعِ الشَّيْءِ، ومِن ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: اقْتَصَصْتُ الأَثَرَ؛ إذا تَتَبَّعْتُهُ، ومِنْ ذَلِكَ اشْتِقاقُ القِصاصِ في الجِراحِ، وذَلِكَ أَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ فِعْلِهِ بالأَوَّلِ، فكَأَنَّهُ اقْتَصَّ أَثَرَهُ، ومِنَ البابِ القِصَّةُ والقَصَصُ، كُلُّ ذَلِكَ يُتَتَبَّعُ، فيُذْكَرُ[2]، والقِصَّة: الخَبَرُ، وهُوَ القَصَصُ، وقَصَّ عَلَيَّ خبره يقُصُّه قَصًّا وقَصَصًا: أَوْرَدَهُ[3]، والقَصَصُ: الأخبار المتتبَّعة، قال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ

(1) الخطيب، السّراج المنير: 2/ 483.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصّ).
(3) ابن منظور، اللّسان: (قصص).

﴿هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62][1]، وقدِ اقتصصتُ الحديثَ: رويتُهُ على وجهِه، وقد قصَّ عليه الخبرُ قصصًا، والاسم أيضًا القَصصُ بالفتح، وضع موضع المصدر حتّى صار أغلبَ عليه، والقِصص، بكسر القاف: جمع القصَّةِ الَّتي تُكتب[2].

2) ﴿أَنۢبَآءِ﴾: (نَبَأ) أصلٌ يدلُّ على الإتيانِ من مَكانٍ إلَى مَكانٍ، ومِن هَذا القياسِ النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لِأَنَّهُ يَأتي مِن مَكانٍ إلَى مَكانٍ[3]، والنَّبأ: خبرٌ ذو فائدة عظيمة، يَحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصل: نَبأٌ، حتَّى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثَّلاثة، وحقُّ الخبرِ - الَّذي يقال فيه: نَبأٌ - أن يتعرّى عن الكذب كالتَّواتر، وقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: 6] تنبيهٌ أنَّه إذا كان الخبر شيئًا عظيمًا له قدر، فحقُّه أن يُتوقَّف فيه، ولتضمُّن النَّبَأِ معنى الخبر يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا، كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمُّنه معنى العلم قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلمتُهُ كذا[4].

3) ﴿سَبَقَتْ﴾: أصلٌ يَدُلُّ على التَّقديمِ، تقدُّم الشَّيءِ مِن بين ما حوله في قوَّة وجِدٍّ[5]، التَّقدُّم إلى الأشياء أعيانًا كانت أو معاني[6]، والسَّبْق: القُدْمَةُ في الجَرْيِ وفي كُلِّ شَيْءٍ، تَقُولُ: لَهُ في كُلِّ أمرٍ سُبْقَةٌ وسابِقةٌ، والجَمعُ السَّوابِقُ، وقَدْ سَبَقَه يَسْبُقُه ويَسْبِقُه سَبْقًا: تقدَّمه[7]، واستُعمل بمعنى الفَوت والإفلات، وبمعنى المُضيِّ، فمن الإفلات قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، ومن المُضيِّ كلُّ ما جاء بلفظ ﴿سَبَقَ﴾ و﴿سَبَقَتْ﴾ [طه: 129]؛ فهو بمعنى (مَضَى)، أي: كلمةٌ أو قولٌ أو حكم مضى من اللّه ﷻ، أي: أُبْرِم مثل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: 68][8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّ اللّه تعالى يُخاطب النَّبيَّ ﷺ، بأنَّنا نقصُّ عليك بعظمتنا من

(1) الرّاغب، المفردات: (قصص).
(2) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (قصص).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(6) السّمين، عمدة الحفاظ: (سبق).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(8) الرّاغب، المفردات: (سبق).

قَصُّ أخبار الأمم الخوالي، والمِنَّةُ بتنزيل القرآن ذكرًا من لدن الرَّحمن

أخبار ما سبق من أحوال الأمم الماضية، كخبر موسى وهارون، وما وقع لهما مع فرعون وبني إسرائيلَ والسّامريِّ، إجلالًا لمقدارك، وتسليةً لقلبك، وإذهابًا لحزنك بما اتَّفقَ للرسل من قبلك، وتكثيرًا لبيِّناتك، وزيادة في مُعجزاتك، وليعتبرَ السّامع، ويزدادَ المُستبصر في دينه بصيرةً، وتتأكَّد الحُجَّةُ على مَن عاند وكابر، وقد أعطيناك كلَّ هذا، ومنحناك من عندنا وحدنا ذِكْرًا عظيمًا، وهو القرآن الكريم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ استئنافِ الجملةِ:

الإخبارُ بالقصصِ لتحقيق الاعتبارِ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ، خوطِبَ بها النَّبيُّ ﷺ، تنويهًا بقصَّة موسى عليه السلام ورسالته، وما جرى مع بني إسرائيلَ[2]، وما فيها من معنى البُعد؛ للإيذان بعلوِّ رتبته وبُعدِ منزلته في الفضل، والمرادُ إخبارُ النَّبيِّ ﷺ ووعدُهُ بتنزيل القصص لحكاية ما مرَّ بالأمم السّابقة ما يحقِّق الاعتبار للمكلَّفين بخطابه ﷺ[3]، ومفادُ الجملة قولُه له: إنَّ مثل هذا القصِّ العالي، في هذا النَّظم العزيز الغالي، نقصُّه عليك، من أخبار ما قد سبق من الأزمان، والكوائن الجليلة، ما اتَّفقَ للرُّسل من قبلك، وقد آتيناك ذِكرًا، فمَن أقبل عليه؛ كان القرآنُ مذكِّرًا له بكلِّ ما يريد من العلوم النافعةِ[4].

دلالةُ الكافِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ودلالةُ التَّشبيهِ:

قصصُ القرآنِ تتناسبُ بلاغةً وفخامةً وسموَّ مقاصدَ

أدخلَ النَّظمُ الجليل الكافَ على اسم الإشارة، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾؛ للدَّلالة على التَّشبيهِ،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 148 - 149.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 301.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 97.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر في تناسب الآيات والسّوَر: 12/ 340 (بتصرّف).

أي: نقصُّ عليك من الحوادثِ الماضيةِ كقصَّةِ موسى المارَّة[1]، والتَّشبيهُ واقعٌ بتشبيه القصص بنفسه، وذلك للكناية عن كونها، "إذا أُريد تشبيهُها وتقريبها، بما هو أعرف منها في بابها؛ لم يجدْ مُريدُ ذلك طريقًا لنفسه في التَّشبيه، إلّا أن يشبِّهَها بنفسها؛ لأنَّها لا يفوقها غيرُها في بابها، حتّى تُقرَّب به، على نحو ما تقدَّم، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [سورة البقرة:143]، ونظائرُهُ كثيرة في القرآن"[2].

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد:

قصصُ القرآنِ في منزلة رفيعةٍ، ورتبةٍ عاليةٍ، بعيدة في الفضل

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾؛ للدَّلالة على علوِّ رتبة ما حُكي من القصص، وبُعد مكانته ومنزلته في الفضل[3]، أي: نقصُّ عليك مثل ذلك القصصِ العالي الفريد في رتبتهِ، مع ما فيه من تفخيم شأنِ ما ورد من قصَّة موسى عليه السلام، "أي: مثل هذا القصِّ العالي في هذا النَّظم العزيز الغالي، لقصَّة موسى ومن ذُكِرَ معه"[4].

إيثارُ استعمالِ الفعل ﴿نَقُصُّ﴾ دون غيرِه:

قصُّ الأنباءِ حاصلٌ على وفقِ الواقع تفصيلًا وتتبُّعًا

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ القصِّ دون غيره في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الإخبارَ عن القصص السّابقة حاصلٌ على جهة التَّتبُّع، فأُوثِر القصُّ؛ لأنَّه يدلُّ على تقفّي الأحداث من أوَّلها قدمًا فقدمًا[5]، مع التَّفصيل والتَّتبُّع.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿نَقُصُّ﴾ بصيغة التَّعظيم:

القصصُ لا ينقطع بعد قصَّةِ موسى، بل هو دائمٌ متجدِّدٌ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع دونَ الفعلِ الماضي،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 40.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 302.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 40.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 339.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 21.

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾؛ للدَّلالةِ على دوام القصص وتجدُّدِه، فلمّا انتهت قصَّة موسى؛ فإنَّ القصص بعدها مستمرٌّ للغايات السّامية، وقد جيء بالمضارع بصيغة التَّعظيم، بجعل المتكلِّم الواحد جمعًا، أي: نقصُّ عليك ذلك بما لنا من العظمة، كما أنَّ التَّعبيرَ بالفعل المضارع يستجلب الصّورةَ، ويستحضر الحدث، والمستحضَرُ هنا الحالةُ الحسنة في ذلك القصص[1].

فائدةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرور في ﴿عَلَيۡكَ﴾:

تمكُّنُ أغراضِ القصص وقوَّةِ أثرها مفيدٌ في البيان عن المراد

قيَّد النَّظمُ الجليل القصَّ بأنَّه كائنٌ على النَّبيِّ ﷺ، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾، وذلك للدَّلالة على أنَّ القصصَ إنَّما جيء به لأغراض سامية، بحيث إنَّها تتمكَّن من التَّأثير في النَّبيِّ ﷺ، أي: مفاد قوله له، وهو يعرض عليه قصَّة موسى وهارون عليهما السلام، في الصِّراع الَّذي دارَ بينهما وبين أقوامهما، في حضور موسى وغيبتهِ، إنَّما قصصنا عليك هذا القَصصَ؛ "زيادةً في علمك، وإجلالًا لمقدارك، وتسليةً لقلبك، وإذهابًا لحزنك، بما اتَّفَقَ للرُّسل من قبلك، وتكثيرًا لأتباعك، وزيادةً في معجزاتك، وليعتبرَ السّامعُ، ويزدادَ المستبصر في دينه بصيرةً"[2].

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾ في شبه الجملةِ ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ﴾:

يكفي مِنَ القصصِ ما يُحدِث الوعظَ ويبيِّن القصدَ

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾؛ للدَّلالة على التَّبعيض، فهي صفةٌ لمحذوف تقديره: قصصًا مِن أنْباءِ ما قَد سَبَقَ[3]، أي: إنَّ القصصَ لم يكن لجميع مَن أرسله اللّه تعالى، أو مستوفيًا لجميع ما سبق،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 301.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 339.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 301.

ويشهد لذلك تصريحُ القرآن الكريم في كثير من آياته، أنَّ الله تعالى لم يقصَّ على الرَّسول ﷺ جميعَ أحوال الأمم السّابقة، كقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164][1]، وإنَّما اقتصرَ النَّظمُ الكريم على ما يكفي من القصص للموعظة وبيان القصد، ولَكَ أَنْ تَجْعَلَ ﴿مِنْ﴾ اسمًا بِمعنَى بَعض، فتَكُونَ مَفْعُولَ ﴿نَقُصُّ﴾[2].

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿أَنۢبَآءِ﴾ جمعًا بدلًا من (أخبار):

الإنباءُ يناسب غرابةَ تلك القصص وعظمةَ شأنِها

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الأنباء دون لفظِ الأخبارِ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾؛ لكون النَّبأِ يدلُّ على الخبر ذي الشَّأنِ العظيم، كما ذكرَ أهلُ اللغة، وقد قال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾ [الكهف: 13]، أي: نحن نخبرك بخبرِهم العظيم[3]، وإنَّما كان خبرُهُم عظيمًا لمخالفته المعتادَ من شأن النّاس، وأمّا التَّعبيرُ بالجمع؛ فيشير إلى جلالة علمه تعالى، كما أنَّ كثرة تلك الأنباء وقصِّها على النَّبيِّ ﷺ يزيد في علمهِ، وفيه تسليَةٌ لقلبهِ، وإذهاب لحزنهِ، بإيراد ما اتَّفق للرُّسل من قبله، وزيادة من معجزاته بإخباره عن قصص الأمم البائدة[4].

نكتةُ العدولِ عن الصَّريح إلى الموصول:

التَّعبيرُ بالموصول يشير إلى الوصفِ لا إلى الذّات فكان أعمَّ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصولِ ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾، دون التَّعبيرِ بالوصف (السّابقين)، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، فعدل عن التَّعبيرِ بـ (أنباء السّابقين) إلى التَّعبيرِ بقوله: ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾؛ وذلك لما في الاسم الموصول من دلالةٍ على العموم، فتشمل عمومَ أحوال تلك الأمم السّابقةِ، وإنَّ القصص

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 148 - 149.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 301.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 8/ 18.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 339.

لا يتضمَّن ذوات السّابقين وحسب، بل فيه من غير العقلاء ما لا يعبِّر عنه بلفظ (السّابقين)، فكان الاسم الموصول المبهم الدّالُّ على العموم أبلغَ في هذا السّياقِ، و﴿مَا﴾ الموصولةُ هنا تصدق على الأزمان؛ "لأنَّ الأخبار تضاف إلى أزمانها، كقولهم: أخبارُ أيام العرب، والقرون الوسطى، وهي كلُّها من حقِّها في الموصوليَّة أن تُعرَّف بـ ﴿مَا﴾ الغالبة في غير العاقلِ، ومعلوم أنَّ المقصودَ ما فيها من أحوالِ الأمم"[1].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ﴾:

تفخيمُ الأخبار بوصفِ حالها، من بلاغةِ السّياق المبينِ

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ بالواو الدّالَّةِ على الحال في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾، فالجملة في محل نصبٍ حالٌ[2]، أي: نقصُّ عليك تلك الأنباء، والحال أنّا قد آتيناك ذكرًا عظيمًا، فالحال ينصُّ على أنَّ القصص يأتي مع الذِّكر الحكيم، وهذا الحال يزيدُ في تفخيم الإخبارِ بتلك الأنباء وتعظيمِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَقَدۡ﴾ مع الفعل الماضي:

تفخيمُ شأن إنزالِ القرآن، بتأكيد الإيتاء بأداة التَّحقيق

أدخل النَّظمُ الجليل أداة التَّأكيد والتَّحقيق (قد) في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾، على الفعل الماضي؛ للدَّلالة على تأكيد ذلك الإيتاء، والمراد التَّنويهُ بفخامة شأنه، والتَّذكير بأنَّ القرآن الكريم وارد من الله تعالى، الَّذي قد قصَّ ذلك القصص العظيم، قال أبو حيّان: "والظّاهر أنَّ الذِّكر هنا القرآن، امتنَّ تعالى عليه بإيتائه الذِّكر المشتمل على القصص والأخبار، الدّال ذلك على معجزات أوتيها"[3].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (الإيتاء) دون (الإعطاء):

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإيتاء، في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 302.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 419.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 328.

إيتاءُ الحكم والنُّبوَّة نعمةٌ راسخة لا تُنتقضُ بزوال

﴿مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾، وذلك لأنَّ الإيتاء يُستعمل في ما كان كثيرًا، عظيمَ الشَّأن، كقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقد خصَّ دفْعَ الصَّدقة في القرآن بالإيتاء[1]، فآثر النَّظمُ هنا التَّعبيرَ بالإيتاء؛ لأنَّه الأنسبُ في البيان عن جلالة قدر القرآن، وعِظم الإنعام به.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة التَّعظيم:

عظمةُ القرآنِ تقتضي أنَّ مؤتيَهُ عظيم وهو الله تعالى

عبَّر النَّظمُ الجليل بصيغة التَّعظيم بإسناد الفعلِ الماضي إلى نون الجماعة، في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ تعظيمًا لشأن القرآن، وللدَّلالة على أنَّ "إيثارَ ضمير الجماعة في ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، واختصاصَ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ مُنادٍ بلسانٍ طلق: إن المُؤْتى ممّا لا يُقادَرُ قدرُه، ولا يُكْتَنَهُ كُنْهُه، كأنَّه قيل: أعظِم بمؤتًى مُوَلِّيهِ عظيمُ الشَّأن قويُّ السُّلطان!"[2].

وأنَّ هذا القرآن الذي آتيناك مشتملًا على هذه الأقاصيصِ والأخبار الحقيقة بالتفكُّر والاعتبار، لَذكرٌ عظيمٌ وقرآن كريم، فيهِ النَّجاة والسعادة لمن أقبل عليه. ومن أعرض عنه، فقد هلكَ وشقي[3].

فائدةُ القيدِ بالجارِّ والمجرور ﴿مِن لَّدُنَّا﴾:

ورودُ الذِّكر من جنابِ الله العظيم دليلٌ على عظمته وعلوِّ شأنه

قيَّد النَّظمُ الجليل إيتاءَ الذِّكر، بأنَّه كائنٌ من لدن الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾، تعظيمًا لشأن الذِّكر؛ وذلك بنسبته إلى الذّات الجليلةِ، فالتَّعبيرُ بـ (لدن) يدلُّ على التَّعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النّمل: 6]، أي: صادرًا من خزائن رحمته ﷻ[4]، فهوَ أبلغُ من

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).

(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 238، وينظر: النّسفيّ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 382.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 86.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لدن).

(عند) وأخصُّ، والتعبير بالجار والمجرور تَوْكيدٌ لِمَعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، وتَنْويهٌ بِشَأْنِ القُرْآن؛ بِأنَّه عَطيَّةٌ كانَتْ مَخْزُونَةً عِند اللّٰهِ، فخَصَّ بِها خَيْرَ عِبادِه.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ذِكۡرٗا﴾ وفائدة تنكيره، وتأخيره عن الجار والمجرور:

عَـظُـمَ الـقـرآنُ مـكـانـةً، وجـلَّ شأنًا، فكان ذِكرًا خالدًا على المدى

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الذِّكر بصيغة التَّنكير، في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾؛ لما في التَّنكير من دلالة على التَّعظيم، أي: وإنَّه لذكرٌ عظيم، كما أنَّ التَّعظيم ناسبَ أن يأتي بالضَّمير مجموعًا في: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، ومناسب للتَّعبير بالظَّرف في قوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾، وتأخيره عن الجارِّ والمجرور لما أنَّ مرجعَ الإفادةِ في الجملة كونُ المؤتى من لدنه تعالى ذِكرًا عظيمًا وقرآنًا كريمًا جامعًا لكلِّ كمالٍ، لا كون ذلك الذِّكر مؤتًى من لدنه ﷻ مع ما فيه من نوع طول بما بعده من الصِّفة، فتقديمُه يذهب برونق النظمِ الكريم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبأُ والخبرُ:

الـنَّـبـأُ أخـصُّ مـن الـخـبرِ؛ لاخـتـصـاصـه بـعـظم المخبرِ عنه

النَّبأُ خبرٌ ذو فائدة عظيمة، يحصل به علمٌ أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نَبَأٌ، ويتعرّى - ما يقال عنه نبأٌ - عن الكذب[2]، فالنَّبأ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمهُ المخبر، ويجوز أن يكون الخَبَر بما يُعلمهُ، وبما لا يُعلمهُ، ولِهَذا يُقال: (عِنْدي)، ولا تَقول: تنبئني عَن نَفسي، وكَذَلِكَ تقولُ: تُخبرني عَمّا عِنْدي، ولا تَقول: تنبئني عَمّا عِنْدي، والإنباء عَن الشَّيْء أَيْضًا قد يكون بِغَيْر حمل النَّبأ عَنهُ، تَقول: هَذا الأمر يُنبئ بِكَذا، ولا تَقول: يخبر بِكَذا؛ لِأَنَّ الإخبار لا يكون إلّا بحمل الخبر[3]، والمرادُ في الآية الخبرُ الَّذي له شأن وخطر؛ لأنَّه يخبر عن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 6/ 40.
(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.

الأمم السابقة، وقصَّة موسى وقومه، واليهودُ بين أظهرِهم يسمعون ما يتنزَّل عليك، وعندهم التوراةُ، فآثر التَّعبيرَ بلفظ النَّبأ دون الخبرِ في ذكر القصص؛ لأنَّ تلك الأخبار والقصص عظيمة الشَّأن.

السَّبق والمُضِيُّ:

السّابق متقدِّمٌ على مشترك له بالوصف، والماضي متقدِّمٌ مطلقٌ

السَّبقُ يَدُلُّ على تقدُّم الشَّيءِ من بين ما حوله في قوَّة وجِدٍّ[1]، فهو تقدُّمٌ بصفة ما على شيء آخر مشابهٍ له، ومشترك معه بصفة من الصِّفات، أمّا مضى؛ فيدلُّ على نَفاذٍ ومُرُورٍ[2]، مَضَى الشَّيءُ يَمضي مُضيًّا ومَضاء ومُضُوًّا: خَلا وذَهَبَ[3]، والمُضيُّ والمَضاءُ: النَّفاذ، ويقال ذلك في الأعيان والأحداث، قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾ [الزّخرف: 8][4].

فالسَّبق يدلُّ على التَّقدُّم والمجيء أوّلًا، ويدلُّ السّابق على الاشتراك بالصِّفة مع المسبوق، أمّا الماضي؛ فلا يقتضي الاشتراك؛ فهو يدلُّ على مطلق التَّقدُّم، قال أبو هلال العسكريُّ:"وأمّا تَسْمِيَةُ اللّه تَعالَى بِأنَّهُ سابق، يُفيد أنَّه مَوْجُود قبل كلِّ مَوْجُود، وقالَ بَعضُهم: لا يُطلق ذَلِك في اللّه تَعالَى إلّا مَعَ البَيان؛ لِأنَّهُ يُوهم أنَّ مَعَه أشْياءَ مَوْجُودَةً في سبقها، ولذَلِك لا يُقال: إنَّ اللّه تعالَى أسبقُ من غَيره، لِأنَّهُ يَقْتَضي الزّيادَة في السَّبق، وزيادَةُ أحد الموصوفين على الآخر في الصِّفة يُوجب اشتراكُهما فيها في السَّبق، وزيادَة أحد الموصوفين على الآخر في الصِّفة، يُوجب اشتراكهما فيها، من وجه أو من وُجُوه"[5]، وقد آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالسَّبق؛ لأنَّ القصص السّابقة مشتركة بصفات مع الأنباء المسبوقة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مضى).
(3) ابن منظور، اللسان: (مضي).
(4) الرّاغب، المفردات: (مضى).
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 120.

﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾ [طه: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان عظمةِ الذِّكر شرعَ في بيان موقفِ النّاس منه وجزاء المُعرضين

لمّا بيَّن النَّظم الجليل الإنعام على النَّبيِّ ﷺ بإيتائه الذِّكر، وبيَّن له أنَّه عظيم الشأن؛ أتبعه ببيان الوعيد على من أعرض عنه، ولم يؤمن به[1]، فبيَّن العاقبة السَّيِّئة لمن غفل عن تعاليم القرآنِ، وأعرضَ عن هدايته وكفر بها، إثرَ نزوله وبيانه، فاشتمل هذا الكتاب على كلِّ الخير، وكان ما ليس فيه، هو أصل الشَّقاء والضَّلال البعيد[2]، ولم يظهر شقاءُ البشرِ إلّا مرتبطًا بالبُعد عن منهجِ اللّه القويم، والنَّأي عن صراطه المستقيم، وهو ما يعكس مآلَهُم يومَ القيامة، حيثُ يكونُ الإعراضُ عن هدى اللّه أوزارًا يحملها صاحبها في موقف الحشر الأكبرِ، وبها يكون مصيرُهُ، ويتحدَّد عذابُهُ المحرجُ الأليم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡرَضَ﴾: (عرض) أصْلٌ يدلُّ على العَرضِ الَّذي يُخالِفُ الطُّولَ، ومِنَ البابِ: أَعۡرَضۡتُ عَنۡ فُلانٍ، وأَعۡرَضۡتُ عَنۡ هَذا الأمرِ، وأَعۡرَضَ بِوَجۡهِهِ[3]، وأَعۡرَضَ: أظهر عَرۡضَهُ، أي: ناحيته، فإذا قيل: عَرَضَ لي كذا، أي: بَدا عَرۡضُهُ، فأمكن تناولُهُ، وإذا قيل: أَعۡرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرۡضَهُ، قال: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ [السّجدة: 22]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ [طه: 124][4]، والمقصود بالإعراض في الآية ترۡكُ الإيمانِ بما أنزل من الذِّكر.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 97.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 340.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(4) الرّاغب، المفردات: (عرض).

2) ﴿يَحۡمِلُ﴾: (حمل) أَصْلٌ يَدُلُّ على إِقْلالِ الشَّيْءِ[1]، وحَمَلْت الشَّيءَ على ظَهْري أحْمِلُه حَملًا[2]، قال الأصمعيُّ: الحميلُ ما حمله السَّيل من كلِّ شيء، وكلُّ محمولٍ فهو حميل، كما يقال للمقتول: قتيلٌ، ومنه قولُ عمر في الحميل: لا يورثُ إلّا ببيِّنة[3]، وقيل في الأثقال المحمولة في الظّاهر، كالشَّيء المحمولِ على الظّهر: حِملٌ، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَملٌ، كالولد في البطن، والماءِ في السَّحاب، والثَّمرة في الشَّجرة تشبيهًا بحَمل المرأة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ﴾ [فاطر: 18]، يقال: حَمَلْتُ الثِّقَل والرِّسالة والوِزرَ حَملًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13][4].

3) ﴿وِزۡرًا﴾: (وزر) أَصْلٌ يدلُّ على الثِّقَلِ في الشَّيْءِ، والوِزْرُ: حِملُ الرَّجُلِ؛ إذا بَسَطَ ثَوْبَهُ، فجَعَلَ فيه المَتاعَ، وحَمَلَهُ، ولذلك سُمّي الذَّنبُ وِزرًا[5]، والوِزرُ: الحِملُ الثَّقيلُ، والوِزرُ: الذَّنْبُ لِثِقَله، وجَمعُهُما أَوْزارٌ، وأَوْزارُ الحَرْبِ وغَيْرُها: الأَثْقالُ والآلاتُ، واحِدُها وِزرٌ[6]، والوِزْرُ: الثِّقلُ تشبيهًا بِوَزْرِ الجبلِ، ويُعبَّر بذلك عن الإثم كما يُعبَّر عنه بالثِّقل، قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ﴾ [النحل: 25]، كقوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13][7]، والمراد به في الآية الكريمة العقوبةُ الثَّقيلة المتسبِّبة عنِ الذُّنوب[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّ من كذَّبَ بالذِّكر الَّذي أنزله الله تعالى على النَّبيِّ ﷺ، وأعرض عن اتِّباعه، وابتغى الهدى من غيره، فإنَّه سيحمل يوم القيامة من الأوزار والآثام ما لا يقدرُ على حملِه، بل يُنقضُ ظَهرَهُ، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود: 17]، وكلُّ من بَلَغَه القرآن من العرب والعجم؛ فهو نذيرٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(2) ابن منظور، اللّسان: (حمل).
(3) القاسم بن سلّام، غريب الحديث: (حمل).
(4) الرّاغب، المفردات: (حمل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزر).
(6) ابن منظور، اللّسان: (وزر).
(7) الرّاغب، المفردات: (وزر).
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41.

له، فمن اتَّبعه؛ اهتدى، ومن أعرض عنه؛ ضلَّ وشقي في الدُّنيا، والنّار موعده يوم القيامة[1].

الضَّلال عن القرآن في الدُّنيا هوان، وسوء المصير يوم القيامة خسرانٌ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ ﴿مَّنْ﴾ في سياق الآية:

حِملُ الوزرِ متعلّقٌ بالمُعرِض تَعلُّقَ السَّببِ بالنَّتيجة

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم ﴿مَّنْ﴾ الَّذي يحتمل أن يكون اسمَ شرطٍ أو اسم موصول متضمِّنًا معنى الشَّرط، وأيًّا ما كانت؛ فالجملةُ صفةٌ لـ﴿ذِكۡرًا﴾[2]، في قوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾؛ للدَّلالة على عموم النّاس الَّذين يُعرِضون عن القرآن الكريم[3]، ودلَّ على ما فيه من معنى الشَّرطيَّة تعلُّقَ الجملة الثّانية بالأولى تعلُّقًا مؤكَّدًا ناجزًا، فجعل تحقُّقَ الوزرِ يوم القيامة بسبب الإعراض عن القرآن في الدُّنيا، كتعلُّقِ العقد بين شيئين؛ إذا وقع أحدهما كان الثّاني مستحقًّا على وجه التَّأكيد.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَعۡرَضَ﴾:

الإعراضُ عن الله خسارٌ، والإعراض عن هدايته بوارٌ

عبَّر النظمُ الكريم بالفعل الماضي ﴿أَعۡرَضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الحكم المعلَّق - وهو حِمل الوزر يوم القيامة - إنَّما يكون على من تحقَّق بالإعراض، ووقع من الإعراض على وجه التَّمام حتّى تلقّاه الأجل، وقوله: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ﴾، يعني: أنَّه من أعرض عن ذلك الذِّكرِ العظيم الشَّأنِ، وقد اصطفاه اللّه للبشر، وخصَّهم به دون من خلق، وهو مستتبِعٌ لسعادة الدّارين، وقيل أيضًا: إنَّ الإعراض مرادٌ به الإعراضُ عن اللّه ﷻ[4]، وأيًّا كان المعنى في الوجهين، فإنَّ الإعراض فعلٌ مشين يؤدّي إلى سوء العاقبةِ في الآخرة.

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 16/ 149.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 340.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41.

نكتةُ تصديرِ جملة الجواب بحرف التَّوكيدِ:

حملُ الوزرِ يوم القيامة ينوءُ به الكاهلُ، ويشقى به صاحبهُ

صدَّر النَّظمُ الجليل الجملةَ الاسميَّة بحرف التَّأكيد، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾؛ تأكيدًا لمضمون الجملة، وتحقيقًا للخبر، والمعنى: يَحْمِلُ يَوْمَ القيامَةِ وِزْرًا، أي: عقوبة ثقيلة على إعراضه وسائر ذنوبه[1]، وقد جاء التَّأكيدُ بغرض تعظيم شأنِ الإعراض وخطره، وما يؤدّي إليه من أضرارٍ، وأراد بالوِزر الإثمَ، واستعمل اللَّفظ باعتبار أنَّ عقابه سيكون ثقيلًا[2]، وسوف تنوء به النَّفسُ يوم يُنفَّذُ فيها العقابُ، وهو ما ينسجم مع توكيده البارز في مطلع الآية.

بلاغةُ التَّمثيلِ في قوله: ﴿يَحۡمِلُ﴾:

الذُّنوب ثقيلةٌ كثقل الأحمال الَّتي تنقض الظُّهور

عبَّر النَّظمُ الجليل عن تحمُّل الكافرين سوءَ أعمالهم يوم القيامةِ بالحِمل، في قوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾، وذلك تعبيرٌ عن العقوبة الثَّقيلة الباهظة، فقد سمّاها وِزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الَّذي يُنقِضُ ظهرَ حاملِه، وقد ورد في القرآن أنَّ الكافرين يأتون يوم القيامة، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل: 25]، تعبيرًا عن ثقل الذُّنوب على أصحابها[3].

دلالةُ لفظ ﴿وِزۡرًا﴾ بين الاستعارةِ والمجازِ المرسل:

ورودُ الصّورة في السّياق بلاغةٌ واتّساقٌ

لفظُ ﴿وِزۡرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾، يُطلق في العربيَّة على معنيين: الأوَّل: بمعنى الحمل الثَّقيل، والثّاني: بمعنى الإثم، وقد اختار السّياق القرآنيُّ المحكم إطلاقَهُ على العقوبة نظرًا إلى المعنى الأوَّل، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، حيث شُبِّهَتِ العقوبةَ بالحمل الثَّقيل، ثمَّ استُعير لها بقرينة ذكرِ يوم

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 8/ 865.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4783.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 9/ 149.

القيامة، أو هي من المجاز المرسل، من حيثُ إنَّ العقوبة جزاءُ الإثم، فهي لازمةٌ له أو مسبِّبة له، قال الآلوسيُّ: والأوَّل هو الأنسب، ويدعمه قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾، ويؤيِّده قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ [العنكبوت: 13][1].

سرُّ تقديم الظَّرف على المفعول به:

تعجيلُ بيانِ سوءِ الحملِ وفداحتِه، بكونِه كائنًا يوم القيامة

قدَّمَ النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة على المفعول به، في قوله تعالى: ﴿يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾، ولم يقل: (يحمل وزرًا يوم القيامة) على أصل التَّركيب، وذلك للتَّنويه بفداحة ذلك الحملِ؛ لأنَّه كائنٌ في يوم القيامة، وهو يوم تُبلى السَّرائر، وتُكشفُ الخبايا وتُعرَفُ المصائرُ، ولا توجد حماية ولا وقاية، ولا شفاعة ولا وساطة، فيكون الخطْبُ عظيمًا، والحزن مقيمًا، والحساب عسيرًا.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (الوِزْر) دون سواه:

الأوزار آثامٌ في الحشر عظيمةٌ، وهي في الميزان كالأحمالِ الثَّقيلة

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الوزر بصيغة التَّنكير، في قوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّها بالغة الثِّقل، وجعل محمولًا تَمثيل لِمُلاقاةِ المشقَّةِ مِن جَرّاءِ الإثمِ، فالوزرُ "هو العقوبة الثَّقيلة، سمّاها: وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقَب، وصعوبةِ احتمالها الَّذي يثقل على الحامل، ويُنقضُ ظهرَهُ"[2]، والأصل أنَّ الوزر هو الحمل، والمرادُ به العقابُ المتسَبَّبُ عن الذَّنبِ، فأُقيم السَّببُ مقامَ المُسَبَّبِ[3].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الوِزرُ والذَّنب:

الوِزرُ هو الحِملُ الثَّقيلُ، ويعبَّر بذلك عن الإثم، كما يُعبَّر عنه

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 8/ 568.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 97.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 102.

الـــوِزرُ هـو ما كـان ثقيلًا من الذُّنوب، والذَّنب عاقبةُ كلِّ عملٍ سيِّئ

بالثقل، وسمّي الذَّنب وزرًا لِثِقَلِه[1]، أمّا الذَّنب؛ فهو كلُّ فعلٍ يُستوخمُ عقباه اعتبارًا بذنب الشَّيء، ولهذا يُسمّى الذَّنْبُ تبعةً، اعتبارًا لما يحصل من عاقبته[2]، فالذَّنب يُنظر فيه باعتبار العاقبةِ، والوِزر يُنظر فيه باعتبار الثِّقل، فيشير الوِزرُ إلى ثقل الذَّنب، فالذَّنب أعمُّ مِنَ الوزر، والوزر خاصٌّ بما كان ثقيلًا من الذُّنوب الَّتي تسبِّب العقاب؛ لأنَّه "يُفيد أنَّه يثقل صاحبه"[3]، فعبَّر في الآية الكريمة بالوِزرِ؛ لأنَّه ذكر الحِمل، والحِملُ لا بدَّ أن يكون ثقيلًا، فناسبَ ذلك التَّعبيرُ به دون الذُّنوب والآثام.

(1) ابن منظور، اللّسان: (وزر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذنب).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 234.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾ [طه: 101]

بعد تقرير العذاب على مَنْ أعرضَ عن الذِّكر، وصفَ حالتهم فيه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بيَّن النَّظمُ الجليل أنَّ مَن يُعرض عنِ الذِّكر الحكيم يحمل الوِزرَ يوم القيامة، وما يتسبَّب عنه من العذاب؛ بيَّن النَّظم هنا حالتَهم في حملِهم ذلك الوزرَ، فقال جلَّ شأنه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾، مقيمين في عقوبة الوِزر لا يجدون عنها محيصًا، ولا يستطيعون منها انفكاكًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَآءَ﴾: (سوء/سوأ) أصلٌ يدلُّ على القُبح[2]، ساءَهُ يَسُوءُ سَوءًا وسُوءًا: فعَلَ بِهِ ما يَكْرَهُ، نَقيضُ سَرَّه، والاِسمُ: السُّوءُ بالضَّمِّ[3]، والسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسان من الأمور الأخروية والدنيويَّة كفقد مالٍ أو حميمٍ، وساءه كذا، وأسأت إلى فلانٍ، أي: أدخلت عليه السّوءَ، وساء يكون لازمًا؛ إذا كان للذَّمِّ بمعنى بِئْس، كقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾ [الأعراف: 177]، ومتعدّيًا؛ إذا لم يكن كذلك[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة الدَّلالةُ على الذَّمِّ بمعنى بئس، أي: بئس ما حملوا، وبئس الوِزرُ لهم حِملًا يوم القيامة[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِن توعّدَ بالخلود في العذاب جديرٌ بالبؤس والذَّمِّ

يُخبر النَّظمُ الكريم أنَّ مَن أعرض عن الذِّكر، وهو القرآن الكريم، فإنَّه يحملُ بسبب هذا الإعراضِ والتَّرك آثامًا كثيرة يوم

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 149.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(3) ابن منظور، اللّسان: (سوأ).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سوأ).
(5) الواحديّ، البسيط: 14/ 515 - 516.

القيامةِ على ظهره، تؤدّي إلى عقوبةٍ مهينة من الله تعالى، وحالتُهم أنَّهم خالدون في ذلك العذاب المترتِّب على هذا الوِزر، وما أسوأ ذلك الحملَ الَّذي حملوه! والوزرَ الَّذي ارتكبوه بحقِّ أنفسهم؛ بسبب إعراضِهم عن هداية القرآن الكريم![1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل صدر الجملة عمّا قبلها:

الـوِزرُ المحمول عـلى الـكـواهل يـوم القيامة موصوفٌ بالسّوء والخلود

فصلَ النَّظمُ الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ لبيان صفة اليوم المذكور في ختام الآية السّابقة، حيث قال جلَّ شأنه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾، فوصفه بوصفين: أحدهما: أنَّه يكون مخلَّدًا مؤبَّدًا، والثّاني: وصفه بالسّوء[2]، ووجودُ أحد الوصفين مع الآخر يهوِّل أمرَ الوعيد، ذلك أنَّ السّوء؛ إذا خلد، ولم يكن أمل قطُّ في انتهائه وزواله؛ امتدَّ العذاب إلى ما لا نهاية، وأنَّ الخلود مع الحال السَّيِّئ يملأ النَّفسَ بالحسرة والنَّكد، وبذلك فهما حالان، أحلاهما مرٌّ.

فائدةُ التَّقييد بالجارِّ والمجرور ﴿فِيهِۖ﴾:

تقييدُ الخلودِ بـالـوجـود في العذاب أصرحُ في بيان شدَّة العقاب

قيَّد النَّظمُ الجليل الخلودَ المذكور في صدر الجملة بأنَّه كائنٌ في العذاب، في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾، فهم خالدون في العذابِ الَّذي ترتَّب على الوِزر[3]، فتقييدُ الخلود بأنَّه كائن بالعذاب يدفع توهُّم أنَّهم خالدون مطلقَ الخلود، فهو خلودٌ في التَّعذيب.

دلالةُ الواو في ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ﴾:

سـوءُ الـحـالِ والـخـلـود بـالـعـذاب من أحوال أهل النّار

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 150.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 97.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 150.

﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ بالواو العاطفة، للدَّلالة على المشاركة بينهما بالحال، فكلتا الجملتين تعبِّر عن حال من أحوال ذلك اليوم بالنِّسبة للمُعرِضين عن كتاب الله تعالى، فهم يحملون أوزارَهُم خالدين في العذاب مسوئين به(1).

دلالةُ الفعل ﴿وَسَآءَ﴾ وإيثار التَّعبير به:

تحقُّقُ صفةِ السّوء بالعذاب المتحصِّلِ عليه يوم القيامة

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالفعل ﴿وَسَآءَ﴾ للدَّلالة على الذَّمِّ، في قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾، فالفعل ﴿وَسَآءَ﴾ يُؤتى به لإنشاء الذَّمِّ، فهو بمعنى (بئس)، أي: وما أسوأ هذا الوزرَ حملًا! والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ يدلُّ عليه التَّمييز ﴿وِزۡرًا﴾، وتقدير الكلام: وساء لهم حملًا وزرُهم(2)، وحَذْفُ المخصوص بالذمِّ والمدح شائعٌ مشهور لدلالة الكلام عليه، وقد جُعِلت صيغته بالماضي للدَّلالة على ثبوت اتِّصافه بصفة الذَّمِّ وتحقُّقها فيه.

دلالةُ اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ وأثرها في المعنى:

تبيينُ المقصودِ بسوء الحمل يؤكِّد الاستحقاق

عبَّر النَّظمُ الجليل بشبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾؛ لتبيين المقصودِ بالآية، فاللّام للتَّبيين، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: 23]، فلمّا قال: ﴿وَسَآءَ﴾؛ بيَّن أصحاب السّوء والمقصودين بالذَّمِّ، فقال: ﴿لَهُمۡ﴾(3)، وهذه اللّام تبيِّن المفعول به في المعنى؛ فإنَّ أصل الكلام: "ساءهم الحمل، فجيء باللّام لزيادة تبيين تعلُّق الذَّمِّ بحمله، فاللّام لبيان الذين تعلَّق بهم سوء الحمل"(4).

نكتةُ تقديم ﴿لَهُمۡ﴾ على الظَّرف ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

تعجيلُ بيان مستحقِّ الذَّمِّ؛ لأنَّه الأصل في استحقاقه

قدَّم النَّظمُ الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على الظَّرف

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 303.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 97.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 303.

في قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾، وذلك للاهتمام ببيان مَن تعلَّق السّوء بهم، فتبيين مَن يُساء بالعذاب والوزر أهمُّ من بيان وقته، كما أنَّ الفعل متطلِّب لبيان جهة وقوعه أكثرُ من تطلُّبه لبيان زمان الوقوع، ولا يخفى أنَّ الضَّمير في ﴿لَهُمۡ﴾ هو في الأصل مفعول به، فكان التَّقديمُ حقًّا له على الأصل، والتَّقديم هنا مناسب لأسلوب الذَّمِّ، حيث عجَّل ببيان مَن يساء ويُذمُّ، وهم المعرضون عن كتابِ اللّه.

سرُّ التَّصريحِ بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هنا:

تهويلُ اليومِ المهيب بتكراره تقريع للمكذِّبين المعرضين

كرَّر النَّظمُ الجليل لفظَ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾، وكان قد ذكره آنفًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾، وذلك للزّيادة في تهويل ذلك اليوم، وتقرير وقوعه، فلمّا كانوا منكرين ليوم القيامة؛ كان تكرارُهُ مع قُربِ العهد قارعًا لأسماعهم[1]، ومذكِّرًا لهم به، ومؤكِّدًا لوقوعه؛ لأنَّ إنكارهم له سوف يحول بينهم وبين تصوُّرِ الهول الَّذي لا يشبهه هولٌ من أهوال الدُّنيا مهما كان مروِّعًا، ولكنَّ إخبار القرآن حقٌّ لا مراء فيه، وتنبيههم رادعٌ لهم، حتّى يلتفتوا إلى عِظَمِ الهول المنتظر يوم القيامة الأكبر، لمن أراد أن يذَّكَّر.

بديعُ جناس الاشتقاقِ في ﴿حِمۡلٗا﴾ و﴿يَحۡمِلُ﴾:

تكريرُ لفظِ حِمل الوِزرِ ترهيبٌ من الإعراض عن الذِّكر

أورد النَّظم الجليل لفظين من جذرٍ واحدٍ، وهو (حمل) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾، فاللَّفظان ﴿حِمۡلٗا﴾ و﴿يَحۡمِلُ﴾ كلاهما من الجذر (حمل)، فوقع بينهم جناس اشتقاقيٌّ، والغرض منه التَّأكيدُ على الاهتمام بهذا الحمل، فتكرارُ الألفاظ المشتقَّة من جذر واحد يدلُّ على الاهتمام بمضمون دلالتها، وكونه يَحْمِلُ ذنوبه، وقد سمّاها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 341.

وِزْرًا؛ تشبيهًا في ثقلها على المعاقَبِ، وصعوبة احتمالها بالحمل الَّذي يفدح الحامل، ويُنقِضُ ظهرَهُ، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾، وجاء بعده بقوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾، أي: ساء حملًا وزرُهم[1]، واستعمال اللَّفظين من اشتقاق واحد تأكيدٌ للمعنى الواردِ في لفظ الحمل، فيكون ما يحملُهُ من وِزرٍ مفضيًا إلى سوء الحمل، المُبين عن سوء العاقبةِ.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 38.

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣﴾ [طه: 102 - 103]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ربطُ بيانِ الجزاءِ بحمل الوزرِ ببيان حال المجرمين بعد الحشرِ

لمّا ذكرَ النَّظمُ الجليل يومَ القيامة، وجزاءَ المعرضين عن الذِّكر القويمِ؛ شرعَ في هذه الآية بشرح بعض أحوال ذلك اليوم من ابتدائِهِ[1]، فبيَّن حالَ المجرمين في حشرِهم للحساب في ذلك اليوم، فقال جلَّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾[2]، فأبان عن حالهم بازرقاق العيون، وسواد الوجوه، والذُّعر المهول، وخفوت الأصوات، والعجب من قصر الدُّنيا وضحالة الحياة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصُّورِۚ﴾: (صور) كلماتٌ كثيرة متباينة الأصول، وليس هذا الباب بباب قياسٍ ولا اشتقاق، ومنه: الصُّورَةُ: ما ينتقشُ به الأعيانُ، ويتميَّز بها غيرها، وذلك ضربان: أحدهما محسوس، يدركه الخاصَّة والعامَّة بالمعاينة، كَصُورَةِ الإنسانِ والفرس، والثّاني: معقول يدركه الخاصَّة دون العامَّة، كالصُّورَةِ الَّتي اختصَّ الإنسان بها من العقل والرَّويَّة، والمعاني الَّتي خُصَّ بها شيء بشيء، أمّا الصّورُ؛ فهو قَرنٌ عظيم يُجعل في داخله سدادٌ لبعض فضائه، فإذا نفخَ فيه النّافخُ بقوَّةٍ خرج منه صَوت قويٌّ، وقد اتُّخذَ للإعلام بالاجتماع للحرب، والمقصودُ به هنا: قرن ينفخ فيه، فيجعل اللّه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 341.
(2) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 9/ 150.

سبحانه ذلك سببًا لعود الصُّوَرِ والأرواح إلى أجسامها[1]، وهو "قرنٌ يُنفخ فيه يُدعى به النّاس إلى المحشر"[2].

2) ﴿وَنَحْشُرُ﴾: (حشر) السَّوق والبعثُ والانبعاثُ، والحَشرُ: الجمعُ مَعَ سَوقٍ، وكُلُّ جَمعٍ حَشرٌ[3]، حَشَرَهُم يَحشُرُهم ويَحشِرُهم حَشْرًا: جَمَعَهُم، ومِنْهُ يَوْمُ المَحشَرِ، والحَشْرُ: جَمعُ النّاسِ يَومَ القيامَةِ، والمَحشَرُ: المَجمَعُ الَّذي يُحشَرُ إليه القوْمُ، وكَذلِكَ إذا حُشِرُوا إلى بَلَدٍ أو مُعَسْكَرٍ أو نَحْوِهِ[4]، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: 47]، أي: جمعناهم، والحشر: الجمع، وقيل: الحشر: إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عند الحرب وغيرها[5]، والمعنى في الآية: جمعناهم إلى الموقف[6].

3) ﴿زُرْقًا﴾: الزُّرْقةُ في العَينِ، تَقُولُ: زَرِقَتْ عَيْنُهُ، بِالكَسرِ، تَزرَقُ زَرَقًا، والزُّرقة: خُضرَةٌ في سَوادِ العَينِ، وقيلَ: هُوَ أن يتغشَّى سوادَها بياضٌ[7]، الزُّرْقَةُ: بعضُ الألوان بين البياض والسّواد، وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: 102]، أي: عُميًا، عيونُهم لا نور لها[8]، وقيل: عطاشًا، وإنّما قيل للعمى: زَرَقٌ؛ لأنَّ السّوادَ يزرقُّ؛ إذا ذهبت نواظرهم، وقولهم: عطاشًا، فجيِّد أيضًا؛ لأنَّهم من شدَّة العطش، يتغيَّر سوادُ أعينهم، حتّى يزرقَّ[9].

4) ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: (خفت) الخَفتُ: إسرارُ النُّطقِ، وهوَ إسرارٌ وكتمانٌ[10]، والخَفتُ والخُفاتُ: الضَّعفُ مِنَ الجُوعِ ونَحوِه، والخُفوتُ: ضَعفُ الصَّوتِ من شِدَّة الجُوعِ؛ يُقالُ: صَوتٌ خَفيضٌ خَفيتٌ، وخَفَتَ الصّوتُ خُفُوتًا: سَكَنَ، ولِهَذا قيلَ لِلْمَيِّتِ: خَفَتَ؛ إذا انْقَطَعَ كلامُه، وسَكَتَ، فهُوَ خافِتٌ، والإبل تُخافِتُ المَضغَ؛ إذا اجترَّت، والمُخافَتةُ: إخْفاءُ الصَّوْتِ، وخافَتَ بِصَوْتِهِ: خَفَّضَه[11]، والمراد به في الآية الكريمة، أنّهم يتكلَّمون خافضي أصواتهم من الهيبة والجزع[12].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (صور).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 98.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حشر).
(4) ابن منظور، اللّسان: (حشر).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حشر).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 726.
(7) ابن منظور، اللّسان: (زرق).
(8) الرّاغب، المفردات: (زرق).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زرق).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفت).
(11) ابن منظور، اللسان: (خفت).
(12) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 342.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخْبِرُ النَّظمُ الكريم أنَّ اللّه تعالى بعظمته وجلاله سيحشرُ المجرمين، يوم يَنفخُ إسرافيلُ في الصّور النَّفخةَ الثّانية، ويجمعهم للحساب حالةَ كونهِم زُرقَ العيون من شدَّة الهول، أو كونِهم عُميًا، وإنَّ هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم قائلين: ما لبثتم في قبوركم إلّا عَشرًا مِنَ اللّيالي أو الأيّام، استقصارًا لمدَّة لبثهم وسرعة انقضائها، وإظهارًا للنَّدم على ما كانوا مصرّين عليه من نفي البعثِ والحساب، فتبيَّن لهم أنَّهما حقٌّ، وأنَّ الأمر على الضِّدِّ ممّا كانوا يتوهَّمونه[1].

حشْرُ المجرمين بـأسـوأِ حـال، ونـدمـهـم على انصرام حياتهم واستقصارها

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل صدر الجملة عمّا قبلَها:

فصل النَّظم الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾؛ لأنَّها وقعت اعتراضًا بين الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ وما تبعها، وبين الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾، وأفاد هذا الاعتراضُ الاستطرادَ، في ذكر البعث والتَّذكير به، والنِّذارة بما يحصل للمجرمين فيه[2].

الاسـتـطـرادُ في تـقريـع أسـمـاء المكذِّبين بأحوال اليوم العظيم

توجيهُ القراءات في: ﴿يُنفَخُ﴾ و﴿نَنفُخُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، قرأ الجمهور ﴿يُنفَخُ﴾ بياء الغيبةِ، مبنيًّا للمفعول، وقرأ أبو عمرو: ﴿نَنفُخُ﴾ بالنّون مبنيًّا للفاعل[3]، ووجه قراءة الجمهور: الدَّلالة على العظمة، بإجراء الكلام على طريقة الكبراء والقادرين، على أنَّ الفاعل ضميرٌ يعود للّه ﷻ، أو لإسرافيلَ ﵇، وإن لم يجْرِ

تـعـظـيـمُ شأن الـنَّـفـخ بكلتا القراءتين تأكيدٌ لـشـدَّةِ الـهـول وضخامته

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 303 - 304.
(3) أبو عليّ الفارسيّ، الحجّة: 3/ 543، وابن الجزري، النشر: 2/ 322.

له ذِكرٌ سابق اعتمادًا على شهرته[1]، ووجه قراءة أبي عمرو بنون العظمة، وإسناد النَّفخ إلى الله مجازٌ عقليٌّ، باعتبار أنَّه الآمر به، والمرادُ تعظيمُ شأن النَّفخ[2].

نكتةُ التَّصريح بـ﴿ٱلصُّورِۚ﴾:

النَّفخُ كائنٌ على وجه الحقيقة؛ ولذلك فُخِّم شأنُه

صرَّح النَّظمُ الجليل بلفظ الصّور، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، دون الاكتفاء بذكر النَّفخ وحسب، وذلك لتأكيد أنَّ المراد بالنَّفخ الحقيقةُ دون المجاز، فذِكْرُ آلةِ النَّفْخ دليل على كونه حقيقةً، كما أنَّ فيه دلالةً على تهويل شأنه، وتفخيم أمره بإظهار لفظِه، ومفادُ العبارة: اذكر لقومكَ - يا محمَّد ﷺ - يوم ينفخُ إسرافيلُ في القرن الَّذي التقمه للنَّفخ، ونخرجُ المتوغِّلين في الإجرام والآثام المنهمكين فيها من مقابرهم[3].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَنَحۡشُرُ﴾:

النَّفخُ والحشر من أحداث يوم القيامة والأوَّل مسبَّب للثّاني

عطف النظم الكريم قوله: ﴿وَنَحۡشُرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ بالواو العاطفة[4]، فجمع بين حالي النَّفخ وما يقع بعده من حشر النّاس وجمعهم، وفيه إشارة إلى أنَّ النَّفخ في الصّور هو كالسَّبب لحشرهم[5]، وذكره صريحًا مع تعيُّن أنَّ الحشرَ لا يكون إلّا يومئذٍ للتهويل.

إيثارُ لفظ ﴿وَنَحۡشُرُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

حشرُ المجرمين متزاحمين لونٌ من الإذلال لهم والاحتقار

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الحشر في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾؛ لأنَّ لفظ الحشر يدلُّ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 341 - 342.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 304.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 425.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 420.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 98.

على السَّوق مع الجمع، فهو سَوق النّاس بغاية جمعهم، وهذا يدلُّ على الاكتظاظ والتَّزاحم بين النّاس، فهم متراصّون مجموعون مساقون إلى ساحة الحساب، وذلك تعبير عن شدَّة الجمع، وسوء الحال ذلك اليوم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة التَّعظيم في الحشر:

شـــدَّةُ الـفـعـل وعـظـمـتُـهُ من عظمة الآمرِ به

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الحشر بصيغة التَّعظيم، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، فلم يقل: (وأحْشُرُ المُجْرمينَ)؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ ذلك الحشر واقعٌ بعظمته تعالى، إشارة إلى عظمة ذلك الحشر، وأنَّه لا يقع إلّا من إلهٍ عظيمٍ.

سرُّ وضع الظّاهر ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ موضعَ الضَّمير:

نهايةُ الإعراض عـن الـقـرآن التَّحقُّقُ بصفة الإجرام

صرَّح النَّظم الجليلُ بالاسم الظّاهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، فلم يقل: (وَنَحْشُرُهُم)؛ وذلك لبيان الوصف الَّذي بسببه نالوا ما نالوا، والنَّتيجة الَّتي بلغوها بسبب اتِّصافهم بهذه الصفة التي نالوها بإعراضهم[1]، فدلَّ وضعُ الاسم الظّاهر هنا موضعَ الضمير على أنَّ مآلَ الإعراض عن الذِّكر سيكون الدُّخولَ ضمن زمرة المجرمين.

دلالةُ ظرف الزَّمانِ: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

تـهـويـلُ الـيـوم بـتـصـريـح ذكـره؛ إعلانًا لـلـسّـامـعـين وتبليغًا لهم

صرَّح النَّظمُ الجليل بظرف الزَّمانِ دون الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، فلم يقل: (يَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ ونَحْشُرُ المُجْرمينَ زُرْقًا)، مع أنَّ الحشر واضحٌ، وأنَّه لا يكون إلّا في ذلك اليوم؛ وذلك للتَّهويل من شأن ذلك اليوم[2]، "أي: إذا نُفِخَ في الصّور، وخرج النّاسُ من قبورهم، كلٌّ على حسب حالِه،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 342.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41.

فالمتَّقون يُحشرون إلى الرَّحمن وفدًا، والمجرمون يُحشرون زرقًا ألوانُهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدَّة الدُّنيا، وسرعة الآخرة"[1].

بلاغةُ الإيجازِ في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

دليلُ المقالِ يغني عن التَّكرار

أوجزَ النَّظْمُ الجليل في البيان بحذف المضاف إليه من الظَّرف (إذ)، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، وإنَّما ساغ الحذفُ لدلالة المذكورِ في صدر الآية عليه، والتَّقديرُ: (يوم إذْ يُنفخُ في الصّور)[2]، وقد عوَّض عن ذلكم بالتَّنوين.

نكتةُ إيثارِ لفظ ﴿زُرۡقٗا﴾ على غيره:

بيانُ أنَّ بشاعةَ المنظرِ دليلٌ على قبحِ المَخْبَرِ

آثر النَّظمُ البليغ التَّعبيرَ باللّون الأزرق، في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، دون غيره في التَّعبير عن زرقةِ العيون والجلود، تبشيعًا لحالهم وتنفيرًا منهم، وكان العرب لا يألفون الزُّرقةَ في العيون، كما أنَّ الزُّرقة في الجلود مبغوضةٌ، لما أنَّها تدلُّ على تلف الجلد عند تعرُّضِه للضَّرب، فكانوا ينفرون من هذا اللَّون أكثر من غيره[3].

علَّةُ فصلِ صدرِ الجملة ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ عمّا قبلها:

وصفُ حالِ الكافرين بحكايةِ ما يقولون مفيدٌ في البيان عن المراد

فصَل النَّظم الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾ عن الجملةِ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فهي سيقت لبيان صفة أخرى من صفات الكفّار يوم القيامة، فهي تحكي ما يقوله بعضهم لبعض في ذلك اليوم على سبيل الهمس، وخفض الصَّوت[4]، فهم "يخفِضون أصواتَهم، ويُخفونها، لما يملأ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 342.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 98، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 150.

صدورَهم من الرُّعب والهول"[1]، أو هي حالٌ أخرى من المجرمين، أي: يقول بعضُهم لبعض بطريق المخافتة؛ لما يملأ صدورهم من هول ذلك اليوم.

نكتةُ إيثارِ لفظ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ عمّا سواها:

بيانُ أنَّهم خارت قواهم عن رفعِ الصَّوت في الحديث

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ التَّخافت بصيغة الفعل المضارع، في قوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾، وذلك لما في التَّخافُتِ من دلالة على سفالة الهِمَّةِ والضَّعف والجبن، فكشف التَّخافت عن امتلاء صدورهم من الرُّعب والهول، وأنَّهم قد صاروا بسبب ما اعتراهم من الخوف في نهاية الضَّعف، فلا يطيقون الجهر[2]، فدلَّ وصفهم بالتَّخافت على ذمِّهم وشدَّة ما يلاقون من أهوال في ذلك اليوم، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع دلالةً على تجدُّد ذلك التَّخافت ودوامه، ولم يجدوا ما من شأنه أن ينهيَ تخافتَهم، بأن تطمئنَّ قلوبُهم، وتسكنَ نفوسهم، بل هم في خوف ووجل دائمٍ أخرسَ أصواتَهم وألجمهم رعبًا.

دلالةُ الظَّرفِ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ في السّياق:

بيانُ أنَّهم حصروا تخافتَهم لشدَّة هلعهم وخوفِهم

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف المكانيِّ (بين) في قوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾؛ لبيان أنَّ التَّخافُتَ منحصرٌ في حيِّز ضيِّق بينهم، فهم لا يعلنون تلك المقولةَ لغيرهم، تبيينًا لشدَّة هلعِهم وخوفهم، ولمّا كان التخافتُ - وهو المسارَّةُ بالكلام - قد يكون بين اثنين من قبيلتين، فيكون كلُّ منهما خائفًا من قومه، أقلَّ عارًا ممّا لو كانا من قبيلة واحدة؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ ذلك الخوف طبعٌ لازم، دلَّ ذلك على لزومه وعمومه: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾، أي: يتكلَّمون خافضي أصواتهم

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 98.

من الهيبة والجزع[1]، فهم منغلقونَ فيما بينهم أثناء ذلك التَّخافتِ، للدَّلالة على شدَّة التَّخافتِ، فهو تخافتٌ لا يتعدّاهم إلى غيرهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاستثناء:

تـأكُّـد البـعـث يُشعر الكافرين في القبور بِقِصر مدَّة اللُّبث

عبَّر النَّظمُ الجليل بأسلوب الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾؛ لبيان استقصارِهم مدَّةَ اللُّبث وسرعة انقضائها، وإظهارِ النَّدمِ على ما كانوا يزعمونه من أنَّه لا بعث ولا حساب، فتبيَّن لهم أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّ الحساب حقٌّ، وأنَّ الأمرَ ليس كما ظنّوا، وتوهَّموا[2]، فجملة الاستثناء بيَّنت ما كانوا يتخافتون به، مؤكِّدة على أنَّ مدَّة اللُّبثِ لم تكن طويلة تعبيرًا عن شدَّة المفاجأة لهم بالبعث.

إيثارُ ﴿إِن﴾ على (ما):

تأكُّدُ قصرِ المدَّةِ معبِّرٌ عن شدَّة المفاجأة

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بحرف النَّفي (إنْ) على (ما)، في قوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، وذلك لما في النَّفي بـ(إنْ) من دلالة على النَّفي المؤكَّد، وقد كثر مجيئُهُ مع إلّا في الاستثناء والحصر، وذلك للدَّلالة على تأكيد مضمون القصر، كما أنَّ التَّوافق الصَّوتي بين ﴿إِن﴾ و﴿إِلَّا﴾ يخلع على القصر مزيدًا من قوَّة الدَّلالة.

نكتةُ إيثارِ فعل اللُّبث ماضيًا على المكث:

اللُّبثُ أقصرُ من المكث، وأنسبُ لمفاجأة البعثِ لهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ اللُّبث دون المكث في قوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرًا﴾، وذلك للدَّلالة على استقصار مدَّةِ إقامتهم إزاءَ ما يرون من الشَّدائد والمخاوف[3]، وهم إنَّما "يستقصرون مدَّةَ لُبثِهم في الدُّنيا، إمّا لما يعاينون مِنَ الشَّدائد الَّتي تذكِّرهم أيّام النِّعمةِ والسُّرور، فيتأسَّفون عليها، ويصفونها بالقصر؛ لأنَّ أيّام السُّرور قصارٌ، وإمّا لأنَّها ذهبت عنهم، وتقضَّت،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 342.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 150.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 343.

والذّاهب - وإن طالت مدَّتُه - قصيرٌ بالانتهاء"[1]، وفي الكشّاف: "وإمّا لاستطالتهم الآخرةَ، وأنّها أبدٌ سرمد يُستَقْصَرُ إليها عُمرُ الدُّنيا، ويقال: لبث أهلُها فيها بالقياس إلى لُبثِهم في الآخرة... وقيل: المرادُ لُبْثِهم في القبور، ويعضدهُ قوله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ [الرّوم:55 - 56]"[2].

بلاغةُ الإيجازِ في ذكرِ العددِ ﴿عَشۡرٗا﴾:

بيانُ أنَّ حذفَ المعدودِ منبِئٌ بقصرِ المدَّةِ الشَّديدِ

أوجزَ النَّظمُ الجليلُ بحذف المعدود، في قوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾، أي: عشر ليالٍ، وإنَّما عبَّروا بذلك لاستقصار مدَّة لُبثهم، كأنَّهم قالوا: قد بُعثتم، وما لبثتم في القبر إلّا مدَّةً يسيرة[3]، وإنّما عبَّروا بالعدد عشرة؛ لأنَّهم لمّا رأوا الأهوالَ؛ ذُهلوا عن مقدار عمرهم في الدُّنيا، ولم يذكروا إلّا القليلَ، فقالوا: ما عشنا إلّا تلك الأيّامَ القلائل، والإنسانُ حين الشَّدائد والأهوال تغيب عنه أظهرُ الأشياءِ[4].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الحشرُ والجمعُ:

الحشرُ أخصُّ من الجمع، فهو جمع مع سَوْق

الحَشْرُ الجمعُ مَعَ سَوقٍ[5]، وهو جمعُ النّاسِ يومَ القيامَةِ، والمَحْشَرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليه القومُ[6]، والمعنى في الآية: جمعناهُم إلى الموقف[7]، والجمع يدلُّ على تَضامِّ الشَّيْءِ[8]؛ وذلك بتقريب بعضه

(1) القاسميّ، محاسن التأويل: 7/ 147، والزّمخشريّ، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 3/ 87.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 87.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 41 - 42.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 149.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حشر).
(6) ابن منظور، اللّسان: (حشر).
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 726.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع).

من بعض، يقال: جَمَعتُهُ فاجتَمَعَ، وقال ﷻ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ٩﴾ [القيامة: 9][1]، فالحشر أخصُّ من الجمع، لما فيه من دلالة على السَّوق، فآثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالحشر؛ للدَّلالة على سوق النّاس بغاية جمعهم.

التَّخافتُ والتَّهامسُ:

الخفتُ خفضٌ وإســرارٌ، أمّـا الهمسُ فصوتٌ خفيٌّ

التَّخافتُ إسرارٌ وكِتْمانٌ، فالخَفتُ: إسْرارُ النُّطْقِ[2]، والخُفوتُ ضَعْفُ الصَّوْتِ مِنْ شِدَّة الجُوعِ، يُقالُ: صَوْتٌ خَفيضٌ خَفيتٌ، وخَفَتَ الصَّوتُ خُفُوتًا: سَكَنَ، والمُخافَتَةُ: إخْفاءُ الصَّوْتِ، وخافَتَ بِصَوْتِهِ: خَفَّضَه[3]، والهمس يدلُّ على خَفاءِ صَوْتٍ وحِسٍّ[4]، الهَمس: الخَفيُّ مِنَ الصَّوْتِ، وقَدْ هَمَسُوا الكَلامَ هَمسًا، قال تعالى: ﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسًا﴾، أي: خَفْقَ الأقدام على الأرض، ويُقالُ: اهمِسْ، وصَهْ، أي: امشِ خَفيًّا واسْكُتْ، والهَمس: الكَلامُ الخَفيُّ لا يَكادُ يُفهَمُ[5]، فالهمس: هو الصّوت الخفيُّ، والكلام الملفوظ بتخافتٍ، فالهمسُ صوتٌ، والخفتُ خفضٌ، وقد آثر التَّعبيرَ بالتَّخافت للدَّلالة على أنَّهم يتكلَّمون خافضي أصواتهم[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (جمع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خفت).
(3) ابن منظور، اللّسان: (خفت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (همس).
(5) ابن منظور، اللّسان: (همس).
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 342.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ [طه: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تخافتِهم وإسرارِهم القولَ الإخبارُ عن علم الله تعالى بسرائرِهم وتخافتهم

لمّا حكى النَّظمُ الجليلُ أنَّ المجرمين يتخافتون بينهم، متسائلين عن مدَّة لبثهم في الدُّنيا أو في القبور؛ أتبعه ببيان أنَّ الله تعالى عالمٌ بما يقولون، ويتجادلون به، وإن أسرّوا، وتخافتوا بذلك القول، فأتبع تساؤلهم حال تخافتهم بتأكيد علمه بالحقيقةِ على جهة الحصرِ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمۡثَلُهُمۡ﴾: (مثل) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وهَذا مِثْلُ هَذا، أيْ: نَظيرُهُ، وفُلانٌ أمثَلُ بَني فُلانٍ: أدْناهُم لِلْخَيْر، أيْ: إنَّهُ مُماثِلٌ لِأَهْلِ الصَّلاحِ والخَيْر، وهَؤُلاءِ أماثِلُ القَوْم، أيْ: خيارُهُم(2)، والأمثلُ يعبَّرُ به عن الأشبه بالأفاضل، والأقربِ إلى الخير، وأماثِلُ القوم: كنايةٌ عن خيارهم، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾، وقال: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ [طه: 63] أي: الأشبه بالفضيلة، وهي تأنيث الأمثل(3)، والأَمثَلُ: الأَفْضَلُ الَّذي يَسْتَحِقُّ أن يُقالَ: هُوَ أمثل قَوْمِه، وهُوَ مِنْ أماثِلِهم وذَوي مَثالَتِهم، يُقالُ: فُلانٌ أَمثَلُ مِنْ فُلانٍ، أي: أفضل مِنْهُ(4)، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾، مَعْناهُ، أي: أعدلُهم رأيًا وعملًا(5).

2) ﴿طَرِيقَةً﴾: (طرق) الطَّريقُ: السَّبيل الَّذي يُطرَقُ بالأرجُلِ،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 150.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(3) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(4) ابن منظور، اللّسان: (مثل).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.

أي: يُضرَب، وعنه استعير كلُّ مسلك يسلكه الإنسان في فِعلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا، قال تعالى: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ [طه: 63][1]، والطَّريقة: السّيرةُ، وطَريقَةُ الرَّجُلِ: مَذْهبُهُ، يُقالُ: ما زالَ فُلانٌ على طَريقةٍ واحِدَةٍ، أي: على حالَةٍ واحِدَةٍ، وفُلانٌ حَسَنُ الطَّريقة، يُقالُ: هُوَ على طَريقة حسَنة وطَريقة سَيِّئة، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: 16]، أراد لَوِ اسْتَقامُوا على طَريقة الهُدى[2]، والمراد به في الآية الكريمة الرَّأْيُ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

حصرُ العلمِ بمدَّة لُبثهم بالله تعالى، وكونها مدَّةً قصيرة جدًّا

لما كان عِلمُ ما يأتي أخفى من علم ما سبقَ؛ أتى النَّظمُ الكريم فيه بمظهر العظمةِ، فقال: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ من كلِّ أحد ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: في ذلك اليوم ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ في الدُّنيا فيما يحسبون[4]: ما لبثتم إلّا يومًا واحدًا؛ وذلك لأنَّ الدُّنيا - وإن تكرَّرت أوقاتها، وتعاقبت لياليها وأيامها - قصيرةُ المدى، بالنَّظر إلى يوم القيامة[5]، أي: "نحن وحدنا أعلم بما يقولون فيما بينهم، لا يخفى علينا شيء ممّا يتخافتون به، من شأن مدَّةِ لبثهم في قبورِهم أو في الدُّنيا"[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل صدرِ الجملةِ عمّا قبلَها:

كتمُ الحديثِ ومخافتَتُهُ لا يخرجُهُ عن علم الله تعالى

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ لأنَّها استئنافيَّة جيء بها للاعتراض، فهي جملة وقعت بين الفعل في قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾، وبين

(1) الرّاغب، المفردات: (طرق).
(2) ابن منظور، اللّسان: (طرق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 305.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 343.
(5) المراغيّ، تفسير المراغي: 16/ 150.
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 150 - 151.

الجملة في قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾، أي: إنَّهم يقولون ذلك سرًّا، ونحن أعلم به، فنخبر عنه إخبارَ العليم الصّادق[1]، وفائدةُ وقوعها بين الجملتين المتفرّعتين بيانُ أنَّ قولهم ذلك سرًّا غير غائب عن علم اللّه تعالى، وأنَّه محيط بهم، فلا يغيب عنه شيء من حالهم ومن مقالهم.

سرُّ تقديمِ المسند إليه ﴿نَّحۡنُ﴾ على المسندِ:

العلمُ بمدَّةِ لبثهم وسِرِّهم منحصرٌ على الله تعالى

قدَّم النَّظمُ الجليل المسند إليه على المسند، في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاص والحصر، فاللّه تعالى وحده هو العالم بما تساءلوا عنه، فأفاد ذلك تعظيمَ علمه تعالى، واللّه تعالى بعظمته هو العالم بمقالهم وحالهم؛ وذلك لأنَّ العلم بما يخفى من القول دليلُ عظمةِ الإحاطة والدّراية بهم[2].

دلالةُ صيغةِ أفعل في قوله: ﴿أَعۡلَمُ﴾:

عِلمُ الله تعالى مطلقٌ مؤكَّد، لا يتأتّى أن يُفاضِل مع علم سواه

عبَّر النَّظمُ الجليل عن علمه بصيغة (أفعل)، في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، وهو اسمُ تفضيل للدَّلالة على أنَّ اللّه تعالى أعلم منهم بحقيقة ما يتخافتون من أجله، فإن كان عِلمهم بمدَّة لبثهم مستندًا على الظَّنِّ والتَّخمين؛ فإنَّ علم اللّه تعالى محيطٌ بكلِّ شيء على الوجه التّامِّ، من اليقين المطلق، فعلم اللّه تعالى لا يقارن بعلم أحد آخر، فالمرادُ من اسم التَّفضيل هنا ليس المفاضلة، بل تأكيد المعنى وتقويته، بإخراجه بصيغة الفوقيَّة، الدّالَّة على علوِّ الصِّفة في الموصوف.

نوع ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ وأثرها في المعنى:

دوامُ قولهم وتجدُّده لا يخرج عن علم الله مهما تكرَّر وتجدَّد

عبَّر النَّظمُ الجليل بالمصدر المؤوَّل من الحرف المصدريِّ (ما)[3]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 306.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 343.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 422.

والفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اللّه تعالى عالمٌ بقولهم المتجدِّد المستمر، فعلم اللّه تعالى حاصل بكلِّ قول يقولونَهُ في كلِّ وقت، فكلَّما أحدثوا قولًا جديدًا؛ كان اللّه تعالى عالمًا بهِ، فكان التَّعبيرُ بـ (ما) المصدريَّة مع الفعل المضارع دالًّا على ذلك، ولو جاء التَّعبيرُ بالمصدر الصَّريح، بأن يقول: (نحنُ أَعۡلَمُ بِقَوۡلِهِم)؛ لما دلَّ على الزَّمن المتجدِّدِ.

فائدةُ ﴿إِذۡ﴾ وبيانُ متعلِّقها في ﴿إِذۡ يَقُولُ﴾:

تخافُتُ قولِهِم عند حديث أفضلهِم رأيًا

عَبَّر النَّظمُ الجليل بظرف الزَّمان ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾، وهو متعلِّقٌ بالفعل ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم يتخافتون في وقت يقول فيه أمثلهم طريقةً ذلك القولَ[1]، وهو ليس متعلِّقًا بـ ﴿أَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّ علمَ اللّه تعالى لا يحدُّه زمان.

نكتةُ إسنادِ القولِ إلى أمثلهم:

ضلالُ راجح الرَّأي في ذلك اليوم مفصحٌ عن شدَّة أهواله

أسندَ النَّظمُ الجليل فعلَ القول إلى أمثَلِهم، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾، إيماءً إلى شدَّة الهول في ذلك اليوم، وليس المُرادُ تزكيتَهُ والثَّناء عليه بما قال، ولا الإخبار بأنَّه أقربُ إلى الصِّدق[2]، فغيابُ معرفة الحقِّ عن أفضلهِم رأيًا تعبيرٌ بليغٌ عن شدَّة أهوال القيامة، حيث نسوا مقدارَ لُبْثِهم، لشدَّةِ ما دهمهم من هولٍ في ذلك اليوم[3].

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿طَرِيقَةً﴾ دون غيره:

حُسنُ الرَّأي معتادٌ لدى الأمثل، فإذا اختلطَ رأيُهُ؛ غاب عنه الصَّوابُ

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿طَرِيقَةً﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾؛ تعبيرًا عن سيرته وسلوكه، وللدَّلالة على شهرته في أفضليَّتِهِ، حيث عبَّرَ عن مكانة رأيه بأنَّها كالطَّريق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 305.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.

(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 212.

الذي يسلكه النّاس، ويطرقونه بأقدامِهم حتّى صار واضحًا بيِّنًا، فلفظ الطَّريقة في الآية تأكيدٌ لمكانته وأفضليَّته وأرجحيَّة عقله ورأيه على قومه.

بلاغةُ ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

ضلَّ قولهُم عن الحقِّ في كلِّ حال مبين عن المراد

أوردَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ في قوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، محتملًا لأن يكونَ مرادًا به الحقيقة، وأن يكون مرادًا به المجاز، فإنْ حُمِل على الحقيقة؛ يكون المعنى: إنَّه أقربهم إلى اختلاق الاعتذارِ عن خطئهم في إنكارهم البعثَ؛ وذلك أنَّهم قد ظنّوا أنَّ البعث يقع بعد مدَّةٍ طويلةٍ، بحيث تتلاشى فيها أجزاءُ الجسم، فلمّا وجدوا أجسادهم كاملةً؛ قال بعضهم: إن لبثتم إلّا عشرَ ليالٍ، ولم يكن هذا عذرًا حسنًا؛ لأنَّ هذه مدَّةٌ تتغيَّر فيها الأجسامُ، فقال أمثلُهم: إن لبثتم إلّا يومًا واحدًا، وقوله هذا أنجعُ في الاعتذار، فالمراد: أنَّه الأمثلُ من بينهم في المعاذير، وليس المراد أنَّه مصيبٌ، وإن حُمِل على المجاز، فهو تهكُّمٌ بالقائل في سوء تقديره من لبثهم في القبور، فكلا التَّقديرين خطأٌ، وهذا يؤذن بجهلهم عمومًا، ويدلُّ على جهلهم بعظيم قدرة اللّه تعالى خصوصًا، حيث أعادهم إلى الحياة بعد الأزمان الطَّويلة، فكان الَّذي قدَّر زمن المكثِ في القبور بأنَّه كان يومًا واحدًا أكثرَ خطأً من غيره، فعبَّر عنه بـ ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ تهكُّمًا به[1].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأمثل والأفضل:

الأفضلُ يزيدُ عن غيره بالصِّفة، والأمثلُ أكمل في الأفضليَّةِ

الأمثلُ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وهَذا مِثْلُ هَذا، أيْ: نَظيرُهُ، وفُلانٌ أمثَلُ بَني فُلانٍ: أدْناهُم لِلْخَيْرِ، أيْ: إنَّهُ مُماثِلٌ لِأهْلِ الصَّلاحِ والخَيْرِ، وهَؤُلاءِ أماثِلُ القَوْمِ، أيْ: خيارُهُم[2]، والأمثلُ يُعبَّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 306.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).

به عن الأشبه بالأفاضل، والأقرب إلى الخير، وأماثِلُ القومِ: كنايةٌ عن خيارهم، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وقال: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣﴾ [طه: 63]، أي: الأشبه بالفضيلة[1]، والأمثَلُ: الأَفْضَلُ الَّذي يَسْتَحِقُّ أن يُقالَ هُوَ أمثل قَوْمِهِ، وهُوَ مِنْ أماثِلِهم وذَوي مَثالَتِهم، يُقالُ: فُلانٌ أمثَلُ مِنْ فُلانٍ، أي: أفضل مِنْهُ[2]، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ مَعْناهُ، أي: أعد لهم رأيًا وعملًا[3]، أمّا الأفضل؛ فيَدُلُّ على زيادَةٍ في شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الفَضْلُ: الزِّيادَةُ والخَيْرُ[4]، فالأفضل يدلُّ على زيادة عن غيره في صفة ما، وأمّا الأمثل؛ فهو أفضلُ مع زيادة معنًى، وذلك أنَّه يدلُّ على أنَّه الأكمل في تلك الصِّفة التي وقع فيها التَّفضيل.

(1) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(2) ابن منظور، اللّسان: (مثل).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 105 - 107]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعدَ تسليمِ المُعرضين بالبعثِ شرعَ ببيانِ نهايةِ ما هو أشدُّ منهم

لمّا أخبرَ النَّظمُ الجليل عن أحوال يوم القيامةِ وأهواله، وما يلاقيه المعرضونَ عَنِ الذِّكرِ الحكيم، وبين استقصارهِم مدَّةَ لُبثهِم في الدُّنيا؛ أتبعه في هذه الآيات بالإخبار عن بعض إعراضهِم، فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾؛ شكًّا منهم في البعث لظنِّهم أنَّها تكون موجودة على كلِّ حال؛ لأنَّها أشدُّ الأشياء قوَّةً، وأطولها لبثًا[1]، فأشار إلى أنَّه سوف يزيلها عن بكرتها، ويقلعها من أماكنها قلعًا من الجذور، ثمَّ يدكُّها، فيجعلها هباء منبثًّا، فتضمحلُّ وتتلاشى، فلا يبقى لها أثرٌ، ويجعل الأرض قاعًا صفصفًا، مستويًا لا يرى فيها النّاظر عِوَجًا، ولا يلمح فيها أودية، ولا أماكن منخفضة ولا مرتفعة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنسِفُهَا﴾: (نسف) أَصْلٌ يَدُلُّ على كَشفِ شَيْءٍ، وانْتَسَفَتِ الرّيحُ الشَّيْءَ مِثْلَ التُّرابِ، كَأنَّها كَشَفَتْهُ عَنْ وجه الأرْضِ، وسَلَبَتْهُ، ونَسْفُ البِناءِ: استِئصالُهُ قَطْعًا[3]، والنَّسْفُ: نَقْرُ الطّائِرِ بِمِنْقاره، ونَسَفَ البعيرُ الكلأ؛ إذا اقْتَلَعَهُ بأصله، وانْتَسَفْتُ الشَّيْءَ: اقْتَلَعْتُهُ[4]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧﴾ [طه: 97] أي: نطرحه فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 344.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، ص: 513.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسف).
(4) ابن منظور، اللّسان: (نسف).

طَرْحَ النُّسافَة، وهي ما تثُورُ من غُبارِ الأرْض[1]، والمراد به في الآية الكريمة التَّذرية، أي: تصير الجبال كالهباء المنثور[2].

2) ﴿قَاعًا﴾: (قوع) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَبَسُّطٍ في مَكانٍ، مِنْ ذَلِكَ القاعُ: الأَرْضُ المَلْساءُ[3]، القاع: المستوي من الأرض، وهو المكانُ المستوي الواسع من وطاء الأرض، يعلوه ماءُ السَّماء، فيمسكه، فيستوي ماؤه، وجمعه: قيعة وقيعان، يقال: قاع وقيعة، قوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النّور: 39]، أي: مكانٍ مستوٍ، فهو أظهرُ للمعان السَّراب والإحاطة به، بخلاف المحدودب من الأرض[4]، والقاعُ ما انْبَسَطَ مِنَ الأرض[5]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ الأرضُ الملساء[6].

3) ﴿صَفْصَفًا﴾: (صفّ/ صفف) هُوَ اسْتِواءٌ في الشَّيْءِ وتَساوٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ في المَقَرِّ، والأَصْلُ في ذَلِكَ الصَّفْصَفُ، وهُوَ المُسْتَوي مِنَ الأَرْضِ[7]، والصَّفُّ: السَّطْرُ المُسْتَوي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ معروفٌ، وجَمعُهُ: صُفُوفٌ، وصَفَفْتُ القَوْمَ، فاصْطَفُّوا؛ إذا أقمتهم في الحَرْبِ صَفًّا، وأرض صَفْصَفٌ: مَلْساء مُسْتَوية، وقيل: الصَّفْصَفُ الَّذي لا نَباتَ فيهِ، أو القَرْعاء المُسْتَوية، وجَمعُهُ صَفاصِفُ[8]، وقوله تعالى: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: هو الخالي والمستوي من الأرض: كأنَّه على صفٍّ واحدٍ[9]، أو هو الأرضُ ملساءُ لا نبات فيها[10].

4) ﴿عِوَجًا﴾: (عوج) أَصْلٌ يَدُلُّ على مَيَلٍ في الشَّيْءِ[11]، وهُو الانْعِطافُ فيما كانَ قائمًا، فمالَ، كالرُّمحِ والحائِطِ، وكلُّ ما كانَ قائِمًا، يُقالُ فيهِ: العَوَجُ، بِالفَتْحِ، ويُقالُ: شَجَرَتُكَ فيها عَوَجٌ شَديدٌ، والاسْمُ العِوَجُ، بِكَسْرِ العَيْنِ، وعاجَ يَعُوجُ؛ إذا عَطف، والعِوَجُ في الأرض:

(1) الرّاغب، المفردات: (نسف).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 100.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوع).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قوع).
(5) ابن منظور، اللّسان: (قوع).
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 345.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صف).
(8) ابن منظور، اللّسان: (صفف).
(9) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صفف).
(10) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 212.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوج).

ألّا تَسْتَوِيَ[1]، والعَوَجُ يقال فيما يُدرَكُ بالبصر سهلًا؛ كالخشبِ المنتصب ونحوه، والعِوَجُ يقال فيما يُدرك بالفكر والبصيرةِ، قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزّمر: 28][2]، والمرادُ به في الآية الكريمة الانخفاضُ والارتفاع، أي: لا تَرى فيها واديًا ولا رابيةً[3].

5) ﴿أَمْتًا﴾: (أمت) أصْلٌ واحِدٌ لا يُقاسُ عليه، وهُوَ الأمتُ، قالَ اللّه تعالَى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[4]، أي: لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، أي: لا حدبَ فيها ولا نَبَك، والنَّبَكُ: التِّلال الصغار، والأمتُ في الأصل: المكانُ المرتفِعُ، ويقال: ملأ مزادتَهُ، فلا أَمَتَ فيها، أي: لا غرضَ فيها ولا تثنّيًا[5]، والأمتُ: المكانُ المُرْتَفِعُ، وشيءٌ مأْمُوتٌ: مَعْرُوفٌ، والأمتُ: الانخفاضُ، والارْتفاعُ، والاختلافُ في الشَّيءِ[6]، والمرادُ به في الآية الكريمة النتوءُ اليسير[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سؤالُ النّاسِ عن الجبال، وبيانُ دكِّها واضمحلالها يوم القيامة

يخبرُ النَّظمُ الكريم عن سؤال النّاسِ النَّبيَّ ﷺ عن أحوال الجبال يوم القيامة، آمرًا إيّاه بأن يقول لهم: بأنَّ اللّه تعالى سينسفها نسفًا، فيقلعها من أصولها، ثمَّ يجعلها كالرَّمل المتناثر، أو كالصّوف المنفوش الَّذي تفرِّقه الرّياح، فيتركها بعد ذلك أرضًا منكشفةً متساوية ملساء، لا نبات فيها ولا بناء، فلا ترى فيها - أيُّها النّاظرُ - بعد اقتلاع الجبال منها مكانًا منخفضًا، ولا مكانًا مرتفعًا، بل تراها كلَّها مستوية ملساء كالصَّفِّ الواحد[8].

(1) ابن منظور، اللّسان: (عوج).
(2) الرّاغب، المفردات: (عوج).
(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 312 - 213.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمت).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أمت).
(6) ابن منظور، اللّسان: (أمت).
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 88.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 151 - 152.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في صدر الآية:

زلزلةُ الأرض ونسفُ الجبال من أعظم الأهوال

افتتحَ النَّظمُ الجليل الجملةَ - في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ - بالواو الاستئنافيَّة[1]، فالجملة مستأنفة، مسوقة لتقرير تعنُّتهم وإصرارهم على الجدل والمكابرة والاستهزاء[2]، فلمّا وصف ﷻ يوم القيامة وأحواله، وما فيه من أهوال؛ بيَّن حال من لم يؤمن بالحشر، فحكى سؤالهم عن حال الجبال في يوم الحشر، متسائلين عن مآلها وشأنها[3].

سرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾:

لا ينفكُّ الكافر عن عناده وإصراره على الاستهزاء بالدّين

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع الدّالِّ على الاستمرار والتَّجدُّد، في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ سؤالهم هذا كان متكرِّرًا، وفيه إشارة إلى استمرارهم على العناد وتحرّيهم الحججَ؛ لدحض داعي الإيمان بعزيمة وإصرار لا ينفكّون عنه.

دلالةُ خصوصِ السُّؤال عن الجبال:

الجبالُ أشدُّ ما على الأرض قوَّةً، والسُّؤال عن مآلها تشكيكٌ من المعاندين

حكى النَّظمُ الجليل في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ عن سؤالِهم عن مصير الجبال، وإنَّما المرادُ من سؤالهم السُّؤال عن حالها يوم القيامة، وعن مآلها؛ تعبيرًا عن شكِّهم في البعث، حيثُ ظنّوا أنَّها لن تزول لقوَّة شأنها وثباتها[4]، لكنَّ الله سوف يزيلها عن مقارِّها، فيسيِّرها مقذوفة في الفضاء، حتّى تتساوى مع سطح الأرض، فيذر مقارَّها ومراكزها سهلًا مستويًا

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 423.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 248.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 100.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 344.

أملسَ لا تَرى فيها نتوءًا يسيرًا[1]، وخصّوا الجبال بالسُّؤال؛ لأنَّهم اتَّخذوها دليلًا على استحالة البعثِ ووقوع البعث والحشر، كما أنَّها تدلُّ على أنَّ سؤالهم وقع على وجه الاستهزاءِ.

نكتةُ دخولِ الفاء في الجواب ﴿فَقُلۡ﴾:

سرعةُ الإيفاءِ بالبيان ضرورةٌ في ردِّ الطَّعن في الاعتقاد

أدخلَ النَّظمُ الجليل حرفَ الفاءِ على فعل الأمر (قل) في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾، فجاءَ هنا قوله: ﴿فَقُلۡ﴾ بفاء، وكلُّ جوابٍ فيه لفظُ (قل) في القرآن الكريم؛ أتى بغير فاء إلّا هذا؛ لأنَّ المعنى إن سألوك عن الجبال؛ فقل، فتضمَّن الكلام معنى الشرط؛ للدَّلالة على تعقيب الجواب على السُّؤال، بلا مهلة؛ "لأنَّ مقصودهم من هذا السُّؤال الطَّعنُ في الحشر والنَّشر، فلا جرم أمَرَهُ بالجواب مقرونًا بفاء التَّعقيب؛ لأنَّ تأخيرَ البيان في مثل هذه المسألة الأصوليَّة غيرُ جائزٍ، أمّا في المسائل الفروعيَّة؛ فجائزٌ، لذلك ذكر هناك (قل) من غير حرف التَّعقيب"[2]، فتدلُّ هذه الفاء على المسارعة إلى إزالة ظنِّ السّائل بأنَّ الجبال باقيةٌ على حالها يوم القيامة[3].

سرُّ التَّعبيرِ بجملة ﴿يَنسِفُهَا﴾:

أشدُّ ما تراه العين ثابتًا يفتُّ يوم القيامة فتًّا، ويذرى تذريةً

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالنَّسف؛ للإخبار عن حال الجبال يومَ القيامةِ، في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾؛ للدَّلالة على شدَّةِ الأهوال في ذلك اليوم، فالجبال الَّتي هي أثبت ما يراه الإنسانُ، ستُنسَفُ في ذلك اليوم، والنَّسف عبارةٌ عن اقتلاعها من أماكنها وتفتيتها وتذريتها في الهواء[4]، فالنَّسفُ أبلغُ ما يبيِّن شدَّة تلك الإزالةِ وقوَّتها.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 148.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 100.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 152.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 345.

شأنُ الجبالِ بيد الرَّبِّ في إيجادها وفي إفنائِها كما يقدِّر ويأمر

نكتةُ التَّعبير بلفظ الربِّ دون اسمِ الجلالة:

آثر النَّظمُ الكريم إسنادَ نسف الجبالِ إلى لفظ الرُّبوبيَّةِ دون الألوهيَّة، في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾؛ إشارةً إلى امتثالِ الجبالِ لأمر ربِّها وموجدها، ويدلُّ على أنَّ أهوالَ يوم القيامة، واقعةٌ بتدبير الإحسان، ورعاية شؤون العباد؛ إقامةً للعدل وتحقيقًا للحقِّ، ونصرًا للمظلومين.

سبْقُ الإحسانِ بالنُّبوَّة يتبعهُ إحسانٌ بتصديق الوعيد

فائدةُ إضافةِ (ربّ) إلى ضمير المتكلِّم:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّم العائد على النَّبيِّ ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ربّي الَّذي أحسن إليَّ هو من ينصرني يوم القيامة نصرًا لا يُبلَغ كُنهُه[1]، تعظيمًا وتفخيمًا لشأن نصره.

تأكيدُ النَّسفِ يرفع التَّوهُّم عن تصوُّرِ النَّسف مجازًا لا حقيقة

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعول المطلق ﴿نَسْفًا﴾:

أكَّد النَّظم الجليل النَّسفَ بالمفعول المطلق في قوله تعالى: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾، وفائدة هذا التَّأكيد الإشارة إلى أنَّ النَّسف كائنٌ على وجه الحقيقة لا المجاز، وتقدير الكلام: تنسفُ الجبال نسفًا[2]، "والنَّسفُ يقتضي أن يفتِّتَها ذرّاتٍ تُنسفُ، ويؤكِّد سبحانه نسفَها، وفي تأكيد النَّسفِ تأكيدٌ للتَّفتيت أيضًا"[3]، وقوله: ﴿نَسْفًا﴾؛ ليؤكِّد بيقين لا يعتوره شكٌّ، بأنَّ الجبل سيتفتَّت إلى ذرّاتٍ صغيرةٍ تتطاير في الهواء، وتذروها الرّياحُ؛ لأنَّ الشّائعَ في تصوُّر النّاس أنَّ الجبالَ تندكُّ وتنهدُّ، فتتحوَّل إلى كُتَل صخريَّة، لذلك أكَّد على النَّسفِ، وأنَّ الجبال ستكون ذرّاتٍ تتطاير؛ لذلك قال في آية القارعةِ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: 5]، أي: كالصُّوف المندوف[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 345.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 16/ 307.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4787.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9390.

دلالةُ الفاء في جملة: ﴿فَيَذَرُهَا﴾:

استحالةُ المكانِ قاعًا مستويًا، مترتِّبةٌ على النَّسف وناتجة عنه

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفًا﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفًا﴾ بالفاء؛ للدَّلالة على أنَّ كونها قاعًا صفصفًا مترتِّبٌ على نسف الجبال، وأنَّه كائن بسببه، وجواب من سيسأل: فقُلۡ لهم، يَنۡسِفُها بأن يفتِّتَها ذرّاتٍ، ويجعلها كالرَّمل السّائل المتماوجِ، ثمَّ يطيِّرها كالرّيح، فيذر الجبالَ والأرض قاعًا منبسطةً لا بناء عليها ولا نبات، بل أرضًا ملساء مستوية، لا ترى فيها عِوَجًا ولا نتوءًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّمير في ﴿فَيَذَرُهَا﴾:

الجبالُ والأرض سيكونان صعيدًا مستويًا

أجاز أئمَّةُ التَّفسير عودَ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفًا﴾ على الجبال والأرض، فيصلح أن يكون عائدًا على الجبال، باعتبار أجزائها السُّفليَّة الباقيةِ بعد النَّسفِ، أي: (فيذرُ ما انبسط منها، وساوى سطحُه سطوحَ سائرِ أجزاءِ الأرض، بعد نسف ما نتأ منها ونشزَ)، ويصحُّ أن يكون المراد الأرض، وقد دلَّت عليها قرينة الحالِ؛ لأنَّها هي الباقيةُ بعد نسفِ الجبال وقلعها[1].

دلالةُ ذكرِ الوصفين ﴿قَاعًا﴾ على ﴿صَفۡصَفًا﴾:

استواءُ الأرض بشدَّة الزَّلزلةِ لا يزول بنسفِ الجبال

وصف النَّظمُ الجليل الجبال بعد قلعها أو الأرض بعد نسف الجبال، بأنَّها ستكون: ﴿قَاعًا صَفۡصَفًا﴾، وفائدة ذلك بيانُ أنَّ ذلك النَّسف لا يزيل الاستواء، حتّى لا يُفهم من إزالة الجبال: أنَّ الأرض قد صارت مختلَّة مائلة[2]، فأورد الوصفين لبيان دوام الاستواء، وللإيماء إلى شدَّة الزَّلزلة الَّتي تكون يوم القيامة، فهي بحيث إنَّها تسوّي بين النّاتئ والمنخفض.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 100.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿لَّا تَرَىٰ﴾ عمّا قبلها:

تأكيدُ وصفِ الاستواء بتصوير كيفيَّتِه

فصلَ النَّظمُ البليغُ الجملة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ سيقت لبيان كيفيَّة الاتِّصاف بالقاع الصَّفصف[1]، كما أنَّها تدلُّ على تأكيد الاستواء المدلولِ عليه بالوصفين السّابقين، وأفاد هذا التَّأكيد زيادةَ التَّهويل لتلك الأهوال.

سرُّ تقديم ﴿فِيهَا﴾ على مفعول ﴿تَرَىٰ﴾:

الأهمُّ في السّياق أولى بالتَّقديم وأجدرُ بالتَّبريز

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به الصَّريح، في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا﴾، فلم يقل على الأصل: (لا تَرَى عِوَجًا فيها)؛ وذلك للاهتمام بالمقدَّم، والتَّشويق إلى المؤخَّر[2]، فإنَّ احتواءَ شبه الجملة على الضَّمير العائد على المتحدَّث عنه، يجعلُهُ أحرى بالتَّقديم لوقوع السّياق عنه.

بلاغةُ فنِّ التَّنكيت في استعمال ﴿عِوَجًا﴾ بالكسرِ:

لا اعوجاجَ في أرض القيامةِ مهما دقَّ القياسُ؛ لأنَّها صُنْعُ مَن أتقن كلَّ شيءٍ

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا﴾ فنُّ التَّنكيت، وحدُّه أن يخصَّ المتكلِّمُ شيئًا بالذِّكر دون غيره، ممّا يسدُّ مسدَّه، وما يقتضيه ظاهر الكلام، لأجل نكتة في المذكور، ترجِّح مجيئَه على سواه، وفي هذا السّياق نجد أنَّ أهل اللُّغة فرَّقوا بين (العِوَج) و(العَوَج)، فقالوا: العِوجُ بالكسر في المعاني، والعَوجُ بالفتح في الأعيان، وهنا يأتي هذا الفنُّ ليسبرَ غورَ هذه النُّكتةِ الَّتي تدقُّ على النَّظرة السَّطحيَّة الأولى[3].

وانطلاقًا من ذلك، فقد آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بلفظ (العِوج) بكسر العين دون (العَوج) بفتحها، في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا﴾، ومعلوم أنَّ الأرض جسم لا معنى، فإنَّما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 319.

آثر التَّعبيرَ بما هو للمعاني في سياق الحديث عن ماديٍّ، وذلك لجعل نفي الاعوجاجِ على أبلغ ما يكون، فلو جمعتَ أهلَ الخبرة بهندسة الأراضي وتسويتها؛ لاتَّفقوا على الحكم باستوائها على أتمِّ وجه[1]، وجاء به بصيغة التَّنكير للدَّلالة على انتفاء أيِّ اعوجاج مهما كان صغيرًا لا يُؤبه له، وهذه مبالغة في شدَّةِ الاستواء، والمراد بيانُ شدَّة الأهوال، وقوَّة ما يقع للأرض حال قيامة يوم الحساب.

نكتةُ عطفِ ﴿وَلَآ أَمۡتٗا﴾ على ما قبلها:

تنويعُ الألفاظ في السّياق، لدفعِ احتمال ما يتبادر مِن سؤالٍ

عطف النَّظمُ الجليل لفظَ (الأمت) على (العِوج) في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾؛ لنفي احتمال انتفاء الانخفاض، فصرَّح بنفي الارتفاع بعطف النُّتوء على العوج، فكما لا يُرى في الأرض عوجًا، فكذلك لا يُرى فيها ما دقَّ، وصغر من الارتفاع، حتّى لو كان نتوءًا يسيرًا[2]، وهو"استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفيَّة ما سبق من القاع الصَّفْصَف، أو حالٌ أخرى، أو صفة لـ﴿قَاعٗا﴾، والخطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن تأتي منه الرُّؤيةُ"[3].

بديعُ الطِّباق بين (العوج) و(الأمت):

انتفاءُ الارتفاعِ والانخفاض تأكيدٌ على الاستواء التّامِّ

جمع النَّظم الجليلُ بين لفظين متناقضين في الدَّلالة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾، فطابق بين المعنيين مبالغةً في الدَّلالة على استواء الأرض، فانتفى عنها الارتفاعُ والانخفاض، فالجمعُ بينهما لتأكيد معنى الاستواء.

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّسف والمحو:

النَّسفُ محوٌ مخصوص، فهو محو بجعل الشّيء غبارًا

(نسف) أصلٌ يَدُلُّ على كَشفِ شَيءٍ[4]، والنُّسافَة ما تثُورُ من غُبارِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 88، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 345.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 88.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسف).

الأرض[1]، أمّا المحو؛ فأصله يدلُّ على الذَّهابِ بِالشَّيءِ[2]، مَحَوتُه مَحوًا، أي: أزَلتهُ، وانمَحَى الشَّيءُ: ذَهَبَ أثَرُهُ[3]، وفي الآية الكريمة يُراد به أن تصير الجبالُ كالهباء المنثور[4]، فعبَّر عن ذلك بالنَّسف دون المحو؛ لأنَّ النَّسف يدلُّ على كيفية محو الجبالِ يوم القيامة، وذلك بتذريتها ونسفها وفتِّها إلى غبار.

القاعُ أرضٌ ملساء، والمهاد أرض موطِّئة للمشي

القاع والمهاد:

القاع أصله يَدُلُّ على تَبَسُّطٍ في مَكانٍ، وهو: الأرضُ المَلساءُ[5]، والقاعُ ما انبَسَطَ مِنَ الأرض، وهيَ مُستَوِيَةٌ لَيسَ فيها تَطامُنٌ ولا ارتِفاعٌ[6]، والمراد به في الآية الكريمة الأرضُ الملساء[7]، أمّا المهاد؛ فأصله من (مَهَدَ)، وهو أصلٌ يدلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ لِلشَّيْءِ، ومَهَّدْتُ الأمرَ: وطَّأتُهُ، والمِهادُ: الوِطاءُ مِن كُلِّ شَيءٍ[8]، وهو المَوضِعُ يُهَيَّأُ للصَّبيِّ ويُوَطَّأُ لينام فيه، والأرضُ كالمِهادِ جعلَها اللَّه تَعالَى مِهادًا للعِبادِ[9]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النبأ: 6]، أي: فراشًا وبساطًا ووطاء[10]، فعبَّر في الآية الكريمة بالقاع؛ لأنَّه ما ستكون عليه الأرض بعد إزالة الجبال، وليس المراد جعْلَها فراشًا ممهِّدًا للنّاس.

(1) الرّاغب، المفردات: (نسف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (محو).
(3) الفيّومي، المصباح: (محو).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 100.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوع).
(6) ابن منظور، اللّسان: (قوع).
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 345.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (مهد).
(10) الواحديّ، البسيط: 23/ 115.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾ [طه: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقةُ بيانِ استواء الأرض باتِّباع الدّاعي والخشوع للرَّحمن يومَ القيامة

بعد أن ذكر استواءَ أرضِ المحشر، وانتفاءَ العِوجِ فيها؛ أتبعهُ ببيان كيفيَّة حشر النّاس إلى محشرهم، فبيَّن ﷻ أحوال النّاس في ذلك اليوم بأنَّهم ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾(1)، وحينها "يتَّبع النّاس بعد قيامهم من قبورهم دعوةَ الدّاعي إلى المحشر مستسلمين، لا يستطيع أحد منهم أنْ يعدل عنه يمينًا ولا شمالًا، وتخشع الأصوات بالسُّكون والرَّهبة لعظمة الرَّحمن، فلا يُسمَع إلّا ما خفي من الأصوات".

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَخَشَعَتِ﴾: (خشع) أصلٌ يَدُلُّ على التَّطامُنِ، يُقالُ: خَشَعَ؛ إذا تَطامَنَ، وطَأطَأ رَأسَهُ، يَخشَعُ خُشوعًا، والخُشُوع في الصَّوتِ والبَصَرِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [القلم: 43](2)، واختَشَعَ وتَخَشَّعَ: رَمَى بِبَصَرِه نَحوَ الأرض، وغَضَّه، وخفَضَ صَوْتَهُ، وخشع بصرُه: انكَسَرَ، واختشعَ؛ إذا طأطأ صَدْرَه وتَواضَعَ(3)، والخُشُوع: الضَّراعة، وأكثر ما يُستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضَّراعة أكثر ما تُستعمل فيما يوجد في القلب(4)، والمراد به في الآية: خفيت لمهابته تعالى وشدة هول المطلع.

2) ﴿هَمۡسٗا﴾: (همس) أصلٌ يَدُلُّ على خَفاءِ صَوْتٍ وحِسٍّ(5)،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 153.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(3) ابن منظور، اللّسان: (خشع).
(4) الرّاغب، المفردات: (خشع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (همس).

والهَمس: الخَفيُّ مِنَ الصَّوْتِ والوَطءِ والأكل، وقَدْ هَمَسُوا الكَلامَ هَمسًا، وفي التَّنْزيل: ﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾، أي: خَفْقَ الأقدام على الأرض، ويُقالُ: اهمِسْ وصَهْ، أي: امشِ خَفيًّا، واسْكُتْ، والهَمس: الكَلامُ الخَفيُّ لا يَكادُ يُفْهَمُ[1]، والمراد به في الآية الكريمة: أخفى ما يكون من الأصوات، وأخفى شيء من أصوات الأقدام[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

اتِّباعُ الصَّيحةِ وتهامسُ النّاس من أحوال أهل المحشر يوم القيامة

يخبرُ النَّظمُ الكريم أنَّ "في هذا اليوم الَّذي تُنسَفُ فيه الجبالُ، وتصير الأرض قاعًا صفصفًا، يقوم النّاس من قبورهم، ويتَّبعون من يناديهم للحساب والجزاء، دون أن يحيدوا عن هذا المنادى، أو أنْ يملكوا مخالفته أو عصيانه، بل الجميع يسمع دعاءه، ويستجيب لأمره، كما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨﴾ [القمر: 6 - 8]، وخفتتْ، وسكنت الأصواتُ كلُّها هيبةً وخوفًا من الرَّحمن ﷻ، فلا تسمع - أيُّها المخاطَبُ - في هذا اليوم الهائل الشَّديد إلّا هَمسًا، أي: إلّا صوتًا خفيًّا خافتًا"[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ في لفظ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

لا مندوحةَ في الحشر من اتِّباع الدّاعي والخشوع للرَّحمن

أوجز النَّظمُ الجليل بحذف المضاف إليه، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾، أي: في ذلك اليوم العصيب، يتَّبع النّاسُ داعيَ اللهِ الَّذي يدعوهم لأرض المحشر، يأتونه سراعًا، لا يزيغون عنه، ولا ينحرفون، والتَّقدير: (يوم إذ نُسفتِ الجبالُ)، فالظَّرفُ مضاف إلى وقت النَّسْفِ[4]، وهذا إيجازٌ بليغ بالحذف المعلوم من السّياق.

(1) ابن منظور، اللّسان: (همس).
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 347.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 152 - 153.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.

سرُّ تقديم الظَّرفِ على عامله:

قدَّم النَّظم الجليلُ الظَّرفَ على عامله، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾، والأصل في التَّركيب أن يقال: (يتَّبعون الدّاعي يومئذٍ)؛ وذلك للاهتمام بذلك اليوم العظيم، فيكون الظَّرف بهذا التَّقديم قائمًا مقامَ العطفِ في الوصل، والمعنى: أنَّهم يتَّبعون الدّاعي يوم ينسف ربُّك الجبال[1].

الاهتمامُ بيوم القيامة أهمُّ مِنَ الأحداث الواقعة فيه

إيثارُ الفعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ مادّة وصيغةً:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الاتِّباع بصيغة الافتعال، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أهلَ المحشر يتَّبعونه بغاية الجهد والجدِّ[2]، ومفاد ذلك أنَّه في هذا اليوم الَّذي تُطوى فيه صفحةُ الدُّنيا بما فيها، ومن فيها، وتُنسف فيه الجبالُ، وتُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض؛ لتصبح قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، يقوم النّاس لربِّ العالمين من قبورهم الَّتي كانوا فيها ميِّتين أشبه بالرّاقدين، ويتَّبعون من يناديهم للحساب والجزاء دون أن يحيدوا عن هذا المنادي، أو أن يملكوا مخالفته أو عصيانه، بل الجميع يسمع دعاءه، وينصاع لمراده، ويستجيب لأمره بلا أدنى تأبٍّ أو عصيان[3].

في محشر الآخرة ينقاد الكلُّ للدّاعي، وينفِّذون أوامره

نكتةُ إيثار لفظ ﴿ٱلدَّاعِيَ﴾ وبيانِه:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن القائم بأمر النَّفخِ لبعثِ النّاس وحشرهم إلى المحشر بلفظ الدّاعي في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾؛ لأنَّه من المعلوم أنَّ مَن يقوم بذلك هو الملك إسرافيل عليه السلام، فهو يدعو النّاس بأمر الله تعالى وإذنه لتعودَ الأجساد

لما بيَّن أنَّ البعثَ والحشر حقٌّ؛ أتى بالداعي معرَّفًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 309.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 346.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 153.

والأرواح فيها، وتهطع إلى المكان المدعو إليه[1]، ولفظُ الدَّعوة يدلُّ على ارتفاع الصَّوت لجلب المدعوّين إلى مكان مُعدٍّ لهم، فهم يُقبلون عليه لا ينفكّون عن متابعتِه، وقيل: الداعي الرسولُ، أي: يَتَّبع كلُّ قوم رسولَهُم[2].

كلُّ منتظمٌ فلا عوج في المكان ولا عوج في المسير

نكتةُ مراعاةِ النَّظيرِ في استعمال (العِوَج):

أورد النَّظمُ الجليل تعبيرين متماثلين في نفي العِوج، فقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾، وقد قال قبل ذلك: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا﴾، وهذا يسمّى مراعاةَ النَّظير[3]، وذلك أنَّه تعالى كما جعل الأرض يومئذٍ غيرَ معوجَّة ولا ناتئة، فإنَّه كذلك جعل سيرَ النّاس عليها لا عوج فيه ولا مراوغة[4].

دلالةُ اللّام في ﴿لَهُۥۖ﴾ وعودُ الضَّميرِ:

وجودُ الدّاعي ضامنٌ لاستقامة مسيرهم

عبَّرَ النَّظمُ باللّام الدّالَّة على التَّعليل في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾، فانتفى العِوج عن مسيرهم، بسبب هذا الدّاعي، "أي: لا يروغ المدعوون في سيرهم، لأجل الدّاعي، بل يقصدون متَّجهين إلى صوبه"[5].

دلالةُ الواو في ﴿وَخَشَعَتِ﴾:

بخشوع النّاسِ تخشعُ أصواتُهم

عطف النَّظمُ الجليل الجملة، في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾، على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾[6]، والغرضُ من العطف، أنَّه لمّا "أخبر بخشوعهم في الحديث والانقياد للدَّعوة؛ أخبرَ بخشوع غير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 309.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 309.

(3) من أنواع مراعاة النَّظير "ما يسمّيه بعضهم: تشابه الأطراف، وهو أن يختمَ الكلامَ بما يناسب ابتداءَهُ في المعنى، نحو: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [الأنعام: 103]"، يُنظر: عصام، الأطول: 1/ 99.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 309.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 309.

(6) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 425.

ذلك من الأصوات الَّتي جرتِ العادة بكونها عن الاجتماع"[1]، وذلك أنَّ خشوع الصَّوتِ تَبَعٌ لخشوع صاحبه.

بلاغةُ المجازِ في نسبة الخشوع إلى الأصوات:

عظُمَ الخطبُ حتّى خشع الصَّوتُ نفسه وهو من بليغ البيان

أسند النَّظمُ الجليل الخشوع إلى الأصوات في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾، والأصوات لا تخشع فإنَّما يخشع أهلها، فأسند الخشوعَ إلى الأصوات، على طريقة المجاز العقليِّ[2]، وإنَّما أسند الخشوعَ إلى الأصوات دون أصحابها تعبيرًا عن هول المقام، بحيث إنَّ الصّوتَ بنفسه صار خاشعًا، تعبيرًا عن قوَّة دواعي الخشوع.

سرُّ إيثار اسم الله (الرَّحْمَن):

تزاحُمُ الشَّدائدِ المتانِ لا يغلبُ رحمةَ الرَّحمن

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن المولى تعالى بلفظ الرَّحمنِ في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾، ترقيقًا للقلوب من هول ذلك المحشرِ، وإعلامًا بأنَّ الله تعالى في أشدِّ ساعات الشِّدَّة على النّاس رحيمٌ بهم، فهو الرَّحمن "الَّذي عمَّت نعمُهُ، فيُرجى كرمُهُ، وتُخشى نقمُهُ"[3].

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا﴾:

منتهى الخشوعِ في المحشرِ ألّا تسمعَ الأصواتِ إلّا همسًا

أدخل النَّظمُ الجليل الفاءَ على الجملة المنفيَّةِ، في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾؛ للدَّلالةِ على السَّببيَّة، أي: يتسبَّب عن ضعف الأصوات وانخفاضها، أنَّك لا تسمع إلّا أخفى ما يكون من الأصوات، وهو الهمس[4].

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع المنفي:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفيِّ، في قوله تعالى:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 347.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 310.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 347.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 347.

هـول يوم القيامة مع طوله مستمرٌّ لا ينقطع

﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾؛ للدَّلالةِ على دوام انتفاء سماع غير الهمسِ، وهذا يشير إلى دوام شدَّةِ ذلك اليوم وهيبته، فلا ينقطع خوفُ النّاس فيه، ودنوُّ أصواتهم.

سرُّ استثناء ﴿هَمۡسٗا﴾ في السّياق:

انخلعَتِ القلوبُ من الأهوال، فاستحال حديثُ النّاس همسًا

استثنى النَّظمُ الجليل الهمسَ مِن السَّماع في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾؛ لأنَّ النّاس في المحشر ليسوا صامتين صمتًا مطبقًا، بل هم يتكلّمون، ويتساءلون فيما بينهم، فالكلام ليس ممنوعًا عنهم في ذلك اليوم، غير أنَّهم لشدَّة هلعهم وخوفِهم لا يتكلَّمون إلّا بالهمس الَّذي لا يكاد يُسمع، وهذا تعبير عن شدَّة خوفِهم من الأهوال العظيمة في ذلك اليوم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشوع والخضوع:

الخشوعُ تطامنٌ بانكسار، والخضوع ذلٌّ وصغارٌ

(خَشَعَ) أَصْلٌ يَدُلُّ على التَّطامُنِ، يُقالُ: خَشَعَ؛ إذا تَطامَنَ، وطَأْطَأَ رَأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشُوعًا[1]، واخْتَشَعَ: إذا طأْطأ صَدْرَهُ، وتَواضَعَ، وتَخَشَّعَ: رَمَى بِبَصَرِه نَحْوَ الأرض، وغَضَّه، وخفَضَ صَوْتَهُ، وخشَعَ بصرُه: انْكَسَرَ[2]، والخُشُوع: الضَّراعة، وأكثر ما يُستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضَّراعة أكثر ما تُستعمل فيما يوجد في القلب[3]، أمّا الخضوع؛ فأصله يدلُّ على تَطامُنٍ في الشَّيْءِ، وهُوَ الذُّلُّ والاِسْتِخْذاءُ[4]، فعبَّر في الآية بالخشوع تعبيرًا عن خفض الأصوات، وليس المرادُ بيانَ ذُلِّها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(2) ابن منظور، اللّسان: (خشع).
(3) الرّاغب، المفردات: (خشع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خضع).

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ أهوالِ يوم الحسابِ ببيان انقطاع الأسبابِ إلّا بإذن ربِّ الأرباب

بعد أن حكى سبحانه من أحوالِ يومِ القيامة، وما يكون فيه من الأهوال الَّتي تجعلُ المجرمين يتخافتون في حديثهم، وينسَون مقدار لُبثهم في الدُّنيا، وقفّى على ذلك بذكر سؤال مَن لم يؤمن بالحشر عن الجبال وأحوالها في ذلك اليوم، ثمَّ الإجابة عنه، وبيَّن أنَّ النّاس يسرعون إلى إجابة الدّاعي، ولا يُسمع لهم كلامٌ إلّا همسًا؛ بيَّن هنا أنَّ النّاس لا تنفعهم شفاعة الشّافعين إلّا إذا أذِن لهم الرَّحمنُ، ورضي للمشفوع له قولًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾: (شفع) أصلٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ الشَّيئَين، وشَفَعَ فُلانٌ لِفُلانٍ، إذا جاءَ ثانيَهُ مُلتَمِسًا مَطلَبَهُ ومُعينًا لَهُ[2]، وشَفَعَ لي يَشفَعُ شَفاعةً، وتَشَفَّعَ: طَلب، والشَّفيعُ: الشّافِعُ، والجَمعُ شُفَعاء، واستَشفَعَ بفُلان على فُلانٍ، وتَشَفَّعَ لَهُ إليه، فشَفَّعَه فيه، والشَّفاعةُ: كَلامُ الشَّفيعِ لِلمَلِكِ في حاجةٍ يسألُها لِغَيْرِه، وشَفَعَ إليه: في مَعْنَى طَلَبَ إليه، والشّافِعُ: الطّالِبُ لِغَيْرِه، يَتَشَفَّعُ به إلى المَطْلُوب[3]، ومنه: الشَّفاعَةُ في القيامة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ [النّساء: 85]، أيّ: مَن يشفع فيما لا يجوز في الدّين أن يشفع فيه؛ يكن له نصيبٌ من الوزر والإثم[4].

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 151.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفع).
(3) ابن منظور، اللّسان: (شفع).
(4) الواحديّ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص: 279، وكذلك: الرّاغب، المفردات: (شفع).

2) ﴿أَذِنَ﴾: (أذن) أصلٌ يدلُّ على العِلْم والإِعْلام، تَقُولُ العَرَبُ: قَدْ أَذِنْتُ بِهَذا الأمرِ، أَيْ: عَلِمتُ، وآذَنَني فُلانٌ: أَعْلَمَني، والمَصْدَرُ: الأَذْنُ والإيذانُ، وفعَلَهُ بإذْني، أيْ: بعِلْمي[1]، والإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه، نحو: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64] أي: بإرادته وأمره[2]، أذِنَ بالشَّيْءِ إِذْنًا وأَذَنًا وأذانةً: عَلِم، وفي التَّنْزِيلِ العَزيزِ: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279]، أي: كُونُوا على عِلْم، وآذَنَهُ الأمرَ وآذَنهُ بِهِ، وأذِنَ لَهُ في الشَّيءِ إِذْنًا: أباحَهُ لَهُ[3].

المَعْنى الإجماليُّ:

لا سبيلَ إلى الشَّفاعة إلّا بإذنِ الله تعالى

يخبرُ النَّظمُ الكريم عن حقيقة من حقائق ذلك اليوم، الَّذي تخشع فيه الأصوات، وهي أنَّ الشَّفاعة لا تنفع أحدًا كائنًا مَنْ كان إلّا الشَّفاعةُ الَّتي يأتي بها مَن أذِنَ له الرَّحمنُ في ذلك، ورضي سبحانه ما يقوله الشّافع، فيمن يشفع له[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ تكرار الظَّرف ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

تكرارُ ظرفِ القيامة لفتٌ لنظر العبادِ إلى أهمّيّتها وعظمتها

كرَّر النَّظمُ الجليلُ ذكرَ لفظ اليوم، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، بعد أن ذكره في صدر الآيةِ السّابقة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾، وذلك تعظيمٌ لشأنه، فكرَّر الإنذار منه مرَّةً بعد مرَّةٍ[5].

بلاغةُ الإيجاز في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

يومُ القيامة لا تنفعُ الشَّفاعاتُ إلّا بإذن ربِّ الأرض والسَّماوات

أوجزَ النَّظمُ الجليل بحذف المضاف إليه، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(2) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(3) ابن منظور، اللّسان: (أذن).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 153.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 348.

﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، والتَّقديرُ: (أيَّ يَوْمَ إذْ خَشَعَتِ الأَصْواتُ)، فالظَّرفُ مضافٌ إلى وقت الخشوع، وفي ذلك إيجازٌ بالحذف؛ لأنَّ المحذوف معلوم من السّياق، "والمعنى: يومئذٍ لا يستطيع أحدٌ أن يشفع لأحد، إلّا إذا أذِنَ اللّهُ له، ولا يأذن إلّا لمن علم أنَّهُ سيُجاب، قال بعض المحقِّقين: وإنَّما يكون الكلامُ ضربًا من التَّكريم، لمن يأذن اللّهُ له به، يختصُّ به من يشاء"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل المضارع المنفيّ:

انتفاءُ الشَّفاعة غيرُ منتقضٍ بزمان

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفيِّ، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ للدَّلالة على دوام انتفاء النَّفع، فالاستمرارُ المستفاد من الفعل المضارع متعلِّق بدوام النَّفي، وفي ذلك تأكيدٌ على انقطاع الفائدة من كلِّ جهةٍ غير ما يأذن به اللّه تعالى.

دلالةُ الاستثناءِ في الآية وبيانه:

لا شفاعة في الآخرة إلّا بإرادةِ الله الآمرة

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاستثناء التّامِّ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ للدَّلالة على الاستثناء من عموم الشَّفاعة، والتَّقديرُ: (إلّا شفاعة مَن أذِن له الرَّحمنُ)[2]، وذلك لأنَّ الشَّفاعةَ تقتضي شافعًا؛ لأنَّ المصدرَ فيه معنى الفعل، أي: إلّا أن يشفع من أذِنَ له بذلك، فهو استثناء تامٌّ، وليس بمفرَّغ[3].

نكتةُ إسناد النَّفعِ للشَّفاعة:

انتفاءُ النَّفعِ عن الشَّفاعة ذاتِها مبالغةٌ في انتفاء الانتفاع

أسندَ النَّظمُ الجليل النَّفعَ إلى الشَّفاعة، في قوله تعالى: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، والنَّفعُ إنَّما يتحقَّقُ من صاحب الشَّفاعة لا من الشَّفاعة ذاتها، فهي لا تنفع بذاتها، فالإسنادُ جارٍ على طريقة المجاز العقليِّ، والغرضُ من ذلك تأكيد انتفاءِ النَّفع بأنَّ الشَّفاعة وإن حدثت فإنَّها لا تقدِّم شيئًا، ولا تؤخِّر.

---

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 148.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 348.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 310.

سرُّ تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على الفاعل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

الاهتمام بالمأذونِ له والتَّشويقُ بتأخير الآذن من براعةِ البلاغة

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على الفاعل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، لأنَّ الاهتمام في السّياق واقع على مَن أذِن له بالشَّفاعة، وفي التَّأخير تشويقٌ لمعرفة الآذنِ، فاللّه ﷻ ما أذِنَ للشافع بأن يشفع إلّا وقد أراد قبولَ شفاعته، فصارَ الإذنُ بالشفاعة وقبولها عنوانًا على كرامة الشافع عند اللّه تعالى(1).

سرُّ إيثارِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ من بين الأسماء الحسنى:

الإذنُ بالشَّفاعة صورةٌ من صورِ رحمته تعالى

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم اللّه تعالى الرَّحمن، الدّالِّ على كمال رحمته في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾؛ تنويهًا بأنَّ الإذنَ بإيقاع الشَّفاعة والانتفاع منها إنَّما هو حاصل برحمة اللّه تعالى وفضل منه، لا بأي حقٍّ أو استحقاق آخر.

فائدةُ عطف ﴿وَرَضِيَ﴾ على ﴿أَذِنَ﴾:

قبولُ الأقوالِ مشروطٌ بإذنِ ذي الجلال

عطف النَّظمُ الجليل الرِّضا على الإذن، في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الإذن بالشَّفاعة، لِمَن أذِن اللّه تعالى له يحقِّق قبول القول والاستجابة لشفاعتهم، وأنَّ الرِّضا إنَّما كان لإذن اللّه تعالى لهم بالشَّفاعة، ومَن لم يُؤذن له فإنَّ قوله ليس مرضيًّا، ومفادُ ذلك أنَّه "يومئذٍ لا تنفع الشَّفاعة من أحد، إلّا من أكرمه اللّه، فأذِن له بالشَّفاعة، ورضي قولَه فيها، ولا تنفع الشَّفاعة في أحدٍ إلّا من أذِن الرَّحمن في أن يُشفع له"(2).

دلالةُ حرفِ اللّام في ﴿لَهُۥ﴾:

لا يشفعُ في الآخرة إلّا من رضي الله له قولًا

عبَّرَ النَّظمُ الجليل باللام الدّالَّة على التَّعليل، في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 311.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 420.

﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾، أي: ورضيَ لأجله قولَ الشّافع في شأنه، وأمّا غيرُه؛ فلا يُنتفع بالشَّفاعة[1]، وفي ذلك تكريمٌ للشّافع، وتنويهٌ بشأنه.

فائدةُ تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿قَوۡلٗا﴾:

بيانُ حصولِ الرِّضا لأجله أهمٌّ من القولِ المقبول

قدَّم النَّظمُ شبهَ الجملة على المفعول به، في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾، دون أن يقول: (ورضي قولًا له)؛ اهتمامًا وتنويهًا به، فإنَّ الرِّضا إنَّما وقع لأجله، ولما فيه من محافظة على النَّسق والفاصلة.

نكتةُ تنكير القولِ في السّياق:

حُسنُ القولِ صفةٌ لمن أُذِن لهم بالشَّفاعة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن القول بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾، تفخيمًا لشأن القول المرضيِّ عنه، فالمرضيُّ عنه هو عموم الأقوال التي يقولها ذلك الشَّخص الذي أذن اللّه تعالى له بالشَّفاعة، وليس جنس القول، بل المرادُ أفراد المقولات جميعًا، فكلُّ عبارة يقولها مرضيٌّ عنها، وفي ذلك تنويهٌ بشأن مقولاته وتزكية له.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 43، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 89.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾

[طه: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ الشَّفاعة بالإذن من الله متعلِّقٌ بعلَّةِ علمِ الله المحيط بهم

بعدَ أن نفى النَّظمُ الجليل أن تقع الشَّفاعةُ بغير إذن اللّه تعالى؛ أتبعَ ذلك ببيان علَّته، بقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، فعلمُهُ سبحانه محيطٌ بهم، فهو يمنع قلوبهم في ذلك اليوم بما يوجد من الأسباب، أن تهمَّ بما لا يرضاه[1]، وهو تعالى "يعلم ما بين أيدي العباد من شؤون الدُّنيا، وما خلفهم من شؤون الآخرة، وهم لا يعلمون شيئًا من تدبيره وحكمته"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحِيطُونَ﴾: (حوط) أصلٌ يدلُّ على الشَّيْءِ يُطيفُ بِالشَّيْءِ[3]، وأحاطَ به، أي: عَلِمه، وأحاطَ به علمًا[4]، والإحاطةُ تقال على وجهين: أحدهما: في الأجسام، نحو: أَحَطْتُ بمكان كذا، أو تستعملُ في الحفظ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصّلت: 54]، أي: حافظ له من جميع جهاته، والثّاني: في العلم نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطّلاق: 12]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران: 120]، والإحاطة بالشَّيء علمًا، هي أن تعلم وجوده وجنسه وقدره وكيفيَّته، وغرضه المقصود به وبإيجاده، وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلّا للّه تعالى، وقال ﷻ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: 39][5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 348.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 2430.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حوط).
(5) الرّاغب، المفردات: (حيط).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ النَّظمُ الكريمُ أنَّ اللّه تعالى وحده "هو الَّذي يعلم جميع أحوال خلقه، سواءٌ ما كان منها يتعلَّق بما بين أيديهم من أمور الآخرة، وأهوال الموقف، أم ما كان منها يتعلَّقُ بما خلفهم من أمور الدُّنيا، أمّا هم؛ فإنَّهم لا يحيط علمهم لا بذاته تعالى، ولا بصفاته، ولا بمعلوماته"[1].

العلمُ بأحوال الخلق مقصورٌ على الله تعالى الَّذي يحيط ولا يحاط به

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة في صدر الآية الكريمة:

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾؛ لأنَّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ سيقت لبيان علَّةِ انتفاء وقوع الشَّفاعة إلّا بإذنه، فعلمُهُ سبحانه محيطٌ بهم، فهو يمنع قلوبهم أن تهمَّ بما لا يرضاه[2].

علَّةُ اقتصارِ الشَّفاعة على فئةٍ؛ لعلمه بسرِّهم وعلانيَّتهم

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على دوام علمه تعالى بهم في سائر أحوالهم في الدّارين، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى يعلمُ كلَّ شاردة وواردة من أمر عباده، ممّا يختلج في الصُّدور، أو يجري على الألسنة، فما ينطقون به، وما لم ينطقوا به، هو في علم اللّه المطَّلع على الخبايا والأسرار، والَّذي لا يعزب عنه شيء، أمّا هم؛ فإنَّهم لا يملكون قدرةً للإحاطة باللّه ﷻ، ولا يدركون كنهه، ولا يعلمون حقيقته؛ لأنَّه لا يعلم حقيقة اللّه، إلّا اللّه جلَّ في كماله وعلاه[3].

علمُ الله تعالى محيطٌ بالعباد على وجه الكمال والدَّوام

جمالُ الكنايةِ عن الظّاهرات والخفيّات في الآية:

كنّى النَّظمُ الجليل عن الأعمال الظّاهرة والخفيَّة، في قوله

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 154.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 348.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 829.

تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، فما بين أيديهم: هو ما يعلمونه، وما خلفهم: هو ما غاب عنهم علمُهُ[1]، وتقدَّم الكلام عن ذلك بأنَّ المقصود علمُهُ بأحوالهم في الدُّنيا والآخرة، وقيل أيضًا فما يعلمونه هو كنايةٌ عن الأعمال الظّاهرة؛ لأنَّ شأن ما بين الأيدي أن يكون واضحًا، وما خلفهم كنايةٌ عن الأعمال الخفيَّة؛ لأنَّ شأن ما يُجعل خلف المرء أن يكون محجوبًا غير ظاهر[2].

ظاهرُ الأماكن وخفيُّها دليلٌ على صفة الأعمال

بلاغةُ الطِّباق بين الظَّرفين:

جمع النَّظمُ الجليل بين لفظين دالَّين على جهتين متضادَّتين في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، فما كان بين اليدين: فهو يشير إلى الأمام الَّذي هو نقيضُ الخلف، وهذا جمعٌ لجميع جهات العلم المتعلِّق بأعمال العباد، فأفاد الطِّباق بالإضافة إلى جماليَّة جمع المتناقضين معنًى بليغًا مؤكِّدًا شمولَ علمِه تعالى.

علمُ الله تعالى شاملٌ محيط بكلِّ الأزمنة والأمكنة

فائدةُ التَّذييل وعلاقته بالسّياق في الآية:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ سيقت للتَّذييل، والفائدةُ من هذا التَّذييل تعليمُ العباد عظمةَ علم اللّه تعالى مع بيان ضآلةِ علم البشر[3].

إرشادُ العبادِ إلى سَعةِ علم الله تعالى ببيان قصورِ علمهم

سرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾؛ للدَّلالة على استمرار النَّفي وتجدُّده، فنفيُ علمهم دائمٌ لا ينقطع بمرِّ الأزمنة، والرَّحمنُ يَعۡلَمُ ما بَيۡنَ أَيۡديهِم، وما خَلۡفَهُم، فلا يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم وأسرارهم، يعلم ما مضى من أحوالهم، وما بقي منها، ولا يُحيطُونَ بِهِ، أي: بما بين

بيانُ قصورِ علم الخلائق عن إدراكِ كنه علم الله تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 311.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 311.

أيديهم وما خلفهم عِلْمًا؛ لأَنَّ علمَهم قاصرٌ، وعقولهم محدودة، ووسائل الإدراك عندهم لا تتجاوز ما أتاح اللّه لها من قدرات قاصرة، فيبقى بها الإنسان عاجزًا عن إدراك ما أودع اللّه في الكون حوله من عجائبَ وخوارقَ.

دلالةُ التَّنكير في لفظ العلم:

ما علمَ العبادُ إزاء علم الله تعالى إلّا قطرةً من بحر

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة التَّنكير في العلم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾؛ لنفي أيِّ علم كان، فمجيء النَّكرةِ في سياق النَّفي دالٌّ على الاستغراق، فهم لا يملكون أيَّ علم من العلم الَّذي يمكِّنُهم من الإحاطة به، فـ"لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى، وقيل: المرادُ لا يحيط علمهم بذاته سبحانه، أي: من حيث اتِّصافُهُ بصفات الكمال الَّتي من جملتها العلم الشّامل"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 574.

﴿۞وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١﴾

[طه: 111]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ إحاطةِ علم الله وعجزُ البشرِ بخشوع الأصوات والجوارح

بعد أن ذكرَ النَّظمُ الجليل خشوعَ الأصوات أتبعه في هذه الآية بخضوع الوجوه تعبيرًا عن ذلِّ الخلائق، وخضوعهم للّه تعالى[1]، فذكر أنَّ خضوعَ الوجوه بعد خشوع الأصوات تأكيدٌ لأهوال يوم القيامة، وتقريرٌ لانتفاء الشَّفاعةِ لأحد من الخلق إلّا بإذنه ﷻ[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَنَتِ﴾: (عنى/ عنا) أصلٌ دالٌّ على خُضُوعٍ وذُلٍّ، قَوْلُهُم: عَنا يَعْنُو؛ إذا خَضَعَ، والأسيرُ عانٍ، والعاني: الخاضِعُ المُتَذَلِّلُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾، وهيَ تَعْنُو عُنُوًّا[3]، يقال لِلرَّجُلِ: عَنَوْتُ لَكَ، أي: خَضَعْتُ لَكَ، وأطَعْتُك، وعَنَوْتُ لِلْحَقِّ عُنُوًّا خَضَعْتُ، وكلُّ خاضِعٍ لِحَقٍّ أو غيرِه عانٍ، والاسمُ مِن كُلِّ ذَلِكَ العَنْوَةُ، والعَنْوَة: القَهْرُ، وأخَذْتُه عَنْوَةً، أي: قَسْرًا وقَهْرًا[4]، والمراد به في الآية الكريمة الخضوع والذُّلُّ، أي: ذلَّت، وخضعت، واستسلمت وجوه الخلائقِ كلِّهم[5].

2) ﴿خَابَ﴾: (خيب) أَصْلٌ يَدُلُّ على عَدَمِ فائِدَةٍ وحِرْمانٍ، والأَصْلُ قَوْلُهُم لِلْقِدْحِ الَّذي لا يُوري: هُوَ خَيّابٌ، ثُمَّ قالُوا: سَعَى في أمرٍ، فخابَ، وذَلِكَ إذا حُرِمَ؛ فلَم يُفِدْ خَيْرًا[6]، خابَ يَخيبُ خَيْبَةً:

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 349.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 154.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عنى).
(4) ابن منظور، اللسان: (عنا).
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 349.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خيب).

حُرِم، ولَم يَنَلْ ما طَلَب، والخَيْبَة: الحِرْمانُ والخُسْران؛ وقَدْ خابَ يَخيبُ، وخَيَّبَه اللّه: حَرَمَه، وخَيَّبْتُه أنا تَخْييبًا، وخابَ؛ إذا خَسِرَ، وخابَ؛ إذا كَفر، والخَيْبَة: حِرْمان الجَدِّ[1]، والخيبة: فوت الطَّلب وعدم الظَّفر بالبغية، ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ [آل عمران: 127]، أي: لم يدركوا ما طلبوا[2]، والمراد به في الآية الكريمة: الخسران، أي: خَسِر خسارة ظاهرة[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذُلُّ العباد وانكسارهم لربِّهم يوم الحساب، حيث خيبةُ كلِّ ظالم

يخبرُ النَّظمُ الكريم أنَّ وجوه العباد قد ذلَّت، وخضعت في ذلك اليوم للّه الباقي، الَّذي له الحياة الدّائمة، الَّتي لا فناء معها، الدّائم القيام بتدبير أمر خلقه، بإحيائهم وإماتتِهم ورزقِهم، وسائر شؤونهم، والحال أنَّه قد خاب، وخسر من حمل في دنياه شِركًا باللّه تعالى، أو فسوقًا عن أمره سبحانه، ولم يقدِّم العمل الصّالح الَّذي ينفعه في ذلك اليوم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَعَنَتِ﴾:

خضوعُ الوجوه لله تعالى بعد أن خشعت الأصواتُ في المحشر الأعظم

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وفائدةُ هذا العطف تقريرُ حال الخضوع والخشوع للعباد في ذلك اليوم[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَعَنَتِ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالعنت في قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ

---

(1) ابن منظور، اللّسان: (خيب).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (خيب).
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 349.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 154 - 155.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 154.

حالُ النّاس يوم القيامة حالُ الأسير عند الملك

﴿لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾؛ للدَّلالة على شدَّةِ خضوعهم وعنتهم في ذلك اليوم، فهم خضعوا لله تعالى خضوعَ الأُسارى في يد الملكِ القهارِ[1]، "قال الزَّجاجُ: يقال عنا يعنو عنوًا؛ إذا خضع، وذلَّ، وأعناه غيره، أي: أذلَّه، ومنه قيل للأسير: عانٍ، والجمع عناة، وقيل: هو من العناء بمعنى التَّعب... وخصَّ الوجوه بالذِّكر؛ لأنَّ الخضوع بها يتبيَّن، وأوَّل ما يظهر فيها"[2].

بلاغةُ المجازِ في إسناد العنتِ للوجوه:

الإصابةُ بالعناء في ذلك اليوم تبدو في الوجوهِ

أسندَ النَّظمُ الجليل العنتَ للوجوهِ، في قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾، والعناءُ إنَّما يصيب البدنَ، وإنَّما أسنده إلى الوجوه على طريقة المجاز العقلي[3]، والغرض من ذلك بيانُ شدَّة ذلك العنت، بحيث إنَّه قد استقرَّ، وتمكَّن من الوجوه.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡوُجُوهُ﴾:

وجوهُ الخلائقِ جميعًا سيصيبُها العناءُ آنئذٍ

آثَرَ النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالوجوه معرَّفةً بالألف واللّام الدّالَّةِ على الاستغراق، في قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الوجوه جميعها، قد ذلَّت وخضعت، سواءٌ أكانت للمؤمنين أم لغيرهم، فالكلُّ يوم القيامة خاضع لله تعالى، ومستسلمٌ لقضائه[4]، ويجوز أن تكون الجملة كلُّها تمثيلًا لحال المجرمين الذين جاء الكلام فيهم في قوله: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه: 102]، فاللام في الوجوه عوضٌ عن المضاف إليه، أي: وجوهُهم، وأمّا وجوه أهل الطاعات؛ فهي وجوهٌ يومئذٍ ضاحكة مستبشرة[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 43.
(2) القِنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 8/ 280.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 311.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 154.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 311 - 312.

سرُّ ذكرِ ﴿لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ دونَ سواهما:

الحيُّ القيّوم أظهرُ أسمائه تعالى في البعث والحساب

آثر النَّظمُ الكريم ذِكرَ الاسمين الجليلين الحيِّ والقيُّوم من أسماء اللّه تعالى الحسنى، في قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾؛ لأنَّ اسمَ الحيِّ يُثبت للّه تعالى وصْفَ الحياة، والقيُّوم يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى قائمٌ بتدبير النّاس، فلا يفوته تدبيرُ شيءٍ من أمورهم[1]، فخصَّ هذين الاسمين بالذِّكر، لمناسبتهما أحوالَ يوم القيامةِ.

دلالةُ (الواو) و(قد) في ﴿وَقَدۡ خَابَ﴾:

ليست كلُّ الوجوه تخيب يومَ القيامة

أجاز أئمَّةُ التَّفسيرِ أن تكون الواو للحال، أو للاستئنافِ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾، فعلى جعلها حاليَّةً يكون التَّقديرُ: (ذلَّت جميعُ الوجوه للّه تعالى يوم القيامة، والحال أنَّهُ قد خاب، وخسر مَن حمل في دنياه ظلمًا)[2]، وعلى جعلها استئنافيَّةً؛ فإنَّها تفيد الاحتراسَ، فليست كلُّ الوجوه التي وُصِفت بالعناء خائبةً، فمَن حمل ظلمًا؛ فقد خاب يومئذٍ، واستمرَّ عناؤه، ومن عملِ صالحًا؛ عاد عليه ذلك الخوف بالأمن والفرح[3]، واقترانها بـ (قد) يفيد تأكيد المضمون، فالخيبةُ مؤكَّدةٌ لمن حمل ظلمًا.

سرُّ إيثار الفعل ﴿خَابَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أشدُّ الخسران وآلَمُ الخيبة فقدانُ المأمول من السَّعي

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الدّالِّ على الخيبة دون غيره، في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾؛ لأنَّ الخيبةَ تدلُّ على الحرمان، وانتفاء الفائدةِ من السَّعي، فهو قد حُرِمَ، ولَم يَنَلۡ ما طَلَب، فهو أدلُّ على شدَّة الخسارة من غيره، حيث اتَّصف الخائبُ بأنَّه قد سعى، وبذل الجهد، ولكنَّه فقد ما طلب ساعة احتياجه له، وجيء بالتَّعبير عن ذلك بصيغة الماضي تحقيقًا للخيبة وتأكيدًا لحصولها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 312.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 43، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 155.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 312.

بيانُ أنَّ حملَ الظُّلمِ وخيمُ العاقبة في كلِّ زمان ومكان

العدولُ عن الموصولِ (الّذي) إلى ﴿مَنْ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ دون (الَّذي) في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾؛ للدَّلالة على العموم، فهو ليس مختصًّا بأحدٍ دون غيره، بل الحكم عامٌّ لكلِّ مَنِ اتَّصف بحمل الظُّلمِ في كلِّ زمانٍ ومكان.

حملُ الظُّلمِ وارتكابُهُ علَّة للخيبة

دلالةُ حملِ الظُّلمِ في قوله: ﴿حَمَلَ ظُلْمًا﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل عن ارتكاب الظُّلم في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ بأنَّه حمل، وفي ذلك دلالة على علَّة الخيبة، فهم بذلوا العناء، واجتهدوا في حمل العبء الثَّقيل، ولم يجدوا بعد ذلك الحمل الثَّقيل، غير الخيبةِ الَّتي نتجت عنه(1).

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الخيبةُ أفدحُ من الخسارة، فهي فواتُ المطلوب، والخسارة النُّقصانُ فيه

الخيبة والخسارة:

الخيبة تدُلُّ على عَدَمِ فائِدَةٍ وحِرْمانٍ، قالُوا: سَعَى في أمرٍ، فخابَ، وذَلِكَ إذا حُرِمَ؛ فلَم يُفِدْ خَيْرًا(2)، والخيبة: فوتُ الطَّلب وعدم الظَّفر بالبغية، ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ [آل عمران: 127] أي: لم يدركوا ما طلبوا(3)، والخسارة من (خسِرَ)، وهو أصلٌ يَدُلُّ على النَّقْصِ، يُقالُ: خَسَرْتُ الميزانَ وأخْسَرْتُهُ؛ إذا نَقَصْتَهُ(4)، الخاسِر: الَّذي وُضِع في تجارته، وفي الكتاب العَزيز: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ١٢﴾ [النّازعات: 12]، أي: غَيْرُ نافِعَةٍ، وصَفَقَ صَفْقَةً خاسِرَةً، أي: غيرَ مُرْبِحَةٍ(5)، فعبَّر في الآية الكريمة بالخيبة، للدَّلالة على فوات المطلوب لا على نقصانه.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9398.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خيب).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (خيب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (خسر).

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾ [طه: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إثرَ بيانِ الخيبة وظهور العنت على الوجوه شرعَ في بشارة الفائزين

بعد أنْ ذكر النَّظمُ الجليل جزاءَ الظّالمين وخيبتهم، أتبعهُ ببيان بشارة المؤمنين، بما يشرحُ صدورَهم، فقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَضۡمٗا﴾: (هضم) أَصْلٌ يَدُلُّ على كَسْرٍ وضَغْطٍ وتداخُلٍ، وهَضَمتُ الشَّيْءَ هَضْمًا: كَسَرْتُهُ[2]، وهَضَمَه يَهْضِمُه هَضْمًا واهْتَضَمَه وتَهَضَّمَه: ظَلمه وغصَبه وقهرَه، والاسْمُ الهَضيمَةُ، ورَجُلٌ هَضيمٌ مُهْتَضَمٌ: مَظْلومٌ، وهَضَمَهُ حقَّه هَضْمًا: نقصَه، وهَضَمَ لَهُ مِنْ حقِّه يَهْضِمُ هَضْمًا: ترك لَهُ مِنْهُ شَيْئًا عَنْ طيبة نَفْسٍ، يُقالُ: هَضَمت لَهُ مِنْ حَظّي طائِفَةً، أي: تركتُه، ويُقالُ: هَضَمَ لَهُ مِنْ حظِّه؛ إذا كسَرَ لَهُ مِنْهُ[3]، والمراد به في الآية الكريمة النَّقصُ من الجزاء[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

العملُ الصّالحُ بعد الإيمان مضمونُ الجزاءِ عند الرَّحمن

يخبرُ النَّظمُ الكريم أنَّ من يعمل من صالحات الأعمال - وهو مصدِّقٌ باللّه - فإنَّه مجازٍ أهلَ طاعته وأهلَ معاصيه على معاصيهم، فلا يخاف من اللّه أن يظلمَهُ، فيحملَ عليه سيِّئات غيره، فيعاقبَهُ عليها، ولا يخاف أن يهضمَهُ حسناتِه، فيُنقِصَهُ ثوابَها[5].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 155.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هضم).
(3) ابن منظور، اللّسان: (هضم).
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 379.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في صدر الآية:

الشُّروعُ بجزاء المؤمنين بعد بيان جزاء الظّالمين

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ - في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ - بالواوِ الدالَّةِ على الاستئناف[1]، فبعد أن بيَّن جزاء مَنِ اتَّصف بالظُّلم والشِّرك، استأنفَ لبيان القسم الثّاني، فالجملةُ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، سيقت للجوابِ عن سؤال يثيره بيان جزاء الظّالمين، فكأنَّهُ قيل: وما جزاء الصّالحين؟ فجيء بالجملة لبيان ذلك.

دلالةُ ﴿وَمَن﴾ في السّياق المحكم:

الإتيانُ بالإيمان مقرونًا بالعمل الصّالح مضمونُ الجزاء

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بـ﴿وَمَن﴾ الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾؛ لبيان القسيم لقوله: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾، فالنّاسُ يوم القيامة قسمان، وقد بيَّنت الجملة في ختام الآية السّابقة جزاءَ الظّالمين، وبيَّنت هذه الآيةُ القسمَ الثّاني[2]، وقد آثر أن يُبَيِّنَ القسمَ الثّاني بأسلوب الشَّرط للدَّلالة على تحقيق الوعد، وتأكيد حصول المضمون، بأن أجراه مجرى المتعاقدَين، فإذا وقع الشَّرط؛ فإنَّ الجواب متحقِّقٌ يقينًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَعۡمَلۡ﴾:

قَبولُ العملِ الصّالح مشروطٌ بالمداومة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الدَّوامَ والاستمرار على العمل هو المأمور به، وخير الأعمال أدومُها وإن قلَّ، فإنَّ الفائدة متحقِّقةٌ من الدَّوام لا من الكثرة.

فائدةُ القيد ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ الدّالَّة على التَّبعيض،

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 427.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 43.

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، أي: مَن يعمل بعضَ الصّالحات[1]، وإنَّما عبَّر بالتَّبعيض هنا؛ لأنَّ الإنسان مظنَّةُ العجز، مهما اجتهد، فقبِلَ الله تعالى من عباده أعمالهم الَّتي أمرهم بها بحسب ما استطاعوا[2].

من لطائف الله تعالى بعباده قَبولُهُ أعمالَهُم بقدر استطاعتهِم

دلالةُ الجملة الحالية ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾:

قيَّدَ النَّظمُ الجليل الأعمالَ الصّالحة - في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ - بالجملة الاسميَّة الدّالَّة على إيمان القائم بالعمل الصالح؛ تعبيرًا عن شرط قَبولِ الأعمال، وهو الإيتاءُ بها في حالة الإيمان[3].

الإيمانُ شرطٌ في قَبولِ الأعمال، ولا تُقْبَلُ الأعمالُ دونَهُ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، وهي هنا دالَّة على التَّبعيض؛ وذلك للدَّلالة على كفاية المؤمن بعمله بعضَ الأعمال الصّالحة؛ لأنَّ طاقة الإنسان لا تسعُ الإتيان بالصّالحات كلِّها، فحسْبُه أن يأخذ منها طرفًا، فإنَّه ليس بوسع أحدٍ أن يفعل ذلك غيرُ النَّبيِّ ﷺ[4].

بذْلُ الوسعِ في العمل الصّالح يغني وإن اقتصر على بعضِها

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاء في جواب الشَّرط:

قرن النَّظمُ الجليل جملةَ جواب الشَّرطِ بالفاء، في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾؛ لأنَّ جملة جواب الشَّرطِ ليست ممّا يصحُّ أن يكون فعلًا للشَّرط؛ لأنَّها مفتتحة بـ (لا) الَّتي تحتمل النَّهي والنَّفي، فلمّا كانت كذلك؛ لم يكن فيها رابط يربطها بجملة الشَّرط، فتعيَّن المجيء بالفاء؛ لبيان أنَّها مرتبطة بفعل الشَّرط،

قَبولُ الأعمال متحقِّقٌ على وجه القطع واليقين

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 43.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 349.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 43.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9399.

ارتباط السَّبب بالمسبِّب، فالتَّعبير بالفاء يشير إلى "قَبولِ الأعمال، وجعْلِها سببًا لذلك الحال"[1].

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ و﴿فَلَا يَخَفْ﴾:

انتفاءُ الخوفِ حقيقةٌ مقرَّرة لا يقع فيها تردُّدٌ

قرأ جمهور القرّاء الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ بالرَّفعِ بإثبات ألف بعد الخاء (يخاف)، وقرأه ابن كثير بالجزم بحذف الألف، بعد الخاء ﴿فَلَا يَخَفْ﴾[2]، فعلى قراءة الجمهور، تكون الجملة مستأنفةً غيرَ مقصودٍ بها الجزاءُ، كأنَّ انتفاء خوفه أمر مقرَّرٌ؛ لأنَّه مؤمنٌ، ويعمل الصّالحات، والتَّقديرُ: (فهو لا يخاف ظلمًا)، وعلى قراءة ابن كثير بصيغة النَّهي، مستعملٌ في الانتفاء، وتفيد هذه القراءةُ عدمَ التَّردُّد في حصول أمنه من الظُّلم والهضم[3]. فالقراءاتان جمعتا بين الإنشاء والخبر؛ فالجزم نهيٌ مَن عمل الصالحات - وهو مؤمن - أن يخاف أن يظلمه أحد أو ينقص من عمله. والرفع إخبار مَن عمل الصالحات أنه ليس يخاف أن يظلمه أحد، فيَحمِلَ ذنبَ غيره، إذ ينقص من عمله.

بلاغةُ عطف ﴿هَضْمًا﴾ على ﴿ظُلْمًا﴾:

عـملُ المؤمنين مـهـما قــلَّ لا ينقصُ منه شيء ولا يضيع

عطف النَّظمُ الجليل الهضم على الظُّلم - في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ - للاحتراس؛ لأنَّ الظُّلمَ يدلُّ على النَّقص الشَّديد، كما في قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: 33]، فيكون المرادُ من الهضم النَّقصَ الخفيف، وعطفُهُ على الظُّلم للاحتراس[4]، أي: ليحترسَ من أن يفهم أنَّ نفي الظُّلم يقتصر على نفي النُّقصان

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 349.

(2) الدّاني، التّيسير، ص: 153. قال أبو داود: "﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ قرأه ابن كثير، بجزم الفاء من غير ألف، فعلى قراءته يجب أن تكون هذه الكلمة مكتوبة من غير ألف، وعلى قراءة أهل المدينة، والعراق، والشام يحتمل أن تكتب بالألف، لقراءتنا ذلك كذلك لهم، ويجوز حذف الألف على الاختصار، وليس عندنا للمصاحف في هذا الحرف رواية، إلا أن الذي يجب في القياس أن يكون في مصاحف أهل مكة بغير ألف كما ذكرنا"، يُنظر: أبو داود، مختصر التبيين لهجاء التنزيل: 4/ 853.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 313.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 313.

الكثير وحسب، فعطف ما يدلُّ على النَّقص الخفيف، ليشمل النَّفي كلَّ نقصان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظُّلم والجور والهضم:

الظُّـلـمُ ضـررٌ لـيـس بـحـقٍّ، والجَور العدول عـن الـحـقِّ، والهضْمُ نقصانُه

الجَور خلافُ الاسْتقامَة في الحكم، وهو العُدُولُ عَن الحقِّ، ونقيضه العدْلُ، وهُوَ العُدُول بِالفِعْلِ إلَى الحقِّ، والظُّلم ضَرَرٌ لا يُسْتَحقُّ، ولا يعقِبُ عِوضًا، وأصل الظُّلم نُقْصانُ الحقِّ، ونقيضُه الإنصافُ، وهُوَ إعْطاءُ الحقِّ على التَّمام[1]، والهضم نقصانُ الحقِّ، يُقالُ: هَضَمت لَهُ مِنْ حَظّي طائِفَةً، أي: تركتُهُ، ويُقالُ: هَضَمَ لَهُ مِنْ حظِّه؛ إذا كسَر لَهُ مِنْهُ[2]، والمراد به في الآية الكريمة: النَّقصُ من الجزاء[3]، فالفرق بين الظُّلم والهضم: أنَّ الظُّلم قد يكون بمنع الحقِّ كلِّه، أمّا الهضمُ؛ فهو منعٌ لبعض الحقِّ، فكلُّ هضم ظلمٌ، وليس كلُّ ظلم هضمًا، فالآيةُ الكريمة بشَّرت المؤمنين بأنَّ اللّه تعالى سيوفّيهم أجورَهم يوم القيامة، بلا ظلمٍ أو نقص من ثوابهم[4].

(1) العسكريّ، الفروق: 231 - 232.
(2) ابن منظور، اللّسان: (هضم).
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 155.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرًا ١١٣﴾ [طه: 113]

بعد ذِكرِ العقاب والجزاء يوم القيامة بيَّن نزولَ القرآن الَّذي فيه حبلُ النَّجاة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ بشَّر النَّظمُ الجليل ما ينتظر المؤمنين يوم القيامة، من قبول أعمالهم وانتفاء الظُّلم عنهم، أتبعه بذكر تنزيل القرآن الكريم المتضمِّن الوعيد وبيان الحكمة من إنزالهِ، وهو تحقيق التَّقوى الَّتي ينتفع بها العبادُ في ذلك اليوم، ومن المناسبة أنَّه "لمَّا اشتملت هذه الآيةُ على الذَّروة من حسن المعاني، فبشَّرت، ويسَّرت، وأنذرت، وحذَّرت، وبيَّنت الخفايا، وأظهرت الخبايا، مع ما لها من جلالة السَّبك وبراعة النَّظم، كان كأنَّه قيل تنبيهًا على جلالتها: أنزلناها على هذا المنوال العزيز المثال"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَرَّفۡنَا﴾: (صرف) أصلٌ يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيْءِ، ومنه صَرْفُ الكَلامِ: تَزْيينُهُ والزّيادَةُ فيهِ، وإنَّما سُمّيَ بِذَلِكَ؛ لِأنَّهُ إذا زُيِّنَ؛ صَرَفَ الأَسْماعَ إلَى اسْتِماعِهِ، ويُقالُ لِحَدَثِ الدَّهْرِ: صَرْفٌ، والجَمعُ: صُرُوفٌ، وسُمّي بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ بِالنّاسِ، أيْ: يُقَلِّبُهُم، ويُرَدِّدُهُم[2]، وتَصريفُ الرّياح هو صرفُها من حال إلى حال، قال تعالى: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الأحقاف: 27]، وقال: ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾[3]، أي: ذكرنا الوعيد مكرِّرين له في أساليب مختلفة، وأفانين متنوِّعة[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(3) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنــزالُ الـقـرآن لـهـداية الـنّـاس وتحقيق التَّقوى والتَّذكُّر فيهم

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّ اللّه تعالى أنزلَ القرآن الكريم بعظمته وجلاله، وأنَّه وصفه بكونه عربيًّا مشتملًا على ضروبٍ من الوعيد، مبيِّنًا الغاية من ذلك، رجاء أن يتَّقي النّاس الكفر والمعاصي، أو رجاء أن يُحدِثَ القرآن في نفوسهم اتِّعاظًا واعتبارًا يصرفُهم عن التَّردّي فيما تردَّتْ فيه الأمم السّابقة مِن آثام وموبقات أدَّتْ إلى هلاكهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في صدر الآية:

تـفـخـيـمُ شـأنِ القرآنِ كلِّه بعد التَّنويه بقصصهِ

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾، على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾، وفائدة هذا العطف التَّنويهُ بشأن القرآن، فقد نوَّه بالقرآن جزئيًّا؛ وذلك بالتَّنويه بقصصه، ثمَّ عطف عليه التَّنويه به كليًّا[2].

دلالةُ الكافِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

فـخـامـةُ نـزولِ بـعـض الـقـرآنِ كـفـخـامة نـزول كلِّهِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالكاف الدّالَّةِ على التَّشبيه، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ للدَّلالة على التَّمثيل بين إنزال الآيات السّابقة المشتملةِ على الآداب والأحكام والقصص، وبين ما أنزل اللّه تعالى على النَّبيِّ ﷺ، أي: "أنزلنا عليك - يا محمد ﷺ - القرآنَ كلَّه، فما نزل منه متأخِّرًا، يشبه في هدايته وإعجازه ما نزل منه متقدِّمًا"[3].

بيانُ المشارِ إليه بلفظ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

إنــزالُ الـقـرآن مثلُ إنزالِ الآيات السّابقة

عبَّر النَّظمُ الجليل باسم الإشارةِ، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 312 - 313.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 156.

﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ إشارةً إلى "إنزال ما سبق من الآيات المتضمِّنة للوعيد المنبئةِ عمّا سيقع من أحوالِ القيامةِ وأهوالِها، أي: مثلَ ذلك الإنزالِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾"[1].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالفعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾:

إنزالُ القرآنِ هدايةٌ دائمةٌ، ومعاملة من الله قائمة

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّق الإنزالِ، وهو الأنسبُ في سياق تفخيم شأنِ القرآن، "وكونه مركوزًا في العقول حاضرًا في الأذهان قُرْآنًا عَرَبيًّا ليفهمه العربُ، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدّال على كونه خارجًا عن طوق الآدميين نازلًا من رب العالمين"[2].

عودُ الضَّمير المنصوب في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾:

حضرَ في الأذهان فأغنى عن ذكره في السّياقِ

عبَّر النَّظمُ الجليل عن القرآن الكريم بالضَّميرِ من غيرِ ذكرٍ سابقٍ له، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وذلك للإيذانِ "بنباهةِ شأنِه وكونِه مركوزًا في العقول، حاضرًا في الأذهان"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿قُرْءَانًا﴾:

القرآنُ المتنزِّلُ جامعٌ لكلِّ المعاني والهدايات الرّاشدة

عبَّر النَّظمُ الجليل عن الذِّكر الحكيم المنزَّل من جنابه الجليل بلفظ القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه جامعٌ لجميع المعاني الحكيمة[4]، ثمَّ إنَّ المرادَ به القرآنُ، كمعجزةٍ في ذاته، سواء أُنزِلَ دفعةً واحدة أم منجَّمًا، فكان التَّعبيرُ بـ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، وعندما كان ينزل لبيان الشَّرع ولحفظ آية آية، كان التَّعبيرُ بـ ﴿نَزَّلْنَا﴾ [البقرة: 23]، وهنا بيانُ أنَّهُ معجزةٌ، وأنَّهُ جاء مبشِّرًا ومنذرًا ينتفع به المتَّقون، ويُذكَّر به غيرهم ليكون لهم نذيرًا[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 44.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 576.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 44.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4793.

دلالةُ وصفِ القرآنِ بلفظ ﴿عَرَبِيًّا﴾:

إقامةُ الحجَّةِ على المخاطَبين بإنزال الكتابِ بلغتهم

وصف النَّظمُ الجليل القرآن الكريمَ بكونه عربيًّا، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ البيان فيه كائنٌ لكلِّ مَن له ذوقٌ ومعرفة باللِّسان العربيِّ وأساليب العربيَّة[1]، والمراد من ذلك الوصفِ بيانُ أنَّه جاء بلسانهم، فلا يعجزهم فهمُه، وأنَّه بيَّن لأفهامهم، وذلك لإقامة الحجَّة عليهم، ليهلك من هلك عن بيِّنة.

سرُّ إيثارِ الفعل ﴿وَصَرَّفۡنَا﴾ في السّياق:

كثرةُ الوعيد وتنويعُه إقامةٌ للحجَّة وإيقاظٌ من الغفلة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل (صرَّفَ) مضعَّفَ العينِ، في قوله تعالى: ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾؛ للدَّلالة على كثرة التَّغييرِ والتَّبديل والتَّنويع في أساليب الوعيد، فكرَّر النَّظمُ الجليل الوعيدَ بأساليب مختلفة[2]، والغرض من ذلك بيانُ أنَّ الحجَّة قائمة، والعذر بالجهل منتفٍ.

علَّةُ فصل جملة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ عمّا قبلها:

علَّةُ التَّصريفِ حثُّ النّاس على التَّقوى

فصل النَّظمُ الكريمُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرًا﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا تعليليًّا، فكأنَّه قيل ما الغرضُ من هذا التَّصريف وما علَّتُه؟ فقيل: الغرضُ من ذلك إحداثُ التَّقوى في النّاس.

دلالةُ ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ في السّياق المحكمِ:

الغايةُ من الوعيدِ رجاءُ حصول الإيمان والتَّقوى في النّاس

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الرَّجاء (لعلَّ)، في قوله تعالى: ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرًا﴾؛ لبيان الثَّمرةِ المرجوَّة من الوعيد، والغاية السّامية منه، فبعد ذكر الوعيد؛ ذكرَ المرجوَّ منه؛ لبيان أنَّ النّاظر لهم بعد الوعيد، يكون في رجاء لأن يتَّقوا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.

دوامُ التَّقوى واستقرارها مقصدٌ من مقاصدِ القرآنِ الكريم

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ من إنزال القرآن الكريم، وتصريف الوعيد، فيه إيجادُ صفة التَّقوى في المخاطَبين، على سبيل التَّجدُّد والاستمرار، أي: "رجاء أن يتَّقوا، ويكونوا به في عداد من يجدِّد التَّقوى كلَّ حين، بأن تكون له وصفًا مستمرًّا"[1].

حِكَمُ إنزال القرآنِ عديدةٌ متنوِّعة

دلالةُ عطفِ جملة بالحرف ﴿أَوۡ﴾ دون الواو:

عطف النَّظمُ الكريم عطفَ رجاءٍ لإحداث الذِّكر على التَّقوى[2]، في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾، وقد آثر أن يكونَ العطفُ بـ ﴿أَوۡ﴾ دون الواو؛ لأنَّه لم يرد اجتماعُ الأمرين في المدعوّين، بل يكفي حدوث أحدهما، وذلك لأنَّ الانتفاعَ يتحقَّقُ بأحدهما، فالمرادُ أن يكونوا في عداد المتَّقين، أو أن يكونوا أقلَّ من المتَّقين بأن يجدِّد لهم التَّصريفَ تذكيرًا بطرقِ الخير، فيكون سببًا للخوف الحاملِ على التَّقوى[3]، وقد أفاد هذا العطفُ ذِكرًا لحكمة أخرى من الحِكَم الَّتي من أجلها أنزل الله القرآنَ الكريم[4].

بيانُ أنَّ ذِكرهم إنَّما حصلَ بالقرآن لا قَبْله

سرُّ العدولِ عن (يُذَكِّرُهم) إلى ﴿يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بإحداث التَّذكير دون التَّذكير مباشرة، في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾؛ وذلك للإيماء إلى "أنَّ الذِّكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآنُ أوجد فيهم ذكرًا لم يكن من قبلُ"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 428.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 351.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 156.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 315.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّصريف والتعدُّد:

التَّصريفُ كثرةٌ بتنويعٍ، والتَّعدُّد كثرةٌ بتكرارٍ

التَّصريفُ من (صَرَفَ) أصلٌ يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيْءِ[1]، وتَصْريفُ الرّياح هو صرفُها من حال إلى حال[2]، أي: ذكرنا الوعيد مكرِّرين إياه في أساليب مختلفة وأفانين متنوِّعة[3]، أمّا التَّعَدُّدُ؛ فهو الكَثْرَةُ، وأصل العَدِّ - وهو الإحصاءُ - مِن: عَدَّ الشيْءَ يَعُدُّه عَدًّا وتَعدادًا[4]، فالتَّعدُّد يدلُّ على العدِّ والإحصاء بلا دلالة على التَّنويع، أمّا التَّصريفُ؛ فيدلُّ على التَّكثير مع التَّنويع والتَّغيير، فالكثرة في التَّصريف من كثرة الأساليب، أمّا التَّعدُّد؛ فالكثرةُ فيه من تكرار الفرد.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).

(2) الرّاغب، المفردات: (صرف).

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 350.

(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (عدد).

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربْطُ شقاءِ المعرضين عن ذكر الله ببيان عَظَمَةِ المُنْزِل، وعَظَمَةِ المُنَزَل

بعد أن قدَّمَ النَّظمُ الكريم القولَ بسلطان اللّه تعالى يوم القيامة، وبيَّن عِظمَ قدرته وذلَّة عبيده وحُسن تلطُّفه، وكان هذا من آثار ملكه؛ أردَفَهُ بأنْ عظَّمَ نَفسَهُ؛ تنبيهًا على ما يلزَمُ خَلْقَهُ مِن تَعظيمِه[1]، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾، أي: تقدَّس اللّه المتصرِّف بالأمر والنَّهي، الحقيق بأن يُرجى وعدُهُ، ويُخشى وعيدُهُ، وهو الثّابت الَّذي لا يزول، ولا يتغيَّر، فكيف لا يكون إنزال القرآن على من أنزل عليهم مؤدّيًا إلى الغاية الَّتي أُنزل لأجلها، وهي ترْكُهم للمعاصي، وفعلهم للطّاعات[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ﴾: أصلُ العجَلة: طلبُ الشَّيءِ وتحَرّيه قبلَ أوانِه، والعَجَلَةُ: الإسْراعُ في شَيْءٍ والمُبادَرَةُ إليَه، وتَعَجَّلَ تَفَعَّلَ مِنْهُ، و(تعجَّل) و(استعجل) مُضارعُه ومصدرُه كلُّه من العَجَلة، وهي السُّرعةُ ضدَّ البطءِ[3]، واستَعجَلتُ فُلانًا: حَثَثْتُه، وعَجلّتُه: سَبَقْتُه، والعجالةُ: ما تعجَّل من شيء[4]، ومن أمثالهم: (لا تعجلْ بالإنباض قبل التَّوتير)، وهذا مثلٌ في استعجال الأمر قبل بلوغِ إناه، ومعنى ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ﴾، أي: تأنَّ؛ إذا لقَّنك جبريلُ ما يُوحى إليك من القرآن،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 104، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 603.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 155.
(3) الرّاغب الأصفهانيُّ، المُفردات، السَّمين الحَلبيُّ، عُمدة الحفّاظ، ومحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل)، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/ 315.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجل).

ريثما يُسمعك، ويُفهمك، ثمّ أقبل عليه بالتَّحفُّظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقةً لقراءته(1).

2) ﴿يُقۡضَىٰٓ﴾: (قضي) أصل يدُلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجهته(2)، لقولِه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فُصِّلت: 12]، قضى يقضي قضاء وقضية، أي: حكم، وقضى إليه عهدًا، معناه الوصيَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء:4]، وعموم لفظ القضاء وما اشتُقَّ منه يأتي بمعنى: الحُكم(3)، وهو من الألفاظ المُشتَركة الدَّلالة، ويتعيَّن معناه بحسب السّياق الوارد فيه، ومنه الفراغ من الشَّيء بإتمامه وإنفاذه، حسَب المُراد أداء أو تحصيلًا، أو إتمامَ عمل(4)، والمعنى هنا في الآية: لا تقرأ القرآن، وهو يُوحى إليك مع جبريل من قبل أن يُتمِّم قراءته عليك، ويَفرُغ من وحيه إليك(5).

المَعْنى الإجْماليُّ:

تنزيهُ الله ذاتًا وصفاتٍ، وتوجيهُ الرَّسول إلى التَّأنّي وطلب الاستزادة من العلم

تنزَّه اللّهُ سُبحانه وتقدَّس عن كلِّ نَقْص، فهو الذي قهر سُلطانه كُلَّ ملكٍ وجبّار، المُتصرِّف بِكُلِّ شيءٍ، المُحِقُّ في ألوهيَّته وعظمته، وكلُّ شيءٍ منه حَقٌّ، الذي أنزل عليك الكتاب عربيًّا، فلا تُسرِع في تَلَقّي القرآن قبل أن يَفْرَغ جبريل من تلاوته عليه، ويُنهي إليك إبلاغه، وقُلْ: رَبِّ زدني عِلمًا إلى ما عَلَّمتَني(6)، ومفادُ ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يبادر فورًا إلى تحريك لسانه بالقرآن الذي نزل به جبريلُ عليه السلام، ويكرِّر ما تلاه عليه جبريل عليه السلام؛ للاستظهار وتثبيت الحفظ

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 90.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(3) الزّبيدي، تاج العَروس: (قضى).
(4) جبَل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قضى).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 240.
(6) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسيرِ القرآنِ الكريم، ص: 468، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسّر، ص: 320، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 320.

في قلبه الشَّريف، وذلك من شدَّة حرصه على حفظ ما يوحي إليه، فأرشده اللّه تعالى إلى ما هو أسهل عليه وأخفُّ، فقال له: فإذا قرأ عليك الملكُ القرآن؛ فاصغِ له بعناية، فإذا فرغ مِن ذَلك؛ فاقرأه بعده، واطلب من اللّه أن يفتحَ عليك، بأن يزيدك علمًا من لدنه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى﴾:

التَّدليلُ على علوِّ القرآن وكماله بذكر عُلُوِّ المُنزِل وجلاله

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾؛ للإفصاح عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ، تقديره: إذا كان قد أنزل القرآن، وصرَّف فيه من الوعيد؛ ليتَّقي من يتَّقي، وليُنْذِر من لم يتَّعظ، فإنَّ هذا يدلُّ على علوِّه وكمال حكمته[2]، والدّاعي لهذا البيان عن اللّه ﷻ ما في سوابقه من بيانات عن عظيم قُدرته وسُلطانه في كونه، وجليل حكمته في تراتيب جزاءاته، ولهذا جاء في صدر هذا البيان العطف بالفاء الدّالة على التَّرتيب التَّفريعيِّ، وفي تفريع ذلك على إنزالِ القُرآنِ إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ القُرآنَ قانونُ ذلك المَلِكِ، وأنَّ ما جاء به هو السّياسةُ الكاملةُ الضّامِنةُ صَلاحَ أحوالِ مُتَّبِعيه في الدُّنيا والآخرةِ[3].

بلاغةُ الاعتراضِ بجملة التَّنزيه والتَّقديس:

الثَّناء على اللّه مُنزِل القُرآن

جُملةُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [طه: 113]، وجُملةِ ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾، وهذا ثَناء على اللّه مُنزِّلِ القُرآنِ، وتلْقينٌ لشُكرِه على ما بيَّنَ لعِبادِه من وسائلِ الإصلاحِ، وحَملِهم عليه بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وتَوجيهِه إليهم بأبلَغِ كلامٍ وأحسَنِ أُسلوبٍ[4]، فعظَّم شأن القُرآن من وجهٍ، وهو عظمة

(1) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 2432.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4794.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 315 - 316.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 315 - 316.

شأن مُنزِلِه[1]، الَّذي تعالى في ذاته وصفاته، فليس كمثله شيءٌ، وهو الجدير بالتَّنزيه عن الحوادث والأعراض، والمتَّصف بصفات الجلال والجمالِ والكمال، حيثُ إنَّه الملكُ النّافذُ الأمر في خلقهِ، والمبدعُ لهذا الوجود[2].

سِرُّ استعمال الفعل ﴿فَتَعَـٰلَى﴾ مادَّة وصيغَةً:

بيان أنَّ تعظيمَ الخالق ناشئٌ عن عظيم ما أنزل على الخلائق

لفظة (تعالى) على وزن (تفاعل) من العُلوِّ، فما من مَرتبةٍ شريفة إلّا والحقُّ تعالى عنها، وفي التَّعبير بهذا الفعل استعظامٌ له سبحانه، ولشؤونه الّتي يصرف عليها عباده من الأوامر والنَّواهي والوعد والوعيد وغير ذلك، أي: ارتفع بذاته، وتنزَّه عن مُماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله[3]، وفيه تنبيهٌ على ما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده[4]، ولذلك نزَّه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شيءٍ من الأشياء، أو وصفٍ من الأوصاف، بل إنَّه قد جلَّ قدرًا، وتسامى مكانةً وعلوًّا عن إلحاد الملحدين، وإشراك المشركين، وتعطيل صفاته العليا من المعطِّلين الجاهلينَ، والمتطاولين الآثمين[5]، وفي التَّعالي إيذانٌ بأنَّ ذلك الإنزالَ والتَّصريفَ ووسائلَ الإصلاحِ ناشِئَةٌ كلُّها عن جَميلِ الآثار، الَّتي يُشْعِرُ جميعُها بعُلوِّه وعظَمَتِه، وأنَّه المَلِكُ الحقُّ المُدبِّرُ لأُمورِ مَملوكاتِه على أتَمِّ وُجوه الكَمالِ، وأنْفَذِ طُرقِ السّياسةِ[6].

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّم إلى الغيبة:

أسلوبُ التَّرهيب والتَّرغيب الرَّبانيِّ لغير المتَّعظ بالخِطاب القرآنيِّ

بلاغةُ الالتفات في الآية الكريمة نجدُها في تحوُّل الحديث من التَّكلُّم إلى الغيبة، فبعد أن كانَ الحديثُ بصيغة التَّكلُّم في قوله:

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 573.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4795.
(3) البروسويّ، روح البيان: 5/ 432، ومحمَّد أبو زهرة: 9/ 4794.
(4) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 214.
(5) القنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 8/ 282.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 315 - 316.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [طه: 113]، وما فيه مِنَ المَنِّ عليهم بهذا الإنزال بهذه الكيفيَّة، بما يُشبه التَّرغيب لهم في الإيمان به، والانقياد له؛ نجدُ هذه الآية تأتي بصيغة الغائب: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾، وذلك كالتَّرهيب بعد التَّرغيب، وفي ذلك ما فيه من التَّخويف لمن لم يتَّقوا اللّه تعالى، ولم يتَّعظوا بِعِظَة الخِطاب القرآنيِّ الحكيم الَّذي نزل بلُغتهم، ولا شَكَّ أنَّ التَّعبير بصيغة الغائب، يُلقي في النَّفس جلالةً ومهابةً من ذلك الإلـه المُتعالي المُتَّصِف بصفتَي المُلْكِ والحَقِّ[1].

دلالةُ إسنادِ ﴿فَتَعَٰلَى﴾ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

تربيةُ المهابةِ في النُّفوس بذكر اسم الجلالة النَّفيس

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾، أي: فتسامى اللّه العظيمُ الجليل في اتِّجاه العلوِّ عن كلِّ الأكوان، تساميًا لا حدود له، ولا نهاية له، فهو مترفِّع عن كُلِّ الصِّفات الَّتي لا تليق بجلاله وعظيم سُلطانه، ومنزَّه عن الحاجة إلى شيء ما لذاته أو لصفاته، وفي إسناد الفعلِ للاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مِن تربية المهابة في النُّفوس ما لا يخفى.

فائدةُ ذكرِ اسم ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ في السّياق:

الدَّلالةُ على السُّلطان النّافذِ استعظامٌ لمكانته العالية وأوامره السّامية

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾، أي: السُّلطان النّافذ أمرُه ونهيه، الحقيق بأن يُرجى وعْدُه، ويُخشى وعيده[2]، و﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ مبالغة من المالك؛ لأنَّ حقيقة المُلك القدرةُ على الإيجاد والانفراد بذلك[3]، فقد كان بتعاليه في ملكه قد "ارتفع عن فنون الظُّنون، وأوهام الأفهام، وتنزَّهَ عن مضاهاة الأنام، ومشابهة الأجسام"[4]، فاسم ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ استعظامٌ له، ولما يصرِّف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده والإدارة بين ثوابه وعقابه وغير ذلك، كما يجري عليه أمرُ ملكوته[5].

(1) ثناء الله المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 6/ 166.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 40، والبروسويّ، روح البيان: 5/ 432.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 479.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 385.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 573.

سِرُّ الجمع بَيْنَ لفظَي ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿ٱلْمَلِكُ﴾:

الإشارة إلى أنَّ إعظامه تعالى وإجلاله مُستحقّان له لعلوِّه وكماله

الجمعُ بين اسم الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ واسْمِه ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ إعْظامَه وإجلالَه مُستحقّانِ لِذاتِه بالاسم الجامِعِ لصفاتِ الكَمالِ، وهو الدّالُّ على انحصارِ الإلهيَّةِ وكَمالِها،[1] فاللّه له الملك وحده، لا يُشاركه فيه غيره، ولا يملك معه أحدٌ شيئًا، وهو سُبحانه المالكُ مُلْكًا حقيقيًّا لِكُلِّ موجود، وفي هذا المقطع من الآية تمجيدٌ للّه، وتنزيهٌ له؛ لأنَّه سُبحانه وحده المُستَحِقُّ للتَّنزيه والتَّمجيد والحمد؛ إذ خَلَقَ الوجود، وأقام كُلَّ مخلوق فيه، وهداه إلى ما هو أصلحُ له، ورسمَ للنّاس طريقَ الهُدى، وأبانَ لهم معالمَها، وبعث فيهم رُسلَهُ مُبشِّرين ومُنذرين[2].

فائدةُ ذكر لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

الإشـارةُ إلى دوام مُلكِ الله، والتَّعريض بزوال مُلْكِ سواه

في ذكر لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ القُرآن وما تضمَّنه من الوعد والوعيد حقٌّ كُلُّه، لا يحوم حول حِماه الباطلُ بوجه، وأنَّ المُحِقَّ من أقبل عليه، وأنَّ المُبْطِلَ من أعرض عن تدبُّر زواجره، وفيه تمهيدٌ لوصل النَّهي عن العجلة به، في قوله سُبحانه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، أي: أن يتمَّ تبليغ جبريل ﷺ إيّاه، فإنَّ من حقِّ الإقبالِ ذلك، وكذلك من حقِّ تعظيمه[3].

ومفهوم لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أنَّ مُلْكَ غيره باطل، أي: فيه شائبة الباطل؛ لا من جهة الجور والظُّلم؛ لأنَّه قد يوجد مُلْكٌ لا جور فيه ولا ظلم، كمُلك الأنبياء والخُلفاء الرّاشدين، بل من جهة أنَّه مُلْكٌ، غير مستكمل حقيقة المالكيَّة، فإنَّ كُلَّ من يُنسب إليه المُلْكُ - عدا اللّه تعالى - هو مالك من جهة، ومملوك من جهة أخرى، لما فيه من نقص واحتياج[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 316.
(2) الخطيب، التَّفسير القُرآنيّ: 8/ 830.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 577.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 316، 18/ 338.

بيانُ أنَّ وصفَي (المَلِك) و(الحَقّ) ثابِتانِ للّه تعالى على جهة الكمال

دلالةُ التَّعريفِ في اسمي ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ و﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾، أي: وحده الملكُ النّافذُ الأمر في خلقه، والمبدعُ لهذا الوجود الَّذي لا سلطان لأحد سواه، وكلُّ سُلطان لأحد في الأرض مُضطربٌ ينتهي إلى زوال، ومُحاسَب عمّا يفعل، ومجزيٌّ على عمله، وتدبيره وفكره العمليِّ، فاللّه هو المَلِكُ الحَقُّ الثّابت الَّذي لا يكون فوقه أحدٌ، وهو العدلُ الَّذي يُقدِّر كُلَّ شيء حَقَّ قدره[1].

اقترانُ المَلِكِ بالحَقِّ إشارةٌ إلى أنَّ تصرُّفه تعالى بالعدل والحقِّ

توجيهُ المتشابه بين هذه الآية وآيتي: (المؤمنون: 116) و(الفرقان: 26):

ذَكَرَ النَّظمُ الكريم هاتين الصِّفتين، وهي صفة ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ الَّتي تضمَّنت القهرَ والسلطانية، وأتبعها بصفة ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾، وهي الصِّفة الثّابتةُ له؛ إذ كلُّ مَن يُدعى إلهًا من دونه؛ فهو باطلٌ زائلٌ مُضمحِلٌّ مُلكُهُ، لا سيّما الإله الَّذي صاغوه من الحُليِّ، فجاء الاقترانُ في القرآن الكريم بين الوصف بالمَلِك والحقِّ في هذا الموضع، وفي سورة (المؤمنون): ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون:116]، وسورة الفُرقان: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الفرقان: 26]؛ فأمّا في سورة (المؤمنون)؛ فلأنَّه سَبَقَ هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 115][2].

وأمّا هُنا في آية طه وفي سورة الفرقان؛ فقد اشتركت الآيتان في مجيئهما في سياق ذِكر إرسال الرُّسل، وأخبارهم مع أممهم، ففي سورة طه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ [طه:99]، وفي الفرقان قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان:21]، واشتركتا في سياق ذكر أهوال يوم القيامة، وبيان عظيم قُدرة اللّه تعالى في تصريف أحوال

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4794.
(2) ابن القيم، التّبيان في أقسام القرآن: 405-404.

الكون فيها، فناسب ذكر تعاليه، ووصفه بالصِّفتين المذكورتين[1]، فمن المحال المُمتنع عند كلِّ ذي فطرةٍ سليمةٍ، أن يكون ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ عاجزًا أو جاهلًا لا يعلم شيئًا، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلَّم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يُثيب، ولا يُعاقب، ولا يُعِزُّ من يشاء، ولا يُذِلُّ من يشاء، ولا يُرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها، ولا يعتني بأحوال رعيَّته، بل يتركهم سدًى؛ ويُخلّيهم هملًا، وهذا يقدح في مُلك آحاد البشر، لا يليق به، فكيف يجوز نسبة المَلِك الحقِّ المبين إليه[2].

سِرُّ العطف بالنَّهي عن التَّعجُّل في تلقّي القرآن الكريم:

التَّريُّثُ في التَّلقّي تنويهٌ بالقُرآن وتصاريفه المثلى لإصلاح النّاس

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾، على قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾؛ لما فيه للتّعجيب، فكأنَّه قيل: (حيث نُبِّهْتَ على عظمة جلالة المُنْزِل، وأُرشِدْتَ إلى فخامة المُنْزَل، فعَظِّم جنابَ الملك الحقِّ المُتَصَرِّف في المُلك والملكوت، وأقبل بِكُلِّكَ على تَحَفُّظ كتابه وتحقُّق مبانيه، ولا تعجل به)[3].

ولمّا كانتِ الآياتُ السّابقة في ذمٍّ من أعرض عن هذا الذِّكر؛ كان التقدير: (فلا تعرض عنه، بل أقبل عليه؛ لتكون من المُتَّقين الذّاكرين)، ولمّا كان هذا الحثُّ رُبَّما اقتضى للمُسابق في التَّقوى المُبالغة في المبادرة إليه، فيستعجل بتَلَقُّفه قبل الفراغ من إيحائه؛ قال عاطفًا على هذا المُقَدَّر: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أي: بتلاوته[4].

بلاغةُ الالتفاتِ بتوجيه الخِطاب إلى النَّبيِّ الكريم ﷺ:

تلوينُ الخِطاب وحملُهُ له على زيـادة الإصـغاء والتَّلَبُّث

كان النَّبيُّ ﷺ إذا ألقى جبريل عليه الوحيَ؛ يتبعُهُ عند تلفُّظ كلِّ حرف، وعند تلفُّظ كلِّ كلمة؛ لكمال اعتنائه بالتَّلقّي والحفظ، فنُهي عن ذلك؛ لأنَّه رُبَّما يشغله التَّلفُّظ بكلمة عن سماع ما بعدها،

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 7/ 387.
(2) ابن القيّم، الداء والدواء: 56-55.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 577.
(4) الجرجانيّ، درج الدّرر: 2/ 296، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 352.

ولأنَّ المرادَ من الألفاظ فهْمُ المعاني المُتضَمِّنَةِ للعلوم الَّتي لا حصر لها، ولذلك أمره باستفاضة العلم، ثُمَّ استزادتِه منهُ في قوله: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾[1].

النَّهيُ في الآية عن التعجّل بالقرآن:

التَّوجيهُ لحسن استماعِ الوحي إبعادٌ للمخاوف مِنَ الفوات أو النِّسيان

النَّهيُ نوعٌ مِن أنواع الإنشاء الطَّلبيِّ، وهو استدعاءُ مطلوبٍ غيرِ حاصل وقتَ الطَّلَبِ[2]، والنَّهي هُنا نهي الرَّسولِ الأكرم ﷺ عن الاستعجال في تلقّي الوحي من جبريل عليه السلام، ومُساوقته في القراءة، حتَّى يتمَّ وحيه بعد ذِكر الإنزال عليه، فتبليغ المُجمل وتلاوته قبل البيان مِمّا لا ريب في صِحَّته ومشروعيَّته[3]، والمنهيُّ عنه هو سؤال التَّعجيل أو الرَّغبة الشَّديدة في النَّفس الَّتي تشبه الاستبطاء، لا مُطلق مودَّة الازدياد[4]، وهذا كلُّه تطمينٌ للنَّبيِّ، وإزالةٌ لمخاوفه من أن يفوته شيءٌ من كلام ربِّه، فاللّٰه سبحانه وتعالى سيقرئه، وسيحفظ عليه ما قرأ، فلا ينسى[5].

دلالةُ لفظ التَّعجُّل وسِرُّ التَّعبير به:

التَّأنّي عند سماع القرآن تنوُّرٌ بأنواره، وكشفٌ لحقائقه وأسراره

عبَّر النظمُ الكريم بالتعجيل؛ لبيان حرصِ النَّبيِّ ﷺ على تلقّي الوحي من جبريل عليه والسلام، واستعجاله في تَكرار ما يُلقى عليه من الوحي عند تَلَفُّظ كُلِّ حرف وكُلِّ كلمة؛ لكمال اعتنائه بالتَّلقّي والحفظ، فنُهي عن ذلك؛ إذ ربَّما يشغلُه التَّلفُّظ بكلمة عن سماع ما بعدَها، والمعنى: (لا تعجل بقراءة القرآنِ خوفَ النِّسيان والانفلات، قبل أن يستتمَّ جبريل قراءتَهُ، ويفرغ من الإبلاغ والتَّلقين، فإذا بلغ؛ فاقرأه)، وفيه إشارة إلى سكوته عند قراءة القرآنِ واستماعه، والتَّدبُّر في معانيه وأسراره، للتَّنوُّر بأنواره، وكشف حقائقه[6].

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 424.
(2) الحنفيّ، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/ 50.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 577.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 316 - 317.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 8/ 831 - 832.
(6) البروسويّ، روح البيان: 5/ 432.

بلاغةُ الحذفِ في قوله: ﴿بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

دلالـةُ السّياق ولـفـظ الـقُـرآن أنَّ المُــراد به الاسـتـعـجـالُ بتلاوة آياته

قوله تعالى ﴿بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أي: بتلاوة آيات القُرآن الَّتي يُوحى بها إليك رسولُ ربِّك جبريل، ولفظ (القرآن) هو في الأصل مصدرٌ لفعل (قرأ)، يُقال: قرأ الكتابَ يقرؤه قراءة، وقرآنًا، أي: تتبَّع كلماتِه نظرًا، ونطق بها[1]، ففُهِمَ من السّياق ولفظ القُرآن أنَّ المُرادَ به الاستعجالُ بتلاوة آياته، وهو المُوافق لسبب النُّزول، وقد أشار صاحبُ إرشاد العقل السَّليم إلى أنَّ الاستعجال كان بمبادرة الرَّسول ﷺ إلى اتِّباع جبريل عند تلفُّظ كلِّ حرفٍ وكلِّ كلمةٍ؛ لكمال اعتنائه بالتلقّي والحِفظ، فنُهِيَ عن ذلك إثرَ ذكرِ الإنزال بطريق الاستطرادِ؛ لِما أنَّ استقرارَ الألفاظِ في الأذهان تابعٌ لاستقرار معانيها فيها لدى الإنسان، وربَّما يَشغَل التَّلفُّظ بكلمةٍ عن سماع ما بعدها[2]، ومعقدُ ذلك كلِّه هو تلاوةُ الآيات المعبَّرِ عنها في السّياق بالقرآن.

دلالةُ التَّعبيرِ بشبه الجُملة ﴿مِن قَبۡلِ﴾:

الـظَّـرفـيَّـةُ المـخـصـوصـة بـحـال الـتَّـلـقّي لـلـقُـرآن ملمَحٌ مفيدٌ في البيان

أتى النَّظمُ الكريم بالظرف ﴿مِن قَبۡلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾؛ لبيان أنَّ المنهيَّ عنه هو سؤالُ التَّعجيل، أو الرَّغبة الشَّديدة في النَّفس الَّتي تشبه الاستبطاء، لا مُطلق مودَّة الازدياد[3]، فلمّا كان النَّهي السّابق عامًّا لجميع الأوقات القبليَّة؛ دلَّ عليه بالجارِّ؛ لئلّا يُظَنَّ أنَّه خاصٌّ بما يستغرق زمان القَبْلِ جملةً واحدة[4].

نكتةُ إيثار المصدر المؤوَّلِ على الصَّريح:

الإشـــارةُ إلى فاعل الانقضاء والمُوحى به

معلوم أنَّه ﵇ لم يُنهَ عن قراءته؛ لأنَّهُ مبعوث لأمته ومُكلَّفٌ بحفظه وتبليغه، فدلَّ ذلك على أنَّ المَنهيَّ عَنهُ استِعجالٌ مَخصُوصٌ،

(1) القنّوجي، فتح البيان: 4/ 374.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 44.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 316.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 352.

فالمُراد إذًا ألّا يبعثَ نفسه، ولا يبعث غيره على الاستعجال حتى يتبيَّن بالوحي تمامه أو بيانه، أو هُما جميعًا؛ لأنَّه يجب التَّوقُّف في معنى الكلام، ما لم يأتِ عليه الفراغُ[1]، والحكمة في تلقّي رسول اللّه عن جبريل ظاهرًا، أنَّه يكون سُنَّة متَّبعة لأمَّته، فهم مأمورون بالتَّلقّي من أفواه المشايخ، ولا يُفلِحُ من أخذ العلم أو القرآن من السُّطور، بل التَّلقّي له سِرٌّ آخرُ[2]، فعبَّر النَّظم الكريمُ بالمصدر المؤوَّل: ﴿أَن يُقۡضَىٰٓ﴾؛ للإشارة إلى فاعل الانقضاء والمُوحى به، وهذا ما لا يدلُّ عليه المصدر الصَّريح.

بلاغةُ صيغةِ المبني للمفعول ﴿يُقۡضَىٰٓ﴾:

التَّدليلُ على أنَّ القرآنَ يُقضى تنزيلُهُ من لدن الله المنّان

في التَّعبير بالفعل المبنيِّ للمفعول ﴿يُقۡضَىٰٓ﴾ دليلٌ على أنَّ القرآن ليس مِن كلام النَّبي ﷺ، بل هو تنزيل من عند اللّه؛ لأنَّ المعنى: مِن قبل أن يُنهى إليك وحيُ النَّجم على لسان أمين الوحي جبريل عليه السلام، يُقال: قضى إليه أمره، أي: أنهاه إليه، وفيه إشعارٌ بأنَّ الوحي من عند اللّه، وانقضاؤه إلى النَّبيِّ ﷺ بتمام تلاوة الملك له، ولو كان من عنده؛ لما وجَّه لنفسه النَّهي عن التَّعجُّل قبل أن يُقضى إليه وحيُه.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءة ﴿نَّقۡضِيَ﴾ مَبنيًّا للفاعل:

تعظيمُ الوحي وفحواهُ بالإشارة إلى عظمة من أوحى به وقضاه

قرأ يعقوبُ ﴿نَّقۡضِيَ﴾ بالنُّون على صيغة التَّعظيم والبناء للفاعل، و﴿وَحۡيَهُۥ﴾ بالنَّصب على المفعوليَّة[3]، أي: نقضيه منَ الملك النّازل إليك من حضرتنا به، كما أنّا لم نعجل بإنزاله عليك جملة، بل رتَّلناه لك ترتيلًا، ونزَّلناه إليك تنزيلًا مفصَّلًا تفصيلًا، وموصَّلًا توصيلًا، فاستمع له ملقيًا جميع تأمُّلك إليه، فإذا فرغ؛ فاقرأه، فإنّا نجمعه في قلبك[4]، وقد نهاه اللّه عنِ المُعاجلة حتّى يُقضى إليه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 160، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 104.

(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/ 442.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 322.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 352.

وحيه، على نحو قوله: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القيامة:16]، وقيل: المعنى: ولا تُلْقِه إلى النّاس قبل أن يأتيَك بيانُ تأويله، والتّنوُّع في القراءة القرآنيَّة يتغيَّر بها الفعلُ من صيغة إلى أخرى، فتتنوَّع بها الدَّلالة، ويتحقَّقُ بها المراد. وقد تكاملت القراءتان لتطمين نبينا ﷺ؛ فمَن قضى الوحي بقدرته وعظمته - بذاته العلية، أو بأمره لجبريل - قادر على تثبيته في قلبك.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾:

تقدَّمتْ شبهُ الجُملة ﴿إِلَيۡكَ﴾ في هذا المقام، للدّلالة على كمال الاعتناء بالنَّبيِّ ﷺ، وأنَّ هذا الكتابَ مُنزَّلٌ إليه من دون النّاس، ومخصوصٌ به دون غيره، وفيه من كمال التَّشريف والعناية ما فيه[1].

دلالةُ الواو وعطف النَّهي بالأمر:

الرِّباطُ الجامعُ بين القرآن والعلم، والتلطُّف بالنَّبيِّ ﷺ

عطف جُملة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ يُشير إلى أنَّ المنهيَّ عنه استعجالٌ مخصوصٌ، وأنَّ الباعث على الاستعجال محمودٌ، وفيه تلطُّفٌ مع النَّبيِّ ﷺ؛ إذ أتبع نهيه عن التَّعجُّل الَّذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزّيادة من العلم، فإنَّ ذلك مجمعُ كلِّ زيادة سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي والإلهام والاجتهاد تشريعًا وفهمًا؛ إيماءً إلى أنَّ رغبته في التَّعجُّل رغبةٌ صالحة[2]، ولذلك فإنَّه على قدر إحاطة العلم يكون شمولُ القدرة، وفي هذا دليل على أنَّ التَّأنّي في العلم بالتَّدبُّر، وبإلقاء السَّمع أنفعُ من الاستعجال المتعبِ للبال المكدِّر للحال، وأعونُ على الحفظ، فمَن وعى شيئًا حقَّ الوعي؛ حفظه غايةَ الحفظ"[3].

(1) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 39.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 317.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 353.

الـتَّرغـيـبُ في الـعـلـم والاستزادة منه دفْعٌ لتوهُّم تركه بـترك العجلة فيه

بلاغةُ الجمعِ بين الأمر والنَّهي في السِّياق:

قولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾، أي: سَلِ اللّه زيادةً في العلم دون استعجال بتلاوة الوحي، فإنَّ ما أُوحي إليك يبقى لا محالة[1]، ولمّا كانت عجَلَتُه ﷺ إلى تلقُّفِ الوَحي، ومُبادرتُه إليه تدُلُّ على محبَّتِه التّامَّةِ للعِلمِ وحرصِه عليه؛ أَمَرَهُ اللّه تعالى أن يسألَهُ زيادةَ العِلم، والطَّريق إليها الاجتهادُ، والشَّوقُ للعلم، وسؤالُ اللّه، والاستعانةُ به، والافتقارُ إليه في كلِّ وقت[2].

بلاغةُ الحذفِ في سياق لفظ ﴿رَّبِّ﴾:

إسقاطُ حرف النِّداء (يا) في الدُّعاء يُشعر بقُرب المُنادى سُبحانه، بخلاف دُعاء اللّه سُبحانه لعباده، فإنَّه غالبًا ما يأتي بحرف النِّداء الياء المُشيرةِ إلى أنَّه سُبحانه موصوف بالاستعلاء[3].

طلبُ التعلُّم يناسبه مقام الربوبيَّة

إيثارُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة في مقام الدُّعاء:

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾، أي: المُحسن إليَّ بإفاضة العلوم عليَّ، القائم بأمور عباده وإصلاحها، فلمّا كان العبد مُتعلِّقًا بمن شأنه التَّربية والرِّفق والإحسان؛ قالَ: يا مَن هو المُصلِح لشؤوننا على الإطلاق زدني علمًا[4]، وهو مُتضمِّنٌ التواضعَ للّه تعالى، والشكر له عند ما علم من ترتيب التعلُّم، أي: علَّمتني - يا ربُّ - لطيفةً في باب التعلُّم وأدبًا جميلًا ما كان عندي، فزدني علمًا إلى علم، فإنَّ لك في كل شيء حكمة وعلمًا[5].

التَّدليلُ على فضيلة العلم علَّةٌ للاستزادة منه والنَّهل من معينه

سرُّ إيثارِ طَلَبِ الزّيادة من العلم:

في طلب الزّيادة من العلم دليلٌ على فضْلِ العِلْم، فلم يَقُلْ سُبحانه

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 155.

(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 514.

(3) الشّاطبيُّ، الموافقات: 4/ 203.

(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 353، والشّاطبيّ، الموافقات: 4/ 203.

(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 90.

لِنَبيِّه ﷺ: (وقلْ ربِّ زدني مالًا)، بل قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، فكفى بهذا شرفًا للعلم بأنْ أمَرَ نبيَّه أن يسألَهُ المزيدَ منه[2]، وقد قيل: ما أمَر اللّهُ رَسولَه بطَلَبِ الزّيادةِ في شَيءٍ إلّا في العِلم[3].

دلالةُ فعل الدُّعاء ﴿زِدْنِي﴾:

فضيلةُ الدُّعاء وإظهار التَّضرُّع والخضوع من مقاصد هذا التَّركيب

أرشدَ النَّظمُ الكريمُ رسولَ اللّه ﷺ إلى طلب الاستزادةِ من العلم؛ لأنَّه أفضل ما يُسأل، وأعزُّ ما يُطلب، فأمرَهُ بالاستغاثة بربِّه المُنعم المُحسِن المُتفضِّل بندائه باسم الرُّبوبيَّة، وهذا يشير إلى أنَّ ما يأتي بعده من الطَّلب لا بدَّ أن يكون أمرًا غيرَ حقيقيٍّ، فاللّه سُبحانه لا يُؤمر، ولكن تُرفَعُ إليه الأكفُّ ضارعةً مفوِّضةً أمرها إلى خالقها القادرِ على كلِّ شيء، وهذا الطَّلبُ يَظهرُ فيه معنى التَّواضعِ للّه تعالى، والشُّكر له على ما أنعمَ عليه[4].

الفُروقُ المُعجَميَّة:

العلوُّ والتَّقديس:

التَّقديسُ تنزيهٌ عن النَّقص وتطهير، والعلوُّ ارتفاع في المكان والمكانة أثير

التَّقديس: القاف والدّال والسّين، تدلُّ اشتقاقاتُها على الطُّهرِ[5]، والتَّقديس: التَّطهير[6]، ومِنْهُ: الأرض المُقدَّسة، أي: المطهَّرة[7]، ومِنْهُ اسمُ اللّه القُدُّوس، ومعناه: المُعَظَّم المنزَّه عن كلِّ سُوء، السّالمُ مِن مُماثلة أحدٍ مِن خلقِه ومِنَ النُّقصان، ومِن كلِّ ما ينافي كمالَهُ[8]، فالتَّقديس: تنزيهُ الشَّيْء عن النَّقص، ولا يختصُّ به سُبحانه، بل يُستعمل في حقِّ الآدميّين، وفي حقِّ غير العاقل أيضًا، كما في الآية

(1) العثيمين، شرح رياض الصّالحين: 5/ 415.
(2) ابن القيّم، مفتاح دار السَّعادة: 1 50.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 90.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 90.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدس).
(6) الجوهريّ، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة: (قدس).
(7) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قدس).
(8) سعيد القطحانيّ، الثَّمر المُجتَنى، ص: 68.

الكريمة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة:21]، يُقال: فلانٌ رجل مُقدَّس؛ إذا أُريد تبعيدُه عن مُسقِطات العدالة، ولا يُقال: رجلٌ مُتعالٍ[1].

أمّا التّعالي؛ فهو ارتفاعُ الشَّيءِ فوق شيء تحته أو أدناه، كما هو واضح في الاستعمالات اللُّغويَّة، وكلُّ استعمالات التَّركيب ترجع إلى هذا العلو علوًّا ماديًّا، مثل قوله: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾ [المطفِّفين: 18 - 19]، أي: عليٌّ في السَّماء السّابعة في أعلى الأمكنة، أو علوًّا معنويًّا أو صالحًا لهما، والسّياق يُبيِّنُ المراد، ومنه عَلا فلانٌ فلانًا: قَهَرَهُ، والعُلُوُّ: التَّكبُّر والعظمة والشَّرف، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾ [الإسراء: 4]، ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [طه: 64]، والعلوُّ والتَّعالي قد يكون مذمومًا في صفات المَخلوقين.

أمّا العلوُّ في حقِّ اللّه تعالى؛ فهو مدحٌ وثناء ولا يوصف بالعُلوِّ المُطلق على وجه الثَّناء والكمال إلّا اللّه تعالى.

التَّعَجُّل والتَّسَرُّع:

العجلةُ طلبُ الشَّيءِ وتحَرّيه قَبلَ أوانِه، والتَّسَرُّعُ التَّصرُّفُ دونَ تفكيرٍ ولا رَويَّةٍ

التَّعجيلُ: سَبْقٌ بتحصيل الشَّيء قبل وقته وتحَرّيه قَبلَ أوانه[2]، والعَجَلةُ ضِدُّ الأناةِ، وهي الإسراعُ الباعثُ على الإقدام بأوَّلِ خاطرٍ[3]، واستعجَلْتُه، أي: حَثَثْتُه وأمَرْتُه أن يَعْجَلَ في الأمرِ[4]، وعَجِلْتُ الشَّيءَ سَبَقْتُه: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: 150]، أي: أَسَبَقْتُموه، فالعجلة من السُّرعة ضدَّ الأناةِ والبُطء[5]، فيُقالُ: عَجِلَ في الأمرِ: اندَفَع،

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 125.
(2) الرّاغب، المفردات: (عجل).
(3) البركتيّ، التّعريفات الفقهية، ص: 143.
(4) الخليل، العين: (عجل).
(5) محمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/ 1412.

ومنه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: 84]، فالعَجَلةُ تنقَسِمُ إلى قِسمَين: الأَوَّلُ: عَجَلةٌ مذمومةٌ، وهي العَجَلةُ فيما كان المطلوبُ فيه الأناةَ، والثّاني: عَجَلةٌ محمودةٌ، فيما يُطلَبُ تعجيلُه من المسارعةِ إلى الخيراتِ ونحوِها[1].

أمّا التَّسَرُّعُ؛ فهو من السُّرعةِ الَّتي هي نقيضُ البُطءِ، يُقالُ: تَسَرَّع إلى الشَّيءِ، أي: أسرَع وبادَر، وتسَرَّع الشَّخصُ: تعَجَّل، وتصَرَّف بدونِ تفكيرٍ ورَويَّةٍ، وتسَرَّع إلى الشَّرِّ: عَجِلَ[2]، والملاحَظُ أنَّ هاتين الصِّفتين تشترِكان في التَّصرُّفِ بسُرعةٍ، ولكِنَّ التَّسَرُّعَ يكونُ التَّصرُّفُ فيه دونَ تفكيرٍ ورَويَّةٍ، فهو مذمومٌ دائمًا، أمّا العَجَلةُ؛ فإنَّها تفترِقُ عن التسرُّع في أنَّ منها ما يكونُ مذمومًا، ومنها ما يكونُ محمودًا.

(1) الصّنعانيّ، سبل السّلام: 2/ 681.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾

[طه: 115]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ الأمرِ بالتَّأنّي في تلقّي القرآن والاستزادة من العلم بقصّة نسيان آدم

لمّا كانت قصّة مُوسى عليه السلام مع فرعونَ وقومه ذاتَ عِبرةٍ للمُكذِّبين والمُعاندين الَّذين كذَّبوا النَّبيَّ ﷺ، وعاندوه، وذلك المقصودُ من قصصها، فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ استحبَّ الزّيادة من هذه القصص ذاتِ العِبرة رجاءَ أن يفيق قومُهُ من ضلالتهم؛ أُعقِبت تلك القِصَّةُ بقصَّة آدم عليه السلام، وما عرض له به الشَّيطان تحقيقًا لفائدة قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾، وكذلك لمّا تقدَّم ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ [طه: 99]، فعظَّم أمرَ القرآنِ، وبالَغ فيه؛ وذكَر هذه القصَّة إنجازًا للوعدِ[1].

وكذلك فالآية السّابقة نبّهت النبيّ ﷺ للوفاء بتبليغ القرآن على الوجه الذي أراد اللّه تعالى، وذلك من خلال التّثبّت أثناء تلقّي الوحي، فهو عهد حريٌّ الوفاء به على أكمل كماله، وأتمِّ تمامه، فجاءت بعد ذلك صورة يمكن أن تحدث له إذا لم يتثبَّت ممّا يتلقّى من آيات ربِّه سبحانه وتعالى، وهذه الصورة هي ما ذُكِرَ من عهد آدم عليه السلام[2].

انتظام الآية في سياق القصص للسورة

وجملة: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ﴾ تأتي تذييلًا لقصَّة هارون مع السّامريِّ، وقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: من قبل هارون، والمعنى: أنَّ هارون لم يكن له عزمٌ في الحفاظ على ما عهد إليه موسى، وانتهت القِصَّة بذلك التَّذييل، ثُمَّ عطف على قصَّة مُوسى قصَّة آدم؛ تَبَعًا لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ [طه: 99][3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 10.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 8/ 833.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 320.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَهِدْنَآ﴾: (عهد) أَصْلٌ يدلُّ على الاحتِفاظِ بِالشَّيءِ وإحداثِ العَهْدِ بِهِ، والعَهْدُ يأتي في أشياء مُختلفَة: فمنها الحِفاظُ ورعايةُ الحُرْمَة، ومِنْها الوصيَّةُ؛ وإنَّما سُمّيَت بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ العَهْدَ مِمّا يَنْبَغي الاِحْتِفاظُ بِهِ[1]، والعَهدُ: الأمان، ومِنَ العَهْدِ أيضًا: اليَمين يحلفُ بها الرَّجُل، وكذلك: الالتِقاءُ والإلمامُ، يُقالُ: ما لي عَهْدٌ بكذا، وإنَّه لقريبُ العَهْد بهِ، والعَهْدُ أيضًا: المنزلُ الَّذي لا يكادُ القوم إذا انْتَأَوْا عنه؛ رجعُوا إليه[2]، والعهد كذلك: الميثاق، ومِنه قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النّحل: 91][3]، والمعهَد: المَوضِعُ الَّذي كنتَ عهِدتَهُ، أو عهِدتَ به هوًى لَك[4]، والعهد: الأمرُ الموثَّق الَّذي لا يجوز نقضُهُ، وهو أيضًا حفظُ الشَّيءِ، ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ، والمعنى هُنا: أَمَرْنا ووصَّيْنا[5].

2) ﴿فَنَسِيَ﴾: (نسي) أَصْلٌ تدلُّ تصريفاتُه على مَعْنَيَين: أحدهما: إغفالُ الشَّيءِ، والآخرُ: تَرْكُهُ[6]، فمِنَ الأوَّلِ قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة:286]، وحقيقةُ النِّسيانِ: ذُهُولُ القَلْبِ عَنْ مَعْلُومٍ[7]، ومِنَ الآخَرِ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: 51]، فإنَّ معناه: نترُكُهم في العَذابِ كما تَرَكُوا العَمَلَ في الدُّنيا لِلقاءِ اللهِ تعالَى يَوْمَ القيامَةِ[8]، وقد عبَّر الرّاغبُ عن النِّسيانِ الجامِعِ لقِسْمَيْهِ، بقولِهِ: "تَرْكُ الإنْسانِ ضَبْطَ ما اسْتُودِعَ، إمّا لضَعْفِ قَلْبِه، وإمّا عَن غَفْلَةٍ، وإمّا عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَذِفَ عَنِ القَلْبِ ذِكْرُهُ"[9]، والمعنى هُنا: غابَ عَن ذِكره، وتَرَكَهُ[10].

3) ﴿عَزْمًا﴾: (عزم) أَصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على الصَّريمَةِ والقَطعِ، والعَزمُ: ما عَقدَ عليه القلبُ أنَّكَ فاعلُه، أو هو عَقدُ القَلبِ على إمضاءِ الأمرِ[11]، وعزمت عليك لتفعلنَّ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عهد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والنّوويّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: (عهد).
(5) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 330، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 233، وابن الهائم، التّبيان، ص: 93.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(7) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/ 346.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 12/ 476.
(9) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (نسي).
(10) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 647.
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عزم).

أي: أقسمت عليك[1]، ويقال: إنَّ معنى ﴿عَزۡمٗا﴾: الثَّبات والقُوَّة، وقال بعضهم: الحَزْمُ: التَّأهُّبُ للأمر، والعَزْم: النَّفاذُ فيه[2]، والعزيمة في اللُّغة: عبارةٌ عن الإرادة المؤكدة، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾، أي: لم يكن له قصد مؤكَّدٌ في الفعل بما أمر به، وعزائمُ القرآن: الآياتُ التي يُقرأ بها على ذوي الآفاتِ لما يُرجى من البُرءِ بها[3]، واعتزم الفرسُ في عنانه؛ إذا مرَّ جامحًا لا ينثني[4]، والمعنى هُنا: (صَبرًا وتَصميمًا وثباتًا)[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكرُ نسيانِ آدمَ ما عهدَ إليه، لضعفه تجاه وسوسة إبليس وزيغه

يذكرُ النَّظمُ الكريمُ أنَّ آدم عليه السلام قد أُمِر بألّا يقربَ الشجرةَ، وتُوعِّد بالدخول في جملة الظّالمين؛ إن قربها، وذلك من قبل وجود ذريَّته، فخالف إلى ما نُهي عنه، وتُوعِّد في ارتكابه، ولم يلتفت إلى الوعيد[6]، بألّا يأكُل مِن الشَّجرةِ، ولا يَقرَبَها، وحَذَّره اللّه تعالى مِن طاعةِ الشَّيطانِ مِن قبلُ، ولكنَّه نَسيَ وصيَّة اللّه تعالى له، وأكل من الشَّجرة، ولم يصبر عنها، فلم نجِدْ له عَزمَ قلبٍ، ولا مسك إرادة على حِفظِ نفسه عمّا نُهي عنه، ولا صَبرًا على الوَفاءِ بالعَهد، ولا جَزمًا على تَركِ مُخالَفة تعاليم اللّه الصّارمة[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ الجُملة على سابقتها:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ "عطفٌ على ﴿وَصَرَّفۡنَا﴾

(1) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (عزم).
(2) الخطابيّ، غريب الحديث: 1/ 119.
(3) الخليل، العين: (عزم).
(4) الزّمحشريّ، أساس البلاغة: (عزم).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 283، والسَّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 336.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 91.
(7) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 103، 104، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسّر، ص: 320، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 320.

[طه: 113] عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ، والتَّخالف فيه إنشاء وخبر لا يضرُّ، مع أنَّ المقصود بالعطف، جواب القسم"(1).

دلالةُ الجملة القسميَّة في السّياق:

الاهــتــمــامُ بـالـقِـصَّـة ومـا فيها من أخبارٍ مُعينٌ على التَّدبُّر والاعتبار

افتِتاحُ الجُملة بِحَرفِ التَّحقيقِ ولامِ القَسَم لِمُجَرَّد الاهتِمام بالقِصَّة، والتَّنبيه على قَصدِ التَّنظيرِ بَين القِصَّتين في التَّفريطِ في العَهدِ؛ لأنَّ في القصَّة الأُولى تَفريطَ بني إسرائيلَ في عهد اللّه، كما قال فيها: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ [طه: 86]، وفي قِصَّة آدم تفريطًا في العهدِ أيضًا، وفي كونِ ذلك من عملِ الشَّيطانِ كما قال في القِصَّةِ الأُولَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦﴾ [طه: 96]، وقال في هذه: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، وأنَّ في القِصَّتَين نِسيانًا لِما يَجِبُ الحِفاظُ عَلَيه وتَذَكُّرُهُ(2)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ﴾، أي: وأقسم قسمًا، لقد أمرنا أباهم آدمَ، ووصَّيناه ألّا يقربَ الشَّجرة(3).

الغرضُ من افتتاح القصَّة بجُملةٍ من المؤَكِّدات:

مُراعاةُ أحوال المُرادِ تحذيرُهم مِن الإعراض عن ذكر الله لعباده

جاء التَّوكيد هُنا بحرف التَّحقيق (قد) وباللّام الموطّئة للقسم مُراعاةً لأحوال المُراد تحذيرُهم من الإعراض عن ذكر اللّه لعباده؛ إذ أحوالُ مُعظم هؤلاء تحتاج إلى مُؤكّدات، فهم مُعرضون فِعْلًا، وغيرُ مُسلِّمين بأنَّ عقاب اللّه سينزل بهم، إذا استمرّوا على إعراضهم، فهم يحتاجون إلى أمثلة تاريخيَّة مُؤكَّدة تتضمَّن عقابَ اللّه الشَّديد للمعرضين عن ذكر ربِّهم، وفي هذه التَّأكيدات أيضًا تَنبيهٌ على قصْدِ التَّنظيرِ بين القصَّتينِ في التَّفريطِ في العهدِ؛ لأنَّ في القصَّةِ الأُولى تفريطَ بني إسرائيلَ في عهدِ اللّه، كما قال فيها:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 578.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 318.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 90.

﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ [طه: 86]، وأنَّ في قصَّةِ آدمَ تَفريطًا في العَهۡدِ أيضًا[1].

إيثارُ الفعل ﴿عَهِدۡنَآ﴾ مادَّة وصيغة:

الدَّلالةُ على الشِّدَّة في الإلزام، والمُبالغة في الأمر والإيثاق والالتزام

العهدُ: حفظ الشَّيءِ ومُراعاته حالًا بعد حال، وعهدَ فلانٌ إلى فلان بعهد، أي: ألقى العهدَ إليه، وأوصاه بحفظه، وسُمّي المَوۡثِقُ الَّذي تلزم مُراعاته عَهۡدًا، وعهدُ اللّه تارة يكون بما ركَّزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بكتابه وبألسنة رُسلِه، وتارة بما نلتزمه، وليس بلازم في أصل الشَّرعِ كالنُّذور وما يجري مجراها[2]، والعهد هُنا بمعنى الوصيَّة، وهي أبلغ في الأمر، والشَّيء الَّذي عهد إلى آدم عليه السلام هو ألّا يقرب الشَّجرة[3]، وقد نبّهه اللّه تعالى، فقال له: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾؛ ليُعۡلِمَه بأصل تلك العداوة المستحكمة بينه وبين إبليس الَّذي عصى اللّه كِبرًا وبُغضًا لآدم، وأقسم أن يسلِّط عليه وعلى ذرّيَّته ألوان الغيِّ والإغواء والنَّزغ، ومع ذلك نسي، وترك ذلك العهد، وعليه فأمرُ البشر في ترك التَّحفُّظ أمرٌ قديم[4]، وانتخابُ لفظ العهد دالٌّ على الشِّدَّة في الإلزام، لتكون أشدَّ في التَّحذير، وأبلغَ في العهد إلى محمَّد ﷺ[5].

بلاغةُ الإيجازِ بحذف المعهود في الآية:

الحذفُ اختصارًا للعلم بالمعهود

في الآية الكريمة إيجازٌ بالحذفِ؛ فالمعهودُ مَحذوفٌ، يدُلُّ عليه ما بعۡدَه، واللّامُ جوابُ قسَم مَحذوفٍ، أيۡ: وأُقسِمُ لقد أمَرۡناهُ، ووصَّيناهُ[6]، والمعهود المحذوف، وهو النَّهي عن الأكل من شجرة معيَّنة، كما ستأتي الإشارة إليه في سياق الآيات الَّتي بعدها[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 318.
(2) البروسويّ، روح البيان: 5/ 433.
(3) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 4/ 70.
(4) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 401.
(5) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 4/ 66.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 44.
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 4/ 375، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 158.

وقد ذكر هذا العهدَ صراحةً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة:35]، فقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:35] هو عهده إلى آدم المذكور هُنا[1].

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العظمة:

تعظيمُ شأن العهدِ الصّادر عن العظيم ﷻ مقصد مهمٌّ في السّياق

قولُهُ تعالى: ﴿عَهِدۡنَآ﴾، أي: بما لنا من العظمة[2]، وفي إضافة الفعلِ إلى ضمير العظمةِ والكبرياء دليلٌ على عظمة شأن هذا العهد؛ لأنَّه صادرٌ عن العظيم ﷻ، وتقدَّست أسماؤه، والمعنى: يا أكملَ الرُّسل لا تكن ناسيًا نهينا مثلَ نسيانِ أبيك آدمَ عهدَهُ معنا، فقَد عَهِدنا إلى أبيك آدَمَ مِن قَبۡلُ بقولنا نهيًا له ولزوجته: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]، فنَسيَ عهدنا هذا بتغرير الشَّيطان له، مع أنَّ نفعَهُ عائدٌ إليه سيَّما وقد أكَّدناه بالمواثيق الوثيقة[3].

فائدةُ الإيجازِ بالحذف في ﴿قَبۡلُ﴾:

تعدُّدُ المعنى وتنوُّعُهُ مرتبطٌ بما يُنوَى من المحذوف

قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: في زمن من الأزمان الماضية، قبل هؤلاء الَّذين تقدَّم في هذه السّورة ذِكرُ نسيانهم وإعراضهم[4]، وهم الَّذين صرَّف لهم من الوعيد في القرآن؛ لعلَّهم يتَّقون، وهم النّاقضون عهدَ الله، والتّاركون الإيمانَ[5]، أو من قبل أن يخالفَ أمرنا، فيقربَ الشجرة، ويأكلَ منها، أو من قبل أن نخبرَكَ بذلك أيُّها الرَّسول الكريم[6]، فحذف ما أُضيف إليه (قبل)؛ لأنَّ بناءَ (قبل) على الضَّمِّ علامةُ حذفِ المضاف إليه ونيَّة معناه[7].

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 646.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 354.
(3) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 522.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 35.
(5) أبو حيّان الغرناطيّ، البحر المحيط: 7/ 388.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 106، والطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 158.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 319.

الإشارةُ إلى شمولِ لطف اللّه ورحمته لآدم عليه السلام بإظهار عذره

دلالةُ الفاءِ وإيثار الفعل في قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ للتَّعقيب، وهو تعقيبٌ عرفيٌّ[1]، وفي التَّعبير عن مُخالفة أمر ربِّه وأكْلِه من الشَّجرة بالنِّسيان إشارةٌ إلى ما شمل اللّه ﷻ به آدمَ من لطفه ورحمته، فتاب عليه، وغفر له، وجعل معصيتَهُ تلك من قبيل ما يقع من الإنسان من سهوٍ ونسيان[2].

العتابُ على تركِ التَّحفُّظ والتَّثبُّت

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنِّسيان بين الحقيقة والمجاز:

في النِّسيان المذكورِ هنا قولان، **أحدهما**: المرادُ ما هو نقيض الذِّكر، وإنَّما عوتبَ على ترك التَّحفُّظ والمبالغة في الضَّبط حتّى تولَّد منه النِّسيان[3]، وكان الحسن رحمه اللّه يقول: "واللّه ما عُصي قطُّ إلّا بنسيان"، **والثّاني**: أنَّ المُراد بالنِّسيان التَّركُ، وأنَّه ترك ما عهد إليه من الاحتراز عن الشَّجرة وأكْلِ ثمرتها[4]، وهو بهذا المعنى مجازٌ، حيث ذَكَرَ النِّسيان، والمُراد التَّركُ، وهو مجازٌ مُرسل بعلاقة السَّببيَّة، ذلك أنَّ التَّرك سببه النِّسيانُ، فأُقيم السَّبب مقامَ المُسَبَّب، فالمُرادُ بالنِّسيان هُنا التَّرك؛ لأنَّه ترك ما وصّى به من الاحتراس عن الشَّجرة وأكْـلِ ثمرتها.

بيانُ أنَّ العُذر بالنِّسيان هو من خصائصِ هذه الأمَّة

توجيهُ معنى العصيانِ عند إرادة الحقيقةِ من النِّسيان:

من العُلماء من يرى أنَّ النِّسيان على حقيقته، أي: إنَّه ضدُّ التَّذكُّر، فيكون المعنى: ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ، فنسي ما عاهدناه إليه، وغاب عن ذهنه ما نهيناه عنه، وهو الأكل من الشَّجرة، فإن قيل: إنَّ النّاسي معذورٌ، فكيف قال اللّه تعالى في حقِّه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ فالجواب: أنَّ آدم عليه السلام لم يكن معذورًا بالنِّسيان؛ لأنَّ العذرَ بسبب الخطأ والنِّسيان والإكراه من خصائص

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 578.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 8/ 833.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 647.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 106، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 578.

هذه الأمَّةِ الإسلاميَّة[1]، فلم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعًا عن الإنسانِ بل كان يُؤاخَذُ به[2]، بدليل قوله ﷺ: "إنَّ اللّه تَجاوَزَ لي عَنْ أُمَّتي الخَطَأ والنِّسيان وما استكرِهوا عليهِ"[3].

فائدةُ عطف جملة ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ﴾ على ما قبلها:

قولهُ تعالى: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ مقرِّرٌ لما قبله من نسيان آدم[4]، والوجودُ بمعنى العلم، ومفعولاه: ﴿لَهُۥ عَزۡمٗا﴾،[5] "قال صاحب الكشّاف والبيضاويُّ وغيرهما: إنَّ الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [طه: 113]، يعني: نقض العهد بعد تصريف الوعيد لهؤلاء، ليس أمرًا مبدعًا منهم، بل أساس بناء آدم على العصيان، وعِرقهم راسخٌ فيه النِّسيان، حيث عهدنا إلى آدم من قبلُ، فنسي"[6].

دلالةُ الكنايةِ باستعمال نفي الوجدان في معنى عدم وجوده:

تبرئةُ آدمَ عليه السلام من تعمُّد العصيان بالمُبالغة في نفي وجوده

استُعمِلَ نفيُ وِجدانِ العزم عندَ آدمَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾، في مَعْنى عدَمِ وُجودِ العزْم من صِفَتِه، فيما عُهِدَ إليه؛ تَمثيلًا لحالِ طلَبِ حُصولِه عنده بحالِ الباحثِ على عزمِه، فلم يجِده عنده بعدَ البحثِ، فأُقيم عدم الوجدان مقامَ عدمِ الوجود من قبيل الكناية[7]، وبلاغةُ الكناية هُنا: تبرئةُ آدم عليه السلام من تعمُّد العصيان بالمُبالغة في نفي وجوده، بذكر حالة تشبه حالَ الباحثِ عن شيء، ولم يجده، لكونه غيرَ موجود أصلًا.

(1) القرطبيّ، تفسير القرطبيّ: 11/ 251، والطَّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 158.

(2) الخطيب الشربيني، التفسير المنير: 2/ 487.

(3) الحديث أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الطلاق، برقم (2801) وابن ماجه، سنن ابن ماجة، كِتابُ الطَّلاقِ، بابُ طَلاقِ المُكْرَه والنّاسي برقم: (2045)، وهو حديث صحيح، ينظر: الألباني،: صحيح الجامع الصغير وزيادته: 1/ 358.

(4) الطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 158.

(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 386.

(6) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 2/ 386.

(7) القنوجيّ، فتح البيان: 8/ 284، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 319.

سِرُّ تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿عَزۡمٗا﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤَخَّرِ

قُدِّمَت شبه الجملة ﴿لَهُۥ﴾ على المفعولِ؛ للاهتمامِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ[1]، ومعنى لفظ ﴿عَزۡمٗا﴾ هنا: التصميم على الاحتياط في كيفيَّة الاجتهاد، فهو إنَّما أخطأ في الاجتهاد، أو تكون بمعنى: لم نجد له عزمًا على الذَّنب، فإنَّه أخطأ، ولم يكن يتعمَّد ذلك، وهذا - لعمري - أقربُ إلى المدح، ولفظ ﴿عَزۡمٗا﴾ واقعٌ مفعولًا به، وشبهُ الجملة ﴿لَهُۥ﴾ حالٌ من عزمًا، أو هي متعلِّقة بالفعل ﴿نَجِدۡ﴾ أو بلفظ ﴿عَزۡمٗا﴾، وقد كان تقديمُ ما يشير إلى آدم لانعقاد المعنى عليه، وبناء القصَّةِ على امتحانه[2].

دلالةُ استعمالِ لفظ العزم دون غيره:

بيانُ أنَّ أوَّلَ نَقْصٍ دَخَلَ على البَشَرِ كان مِن عَدَمِ العَزْمِ

قوله تعالى: ﴿عَزۡمٗا﴾، أي: قصدًا صلبًا ماضيًا وإرادة نافذة[3]، فأكل من تلك الشَّجرة، ولم يكن عنده قبل ذلك عزمٌ وتصميم على ذلك؛ إذ كان قد صمَّم على ترْكِ الأكل، ثمَّ فترَ عزمه، عند ما وسوسَ إليه إبليسُ بالأكل، فلم يصبر عن أكلِ الشَّجرة، وهذا يدُلُّ على أنَّ أبانا آدَمَ عليه السلام ليس من الرُّسُلِ الذين قال اللّٰهُ فيهم: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، وهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى، ومحمَّدٌ، صلَّى اللّٰه عليهم وسلَّم، على الأشهرِ في تحديدِ أُولي العزم[4]، وفيه بيانُ أنَّ أوَّلَ نَقْصٍ دَخَلَ على أبي البَشَرِ، وسَرَى إلى أولادِه، كان مِن عَدَمِ العَزْمِ[5]، فقد نسي آدم، فنسيت ذريَّته، وأخطأ، فكان منهم الخطأ، ولم يثبت آدم على العزم المؤكَّد، وهم كذلك، وبادر بالتَّوبة من خطيئته، وأقرَّ بها، واعترف، فغُفِرت له، ومن شابه أباه فما ظلم[6].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 45.
(2) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 40، (بتصرّف).
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 355.
(4) الحكميّ، معارج القبول: 2/ 680.
(5) ابن القيّم الجوزيّة، طريق الهجرتين، ص: 107.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 514.

دلالةُ تقديم ذكرِ خاتمة قِصَّة آدمَ على أحداثها:

الاهتمامُ بالعهد وإلفاتُ النَّبيِّ ﷺ إليه مُفيدٌ في الدَّلالة على المراد

في القصَّة تقديمٌ وتأخيرٌ، فقد قُدِّمت خاتمتها على أحداثها، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ هو ختام القِصَّة أو التَّعقيب عليها، وقُدِّم للاهتمام به، ولإلفات النَّبيِّ ﷺ إليه؛ لأنَّه هو المقصود من القِصَّة هنا[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العهْد والميثاق:

العهدُ أعمُّ من الميثاق في معناه، والميثاقُ هو عَهْدٌ مُؤكَّد لا يجوز إخلافه

العهدُ هو الالتزامُ بإلزام اللّٰه، أو إلزامُ العبدِ لنفسه[2]، فيُقال في العهد: عَهِدَ إليه في كذا: أوصاهُ به، والعهدُ له معانٍ: منها: الوصيَّة، والضَّمان، والأمر[3]، أمّا الميثاق؛ فهو ما وُثِّقَ به العهدُ من القَبول والإلزام والحلف[4]، فالميثاق توكيدُ العَهد، وهو مأخوذٌ من أوثقتُ الشَّيءَ؛ إذا أحكمتُ شدَّهُ، وأخذتُ الأمر بالأوثق، أي: الشَّديد المُحكم[5]، وقالَ بَعضهم: العَهدُ يكون حالًا من المتعاهدين، ويَقتَضي الإنجازَ، والميثاق يكون من أحدهما[6]، فالعهد: إلزامٌ والتزام سواء كانت فيه يمين أم لم تكن، والميثاق: هو العهد الشَّديدُ المؤكَّدُ، فهو نوعٌ مِنَ العهد.

النِّسيان والغفلة:

الغفلة تَرْكٌ باختيار الغافل، والنِّسيان تَرْكٌ بغير اختياره ولا رغبته

الغفلةُ عبارةٌ عن عدم التَّفطُّن للشَّيءِ، وعدم حضوره في البال بالفعل، سواء بقيت صُورَتُه أم معناه في الخيال أو الذِّكرِ، أم انمحت عن أحدِهما؛ فهي ترك باختيار الغافل، والنِّسيان غيبَة الشَّيء عَن القلب، بِحَيْثُ يحْتاج إلَى تَحصيل جَديد[7]، فهو تركٌ بغير اختياره،

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 834.
(2) عبدُ الرَّحْمنِ السِّعدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن: 1/ 83.
(3) الخليل، العين: (عهد)، والكَفَوِيُّ، الكُلّيات، ص: 640، والقرافيّ، أنوار البروق: 3/ 37.
(4) المناويُّ، التَّوقيفُ، ص: 320.
(5) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللُّغة: (ثقو).
(6) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 57.
(7) الكَفَوِيُّ، الكُلِّياتُ، ص: 506.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف:205]، ولم يقل: ولا تكن من النّاسين، فإنَّ النِّسيانَ لا يدخل تحت التَّكليف، فلا يُنهَى عَنهُ[1]، فالغفلة أعمُّ من النِّسيانِ؛ لأنَّ النِّسيان يَحْتاج صاحبه إلى تَجَشُّمِ كَسْبٍ جديد، وكُلْفَةٍ في تحصيله ثانيًا[2]، فكلُّ نِسْيانٍ غَفلَةٌ، وليست كُلُّ غَفْلَةٍ نِسْيانًا.

الهَمُّ والعزم:

الـهَـمُّ خـطـور الأمر في النَّفس، والـعـزم هـو الـقـصـد علـى إمضائه

فَرَّق أهل العلم بين الهَمِّ والعزم بفروق كثيرة، فقالوا: إنَّ الهمَّ: بَدءُ الإرادة، والعزمَ: مُنتهاها[3]، وقالوا: الهَمُّ في باب المعصية، هو الميل الغريزيُّ أو الميل الطَبعيُّ، فإنْ صَرَفَهُ عنه وازعُ التَّقوى؛ كُتِبَ له به حسنة لقول الرَّسول ﷺ: "وَإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فلَم يَعمَلْها، كَتَبَها اللّٰهُ عِندَهُ حَسَنَةً كامِلَةً"[4]، بينما يُعاقَب بالعزم على المعصية؛ لقول اللّٰه ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:25].

وعليه يكون كُلٌّ من الهَمِّ والعزم من مراتب القصد، فإنَّ أوَّل ما يَمُرُّ الأمرُ بالقلبِ يُسَمَّى خاطِرًا، فإذا تَرَدَّدَ؛ صارَ حديث نفس، فإذا ترجَّح فِعلُهُ؛ صارَ هَمًّا، فإذا قَوِيَ، واشتَدَّ؛ صارَ عَزْمًا، فإذا قَوِيَ العَزْمُ واشْتَدَّ؛ حَصَلَ الفِعْلُ أوِ القَوْلُ[5]، وقد جمعها بعضهم في قوله:

مَراتِبُ القَصْدِ خَمسٌ هاجِسٌ ذَكروا *** وخاطِرٌ فحَديثُ النَّفْسِ فاسْتَمِعا
يَليه هَمٌّ فعَزْمٌ كُلُّها رُفِعَتْ *** سِوى الأخيرِ ففيه الأَخْذُ قَدْ وقَعا[6]

فالهَمُّ فوق الإرادة دون العزمِ؛ لأنَّ العزمَ عَقدُ القَلْبِ على إمضاء

(1) ابن قيّم الجوزيّة، مدارج السّالكين: 2/ 405.
(2) أبو هلال العسكريُّ، الفُروق اللُّغويّة، ص: 389.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 345، والكفوي، الكلّيّات، ص: 961.
(4) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحَيهما من حديث ابن عبّاس ﷺ، يُنظر: البخاريُّ، صحيح البخاريِّ، كتاب الرَّقاق، برقم: (6491)، ومسلم، صحيح مسلم، مسلم في الإيمان، بالحديث رقم: (131).
(5) أبو حيّان الغرناطيّ، البحر المحيط: 3/ 325.
(6) القِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ: 2/ 160، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/ 360.

الأمر، مِنْ: عَزَمتُ الأمر، وعَزَمتُ عليه، فالعزمُ هو تصميم القلب على الشَّيءِ، والنَّفاذُ فيه بقصد ثابت[1]، وقد يأتي الهَمُّ بمعنى العزم على الفعل، كقوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ [المائدة:11]، أي: صمَّموا النِّيَّة، وعزموا عليه، فيُرادف العزمَ، ويأتي بمعنى خطور الشَّيءِ في البال، وإن لم يقع العَزۡمُ عليه، كقوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عمران: 122][2].

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 961، والرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (عزم).

(2) أبو هِلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 356.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾

[طه:116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربْطُ نسيانِ آدمَ وفـقـدانِ عزمه بسجود الملائكة وتكبُّرِ إبليس

ذكرَ النَّظمُ الكريم في الآية السّابقة نسيانَ آدمَ عليه السلام لما عهدَ اللّهُ تعالى به إليه من عدم الأكلِ مِنَ الشَّجرة، ولمّا كان الأمرُ مُستغربًا أن يقع فيه آدم عليه السلام، وكان العقل يتوقُ لمعرفة سبب هذا التَّرك؛ جاءت هذه الآيةُ وما يليها من آياتٍ مبيِّنةٍ لتسلسل الأحداث مِن أمرِ اللّه تعالى للملائكة بالسُّجود له، وما ترتَّب عليه من عصيان إبليسَ لأمر اللّه تعالى، وغوايته لآدم عليه السلام حتّى يعصيَ اللّه تعالى، ويأكلَ من الشَّجرة الَّتي نهاه اللّه عن الأكل منها، فقال: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، فهو شروعٌ في بيان المعهود، وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمِه[1]، وتوالى ذكر بقيَّة القِصَّة، فناسب ذكرُ قصَّة آدمَ بتمامها ليكون موعظةً للمتَّقين وهدًى للمؤمنين، فقال تعالى لرسوله محمَّد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبَىٰ﴾: (أبي) أصل يدلُّ على الامتناع[3]، يُقال: أبَى فلانٌ يأبَى إباءً، أي: ترك الطَّاعةَ، ومالَ إلى المَعْصيةِ[4]، والإباءُ: أشدُّ الامتناعِ[5]، والإباء بالكسر: مصدرُ قولك: أبى فلانٌ يَأْبى بالفتح فيهما، مع خلوٍّ من حروف الحلق، وهو شاذٌّ، أي: امتنع،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 579.
(2) الجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 384.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أبي).
(4) الخليل، العين: (بوء).
(5) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (أبو).

فهو آبٍ وأبيٌّ وأبَيانٌ بالتَّحريك[1]، ويأبى إباءً: إذا كره، قال أبو خراش الهذلي:

أبَى الصَّبْرَ أنّي لا يَزالُ يَهيجُني*** مَبيتٌ لَنا فيما مَضَى ومَقيلُ[2]

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكرُ أمرِ الملائكة بالسُّجود لآدمَ وتـأبّـي إبليسَ كِبرًا وغرورًا

اذكر ما جرى من معاداةِ إبليسَ ووسوسته لآدمَ وتزيينِه له الأكلَ من الشَّجرة، وطاعتِه له بعد ما تقدَّمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده، حتى يتبيَّن لك أنَّه لم يكن من أولي العزم والثبات، وسببُ عداوته ما أمر اللّهُ به الملائكةَ حين قال للمَلائِكة: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِآدَمَ﴾: طاعةً لي، وتكريمًا له، فسَجَدوا كلُّهم إلّا إبليسَ الذي كان معهم، ولم يكن منهم، فامتنَعَ أن يكونَ مع السّاجِدينَ تَكَبُّرًا[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ وصل الجُملة بما قبلها:

تفصيلُ إجمالِ القصَّة الظّاهرِ تأكيدٌ على حفظ الأوامر واجتناب الزَّواجر

لمّا كان المقصود من السُّورة الإعلامَ بالحلم والأناة والتَّلطُّف بالنّائي والقُدرة على المُعرِض؛ ذَكَرَ فعل آدم عليه السلام في هذه السُّورة بلفظ المعصية، مع التَّصريح بأنَّها على وجه النِّسيان، وذكر ذلك أوَّلًا مُجملًا، ثُمَّ أتبعه تفصيلًا، ليكون ذلك مذكورًا مرَّتين؛ تأكيدًا للمعنى المُشار إليه تقريرًا وتحذيرًا من الوقوع في منهيٍّ، وإرشادًا لمن غلب عليه طبع النَّقص؛ للمُبادرة إلى النَّدم وتعاطي أسباب التَّوبة، ليتوب اللّه عليه كما فعل بآدمَ عليه السلام فقال: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾[4]، وعطْفُ هذه القصَّة على ما قبلها من عطف السَّبب على المُسبَّب؛ لأنَّ هذه القِصَّةَ سببٌ في عداوة إبليس لآدم[5].

(1) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (أبا).
(2) البيت من شعر الهذليين، ينظر: ديوان الهذليين: 2/ 117، والحميري، شمس العلوم: 1/ 159.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 320، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 106، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 320.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 355.
(5) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 443.

فهذه الجُملة بيانٌ لجُملة: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ﴾، وكان مُقتضى الظّاهر ألّا يكون معطوفًا بالواو، بل أن يكونَ مفصولًا، فوقوعُ هذه الجملةِ معطوفةً اهتمامٌ بها، لتكونَ قصَّةً مُستقلة، فتلفتَ إليها أذهان السّامعين، فتكونَ الواو عاطفةً قصَّةَ آدم على قصَّةِ موسى، عطفًا على قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ [طه: 9 - 10]، ويكون التَّقدير: واذكر ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف وأثره في الخطاب:

توجيهُ الخطابِ للاعتصام بالله من إبليس وكيده

الظَّرفُ متعلِّقٌ بـ(اذكرْ) مقدَّرًا، أي: واذكر وقتَ ما جرى على آدمَ من معاداةِ إبليسَ ووسوسته له وتزيينه له الأكلَ من الشَّجرة ومبادرةِ آدم بالطاعة له بعد ما سلف من النَّصيحة البالغة والتحذير من الشيطان ومكره وأحابيله[2]، فـ(إذْ) مفعولٌ لفعل محذوف، تقديرُهُ: اذكرْ، والخطاب للنَّبيِّ ﷺ، ليُعلن لأمَّته، فتستعصم بالحذر من إبليس، كيلا تقع في إغوائه الَّذي توعَّدها؛ إذ قال في إصرار: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص:82 - 83][3]، و(إذْ) هُنا: اسمٌ ظرفيٌّ لما مضى من الزَّمان في محلِّ نصب مفعول به لفعلٍ محذوف، ومن لم يرَ ذلك؛ جعلَ المفعول محذوفًا، و(إذْ) ظرفٌ عاملِه ذلك المحذوف، والتَّقدير: (واذكر إذ قُلنا)[4].

سِرُّ تعليق الذِّكر بالوقت ومتعلِّق ﴿وَإِذۡ﴾ في الآية:

المُبالَغةُ في ذِكْرِ الحادثة وتفاصيلها زيادةٌ في الاعتبار وتحقيقٌ للادِّكار

تَعليقُ الذِّكر بالوقتِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾، مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه من الحوادث؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها، فإنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ على تَفاصيلِ الأُمورِ الواقعةِ فيه؛ فالأمرُ بذِكْرِه أمرٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 320.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 355، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 255.
(3) محمَّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4798.
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 185، والدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/ 53.

بذِكرِ تَفاصيلِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[1]، أي: اذكر ما وقع في ذلك الوقت منّا ومنه، حتّى يتبيَّن لك نسيانه وفقدان عزمه، فقد أمرنا الملائكة بالسُّجود، فسَجَدُوا[2]، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ على أعيانِ الحوادثِ، فإذا ذُكِرَ؛ صارت الحوادثُ كأنَّها مَوجودةٌ في ذِهنِ المُخاطَبِ بموجوداتِها العينيَّةِ[3].

إيثارُ التَّعبيرِ عن الأمر بالقول ومجيئه ماضيًا:

الأمـرُ الإلـهـيُّ المُـبـاشـر من الله للملائكة ورُسـوخـه ومـوقـعـه من السّامعين

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾، أي: حين أمرنا الملائكةَ بالسُّجود لآدم - سجودَ تشريفٍ وتكريم وتفضيل على كثير من خلق اللّه - فسجدوا[4]، وإيثار القول هُنا؛ للدَّلالة على الأمر الإلهيِّ المُباشر منه سُبحانه من غير واسطة، ومجيءُ الفعل ماضيًا يدلُّ على رسوخه وبيان موقعه من السّامعين.

سِرُّ التَّعبير بِنُون العظمة وضمير الكبرياء:

الـدَّلالـةُ على تعظيم قول الله وأمره

قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا﴾، أي: بما لنا مِنَ العظمة[5]؛ لأنَّ المقام يناسبُ العظمَةَ؛ إذِ السُّجودُ لِلتَّعظيم، فلمّا أمر به لغيرِهِ؛ أشار إلى كِبريائه وعظَمَتِه في ذاته ﷻ، وعظمةُ اللّه تقتضي أن يُفردَ بالعبادة، وأن يكون السُّجودُ له وحدَهُ، باعتباره المستحقَّ له دون سواه، فناسب ورودُ أسلوب التَّعظيم عظمةَ العظيمِ، والقول منه عظيمٌ، والخطابُ منه حكمةٌ ورحمة وتكريم.

نُكْتَةُ الإظهارِ في موضِع الإضمار:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ إذْ مقتضى الظّاهر: (وإذ قُلنا لهم)، ونُكتَةُ الإظهارِ زيادةُ المهابَةِ؛

---

(1) الشِّهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 451.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 311.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 45.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 281.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 355.

فإنَّ هذا الجنسَ العظيمَ مِن مخلوقات اللّه تعالى مُنقادٌ لهُ سبحانه، ففيه عَظَمَةُ مَنِ انقادُوا لأمرِهِ، فهم المجبولون على مضي العزم والتَّصميم على القصد من غير مانع تردُّد ولا عائقِ فُتور[1].

دلالةُ الأمرِ بالسُّجود لآدم عليه السلام:

تشريفُ اللّه سُبحانه آدمَ عليه السلام تكريمٌ له على الخلق

الأمرُ في الآية في قوله تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ الصّادرُ مِنَ اللّه سبحانه وتعالى للملائكة، فعند ما خَلقَ اللّهُ آدمَ عليه السلام بيده، وعلَّمه الأسماء، وفضَّله، وكرَّمه؛ أمرَ الملائكةَ بالسُّجود له إكرامًا وتعظيمًا وإجلالًا، فبادروا بالسُّجود مُمتثلين، وكان بينهم إبليسُ الَّذي امتنع عن السُّجود، فاستكبرَ عن أمرِ ربِّه[2]، وهذا دليلٌ على أنَّ السُّجود الَّذي أُمِروا به سجودَ كرامةٍ لآدم، وعبادة للّه عز وجل[3]، فالغرض من الأمر في الآية تكريمُ اللّه سبحانه آدمَ عليه السلام، وتشريفُه بطلب السُّجود له من بين خلقه.

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

بيانُ سرعةِ امتثال الملائكة الكرام والمُبادرة إلى الطّاعة والاحترام

الفاء في قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ عاطِفَةٌ على ﴿قُلۡنَا﴾، والفاء تدلُّ على التَّرتيب والتَّعقيبِ؛ ففي قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى مُسارعةِ الملائكة إلى امتثال أمرِ اللّه تعالى لَهُم بالسُّجود، وفيه مبادَرَتُهُم لأداء حقِّ آدمَ عليه السلام؛ إذْ علَّمهم ما لَم يَعْلَمُوا[4]، وقد فقهوا الأمر الإلهيَّ، ووعوا معنى أن يكون الأمرُ صادرًا من عظمة اللّه تعالى، "فسجدوا طائعين، مع معارضتهم ابتداءً لخلافته في الأرض، فلمّا رأوا أنَّ ربَّهم فضَّله عليهم، بأن علَّمه الأسماء كلَّها، ولم يعرفوها هم؛ سجدوا"[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 355.
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 515.
(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 4/ 66.
(4) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 2/ 129.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4798.

بيانُ أنَّ الاستثناءَ مُنقطعٌ، وأنَّ إبليس لَيسَ من الملائِكَةِ عَلى الصَّحيحِ

دلالةُ الاستثناءِ في الآيَةِ الكريمة:

الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناءٌ مُنقطعٌ على الصَّحيح؛ لأنَّ إبليسَ ليس مِنَ الملائكةِ، بدليل قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف:50]؛ ولأنَّه مخلوقٌ من نارٍ، وأنَّ الملائكةَ مخلوقون من نُورٍ، وأمّا دخولُهُ في الأمر؛ فلأحد وجهين[1]:

الأوَّل: لأنَّه كان في صُحبتهم، وكانَ يعبد كعبادتهم، فكان الأمرُ شاملًا له[2]، **والآخر**: أنَّه أُمِرَ أمرًا خاصًّا، واستثناؤه منهم جارٍ على حُكم التَّغليب في إطلاق اسم الملائكةِ عليهم وعليه[3]، وعلى كلٍّ؛ فهو مأمورٌ بالسُّجود قطعًا بدليل قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف:12].

الإشعارُ بإهانة الشَّيطان، والتَّحذير من طاعته واتِّباعه

سِرُّ التَّعريفِ في لفظة ﴿إِبۡلِيسَ﴾ بالعلميَّة:

اسمُ إبليسَ - لعنه اللّه - عَلَمٌ على الشَّيطان الَّذي هو أصلُ الشَّياطين وكبيرهم، وقد عُبِّر عنه في القرآن بالشَّيطان تارة، وبالغَرور تارةً أخرى، أمّا هُنا؛ فقد عُبِّر عنه باسمه العلم لما لهذا الاسم من مُناسبة للمقام، والتَّعريفُ بالعلميَّة عمومًا له أغراضٌ منها في هذا المقام: إرادةُ الإشعار بإهانة المُتحدَّث عنه، ويكون هذا في الأعلام الَّتي تُشْعِرُ بذمٍّ، أو اشتهرت بصفاتها الذَّميمة، فأصلُ كلمة إبليس من الإبلاس، بمعنى الحزن المعترض من شدَّة البأس، يقال: أبلسَ، ومنه اشتقَّ إبليسُ فيما قيل، قال اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ [الرُّوم:12][4]، وأبْلَسَ من رحمة اللّه، أي: يَئِسَ ونَدِمَ، ومنه سُمّي إبليس[5]، وإبليس - لعنه اللّه - مُشتقٌّ

---

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/ 127.
(2) السِّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 3/ 100.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 91.
(4) الرّاغب، المفردات: (بلس).
(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بلس).

منـه؛ لأنَّه يئس من رحمة اللّه، واختير هُنا التَّعبيرُ عنه باسمه العَلَم، لما في اشتقاق هذا الاسم من مُناسبة هنا: فإذا كـان إبليسُ من اليأس من رحمة اللّه تعالى؛ فهذا تحذيرٌ لمن اتَّبعه، بأنَّه سيهوي في نفس مصيره من اليأس من رحمة اللّه، وإن كان مُشتقًّا من الحزن وانقطاع الحُجَّة، فهو تنبيهٌ على من يخالف أمرَ اللّه تعالى، ويتَّبع إبليس، بأنَّه لا حُجَّة له عند اللّه تعالى بعد أن حذَّره من اتِّباع الشَّيطان الَّذي انقطعت به الحُجَّة عند اللّه[1].

دلالةُ الاستئنافِ في جملة ﴿أَبَىٰ﴾:

بيـانُ فعلِ إبليسَ اللَّعين تجاه أمرِ ربِّ العالمين

جُملةُ: ﴿أَبَىٰ﴾ مُستأنَفةٌ، وقعَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأ عن الإخبارِ بعدَم سُجودِهِ، كأنَّه قيلَ: ما بالُه لم يَسجُدْ؟ فقيلَ: أبى[2]، وسبب التَّأبّي عن الأمر الَّذي وُصِفَ به إبليسُ دونَ الملائكة - رغم أنَّه ليس ملكًا في الخِلقة والمهمَّة والخصائص - أنَّ "إبليسَ قبل هذا الأمر كان طائعًا، وقد شهد عمليَّة خَلْق آدمَ، وكان يُدْعى: طاووس الملائكة؛ لأنَّه ألزم نفسه في الأمور الاختياريَّة، ففاق بذلك الملائكةَ، وصار يزهو عليهم، ويجلس في مجلسهم، فلما جاء الأمرُ للملائكة بالسُّجود لآدمَ شملَهُ الأمرُ، ولزِمَهُ"[3]، ولكنَّه أبى، واستكبر، وتطاول، وتكبَّر.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في قوله: ﴿أَبَىٰ﴾:

الاختصارُ والاستغناء عنه بما ذُكِرَ مِنَ الأمر

مَفعولُ ﴿أَبَىٰ﴾ إمّا مَحذوفٌ، أي: أبى السُّجودَ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر:31]، أو غيرُ مَنْوِيٍّ رأسًا بتَنزيلِه مَنزِلَةَ اللّازمِ، أي: فعَلَ الإباءَ وأظْهَره[4]، وبلاغةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 356.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 91.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9498.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 91، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 40، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 45.

الحذف هُنا: من باب الاستغناءِ بما فُهِم من أوَّل الآية في استثناء إبليس من الامتثال للأمر[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإباء دون غيره من مُرادفاته:

﴿أَبَىٰ﴾، أي: رفض، وكره، ولم يرضَ، واستعصى، وكلّ معاني ﴿أَبَىٰ﴾ منطبقةٌ على إبليس، ودلَّت مُحاكمة الله له على إصراره وعناده وشدَّة رفضه وكفره بإلهيَّة الله مع إيمانه بربوبيَّته.

توجيهُ ذِكْرِ الإباء دونَ الاستكبار في هذه الآية:

دلالةُ الاستكبارِ على الإباء وتلازمهما في حقِّ إبليس

ذَكَرَ ﷻ في هذه الآية الكريمة: أنَّه أمرَ الملائكة بالسُّجود لآدم، فسجدوا إلّا إبليس أبى، أي: أبى أن يسجد، فذكر عنه هنا الإباءَ، ولم يُذْكَرْ عنه هنا الاستكبارُ، وذُكِر عنه الإباءُ أيضًا في سورة الحجر في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: 31]، وذُكر عنه في سورة (ص) الاستكبارُ وحده في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 74]، وذُكر عنه الإباءُ والاستكبارُ معًا في سورة البقرة، في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34][2]، والإباءُ وإن كان معناه الامتناعَ عن الشَّيء، لكنَّ المُراد هُنا الإباءُ بالاستكبار بدلالة المواضع الأُخر؛ إذ القرآنُ يُفسِّر بعضُه بعضًا؛ لأنَّه جاء ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34]، فإذا اكتفى بالإباء؛ فالمُرادُ الإباء بسبب التَّكبُّر، ولا ينافيه عطفُ استكبر على أبى؛ لأنَّه من قبيل عطف العِلَّة، فالإباءُ لأجل الاستكبار، هو الاستكبار مُبالغة[3].

الفروقُ المُعْجَميَّة:

الشَّيْطان وإبْليس والجِنُّ:

الشَّيطانُ اسم جامع لأتباع إبليس سواء كانوا من الجنِّ أم من الإنس

يَرِدُ لفظُ (إبْليس) في القُرْآنِ الكَريمِ مُرادًا به اسمُ عَلم على

(1) والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 40، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 45.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 395.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 439.

الَّذي امتَنَعَ مِنَ السُّجودِ لآدَمَ ﷺ، كما في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:34]، وهُوَ مشتَقٌّ مِنَ الإبلاسِ، وهو شدَّةُ اليأسِ؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ آيسَهُ مِن كُلِّ خيرٍ، أمّا الشَّيطانُ؛ فيقَعُ وصفًا لكلِّ عاتٍ متمرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ، فلفظُ الشَّيطانِ أعَمُّ مطلقًا مِن إبليسَ(1).

ولفظةُ الجنِّ بالنَّظرِ إلى أصل معناها تدلُّ على الاستتار والخفاء عن الأبصار، ولهذا سُمّيت الجنَّ بذلك؛ لاستجنانهم واستتارهم عن العيون، وهم أجسام هوائيَّة قادرة على التَّشكُّل بأشكال مختلفة لها عقول وأفهام(2)، والمشهورُ أنَّ جميع الجنِّ من ذريَّة إبليس(3)، ومن تبعه منهم يُقال له: شيطان، فالجنُّ هم ولد إبليس، كما أنَّ الإنسَ ولدُ آدم، ومن هؤلاءِ وهؤلاءِ مُؤمنون وكافرون، فمن كان مُؤمنًا؛ فهو وليُّ اللّه، ومن كان كافرًا فهو شيطان(4)، ومن هُنا يتبيَّن الفرقُ بين الجنِّ والشَّيطان، فالشَّيطان اسمٌ لأتباع إبليس سواء كانوا من الجنِّ أو الإنس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:112]؛ بل إنَّ العرب تُسمّي كُلَّ مُتمرِّدٍ شيطانًا، ولو كان من غير الجنِّ والإنس، قال الجوهري: "كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ من الجنِّ والإنس والدَّواب شيطانٌ، والعربُ تُسمي الحيَّة شيطانًا"(5).

الإباءُ والِامتِناعُ:

الإباء أعمُّ من الامتناع وأبلغ منه، وقد أوثر استعماله في الآية

بَيْنَ الإباء والامتناعِ: عمومٌ وخصوص مُطلَق، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ،

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة: 155 - 156.
(2) الشّبلي، آكام المرجان، ص: 23، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 03/ 280.
(3) الدّميريّ، حياة الحيوان الكبرى: 1/ 300.
(4) القرطبيّ، تفسير القرطبيّ: 19/ 05.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (شطن).

وليس كلُّ امتناع إباءً، وذلك أنَّ الإباء: شدَّةُ الامتناعِ[1]، ولِلشِّهابِ الخفاجيِّ توجيهُ عموم الامتناعِ بوجهٍ آخرَ، وهو أنَّ الإباءَ امتناعٌ مِنَ الفعلِ مع التَّمكُّن مِنْ أدائه، فالإباء أبلغُ مِنَ الامتناعِ[2]، ولِلْبِقاعيِّ توجيهٌ آخر، وهو أنَّ الإباءَ امتناعٌ عمّا حقُّه الإجابةُ فيهِ[3]، وهو كسابقِه، ومُؤدّاهُ أنَّه أعمُّ مِنَ الامتناعِ مطلقًا.

والأشهَرُ هُوَ الأوَّلُ، ويُمكِنُ ردُّ القولين الآخرَيْنِ إلَيْه، فإنَّ الامتناعَ مِنْ فِعلٍ ما، مع التَّمكُّنِ مِن أدائه مُشْعِرٌ بِضَرْبٍ مِنَ الإعْراضِ، وهذا مُقْتضٍ لشدَّةٍ في ذلك الامتناعِ، ومِثْلُهُ: الِامتِناعُ عمّا حقُّهُ أنْ يُجابَ.

---

(1) الرّاغب الأصبهانيّ، المفردات: (أبى).

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/ 131.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 1/ 256.

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه:117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بدايةُ تفصيلِ ما أجمله سابِقًا لاستيفاء عناصر القصَّة

لمّا ذَكرَ اللّٰهُ تعالى في الآية السّابقة أمرَهُ لإبليسَ بالسُّجود لآدم، ومعصيته لأمر اللّٰه، وكان هذا مُقدِّمةً لذِكر عداوته لآدم عليه السلام؛ ذكر اللّٰه في هذه الآية تحذيره لآدم من مَكْرِ إبليسَ به وبزوجه، وعاقبةِ استماعه له وطاعته فيما سيدعوه إليه من معصية اللّٰه تعالى، وأنَّه لو أطاعه، فسيكون سببَ شقائه، فذكر هُنا بداية تفصيل ما أجمله لما قال: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿وَلِزَوۡجِكَ﴾: (زوج) أصلٌ يدلُّ على مُقارنة شيء لشيء، ومن ذلك الزَّوج زوجُ المرأة، والمرأة زوجُ بعلها، وهو الفصيح، قال اللّٰه جل ثناؤه: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، ويقالُ: لفلان زوجان من الحمام، يعني: ذكرًا وأنثى[2]، والزَّوْج: الفرد الَّذي لَهُ قرين، ويدلُّ على أنَّ الزَّوْجَيْنِ في كَلامِ العَرَب اثْنان قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النَّجم:45]، وكلُّ واحِدٍ مِنْهُما - كَما ترى - زوجٌ ذكرًا كانَ أو أُنْثَى، والرَّجل زوج المرأة، وهي زَوْجُهُ وزَوجتُهُ[3]، وأهْلُ الحِجازِ يَضَعونه للمذكَّر والمؤنَّث وضْعًا واحِدًا، تَقول المرأةُ: هذا زَوْجي، ويَقُول الرَّجل: هذه زَوْجي، قالَ تَعالَى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ [النِّساء: 20]، أي: امرأةٍ مَكان

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 604.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زوج).
(3) ابن سيده، المحكم: (زوج).

امرأةٍ، وفي (المِصْباح): الرَّجل: زَوْجُ المرأةِ، وهي زَوْجُه أيضًا، هذه هيَ اللُّغَةُ العاليَة، وجاء بها القُرْآن[1].

2) ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾: (شقي) أصلٌ يَدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهُولَةِ والسَّعادَةِ، والشِّقْوَةُ: خِلافُ السَّعادَةِ، ورَجُلٌ شَقيٌّ بَيِّنُ الشَّقاءِ والشِّقْوَةِ والشَّقاوَةِ، والمُشاقاة: المُعاناةُ والمُمارَسَةُ[2]، والشَّقاءُ: الشِّدةُ والعُسْرةُ[3]، وكما أنَّ السَّعادة في الأصل ضربان: سعادة أُخرويَّة، وسعادة دنيويَّة، ثمَّ السَّعادة الدُّنيويَّة ثلاثة أضرب: نفسيَّة، وبدنيَّة، وخارجيَّة، كذلك الشَّقاوة على هذه الأضرب، وفي الشَّقاوة الأُخرويَّة قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، وفي الدُّنيويَّة قال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[4]، والمعنى هُنا: فتتعب وتَنصب في طلب رزقك، ويكون عيشُكَ من كدِّ يمينك وعرق جبينك[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تحذيرُ آدمَ وزوجِه من الشَّيطان وكيده

فقُلنا: يا آدَمُ، إنَّ هذا الَّذي عصاني، ولم يسجُدْ لك، عدُوٌّ لك ولِزَوجِك حوّاءَ، فاحذَرا أن تُطيعا عَدُوَّكما إبليسَ، فيتسَبَّبَ في إخراجِكما مِنَ الجنَّةِ، فتتعَب يا آدَمُ في طَلَبِ الرِّزقِ والكِسوةِ والسَّكَنِ؛ فتتحمَّل أنت المشاقَّ والمكاره[6]، وذكرت الآيةُ عداوتَهُ لهما تفصيلًا هنا، وصرَّحت بكون عداوته متعلِّقة بآدم عليه السلام؛ لأنَّ آدم هو منشأ عداوة الشَّيطان لحسده، ثم أتبع بذكر زوجِهِ؛ لأنَّ عداوته إيّاها تَبَعٌ لعداوته آدمَ، وهو زوجُها، وإلّا فعداوتُه متعلِّقة بكليهما لاتِّحاد علَّةِ العداوة، وهي حسدُهُ إيّاهما[7].

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (زوج)، والفيّومي، المصباح المنير: 1/ 259.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شقو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شقو).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 332.
(5) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 214، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 282.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 320، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 106، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 320.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 320 - 321.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في صدر الآية الكريمة:

الحُكمُ بعداوة إبليسَ لآدم مُترتِّبٌ على امتناعه مِنَ السُّجود له

دلَّتِ الفاءُ - الَّتي هي في اللُّغة للتَّرتيب مع التَّعقيب - على أنَّ قول اللّه ﷻ: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾، قد كان عقب إباء إبليسَ وإصراره بعناد شديد، أن يطيع اللّه في السُّجود لآدم، أو يَستغفر من معصيته، وهي تُفيد السَّببيَّة؛ لأنَّ ما قبلها سببٌ لما بعدها، فالحكم بأنَّه عدوٌّ لآدم وزوجه مُترتِّب على امتناعه عن السُّجود، وما سوَّغ له الامتناع، هو توهُّمه أنَّه خيرٌ منه، وحسده له على منزلته عند ربِّه، وأيُّ عداوة أقوى من ذلك[1]؟

سِرُّ الحذفِ في صدر الآية الكريمة:

الإيجازُ المدلولُ عليه من السّياق اختصارٌ للكلام بليغٌ

دلَّ السّياق على وجود مطويٍّ مَحذوف، وهو أنّ اللّه ﷻ وعدَ آدم أن يدخله وزوجه الجنَّةَ دخولَ ابتلاءٍ، لا دخول جزاء وبقاء، ويمكن تقديرُ المحذوف بنحو ما يلي: (وقلنا: يا آدمُ سندخلُك وزوجك الجنَّة دخول امتحانٍ وابتلاء، فإذا دخلتما فيها؛ فلا تُمكِّنا إبليسَ مِن إغوائكما، وإيقاعكما في معصية ربِّكما، فيتسبَّب في إخراجكما من الجنَّة عقوبة لكما، وعندئذٍ تتعرَّض - يا آدم - لتحمُّل الشَّقاءِ ومتاعبه في الحياة على الأرض، وتتحمَّل زوجك وذرّيّاتكما فيه مثل ذلك)، وفي هذا إعلام ضمنيّ: بأنّ معصيتهما لأوامر اللّه ونواهيه - وهما في الجنَّة مُمتحنان - عقابُه الإخراجُ منها إلى الأرض.

بلاغةُ النِّداء وسرُّ مُناداةِ آدمَ باسمه:

تـنبـيـهُ آدمَ وتحذيرُهُ من شَرِّ عدوِّه المُتربِّص به

جاء النِّداء في الآية الكريمة بـ ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾، والأصلُ أنَّ النِّداء بـ (يا) يكون للبعيد، وإذا كان للقريب؛ فهو لأغراض أخرى، والمُناسب منها للمقام: أن يكون النِّداءُ بسبب غفلة آدمَ عن شرِّ ذلك العدوِّ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4798.

المتربِّص به، والحريص على إخراجه من الجنَّة حتى يحذِّره أشدَّ الحَذَرِ، فنادى اللّه آدم تنبيهًا له وتحذيرًا له من عدوِّه الَّذي امتنع عن السُّجود له[1].

فائدةُ توكيدِ العداوة بِعدَّة مُؤكِّداتٍ:

تثبيتُ الأمر في ذهنِ آدمَ عليه السلام حتَّى يهتمَّ بالأمر

أكَّد النَّظم الكريمُ عداوةَ إبليس لآدم عليه السلام بالأداة ﴿إِنَّ﴾ المُفيدة للتَّوكيد أصالةً، وبالجملة الاسميَّة، وبالإشارة ثُمَّ تخصيص هذه العداوة، كونُها خاصَّةً بآدم وزوجه، ثمَّ بتقديم قوله: ﴿عَدُوٌّ﴾ على قوله: ﴿لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، وفائدة ذلك كُلِّه تثبيتُ الأمر في ذهن آدم عليه السلام حتَّى يهتمَّ بالأمر، فإذا كانت العداوة قد بدت، فتوقُّع الشَّرِّ والإيذاء يقترن بها لا محالة، ولذا أكَّد اللّه هذه العداوة، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾[2].

دلالةُ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ والعدول عن الاسم الظّاهر:

تحقيرُ إبليسَ وهوانُه سببه كبرياؤه وعصيانه

في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى الشَّيطانِ، وهي إشارةٌ مُرادٌ منها التَّحقيرُ[3]، وقد تبيَّنت عداوته البليغة وكراهيَّتُهُ الشَّديدة لآدم وزوجه بوضوح وجلاء، فاستحقَّ بذلك الانحراف النَّفسيَّ، والمرض القلبيَّ، ما يلحظ في العبارة من الهوان وقلَّة الشَّأن، باعتباره عدوًّا للّه، فعادى من والاه، وقد ظهر من حسده الجليِّ، وحقده الظّاهر والخفيِّ على آدم ونسله، ما كان سببًا للعداوة المستحكمة، فكان تحذيرُ اللّه آدم وزوجه منه سبيلًا إلى اليقظة والشُّعور بالخطر المحدق، ولكن بالإشارة الدّالَّة على الاحتقار.

عِلَّةُ الإخبارِ عن إبليس بأنَّه ﴿عَدُوٌّ﴾ لآدم وزوجه ابتداء:

بيانُ شِدَّةِ عداوة إبليس لآدم بما لا مثيل له ولا نظير

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال في سُورةِ الأعرافِ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾

(1) محمود شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 16/ 3208.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4798.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 320.

[الأعراف: 22]، فعبَّرَ عنه باسْمِه، وقولُه تعالى: ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، هو كقولِه تعالى في الأعراف، فذُكِرَتْ عَداوتُه لهما جُملةً هُنالك، وذُكِرَت تَفصيلًا هُنا، فابْتُدِئَ في ذِكْرِ مُتعلِّقِ عَداوتِه بآدمَ؛ لأنَّ آدمَ هو منشَأُ عَداوةِ الشَّيطانِ لحسَدِه، ثمَّ أُتْبِعَ بذِكْرِ زوجِه؛ لأنَّ عَداوتَه إيّاها تبَعٌ لعَداوتِه آدمَ زوجَها، وكانت عَداوتُه مُتعلِّقةً بكلَيهما لاتِّحادِ علَّةِ العَداوةِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم ﴿عَدُوٌّ﴾ بدل فعله:

الــدَّلالــةُ على دوام عـــداوة الشَّيطان لهما ولذرّيتهما

عبَّر النَّظمُ الكريم بالاسم: ﴿عَدُوٌّ﴾ بدلَ الفعلِ (يُعاديكما)؛ للدّلالة على أنَّ عداوةَ الشَّيطان لهما ولذرّيتهما من بعدهما مُستمرَّة دائمة؛ لأنَّ الكِبْرَ النّاشئَ عن الحسد لا يزول[2]، والعداوة قد تُداوى بالمصابرة وحسن المعاملة والدَّفع بالَّتي هي أحسن، مصداقًا لقوله تعالى في هذا المضمار: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾ [فصّلت:34]، لكنَّ العداوةَ النّاتجة عن الحسدِ موغلةٌ في الوجدان، لا دواء لها، قال الشّاعر:

كُلُّ العَداواتِ قَدْ تُرْجَى مَوَدَّتُها *** إلّا عَداوَةَ مَنْ عاداكَ عَنْ حَسَدِ

سرُّ تكرارِ اللّامِ في عطف ﴿وَلِزَوْجِكَ﴾ على الضَّمير المتَّصل:

الدَّلالةُ على أنَّ عــداوةَ اللَّعين للزَّوجة أصالةٌ لا تَبَعٌ

أعاد النَّظمُ الكريم اللّامَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾؛ لأنَّه لا يُعطَف على الضَّمير المجرور، بدون إعادة الجارِّ عند الجمهور، ويُحتمل أنَّه أُعيد أيضًا للدَّلالة على أنَّ عداوة اللَّعين للزَّوجة أصالةٌ لا تبعٌ، فهو عدوٌّ ﴿وَلِزَوْجِكَ﴾؛ لأنَّها منك[3].

وهو على القول بعدم لزوم إعادة الجارِّ في مثله، كما ذهبَ إليه ابن مالك، وأمّا على القول باللُّزوم؛ فقد قيل في توجيهه: إنَّ كونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 321.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 356.

(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 356.

الشَّيء لازمًا - بحسب القاعدة النَّحويَّة - لا يُنافي قصد إفادة ما يقتضيه المقام[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله تعالى ﴿فَلَا﴾:

التَّفريعُ على الإخبارِ بالعداوةِ بالنَّهي عن الانقياد للوسوسةِ والشَّقاوة

قولُه تعالى: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ تَفريعٌ على الإخبارِ بعَداوةِ إبْليسَ له ولزوجِه، بأنْ نُهيا نَهْيَ تَحذيرٍ عن أنْ يتسبَّبَ إبليسُ في خُروجِهما من الجنَّة؛ لأنَّ العَدُوَّ لا يَروقُه صَلاحُ حالِ عدُوِّه[2]، وإذا ثبتت العداوة؛ فلا بدَّ أن يتوقَّع آدم نتائجها، وهي مُحاولة إخراجه من المكان الَّذي كُرِّم فيه، وكان السَّجود والخضوع فيه، ولذا جيء بهذا التَّفريع[3].

دلالةُ النَّهي في الآية وسرُّ توكيده:

التَّحذير من تَسَبُّب الشَّيطان في إخراج آدم وزوجه من الجنَّة

وقع النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ في صورة نهي عن عملٍ هو من أعمال الشَّيطان لا من أعمال آدم؛ كنايةً عن نهي آدمَ عن التَّأثُّر بوسائل إخراجهما من الجنَّة، كما يقالُ: لا أعرفنَّك تفعلُ كذا؛ كنايةً عَن: لا تَفعَل، أي: لا تَفعَل كَذا حَتَّى أعرِفَهُ منك، وليسَ المُرادُ النَّهيَ عَن أن يَبلُغَ إلَى المُتَكَلِّم خَبَرَ فِعلِ المُخاطَب، والنَّهي هنا نهيُ تحذيرٍ عن أن يتسبَّب إبليسُ في خروجهما من الجنَّة؛ لأنَّ العدوَّ لا يروقه صلاح حال عدوِّه، والنَّهيُ سببهُ العداوةُ، وقد أُكِّد النَّهيُ بنون التَّوكيد الثَّقيلة، وبأنَّ الخروج من الجنَّة يترتَّب عليه الشَّقاء[4]، وقد جاء هذا النَّهيُ على سبيل النُّصح والإرشاد وزيادة التَّحذير والتَّنفير من هذا العدوِّ المخادع.

نكتةُ المجاز العقليّ بإسناد الإخراج إلى إبليس:

بيانُ أنَّ إبليس هو المُتَسبِّب في إخراج آدمَ وزوجه من الجنَّة بوسوسته

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا﴾، أي: فلا يكونَّن سببًا في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 579.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 321.
(3) محمَّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4798.
(4) محمَّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4798.

إخراجكما، فأُسنِد الإخراجُ إلى إبليس، وإن كان فاعل الإخراج على الحقيقة هو اللّه تعالى؛ لأنَّ إبليس هو سبب إخراجهما، حيث إنَّه لمّا كان بوَسوَسته، هو الَّذي فعَلَ ما ترتَّبَ عليه الخروجُ؛ صَحَّ ذلك[1]، فالإسناد إليه مجاز عقليٌّ؛ لكونه سببًا[2]، وفي ذلك إشعارٌ بِعِظَمِ ما اقترفه في حَقِّهما حينما غرَّر بهما[3]، فأُسند الإخراجُ إلى إبليسَ لزيادةِ التَّحذيرِ والإبلاغِ في التَّنفيرِ[4].

دلالةُ التَّقييد بالجارِّ والمجرور:

التَّنبيهُ على شِدَّة عداوةِ الشَّيطان لآدم وزوجه، وسعيه في زوال النَّعيمِ عنها

التَّقييدُ بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ للتَّنبيه، أي: فإنَّه لا يُقَصِّرُ في ضُرِّكما وإرادة إنزالكما عنها[5]، وإبعادكما عن هذا النَّعيم العظيم والمَنْزِلِ الكريم، والتَّنبيه على شدَّة العداوة موصول بالتَّذكير بأنَّ الخروج سيكون من الجنَّة، وفي الخروج منها خسارةٌ ما بعدها خسارة؛ لذلك نبَّه آدم وزوجه؛ كي لا يكون إبليسُ سببًا في إخراجِهما منها، بطريق الإقناع وبسط البرهان لتمثُّل الخطر، والتَّبصُّر بما في الإخراج من ضرر.

دلالةُ الفاء في جملة ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾:

ترتيبُ مُوجب النَّهي وتعقيبه على عداوته لهما

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾، لترتيب موجب النَّهي على عداوته لهما، أو على الإخبار بها[6]، قال أبو السُّعود: "والفاءُ لترتيب موجبِ النَّهي على عداوته لهما، أو على الإخبار بها، ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 106.
(2) ذكر الزَّركشي إشارة لطيفة في هذا الموضع بأنَّ المجاز هنا عائد على إبليس في كونه سببًا لسبب، لا على أنّه سبب، حيث قال: "المُخرِجُ والنّازِعُ في الحقيقة هُو اللّهُ ﷻ، وسببُ ذلك أكلُ الشّجرة، وسببُ أكل الشّجرة وسْوسةُ الشّيْطان ومُقاسمتُهُ على أنّهُ من النّاصحين وقدْ مثّل البيانيّون بهذه الآية للسّبب وإنّما هي لسبب السّبب"، ينظر: الزَّركشي، البرهان: 2/ 262، ولا إشكال في ذلك فإبليس هو السبب الرئيس والأوَّل في كل هذا.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 91.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 356.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 357.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 579.

جوابٌ للنَّهي"[1]، و﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾ يُحتمل أن يكون منصوبًا بإضمار (أن) في جواب النهي، ويُحتمل أن يكون مرفوعًا على الاستئناف، بتقدير: فأنت تشقى، واستُبعد هذا بأنَّه ليس المراد الإخبارَ عنه بالشقاء بل المراد أن وقَعَ الإخراج حصل[2].

سِرُّ إسناد ﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾ إلى الضَّمير المُفرد العائد على آدم:

إسنادُ الضَّمير لآدم دون حوّاء لكونه القوّام عليها

أُسْنِدَ فعلُ الشَّقاء إلى الضَّمير المُفرد العائد على آدم دونَ حوّاءَ، بعدَ إشراكِهما في الخُروجِ، من حيث كان هو المخاطَب أوَّلًا والمقصود بالكلام، ولأنَّ في ضِمنِ شَقاءِ الرَّجلِ شَقاءَهم، كما أنَّ في ضِمنِ سَعادتِه سعادتَهم، فاخْتُصِرَ الكلامُ بإسنادِه إليه دونَها، مع المُحافَظةِ على الفاصلةِ. أو أُريدَ بالشَّقاءِ التَّعبُ في طلَبِ القوتِ، وذلك مُتعلِّقٌ بالرَّجلِ، وهو راجعٌ إليه[3]؛ ليُعلِمَنا أنَّ نَفَقةَ الزَّوجةِ على الزَّوجِ[4]، وأنَّ عليه التَّكَفُّلَ بأمرِها، وهو القائِمُ عليها، فجرى اللَّفظُ بتَوحيدِه مِن هذه الجِهةِ[5]، وأيضًا فإنَّ آدم يشقى شقاءَين: شقاءَهُ هو الَّذي يقع فيه، وشقاءَهُ إذ يشقى به؛ لأنَّ الرِّجال يتحمَّلون التَّبعات عن أنفسهم وعن النِّساء؛ لأنَّهم قوّامون عليهم، فأوجدت هذا القوامة تبعات عليهم أكثر[6].

دلالةُ الالتفات من خطاب المُثنَّى إلى خطاب المُفرد:

تعبُ الرَّجل في أمرِ المرأة سنَّة الحياة؛ لضمان التَّكامل بينهما

في إسناد فعل الشَّقاء إلى الضَّمير المُفرد عدولٌ عن إسناده إلى ضمير التَّثنية الَّذي يقتضيه ظاهرُ السّياق، ﴿لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا﴾، فهو التفات[7] من التَّثنية للإفراد، وفيه إيماء إلى أنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 45.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 580.
(3) الكشّاف، الزَّمخشري: 3/ 91 - 92، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 40، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 390.
(4) القرطبي، تفسير القُرطبي: 11/ 253.
(5) القصاب، النُّكت الدالة على البيان: 2/ 296.
(6) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4798.
(7) هو من ملحقات الالتفات التي نصَّ عليها غير واحد من العلماء المُعاصرين، حسن طبل: البديع تأصيل وتجديد، ص: 49.

شقاء الذَّكر أصلُ شقاء المرأة، فلمّا نَصَّ سُبحانه على شركتها له في الإخراج؛ فكان من المعلوم شركتُها له في آثاره، وكانت المرأةُ تابعةً للرَّجل، فكان هو المخصوص في هذه الدّار بالكُلِّ في الكدِّ والسَّعي والذَّبِّ والرَّعي، وكان أغلبُ تعبِه في أمر المرأة؛ أُفردَ بالتَّحذير من التَّعب لذلك وعدًّا لتعبها بالنِّسبة إلى تعبه عدمًا، وتعريفًا بأنَّ أمرها بيده، وهو إن تصلَّب؛ قادها إلى الخير، وإلّا قادته إلى الضَّير[1].

سِرُّ التَّعبير بالشَّقاء بدل مُرادفاته:

الزِّيادةُ في التَّحذير من مُوجبات الشَّقاء وأسبابه

المُراد بالشَّقاء هُنا التَّعب في طلب القوت والمعاش، وذلك راجعٌ إلى الرَّجل دون الأنثى، وعبَّر النَّظمُ الكريم عن التَّعب بالشَّقاء؛ زيادةً في التَّحذير منه، فقوله: ﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾، أي: فتتعب، ولم يُرِدْ شقاوة الآخرة؛ لأنَّه لو أرادها ما دخل الجنَّة بعد ذلك؛ لأنَّ الكلام المُقدَّر بعد الفاء خبرٌ، والخبر لا يُخْلَفُ[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

البَعْلُ والزَّوْج:

البعلُ القائمُ بمصالح الأنثى ومنها النِّكاح والزَّوج أعمُّ

الزَّوج يُقال لكلِّ واحد من القرينين مِنَ الذَّكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة، ولكلِّ قرينين فيها وفي غيرها زوجٌ، كالخفِّ والنَّعل، ولكلِّ ما يقترن بآخرَ مماثلًا له أو مضادًّا: زوجٌ[3]، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39]، وقال: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [هود:40]، واسمُ البعل أيضًا ممّا يشترك فيه الزَّوجان، فيُقال للمرأة: بعلةٌ، كما يُقال لها: زوجة في كثير من اللُّغات، وزوج في أفصح اللُّغات، فهما بعلان، كما أنَّهما زوجان[4]، وأصلُ البعل في كلامهم: السَّيِّد، وسمّي به الزَّوج؛ لأنَّه

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 357.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 357.
(3) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات، ص: 384.
(4) الرّازيّ، تفسير الفخر الرّازي: 6/ 439.

مَلَكَ أمر عصمة زوجه، فكان حقيقًا بهذا الاسم، وأطلق العربُ لفظَ الزَّوج على كلٍّ من الرَّجل والمرأة اللَّذين بينهما عصمةُ نكاح، وهو إطلاق عادل؛ لأنَّ الزَّوج هو الَّذي يثني الفرد، فصارا سواء في الاسم، وقد عبَّر القرآن بهذا الاسم في أغلب المَواضِع غير الَّتي حكى فيها أحوال الأمم الماضية، كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: 72]، وغير المَواضِع الَّتي أشار فيها إلى التَّذكير، بما للزَّوج من سيادة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ [النِّساء: 128]، وهاته الآية كذلك؛ لأنَّه لمّا جعل حقَّ الرَّجعة للرَّجل جبرًا على المرأة؛ ذكَّر المرأة بأنَّه بعلُها قديمًا[1]، والرَّجُل لا يكون بَعْلًا للمرأة حَتَّى يدخل بها، وذلك أنَّ البِعال النِّكاح والمُلاعبة، وأصْلُ الكَلِمَة القيام بِالأمر[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 392.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 283، والكفويُّ: الكليّات، ص: 249.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:118 - 119]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تبيانُ أنواعِ من الشَّقاءِ الَّتي لا عَهْدَ لآدم بها في الجنَّة بعد تحذيره من أسبابه

لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى في الآية السّابقة تحذيرَه لآدم عليه السلام منَ الانسياق وراء الشَّيطان، وأنَّه لو أطاع إبليس فسيخرج منَ الجَنَّة ويشقى، ولمّا كان الشَّقاء بالنِّسبة لآدم عليه السلام غير معروف، لعدم عهده به؛ بَيَّنَ اللّه تعالى له هُنا أنواعًا من الشَّقاء الَّتي لا عهد له بها في الجنَّة، فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾، فلمّا امتنَّ اللّه تعالى عليه بهذه النِّعم في الجنَّة، كان ذلك بيانًا؛ لأنَّ الشَّقاء الَّذي سيلاقيه لو خرج منها عَكْسَ ذلك، فعلَّل شقاوة آدمَ على تقديرِ الإخراجِ من الجنَّة، بوصفِها بما لا يوجدُ في غيرِها من الأقطابِ الّتي يدورُ عليها كفافُ الإنسانِ، وهي الشَّبعُ والرّيُّ والكسوةُ والكنُّ(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَضْحَىٰ﴾: مضارع ضَحيَ: كرضي؛ إذا أصابه حرُّ الشَّمس في وقت الضُّحى، ومصدره الضَّحو، وحرُّ الشَّمس في ذلك الوقت، هو مبدأ شِدَّته(2)، والضُّحَى: انبساطُ الشَّمسِ، وامتِدادُ النَّهارِ، وأصلُ (ضحي): يدُلُّ على بروزِ الشَّيءِ(3)، وقوله: ضحا ظلُّه، أي: صار شمسًا، وإذا صار الظِّلُّ شمسًا؛ فقد بَطل صاحبه، وإنَّما أرادَ أنَّه ماتَ، يُقال: ضحا الرَّجل يُضحي؛ إذا صار في الشَّمس، ومِنْه قَول

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 357.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 322.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضحى).

اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1]، والمعنى في الآية: تَبرُزُ للشَّمسِ، فتَجِدُ الحَرَّ[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

أشار النظمُ الكريم إلى أنَّ في الجنَّة أنواعًا من المعايش، لا ينغِّصُها جوع، ولا يكدِّرها عري، ولا يوجد فيها عطش، ولا أذيَّة فيها من الحرِّ، ويتبيَّن الفرق بين نعيم الجنَّة، ونعيم الدُّنيا: أنَّ الأوَّل خالدٌ دائم، لا عناء فيه، وأنَّ الثّاني مؤقَّت فانٍ، مقرون بأنواع المتاعب والمخاطر والعوارض، وعليه فإنَّ لك - يا آدَمُ - على اللّه أن يُطعمك في الجنَّة، فلا تجوع فيها، ويكسوك، فلا تعرَى عن اللِّباس، وأن يسقيَك فلا تَعطَشُ في الجنَّةِ، ويظلُّك، فلا يصيبك حرُّ الشَّمس، ولايُؤذيك حَرُّها[3].

لا يوجد في الجنَّةِ منغِّصات ولا يطرأ على أهلها عوارض ولا آفات

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل جملة افتتاح الآية عمّا قبلها:

جملةُ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ تَعْليلٌ لِلشَّقاءِ المُتَرَتِّب على الخرُوجِ مِنَ الجنَّةِ؛ لِأنَّهُ لَمَّا كانَ مُمَتَّعًا في الجَنَّةِ بِرَفاهية العَيشِ، مِنْ مَأْكَلٍ ومَلْبَس ومَشْرَب واعْتِدالِ جَوٍّ يناسِب المِزاج؛ كانَ الخُرُوجُ مِنْها مُقْتَضِيًا فِقْدان ذلك[4]، وفُصِلت هذه الجملةُ عمّا قبلها؛ لأنَّها جاءت في جواب سؤال مقدَّر، مفاده: إن دخل آدمُ الجَنَّة، ولم يطع إبليس، فلم يخرج منها؛ ألَهُ فيها ما يأكل؟ ألَهُ فيها ما يلبس؟ ألَهُ فيها ما يشرب؟ ألَهُ فيها ما يستظلُّ به؟ فأُجيب بما ذُكِرَ، فالجملةُ تعليل لما

تعليلُ النَّهي عن طاعة إبليس المفضية إلى الإخراج من الجنَّة

(1) ابن قتيبة، غريب الحديث: 1/ 564.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 283، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 233.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 187، والشّنقيطي، أضواء البيان: 4/ 107، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 320.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 322.

يوجبه النَّهي عن طاعة إبليس الَّتي ستؤدّي بهما إلى الإخراج من الجنَّة، وإلى الشَّقاء في الدُّنيا(1).

سِرُّ الإفرادِ في خطاب آدم عليه السلام دون حواء:

بيانُ أنَّ آدمَ هو المقصود الأوَّل بالخِطاب وأنَّ حواء تبعٌ له

وجهُ إفرادِه عليه السلام بما ذُكِرَ؛ لكونه هو المقصودَ الأوَّل بالخِطاب، والقِصَّةُ مدارُها عليه، وأنَّ حواءَ تابعةٌ له في ذلك(2)، "ثمَّ خصَّص بقوله: ﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾، من حيثُ كان آدم هو المخاطَب أوَّلًا، والمقصود في الكلام، وقيل: بل ذلك لأنَّ اللّٰه تعالى جعل الشَّقاء في معيشة الدُّنيا في حيز الرِّجال"(3)، ولا شكَّ أنَّ التَّخصيص بشقاء آدم، هو تبريزٌ لدور الرَّجل في الكفالة والإنفاق، ورعاية البيت، والحفاظ على كيان الأسرةِ، وهو ملمحٌ نوَّه به القرآنُ كثيرًا علَّةً لهذه المفاضلةِ الحكيمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النّساء:34].

بلاغةُ تكرارِ التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّ﴾ و﴿وَأَنَّكَ﴾:

يـقـينُ دوام النِّعم في الجنَّة يبعث الطُّمأنينة في نفس آدم

أُكِّدَتِ الجُملةُ بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ المكسورةِ، و(أنَّ) المفتوحةِ في قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ﴾، وبلاغةُ التَّوكيد هُنا: ليس لأنَّ آدم عليه السلام كان شاكًّا في وعد اللّٰه له، وإنَّما كان هذا من قبيل تقوية يقينه، بأنَّ هذه النِّعم دائمةٌ له في الجنَّة، لبعث الطُّمأنينة في نفسه، في مقام التَّحذير من وسوسة إبليس له، ذلك أنَّ النَّفس عندما تُخوَّف من أمرٍ، مع بيان ما يترتَّب عليه من عواقبَ، تكون أقربَ للانقياد، وأشدَّ حرصًا على الأخذ بما خوطبت به، بخلاف ما لو خلا التَّحذير من بيان هذه العواقب(4).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 391، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 580، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 160.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 45 - 46.
(3) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 67.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 46، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 16/ 324.

توجيه القراءات الواردة في ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ﴾:

قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة: ﴿وَإِنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ﴾، على الابتداء بها، فاستأنف ولم يعطف. فالمعنى: (إن لك يا آدم عدم الجوع وعدم الظمأ). وقرأ الباقون بالفتح، على العطف على اسم ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾، فردّه على قوله: ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾، يريد: (وأنك لا تظمأ) فردّه على المعنى لا على اللفظ[1]. فالاستئناف كان للتأكيد على الحكم من أن آدم عليه السلام لن يظمأ في الجنة. وأتت الجملة المعطوفة للاشتراك في الحكم السابق، رافعة توهما قد يقع: آدم لن يجوع في الجنة، فقد يقول قائل: إذن قد يعطش! فأزالت الجملة المعطوفة هذا التوهم.

الاستئناف للتأكيد على الحكم، والعطف لمشاركته مع غيره

دلالةُ تكرار النَّفي بالأداة (لا) في الآيتين:

النَّفيُ في قوله: ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾، و﴿وَلَا تَعۡرَىٰ﴾، و﴿لَا تَظۡمَؤُاْ﴾، و﴿وَلَا تَضۡحَىٰ﴾، وهو من باب التَّقييد بالنَّفي، وبلاغةُ التَّعبير بصيغة النَّفي تتجلّى في كون المقام هُنا مقامَ ترغيبٍ في التَّمسُّك بالجنَّة، وترهيب من الانسياق وراء وسوسةِ الشَّيطان، ناسبَ أن تأتي الآية بهذه الصِّفات المنفيَّةِ أكثر من إثبات عكسِها، فجاء التَّرغيب في الجنَّة بإثبات هذه النِّعَم المُهيَّأة له فيها، فاجتماع أسباب الرّاحة فيها، ممّا يُوجب المُبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها، وبالجدِّ في الانتهاء عمّا يؤدّي إلى الخروج عنها[2]، وفُهِمَ التَّرهيبُ من جهة أنَّ الخروج منها يستلزم الحرمانَ من هذه النِّعم بلا شكٍّ، فذُكِرَ ذلك لآدم بلفظ النَّفي، لنقائضها الَّتي هي الجوع والعُري والظَّمأ والضَّحو، ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشِّقوة الَّتي حذَّره منها، حتّى يتحامى السَّبب الموقع فيها كراهة لها[3].

المُبالغة في التَّرغيب في الجنَّة والتَّرهيب من وسوسةِ الشَّيطان

(1) ابن خالويه، الحجة، ص: 247، ومكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 107، وابن الجزري، النشر: 2/ 322.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 46.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 92.

توفية مقام الامتنان حقَّهُ بتعداد النِّعم دفعٌ لتوهُّم اتّحادها عند اقترانها

بديعُ قطْعِ النَّظيرِ عن النَّظيرِ في الآية الكريمة:

قَرَنَ النَّظمُ البَديعُ بَين انتِفاءِ الجُوعِ واللِّباسِ في قَوْله: ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾، وقَرَنَ بَيْنَ انتِفاءِ الظَّمَأ وألَمِ الجِسمِ في قَوْله: ﴿لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾؛ لِمُناسَبَةِ بَينَ الجُوعِ والعُري في أنَّ الجُوعَ: خُلُوُّ باطِنِ الجِسمِ عَمّا يَقيه تَألُّمَهُ، وذَلِكَ هُوَ الطَّعامُ، وأنَّ العُريَ: خُلُوُّ ظاهِرِ الجِسمِ عَمّا يَقيه تَألُّمَهُ، وهُوَ لَفحُ الحَرِّ وقرص البرد، ولمناسبة بَينَ الظَّمَأ وبَينَ حَرارَةِ الشَّمسِ في أنَّ الأوَّلَ ألَمُ حَرارَةِ الباطِنِ، والثّاني ألَمُ حَرارَةِ الظّاهِرِ، فهَذا اقتَضَى عَدَمَ اقترانِ ذِكرِ الظَّمَأ والجُوعِ، وعَدَمَ اقترانِ ذِكرِ العُري بِألَمِ الحَرِّ، وإن كانَ مُقتَضَى الظّاهِرِ جَمعَ النَّظيرَينِ في كِلَيهما؛ إذ جَمعُ النَّظائِرِ من أساليبِ البَديعِ في نَظمِ الكَلامِ بِحَسَبِ الظّاهِرِ لَولا أن عَرَضَ هُنا ما أوْجَبَ تَفريقَ النَّظائِرِ[1]، وما حدث هُنا هو ما يسمّيه البلاغيُّون: قطْعَ النَّظيرِ عن النَّظير، وهو لا يُستساغ إلّا إذا اشتمل على فائدة.

وما يجيء على سياق النظم في وهم المتوهّم من القول بملاءمة اقتران الجوع مع الظمأ، والتّعرّي والتضحّي، فإنّما هو نظرٌ لا يرقى إلى بلاغة القرآن وعميق معناه، وقد ذُكِرَت في حكمةِ الجمع بين هذه الأوصاف - مع ما فيها من قطْعِ النَّظير عن نظيره - أقوالٌ: منها ما ذَكَرَه أبو السُّعود، بقوله: "فصْلُ الظَّمأ عن الجوع في الذِّكْرِ، مع تجانُسهما وتقارنِهما في الذِّكر عادةً، وكذا حالُ العُرْي والضَّحْو المُتجانسين، لتوفية مقام الامتنان حقَّه بالإشارة إلى أنَّ نفي كلِّ واحد من تلك الأمور نعمةٌ على حيالها، ولو جُمع بين الجوع والظَّمأ؛ لرُبَّما تُوهِّم أنَّ نفيَهما نعمةٌ واحدةٌ، وكذا الحالُ في الجمع بَيْنَ العُرْي والضَّحْوِ، ولزيادةِ التَّقرير بالتَّنبيه على أنَّ نفْيَ كلِّ واحدٍ مِنَ الأُمورِ المذكورةِ مَقصودٌ بالذّاتِ، مَذكور بالأصالةِ، لا أنَّ نفْيَ بعْضِها مَذكور

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 321 - 322.

بطريقِ التَّبعيةِ، لنفْيِ بعْضٍ آخَرَ، كما عسى يُتَوهَّمُ لو جُمِعَ بين كلٍّ منَ المُتجانسَين"[1].

التَّنبيهُ على أنَّ الأوَّلَين أصلان، والأخيرَين مُتمِّمان:

وضْعُ الألفاظِ في موضعها من السّياق من فصيح البيان

في قطع النَّظيرِ تنبيهٌ على أنَّ الأوَّلَين - أي: الشِّبع والكسوة - أصلان، وأنَّ الأخيرَين - أي: الظمأ والتضحّي - مُتمِّمان، فالامتنان على هذا أظهرُ، ولذا فرَّق بين القرينتين، فقيل: ﴿إِنَّ لَكَ﴾ و﴿وَأَنَّكَ﴾، وأيضًا رُوعيَ مُناسبة الشِّبَع والكسوة؛ لأنَّ الأوَّل يكسو العظام لحمًا، وأمّا الظَّمأ والضُّحى؛ فمن وادٍ واحد، على أنَّ في هذه الآية سرًّا زائدًا على ما ذُكِرَ، وهو قَصْدُ تناسب الفواصل، ولو قُرِن الظَّمأ بالجوع، فقيل: (إنَّ لك ألّا تجوع فيها، ولا تظمأ)؛ لانتثر سلك رؤوس الآي[2]، وقد ذكر الشهاب الخفاجي ذلك، فقال: "قيل: إنَّه عدل عنه تنبيهًا على أنَّ الأوَّلَين - أعني: الشبع والكسوة - أصلان، وأنَّ الأخيرين متمِّمان، فالامتنان على هذا أظهر، ولذا فرَّق بين القرينتين، فقيل: ﴿إِنَّ لَكَ﴾، و﴿وَأَنَّكَ﴾، وأيضًا رُوعيت مناسبة الشَّبع والكسوة؛ لأنَّ الأوَّل يكسو العظام لحمًا، وأمّا الظمأ والضحى؛ فمن وادٍ واحد، وهذا الثاني هو ما أشرنا إليه، وقيل: إنَّ الغرض تعديدُ هذه النعم، ولو قرن كلًّا بما يُشاكله؛ لتُوهِّم المقرونان نعمةً واحدة، مع قصد تناسب الفواصل، والأحسن ما قلناه، وعدمُ التناسب غيرُ مسلم"[3].

سِرُّ الإضمارِ بعد الأفعالِ الأربعة:

علَّةُ التَّصريحِ بالأفعال مع إفادة تعظيمِ الجَنَّة، وما فيها من النِّعَمِ الأثيرة

أشارَ النَّظمُ الكريمُ إلى الجنة بالضمير، ولم يصرِّح بها في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾، أي: في الجنَّة، وكذا الحالُ في ما بعده من الأفعال، وسببُ هذا الإضمار أنَّه جاء التَّصريح بها أوَّلًا:

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 46.

(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 7/ 151.

(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 229.

﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾، بالإضافة إلى أنَّ الإضمارَ هُنا، فيه تعظيمٌ للجَنَّة وما فيها من النِّعم المذكورة، والمقامُ هنا مقامُ تعداد ما فيها من نعم، وذكرُها بالإضمار والتصريح بالنِّعم فيه تفخيمٌ لشأن هذه النِّعم، مع أنَّها مذكورة لكنَّ كيفيَّتها لا تحيط بها العقول، ولا تدركها الأفهام، وذلك كقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: 17][(1)].

سِرُّ تكرارِ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ بعد النَّفي:

بيانُ أنَّ الجنَّة ما خُلِقَت إلّا للتَّنعُّم، والتَّعريض بالدُّنيا وحقارتها

في تكرارِ لفظةِ ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾، وإخراجها في صيغة النَّفي مكرَّرة الأداة تنويهٌ بعظمتها وشأنها، وإيماء إلى التَّعريض بأحوال الدُّنيا، وأنَّه لا بدَّ من مقاساتها فيها؛ لأنَّها خُلِقَت لذلك، وأنَّ الجنَّة ما خُلِقَت إلّا للتَّنعُّم، ولا يُتَصَوَّر فيها غيره[(2)].

نُكتةُ العدولِ عن التَّصريح بالنِّعم إلى نفي نقائضها:

التَذكيرُ بالأُمورِ المُنْكَرةِ والتَّنبيهُ على ما فيها من شقوة

العُدولُ عن التَّصريح بأنَّ له ﷺ فيها تَنعُّمًا بفُنونِ النِّعم، مع أنَّ فيه من التَّرغيبِ في البقاءِ فيها ما لا يَخْفى، إلى ما ذُكِرَ من نفْيِ نَقائِضِها الَّتي هي الجوعُ والعطشُ، والعُرْيِ والضُّحيُّ، لتَذكيرِ تلك الأُمورِ المُنْكَرة، والتَّنبيه على ما فيها من أنواعِ الشِّقوةِ الَّتي حَذَّرَه منها؛ ليُبالِغَ في التَّحامي عن السَّببِ المُؤدّي إليها، على أنَّ التَّرغيبَ قد حصَلَ بما سُوِّغَ له من التَّمتُّع بجَميع ما فيها، سِوى ما استُثْنيَ من الشَّجرة، حسَبَما نطَقَ به قولُه تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [البقرة: 35]، وقد طُويَ ذِكْرُه هَهُنا؛ اكتفاءً بما ذُكِرَ في مَوضعٍ آخرَ، واقتُصِرَ على ما ذُكِرَ مِنَ التَّرغيبِ المُتضمِّنِ التَّرهيبَ[(3)].

---

(1) البروسويّ، روح البيان: 5/ 436، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 426.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 580.
(3) الكشّاف، الزَّمخشري: 3/ 92، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 41، وأبو حيّان الغرناطي: 7/ 390.

سِرُّ تخصيصِ المذكورات الأربع:

جمعَ اللّه تعالى في ما ذكره من النِّعَم (الطَّعام والشَّراب والكِسوة والمَسكَن) لآدَمَ ﵇ أصولَ كَفافِ الإنسانِ في مَعيشتِه، إيماءً إلى أنَّ الاستكفاءَ منها سيكونُ غايةَ سَعيِ الإنسانِ في حياتِه المُستَقبلية؛ لأنَّ الأحوالَ التي تُصاحِبُ التَّكوينَ تكونُ إشعارًا بخصائِصِ المُكَوَّن في مُقَوِّماتِه[1].

الاستكفاءُ من هذه الأربعة سيكونُ غايةَ سَعيِ الإنسانِ في حياتِه المُستَقبلية

بديعُ المُقابلة المعنويّة في الآيتين الكريمتين:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، مُقابَلَةٌ مَعنويَّة حسَنَةٌ، فالجوعُ خُلوُّ الباطِن، والتَّعرّي خُلوُّ الظّاهِرِ، فهما مُتناسِبانِ في المَعنى، والظمأُ: إحراقُ الباطِنِ، فهو مُوجِبٌ لحرارةِ الباطِنِ، والضَّحوُ إحراقُ الظّاهِرِ؛ فهو مُوجِبٌ لحرارةِ الظّاهِرِ، فقابَلَ الخُلُوَّ بالخلوِّ، والإحراقَ بالإحراقِ، واقتَضَتِ الآيةُ نفيَ جميعِ الآفاتِ ظاهِرًا وباطِنًا[2]، قال الكفويُّ: "جاءَ بِالجُوعِ مَعَ العري، والضُّحَى مَعَ الظَّمأ، وباب الجُوع مَعَ الظمأ، والضُّحَى مَعَ العري، لَكِنَّ الجُوعَ خلوُّ الباطِن، والعريَّ خلوُّ الظّاهِر، فاشتركا في الخُلُوِّ، والظَّمأ احتراق الباطِن، والضُّحَى احتراقُ الظّاهِر، فاشتركا أيْضًا في الاحتراق"[3].

اقتضاءُ الآيتين نفيَ جميعِ الآفاتِ عن أصحاب الجنَّة ظاهِرًا وباطِنًا

فائدة التخصيص في قوله: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾:

ذِكر العريّ في قوله: ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ شاملٌ لكلّ تكشّفٍ للجسد على أيّ مؤثر خارجيّ؛ والتّضحّي جنسٌ من أجناس التعرّي وهو منه في المعنى، وذلك أنّ التضحّي تكشّفٌ للشّمس في أكثر أوقاتها سطوعًا، لكنّ ذكر التضحّي تخصيص يعرّج على حالة واصفة للجنّة بأنها

لا يذوقون فيها شمسًا ولا زمهريرا

(1) تفسير ابن عاشور: 16/ 322.

(2) أبو حيان، تفسير أبي حيان: 7/ 391، وابن القيم، بدائع الفوائد: 3/ 240.

(3) الكفويُّ، الكليّات، ص: 292.

لا شمس فيها، والانتقال من الأعمّ إلى الأخصّ بلاغةٌ، لاختصاص الأخصّ بما لا يوجد في الأعمّ(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُوع والمخمصة والمسغبة:

الجوع في اللُّغة: ضدُّ الشِّبَع، وهو الألم الَّذي يصيب الإنسان بسبب خُلُوِّ المعدة من الطَّعام(2)، والمخمصة في اللُّغة أصلها: الضُّمور، وتُطلَق على الجوع الشَّديد الَّذي يُورِّث خَمصَ البطن(3)، أي: ضُموره، وفي حديث جابر ﷺ قال: "رأيت بالنَّبيِّ ﷺ خَمصًا شديدًا"(4)، أمّا المسغبة في اللُّغة؛ فهي الجوع مع التَّعب(5).

الجـوعُ ألـمٌ بسـبب خـواء البـطـن، والمخمصة ظهور أثر الجوع عليها، والمَسْغبَةُ أشـدُّ أنـواع الجوع

فهكذا تتدرَّج معاني هذه الألفاظ المُتقاربة، فأهْوَنُها الجوعُ، وأشدُّ منه المخمصة، أمّا المَسْغبَةُ؛ فهي أشدُّ أنواع الجوع، وما يصاحب ذلك من ضعفٍ وإعياءٍ وتعب، وقد راعى الاستعمال القرآنيُّ هذه الملامح الدَّلاليَّة المتميزة للكلمات الثَّلاث؛ فقد ورد لفظ (الجوع) في القرآن الكريم خمس مرّات، فجاءت كلمة (الجوع)، للتَّعبير عن أيِّ شيءٍ من الإحساس بالجُوع، ولو كان يسيرًا؛ ولذا عُبِّر بقوله تعالى: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ [البقرة: 155]، أي: بقليل من كلِّ واحدٍ من هذه البلايا(6)، ووردت في نفي الجوع والعُرْي في الجنَّة في آية طه، ومعنى هذا أنَّ الجوع شيءٌ يسير، فالمُراد بيانُ سعادة أهل الجنَّة، ونفي الشَّقاوة عنهم، حتَّى لو كانت شيئًا يسيرًا من الجوع.

وأمّا المخمصة؛ فقد وردت في القرآن الكريم مرَّتين، وعُبِّرَ

(1) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص: 140.
(2) الرّاغب، المفردات: (جوع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خمص).
(4) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4102)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2039).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سغب).
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 207.

بالمخمصة في موطن الجوع الشَّديد الَّذي يُورِث ضمور البطن، وذلك في حال الاضطرار الشَّديد، وقد كانت بلاد العرب قليلةَ الأقوات، معرَّضةً للمخمصة عند انحباس الأمطار، أو في شِدَّة كَلَبِ الشِّتاء، فلم يكن عندهم من صنوف الأطعمةِ، ما يعتاضون ببعضه عن بعض، كما طفحت به أقوالُ شعرائهم[1].

وأمّا المسغبةُ؛ فوردت في القرآن الكريم مرَّة واحدة، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥﴾ [البلد: 14 - 15]، عُبِّر بالمَسغبة هُنا تفسيرًا لكلمة ﴿ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [البلد: 12]، وهي فكُّ رقبة، ثمَّ الإطعام في يوم ذي جوع شديد، يصاحبه تعبٌ وإعياء، حين تعِزُّ الأقوات، وتَشِحُّ بها النُّفوس، فالإطعامً في ذلك اليوم أفضل، وهو العقبة، ودون العقبة مصاعدُ متفاوتة، ويمكن الاستئناس لهذا التَّفسير للمسغبة بأنَّها جاءت مقترنة بالمَتْرَبة؛ وهي ألّا يجد الإنسان شيئًا فيلتصق بالتراب[2].

ونخلص ممّا سَبَقَ إلى وجود تقارب دلاليٍّ بين ألفاظ الجوع والمخمصة والمسغبة، فجميعُها تشترك في معنى الإحساس بخُلُوِّ المعدة من الطَّعام، وتتميَّز المخمصةُ، بظهور أثرِ الجوع على المظهر الحِسّي للبطن، بينما تتميَّز المسغبةُ بالتَّعب المُصاحب للجوع، فهي وصفٌ لأثر الجوع على النَّفس[3].

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 6/ 108.

(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 191.

(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 11/ 10، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 30/ 358، ومحمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 192.

﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه:120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبط بين مزايا الجنَّة ونعيمها، وبين إغراء الشَّيطان لآدم بالخلود فيها

لّما ذكر الله في الآيات السّابقة تحذيرَهُ لآدم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ له بعد ذلك مقوِّمات حياته في الجنَّة، وما فيها من نعيم مُقيمٍ له ولزوجه، ذكر في هذه الآية وقوعَ ما حذَّر آدم عليه السلام منه بوقوع الوسوسة الَّتي سيترتَّبُ على الانسياق لها خروج آدم عليه السلام وزوجه من الجنَّة، فقال: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، فبيَّن سُبحانه أنَّ آدم عليه السلام، مع هذه النَّصائح والتَّحذيرات، لم يستطع أن يَسْتَمِرَّ على الاستجابة، لنهي ربِّه إيّاه عن الأكل من الشَّجرة، بل تَغلَّب عليه ضعفُه، فاستمع إلى مكرِ الشَّيطان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَوَسۡوَسَ﴾: الوسوسةُ همسُ صوتٍ شَديدِ الرِّقَّةِ واللُّطف، كالَّذي يُسْمع من احتكاك الصَّفائح الذَّهبيَّة المتدلّية من الحِلْية، ومنه هَمسُ الصّائد الكلام الَّذي يخفيه حتّى لا يسمعه الصَّيد، فينفرُ، ويفرُّ[2]، والوسواس اسمٌ مِن وسوَسَتْ إليه نَفسُهُ؛ إذا حَدَّثَتْهُ، وبالكَسْرِ مَصدَرٌ[3]، والوَسْواسُ أيضًا الشَّيطانُ؛ لأنَّ هذه هي وسيلته في إيصال ما يُريد، والوَسْوَسةُ: الخَطْرةُ الرَّديئةُ من

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 9/ 161.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وس)، والرّاغب، المُفردات، ومحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وسوس).

(3) الفيوّمي، المصباح المنير: 2/ 658.

الوَسواسِ، والمعنى هُنا: فألقَى وحَدَّثَ[1]، وتقول: وسوس إليَّ، ووسوس في صدري، وفلان مُوسوِسٌ، أي: غلبت عليه الوسوسةُ، والوَسواس: اسم الشَّيطان في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ [الناس: 4][2]، وفي الكليّات: "الوسوسة: القَوْل الخَفي لقصد الإضلال، من وسوس إلَيْهِ، ووسوس لَهُ، أي: فعل الوسوسة لأجله، وهي حَديث النَّفس والشَّيطان بِما لا نفع فيه ولا خير"[3].

2) ﴿ٱلْخُلْدِ﴾: (خلد) تدلُّ تَصريفاتُها على الثَّبات والمُلازَمَةِ[4]، ومِنْهُ الخُلْدُ والخلودُ، بمعنَى: البَقاء والدَّوامِ، وهو في الأصْلِ: المُكْثُ الطَّويل، والعرب تصف بالخلود كلَّ ما تباطأ تغيُّره وفساده، وكذلك وصفت الأيّام بالخوالد، لطول مُكثِها لا لدوام بقائها[5]، وأخلد إلى الأرض: اطمأنَّ إليها، ولزِمها: أطال بها الإقامة[6]، أو ركَن إلى الدُّنيا وسكَنَ؛ ظانًّا أنَّه يخلدُ فيها، ومعنى شجرة الخُلْدِ هُنا: من أكل منها؛ دام مكثُهُ، ولم يمت[7].

3) ﴿يَبْلَىٰ﴾: يَزُولُ أَوَ يَضعُفُ، يقال: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلُق، والبالي من الثِّياب: الخَلِقُ الَّذي يُبْتَذَل[8]، وبَلِيَ المَيِّتُ: أفْنَتْهُ الأرْضُ[9]، فالمادَّةُ موضوعةٌ لضدِّ الجِدَّة، يقال: بَلِي الثَّوب بِلًى وبَلاءً: خَلُق، ومنه قولهم: بلوتُهُ: اختبرتُه، أي: كأنّي أخلقْتُهُ من كثرة اختباري[10]، والمعنى هُنا: لا ينقطع، ولا يزول[11].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ألقى إبليسُ إلى آدَمَ وسوستَهُ، وكلَّمه كلامًا خفيًّا، فقال له: هل أرشدُك إلى شجرةٍ مَنْ أكل منها؛ فلا يموت أبدًا، ويكُنْ له مُلكٌ لا يَفنى، ولا ينقَطِعُ؟[12] وقد أتاه بصورة النّاصح

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 188.
(2) إبراهيم بن إسحاق، غريب الحديث: (عق).
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 942.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(5) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (خلد).
(6) الزَّمخشري، أساس البلاغة: 1/ 261.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 282، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 7/ 152.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (بلى)، والكفوي، الكليّات، ص: 977.
(9) الفيومي، المصباح المنير: 1/ 62.
(10) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 274.
(11) النّيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 577.
(12) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 188، والنّسفي، تفسير النَّسفي: 2/ 387، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 515، ومجموعة من العلماء، المُختصر في التَّفسير، ص: 320.

إغـراءُ إبليسَ لآدمَ بالخلود وعـدم الفناء تدليسٌ وتزييفٌ

الأمين، وقام بدغدغة مطامعه، وهو توقُه إلى الخلود، وطمعُهُ في طول المتعة، وامتداد الاستمتاع بنعيم الجنَّة الَّذي لا ينقضي، ولا يفنى، بل يتجدَّد، ولا يتبدَّد، فأغراه ذلك اللَّعينُ، ووسوس إليه، وأغواه، حتّى وقع مع زوجه في المعصية.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في مطلع الآية الكريمة:

تَعقيبُ مَضمونِ جُملتِها على مَضمونِ الَّتي قبْلَها

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ﴾، لتَعقيبِ مَضمونِ جُملتِها على مَضمونِ الَّتي قبْلَها، وهو تَعقيبٌ نِسبيٌّ بما يناسِبُ مُدَّةَ تقلُّبٍ في نعيم الجنَّةِ، حتَّى حسَدَه الشَّيطانُ، واشتَدَّ حسَدُه[1]، فالمعنى: فتعقَّب تحذيرنا هذا من غير بُعد في الزَّمان أن وسوس إليه الشيطان[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿فَوَسْوَسَ﴾ في السّياق:

إفــادةُ معنى التَّكرُّر والإلحاح الإغراء بالشَّيء وتزيينه

﴿فَوَسْوَسَ﴾ يتركَّب مِن تكرار المقطع (وس)، وهي صيغة تُفيد التَّكرار؛ لأنَّه لا ينفكُّ عن الوسوسة، ويُسمّى تكرار المقطع لتكرار الحَدَث، حيث تكرَّر فيها المقطع (وس)، كما في كلمة كَبْكَبَ في قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشُّعراء:94]، تكرَّر لفظ (الكبِّ)، وحَقيقَة ذَلِك في اللُّغَة تَكرير الانكباب، كَأَنَّهُ إذا ألقي ينكب مرَّةً بعد مرَّةٍ، حَتَّى يَسْتَقِرَّ فيها[3]، فهذه الصّيغةُ للدَّلالة على تكرار الحدث، وهذا التَّكرارُ الصَّوتي لهذا المقطع، يُحاكي عمليَّة الوسوسة، بما تشتمل عليه من إلحاحٍ وإغراء بالشَّيء، يقتضي تكرارَ الإيعازِ به مرَّةً بعد مرَّةٍ.

فائدة التعدية في ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ﴾ و﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا﴾:

عُدّيَ فعْلُ ﴿فَوَسْوَسَ﴾ هُنا بحرْفِ الجر (إلى)، وعُدّي باللّام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 325.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 358.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كب)، والنّيسابوريّ، إيجاز البيان: 2/ 624، والمصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 10/ 21.

في قوله تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 20]؛ وذلك باعتبارِ كيفيَّةِ تَعليقِ المجرورِ بذلك الفِعلِ في قصْدِ المُتكلِّم، فإنَّه فِعْلٌ قاصرٌ لا غِنَى له عن التَّعديةِ بالحرفِ، فتَعديتُه بحرْفِ (إلى) هُنا باعتبارِ انتهاءِ الوَسوسةِ إلى آدمَ وبُلوغِها إيّاهُ، باعتبار تضمينه معنى الإنهاء والإبلاغ[1]، وتَعديتُه باللّامِ في (الأعرافِ)، باعتبارِ أنَّ الوَسوسةَ كانتْ لأجْلِهما[2]، وأيضًا كأنَّه عبَّر بـ (إلى)؛ لأنَّ المقامَ لبَيانِ انتهاء الغاية الزمانية في قَبولِ الوسوسة، وإنْ أتَتْهُ مِن بَعدُ، أو لأنَّه ما أنهَى إليه ذلك إلّا بواسطةِ زَوجِه؛ لذلك عَدَّى الفعلَ عند ذِكرِهما باللّام[3]، ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ﴾؛ فعُدّي وسوس بـ(إلى)؛ لأنَّه بمعنى: أسرَّ؛ وعدّاه في موضع آخر باللّام؛ لأنَّه بمعنى: ذكر له، أو يكون بمعنى لأجله[4].

اعتبار بُلوغِ الوَسوسةِ إلى آدمَ، وبيان سرعة وصولها إليه

سِرُّ التَّقييد بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾ بدل (فيه):

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ﴿إِلَيۡهِ﴾، بدل (فيه)، حيث قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، ولم يقلْ: (فيه)؛ لأنَّ المعنى أنَّه ألقَى إليه ذلك مخاطبةً، وأوصَله إليه، فدخَل في قلبِه[5]، ومعنى وسْوَسَ إِلَيْهِ، أي: أنهى إليه الوسوسةَ.

بيان أنَّ الإلقاءَ كان إليه مُخاطبةً، فلمّا وصله؛ دخل في قلبه

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بدلًا من (إبليس):

استعمل البيان القرآني في هذا المقام وصفَ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، المأخوذَ من فعل (شَطَنَ)، بمعنى: (بَعُدَ)، والمأخوذَ من الشَّدِّ بالشَّطن، وهو الحبلُ الَّذي يُدلّى به الدَّلو إلى أسفل البئر، وقد استحقَّ إبليسُ هذا الاسم الوصفيَّ الجديد، إذ قد هيَّأ نفسه للإغراء والإغواء، والإضلال عن صراط اللّه المستقيم، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ إبليس، قد

بيانُ بُعدِ الشَّيطان عن الحَقِّ، والإشارةُ إلى إبعاد النّاس عن الصِّراط

(1) إسماعيل حقّي، تفسير روح البيان:/ 437.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 325.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 358.
(4) العكبريّ، التِّبيان: 1/ 261.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/ 262.

صار بذلك بعيدًا بُعدًا سحيقًا عن الحَقِّ والخير والهدى، مطرودًا من دائرة رحمة الرَّحمن الواسعة، وصار مُبْعِدًا عبادَ الله عن الصِّراط المستقيم بوساوسه وتسويلاته، وهو يتَّخذ حبائل كثيرة، يدلّي بها عباد الله إلى جحيم المعاصي والآثام، حتّى حضيض الكفر بالله ﷻ.

بيانُ معنى الوسوسة المذكورة سابقًا

عِلَّةُ فصل جملة ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾، إمّا بدَلٌ من ﴿فَوَسْوَسَ﴾، أو استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأ منه، كأنَّه قيلَ: فماذا قال في وسوسَتِهِ؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾[1]، أو بيَانٌ لجُملةِ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2]؛ لأنَّ قوله: ﴿فَوَسْوَسَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الفعل كـان لغرض الإيقاع في المعصية، حسبما يتبادرُ للذِّهن من معنى كلمة الوسوسة الَّتي تدلُّ علـى الخطاب في خفاء، فيحصل في نفس القارئ والسّامع توقُّعٌ لغرض هذه الوسوسة، قبل العلم بمحتواها، فيحصل في نفسِه شوق لمعرفة ما قال الشَّيطان: كي يغوي آدم، لذا كان الجوابُ بـ﴿قَالَ﴾ أوقعَ، فلم يعطف: ﴿قَالَ﴾ على ﴿فَوَسْوَسَ﴾؛ لكونه تفسيرًا له وتبيينًا[3]، ولو أنَّه جاء بالواو؛ لأوهمَ المُخالفة والتَّغاير[4].

الدَّلالةُ على أنَّ الوسوسة كانت كلامًا مسموعًا

دلالةُ ذِكْرِ (القول) بعد ذِكْرِ (الوسوسة):

قولُ الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، يدُلُّ على أنَّه إنَّما وسوسَ إليه الشَّيطانُ مُخاطبةً، لا أنَّه أوقَعَ ذلك في نَفسِه بلا مُقاوَلة، فمَن ادَّعى على الظّاهِرِ تأويلًا، ولم يُقِم عليه دليلًا، لم يجِبْ قَبولُ قَولِه، ويدلُّ أيضًا على أنَّ الوسوسةَ قد تكونُ كلامًا مَسموعًا أو صَوتًا[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 47.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 325.

(3) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 259، وجاء في جواهر البلاغة: أنَّ في الجملة كمالَ اتِّصال، وهو اتِّحادُ الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا بحيث نزِّلت الثانية منزلة الأولى نفسها، بأن جاءت الجملة الثانية بيانًا لإبهام في الجملة الأولى، فهي بيان لما وسوس به الشيطان إليه، الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 183.

(4) البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 138.

(5) ابن القيِّم، مفتاح دار السّعادة: 1/ 13.

فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة، وقد أوضح النَّظم الكريم هذا القول في سورة الأعراف، وبيَّن أنَّه وسوس إلى حواء أيضًا مع آدم، وذلك في قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ [الأعراف: 21 - 22]؛ لأنَّ تصريحه تعالى في آية الأعراف هذه بأنَّ إبليس قاسمهما - أي: حلف لهما على أنَّه ناصحٌ لهما فيما ادَّعاه من الكذب - دليلٌ واضح على أنَّ الوسوسة المذكورة كلامٌ مسموع[1].

نُكتةُ النِّداء باسم آدم هُنا:

نـاداه باسمه ليكون أكثرَ إقبالًا عليه، وأمكنَ في الاستماع إليه

نادى الشَّيْطانُ آدمَ ﷺ باسمه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾ مُوهِمًا له أنَّه ينصحهُ، كما نصحه اللّه بالنِّداء، ليكون أكثرَ إقبالًا عليه، وأمكنَ في الاستماع إليه[2]، وقولُهُ كان على جهة النَّصيحة والتَّغرير، فذكر له أنَّه يهديه ويرشده ليحوز مُلْكًا لا يبلى، ومتاعًا لا يخلَقُ، ونعيمًا لا يفنى، بل يتجدَّد دائمًا بلا انتقال ولا زوال، ورغم زيف القول، وفساد المنقول، سمِعا منه قولَهُ المعسول، وابتلعا سمَّهُ الزُّعاف، وقبلا منه تلك الوسوسةَ المغرَّرة، وهاتيك المكائدَ الماكرة، ونسيا عهدَ مَن لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، فاستسلما لنصائحِه، وأكلا من الشَّجرةِ الممنوعة، فكان الهوان، وانكشفَ العوار، ووقع ما لا يخفى من الأحداث الكبارِ الَّتي صنعت مشاهدَ قصَّةِ آدمَ بروعة وعِبرةٍ.

دلالةُ الاستفهام المَسوقِ مساقَ العرض في هذا المقام:

الإشعارُ بدعوى النُّصح لآدم، والحرص على مصلحته ومنفعتِهِ

ذكر النَّظمُ الكريم وسوسة الشيطان لآدم في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ﴾؟ وهو استفهامٌ مُستعمَلٌ في العَرْضِ، وجاء على سَبيلِ الاستفهامِ الَّذي يُشعِرُ بالنُّصحِ، ويُؤثِرُ قَبولَ مَن يُخاطِبُه[3]، وعرض عليه ما عرضَ في صورة الاستفهام الَّذي بمعنى الحثِّ والحَضِّ،

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 4/ 398.
(2) اطفيش، تيسير التَّفسير: 9/ 228، والطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 162.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 391، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 325.

ليُشعِرَهُ بأنَّه ناصحٌ له، وحريصٌ على مصلحته ومنفعته[1]، كما ساق له الغِشَّ مساقَ العَرضِ؛ إبعادًا لِنَفسِه من التُّهمةِ والغَرَض، وشوَّقه إليه؛ لأنَّ النَّفسَ شَديدةُ الطَّلَبِ لِعلمِ ما تجهَلُه[2].

إيثارُ الفعل ﴿أَدُلُّكَ﴾ في السّياق الكريم:

ما رغَّب فيه إبليسُ آدمَ هو عينُ ما أمره الله بالاحترازِ منه سلفًا

الدَّلالة هي الإرشاد إلى شيء مطلوب غير ظاهرٍ لطالبه، والدَّلالة على الشَّجرة لقصد الأكل من ثمرتها[3]، وأوهمَهُ أنَّه لا يعلم شيئًا عن قضيَّة الشَّجرة المحرَّمة عليه وعلى زوجه، وأنَّه خالي الذِّهن تمامًا، وأنَّه حريصٌ على نصحه، فهو أسبق منه وجودًا، وأعلمُ بحقائقَ كثيرةٍ من الأمور، وبصفات بعض الأشياء وخصائصها، وأغراهُ بالخُلدِ في الجنَّة بحياة أبديَّة دائمة لا تنقطع، مع نعيم عظيم ومُلك لا يبلى، ولا يفنى، وقد رغَّب إبليسُ آدمَ ﷺ في دوام الرّاحة، بقوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ﴾؟ فجاءه إبليس من الجهة الَّتي رغَّبه اللّه فيها، وفي الأعراف: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: 20] الآية، وهُنا ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ﴾؟ والجمع بينهما: أنَّ قوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ﴾؟ يكون سابقًا على قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا﴾ [الأعراف: 20]، لمّا رأى إصغاءه وميله إلى ما عُرض عليه؛ انتقل إلى الإخبار والحصرِ[4]، فكان الشَّيءُ الَّذي رغَّب اللّه فيه آدم، رغَّبه إبليسُ فيه، إلّا أنَّ اللّه تعالى وقف ذلك على الاحتراز عن تلك الشَّجرةِ، وإبليسَ وقفَهُ على الإقدام عليها[5].

دلالةُ إضافةِ الشَّجرة إلى ﴿ٱلۡخُلۡدِ﴾:

التَّشويقُ إلى تعيين الشَّجرة حتَّى يقبل عليها

أضاف الشَّجرةَ إلى الخُلد، وهو الخلودُ؛ لأنَّ من أكل منها، صار مخلَّدًا بزعمه[6]، وسمّاها بذلك للتَّشويق إلى تعيينها، حتَّى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 582، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 162.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 358.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 326.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 391.
(5) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 215.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 108، وزاده، حاشية محيي الدّين زاده على البيضاويّ: 5/ 666.

يقبلَ عليها، ومعلومٌ أنَّ النَّفس الإنسانيَّة متى تعلَّقت بمجهولٍ - فيه مطلبٌ عظيم من مطالب النَّفس - أخذتْ تَغلي مراجلُها للتَّعرُّف عليه، والوصول إليه، واستعمالِه لتحقيق مطلوبِها العظيم، ثُمَّ عيَّنها له عقب ذلك بما أنبأ به قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾ [طه: 121]، وقد أفصَحَت هذه الآيةُ عن استِقرارِ محبَّةِ الحياةِ في جِبِلَّةِ البَشَرِ[1].

وسمّاها إبليسُ بشجرة الخُلد أيضًا لإشعاره بأنَّ هذا الاسم الوصفيَّ، هو اسمها المعروفُ عند أهل الملأ الأعلى، وهي شجرةٌ من أشجار الجنَّة، فهذا الأسلوب هو أسلوبُ التَّشويق للرَّبط والإزلاق.

فائدةُ عطف ﴿وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ على ما قبله:

زيادةُ التَّرغيب والإغراء بدوام الرّاحة والتَّنعُّم

المُلْكُ الَّذي لا يبلى، أي: لا يفنى، ولا يهترئ، كما تبلى الثّياب، فهو فيما يظهر إغراؤه بسلطان دائم على ذرّيّاته الَّذين يتناسلون منه فيها، بعد أن يأكلَ من شجرة الخلد، فيكون من الخالدين، وإغراؤه بسلطان دائم على أهل الجنَّة وسكّانها، من غير ذرّيّاته، فعطف المُلْكَ الدّائمَ على الخُلْدِ، أي: لا يبيد ولا يفنى؛ رغبةً في دوام الرّاحة[2]، وزيادة على التَّخليد فيها أبدًا، فراقَ لهما ذلك، وقالا: بلى، فما هو؟ قال: تأكلان من هذه الشَّجرةِ، ولم يزلْ يُحَسِّنُ لهما أكلَها حتّى أغراهما[3].

بلاغةُ المجازِ في إطلاق البِلى على الملك:

تأكيدُ دوام الملك، وتحقُّق عدم زواله

استُعمل (البِلى) مجازًا في الانتهاء في قوله: ﴿وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ الثَّوب إذا بَلِيَ؛ فقد انتهى لبسُهُ[4]، والتَّعبير بالبِلَى من قبيل المجاز المُرسل، فنفى عن المُلْكِ البِلى، فضلًا عن الزَّوال،[5] وذَكره

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 326.
(2) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 215.
(3) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 2/ 223.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 326.
(5) المهائميّ، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 2/ 25.

للتَّأكيد وزيادة التَّرغيب[1]، فأراهُما شجرةَ الفناء شجرةَ الخلد، وسببَ زوال المُلك سببَ دوامه، بل سببَ الخزي سببَ القربِ[2].

بلاغةُ الإطنابِ في تفصيل عرض وسوسة إبليس:

الإيضاحُ بعد الإبهامِ تمكينٌ للمعنى في النَّفس، وتحصيلٌ للذَّة العلم به

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾، عُرِضَتِ الوسوسةُ في صورتين مختلفتين، إحداهما مُبهمةٌ، والأخرى موضَّحة، حتَّى يتمكَّن المعنى في نفس السّامع أفضلَ تمكُّن؛ لأنَّ النَّفس إذا أدركت الشَّيء مُجملًا؛ تاقت إلى معرفته مُفصَّلًا، وحينئذٍ يتمكَّن الغرضُ منها، وقد نبَّه الإمامُ عبد القاهر إلى أنَّه ليس إعلامك الشَّيء بغتة غفلًا، مثل إعلامك له بعد التَّنبيه عليه والتَّقدمة له؛ لأنَّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيدِ والإحكام، ومن هنا قالوا: إنَّ الشَّيء إذا أُضمِرَ، ثمَّ فُسِّرَ، كان ذلك أفخمَ له، من أن يُذْكَرَ من غير تقدمةِ إضمارٌ[3]، فالوسوسة مبهمةٌ، وغيرُ معلومةٍ، ولهذا اشتاقتِ النَّفسُ لمعرفة تفاصيلها، فجاء قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ مُزيلًا لذلك الإبهامِ، وموضِّحًا للوسوسة[4].

سرُّ الإيجازِ بعدم ذكر جوابِ آدمَ على سؤال إبليسَ:

الإيجازُ والاختصارُ للكلام، وقُربُ المعنى للأفهامِ

بعد هذا التَّشويق والتَّعليق للرَّبط والإزلاق في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾، لا بدَّ أن يكون آدمُ قد قال لإبليسَ: (نعم، دلَّني عليها)؛ ولكنّ النَّظمَ الكريم سكتَ عن هذا إيجازًا.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الدَّلالة والإرشاد:

الدَّلالة ما يُتَوصَّل به إلى معرفة الشَّيء، كدلالة الألفاظِ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 582.
(2) المهائميّ، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 2/ 25.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 132.
(4) الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ ضمن شروح التَّلخيص: 3/ 210.

المعاني، ودلالةِ الإشارات والرُّموز والكتابة والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممّن يجعله دلالةً، أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركةَ إنسان، فيعلمُ أنَّه حيٌّ، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:14]، والإرشادُ: بيانُ الطَّريق والتَّعريف بالقصد والصَّواب[1]، ولا يُقال: أرشده إلّا إلى المحبوب، والرّاشد هو القابلُ للإرشادِ، والرَّشيدُ مُبالغةٌ من ذلك، ويجوز أن يكون الرَّشيدُ الَّذي صلح بما في نفسه ممّا بعث عليه الخيرُ، والرّاشد: القابل لما دلَّ عليه من طريق الرُّشد[2]، والنّاظر في سياق الآيات التي ورد فيها لفظ الدَّلالة ومُشتقّاته، يجد أنَّ أكثرها في غير معنى الهداية إلى اللّٰه، بل الدَّلالة على شيء دنيويٍّ، عدا قولِ اللّٰه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾ [الصّفّ:10]، ولعلَّ في هذا قرينةً على أنَّ الاستعمال القرآنيَّ للفظ الدَّلالة، يقصره على معنى البيان والتَّعريف، وعلى هذا يكون الإرشادُ أخصَّ من الدَّلالة، فالدَّلالة عامَّة في معنى البيان والتَّعريف، سواء في الخير أم في الشَّرِّ، وبقصد أم بغير قصدٍ، أمّا الإرشاد؛ فهو بيان وجه الحقِّ والخير، ولا يكون الإرشادُ في الشَّرِّ، كما أنَّه لا بدَّ أن يكون مقصودًا[3].

الـدَّلالـةُ عامَّة في معنى البيان والتَّعريف، أمّا الإرشـاد؛ فهو بيانُ وجه الحَقِّ والخير

الخلد والبقاء والدّوام:

الخُلد: دوامُ البقاء، يُقال: خلدَ الرَّجل، وأخلده اللّٰه سُبحانه إخلادًا، وخلَّده تخليدًا، وقيل لأثافي الصُّخور: خوالدُ لبقائها بعد دروسِ الأطلال[4]، وهو أيضًا دوام البقاء في دارٍ لا يخرج منها، ومنه سُمّيت الآخرة دارَ الخُلدِ لبقاء أهلها فيها[5].

الخلودُ استمرارُ البقاء، والبقاء استدامةُ حالةٍ سابقة، والدَّوام أعمُّ منهما

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رشد).
(2) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 4/ 141.
(3) محمّد داود، الفروق الدّلالية، ص: 254.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (خلد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلد)، والكفويّ، الكليّات، ص: 434.

والبقاءُ: هو الثَّبات على حالة سابقة، وكونها مستصحَبةً، والشَّيءُ الدّائم: الشَّيءُ الثّابتُ لا يبرح، والبقاء يقابله النَّفادُ، ويُعدُّ في مفهوم الثَّبات التَّحقيق في نفس الأمر، ويُقابله الزَّوال(1).

أمّا الدَّوام؛ فهو استمرارُ البقاء في جميع الأوقات، ولا يقتضي أن يكون في وقتٍ دون وقت، ولهذا يُقال: إنَّ اللّه لم يزل دائمًا، ولا يزالُ دائمًا، ولمّا كان الخلودُ استمرارَ البقاءِ، من وقت مبتدأٍ، فلا يقال للّه تعالى: إنَّه خالدٌ(2).

فالفرقُ بين الخلود والبقاء والدَّوام: أنَّ البقاءَ هو استدامةُ حالة سابقة في وقتين فصاعدًا، والدَّوامُ استمرار البقاء في جميع الأوقات، والخلودُ استمرار البقاء من وقت مبتدأ مُعيَّن، فهو لزوم مُستمرٌّ، فالخلود مُطلق الدَّوام، والاستمرارُ من وقت مبتدأ، وإذا أُريد الاستمرارُ الدّائم: فيُقيَّد بقرينة لفظيَّة كالأبد ونحوه، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النِّساء:57](3).

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 320.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 118.

(3) المناويّ، التّوقيف، ص: 158، والمصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 3/ 99.

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه: 121 - 122]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ربْطُ الوسوسةِ والأكل من الشَّجرة بانكشاف العورة وقَبول التَّوبة

لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآيات السّابقة تحذيرَهُ لآدمَ عليه السلام من غوايةِ إبليسَ له ولزوجهِ، ثُمَّ ذَكَرَ ما وسوس به الشَّيطانُ له؛ حصلَ في نفس السّامع شوقٌ لمعرفة نتيجةِ هذه الوسوسة، فذكر في هذه الآياتِ وقوعَ آدمَ عليه السلام في أثرِ تلك الوسوسة وأكْلِه من الشَّجرة الَّتي حرَّمها اللّه عليه، وذكر تداركَهُ له بالتَّوبة والمغفرة؛ فكأنَّ آدمَ لمّا وسوسَ إليه الشَّيطان بقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ﴾؟ قال له بلسان الحال أو القال: نعم، فقال: شجرةُ الخُلد هذه - مشيرًا إلى الَّتي نُهي عنها - ما بينك وبين المُلْكِ الدّائم إلّا أن تأكلَ منها، فأكلَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَبَدَتۡ﴾: ظهرتْ، مِن: بَدا الشَّيءُ يَبدُو بَدْوًا وبُدُوًّا، أي: ظهر[2]، وبادَيتُه: جاهَرتُهُ[3]، وأصل (البدوّ) ظُهورُ الشَّيءِ، يُقال: بَدا الشَّيءُ يبدُو؛ إذا ظَهَرَ، فهُوَ بادٍ، وسُمّي خِلافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِنْ هَذا؛ لِأنَّهُم في بَرازٍ مِنَ الأرضِ، ولَيسُوا في قُرًى تَستُرُهُم أبنيَتُها[4]، والمعنى هُنا: ظهرت لهما عوراتهما[5].

2) ﴿وَطَفِقَا﴾: جعلا وظلّا وأقبلا، يُقال: طَفِقَ يفعَلُ كذا، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 358.
(2) الخليل، العين: (بدو).
(3) الصّاحب، المحيط في اللّغة: (بدو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدو).
(5) السَّمرقنديّ، تفسير السَّمرقنديّ: 2/ 415، والخازن، تفسير الخازن: 3/ 215.

جعل وظلَّ يفعَلُ[1]، وهو مثل ظلَّ وبات وما جَمَعَهُما[2]، وطفق من أفعال المقاربة كعلِق، وجَعَل وكادَ وكَرَب لا بُدَّ لهُنَّ من صاحب يصْحَبهنَّ يوصَف بهنَّ، فيرتَفِع، ويطلُبن الفِعْلَ المُسْتَقبَل خاصَّةً[3]، فهي في معنى: جَعَلَ يَفعَلُ ذاكَ، وظَلَّ يَفعَلُهُ[4]، وأصل (طفق) يدلُّ على الإمساك أو العُلوق بجوف الحيِّز كلزوم المكان والعُلوق به[5]، والمعنى هُنا: جَعَلا وأقبَلا[6].

3) ﴿يَخۡصِفَانِ﴾: (خصف) أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على اجتِماعِ شَيءٍ إِلَى شَيْءٍ، وهُوَ مُطَّرِدٌ مُستقيمٌ، ويُقال: خصَفَ النَّعْل يَخصِفُها خَصْفًا: ظاهَر بعضَها على بعض، وأطبق عليها مثلها، وخرزها بالمِخصَف[7]، ومِنَ البابِ الاختِصافُ، وهُوَ أن يَأخُذَ العُريانُ على عَوْرَته ورَقًا عَريضًا، أوْ شَيْئًا نَحوَ ذَلِكَ، يَسْتَتِرُ بِهِ[8]، والمعنى هنا: يَرقَعانِ، ويُلزِقانِ الوَرَقَ بَعضَه ببعضٍ[9].

4) ﴿فَغَوَىٰ﴾: أخطأ، (غوي) أصل يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[10]، يُقال: غَوَى يَغْوي غَيًّا، والغَيُّ: الضَّلال[11]، وغَيَّةٌ: ضدُّ الرِّشدةِ، لفلان غَيَّةٌ، أي: زِنْيَةٌ، وسَأَلَ النَّبيُّ ﷺ قومًا، فقالَ: بَنو مَن أَنْتُم؟ فقالُوا: بَنو غيّان، فقال: أَنْتُم بَنو رِشْدان[12]، وقولهم: قد تغاوَوا عليه، قال أبو بكر: معناه: قد جهلوا عليه، وزَلُّوا، وتغاووا (تفاعلوا) من: غَوَى الرَّجلُ يغوي غيًّا، وغَواية؛ إذا جَهِلَ، وأساءَ[13]، والمعنى هُنا: أخطأ، ولم يصب بأكله ما أراد[14].

5) ﴿ٱجۡتَبَٰهُ﴾: اصطَفاه واختارَه، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، يُقال: اجتبى الشَّيءَ، بمعنى: جباه لنفسِه، أي: جمعه[15]، وأصْلُ (جبي): يدلُّ على جَمعِ الشَّيءِ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طفق).
(2) الخليل، العين: (طفق).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (طفق).
(4) الصّاحب، المحيط في اللغة: (طفق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طفق).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 166، والقرطبيّ، تفسير القرطبيّ: 11/ 255.
(7) ابن سيده، المحكم: (خصف)، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/ 250.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خصف).
(9) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 166، والسَّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 317.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غوى).
(11) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/ 397.
(12) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (غهي).
(13) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 252.
(14) السَّمرقنديّ، تفسير السّمرقنديّ: 2/ 415.
(15) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (جبى).

يقال: جبيتُ الماءَ في الحوض جمعتُه، والحوضُ الجامع له: جابيةٌ، وجمعها جوابٍ[1]، والمعنى هُنا: اصطفاه بالنُّبوَّة وقرَّبه بالحمل على التوبة والتَّوفيق[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ أكلِ آدمَ وحواءَ من الشَّجرة التي نُهيا عن الأكل منها وحالهُما بعد الأكل منها

أكَلَ آدَمُ وحَوّاءُ من الشَّجرةِ الَّتي نهاهما اللّهُ عنها، فظَهَرت لهما عوراتُهما، بعدما كانت مستورةً عن أعيُنِهما، وأخَذَ آدَمُ وحَوّاءُ يُلصِقانِ عليهما مِن ورَقِ أشجارِ الجنَّةِ؛ ليَستُرا به عوراتِهما، وخالَف آدَمُ وصيَّةَ رَبِّه، فأخطأ طَريقَ الصَّوابِ، ولم يحصُلْ على ما وعَدَهُ الشَّيطانُ، ثمَّ اصطَفَى اللّه تعالى آدَمَ بعدَ مَعصيتِه، فتابَ عليه منها، وهداه للتَّوبةِ، ووفَّقه لها، وثبَّته عليها[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في ﴿فَأَكَلَا﴾:

الإشارةُ إلى سببِ الأكل من الشَّجرة

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾؛ للتَّفريعِ على ما قبْلَها[4]، وهذا ممّا يدلُّ على أنَّ آدم قَبِلَ وسوستَهُ، فالفاء مُشعرة بالعلّيّة[5]، وهي تدلُّ على أنَّ سببَ أكلِهما وسوسةُ الشَّيطان المذكورة قبلَهُ في قوله: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، أي: فأكلا منها بسببِ تلك الوسوسة، فكانت وسوسةُ الشَّيطان سببًا للأكل من تلك الشَّجرة، وكان الأكلُ منها سببًا لبدوِّ سوءاتهما؛ والفاء تدلُّ أيضًا على التَّعليل، كقولهم: سها، فسجد، أي: لعلَّةِ سهوه، وسرقَ، فقُطِعت يدُهُ، أي: لِعلَّةِ سرقتِهِ، وما دلَّت عليه الفاءُ هُنا من أنَّ وسوسة الشَّيطان هي سببُ ما وقع من آدم وحواء، جاء مُبيَّنًا في مواضع من كتاب اللّه، كقوله تعالى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جبى).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 41.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 515، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 114.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 326.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 578.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: 36]، فصرَّح بأنَّ الشَّيطان هو الَّذي أزلَّهما.

بلاغةُ الإيجازِ بالقِصَرِ:

التَّنبيهُ على أنَّه لا دافعَ لقضاءِ اللهِ ولا مانعَ منه

توجَدُ جُملةٌ مَحذوفةٌ دَلَّ عليها العرْضُ، أي: فعمِلَ آدمُ بوَسوسةِ الشَّيطانِ، فأكَلَ من الشَّجرةِ، وأكَلَتْ حوّاءُ معه[1]، وآدمُ عليه السلام مع كمالِ عقلِه وعلمِه بأنَّ اللهَ تعالى مولاه وناصرُه ومربّيه، أعلمَهُ بأنَّ إبليسَ عدوُّه؛ حيثُ امتنعَ مِن السُّجودِ له، وعرَّض نفسَهُ للَّعْنةِ بسببِ عداوتِه، فكيف قَبِل في الواقعةِ الواحدةِ والمقصودِ الواحدِ قولَ إبليسَ، مع علمِه بكمالِ عداوتِه له، وأعرضَ عن قولِ اللهِ تعالى[2].

نُكتةُ اقتصارِ التَّسويلِ على آدمَ، ونسبة الأكل إليهما:

بيانُ أنَّ الزَّوجة تبعٌ لزوجِها في الفعل

اقتصارُ الشَّيطانِ على التَّسويل لآدمَ، وهو يريدُ أن يأكلَ آدم وحوّاء، لعلمِه بأنَّ اقتداءَ المرأة بزوجها مركوزٌ في الجِبلَّة[3]، والمرأة تبعٌ للرَّجل، وعليه فحينما عصى آدمُ ربَّه، كانت زوجه معه، وكان العصيانُ منسحبًا عليها في أحداث القصَّة، ويؤيِّد ذلك ورودُ أسلوب الخطاب بصيغة المثنّى في مواقع من القرآن، وهو خطابٌ لهما معًا، لكنَّه في الآية السّابقة، خصَّ الذِّكر دون الأنثى، وخاطبه بقوله: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾، فلمّا تعرَّض لفعل الأكل؛ ذكرهما معًا، فقال: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾، وهو ملمحٌ يؤيِّده السّياق اللَّفظيُّ، ويؤكِّده ما سبق من تعليل.

معنى الفاء في ﴿فَبَدَتۡ﴾:

بيانُ ترتُّبِ بدوِّ سوءاتِهما على أكلِهما من تلك الشَّجرةِ

قوله تعالى: ﴿فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾، أي: بدت لهما حالُ أكلِهما بدليل العطفِ بالفاء، فأزيلَ عنهما لباسُهما السّاتر لهما، فظهرتْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 326.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 107.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 327.

عورتُهما، فاستوحشا منظرهما[1]، فدلَّت الآياتُ المذكورة على أنَّ آدم وحواء كانا في سترٍ من الله، يستر به سوءاتِهما، وأنَّهما لمّا أكلا من الشَّجرة الَّتي نهاهما ربُّهما عنها؛ انكشف ذلك السَّتر؛ بسبب تلك الزَّلة، فبدت سوءاتُهما، أي: عوراتهما[2].

سرُّ التَّقييد بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمَا﴾:

الـعـورةُ كـانـت مـحـجـوبـةً عنهما، فظهرتْ لـهـما بـدافـعٍ داخـلـيٍّ مـن إحساسهما

قوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، أي: عريا مِنَ الثّياب الَّتي كانت عليهما، حتَّى بدتْ فروجُهما، وظهرتْ عوراتُهما[3]، ولم يقل: فبدت سوءاتُهما، وإنَّما قال: فبدتْ لهما سوءاتُهما، ممّا يُؤذن أنَّها كانت محجوبةً عنهما، فظهرتْ لهما بدافعٍ داخليٍّ من إحساسهما، وقد جاء في موضع آخر عن إبليسَ: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف:20]، وجاء: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف:27].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بلفظ ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾:

المـعـاصي سببٌ في انكشاف عورة الـفـرد وضـيـاعِ سِترِ المجتمع

كنَّى النَّظمُ الكريم عن الفرجِ بالسَّوءة؛ لأنَّهُ يسوء الإنسانَ انكشافُهُ، أي: يغمُّه، ويحزنه[4]، فالظّاهر أنَّها السَّوءات الحسيَّة تبدَّت لهما، وكانت عنهما مستورةً، وأنَّها مواضعُ العِفَّة في جسديهما، يرجِّح ذلك أنَّهما أخذا يسترانها بورق الجنَّة[5].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَطَفِقَا﴾:

بـيـانُ سـرعـةِ الـشُّـروع فـي الـفـعـلِ والاستمرارِ فيه

(طَفِقَ) مثل: جَعَلَ وأخذ وأنشأ، وحكمُها حكمُ كاد، في وقوع الخبر فعلًا مُضارعًا، وبينها وبينه مسافةٌ قصيرة، وهي للشُّروع في أوَّل الأمر[6]، وطفق يفعل كذا؛ إذا شرع في فعلٍ، واستمرَّ فيه،

(1) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 1/ 223.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 113.
(3) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 215.
(4) البروسويّ، روح البيان: 5/ 437.
(5) شحاته، تفسير القرآن الكريم: 16/ 3209، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 3/ 385.
(6) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 94.

والسّياق في الآية يُشعِر باستمرار الحدثين زمنًا أطول كثيرًا من مُجرَّد الشُّروع[1]، فمعناه: وجعلا يفعلان ذلك دائمًا[2].

سِرُّ المجازِ في التَّعبير عن وضعهما لورق الشَّجر بالخصف:

بيانُ التَّمكُّن في وضع ورق الشَّجر والتَّستُّر

المجازُ واقعٌ في قوله تعالى: ﴿يَخۡصِفَانِ﴾، أي: ظاهَرَ بَعْضَها على بَعْضٍ وخَرَزَها، وهيَ نَعْلٌ خَصيفٌ، وكلُّ ما طُورِقَ بعضُه على بَعْضٍ؛ فقَدْ خُصِفَ[3]. فالخصفُ حقيقتُه تقويةُ الطَّبقة من النَّعل بطبقة أخرى لتشتدَّ، ويُستعملُ مجازًا مُرسلًا في مُطلق التَّقوية للخِرْقة والثَّوب، ومنه ثوبٌ خصيف، أي: مخصوفٌ؛ إذا كان غليظَ النَّسج، لا يشفُّ عمّا تحتَهُ، فمعنى ﴿يَخۡصِفَانِ﴾ يضعان على عوراتِهما الورقَ، بعضُهُ على بعضٍ، كفعل الخاصف، وضعًا ملزقًا مُتمكِّنًا، وهذا هو الظّاهر هُنا؛ إذ لم يقل: يخصفان ورقَ الجنَّة، وفي هذا إظهارُ أنَّ الأصلَ في الإنسان السَّترُ بالملابس؛ لذا حرص آدمُ وحوّاء على سترِ جسديهما بورق الجنَّة، بأن أسرعا بالتَّستُّر به[4].

فائدةُ التَّقييد بالجارِّ والمجرور:

بيانُ طريقةِ الخصف ومقداره مفيدةٌ في تصوير المشهد

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، يجوز كونُها اسمًا بمعنى بعضٍ، في موضع مفعولِ ﴿يَخۡصِفَانِ﴾، أي: يخصفان بعضَ ورقِ الجنَّة، ويجوز كونُها بيانيَّةً لمفعول محذوف يقتضيه: ﴿يَخۡصِفَانِ﴾، والتَّقدير: (يخصفان خصفًا من ورق الجَنَّة)[5].

دلالةُ الالتفاتِ إلى الحديث عن آدمَ وحدَهُ:

تَحَمُّلُ آدمَ أثرَ المُخالفة أكثرَ من زوجِه لكونه قدوةً لها

بعد أن كان الحديثُ بصيغة المُثنَّى في قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾،

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طفق).
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 4/ 67.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خصف).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/ 64، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 108.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/ 65، والدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 257.

جاء الكلام هُنا بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ بصيغة المُفرد، وبلاغة هذا الالتفات هُنا: أنَّ التَّكليفَ والخطاب بالنَّهي، كان موجَّهًا لآدم عليه السلام، فلمّا وقعا في المعصية؛ صار وبالُ الإثم عليه أكثر؛ لذا وُصِفَ بالشَّقاء؛ لأنَّه هو أكثرُ مَن تحمَّل عواقبَ هذه المعصية، وفي هذا المعنى قال اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التّحريم: 6][1]، فذِكْرُ آدمَ هنا لا يمنع أنَّ حوّاء كانت تستمع معه، وأنَّ الإغراءَ كان لهما: لأحدهما بالخطاب، وللآخرِ بالاستماع مع المُشاركة في الخِطاب[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالرَّبِّ وإضافته إلى ضمير الغائب:

عتابُ آدمَ بذكر سوابق الإحسان وعوارف الامتنان

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، أي: المُحسن إليه بما لم ينله أحدٌ من بنيه، من تصويره له بيده، وإسجادِ ملائكته له، ومعاداةِ مَن عاداه[3]، ومع هذا وقع في المُخالفة، فأكلَ مِنَ الشَّجرة الَّتي نهاه ربُّه عنها، وفي هذا من العتاب واللَّوم ما لا يخفى.

دلالةُ الفاءِ ومعنى ﴿فَغَوَىٰ﴾:

إثباتُ العصيان لآدمَ؛ لأنَّهُ لم يكن يومئذٍ نبيًّا، وكان في معصيَته متأوِّلًا

الغوايةُ: ضدُّ الرُّشد، وهي التعدّي إلى ما لم يكنْ له فعلُه، ﴿فَغَوَىٰ﴾، أي: أخطأ، وضلَّ، ولم ينل مراده ممّا أكل، الَّذي هو الخلود، أو عن المأمورِ به، وهو التَّباعد عن الشَّجرة[4]، وإثباتُ العصيان لآدمَ دليلٌ على أنَّه لم يكن يومئذٍ نبيًّا؛ ولأنَّه كان في عالم غير عالم التَّكليف، وكانت الغواية كذلك، فالعصيانُ والغواية يومئذٍ: الخروجُ عن الامتثال في التَّربية، كعصيان بعض العائلةِ أمرَ كبيرها، وإنَّما كان شنيعًا؛ لأنَّه عصيانُ أمر اللّه؛ وليس في هذه الآية مستندٌ لتجويز المعصية على الأنبياءِ، ولا لمنعها؛ لأنَّ ذلك العالَمَ، لم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 327.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4800.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 359.
(4) البروسوي، روح البيان: 5/ 437.

يكن عالمَ تكليفٍ[1]، وقد ذكر المفسِّرون أنَّ آدم في عصيانه لربِّهِ، كان متأوِّلًا؛ لأنَّه اعتقد أنَّ النَّهي عن شجرة مُعيَّنة لا عن النَّوع كلِّه، وقالوا: تسميةُ ذلك عصيانًا؛ لعلوِّ منصبه، وقد قيل: (حسناتُ الأبرارِ سيِّئات المُقرَّبين)، كما قالوا: إنَّ الأسباب الَّتي حملَت آدمَ على الأكلِ من الشَّجرة، أنَّ إبليس أقسمَ له باللّه أنَّه له ناصحٌ، فصدَّقَهُ آدمُ عليه السلام، لاعتقاده أنَّه لا يمكن لأحد أن يقسمَ باللّه كاذبًا، والمؤمن غِرٌّ كريمٌ، والفاجر خبٌّ لئيم[2].

دلالةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في الآية الكريمة:

عــاشَ آدمُ مرحلتين مرحلةَ اصطفاءٍ، ثمَّ مرحلةَ اجتباءٍ

العطف جاء هُنا بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾، الدّالَّة على التَّراخي، أي: اصطفاه نبيًّا بعد ما وقع منه ذلك[3]، فبعد مُدَّةٍ من الزَّمن، تلقّى فيها آدمُ كلماتٍ من ربِّه، كما جاء في الآية في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة:37] فأتمَّها، فتاب عليه، واصطفاه للنُّبوَّة والرِّسالة وهداه.

فائدةُ الاعتراضِ بجملة التَّراخي:

التَّعجيلُ ببَيانِ أيلولةِ آدمَ إلى الصَّلاح، وفوزه بالتَّوبة والفلاح

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾، وجُملةِ ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾؛ لأنَّ الاجتباءَ والتَّوبةَ على آدمَ، كانا بعدَ أن عُوقِبَ وزوجُه بالخُروج من الجنَّةِ، كما في سُورةِ البقرةِ، وهو المُناسِبُ لترَتُّبِ الإخراجِ مِنَ الجنَّةِ على المعصيةِ دونَ أن يترتَّبَ على التَّوبةِ، وفائدةُ هذا الاعتراضِ: التَّعجيلُ ببَيانِ مآلِ آدمَ إلى صَلاحٍ[4].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿ٱجۡتَبَٰهُ﴾:

الاجتباءُ: أصلُ الكلمةِ الجمعُ، ويقولون: اجتبتِ الفرسُ نفسَها؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 327.
(2) الطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 162.
(3) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 2/ 224.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 327.

الدَّلالةُ على الاصطفاء بسرِّ النُّبوَّةِ العظيم تَفَضُّلًا من الرَّب الكريم

إذا اجتمعت نفسُها راجعةً بعد النفار، و﴿ٱجۡتَبَٰهُ﴾، أي: قبلَهُ بعد التوبة، وقرَّبه إليه، من جبى إليَّ كذا، فاجتبيته، ويراد بها الاصطِفاءُ، وبهذا المعنى ورد في القرآن الكريم، كقَولِه تَعالَى: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾ [الأنعام:87]، وقوله تعالى: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النَّحل:121][1]، فجاء فعل (اجْتَبَى) في القرآن مُستعملًا بمعنى الاصطفاء للنُّبوَّة والرِّسالة، إذا كان اجتباء للأفراد، وجاء مرَّةً واحدة بمعنى اصطفاء أمَّةِ محمَّد بمجموعها، لحمل رسالته من بعده: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحجّ:78].

فائدةُ تكرارِ لفظ ﴿رَبُّهُۥ﴾ في الاجتباء:

مَزيدُ تَشريفِ آدمَ بتعاهده عند وقوع الزَّلل واصطفائه بعده

في التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميره عليه السلام - في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ - مَزيدُ تَشريفٍ له عليه السلام[2]، فالله تبارك وتعالى هو الَّذي يُربّيه، ويتعاهده؛ إذا وقع في الزَّلل، وفي ذلك من إظهار الرِّفق بآدمَ عليه السلام ما فيه، حيث لم ينزله عن رتبة الاصطفاء؛ لأنَّ رحمتَهُ واسعةٌ، وحلمه عظيم، وعفوه شامل[3].

دلالةُ إفراد آدم عليه السلام بالاجتباء:

كونُه هو المقصود بالخطاب أصالةً مفيدٌ في بيان السّياق

أفردَ النَّظمُ الكريم آدم عليه السلام بالاجتباءِ وقَبولِ التَّوبةِ؛ لأنَّ حوّاءَ تابِعةٌ له في ذلك[4]، وقد اجتَباهُ رَبُّهُ بجعله من المصطفين الأخيار، واعتباره مع النَّبيين الأبرار، بعد ما ألهمه سبحانه الإنابة البارَّة، والرُّجوع إليه بصفة سارَّة، فاعترف آنئذٍ بما بدر منه من ذنب، وندم بخشية ورِقَّة على فِعلته الَّتي فعل، ورجع إلى ربِّه تائبًا منيبًا في انكسار ووقار، وهو يقول مع زوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 328.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 47.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 359.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 47.

﴿لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: 23]، فتابَ عَليه سبحانه، وقبل أوبته، وكانت عاقبته آيلةً إلى خيرِ منتهى وأجمل مصير[1].

دلالةُ الفاءِ ومجيء الفعل ﴿فَتَابَ﴾ بعدها:

الـدَّلالـةُ على قَبولِ توبته حالَ صدورها منه، وتطهيره بعد وقوع المُخالفة

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفاء الدّالَّة على الفور في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ﴾، أي: إنَّه تاب عليه حالًا[2]، إشارةً إلى أنَّ اللّٰه سُبحانه قد تجاوز لآدمَ عن فعلته تلك؛ إذ كانت أوَّلَ زلَّة له، وهو يضع أوَّلَ قدمٍ له على طريق الإنسانيَّة[3].

سِرُّ الجمع بين التَّوبة والهداية:

بـيـانُ رفـعـة درجةِ آدم عليه السلام وكرامته عند ربِّه

الهدايةُ: الإرشادُ إلى النَّفع، والمُرادُ بها إذا ذُكِرت مع الاجتباء في القرآن: النُّبوَّة[4]، فأيُّ أثرٍ يبقى للعصيان والغيِّ بعد توبة اللّٰه عليه، واصطفائه إيّاه، وهدايته له، ولا شكَّ أنَّ بعض الزَّلّات ينال صاحبُها بالتَّوبة منها درجةً أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزَّلَّة[5].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البدوُّ والبروز والظُّهور:

البـدوُّ مُختصٌّ بملمح البيان، والبروز مُختصٌّ بالشِّدَّة، ويكون الظُّهور بمعنى القوَّة

ذكر ابنُ فارس أنَّ أصل مادَّة (ظهر)، تدلُّ على القوَّة في البروز[6]، وذكر ابن منظورٍ فارقًا في البروز في هذه العبارة بقوله: وكل ما ظهر بعد خفاءٍ؛ فقد برز[7]، وبذلك نجد أنَّ الموادَّ الثَّلاث تشتركُ في معنًى عامٍّ، هو الوضوح والانكشاف، وتتميَّز مادَّة (برز) بدلالتها على الظُّهور بعد خفاء، بينما تتميَّز مادَّة (ظهر) بملمح القوَّة في البروز[8]، أمّا البدوُّ؛ فهو الظُّهور البَيِّنُ[9]، وأيضًا فإنَّ

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/ 523.
(2) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 2/ 224.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 836.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(5) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 119.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (برز).
(8) محمد داود، الفروق الدلالية، ص: 107.
(9) الراغب، المفردات: (بدى).

الظُّهُور يكون بِقصد وبِغير قصد، يُقال: استتر فلانٌ، ثمَّ ظهر، ويدلُّ هَذا على قصد للظُّهور، ويُقال: ظهر أمرُ فلانٍ، إن لم يقْصد لذَلِك، والبدوُّ ما يكون بِغَيْر قصدٍ، تَقولُ: بدا البرقُ، وبدا الصُّبْح، وبدت الشَّمس، وبدا لي في الشَّيْء؛ لِأَنَّك لم تقصد للبدوِّ، وقيل: في هَذا بدوٌّ، وفي الأَوَّل بَدْءٌ، وبين المَعنيَين فرقٌ والأَصْل واحِد(1).

ويُخلَص ممّا سبق إلى أنَّ الألفاظ (بدا - برز - ظهر) متقاربةٌ دلاليًّا؛ حيث تشترك جميعها في ملمح عامٍّ هو الوضوح والانكشاف، ويختصُّ البدوُّ بملمح البيان، بينما يختصُّ البروز بملمح الشِّدَّة والبأس، ويختصُّ الظُّهور بإطلاقه على معنى آخر، هو الغلبة والقوَّة(2).

الخَصْف والرَّقع والخرز:

الرَّقع في الثَّوب، والخرز الخياطة فــي الـجـلـد، والـخـصـف أعـمُّ منهما

الأصل الواحد في مادَّة (خصف): هو جعْلُ قطعةٍ مكان ما انخرق، وانتقص من الشَّيء، وضمُّها إليه، ووصلُها به وإصلاحه، وهذا المعنى قريبٌ من مفهوم الرَّقع والخرز، إلَّا أنَّ الرَّقع في الثِّياب فقط، والخرز هو الخياطة في الجلد، والخصف أعمُّ، وأمّا اللَّزق واللَّصق؛ فبمعنى الوصل فقط مطلقًا(3).

الضَّلال والغواية:

الـضَّـلالُ فقدانُ الطَّريق الموصل، والغواية عدولٌ مـتـقـصِّـد عـن الطَّريق القويم

الضَّلال: فقدانُ ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوكُ طريق لا يُوصل إلى المطلوب(4)، وكلُّ عدُول عَن النَّهج عمدًا أو سَهوًا، قَليلًا كانَ أو كثيرًا(5)، فهُوَ ضلال، وفي باب الحقِّ والباطل يكون الضَّلال عدولًا عن الطَّريق المستقيم(6)، وقد يكون عن قصد أو عن غير قَصدٍ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الجاثية:23]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ

(1) الفروق اللغوية للعسكري، ص: 287.
(2) محمد داود، الفروق الدلالية، ص: 109.
(3) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: 3/ 70.
(4) الجرجانيّ: التَّعريفات، ص: 138.
(5) الكفويُّ، الكليات، ص: 567.
(6) المناويُّ: التوقيف، ص: 223.

﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾ [الكهف:104]، أمّا الغواية؛ فهي جهلٌ من اعتقادٍ فاسد[1]، فلا يكون للغاوي مَقصِدٌ إلى الطَّريق المُستَقيم[2]، والغواية إمعانٌ في الضَّلال، كما أنَّ الضَّلال عامٌّ[3]يكون للعاقل وغيره، فيُقال: ضلَّت الدّابةُ، ولا يُقال: غوت الدّابَّةُ، أمّا الغوايةُ؛ فهي للعاقل المُكلَّف، والضَّلال نقيضُ الهُدى، قال اللّه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر:8]، وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه:79]، والغوايَةُ نقيض الرُّشْدِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:146]، وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: 256].

وقد اجتمعَ ذِكرُ الضَّلال والغواية في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النَّجم:2]، وفيه الشَّهادةُ للرَّسول ﷺ، بأنَّه راشدٌ تابع للحقِّ، لَيْسَ بضالٍّ، والغاوي هو العالم بالحقِّ، العادِلُ عنه قصدًا إلى غيره، فنزَّهَ اللّهُ رسولَهُ وشرْعَهُ عن مشابهة أهلِ الضَّلال كالنَّصارى، وطرائق غواية اليهود، وهي عِلْمُ الشَّيء وكِتمانُهُ، والعملُ بخلافه، بل هو ﷺ وما بعثه اللّه به من الشَّرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسَّدادِ، فأثنى عليه بكمال العِلْمِ والعمل[4]، فالضَّلال أعمُّ، وهو ألّا يَجِدَ السّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغِواية ألّا يكون له إلى المَقصَدِ طريقٌ مستقيم[5].

(1) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (غوى).
(2) الكفويُّ، الكليات، ص: 576.
(3) النّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 199.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 411.
(5) النّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 199، والتّهانويّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 2/ 1119.

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَاۢۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه:123]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ معصيةِ آدمَ وتوبتِه بإنزاله إلى الأرض وإمداده بالهدى والنَّجاة

لمّا قدَّم ﷻ عنايتَهُ بآدمَ ﷺ اهتمامًا به، وكان الخبرُ عن زوجه وعن إبليسَ لم يُذكر، فكانت نفس السّامع لم تسكن عن تشوُّفها إلى سماع بقيَّة الخبر؛ أجاب عن ذلك بأنَّه أُهبط من الجنَّة إلى دار الابتلاء[1]، فختمَ سبحانه هذه الآياتِ ببيانِ ما آلَ إليه أمرُ آدمَ ﵇[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱهۡبِطَا﴾: الهبوط الانحدارُ على سبيل القهر[3]، وهَبَطَ هُبُوطًا، والهَبُوط الحُدور، وهَبَطَهُ يَهْبُطُه بالضَمِّ، أي: أَنْزَلَهُ، وأصل (هبط) يدلُّ على انحدارٍ[4]، فهَبَطَ لازمٌ ومتعدٍّ، إلّا أنَّ مصدرَ اللازِم: الهُبُوطُ، ومصدر المتعدّي: الهَبْطُ[5]، يُقال: هَبَطَ الوادي؛ إذا نزل بِهِ، وهَبَطَ مِنْهُ؛ إذا خرج مِنْهُ[6]، والمعنى هُنا: انزلا[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرُ الله تعالى لآدمَ وزوجه بالهُبوط من الجنَّة إلى دار الابتلاءِ والعمل

قالَ اللّه لآدمَ وحوّاءَ: انزلا من الجنَّةِ أنتما وإبليس، فهو عدوٌّ لكما، وأنتما عدوّان له، ولن نترككم هَمَلًا، ولكن سنرسلُ إليكم هدًى، فمَنِ التزم به، وتَبِعَهُ بعزيمةٍ صادقة، ونيَّةٍ خالصة، فلا يلحقُهُ ضلالٌ، ولا يطالُهُ خسرانٌ، وعليه فإن جاءكم مِنّي ما وعدتكم به،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 360.
(2) الطّنطاوي، التفسير الوسيط: 09/ 163.
(3) الراغب، المفردات، ص: 536.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هبط).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 5/ 300.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 962.
(7) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 160.

فمَنِ اتَّبع منكم بيانَ سبيلي، وعملَ به، ولم ينحرف عنه؛ فإنَّه يُرشَدُ في الدُّنيا، ويُهْدَى، ولا يشقى في الآخرة بعقاب اللّٰه، فيَرْدَى[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الجُملة الكريمة عن سابقتها:

بسطُ الإخبارِ بأثرِ المُخالفة وما نتج عنها من جزاءٍ

قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ﴾ استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن آدمَ بالعصيان والغواية، يُثير في نفس السّامع سؤالًا عن جزاء ذلك[2]، فكأنَّه قيل: فماذا أمره تعالى بعد ذلك؟ فقيل: قالَ لَهُ ولزوجته: اهبطا منها جميعًا، فهي استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال، نشأ من الإخبارِ بأنَّه تعالى عاملَهُ بما عامله[3]، والهبوطُ من دار الأمن والسُّرور إلى دار العداوةِ والغرور، فيكون بعضُكم لبعضٍ عدوًّا، "يعوقُكم، ويغويكم عن أمر المعاد، فتبقى هذه العداوةُ بينكم ما دمتم فيها"[4].

مرجعُ الضَّميرِ المستكنِّ في فعل القول وأثرُهُ:

بيانُ أنَّ تعليق الخروجِ من الجنَّة كان مبنيًّا على معصيةِ الأكلِ مِنَ الشَّجرة

ضمير ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا﴾ عائدٌ إلى ﴿رَبُّهُۥ﴾ من قولِه تعالى في الآية السّابقة: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾[5]، فالمعنى: قال اللّٰه تعالى لآدم وحواء: اهبطا من الجنَّة؛ لأنَّ مكثَهُما فيها كان مُعَلَّقًا على عدم أكلِهما من الشَّجرة[6].

نوعُ الأمرِ في ﴿ٱهۡبِطَا﴾ وأثرُهُ:

الهبوطُ إلى الأرض بأمرٍ تكوينيٍّ مُبرمٍ بتقدير اللّٰه المحكم

الأمرُ في ﴿ٱهۡبِطَا﴾ أمرٌ تكوينيٌّ؛ لأنَّهما عاجزان عن الهبوط إلى الأرض إلّا بتكوينٍ من اللّٰه؛ إذ كان قرارُهما في عالم الجنَّة بتكوينه

---

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/ 320، وجماعة من العلماء، التَّفسير الميسّر: 1/ 320.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 584.

(4) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 524.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.

(6) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ علي الجلالين: 2/ 444.

تعالى[1]، وقد سبق في علمه تعالى أنَّهما يأكلانِ منها، فهو أمرٌ مُبرم، والمعلَّقُ على المُبرم مبرمٌ، فإخراجُهما ليس للغضب عليهما بل لمزيد شرفهما، ورفعة قدرهما؛ لأنَّهما خرجا من الجنَّة مُنفردَين، ويعودان إليها مع أولادهما[2].

سرُّ إفرادِ لفظ (الهبوط) وتثنيتِه وجمعِه في القرآن الكريم:

الخطابُ بالإفراد لإبليس، وبالتَّثنية لطرفَي الصِّراع، وبالجمع للجميع

الإهباطُ تارةً يَذكُرُه بلَفظِ الجَمعِ، وتارةً بلَفظِ التَّثنيةِ، وتارةً بلَفظِ الإفرادِ، كقَولِه في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: 13]، وكذلك في سورة ص، وهذا لإبليسَ وحدَه، وحيث ورد بصيغةِ الجَمعِ، فهو لآدَمَ وزَوجِه وإبليسَ؛ إذ مدارُ القِصَّةِ عليهم، وحيث ورد بلَفظِ التَّثنيةِ: فإمّا أن يكونَ لآدَمَ وزَوجِه؛ إذ هما اللَّذانِ باشرا الأكلَ مِنَ الشَّجَرةِ، وأقدَما على المعصيةِ، وإمّا أن يكونَ لآدَمَ وإبليسَ؛ إذ هما أبَوا الثَّقَلينِ، وأصلا الذُّرّيَّةِ؛ فيكون المأمورُ بالهبوط من الجنَّة آدم وإبليس، وأمّا حوّاءُ؛ فتَبَعٌ لزوجها[3]، فالخطاب لآدم ومعه ذريَّته، ولإبليس ومعه ذريَّته، فصحَّ قوله: ﴿ٱهۡبِطَا﴾؛ لاشتمال كُلِّ واحدٍ من الجنسين على الكثرة، فذَكَر حالَهما ومآلَ أمرِهما؛ ليكونَ عِظةً وعِبرةً لأولادِهما[4]، والأمر بالجمعِ في قوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ [البقرة: 36]؛ لأنَّ المُرادَ هبوطُ آدمَ وحوّاءَ وإبليسَ[5].

سرُّ الالتفاتِ من المُثنَّى إلى الجمع في السّياق:

تنويعُ المعاني وتكثيرُها من فصيح البيان

قولُه تعالى: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم﴾، التفاتٌ من خطاب المثنّى إلى الجمع، وقدِ اختلفَ العلماء في وجه الجمع والتَّثنية في الآية الكريمةِ: فمِنهم مَن جعل الخطابَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(2) الصاوي، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/ 444.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(4) ابن القيِّم، حادي الأرواح، ص: 30، والخازن، تفسير الخازن: 3/ 217.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 7/ 317.

لآدمَ وحواءَ عليهما السلام؛ لأنَّهما أصلُ البشر[1]، فلمّا كان آدمُ وحوّاءُ عليهما السلام أصلَي البشرِ، والسَّببينِ اللَّذينِ منهما نشَؤُوا وتفرَّعُوا؛ جُعِلا كأنَّهما البشَرُ في أنفُسِهما، فخُوطِبا مُخاطبَتَهم، ولمّا كانا أصلَي الذُّرّيَّة؛ خاطَبَهما مُخاطبَتَهم، فقال: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾، وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ لآدَمَ وحوّاءَ[2]، ومنهم مَن حملَ الخطابَ في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾ على أنَّه خطابٌ لآدم وإبليس، وخُوطِبا بضمير الجمع؛ لأنَّه أُريد عداوةُ نسليهما، فإنَّهما أصلان لنوعين: نوعِ الإنسان، ونوعِ الشَّيطان[3].

دلالةُ التَّقييد بالحال: ﴿جَمِيعَۢا﴾:

الـدَّلالـةُ على التَّـعـدُّد لـكُـلِّ أفراد ما يوصف بقوله (جَميعًا)

نصب قولَهُ تعالى: ﴿جَمِيعَۢا﴾ على الحال، فهو هنا حالٌ من ضمير ﴿ٱهۡبِطَا﴾[4]، وهو اسمٌ لمعنى كُلِّ أفراد ما يُوصف بجميع، وكأنَّه اسم مُفردٌ يدلُّ على التَّعدُّد، مثل: فريق، ولذلك يستوي فيه المذكَّر وغيره، والواحد وغيره، ولفظ ﴿جَمِيعَۢا﴾ في سياق الآية يعني: هبوطكم إلى الأرض جَميعًا، أصلًا وفرعًا، صديقًا وعدوًّا، وبعد هبوطكم إليها سيكون بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوًّا في أمور معاشكم[5].

نُكتَةُ فصلِ جملة ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ عمّا قبلها:

بيانُ الحال بعد بـيـانِ المـآلِ في سياق المقال

يحتمل أن تكون جملةُ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ حالًا، والتَّقدير: (اهبطوا مُتَعادينَ)[6]، ويحتمل أن تكون جملةً مُستأنفَةً استئنافًا بيانيًّا، أي: واقعةً في جواب سؤال مقدَّرٍ[7]، وهو: ما يكون حالنا بعد هذا الإهباطِ؟ فجاء الجواب: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾[8].

---

(1) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 217، والعليميّ، فتح الرحمن: 4/ 332.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 94، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 41، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 393.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 328.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 328.
(5) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 524.
(6) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 152.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 445.
(8) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 360.

دلالةُ التَّقييد بالجملة الحاليَّة بعد التَّقييد بالحال الصَّريحة:

التَّأكيدُ على وقوع العداوة بين الفريقين وذرِّيّاتهما

لما كان السّياق الكريمُ لبيان وقوع النِّسيان، وانحلال العزم بعد أكيد العهدِ؛ حرَّك العزمَ وبعث الهمم بإيقاع العداوة الَّتي تنشأ عنها المُغالبة، فتبعثُ الهممَ، وتثيرُ العزائم، وذلك بعداوة كُلٍّ من الفريقين للفريق الآخر: فريقِ إبليسَ - الَّذين هم الجنُّ - بالإضلال، وفريقِ الإنس بالاحتراز منهم[1]، فجملةُ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: (مُتعادين)[2].

دلالةُ (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ العداوةَ سببٌ في أنْ يبعث لهم الرُّسلَ للهداية

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم﴾ حرفُ تفريعٍ، أي: فتسبَّب عن ذلك العلم بأنَّه لا قُدرةَ لأحد منكم على التَّحرُّز من عدوِّه إلّا بي، ولا حرز لكم من قِبَلي إلّا اتِّباع أمري[3]، وفي العطف بها إشارةٌ إلى أنَّ العداوة سببٌ في أنْ يبعثَ لهم الرُّسل، يهدونهم إلى طريق الحقِّ، فضلًا منه تعالى[4].

دلالةُ تفريعِ التَّفصيلِ والتَّسبيب على الأمر بالهُبوط:

الإنباءُ بدخول الإنسان في طورِ الامتحان بعد طورِ التَّنعُّم في الجنان

تفريعُ جملة ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ على الأمر بالهبوط من الجنَّةِ إلى الدُّنيا، إنباءٌ بأنَّهم يستقبلون في هذه الدُّنيا سيرةً غير الَّتي كانوا عليها في الجنَّة؛ لأنَّهم أُودِعوا في عالم خليطٍ خيرُهُ بشرِّه، وحقائقُهُ بأوهامِه، بعد أن كانوا في عالم الحقائقِ المحضةِ والخيرِ الخالص، وفي هذا إنباءٌ بطور طرأ على أصل الإنسانِ في جبلَّتِه، كان معدًّا له من أصل تركيبه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 360.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 152، والأيجيّ، جامع البيان: 2/ 531.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 361.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 156، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 430.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 329.

الخطابُ مخصوصٌ لآدمَ عليه السلام وذرّيته

بيانُ وجه الخطاب وجهته في ﴿يَأۡتِيَنَّكُم﴾:

الخطابُ في قولِه: ﴿يَأۡتِيَنَّكُم﴾ لآدم، باعتبار أنَّه أصلٌ لنوع الإنسان، إشعارًا له بأنَّه سيكون منه جماعة، ولا يشمل هذا الخطابُ إبليسَ؛ لأنَّه مفطورٌ على الشَّرِّ والضَّلال؛ إذ قد أنبأهُ اللّه بذلك عند إبايته السُّجودَ لآدمَ، فلا يكلِّفُهُ اللّه باتِّباع الهدى؛ لأنَّ طلبَ الاهتداءِ ممَّن أعلمَهُ اللّه بأنَّه لا يزال في ضلال يعدُّ عبثًا يُنزَّه عنه فعل الحكيم تعالى، وفي هذه الآية وصايةُ اللّه آدم وذريَّته باتِّباع رسلِ اللّه والوحي الإلهيِّ، وبذلك يعلم أنَّ طلب الهدى مركوزٌ في الجبلَّة البشريَّة، حتّى قال كثير من علماء الإسلام: إنَّ معرفة الإله الواحد كائنةٌ في العقول، أو شائعةٌ في الأجيال والعصور(1).

الدَّلالةُ على عموم الأدلَّةِ المُرشِدة إلى الحقِّ

دلالةُ تنكير لفظة ﴿هُدٗى﴾:

اختلف أهلُ التَّفسير في المراد بالهدى، فقال بعضُهم: الرُّسل، وبعضهم قال: الأدلَّة، وبعضهم قال: القرآن، والتَّحقيقُ أنَّ الهدى عبارة عن الدَّلالة، فيدخل فيه كُلُّ ذلك(2)، والهدى يجيء على لسان الهادي، وهو الرَّسولُ المبعوث بعنايةٍ من ربِّ العالمين، وهو حاملٌ للبشارة لمن اتَّبع الحقَّ، والتزم به، وللنِّذارة لمن ضلَّ عن سبيله وهداه، ولا شكَّ أنَّ هذا هو موجب التَّكليف؛ إذ لا تكليف إلّا بوجود بيان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء:15](3).

الدَّلالةُ على شِدَّة الاهتمامِ، وضرورة العمل بالهُدى والعلم

إيثارُ صيغةِ الافتعال في الاتِّباع:

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ عبَّر بصيغة (افْتَعَلَ) الَّتي فيها تَكَلُّفٌ وتَتميم للتَّبَع النَّاشِئ عن شِدَّة الاهتمام(4)؛ لأنَّ اتباعَ الهُدى لا يتكامل إلّا بأن يُستدلَّ به، وبأن يعمل به(5).

(1) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 217، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 329.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 110.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 1803 (بتصرّف).
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 361.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 393.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير عن الاهتداء بالاتِّباع:

بيانُ أنَّ تصوير المعنى في صورة المحسوس، تقريبٌ للأفهام، وتوضيحٌ للأنام

الاستعارة في قوله: ﴿هُدَاىَ﴾ ، وهي استعارةٌ مكنيَّة، حيث شبَّه الهدى بطريق يتَّبِعُهُ الإنسانُ، وحذفَ المشبه به، وذكرَ صِفةً من صفاته، وهي كونه يُتَّبَع[1]، فأنزل الهُدى الَّذي هو شيءٌ معنويٌّ منزلةَ المحسوسِ، كالطَّريق الَّذي يتبعه الإنسان في سيره، وذلك من باب تصويره بمنزلة المحسوس الَّذي لا يخفى على أحد، فطريق اللّٰه تعالى واضح بَيِّنٌ، لا يلتبس على أحد.

نكتةُ إيثارِ الظاهر على المضمرِ في السّياق:

تشريفُ هُدى الله والمُبالغةُ في إيجابِ اتِّباعه مبينٌ عن المراد

وضعَ النَّظمُ الكريم الظّاهرَ في قولِه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ مَوضِعَ المُضمرِ، حيث لم يقُلْ: (فمَنِ اتَّبعَه)، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه تعالى؛ لتَشريفِه والمُبالَغةِ في إيجابِ اتِّباعِه[2]، وحكمة اختيار الظاهر على المضمر أيضًا، أنَّ المُضمَر يشمل ما جاءهم عن طريق الشَّرع والعقل والدَّليل[3]، هذا بخلاف الظاهر المسند للّٰه الَّذي يدلُّ على ما جاء عن طريق الشَّرعِ فقط، وهو المقصودُ هُنا.

دلالةُ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾:

ربطُ الجوابِ للشَّرط السّابق مفيدٌ في تجلية البيان

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ رابطةٌ للجواب، والمعنى: بِسببِ اتِّباع هدى اللّٰه والاستقامةِ على أمره وهداه، فمَن هذه حالُهُ، فقد ضمن تعالى ألّا يضلَّ عن طريق السَّداد في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرة؛ لأنَّه تعالى هو الَّذي يهديه إلى الجنَّة[4]، فلا سبيل للتَّحرُّز من عدواة الشَّيطان إلّا باتِّباع هُدى الرَّحمن، وقد قال تعالى مخاطبًا الشَّيطان منذُ بدءِ الصِّراع: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:42].

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/ 62.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 47.
(3) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/ 61.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 393، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 361.

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿يَضِلُّ﴾ في حيِّز النَّفي:

بيانُ أنَّ الهداية الرَّبانيَّة عامَّةٌ وشاملة لِكُلِّ النَّواحي والمناحي

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ معناه: أنَّه إذا اتَّبع الهدى الواردَ من اللّه على لسان رسلِه؛ سَلِمَ من أن يعتريَهُ شيءٌ من ضلال، وهذا مأخوذٌ من دلالة الفعلِ في حيِّز النفي على العموم، كعموم النَّكرة في سياق النَّفي، أي: فلا يعتريه ضلالٌ في الدُّنيا، بخلاف مَنِ اتَّبع ما فيه هدًى وارد من غير اللّه، فإنَّه - وإن استفاد هدًى في بعض الأحوال - لا يسلمُ من الوقوع في الضَّلال في أحوال أخرى، وهذا حالُ متَّبعي الشَّرائع غير الإلهيَّة، وهي الشَّرائع الوضعيَّة، فإنَّ واضعيها - وإن أفرغوا جهودهم في تَطَلُّب الحقِّ - لا يسلمون من الوقوعِ في الضلالات بسببِ الغفلات، أو تعارض الأدلة، أو انفعالٍ بعادات مُستقرَّة، أو مُصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أنَّ من المصلحة طلبَ مرضاتهم[1].

نكتةُ عَطْفِ نفي الشَّقاءِ على نفي الضَّلال:

غايةُ ذِكْرِ الغاية بَعْدَ ذِكْرِ الطَّريق المُوصل إليها

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾، أي: في شيء من سعيه في واحدة منهما، فإنَّ الشَّقاء عقابُ الضَّلال، ويلزمُ من نفيه نفيَ الخوف والحزن، فضمِن اللّه ﷻ لمن اتَّبع القرآن ألّا يَضِلَّ في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرة[2]، والشَّقاء المنفي في قوله: ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ هو شقاء الآخرة؛ لأنَّه إذا سلم من الضَّلال في الدُّنيا؛ سلم من الشَّقاء في الآخرة[3]، فههنا أمرانِ: طريقةٌ وغايةٌ، فالطَّريقةُ: الهُدى، والغاية: السَّعادةُ والفلاحُ، فمَن لم يسلُكْ هذه الطَّريقةَ؛ لم يَصِلْ إلى هذه الغايةِ[4].

دلالةُ الجمعِ بين نفي الضَّلال ونفي الشَّقاء:

بيانُ أنَّ كمالَ السَّعادة في كمال الهداية

في قولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ بيانُ أنَّ ثوابَ المُتَّبِعينَ لهداه، أنَّهم لا يَضِلُّون، ولا يَشقَون،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 330.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 361.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 331.

(4) ابن القيم، الصَّواعق المرسلة: 3/ 1128.

ونفيُ الضَّلالِ والشَّقاءِ عنهم يتضَمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ[1]، فالهُدى والسَّعادةُ مُتلازِمانِ، والضَّلالُ والشَّقاءُ مُتلازِمانِ، وكثيرًا ما يقرِن البيان القرآني بين الضَّلالِ والشَّقاءِ في القرآن الكريم[2].

سِرُّ تكرارِ قصَّةِ آدم عليه السلام في القرآن الكريم:

تعليمُ العبادِ امتثالَ الأمرِ واجتنابَ النَّهي من مقاصد هذه القصَّة

كُرِّرت هذه القِصَّة في سبع سورٍ من القرآن تعليمًا للعباد امتثال الأمرِ، واجتناب النَّهي[3]، وإبرازًا للمعنى الواحد في صور شتّى؛ دفعًا للملالة، وتسلية لقلب النَّبيِّ ﷺ بإعلامه بما وقع لأبيه آدم من امتحانات قبل النُّبوَّة وبعدها، كما أنَّ في تكرار هذه القصَّة ملمحًا من ملامح التَّحدّي؛ للإخبار بعجز العربِ عن مضاهاتها، مهما كان أسلوبُها متكرِّرًا، وسياقها متلاحمًا، ناهيك عن كون تكرار القصَّة دليلًا على أهميَّتها، وبروز مقصد العنايةِ بها، حيث إنَّها وردت متنوِّعةً، فزيدَت في كلِّ ورود لفتةٌ لم تكن موجودةً في سابقتها أو لاحقتها، ومع كونها مكرَّرةً، فإنَّه لم يُلحظ فيها أيُّ تناقضٍ، بل بالعكس جاءت منسجمة متكاملة متَّسقة في أعمق معنًى، وأنصع بيان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهبوط والنّزول:

الهبوطُ نزولٌ واستقرار وفيه معنى الاستخفاف

النزول والهبوط كليهما يكون من أعلى إلى أسفل معنويًّا أو حسيًّا، لكنه في النزول يكون مع الحفاظ على رتبة النازل، كنزول القرآن، أما الهبوط فإن رتبة الهابط تختلف، لأنه ينتقل من درجة إلى أخرى دونها، كهبوط آدم عليه السلام، وبني إسرائيل، بخلاف النزول فهو يحافظ على درجته.

---

(1) العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل العثيمين: 20/ 268.
(2) ابن القيم، مدارج السّالكين: 1/ 37.
(3) الصاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/ 443.

ويُقال: هَبَطَ المرضُ لحمَ العليلِ، أي: حطَّهُ عنه، والهبيطُ الضّامر من النُّوق وغيرها، إذا كان ضَمرُهُ من سوءِ غذاءٍ، وقِلَّة تفقُّدٍ(1).

كما أنَّ الهُبوطَ نزولٌ تعقبه إقامةٌ، ومن ثمَّ قيل: هبطنا مكان كذا، ومنه: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ [البقرة: 61]، ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعًاۖ﴾ [البقرة: 38]، ومعناه: انزلوا الأرضَ للإقامة فيها، ولا يقال: هبطَ الأرضَ إلّا إذا استقرَّ فيها، ويُقال: نزل وإن لم يستقرَّ(2).

وعليه فخصوصية لفظ الهبوط في سياق قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعًاۖ﴾ تفيد أنه نزول يعقبه إقامة، واستعمال الجذر (هبط) يبيّن تغيُّرَ رتبة المهبوط إليه عن المهبوط منه.

(1) الرّاغب، المفردات: (هبط).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 296، والمصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 11/ 235.

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥﴾ [طه: 124 - 125]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ربطُ جزاءِ مَنِ اهتدى ببيان وعيدِ مَن أعرضَ بالضَّنكِ والعماية

لَمّا وعد اللّهُ تعالى من يتَّبِعُ الهدى، وأخبر عن حاله في معاشه ومعاده؛ أتبَعَهُ بالوعيدِ فيمن أعرضَ، فقال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾، وبيَّن قولَهُ عند وقوع ذلك الوعيد عليه[1]، بحيث يكون منه الإعراضُ، ويتملَّكه الشُّحُّ، فتصبح معيشته ضنكًا، ونفسه مظلمةً، وقد قيل: (لا يعرض أحدكم عن ذكر ربِّه إلّا أظلمَ عليه وقتُه، وتشوَّشَ عليه رزقُهُ)[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡرَضَ﴾: أصلُ كلمةِ الإعراضِ من العرض، وهو الظُّهور والبروز، يقالُ: عرضَ الشَّيءُ، وعرض يعرُض ويعرِض عرضًا، أي: ظهر وبرز[3]، وقيل: أصلُها من العرض، وهو: خلاف الطُّول، يُقال: اعترضَ الطَّريق؛ إذا سار عرضًا، وسُمّي الرَّفض إعراضًا؛ لأنَّ الرّافض أظهر خلاف الشَّيء، أو لأنَّه كالواقف عرضًا في وجه الشَّيء[4]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّولّي والرَّفض، تقول: أعرض عنه، أي: صدَّ وتولَّى عنه، والمعرض: المتولّي، ويُطلق الإعراضُ بمعنى: الانصراف عن الشَّيء بالقلب، وضِدُّ الإعراض: الإقبالُ والانقياد والطّاعة[5]، والمقصودُ بالإعراضِ في الآية: الصَّدُّ والتَّولّي.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 393.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 388 (بتصرّف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرض).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).

2) ﴿مَعِيشَةَ﴾: حياةً، يقال: عاشَ يعيش عَيْشًا، صارَ ذا حَياةٍ، فهُوَ عائِشٌ[1]، وأصلُ العيش يَدُلُّ على حَياةٍ وبَقاءٍ[2]، والعَيْشُ: المطعمُ والمشرَب، وما تكون بِه الحَياة، والمعيشةُ: اسمُ ما يعاش بِهِ[3]، والمعنى هُنا: حياة، وقد عاش الرَّجل معاشًا ومعيشًا، وكلُّ واحد منهما يصلح أن يكون مصدرًا، وأن يكون اسمًا، مثل معابٍ ومعيبٍ، وممالٍ ومميلٍ، وأعاشه اللّه سبحانه عيشةً راضية، والمعيشةُ جمعُها معايشُ بلا همزٍ؛ إذا جمعْتَها على الأصل، وأصلُها معيشةٌ[4].

3) ﴿ضَنكًا﴾: (ضنك) أصلٌ يدلُّ على ضيقٍ[5]، والضَّنكُ من المنازِلِ والأماكِنِ والمعايشِ: الشَّديدُ[6]، والضَّنك: الضّيق من كلِّ شيء، الذَّكرُ والأنثى فيه سواءٌ، ومعيشةٌ ضنكٌ: ضيِّقة، وكلُّ عيش من غير حلٍّ: ضنك، وإن كان واسعًا، وفي التَّنزيل: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: غيرَ حلالٍ[7].

4) ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ ﴿حَشَرْتَنِيٓ﴾: الحَشْرُ: الجَمعُ والسَّوْقُ، يُقال: حَشَرَ يَحْشُر - بالضَّمِّ - ، ويحْشِر - بالكَسْر - حَشْرًا؛ إذا جَمَعَ وساقَ، ومِنْهُ يَوْم المَحْشَرِ،[8] والحَشْرُ الجَمعُ مع السَّوْقِ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ[9]، وهذا المعنى عمومًا يدلُّ على الجمعِ من النَّواحي البعيدةِ إلى جهةِ المحشرِ، فيتضمَّنُ الجَمع مع السّوقِ في جهةٍ معيَّنةٍ، والمعنى هُنا: جمعتني للحساب بعد البعث من القبور.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه تعالى مبيِّنًا سوءَ عاقبةِ مَن أعرضَ عن ذكرِه وطاعتِه، ومَن تولّى عن كتابه، فلم يتدَبَّرْهُ، ولم يعمَلْ بما فيه: إنَّ له معيشةً ضَيِّقةً مُدَّةَ حياتِه في الدُّنيا، وبعدَ مَوتِه

(1) الخليل، العين، والفيومي، المصباح المنير: (عيش).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عيش).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (عيش).
(4) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (عيش).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ضنك).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 192، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 313.
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (الضّنك).
(8) الزَّبيدي، تاج العروس: (حشر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حشر).

في البَرزَخِ، وفي معادِه في الآخرةِ، فنسوقه إلى المحشر يوم القيامة فاقدَ البصرِ والحجَّة، فيقول هذا المعرضُ عن الذِّكر: يا رَبِّ، لماذا حَشَرتَني اليوم أعمى، وقد كنتُ في الدُّنيا مُبصِرًا؟ وما الَّذي صيَّرني إلى ذلك[1]؟ ناسيًا أنَّ سوءَ عقباه إنَّما كانت بما قدَّمت يداه، وأنَّ الله يجازي مَن أساء بالعذاب، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

بيانُ سوءِ عاقبةِ مَن أعرضَ عن ذكرِ الله وطاعتِه في الدُّنيا والآخرة

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ الآيةِ على سابقتِها:

قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ عطْفٌ على ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ قسيمٌ له، كأنَّه قال: ومَن لم يتَّبع، بل أعرض عن ذكري؛ فإنَّ له معيشةً ضنكًا[2]، فهو من باب عطْفِ المُقابل على مُقابلِه، لتكتملَ صورةُ أحوال النّاس في الهدى والضَّلال.

بيانُ أنَّ عَطْفَ المقابل على مُقابلِه تتميمٌ لِذِكْرِ أحوالِ النّاسِ في اتِّباعهم للهدى

بديعُ المُقابلةِ في هذه الآيةِ مع الآيةِ الَّتي قبلها:

ذُكِرَ في الآية السّابقة الشَّقاءُ المنفيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡقَىٰ﴾، وهو شقاءُ الآخرة؛ لأنَّه إذا سلم من الضَّلال في الدُّنيا؛ سلم من الشَّقاء في الآخرة، ويدلُّ لهذا مُقابلةُ ضدِّه هُنا في قوله: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾؛ إذ رتَّب على الإعراض عن هدي الله اختلالَ حاله في الدُّنيا والآخرة، فالمعيشةُ مُرادٌ بها مُدَّةُ الحياة[3]، فيتبادر لنا أنَّ جملة: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ جاءت لمُقابلة جملة: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾، وأنَّها هي الأخرى شاملةٌ للدُّنيا والآخرة، من حيثُ إنَّ الَّذي يعرض عن ذكر الله ودينه الحقِّ يفقد أسبابَ تلك العصمةِ، ويتعرَّض لسوء الحياة ونكدها في الدُّنيا والآخرة معًا[4].

ترتيبُ المصيرِ على مدى الإقبالِ أو الإعراضِ عن الهداية

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 516، ومجموعة من العلماء، المختصر، ص: 320.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 447.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 331.
(4) محمد دروزة، التَّفسير الحديث: 3/ 213.

سِرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ودلالته:

إفادةُ عموم الوعيد للكفّار والعُصاة بحسب معاصيهم

قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ يَشمَلُ الكافرَ، وله منها حقُّ الوعيدِ، ويَشملُ المؤمِنَ المرتكِبَ الكبيرة، وله نصيبٌ مِن ضَنْكِ العيشِ، بقَدْرِ إعراضِه عن الذِّكْرِ، ومذهَبُ أهلِ السُّنَّة أنَّ الشَّخْصَ الواحِدَ، تَجتَمِعُ فيه الحَسَناتُ والسيِّئاتُ، فيسْتَحِقُّ الثَّوابَ والعِقابَ جَميعًا[1].

سِرُّ التَّعبيرِ عن الإعراض عن الهدى بالإعراض عن الذِّكر:

الهدى المُنزَّل تذكيرٌ للنّاس وإنذار لهم رفعًا للشُّبهة والإلباس

عَبَّر النَّظمُ الكريم عن الإعراضِ عن الهدى المُنَزَّلِ بالإعراضِ عن ذِكْرِه؛ لأنَّ فيما أنزلَه مِن الهُدى تذكيرًا للإنسانِ، وإنذارًا له وتخويفًا[2]، ولا ريب أنَّ الإعراضَ عن ذكر اللّه تعالى هو قمَّة الجحود وغاية الكنود، وبه تشقى النَّفسُ، ويقسو القلب، وتنقطع عن الإنسان بوارق الأمل، ويحيط به القنوطُ من كلِّ جانب، وقد استعمل السّياق الإعراضَ عن الذِّكر؛ تعبيرًا عن الإعراض عن الهدى، وهما موصولان من حيث إنَّ الهدى غاية، وإنَّ الذِّكر وسيلةٌ، ولا يتأتّى ذاك بغير ذلك، فمن واظب على الذِّكر آناء اللَّيل وأطراف النَّهار؛ وصل إلى معنى الهداية، ونال لذَّة اليقين في جنَّة القرب من اللّه ربِّ العالمين بكونه من المهتدين.

دلالةُ الحقيقةِ والمجاز في قوله: ﴿عَن ذِكۡرِي﴾:

الاعتناءُ بشأن الذِّكرِ الدّالِّ على اللهِ والدّاعي لهداه

قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ أي: الهدى الذّاكر لي، والدّاعي إليّ، أو عن ديني وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه[3] بناء على تفسير الذِّكر بالقرآن، وكذا قولُهُ تعالى بعدُ: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ﴾ [طه: 126]، والمُختار العموم أن يقال: الذِّكْر يقع على القرآن،

---

(1) البعلي، مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، ص: 189.
(2) ابن عثيمين، شرح مقدمة التفسير، ص: 36.
(3) القنوجي، فتح البيان: 4/ 380.

وعلى سائر الكتب الإلهيَّة، وكذا الآياتُ، تكون بمعنى الأدلَّة مُطلقًا، وقد فُسِّرَ الذكرُ أيضًا هنا بالهدى؛ لأنَّه سببُ ذكره تعالى وعبادته سبحانه، فأطلق المُسبَّبَ وأُريد سببُهُ من قبيل المجاز المُرسل؛ لوقوعه في المُقابلة، وما في الخبر من باب التَّنصيص على حكم أشرف الأفراد المدلول عليه بالعموم اعتناء بشأنه(1).

نكتة تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

المعيشة الضنك مستحقّة للمعرضين عن ذكر الله

في تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ إشارة إلى استحقاقهم المعيشة الضّنك الشديدة، واللام هي لام الاستحقاق التي تقع بين الذات والمعنى، والقصر المستفاد في هذا السياق هو من قبيل القصر الادّعائي الذي يفيد المبالغة، وليس من القصر الحقيقي الذي ينفي المعيشة الضنك عن غيرهم من الكافرين والمُلْحدين والمنافقين نفاقًا عقديًّا.

فائدةُ تنكير لفظ ﴿مَعِيشَةً﴾:

تنكير لفظِ المعيشة للتحقير، ووصف المعيشة بأفظعِ وصفٍ، بالمصدر ليستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّث والجمع وغيره في قوله: ﴿ضَنكًا﴾(2)، وغرضُ التَّنكيرِ هُنا التَّحقيرُ والتَّقليل لهذه المعيشة الَّتي توعَّد اللّه تعالى بها هؤلاء المُعرضين عن ذكره.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيّة في التَّعبير بالضَّنك:

ذِكرُ الله سعادةٌ وتـألُّـقٌ، وهجْرُ ذكـره ضنـكٌ وتمزُّقٌ

استخدامُ النظم الكريم كلمةَ ﴿ضَنكًا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؛ لوصفِ حياة تاركِ الذِّكر، وأصل الضَّنكِ في اللُّغة: الضّيق، يُقال: مكانٌ ضَنْكٌ، أي: ضَيِّقٌ(3)، ويُستعملُ مَجازًا في عَسَرِ الأمور في الحياة، وهو هنا على سبيل الاستعارةِ التصريحيَّة، والمعنى: أنَّ مجامع همِّ المُعرض عن ذكرِ اللّه، ومطامح نظرِه، تكون إلى التَّحيُّل في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 584.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 362.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ضنك).

إيجاد الأسبابِ والوسائل لمطالبهِ، فهو متهالكٌ على الازدياد، خائفٌ على الانتقاص، غيرُ مُلتفت إلى الكمالات، ولا مأنوسٍ بما يسعى إليه من الفضائل، يجعلهُ اللّه في تلك الحالة، وهو لا يشعرُ، وبعضُهم يبدو للنّاس في حالة حسنةٍ ورفاهيَّة عيشٍ، ولكنَّ نفسَهُ غيرُ مُطمئنَّةٍ، جعل اللّه عقابَهُ يوم الحشر أن يكون أعمًى تمثيلًا لحالته الحسيَّة يومئذٍ، بحالته المعنويَّة في الدُّنيا، وهي حالةُ عدم النَّظر في وسائل الهدى والنَّجاة، وذلك العمى عنوانٌ على غضب اللّه عليه، وإقصائه عن رحمته، فلفظ: ﴿أَعۡمَىٰ﴾ الأوَّلُ مجازٌ، ولفظ ﴿أَعۡمَىٰ﴾ الثّاني حقيقةٌ[1].

بلاغةُ المصدر ﴿ضَنكٗا﴾ باعتباره لفظًا فريدًا:

بيانُ كونِ المعيشة وبالًا عليه في الدُّنيا، وزيادةً في عذابه يوم القيامة

وصف معيشة الكافر بالضَّنك؛ لأنَّها وبالٌ عليه وزيادةٌ في عذابه يوم القيامة؛ كما دلَّت عليه الآيات[2]، فالمرادُ من كونها ضنكًا أنَّها سببٌ للضَّنك يوم القيامة، فيكون وصفُها بالضَّنك للمبالغة، كأنَّها نفسُ الضَّنك[3].

علَّةُ فصلِ الجملة في افتتاح الآية:

بيانُ ما يقوله المعرضُ عن طاعةِ اللّه يوم القيامة

فصل النظمُ الكريم قولَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ﴾ عمّا قبلَهُ، وهو كلام مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا[4]، وهو استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما يقوله ذلك المعرض عن طاعة اللّه يوم القيامة، أي: قال ذلك الكافر الَّذي حشره اللّه تعالى يوم القيامة أعمى: (يا ربِّ لماذا حشرتني على هذه الحال؟)[5].

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿قَالَ﴾:

جاء في هذه العبارةِ استعمالُ الفعل الماضي ﴿قَالَ﴾؛ للدَّلالة على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 331.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 585.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 447، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 585.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 332.

(5) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 9/ 165.

الإبانةُ عن تحقُّق الوقوع للوعيد المهين للكفرة يوم الدّين

تحقُّق الوقوع يوم الدّين، وفي سياق الآية تعبيرٌ عن الحوار الَّذي نُقِل إلينا من وراء حُجُبِ الغيب بصيغة الماضي، مع أنَّه حوارٌ مستقبليٌّ محضٌ، سيكون يوم يُدَعُّ المشركُون إلى نار جهنَّمَ دعًّا، فيُقذَفون في العذاب، وقد حصل لهم ما كانوا به يكذِّبون، فيجدون أنفسَهم في ضنكٍ وعمًى وعسرةٍ.

بلاغةُ نداء الرَّبِّ تعالى بالرُّبوبيَّة:

الاستعطافُ بذكر الرُّبوبيَّة الدّالَّة على سوابغ النِّعم ولطائف المنن

قوله: ﴿رَبِّ﴾، أي: أيُّها المحسن إليَّ، المسبغ نعمه عليَّ، فنادى بقوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾، مُعترفًا بأنَّه خالقُهُ وبارِئُهُ المُحسن إليه، ذاكرًا النِّعمة السّابقة استعطافًا؛ لأنَّ من شأن مُسلفِ نعمةٍ أن يربّيها، وإن قصَّر المنعم عليه، وغاية ذلك إنَّما يكون مهما بقي للصُّلح مَوضع[1].

دلالةُ الاستفهام في الآية:

بيانُ جهل من أعرضَ عن سببِ ما آلَ إليه حالُهُ

في عرصات يوم القيامة يسأل المُعرض ربَّهُ عاجزًا عن الدِّفاع قائلًا: ﴿لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ﴾؟ وقد عميتُ عن الدَّليل، ولم أعرف وجهَهُ مع أنَّني كنتُ في الدُّنيا أبصرُ القولَ ومراميه، وأجادلُ وأخاصم، وأنازلُ وأقاومُ، والآن أنا مستسلمٌ لمن يقودني كالأعمى[2]، فسألَ العبدُ ربَّه عن السَّببِ الَّذي استحقَّ به أن يُحشرَ أعمى، بقوله: ﴿لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ﴾؟[3] فهذا سؤالٌ من العبد لربِّه أن يُعْلِمَهُ الجُرمَ الَّذي استحقَّ ذلك عليه؛ لأنَّه جهله، وظنَّ أنه لا ذنبَ عليه[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 363، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4806.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4806.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 395.
(4) مكي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 7/ 4714.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: 126 - 127]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

عمي عنِ الآيات في الدّنيا، فحُشِرَ في الآخرة أعمى

لمّا ذكرَتِ الآيةُ السّابقةُ سؤالَ العبدِ لربِّه عنِ السّببِ الّذي استَحقّ به أن يُحشرَ أعمى في قوله: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ١٢٥﴾ [طه: 125]؛ لأنّه جهِلَهُ وظنّ أنّه لا ذنبَ له، جاءَت هذه الآيةُ جوابًا عن سؤاله، فقال له ربُّهُ: (مِثلَ ذلك فعلتَ لمّا أتتْكَ آياتُنا الواضحةُ، فلم تنظُرْ إليها نظرَ مُعتبِرٍ، وعميْتَ عنها، فكذلك اليوم تُنْسى)(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾: النّسيان: تركُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ، إمّا لضَعفِ قلبِه، وإمّا عن غَفلةٍ، وإمّا عن قصدٍ حتّى يَنحَذِفَ عنِ القلب ذكرُهُ، وهو ضدُّ التّذكُّر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه:115]، وأصل النّسيان هو إغفالُ الشّيء وإهمالُه، قال تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14] ومن إهمال الشّيء ينتج تركه، فالتّركُ معنًى مِن معاني النّسيان، وكلُّ نسيانٍ مِنَ الإنسان ذمَّهُ اللهُ تعالى به فهو ما كان أصلُه عن تعمُّدٍ، وما كان بمعنى التّركِ على طريقِ الإهانة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ﴾ [السّجدة: 14] وإذا نُسِب النّسيانُ إلى الله تعالى فهو تَركُهُ إيّاهُم استِهانَةً بهم ومُجازاةً لِما تركوه، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 363، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 586، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 395.

﴿هَٰذَا﴾ [الأعراف: 51][1]، ومعنى "نسيتَ الآياتِ" هنا أنّك أهمَلتَها وأعرَضتَ عنها وعَميتَ عنها، ونسيتَ ذكرَها[2].

2) ﴿أَسْرَفَ﴾: السَّرَفُ هو تجاوزُ الحَدِّ في كلِّ فِعلٍ يفعلُه الإنسانُ، وإنْ كان ذلك في الإنفاقِ أشهَرَ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: 67][3] وهو تجاوزٌ نَحوَ السَّيِّء، لذلك يُقالُ: "رَجلٌ سَرِفُ الفؤاد وسَرِفُ العقل: فاسِدُه"[4]، فالسَّرفُ ضدُّ القَصْدِ[5]، وينتجُ عنِ السَّرفِ إغفالُ الشّيءِ وإخطاؤه[6]، ومعنى (أسرف) في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ أنّه جاوزَ الحدَّ مُتابعةً لهواه، فأشركَ باللّه، وانهَمَكَ في الشّهوات، وأعرضَ عنِ الآيات[7].

3) ﴿أَشَدُّ﴾: الشِّدّةُ: قُوّةٌ في الشّيء[8]، وهي ضدُّ اللّين[9]، والشَّدُّ: العَقدُ القويُّ والتّوثيقُ، وتُستعمَلُ الشّدّةُ في العَقدِ وفي البَدَنِ وفي قُوى النّفسِ وفي العذاب، قال تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النّجم: 5]؛ يعني جبريلَ عليه السلام، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التّحريم: 6]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق: 26][10]، ومعنى "أشدّ" في الآية ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ أي: أقوى قسوةً وألَمًا ومَشقّةً وفظاعةً من كلِّ الشّدائدِ السّابقةِ وأعظمُ[11].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيَّنَت هذه الآيةُ جوابَ سؤالِ المُعرِضِ عنِ الحقِّ، يسألُ عن سببِ حَشرِه أعمى، مع أنّه كان في الدّنيا بصيرًا، فيأتيه الجوابُ الّذي يُخرِسُهُ: الأمرُ كذلك، فإنّك أتَتْكَ آياتُنا الدّالّةُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي)، والرّازيّ، مختار الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (نسى)، يقول الطّيبيّ: "النّسيان قد يُستعمل في التّرك مجازًا، لأنّ التّرك سبب النّسيان"، يُنظر: فتوح الغيب: 9/ 451.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 97.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرف).

(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سرف).

(5) الجوهريّ، الصّحاح: (سرف).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سرف).

(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 397، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 395، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.

(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شد).

(9) ابن سيده، المحكم: (شدد).

(10) الرّاغب، المفردات: (شد)، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (شدد).

(11) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 324، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 463.

على وحدانيَّتِنا وقُدرتِنا على لسان رسلنا فترَكتَها وأعرَضتَ عنها، ولم ترَ فيها نورًا يُبصِّرُك بالخير، ولا رُشدًا يُبعِدُك عنِ الضّلال، فأعرضتَ عنها، وكما أعرضتَ عنها في الدّنيا، نترُكك اليومَ تُعَذَّبُ في النّار جزاءً وفاقًا.

العذابُ الأليمُ لِكلّ مُسرِفٍ مُعرِضٍ عنِ الحقِّ

ومثلُ ذلك الجزاءِ الأليمِ الّذي أنزلناه بهؤلاء المُعرِضين عن ذِكرنا نجازي كلَّ مَن أسرَف في ارتكاب السّيّئاتِ فلم يُؤمِنْ بآيات ربِّه بل أعرَضَ عنها، ولعذابُ الآخرة أقسى من عذاب الدّنيا وأدْوَم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

تَرَقُّبُ الكافرِ جوابَ سؤالِه

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ عن سابقتها؛ لأنّها جاءت جوابًا لسؤالِ المحشورِ أعمى[2]: ما فعلتُ يا ربِّ؟ فقيل: أتَتك آياتُنا"[3]، فهو جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ[4]، "لذلك فُصِلت ولم تُعطَف"، على طريقة القرآن في إيراده للمحاورات[5].

بلاغةُ التّشبيه في قوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

العمى عن آيات الله في الدّنيا سببٌ للعمى في الآخرة

آثَرَ التّعبيرَ بالكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ للدّلالة على التّشبيه[6]، دون (مثل) لوجود فرْقٍ بينهما؛ فالمثليّةُ تعني الاتّفاقَ في الذّات والصّفة، وهذا غيرُ مُرادٍ هنا؛ لأنّ المقصودَ أنّه فعَل مثلَ ذلك لا عينَه؛ لذا جاء التّشبيهُ بالكاف على سَنَنٍ بليغٍ، حيثُ شُبِّهَ مَوقفٌ بمَوقِفٍ، وحالٌ بحالٍ؛ فشُبِّه مَوقِفُ المُعرِض حين جاءَته الآياتُ في الدّنيا فأهملَها وتَركَها، بمَوقِفِ المُعرِضِ نفسه جاء يومَ القيامةِ، فأُهملَ وتُرِكَ في الشّدائد.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 166.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 395.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 586، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 363.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 332.
(6) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 85.

فالمَوقِفُ هو الإعراضُ، وهو نفسُهُ هنا وهناك، والحال هي نفسُها أيضًا مَجيءُ الآياتِ للتّذكير، ومجيءُ المُعرِض للجزاء[1]، والمشبَّهُ في التّشبيه الأوّل فِعْلُهم؛ وهو عَماهم عنِ الآيات، والمشبّهُ به هو حَشرُ الكافر أعمى[2]، وهو تشبيهٌ دقيقٌ يتضمّن التّعليلَ، وهو ما يُورِثُ الاعترافَ والتَّحسُّر.

دلالةُ التّعبير باسم الإشارة:

تـهـوينُ موقف المُسيّ وإبعادُه

جاء التّشبيهُ في ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾ مُقترِنًا باسم الإشارة البعيد (ذلك)، مع أنّ المُشارَ إليه هو حشرُ المُعرِض أعمى، وهو ماثِلٌ حاضرٌ، والأصل أن تكون الإشارةُ إليه بالقريب (هذا)، ولكنّ الآيةَ عدَلت عنِ الإشارة للقريب إلى إبعاده تهوينًا للمَشهَد وتصويرًا له بمآلٍ سيّءٍ قبيحٍ، لا يَحسنُ أن يكون قريبًا.

سرُّ المُخاطَبة بالإتيان:

يُسْرُ التّكاليف سبيلُ الإلزام

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ بالإتيان في قوله: ﴿أَتَتۡكَ﴾ دون (جاءتك)؛ لأنّ الإتيانَ يحمِلُ معنى السّهولة واليُسر؛ فكأنّ الآياتِ بما فيها من وضوحٍ وظهورٍ تُساعدُك أيُّها المُعرِضُ على العمل بها، ولا تُوجِبُ عليك مَشقَّةً.

وفي هذا إشارةٌ إلى إقامة الحُجّة على المُعرِض، ويُؤكِّدُ ذلك وجودُ كاف الخطاب في الفعل ﴿أَتَتۡكَ﴾.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿أَتَتۡكَ﴾:

جاء التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿أَتَتۡكَ﴾ للدّلالة على تحقُّقِ البلاغ، وأنّه لا عُذرَ للمُعرِضِ بعدَ بلوغِ الآياتِ إليه على ألسنة رسل اللّه.

نكتةُ إسنادِ الإتيانِ إلى الآيات على سبيل الاستعارة:

تصويرُ مشهدِ مجيءِ الآياتِ والإعراضِ عنها

أُسنِد الإتيانُ في الآية ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾ إلى الآيات، وهو

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.

تعبيرٌ بليغٌ يصوِّرُ مَشهَدًا أمام المحشور أعمى: إنسانٌ قائمٌ تتحرّكُ إليه الآياتُ إلى أنْ تصل إليه، فبدلَ أن يُقبِلَ عليها أعرض، وبدلَ أن يَعيَها أهملَ ونَسيَ!

ويكفي في الدّلالة على المعنى مُجرَّدًا عن هذا التّصوير أن تقول الآيةُ: كذلك أَعرَضْتَ عنِ الآيات[1].

فثمرة هذا التّصوير إذًا بيانُ مَوقِف المُعرِض، وأنّه توفّرَت لديه فُرَصُ الإيمان والهداية، فاختارَ غيرَها.

دلالة التّعبير بالآيات مجموعةً ﴿ءَايَٰتُنَا﴾:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ الآيات مجموعةً دون غيرِها كالمُعجِزات؛ لأنّها أعمّ، فتُطلَقُ على آيات الكتاب وعلى أدلّةِ الوحدانيّةِ وعلاماتِ صدقِ النّبوّةِ، وهذا هو المُرادُ في مَقام الدّعوة.

دلالة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

عظمة الآيات من عظمة مُنزِلها

أُضيفَتِ الآياتُ في ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾ إلى نون العظمة؛ لأجل استحضارِ قَدْرِ الآياتِ بعظمة مَن جاءَت منه، فهي آياتُ المَولى ﷻ الخالقِ المُنعِم والقيّوم المُدبِّر ومالكِ يوم الدّين، فمَن راعى عظمةَ الإله نَزّلَ تلك الآياتِ مَنزِلَتَها مِنَ الاعتناء والتّأمُّل والاهتداء والاتّباع[2].

دلالة الفاء في ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾:

تَرَتُّبُ الإعراض عن مجيء الآيات

آثرَ التّعبيرَ بالفاء لأنّها عَطَفَت جملةَ ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ على جملة ﴿أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾، وتدُلُّ الفاءُ على التّعقيب، وهو حصولُ إهمالِ الآياتِ بمُجرَّدِ وصولِها إلى هذا المُعرِض، كما تدُلُّ على التّرتُّب[3]، فالفاءُ إذن دالّةٌ على هذا التّراتب الّذي يُبْنَى عليه المَوقِفُ نفسُهُ؛ وهو إهمالُ المُعرِض يومَ القيامة ونسيانُه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 332.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 363.

(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 64، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 224.

بلاغة التّعبير بالنّسيان عن الإعراض:

ترتُّبُ النّسيان عنِ الإعراض

عبّر بالنّسيان في قوله تعالى: ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ دونَ غيرِه كالإعراض؛ لأنّ النّسيانَ يُطلَقُ على معنيين: أحدهما التّرك ولو كان عمدًا كما هنا في هذه الآية، وثانيهما: ضدّ الذّكر، والمرادُ هنا التّركُ النّاتجُ عنِ الإعراض؛ لذلك جاءَ التّعبيرُ عنِ المُعرِض عنِ الآيات بالنّسيان؛ ليُشيرَ إلى نتيجةِ الإعراضِ ولازمِه، فمَن أعرَضَ عن شيءٍ أهملَهُ، ومَن أهمَلَ شيئًا نسيَه وترَكَهُ، فوَضَعَتِ الآيةُ المُسبَّبَ مَوضِعَ السَّبب، وهو هنا النّسيانُ بدلَ الإعراض[1]؛ والمعنى: فعاملْناك بإعراضِك مُعاملةَ المَنسيّ الّذي لا يبصرُهُ صاحبُه.

دلالة بناء الفعل ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ للفاعل:

نسي الآيات عمدًا وإهمالًا وتهاونًا

جاء الفعلُ ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ مبنيًّا للفاعل؛ للدّلالة على أنّ النّسيانَ بمعنى التّركِ، وقَعَ منه بإرادته واختياره، وليس بدافعٍ خارجيٍّ كأن يُكرَهَ عليه، فعند ذلك يكون التّعبيرُ بالبناء للمَفعول؛ لكن لمّا كان النّسيانُ ناتِجًا عن إعراضِه وإهمالِه بقصدٍ بُني للفاعل.

بلاغة الاحتباك في الآية:

التّحفيزُ للكشف عنِ العلاقة بين العمى والنّسيان

المُتأمِّلُ في بلاغة القرآن يجدُ أنّ في الآية احتباكًا تعدَّدَت صورُهُ؛ إذ حُذِفَت جوانبُ في هذه المحاورة؛ فذكرَت حشرَ المُعرِض أعمى، ولم تَذكُرِ النّسيان، وذكرَتِ المَوقِفَ مِنَ الآيات وهو النّسيان، ولم تَذكُرِ العمى، وتمامُ الصّورة هي كالآتي: نحشرُكَ أيّها المُعرِض أعمى وننساك؛ لأنّك نسيتَ آياتِنا إذ جاءَتكَ وعَميتَ عنها[2]؛ فكذلك اليوم تُنسَى وتُحشَرُ أعمى.

ولهذا الأسلوبِ أثرُه البالِغُ في الرّبط بين العمى والنّسيان، فالمُعرِضُ عَميَ عنِ النّور في الآيات، فأهملَها فنَسيَها وترَكَها، فكان

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 332.

جزاؤُهُ العَمى مع شدّة الحاجةِ إلى النّور يومَ القيامة؛ لأنّه عَميَ عمّا ينبغي أن يَهتدي به، فتَرَكَ الآياتِ.

بلاغة الإيجاز، وإشارةٌ إلى زوال دار العمل

دلالة الإضمار في قوله: ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾:

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار عنِ الآيات في قوله: ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾، ولم يأتِ مُظهِرًا بأن يقول: (فنسيتَ الآياتِ) لسبق ذكرِها في قوله: ﴿أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾ فدلّت عليها، فلا داعيَ لإعادتها مراعاةً لبلاغة الإيجاز.

ويمكن أن يُقالَ: لمّا كان المَقامُ هنا مَقامَ مُحاسبةٍ ومُعاقَبةٍ على إعراضه عنِ الآيات في الدّنيا، أتى بالضّمير؛ للإشارة إلى أنّ العملَ بها انتهى زمنُهُ، ولا يوجدُ له محلٌّ؛ فناسبَ الإضمارَ الّذي يدُلُّ على أنّ الشّيءَ صار أثرًا بعد عين.

تقرير الجواب عن سؤال (لِمَ حشرتَني أعمى)؟

دلالة الواو في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

آثر القرآنُ التّعبيرَ بالواو دون الفاء - مع أنّ المعنى في الآية مُتَرتِّبٌ على ما سبقها - لأنّها عطفَت جملةَ ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ على الجملة السّابقة ﴿أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ﴾ عطفَ تقرير، وهي أقربُ إلى إعادة عبارة السّؤال، فكأنّ الآيةَ تقول: أنت نسيتَ الآيات، فعميتَ عنها، فحشرناك أعمى، ومَن نَسي آياتِنا نسيناه[1].

الجمع بين نسيان المُعرِض في الدّنيا ونسيانِه في الآخرة

دلالة التّعبير بالكاف في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالكاف في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾؛ لدلالتها على التّشبيه، وهو المعنى الظّاهر لها؛ أي: مثل نسيانك وتركِك الآياتِ اليومَ تُنسى وتُترك[2]، وقد تُحمل أيضًا على معنى التّعليل، وهو من معاني الكاف، فتكون الآيةُ: ولأجل ذلك النّسيان ننساك اليوم[3].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 181.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 586.

بلاغة التّشبيه في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

جزاءً وفاقًا

جاء التّشبيهُ بالكاف في هذه الآية بديعًا؛ حيثُ تَطابقَ المشبَّهُ به - وهو تركُهُم للآيات - مع المشبَّه - وهو تركُ اللّه لهم هملًا، فكما تَركوا الآياتِ تُركوا[1]، فكان جزاءً وفاقًا[2]، كما كان نتيجةً منطقيّةً لَموقفٍ غيرِ مَسؤولٍ، ممّا أكسبَ التّشبيهَ صورةَ النّتيجةِ وصورةَ الجوابِ المُفحِم، ويكون المعنى: تُترَكُ على ما أنت عليه بالعمى والشّقاء بالنّار، فتكُونُ كالشّيءِ الّذي لا يُبصرُهُ أحدٌ ولا يَلتفِتُ إليه[3].

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

فظاعة نسيان الآيات

جاءَ التّعبيرُ بالإشارة للبعيد في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ لنسيان الآيات؛ للدّلالة على فظاعة ذلكم النّسيان وقُبْحِه، فصُوِّرَ في صورة المُبْعَد لا القريب، وهو ما يُظهِرُ سوءَ فِعل المُعرِض؛ إذ أهملَ ما يستحِقُّ الاعتناءَ به والاهتداءَ[4].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، وسرُّ التّعبير به:

التّحذير من هول اليوم المَعهود

جاء لفظ "اليوم" في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ مُعَرَّفًا بـ(أل)، وهي (أل) العَهْد، لِما ورد قبلها من ذكر يوم القيامة؛ فالمقصودُ باليوم إذًا هو يومُ القيامة[5]، والتّعبيرُ عنه باليوم يشير إلى أنّه الحقيقُ بالاعتناء والاهتمام، فما سبق في الدّنيا من مَتاعٍ أو عُسرٍ فهو مُنقَضٍ، فإذا حَلّ اليومُ فما أدراك ما اليوم؟! كأنّه هو الأصلُ وغيرُهُ مُقدِّمةٌ له.

نكتة تقديم الظّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

التّرَقُّب لِما سيحدث في ذلك اليوم

جاءت كلمة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ مُقدَّمةً في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾،

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 332.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 55.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 837.

والنّكتةُ في ذلك تشوّفُ السّامعِ وترقُّبُه لِما يَحدثُ فيه، فيذهب به كلَّ مَذهَبٍ[1]، فالّذي ينسى آياتِ ربِّه ويُهملُها ما جزاؤه اليوم؟ فيأتي ذكرُ الجزاء بعدها، وقد أخذَتِ النّفوسُ أُهبَتَها.

نكتة بناء الفعل ﴿تُنسَىٰ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

الإهمال للمُعرِض عن آيات الله

بُني فعلُ النّسيان في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه، مع أنّه ظاهرٌ في السّياق مرجعه[2]؛ للدّلالة على التّهوين والإهمال للمُعرِض عنِ الآيات، ذلك أنّ مَن تَرَكَ الآياتِ حَقيقٌ بالإهمال، فليسَتِ العِبرةُ بمَعرفة الفاعل، فالكلُّ يهملُه[3].

كما يُفهَمُ مِن بناء الفعل ﴿تُنسَىٰ﴾ لِما لم يسمَّ فاعلُه، التَّأدُّبُ مع اللّه تعالى في عدم نسبة النّسيان إليه سبحانه[4].

بلاغة المَجاز في التّعبير بالنّسيان:

إثبات معنى الحرمان والتّرك في النّسيان

ذكرُ النّسيان في الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ على أسلوب المَجاز المُرسَل؛ بذكر الشّيءِ وقصد سببِه[5]؛ أي: إنّ النّسيانَ مُسبَّبٌ عنِ الحرمان مِنَ الرّحمة والكرامة، وأنّ التّقابُلَ بين نوعي النّسيانِ كان على سبيل المُشاكَلة[6].

دلالة الواو في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾:

عطف التّذييل لِما سَبَق مِن حوار

عُطفَتِ الجملةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ على الآية السّابقة ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ بواو العطف[7]، وعملُ الواو هنا هو عطفُ "مَجموعِ كلامٍ على مَجموعِ كلامٍ آخرَ لا على بعض الكلامِ المَعطوف عليه"[8]، فجملةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ تذييلٌ للقصّة والحوار السّابق، وتقريرٌ لمَضمونها[9].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 161، و: 8/ 134.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 1 و18/ 125.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 231.
(5) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/ 86.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 80، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 225.
(7) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 6/ 174.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 333.
(9) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.

بلاغة التّشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾:

تشبيه جزاءٍ عامٍّ بجزاءٍ خاصٍّ

جاءَ التّشبيهُ في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ بالكاف، وهي بمعنى مِثل[1]، وهو تشبيهٌ يبيِّنُ جزاءَ المُعرِض الّذي حُشِرَ أعمى، ويُبيِّنُ جزاءَ كلِّ مُسرِفٍ غيرِ مُؤمِنٍ بالآيات، تشبيهَ جزاء عامّ بجزاء خاصٍّ[2]، وتكمن بلاغةُ هذا التّشبيه في بيان التَّوافُقِ بين الجزاءِ والجِناية[3]، فكان الجزاءُ مِن جنس العمل[4].

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

هَولُ المَوقِفِ يجعلُهُ كالبعيد

دلَّ التّعبيرُ باسم الإشارة الّذي يدُلُّ على البعد في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ على شدّة الجزاء وهَولِه تشبيهًا للفظيع بالبعيد[5]، وحتّى يتمَّ استحضارُ درجةِ ذلك الجزاء.

سرُّ تكرار قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الأداةُ واحدةٌ والمعاني متنوِّعةٌ بديعةٌ

النّاظِرُ في هاتين الآيتين يجدُ تَكرار قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وهذا لا يعدُّ تَكرارًا طالما أنّه يحمِلُ غرضًا مُستقّلًا، ففي المَوضِع الأوّلِ: المشبَّهُ فعلُهم، وهو عماهم عنِ الآيات، والمشبَّه به: حشرهم أعمى، وفي المَوضِع الثّاني: المشبّهُ فعلُ الحقِّ، وهو تركُهُ إيّاهُم على عَماهم، والمشبَّهُ به: تركُهُم آياتِ اللّه، وفي المَوضِع الثّالث: المشبّهُ به: الجزاءُ الخاصُّ، والمشبّهُ: الجزاءُ العامُّ[6].

دلالة التّعبير بـ ﴿نَجۡزِي﴾:

كفاية الجزاء ومناسبته لِلجُرم

آثرَ التّعبيرَ بالجزاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ لِما تحمِلُهُ من دلالات؛ فأصلُ معناها يدورُ حولَ الكِفايةِ[7] والمُكافَأة[8]، ولهذين

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 181.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 267.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 48.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 324.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.
(6) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 10/ 267.
(7) الرّاغب، المفردات: (جزاء).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي)، والزّبيديّ، تاج العروس: (جزي).

المعنيين دلالتهما البديعة؛ حيثُ زادَت لمعنى الجزاء مكافأتَها لِلجُرم وكِفايتَها في العقوبة، فهي عقوبةٌ تامّةٌ، وهي عقوبةٌ مُناسِبةٌ في مقابلة الإسراف والكفر.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نَجۡزِي﴾:

دلّ التّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿نَجۡزِي﴾ على تَجَدُّد الجزاء بتجدُّد الجُرم؛ فكلُّ مَن أسرفَ وكفرَ فهذا جزاؤه.

نكتة إسناد الجزاء إلى ضمير العظمة:

الجزاءُ مِنَ العظيم عظيمٌ

أُسنِد الجزاءُ في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ إلى نون العظمة، ونكتةُ ذلك هي ما تَحمِلُهُ نونُ العظمة مِنَ المَهابة[1]، فتعلو درجةُ الجزاءِ باعتبار المُجازي، والمُجازي هنا هو اللّهُ بما له من صفات العظمة والجَبروت، وبذلك يكون الجزاءُ عظيمًا؛ لأنّه صادرٌ عمَّن له صفاتُ العظمة، وفي هذا تهويلٌ لذلك الجزاء.

بلاغة الالتفات في الضّمائر من ﴿تُنسَىٰ﴾ إلى ﴿نَجۡزِي﴾:

التّأدُّبُ مع الله تعالى في نسبة الأفعال إليه

عدلَتِ الآيةُ الكريمةُ إلى التّكلُّم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ بعد المُخاطَبة في ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾، وتكمنُ بلاغةُ هذا العدول في التّأدُّب عن نسبة النّسيان إلى ربّ العالَمين، فصارَ التّركيزُ على المَنسيِّ المُهمَلِ، بينما حَسُنَت نسبةُ الجزاء إلى المولى تعالى باعتباره في مُقابل العمل ومُناسِبًا له.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَنۡ﴾ في قوله: ﴿مَنۡ أَسۡرَفَ﴾:

عموم الجزاء لكلِّ مَن أسرفَ، ولم يُؤمِنْ بآيات ربِّه

آثرَ التّعبيرَ باسم الموصول ﴿مَنۡ﴾ في قوله: ﴿نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾؛ لأنّه يدُلُّ على العموم، فهو غيرُ مُحدَّدٍ في شخص مُعيّن؛ وإنّما يُحدَّدُ بالصّلة الّتي بعدَه؛ أي: ﴿أَسۡرَفَ﴾؛ للدّلالة على أنّ الإسرافَ سببٌ لذلك الجزاء، وعموميَّة ﴿مَنۡ﴾ مَكَّنَت مِن تحويل الآية إلى قاعدةٍ، مفادُها: كلُّ مَن أسرفَ، ولم يُؤمِنْ بالآيات، فهذا جزاؤُه[2].

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 16/ 440.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (منن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 95، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 529.

دلالة التّعبير باسم الموصول وصلته:

صِلَة الموصول تُؤذِنُ بالتّعليل

ذكرَتِ الآيةُ ﴿نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ الموصولَ ﴿مَنۡ﴾ وصِلَتَه ﴿أَسۡرَفَ﴾، والغرضُ مِن ذلك هو الإشارةُ إلى عِلّة الجزاء[1]، فصلةُ الموصول تُؤذِنُ بالتّعليل[2]، وكأنّ الآيةَ - باستعمال الموصولِ وصلَتِه - تَذكرُ العلّةَ مِنَ الجزاء، إضافةً إلى الإخبار بثبوت هذا الجزاءِ لهم.

نكتة التّعبير بـ ﴿أَسۡرَفَ﴾ مادّةً وصيغةً:

المُعرِضُ عنِ الآيات مُتجذِّرٌ في تجاوز الحدود

عَبَّرتِ الآيةُ ﴿نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ عن علّة الجزاء بالإسراف، وللتّعبير بالإسراف نكتٌ عديدةٌ؛ سواء في مادّتها أو صيغتها: فأمّا عن مادّتها فالإسرافُ هو تجاوزُ الحدِّ في المعصية أيًّا كان نوعها؛ لوجود حدودٍ ينبغي مُراعاتُها، لِمَن أرادَ لنفسِه السّلامةَ والفلاحَ، وتجاوزُ تلك الحدودِ هو تجاوزٌ لإرادة صاحب الحدود، وهو اللّه تعالى، لذلك استحَقَّ المُسرِفُ العقوبةَ[3].

وأمّا عن صيغتها فقد جاءَتِ المُفردةُ ﴿أَسۡرَفَ﴾ بصيغة الماضي لِتدُلَّ على أنّ الإسرافَ راسِخٌ في المُعرِض عنِ الآيات، مُقارَنةً بعَدَم الإيمانِ الواردِ بصيغة المضارع، فصارَ المُسرِفُ هو المُتجذِّرُ في تجاوز حدودِه.

غرض حذف مُتعلِّق الإسراف:

الإسراف مذمومٌ في كلِّ أحواله

حُذِفَ مُتعلِّقُ الإسراف في الآية: ﴿نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾، والغرضُ من ذلك هو التّركيزُ على الفعل في حدِّ ذاتِه[4]، دونَ نظرٍ إلى ما تَعَلَّقَ به، فالإسرافُ هو المَذمومُ مهما كان فاعلُه، وهو ما يُظهِرُ فداحة الإسرافِ في أصله، وأنّه يؤدّي إلى المَهالِك.

---

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 129، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4807.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 452، 24/ 243، 27/ 117، 24/ 188.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.

(4) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 156، وأبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 341.

السِّرُّ وراء التّعبير بـ ﴿مَنۡ أَسۡرَفَ﴾:

مَن أسرف على نفسه في الدّنيا حُشِرَ أعمى يوم القيامة

جاء الفعلُ ﴿أَسۡرَفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ دون اسم الفاعل المجموع (المُسرِفين)؛ لدلالة الفعل على زمن الحدث، وهو هنا الزّمنُ الماضي المُناسِبُ لحكاية حال الكافر في الدّنيا، فقد أشرك، وكفرَ، ولم يُؤمِنْ بآيات ربِّه، فكان جزاؤُهُ يوم القيامة كما أخبر عنه سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: 125 - 127].

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾:

العطف مع البيان

جاء وصفُ ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾ في الآية ﴿أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾ معطوفًا على ﴿أَسۡرَفَ﴾ بحرف الواو، والعطفُ بالواو هنا هو ضَمُّ شرطٍ لشرطٍ لإثبات الجزاء، فيُفهَمُ منه أنّ الإسرافَ قرينٌ لعَدَمِ الإيمانِ، وأنّ كليهما استدعى هذا الجزاءَ المُناسِبَ(1).

دلالة النّفي في ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾:

الإعراضُ عن الآيات وتركُ الإيمان بها

استعملَتِ الآيةُ أسلوبَ النّفي بأداة (لم) في قوله: ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾، بدلَ أسلوبِ الإثباتِ؛ أي: كَذَّبَ بالآيات؛ لأنّه يدُلُّ على عَدَمِ حدوثِ أدنى درجةٍ مِنَ الإيمان بالآيات، كما يشيرُ إلى معنى تركِ الإيمانِ بها، وهو إحالةٌ إلى معنى الإعراض، ومعنى التّركِ المَقصودِ في نسيان الآيات(2).

فالمَوقفُ مِنَ الآيات هنا لم يكُنِ التّكذيبَ، بل كان الإهمالَ والإعراضَ وعَدَمَ الإيمان.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9442.

(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 105، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 442.

نكتة التّعبير بالمضارع المنفيّ ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾:

تَكَرُّرُ عَدَمِ إيمانِ المُسرِفِ رغم تجدُّدِ دعوتِه إلى الحقِّ

جاءَ الفعلُ ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾ بصيغة المُضارعة منفيًّا؛ للإشارة إلى تَكَرُّر عَدَم إيمانِه، رغم تَجَدُّدِ دعوتِه وتبيينِ الحقِّ له، - وهو المذكور في إتيان الآيات - ، ولكنَّ المُعرِضَ عنِ الآيات - لإسرافِه على نفسِه - رفضَ الإيمانَ بالآيات، واستمَرَّ في غيّه وعَماه.

معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

تـعـلُّـقُ عـدم الإيمان بالآيات وربطه بها

دلَّتِ الباءُ في قوله: ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ على التّعدية؛ إشارةً إلى أنّه جَحَدَ الآياتِ، ولم يُؤمِنْ بها، ممّا يُظهِرُ جُرمَه؛ إذِ الأصلُ في الآيات أنّها أدلّةٌ وبراهينُ يُسلِّمُ بها مَن يصغي إليها، لكنّ هذا المُسرِفَ لم يَستجِبْ لدلالتها، ولم يُؤمِنْ بها[1].

دلالة لفظ الرّبوبيّة وإضافته إلى ضمير المُسرِف:

الـــرّبُّ أحـقُّ بـالـخـضـوع له والإيمان به

أُضيفَتِ الآياتُ في قوله: ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ إلى لفظ الرّبوبيّة، مع إضافتِه لفظَ الرّبوبيّةِ إلى المُسرِف بضمير الهاء؛ للدّلالة على أنّ المُسرِفَ قد تجاوزَ كلَّ الحدود في إسرافه، فإنّ حقَّ الرَّبِّ أن نُؤمِنَ بآياتِه، ولكنّ المُسرِفَ تجاوزَ ذلك فلم يُؤمِنْ بما حقّه الإيمانُ.

نكتة العدول من قوله ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ إلى ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾:

آياتُ الرّبِّ أدعى إلى الإقـبـال عليها

التفتَ الخطابُ مِنَ المُتكلِّم بنون العظمة في ﴿أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾ إلى المُفرد الغائبِ ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾، مُركِّزًا على اختصاص الآيات بربِّ المُسرِف؛ لإظهار قبحِ مَوقفِه، فالآياتُ مِن ربِّه لا مِن ربٍّ آخرَ حتّى يُهمِلَ ذلك، فلمّا جاءَته آياتُ ربِّه قابلَها بالإعراض، وقابلَ ربَّهُ بالجفاء مُخالِفًا بذلك حقوقَ الرّبوبيّةِ الّتي تُوجِبُ عليه الخضوعَ والقُبولَ بآيات ربِّه.

(1) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 31، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 6.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾:

أبشع صور الإسراف عدم الإيمان

عطفَتِ الواو فِعلَ ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾ على ﴿أَسۡرَفَ﴾ في قوله: ﴿أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ﴾ في مَعرِض ذِكر الجزاء؛ للدّلالة على قرن العَمَلَين على أنّهما سببا الجزاء بالعذاب، ولأنّ في العطف معنى التّفسير؛ لأنّه فسَّرَ الإسرافَ بعَدَمِ الإيمان بآيات اللّه[1]، وهذا ظاهرٌ في المُسرِف؛ لأنّه قد تجاوزَ حدَّهُ إلى درجةٍ أنّه أعرضَ عن آيات ربِّه، وأهملَ خطابَهُ.

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

عَطفَ العذاب الأخرويّ على العذاب الدّنيويّ تَشديدًا وتَنكيلًا

دلَّ العطفُ بالواو في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على الجملة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ على وجود وعيدٍ سابقٍ لهم بالعذاب في الدّنيا؛ فهو من باب عطفِ جزاءِ الآخرة على الجزاءِ بالعمى وضنك المَعيشةِ، في تراتُبٍ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، ومِنَ الأهون إلى الأشدّ، ومِنَ المُؤقَّت إلى الأبقى. "فجاء هذا وعيدًا في الآخرة بعد وعيد"[2]، على نسق قوله ﷻ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: 17]

دلالة اللّام في ﴿وَلَعَذَابُ﴾:

التّرهيبُ من هول عذاب الآخرة

اللّامُ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هي لامُ القسم، ومعناها: (ولَنَتْرُكَنّا إيّاهُ في العمى أشدّ وأبقى من ضنك المعيشة)، وهذا المعنى فيه ترهيبٌ ووعيدٌ للمُعرِض؛ لذلك جاءَت لامُ القسم لِتزيدَ مِن هول عذاب الآخرة في تَرَقٍّ من عذاب الدّنيا إلى عذاب الآخرة، فمَن يَسمَعُ بالجزاء الأوّل (ضنك المعيشة والحشر أعمى) سيفزَعُ، فإذا أُضيفَ القسمُ إلى ذكر شدّة عذاب الآخرةِ زادَ المُنْصِتُ للآيات هَلَعًا، فالقسمُ إذًا في حدِّ ذاتِه يزيدُ المُسرِفَ عذابًا، فكيف بحلول العذاب![3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 69.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364، وأبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 161.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

استحضار صورة الآخرة المعهودةِ

جاءَ ذكرُ الآخرةِ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مُعَرَّفةً بـ(أل)؛ للدّلالة على العهد؛ لأنّه إذا ذُكِرَتِ الآخرةُ في آيات القرآن انصرفَت إلى اليوم الآخر، على عادة القرآن الكريم[1]، ويكون الغرضُ مِن ذِكر (أل) العَهديّة هو استِحضارَ المَقصودِ؛ للانتقال مُباشَرةً إلى ما يَحصُلُ مِن شدّة العذاب ودوامه، مع أنّ الحشرَ يومَ القيامة هو أوّلُ الآخرة، فكيف بالمُسرِفِ بما يأتي بعدَهُ مِن أحوالٍ وأهوالٍ!

دلالة إضافة العذاب إلى الآخرة:

لا شيءَ للمُسرف في الآخرة إلّا العذابُ

أضافَتِ الآيةُ العذابَ إلى الآخرة في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِتحصَرَ المُسرِفينَ في العذاب، فالمُسرِفُ في جزاءٍ تِلو الجزاء، وشدّةٍ تِلو الشّدّة، كأنّه لا شيءَ له إلّا العذابُ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20]؛ فلا ينالُ مِنَ الآخرة إلّا العذابَ الأشدّ والأبقى[2].

المَوقِعُ الإعرابيُّ لقوله ﴿أَشَدُّ﴾:

عذابُ الآخرة أشدُّ من عذاب الدّنيا

جاءَت كلمةُ ﴿أَشَدُّ﴾ في ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ خبرًا للمبتدأ "عذابُ الآخرة"، والخبرُ كما يحملُ دلالةَ الإخبار بشدّة العذاب، فإنّه يتجاوزُ ذلك إلى التّذكير بما بين المَراتِبِ مِنَ التّفاوت، مع التّحذير والتّرهيب[3].

نكتة التّعبير بـ ﴿أَشَدُّ﴾ دون شديد:

مُقارَنةُ عذابِ الآخرة بما سبقَه مِن شدائدَ

وُصِفَ عذابُ الآخرة في الآية: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ بالأشدّ بدلَ الشّديد؛ وذلك لِمُقارنة عذابِ الآخرة بما سبقَهُ مِنَ الشّدائد[4]، ولِلمُقارَنة أثرُها البالِغُ في التَّرقّي من شدّةٍ إلى أشدّ منها إلى النّهاية في الشّدّة، إنّه عذابُ الآخرة الأشدُّ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 397.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 333.
(3) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 56، وأبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 80.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 394.
(5) البغويّ، معالم السّنن: 5/ 302.

الآخرةُ دارُ البقاء

بلاغة وصف العذاب بقوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

وُصِفَ العذابُ بقوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ لأنّه غيرُ مُنقطِعٍ؛ لأنّ الدّنيا دارُ فناءٍ وانقطاع، أمّا الآخرةُ فهي دارُ البقاء؛ لذلك كان التّعبيرُ بقوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ للدّلالة على دوامِه واستمرارِه.

بلوغُ العذاب مُنتهاهُ شدّةً ودوامًا

نكتة حذف مُتعلّق ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

حُذِفَ مُتعلِّقُ كلمتي ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، ونكتةُ ذلك هي الانتقالُ مِنَ المُقارَنة بين عذابٍ وعذابٍ إلى إعلان عَدَم وجودِ ما يُقارَنُ به، المُقارَنةُ، وفي ذلك إعلامٌ ببلوغ عذاب الآخرة المُنتهى ألَمًا وفظاعةً، ودوامًا لا انقضاءَ له [(1)].

تشديدُ عذاب المُسرِفِ بتأكيد ذكرِه وبيانِه

دلالة ختام الآية بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

خُتِمَتِ الآيةُ بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ لأنّه لمّا توعَّدَ المُعرِضَ عن ذِكرِه فيما سبق بعقوبتين: المعيشة الضّنك في الدّنيا، وحشره أعمى في الآخرة، خَتَمَ هذا الوعيدَ بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ من باب التّأكيد والبيان؛ لأنّها مُؤكِّدةٌ لمعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124] ومُبيِّنٌ لِما قَصَدَ به، أو لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾[(2)].

اختلافُ أوصافُ العذاب باختلاف السّياق

سرُّ اختلاف وصف العذاب بين الشّدّةِ والمَشقّةِ والكِبرِ:

النّاظِرُ في آيات القرآن الكريم يجدُ أنّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وُصِفَ بعدّة أوصافٍ؛ فوُصِفَ هنا بقوله: ﴿أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، وفي سورة الرّعد بقوله: ﴿أَشَقُّۖ﴾ [الرّعد: 34]، وفي سورة الزُّمر بقوله: ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ [الزّمر: 26]، وفي سورة فُصّلت بقوله: ﴿أَخۡزَىٰۖ﴾ [فُصّلت: 16]، وكلُّ وصفٍ من هذه الأوصاف مُناسِبٌ للسّياق الّذي ورد فيه.

فمَوضِعُ سورة الرّعد وصَفَ عذابَ الآخرةِ فيه بأنّه أشقُّ؛ لأنّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 394، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112.
(2) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 10/ 268.

الآيةَ بُدِئَت بقوله: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الرّعد: 34] جزاء للكافرين لصدّهم عن سبيل الله، وكان هذا الصّدُّ يُسبِّبُ مَشقّةً لِمَن يريدُ الطّريقَ المستقيمَ؛ فدلّ ذلك على أنّ عذابَهم في الحياة الدّنيا شاقٌّ، فناسبَهُ التّعبيرُ بوصف عذاب الآخرة بالأشقّ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ [الرّعد: 34]، أمّا مَوضِعُ سورة طه الّذي معنا في هذه الصّفحة فيسبقُهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124]؛ فلمّا كانت شدّةُ الدّنيا تزولُ بالحشر ناسبَه قولُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، أمّا مَوضِعُ الزُّمر فيسبقُهُ قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥﴾ [الزّمر: 25]؛ فلمّا كان التّكذيبُ من أكبر الكبائر، ودلَّ ذلك على أنّ عذابَ هؤلاء في الدّنيا كبيرٌ، ناسبَه قولُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ [الزّمر: 26]؛ أمّا مَوضِعُ فُصِّلت فكان حديثًا عن عذاب قوم عاد بقوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [فُصّلت: 16]، فلمّا كان عذابُ هؤلاء في الدّنيا مُخزيًا ناسبَه قولُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ [فُصّلت: 16].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السّهو والنّسيان والغفلة:

النّاظِرُ في استعمالات هذه الألفاظ يجدُ بينها فروقًا، وإنْ تقاربَت في الدّلالة على ترك إتيانِ الفعلِ وعَدَمِ الانتباه له:

فالسّهو عَدَمُ التَّفطُّن للشّيء مع بقاء صورته أو معناه في الخيال بسبب اشتغالِ النّفسِ والتفاتِها إلى بعض مَهامِّها.

والنّسيانُ عزوبُ الشّيء عنِ النّفس بعدَ حضورِهِ، ويكون بمعنى التّركِ، وهو ضدُّ الذّكرِ.

الغفلةُ عَدَمُ حضور الشّيء في البال، والنّسيانُ عزوبُهُ بعد حضورِه، والسّهو عَدَمُ التَّفطُّن له

أمّا الغَفلةُ فهي عَدَمُ حضورِ الشّيءِ في البال بالفعل، وعلى ذلك فالغَفلةُ أعمُّ مِنَ السّهو والنّسيان[1].

فالغَفلةُ قلّةُ التّحفُّظِ والتّيقُّظِ[2]، والسّهو خطأٌ عن غَفلَةٍ[3]، فهو غَفلةٌ يَسيرةٌ[4]، يمكن أن يُتنَبّهَ منها بأدنى تنبيهٍ، وهو سكون[5]، والنّسيانُ تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ[6].

ويختلفُ النّسيانُ عنِ الغَفلةِ والسّهو باعتبار وجودِ مَذكورٍ مَحفوظٍ سلفًا، يتعلَّقُ الأمرُ بحفظِه، بينما تتعلَّقُ الغَفلةُ والسّهو بالانتباه والتّيقُّظ، ويختلفُ السّهو عنِ الغَفلةِ في خِفّة السّهو وشدّة الغَفلة.

العذاب والعقاب:

العذابُ باعتبار طبيعة الشّدّةِ، والعقابُ باعتبار زمنِه وسببِه

يَجتمِعُ مفهومُ العذاب والعقاب في معنى النّكال والمَجازاة، وإنْ كانَ لكلٍّ منهما معنىً يميِّزُهُ؛ فمادّةُ (عذب) في اللّغة تُطلَقُ على الضّرب، وتُطلَقُ على كلِّ شدّةٍ ومعاناةٍ؛ بخلاف العقاب، فأصلُهُ من (عَقِبَ) الّذي يدُلُّ على تأخير الشّيءِ وإتيانه بعدَ غيرِه، والعقابُ مِن هذا الباب سُمّي بذلك؛ لأنّه يأتي عَقِبَ الذّنبِ، ومِن هنا يَفترِقُ العقابُ عنِ العذاب من ناحية أنّ العقابَ لا بدَّ وأن يسبقَهُ ذنبٌ.

أمّا العذابُ فهو وصفٌ للحالة البدنيّةِ والنّفسيّةِ سواءٌ سبقَهُ ذنبٌ أم لا، وآياتُ القرآنِ في هذا ظاهرةٌ في التّفريق بينهما، حيثُ يُوصَفُ العذابُ بالشّدّة والعموم؛ بخلاف العقاب، فقد يكون شديدًا، وقد يكون يسيرًا، لكن لابدَّ وأن يسبقَهُ ذنبٌ[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والعسكري، الفروق اللّغويّة: (نسا) و(سها) و(غفل).
(2) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(3) الرّاغب، المفردات: (سها).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، والزّبيديّ، تاج العروس: (سهو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سهو).
(6) الرّاغب، المفردات: (نسي).
(7) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 341.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ [طه: 128]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أخْذُ العِظة والعِبرة من أحوال الأمم السّابقة الهالكة

لمّا ذكرَتِ الآياتُ السّابقةُ جزاءَ مَن أعرضَ عن ذكر اللّه في الدّنيا بالمعيشة الضّنك، وفي الآخرة بحشرِه أعمى؛ جاءَت هذه الآيةُ ببيان ما يَعتبِرُ به المُكلَّفُ من أحوال الأمم السّابقةِ الّتي كذَّبَت رسلَها؛ ليأخذوا منها العِظةَ والعِبرةَ بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ الآية.

وذلك أنّه لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى في الآية السّابقة، أنّ عذابَ الآخرة قد أُعِدَّ لِمَنْ عَمِيَ عن آيات اللّه الّتي أنْزَلَها، ناسبَ أن يُنكِرَ عليهم في هذه الآية تَركَ الاعتبار، والعَمى عن آيات اللّه الماثِلَة في عالَم الأنفس[1]، فإنّهم لم يهتدوا بأحوال الأمم السّابقة، وما أصابَهم مِنَ الهلاك[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِ﴾: تُطلَقُ الهِدايةُ على الدّلالة والإرشاد بلُطفٍ[3]، وعكسُ الهِدايةِ هي الضّلالةُ[4]، ويَرِدُ فِعلُ الهِداية مُتعدّيًا بنفسه، كما في قول الحقّ سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، ويأتي مُتعدّيًا بحرفٍ من حروف الجرّ: كالحرف ﴿إِلَىٰ﴾ [الشّورى: 52] في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشّورى: 52]، وحرف (اللّام) في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43][5]، وإذا

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 69، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 364.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي)، والرّاغب، المفردات: (هدى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدى).
(5) الرّاغب، المفردات: (هدى).

تعدّى فِعلُ (هدى) بحرف لامٍ: (هدى له) صار بمعنى البيان، ومعنى الهِداية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ البيانُ؛ أي: أوَلَم يُبيِّنْ لهم[1].

2) ﴿ٱلْقُرُونِ﴾: أُخِذَ معنى (القَرْن) مِن قَرَنَ؛ أي: جَمَعَ شيئًا إلى شيءٍ[2]، وأُطلِقَ على الزّمن الّذي يحيا فيه قَومٌ أو فِئةٌ مِنَ النّاس؛ لأنّ الزّمانَ قَرَنَهُم[3]، أو لتَقارُبهم في السِّنّ[4].

والمقصودُ بالقُرون في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأقوامُ، كقَوم عادٍ وثمودَ وأصحاب مَدْين والمُؤْتَفِكة، عاشوا زمنًا طويلًا، وعُرِفَ كلُّ قَرن بِقَوم مُعيَّنين.

3) ﴿مَسَٰكِنِهِمْ﴾: جاء (المَسكَن) مِنَ الفِعل (سَكَنَ)، وهو خِلافُ الاضطِراب والحركةِ[5]، والسّاكن هو ما ذهبَتْ حركتُهُ وثَبَتَ وقَرَّ[6]، والسُّكونُ هو ثُبوت الشّيءِ بَعد تَحَرُّكٍ، ويُستَعمَلُ لِمعنى الاستيطان؛ فـ: سَكَنَ فُلانٌ المَكان كذا؛ أي: استوطَنَهُ[7]، والمَسكَن ما يكون سببًا للسُّكون، سواء أكان المَسكَنُ مكانًا نَسكُن فيه، أم أهلًا ومالًا نَسكُن إلَيهم[8].

والمَساكِن في الآية: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ هي ما اتّخذَهُ كلُّ قَومٍ مِن مَنازِلَ وبِقاعٍ يَقضُون فيها حياتَهم، وتَظهَرُ فيها خُصُوصيّاتُهم، مِثلَما تَمَيَّزَت مَساكِنُ عادٍ ومَساكِنُ ثَمودَ.

4) ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾: النُّهَى جَمع نُهيَة، وقد أُخِذَت مِن معنى النَّهي، والنَّهيُ هو الزَّجرُ عنِ الشّيءِ والكفُّ عنه، والنُّهيَةُ هي العقلُ النّاهي عَنِ القبائح[9]، وأولو النُّهى هُمُ الّذي يُنتَهى إلى رأيهم[10].

والمقصودُ بـ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ في الآية هُمُ الّذين يَعتَبِرونَ بأحوال مَن سَبَقَهُم، وأُولو العقول الّذين صاروا المُنتَهى في الحِكمَة؛ لأنّهم مَنَعَتهم عقولُهُم مِن كلِّ قبيحٍ.

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (هدى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرن).
(3) الرّاغب، المفردات: (قرن).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قرن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (سكن).
(7) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (سكن).
(9) الرّاغب، المفردات: (نهى).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (نهي).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إنّ في آثار المُهلَكين وديارِهم الخَربةِ لأقوى عِبرة، وأبلغ عِظة، لِمَن كان له عقلٌ يَنهاهُ عنِ الغيّ والعناد

بيّنَت هذه الآيةُ أنّ اللّهَ ﷻ أنكرَ على المُشرِكين أنّهم عَموا عمّا حَصَلَ للكثير مِنَ الأقوام السّابقين المُكذِّبين لِرسلهم، فلم يَعتبِروا بما آل إليه أمرُهم، مع أنّهم يَمشون في مَساكِنِهم ويُشاهِدون مَصرَعُهم؛ فإنّ في تِلكَ الدّيَّار الخاويةِ على عُروشها مثل ديارِ عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وغيرِهم مِنَ المُكذِّبينَ لأقوى عِبرة لِمن كان له عَقلٌ يَنهاه عَنِ القبائح، ويمنَعُه مَنَ الوُقوع فيما وقَعَ فيه الآخرون.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتَة فصل الآية عَن سابِقتها:

أخذُ العِظةِ والعِبرَةِ مِن هلاك السّابقين

لمّا ذَكَرَ اللّهُ الجزاءَ في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾، وتوَعّدَهُ بأشدّ العذاب وأبقاه، فرَّعَ عليه الاستفهامَ ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾؟ في كلامٍ مُستَأنَف لتقرير ما قبله؛ لأنّ الهلاكَ في الدّنيا هُو جزاءٌ مُقرّرٌ لِجَزاءِ المُكذِّبِ المُسرِفِ في الآخرة[1]؛ لذلك فُصِلَت عَن سابقتها واستُأنِفَت[2] وهي في أتمّ الاتّصال.

بلاغة الاستفهام ونوعه وغرضه:

الإنكار على الكفّار لقلّةِ اعتبارهم بالآيات المشاهَدَة

ابتدأتِ الآيةُ الكريمةُ ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ بالاستفهام بالهَمزَة مصحوبةً بالنّفي (لَم)، وهو استفهامٌ لا يَقصِدُ إلى السّؤال بقدر ما يَرُوم الإنكارَ على الكفّار لِعَدم اعتبارهم بالأُمَم السّابِقة[3]، فهو إنكارٌ لواقعهم من عدم الاعتبار بمَن أهلَكَهُمُ اللّهُ مع كثرتِهم مِنَ القرون السّابقة، رَغم أنّهم يُشاهِدون مَساكنَهُم خاويةً بَعد عِمارة! ويَمشون فيها؛ لذلك كان غَرَضُ الاستفهامِ هنا هو التّعجيبَ مِن حالِهم[4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 334.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/ 342، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 48.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 48، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4808.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 334.

والتّقريعَ والتّوبيخَ[1]، لِسُوء مَوقِفِهم مِن رَسولهم، فهو مَوقِفٌ يَستَأهِلُ أَنْ يَحيقَ بهم العذابَ لِزامًا، كما وقَعَ لِمَن سَبَقَهم، لولا كلمةُ اللّه في تأخير العذاب.

ابتداءُ توبيخ كفّار قريش، ومَن كان معهم

دلالة الفاء في ﴿أَفَلَمْ﴾:

جاءَت هذه الآيةُ مُستأنفةً واردةً مَورِدَ ما يَرِدُ مِنَ الكلام التفاتًا، وذلك أنّ الآياتِ السّابقةَ في الإخبار عمّن أعرضَ عمّا جاءَت به الرّسلُ، ثمّ ابتدأت توبيخَ كفّار قريشٍ وتذكيرَهم ومَن كان معهم، فقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾[2]، فناسبَ أن يُؤتَى بالفاء الاستئنافيّة[3]، أو تكون الفاءُ عاطفةً وواصِلةً، عطفَت معنى الآيةِ - وهو عَدَمُ الاهتداء بمَشاهِدِ الهلاك - بجملةٍ مُقَدَّرَةٍ - بعد همزة الاستفهام - اقتضاها المَقامُ[4].

التّعجيبُ مِن حالِ الكفّار وتقريعُهم

بلاغة حذف الجملة قبل الفاء:

دَلَّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ على جملةٍ حُذِفَت، يقتضيها المَقامُ وتُفهَمُ مِنَ السّياق، وتَقدير الجملة المَحذوفةِ هو: أغَفَلُوا؟ فلَم يُهدَ لهم! أعَمُوا؟[5]، أو تقديرها: أيستمرّون في عبادة الأوثان مع قيام العِبرِ الدّالّة على ضلالهم، فلم يَهدِ لهم كَم أهلَكْنا قبلَهم مِنَ القرون؟[6] فحملَتْ هذه الجملةُ مَزيدَ التّعجيب والتّقريع لهؤلاء الكفّار.

مآلُ معنى الهداية إلى التّبيين

نكتةُ تَعدية الهِداية باللّام:

دلَّ فعلُ ﴿يَهْدِ﴾ في الآية: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ على التّبيين؛ لأنّ فِعلَ ﴿يَهْدِ﴾ يَصِحُّ أن يتعدّى بنفسه، فإذا عُدّي باللّام زادَ لِلفعل تَعديَةً،

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/ 342، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 464.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/ 342.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 440.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 48.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 49، والصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 57.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4808.

وأضافَ لدلالة الفعلِ معنًى آخرَ، فصارَ المعنى: التّبيينَ[1]؛ أي: أفلم يُبيِّنْ لهم[2] كم أهلكْنا قبلَهم مِنَ القرون.

بلاغة الاستعارة في التّعبير عنِ التّبيين بالهداية:

تنزيل الإرشاد المعنويِّ مَنزلةَ الإرشاد الحسّيِّ زيادةً في التّقريع

اكتسبَ فعلُ ﴿يَهۡدِ﴾ معنى التّبيين بتعدية الفعل باللّام، وأمكنَ الانتقالَ بالهداية مِنَ الدّلالة إلى ما يُوصِلُ إلى مَطلوبٍ حِسّيٍّ - وهو أصلُ معنى الهِداية - إلى الإرشاد إلى أمر معنويٍّ؛ وهو المعنى الخاصّ في الآية، وحَسُنَت الاستعارةُ إذ أنزَلَتِ المَعنويَّ مَنزِلةَ الحسّيِّ[3]، وصارَتِ الآيةُ أكثرَ وقْعًا؛ كأنّ تلك المَساكِنَ تحكي حالَ مَن سكنَها، وتُحذِّرُ المارّين بها أنْ يَقعوا فيما وقَعَ فيه أهلُها.

بيان فاعل ﴿يَهۡدِ﴾:

الهادي هو مَجموعُ الإهلاكِ وكثرةُ الأقوامِ وشهادةُ مَساكِنِهم اعتبارًا

تعدَّدَتِ الأقوالُ في تعيين الفاعل للفعل ﴿يَهۡدِ﴾ على أوجه:

أوّلها: أنّه ضميرٌ مستترٌ يعود على لفظ الجلالة.

ثانيها: أنّه ضميرُ الرّسولِ ﷺ؛ لأنّه هو المُبَيِّنُ لهم بما يُوحَى إليه من أخبار الأممِ السّالفةِ والقرونِ الماضية.

ثالثها: أنّه مُضمَرٌ يفسّرُهُ ما دلّ عليه مِنَ الكلام بعدَه، والتّقدير: (أفَلَم يَتبيَّنْ لهم هلاكُ مَن أهلكْنا مِنَ القرون ومحو آثارهم، فيتّعظوا بذلك)، فالفاعلُ إذًا هو ما يُفهَمُ مِن جُملة الكلام وسياقه[4]، وهو إهلاكُ اللّه للأقوام الكافرة على كثْرتها، اعتبارًا بمَساكِنِهم وما آلَ إليه حالُهم[5]، والّذي يقتضي هذا التّقدير ما جاء في فاصلة الآية تعليلًا[6]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾؛ أي: في ذلك الحال بجُملتِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 334.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 269.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 334.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 96، وابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/ 342.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 69، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 669.

(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 587.

وقيل في تعيين الفاعل أقوالٌ أخرى[1].

حذف مفعول ﴿يَهۡدِ﴾:

تنزيلُ الفعل المُتعدّي مَنزِلةَ الفعلِ اللّازم زيادةً في التّبيين

حُذِف مفعولُ ﴿يَهۡدِ﴾ في الآية ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ لإفادة العموم، ولِتذهبَ النّفسُ فيه كلَّ مَذهَبٍ، وقد قدَّرَهُ بعضُ أهل التّفسير بأنّه الاعتبارُ بإهلاك القرون السّابقة، بدلالة الجملة المُفسِّرة ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾[2].

وقد ذكروا في المفعول وجهًا آخرَ، وهو أن يكونَ المفعولُ جملةَ: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾[3] نفسها، فإنّها سادَّةٌ مَسَدَّ المفعول.

وممّا يُذكَرُ في حذف المفعول وعدم ذكره؛ أنّه يُنَزِّلُ الفعلَ المُتعدّي مَنزِلةَ الفعل اللّازم؛ ليتمَّ التّركيزُ على معنى الفعل؛ أي: التّبيين[4]؛ أي: أن يقع لهم البيانُ الهادي[5].

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

إهلاك القرون السّابقة يحمل الهدايةَ والتّبيينَ للمُشركين لو عَقلوا

ذكرَتِ الآيةُ الاهتداءَ بِما حصل للأقوام السّابقين، وجاء بعبارة ﴿يَهۡدِ لَهُمۡ﴾، واللّامُ هُنا هي لامُ الاستحقاق[6]، وقد جاءت لتقوية التّعدية؛ أي: إنّ الهداية لهم أوّلًا وبالذّات[7]، لأنّهم مَحلُّ القصد من ذكر إهلاك الأمم السّابقة ليَعتَبِروا ويَرجعوا عن كفرهم وعنادهم، ولا سيّما وأنّهم يشاهدون بأعينهم آثارَ ذلك الهلاك.

بلاغة أسلوب ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾:

وما هي مِنَ الظّالِمين ببعيدٍ

هذا الأسلوب القرآنيّ ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ وأمثاله نحو: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ [يوسف: 109]، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ [الرّعد: 41]، بيّن القرآنُ في جميع ما ذُكِر

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 117.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 396، والسّمين، الدّرّ المصون: 8/ 117.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 396، والسّمين، الدّرّ المصون: 8/ 117.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 334.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 365.
(6) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 96.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4808.

منه أنّ المخاطَبين بهذا الأسلوب قد وافقوا أولئك الّذين أهلكهم اللّه مِنَ القرون الماضية، وما نزل بهم بتكذيبهم الرّسلَ والآياتِ الّتي أتَوا بها، وهم آمنون يمشون في مَساكِنِهم، فكيف أمِن هؤلاء من عذاب اللّه مع مُوافقتهم لهم في جميع صنيعهم[1] ؟.

فلا سببَ لِنجاتهم سوى ما تفضَّلَ اللّه به على رسوله ﷺ بعدم استئصال هذه الأمَّة؛ لأنّها هي الأمّةُ الباقيةُ إلى يوم القيامة.

توجيه المتشابَه اللّفظيّ بين: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ [الأعراف: 100] ، و﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾، و﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ [السّجدة: 26]:

يَظهرُ جليًّا أنّ بين هذه الآيات الكريمات تشابُهًا لفظيًّا من جهة العطف بالواو أو الفاء بعد همزة الاستفهام، ومن جهة زيادة حرف (مِن) في مَوضِع الأعراف والسّجدة دون مَوضِع طه.

الفرق بين العطف بالواو وبالفاء في السياق:

فأمّا النّكتةُ البلاغيّةُ في العطف بالفاء في مَوضِع طه أنّ الفاءَ تدُلُّ على تعلُّق الجواب بالمبتدأ، والجزاء بالشّرط، فتكون جملةً تمامُها بجملةٍ قبلَها، فقد تقدَّمَ في هذه الآية قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ﴾ [طه: 125 - 126]، ومعناه: فتركتُ الاهتداءَ بها، ثمّ قرّرهم على نصبه لهدايتهم، واحتجّ عليهم بتركهم الاهتداء به، فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾، والتّقدير: (مَن تأتِه آياتُنا فعليه الاهتداء بها، وأنتم أتتكُم آياتُنا فلم توفوها حقَّها، فهلّا فعلتُم ما لزِمَكُم منها؟) فالّذي أوجب الفاءَ في هذا المكان هذا المعنى.

أمّا في مَوضِع الأعراف ومَوضِع السّجدة فلا يَظهرُ تعلُّقُ ما بعد ﴿أَوَلَمۡ﴾ [الأعراف: 100 السّجدة: 26] بما قبله تعلُّقَ مَوضِع طه بما تقدَّمه؛ لأنّ في مَوضِع السّجدة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 319.

﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥﴾ [السّجدة: 23 - 25]، فلمّا انفصل جاء بالواو الّتي ليس من شرطها تركيبُ جملةٍ مع جملة تكونان كلامًا واحدًا، ولذلك يجوز أن يكونَ المؤخَّرُ بعدها في اللّفظ مُقدَّمًا في المعنى، فما دخلَته الواو لا يقتضي ما تقتضيه الفاءُ مِنَ الشّرط والجزاء، ومثله يُقالُ في مَوضِع الأعراف.

زيادة حرف (من) في موضعي الأعراف والسجدة:

وأمّا وجهُ التّشابه الثّاني بزيادة حرف (مِن) في مَوضِع الأعراف والسّجدة دون مَوضِع طه، فعندما وُصِلَ مَوضِعُ طه بالفاء الدّالّة على التّعقيب والاتّصال بالأوّلِ اتّصال الجواب بالمبتدأ، والجزاء بالشّرط، فنَتَجَ عن ذلك جملةٌ تمامُها بجملةٍ قبله، فطالَ الكلام وثَقُلَ فيختار لها التّخفيف، فحَسُنَ حذف (مِن).

وأمّا مَوضِعُ السّجدة لمّا انفصل عمّا قبله جاء بالواو، ولمّا جاء بالواو، ولم يكُنْ من شرطها تركيبُ جملة مع جملة تكونان كلامًا واحدًا فخَفَّ، وأُدخِلَت عليه (من)؛ ليُحَدَّ ابتداءُ الزّمان، فيكون أبلغَ في الاستيعاب، فمعنى (مِن) ابتداء الغاية الزّمانيّة، فقوله في مَوضِع طه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾، فكأنّه قال: في الزّمن المُتقدِّمِ على زمانهم، وقوله في مَوضِع السّجدة: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ [السّجدة: 26]، فكأنّه قال: مِن مبتدأ الزّمان الّذي قبل زمانهم، والزّمان من أوّله إلى آخره ظرفٌ للإهلاك، لا يختصُّ به بعضُه دون بعض(1).

دلالة التّعبير بـ ﴿كَمۡ﴾:

الكـثرة الّـتي تَفوق الحصرَ

﴿كَمۡ﴾ هي اسمٌ ناقِصٌ مُبهَمٌ(2)، يُستَعمَلُ للاستفهام، ويقتضي

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/ 897 - 898، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 176، والغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 141.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 261، والزّبيديّ، تاج العروس: (كمم).

معنى الكثرة، وقد يَدخُلُ (مِن) في الاسم الّذي يُميِّزُ بعده، نحو: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4][1]، ومعنى ﴿كَمۡ﴾ في قوله: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ هو الإخبارُ عنِ العدد الكبير مِنَ الأقوام الّتي أُهلِكَت بسبب فِسقها، وإنْ أفاد معنى السّؤال عنِ العدد والمِقدار، ولكنّها هنا في الآية خبريّةٌ؛ لأنّه سبقَها استفهامٌ إنكاريٌّ، فصارَت أقربَ إلى الخبريّة مِنها إلى الاستفهام[2]، ودلّ التَّعبير بها على معنًى آخرَ غير السّؤال، وهو هنا المبالغةُ في كثرة مَن أهلكَه اللّه تعالى مِنَ القرون الماضية[3]، فهي تُشير إلى الكثير الّذي يَفُوقُ الحصرَ[4].

وهي أيضًا دعوةٌ لِتَعداد الأقوام، وكلُّ قوم كيف هلكوا؟ ولماذا؟ وما حال مَساكِنِهم؟ وتَعداد ذلك يزيد في الاعتبار، ويرسِّخُ أنّ الكفرَ بالحقّ وبالُهُ شديدٌ.

نكتة التّعبير بـ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ دون غيرها:

جعل حدًّا لحياة مُكتمِلةٍ مرّةً واحدةً، بقصدٍ وحكمةٍ

عبَّرَتِ الآيةُ بلفظ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ دون غيره؛ لأنّ مادّةَ هلك تدُلُّ على الإفناء[5] والإعدام والإماتة[6]، وبذلك يكون الإهلاكُ أوسعَ الألفاظ دلالةً من نحو ﴿دَمَّرَ﴾ [محمّد: 10]؛ لأنّ التّدمير يُطلَقُ على إزالة أثر البناء وتخريبه تخريبًا شديدًا، ولا يَلزمُ مِنَ التّدمير إبادةُ الأنفس، ونكتة التّعبير بها هي تصوُّرُ حياةٍ كاملةٍ بالبلاد وأهلها تُعدَمُ وتزولُ، وتَحَوُّلِ التّمام إلى حصيدٍ، إنّه أمرٌ مَهُولٌ!

دلالة صيغة ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

لله الحكمة البالغة، لا رادَّ لأمره، ولا مُعقِّبَ لحكمه

جاء لفظ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ في صيغة فِعلٍ مُتعدٍّ، والتّعدّي هنا يُشير إلى

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كم).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 396.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9443.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هلك).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 82.

القصد؛ أي: إنّ ثمّة أجلًا مُعيَّنًا وموعدًا مُحدَّدًا، ويتمُّ هذا التّحديدُ بإرادةٍ وقَصدٍ، وهي إرادة اللّه ﷻ إهلاكَهُم، والإرادةُ تحمل حكمةً.

دلالة إسناد الإهلاك إلى ضمير العظمة:

بيان شدّة سطوة الله ونفاذ كلمته

نسبَ المولى ﷻ الإهلاكَ إلى نفسه في قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، بنون العظمة الّتي تشير إلى تمام مُلكه، ونفاذ كلمته، وشدّة سطوَته، وعِزّة نُصرته لرسله ضدّ مَن كذّبهم، وفيها تسليةٌ للرّسول الكريم، وتهديدٌ لشانئيه.

وهو المعنى نفسُهُ الّذي يفيدُهُ الالتفاتُ الواقعُ بانتقال أسلوب الكلام مِنَ الغَيبة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ على القول بأنّ الفاعل في ﴿يَهۡدِ﴾ هو الباري تعالى.

دلالة تقديم الظّرف ﴿قَبۡلَهُم﴾:

تحذير المشركين بهلاك السّابقين

قُدِّم ذِكرُ ﴿قَبۡلَهُم﴾ في الآية ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ على المفعول، وفائدةُ هذا التّقديم تحذيرُ المُشركين أن يكون مصيرُهم كمصير هؤلاء إنْ لم يَعتبروا بحال مَن سبق.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّنَ﴾:

تبيين متعلّق (كم)

دخل حرفُ ﴿مِّنَ﴾ على لَفظ القرون في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾، ومعناه: التّبعيض، وهي لِتمييز مُعلَّق ﴿كَمۡ﴾، فينتج عنه تبيين ما قصد بالعدّ هنا، وهو: القرون، لذلك فإنّها تُنبِئُ عن محذوفٍ تقديره: كم قرنًا مِنَ القرون[1]، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ في محلّ نصبٍ على أنّه وصفٌ لِمميَّز ﴿كَمۡ﴾.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾:

الدّلالة على الأقوام المعهودة عند مشركي العرب

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ (أل) في ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾؛ لأنّها تأتي لِمعانٍ عديدة، ومِن معانيها العَهْدُ، وهو المقصود هنا في ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾، إذ تشير إلى قوم معهودين عند الكفّار معروفين لديهم، فالكفّار

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 49.

يمشُون في مَساكِنِهم، ويَمُرُّون عليهم في رحلتي الشّتاء والصّيف مُصْبِحين وباللّيل، وهم عادٌ وثمودُ وقومُ لوطٍ وقومُ مَديَن[1]، وقد حسّن الخطابُ هنا أنّه مُخاطَبةٌ للكفّار بما يعرفون؛ ليكونَ أدَلَّ على المقصود وهو تحقُّقُ العِبرَة.

دلالة المَوقِع الإعرابيّ للجملة:

التّفسير لمَوضِع الاهتداء في الأقوام السّابقين

جاءت الجملة ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ مُفَسِّرَةً للمفعول به المحذوف في ﴿يَهۡدِ لَهُمۡ﴾[2]، كأنّ الآيةَ تُفصِّلُ ما ينبغي الاهتداءُ به في مآل السّابقين - أي الهلاك وكثرة الهالكين - ؛ ليزدادَ مَحلُّ الاعتبار جلاءً، وليتِمَّ الرَّبط بين الفعل والجزاء.

عود الضّمير في ﴿يَمۡشُونَ﴾:

الأقوام السّابقون يمشون في مَساكِنهم، وكفّار قريش يَمشون في مَساكِن الهالكين

الأصل في الضّمير لغةً أن يعود إلى أقرب مذكور، فيعود الواو في قوله تعالى: ﴿يَمۡشُونَ﴾ إلى القرون[3]، فيَحمِل حينها دلالةً خاصّةً؛ وهي أخذُ هؤلاء الأقوام السّابقين بغتةً، ومعناه: (إنّا أهلكناهم وهم في حال أمنٍ ومَشيٍ وتَقلُّبٍ في حاجتهم) كقوله: ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ [الأنعام: 44]، ويجوز أن يعود الضّميرُ في قوله: ﴿يَمۡشُونَ﴾ على مَن عاد عليه الضّميرُ في ﴿لَهُمۡ﴾، وهُمُ المشركون المعاصرون لرسول اللّه ﷺ؛ والمعنى: "تَمشُون في مَساكِنِ الأمم السّالفة، وتتصرَّفون في بلادهم، فينبغي أن تَعتَبِروا لئلّا يَحُلَّ بكم ما حلّ بهم"[4].

وتحتمل الآيةُ عَودَ الضّمير إلى الطّرفين معًا، ممّا يزيد الدّلالةَ ثراءً.

نكتة فصل قوله ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾:

تهديد الكفّار بنزول العذاب بهم، وتوبيخُهم على قلّة اعتبارهم

فُصِلت جُملة ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ باعتبارها جملة حال[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 335.
(2) العكبريّ، التّبيان: 2/ 907، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 396.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 120، والشّهاب، عنايه القاضي: 6/ 232.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 120.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 269.

تُبَيِّن حال القرون السّابقة حين نزول العذاب، كأنّه جوابٌ عَن سؤال مُقدَّر: كيف كان حالُهُم حين أصابهم الهلاكُ؟ فتُجيب جملة الحال: وهم مُتقلِّبون في أمورهم، أو هي حال مِنَ الضّمير العائد على كفّار قريش لتأكيد الإنكار عليهم؛ والمعنى: أفلَم يَهدِ لهم إهلاكُنا للقرون السّالفة من أصحاب الحِجر وثمودَ ومَدينَ قوم لوطٍ حال كونهم ماشين في مَساكِنِهم إذا سافروا إلى الشّام مُشاهِدين لآثار هلاكهم، مع أنّ ذلك ممّا يُوجِبُ أن يهتدوا إلى الحقِّ فيَعتبروا لئلّا يَحِلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بأولئك[1].

فالنّكتة في ذلك هي تهديدُ كفّار قريش أنْ يأتيهم عقابُهُم بَغتةً[2]، وتوبيخُهُم لعدم اعتبارهم مع أنّهم يسافرون بين مَصارِعِ الأقوام!

بلاغة الكناية في ﴿يَمۡشُونَ﴾:

اغـــترار الأمـم السّابقة وعدم اعـتـبـار الأمـم اللّاحقة

جاء ذكر المَشي في المَساكِن في الآية ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ دالًّا على الكناية عن معانٍ أخرى غير المَشي، وهذا باعتبار المقصود بالماشي: كفّار قريش أو القرون الهالكة.

فمَشيُ كفّار قريش في مَساكِن الهالكين كنايةٌ عن مُشاهَدة تلك البيوت خاويةً على عروشها[3]، فالمُشاهَدةُ لازِمةٌ للمشي[4]، وللمُشاهَدة في ذلك مِنَ الاعتبار ما ليس لغيرها[5].

وأمّا مشيُ الأقوام في مَساكنِهم فيأتيهم الهلاك، فهي كنايةٌ عنِ الاطمئنان والاشتغال بشؤونهم، وكنايةٌ عن شدّة الهلاك أيضًا، فلا إعدادَ له ولا ترقُّبَ، بل غفلةٌ وشُغلٌ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 49.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 232.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 232.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 451.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 112.

تجدُّدُ الاعتبار بتكرُّرِ المرور بتلك الدّيار

فائدة التّعبير بالمضارع في ﴿يَمۡشُونَ﴾:

ورد التّعبيرُ عنِ المَشي في المَساكِن بالفعل المضارع؛ لأنّه يدُلُّ على التّجدُّد؛ والمقصود هنا هو كثرة مَشي كفّار قريش في تلك البيوت، ولكلّ مرَّةٍ يَمرّون بها وجه اعتبار، وهو ما ذكره القرآن في مَوضعٍ آخرَ إذ يقول: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصّافّات:137 - 138][1].

فإنّ المَشيَ في تلك المَساكِن يَدفَعُ لاستحضار حال الأقوام السّابقين: يَمشونَ مُطمَئنّين في مَساكِنِهم، فيَنزِل العذابُ بهم بَغتةً! ويَتصوّرون الحدثَ كأنّه واقِعٌ مُشاهَدٌ - وهذه هي الدّلالةُ الثّانيةُ للفعل المضارع - وهو ما يُوقِظُ الغافلَ، ويجعلُهُ يَترقَّبُ أن يتكرَّرَ هذا الجزاءُ إذا تشابهَتِ الأعمال[2].

تصوير المَساكِن وهي تحتوي مَن يمشي فيها اطمئنانًا أو مرورًا

فائدة تعدية ﴿يَمۡشُونَ﴾ بـ ﴿فِي﴾:

تعدّى الفعلُ ﴿يَمۡشُونَ﴾ بحرف ﴿فِي﴾ إلى الاسم المجرور ﴿مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾؛ للدّلالة على الظّرفيّة، كأنّ تلك المَساكِن تحتويهم، وهم يَمشون داخلها ويتجوّلون في طرقاتها، ممّا يزيد في تصوير تلك الحال؛ بين حال مَن مشى في المَساكِن اطمئنانًا فيُؤتى في مَأمَنِه، وبين حال مَن يمشي في المَساكِن مرورًا فيهديه للاعتبار.

تقرير لزوم الاهتداء بحال الأقوام السّابقة

نكتة فصل قوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾:

فُصِلت جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ عن سابقتها في الآية الكريمة، وذلك لنكتٍ بَليغةٍ، أبرزها أنّ هذه الآيةَ جاءت تقريرًا للهداية، فقد ابتدأتِ الآيةُ بالاستفهام الإنكاريّ لِمَن لم يَهدِ له هذه الحال، رغم ما فيها من آياتٍ للاعتبار.

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 120.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9444.

ومِن نُكت الفصل أيضًا أنّ هذه الجملةَ تُعَلِّلُ الإنكارَ الوارِدَ في بدء الآية؛ فقد أنكر على كفّار قريش عدمَ الاهتداء؛ لأنّ المَشيَ في مَساكِن الهالكين كافٍ جدًّا للاعتبار(1).

ومن نكته التّعجيبُ مِن حالهم(2)، كيف لا يَقعُ منهم الاعتبار مع توفُّرِ أسبابه!

دلالة توالي المُؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾:

شـدّة الإنـكـار على كفّار قريش عدمَ اعتبارهم

توالَتِ المُؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾؛ وهي إنّ، والجملة الاسميّة، واللّام المُزحلِقة، وكثرة التّأكيد يدُلُّ على شدّة الإنكار على كفّار قريش عدمَ اعتبارهم(3)، ولم يكفِ التّأكيدُ بمُؤكِّد واحد، بل استُعمِلَت مؤكِّدات عديدة مُقابلة لِشدّة جحود قريش للحقّ وأهله، فجاء الإنكارُ عليهم بتأكيدٍ على تأكيدٍ.

دلالة الظّرفيّة ﴿فِي﴾:

جوانب الهلاك كلُّها تدعو للاعتبار

ذَكَرَتِ الآيةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ حرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾، وهو يدُلُّ على أنّ إهلاكَ الأقوام يَحمِلُ إشاراتِ البيان والهداية، كما يَحمِلُ الظّرفُ ما بداخله، ولذلك دلالة بليغة على أنّ كلَّ جانب مِن جوانب الحدث يدعو للاعتبار: ففَنَاءُ الحياة بعد اكتمالها، وتدميرُ مَساكِنِها بعد عمرانها، كلُّ ذلك يدعو للاعتبار.

وفي التّعبير بها توبيخٌ للكفّار على عدم أخذ العظة والعِبرة ممّا حلّ بالسّابقين للانتهاء عن أسباب الهلاك.

غرض تقديم شِبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

رؤيةُ الهلاك كافيةٌ للاعتبار

قُدِّمَ شبهُ الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم إنّ، وذلك للحصر الادّعائيّ؛ بمعنى أنّ المَشيَ في مَصارِع الكافرين وحدَهُ كافٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 49، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 464.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 335.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 335.

للاعتبار، فمَن أعملَ عقلَهُ رأى سنَنَ اللّه تمضي في الموجودات، ومَن لم يَعتَبِرْ بتلكم الحال فهذا دليل على فساد فطرته وبلادة عقله.

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

هـول الـهـلاك وشدّته

استعملَتِ الآيةُ الكريمةُ اسمَ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالّ على البعد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾؛ للدّلالة على الإهلاك العظيم المُتوالي في كلّ أمّة[1]، فلشدّة هذا الإهلاك وهولِه صار كالبعيد، فأُشيرَ إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ بدل اسم الإشارة القريب (هذا)، وبهذا الاستعمال زاد الإنكارُ على كفّار قريش عدم اهتدائهم، فمثل هذا الهلاك الشّديد حقيق بأن يُعتَبرَ به، فهو ليس مُجرَّدَ حدث مَرّ؛ حتّى يُعذَر هؤلاء القوم في عدم الوقوف عنده[2].

دلالة اللّام في ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

المبالغة في تأكيد دلالة الآيات على الاعتبار

تُعتَبرُ اللّام في ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ لام المُزحلِقة[3]، وهي لام توكيدٍ تتعلَّقُ بـ إنَّ، زيادة لتوكيدها، ممّا يثبّتُ المعنى ويقوّيه في ذهن السّامع، في مقابل الجحود الّذي عند الكفّار[4].

وفيها إشارةٌ إلى عظمة هذه الآيات في دلالتها على الاعتبار، وكأنّها تَنطِقُ "خذوا العِبرةَ منّي، واتّعظوا، فأنا شاهِدةٌ على سنّة اللّه في إهلاك المكذِّبين".

سرُّ التّعبير بـ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دون غيرها:

في ذلكم الإهلاكِ عِبرٌ وعلامات

آثر التّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ لدلالتها على معانٍ عديدة؛ فتأتي الآية بمعنى العلامة كما في قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشّعراء: 128]؛ يعني: علامة، وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 365.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 49.

(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 304.

(4) عيد، النّحو المصفّى، ص: 298.

[الأنعام: 158]، والمراد طلوع الشّمس من مَغربها، وهي من علامات يوم القيامة، وتأتي أيضًا بمعنى العِبرة، كما في قوله: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: 21]؛ يعني: (عِبرة)، وكِلا المعنيين مُتناسِبٌ مع مقصود الآيةِ ومرادها، ممّا يزيد الدّلالة القرآنيّة رونقًا وجمالاً.

نكتة تنكير ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

عظمة الآيات وهولها وتنوّعها لتقرير الاعتبار بها

جاء لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ مُنَكَّرًا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾، للتّعظيم(1)، فتلك الآيات عظيمة البيان، عظيمة الوقع، عظيمة الهول، ولتلك العظمة اكتُفيَ بالتنكير تقريرًا للاعتبار بحال الهالكين، وتعجيبًا من عدم اهتداء الكفّار.

وممّا يُذكَرُ في سرّ التنكير الدّلالةُ على تنوُّعها وتعدُّدها، فكلُّ قوم كان هلاكُهُم يَختلِفُ عن هلاك الآخرين، فآية الهلاك مع قوم نوحٍ تَختلِفُ عنها مع قوم عاد، كما تَختلِفُ عنها مع قوم لوط، وهكذا مع كلِّ الأقوام.

بلاغة الكناية عنِ العقلاء بـ ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾:

التّعريض بالكفّار في عدم توظيف عقولهم للاعتبار

وصف اللّه سبحانه المُعتَبِرينَ بالآيات في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ بأنّهم أولو النّهى، وهو تعبيرٌ عن أهل العقول الرّاجحة، والّتي تَنهى عن كلِّ قبيحٍ.

وفي هذا التّعبير كنايةٌ؛ حيثُ ذكرَ العقول النّاهية، وعرَّضَ بكفّار قريش أنّهم لا يَملِكون عقولًا تنهاهم عنِ التّغافُل والعمى والإعراض عنِ الحقِّ، كأنّهم لا عقولَ لهم، تمنعُهُم مِنَ الوقوع في المَهالِك(2).

نكتة إضافة ﴿لِّأُوْلِي﴾ إلى ﴿ٱلنُّهَىٰ﴾:

اختصاص أولي النّهى بأنّهم المُعتَبِرون بالآيات

أضافَتِ الآيةُ لفظَ ﴿لِّأُوْلِي﴾ إلى ﴿ٱلنُّهَىٰ﴾ في قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾؛ للدّلالة على الاختصاص، فنكتة الإضافة هي اختصاص مَن

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 365.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 335.

يَعتبِرُ بأحوال السّابقين بأنّهم أصحابُ النُّهى، وبالمقابل فإنّ مَن لم يَعتَبِرْ بالآيات فليس حقيقًا بهذه، وفي ذلك مِنَ المدح والذّمِّ ما فيه.

دلالة (أل) في ﴿ٱلنُّهَىٰ﴾:

أُولـو الـنّـهـى مـعـهـودون برجاحة العقل

جاءت لفظة ﴿ٱلنُّهَىٰ﴾ مُعرَّفةً بـ (أل)، وذلك للدّلالة على بلوغهم الغايةَ في النَّهيَة، كأنّهم صاروا معهودين بين النّاس برجاحة العقل الّذي يَنهى صاحبَه عنِ القبائح، وفيه دلالةٌ على إدراكه لقيمة الاعتبار؛ لأنّه من صفات هؤلاء الكمّل.

سرّ التّعبير بأولي النّهى دون أولي الألباب:

أُولـو الـنّـهـى أصحاب العقول الّـتـي تـنـهـى صـاحـبَـهـا عـنِ القبيح، وأولو الألباب أصحاب العقول الزّاكية

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ دون أولي الألباب مع أنّهما وصفان في مدح العقول الذّكيّة، إلّا أنّ القرآن آثر هنا التّعبيرَ بـ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ مراعاةً للسّياق الّذي وردَت فيه الآية؛ فهي جاءت في دعوة العقول لأخذ العِظة والعِبرَة من هلاك الأمم السّابقة، وعدم فعل مثل أفعالهم الّتي أدَّت بهم إلى هذا المصير، لذلك كان الوصفُ بـ﴿ٱلنُّهَىٰ﴾ هو المُناسِبَ؛ لأنّها تنهى صاحبَها عن كلِّ قبيحٍ، وتدعوه إلى فعل كلِّ حَسَنٍ، ولمّا كان الأمرُ مُتعلّقًا بالاتّعاظ بما حدث للأمم السّابقة، كان دور العقل هنا النّهيَ عنِ السّير في طريق الأمم السّابقة الّتي أصابها الهلاكُ، فوَصفُ أولي النّهى يُطلَقُ على أصحاب العقول حالَ كونها صالحةً لأنْ تَنهى صاحبَها عن فعل القبيح، وسُمّيَت بذلك؛ لأنّ من شأنها النّهي عمّا لا ينفع، فضلًا عمّا يَضُرُّ.

أمّا وصفُ أولي الألباب الّذي تعدَّدَ ورودُهُ في القرآن فيأتي مدحًا لأهل الصّفاء الرُّوحيّ ولأصحاب الحكمة والرّسوخ في العلم، وآياتُ القرآن الكريم ظاهِرةٌ في ذلك، حيث دلّت على هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: 7]، ومَدَحَ أهلَ الحكمة بقوله:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: 269] إلى غير ذلك مِنَ المَواضِع في القرآن الكريم.

سرُّ حذف حرف (مِن) هنا وإثباتها في آية السّجدة:

الإشعار بشيءٍ مِنَ التّخصيص في الوعيد، زيادةً في التّنكيل والتّهديد

إذا ورد في الآي ما قبله استيفاءُ تفصيلِ وعيدَين في أمّة بعينها أو أكثر، أو تكرَّرَ التّهديدُ وشدّةُ التّخويف مِن مُقتَضى السّياق وفحوى الكلام، فذلك مَوضِعُ زيادة حرف (من) والتّأكيد بإثباتها، وحيثُ لا يتقدَّمُ ذلك التّفصيلُ أو تكون آي التّهديد لا تبلُغ في اقتضاء مُقتضاها نفوذَ الوعيد، فهذا يناسبُه الإيجازُ بحذفها، إذ لا يُرادُ من تأكيد الوعيد ما يُرادُ في الآي الأخر، ولذلك جاءَت آيةُ السّجدةِ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ٢٦﴾ [السّجدة: 26] بزيادة ﴿مِن﴾ [السّجدة: 26] لأنّها تتميّز بالشّدّة والإشارة إلى إنفاذ الوعيد، فانظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ [السّجدة: 22]، وإلى ختام السّورة بقوله: ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾ [السّجدة: 30]؛ فقد وقعَتِ الآيةُ بين هذين الوعيدَين والتّهديدَين، وكذلك لمناسبة ما تقدَّمَ هذه الآية من حصر التّقسيم في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨﴾ [السّجدة: 18] ويؤيّدُه العمومُ المَفهومُ من قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ٢٦﴾ [السّجدة: 26]، فناسب ذكرَ ﴿مِن﴾ [السّجدة: 26] الّتي أفادت العمومَ والاستغراقَ.

بخلاف مَوضِعِ طه فلم يَرِدْ فيها مِنَ التّغليظ في الوعيد وتوالي التّهديد ما ورد في سورة السّجدة، وقد خُتمَتِ الآيةُ بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾، الّذي يُشعِرُ خصوصًا يناسبُه سقوطُ (مِن) الاستغراقيّة، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ ويَجِبُ.

لا يَنتفعُ بالآيات إلّا أهلُ التَّدبُّر والتَّفكُّر في العظات

دلالة تكرار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ في السورة:

تكرَّرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ في مَوضِعين من سورة طه في الآية [طه: 54] و[طه: 128]؛ لاشتمالهما على مَواطِن التَّدبُّر والاستدلال، وهما لا يتمّان إلّا بآلة العقل الّذي عبَّرَ عنه النّظمُ القرآنيُّ بلفظ ﴿النُّهَىٰ﴾، جمع نُهية، وهو اسم العقل، وقد يُستعمَلُ النُّهى مُفردًا بمعنى العقل، فأولو النُّهى هم أهلُ التَّفكُّر والاعتبار، وأهلُ التَّدبُّر والاتّعاظ.

فأمّا المَوضِعُ الأوّلُ فهو قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: 53 - 54]، حيث أُشيرَ فيه إلى المَخلوقات الدّالّة على وجود الصّانع ووحدانيّته، والمنّة بها على الإنسان لِمَن تأمَّلَ، فهذه الآياتُ الجمَّةُ لا يَتفطَنُ لها إلّا ذوو العقول بالتَّأمُّل والتَّفكُّر.

وأمّا المَوضِعُ الثّاني فهو قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، وفيه أيضًا دعوة مشركي مكّةَ للاتّعاظ بكثرة ما أهلَكَ اللّهُ سبحانه قبلهم مِنَ الأمم، والنّظر في آثار العقوبات الّتي أحلَّها بهم سوءُ مَغَبَّةِ ما هم عليه مقيمون مِنَ الكُفر بآيات اللّه، فهلّا اتَّعظوا بهم، واعتبروا وأنابوا وأذعنوا بالإيمان باللّه ورسوله خوفًا أن يصيبَهم بكفرهم باللّه مثلُ ما أصابَ مَن قبلهم، فعبارة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ واردة في مَوضِع التّعليل للإنكار والتّعجيب من حال غفلتِهم عن هلاك تلك القرون، وفيه أيضًا تعريضٌ بالّذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنّهم عديمو العقول، كقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: 44]،(1) كما أنّ في إيثار لفظ ﴿النُّهَىٰ﴾ دون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 86، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 335.

غيره من أسماء العقل مراعاةً للفاصلة القرآنيّة الّتي بُنِيَت عليها هذه السّورة الكريمة مِن أوّلها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القرون والأمم:

القرن القوم الّذي حُدِّد الزّمان بهم، والأمّة فئةٌ مِنَ البشر أو غيره يضمُّها جامِع

يجتمع معنى (القرن) ومعنى (الأمّة) في فئة يجمعُها زمنٌ مُعيّنٌ، وقد يُطلَقُ اللّفظان على الزّمن نفسه؛ بينما يَفترِقُ (القرن) عنِ (الأمّة) في أنّه زمنُ قومٍ مِنَ الأقوام[1]، يبدأ بهم، وينتهي معهم، كأنّه نُسِبَ إليهم، وكأنّهم همُ أولو الأمر والشّأن في زمانهم، حتّى إنّه لا يُعرَفُ في ذلك الزّمان قومٌ غيرهم.

فإنّ العرب تُحدِّدُ الزّمان بالأقوام، كما تحدِّدُهُ بالأحداث، (كعام الفيل مثلًا).

في حين أنّ الأمّة هي الفئة الّتي يجمَعُها زمنٌ معيّنٌ، وكأنّ المُلاحَظ فيها هو ما يَجمَعُ هؤلاء النّاس مِن رحم واحدةٍ أو دينٍ مُشترَكٍ أو مَوقِفٍ واحدٍ، ولذلك صحَّ أن يُطلَقَ على إبراهيم وحدَهُ أنّه أمّة[2].

إضافةً إلى أنّ الأمّةَ قد تُطلَقُ على غير البشر؛ كأمّة الطّير وأمّة الحيوانات، بينما لا يُطلَقُ القَرنُ إلّا على بني آدم.

فالأُمّة إذًا هي فئة يَضمُّها جامِعٌ، ثمَّ نُسِبَت إلى الزّمن، والقَرنُ هو زمنٌ نُسِبَ إلى قومٍ مُعيّنين، بحيث يُتقوَّمُ الزّمانُ بهم بدءًا ونهاية، فإذا ورد ذِكرُ القرون فقد قُصِدَ به الأقوام الّتي تحدَّدَ الزّمانُ بهم.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (قرن).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أمم).

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩﴾ [طه: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وجوب حلول العذاب لولا رحمة الله السابغة، وحكمته البالغة

لمّا هدّدَتهُمُ الآياتُ السّابقةُ بإهلاك الماضين مِنَ الأمم، ذُكِرَ في هذه الآية سببُ تأخير عذابهم وهلاكهم، فلو أرادَ اللّه لَعَجَّلَ لهم العذابَ، لولا كلمتُهُ العظيمةُ النّافِذةُ الّتي سبقَت في الأزل؛ بأنّه لا يَستأصِلُ الّذين كذّبوا رسولَ اللّه، بل يَمُدُّ لهم؛ ليُخرِجَ من أصلاب بعضِهم مَن يَعبدُ اللّه ﷻ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَلِمَةٞ﴾: اللَّفظة الواحِدَة، وعِند النُّحاة: اللَّفظَةُ الدّالَّة على معنًى مُفرَد بالوَضعِ سواءً أكانَت حرفًا واحِدًا أم أكثر، وتُطلَقُ الكلمةُ على الجُملة، أو العبارة التّامَّة المعنى، أو الكلام المُؤلَّف المُطوَّل، قصيدةً كانت أو خطبَةً أو مقالَةً أو رسالةً، وكلمةُ اللّه: حُكمُه أو إرادتُه، وإذا ما أُطلِقَتِ الكلمةُ مُفرَدةً فإنَّ المَقصِدَ مِنها أنّها تَحمِلُ رسالةً مُعيَّنةً: قرارًا أو مَوقِفًا[2].

2) ﴿سَبَقَتۡ﴾: مَعنى (السَّبْق) في اللّغة العربيّة هو التَّقدُّمُ[3]، سواء أكان التَّقدُّمُ في المكان فهو المُتقدِّم، أو في الزّمان فهو المُضيّ[4]، وقد يكون السَّبْقُ بالشّرف والسَّبْقُ بالنُّفوذ، والمعنى الأخير هو المقصود من المفردة في الآية؛ أي: تَقَدَّمَت ومَضَت ونَفَذَت[5].

3) ﴿لِزَامٗا﴾: (لزم) أصلٌ يدُلُّ على مُصاحَبة الشَّيء للشَّيء

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 56.
(2) الرّاغب، المفردات: (كلم)، ونخبة من اللّغويّين، المعجم الوسيط: (كلمة).
(3) الكفويّ، الكلّيّات: (سبق).
(4) مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (سبق).
(5) الرّاغب، المفردات: (سبق).

دائمًا[1]، فلا يَنفكُّ عنه[2]، فهو ثابتٌ لا مَفَرَّ منه، وضروريٌّ لا فِراقَ له[3].

والإلزام ضربان: إلزامٌ بالتّسخير مِنَ اللّه تعالى أو مِنَ الإنسان، وإلزامٌ بالحُكم والأمر، نحو قوله: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28]، وقوله: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الفتح: 26][4]، ومعنى اللازم في الآية: ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾؛ أي: لَلَزِم هؤلاءِ الكفّار الهلاكُ كما لَزِمَ مَن سَبَقَهُم[5]؛ لِتَرَتُّبِ الهلاكِ على الإفساد والكفر.

4) ﴿وَأَجَلٌ﴾: الأجَل هو المُدّة المُحَدَّدَة لِنهاية شيءٍ[6]، ويُقالُ لِلمُدّة المُحدَّدة لِحياة الإنسان: الأجَل، فيُقال: دنا أجَلُه؛ أي: مَوتُه، وأصلُه: استيفاءُ الأجَل؛ أي: مُدّته[7]، والآجِلُ هو المُتأخِّرُ إلى حَدٍّ مُعَيَّنٍ، ضدُّ العاجِل[8]، والأجَل في الآية: مَوعِدٌ مُحَدَّدٌ لِهلاك الأقوام.

المَعنى الإجماليُّ:

يُتوقّعُ من أمثال هؤلاء المشركين المُكذّبين للنّبيّ ﷺ هلاكٌ تامٌّ، وإفناءٌ شاملٌ، لولا أنّ رحمة اللّه سبقَت غضبَه

تُبيِّن هذه الآيةُ أنّ العاقِلَ صاحبُ العقل السّليم يَتوقَّعُ أنْ يَحدُثَ لَكلِّ مُكَذِّبٍ بالرّسُل ما حدث لهؤلاء الأقوام المُكذِّبين، لولا أنّ اللّه حَكَمَ ألّا يُهلِكَ آخِرَ الأُمَم بَغتةً؛ إكرامًا لنبيّه الكريم، لحِكَمٍ عظيمةٍ، منها أنّه يُخرِجُ من أصلاب الكفّار مَن يَعبدُ اللّه تعالى، وقد حدث ذلك، فخَرَجَ من أصلابهم خالدُ بن الوليد، وعِكرِمةُ بن أبي جهل، وقد جاهدا في سبيل اللّه، وحاربا المُرتَدّين، ومنها عدم تبديل كلماته سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لِزم).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (لزم).
(3) النّزهيّ، الفروق اللّغويّة في الألفاظ القرآنيّة، ص: 108، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لزم).
(4) الرّاغب، المفردات: (لزم).
(5) الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/ 370.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (أجَل).
(7) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أجَل).

﴿مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: 33]، وأنّ لكلٍّ أجلَه المُعيَّنَ لا يَحيدُ عنه! وإلّا فالهلاكُ حَقيقٌ بهؤلاء كما لَزِمَ مَن سَبَقَهُم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾:

بيان سبب تأخير العذاب عن الكافرين

تدُلُّ الواو على الاستئناف ببيان حِكمة عدم وقوع الهلاك[1]؛ دفعًا لغرورهم واستعجالهم لذلك الهلاك، فهي "في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ [سبأ: 29 - 30]"[2].

ويجوز أن تكون عاطفةً لجملة ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾ على جملة ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ باعتبار ما فيها مِنَ التّحذير والتّهديد والعِبرة بالقرون الماضية، وبأنّهم جديرون أن يَحِلَّ بهم مِثلُ ما حلَّ بأولئك[3].

معنى ﴿وَلَوۡلَا﴾:

امتناع هلاك الكفّار لسبق كلمة الله

استعملَتِ الآيةُ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ حرفَ (لولا)، وهو حرف امتناع لوجود، والمُمتَنِعُ هنا أن يكون العذابُ مُلازِمًا للجريمة؛ أي: مُقترِنًا بها في الوقوع، كما كان بالنّسبة إلى الأمم السّابقة، بسبب الكفر والعمى عنِ الحقِّ، والموجود هنا هو كلمة اللّه الماضية[4].

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

إظهار التّلازم بين المَوجود والمُمتَنِع

وفي التّعبير بالجملة الشّرطيّة ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا﴾ وجوه مِنَ البلاغة؛ إذ أظهرَت مدى اللّزوم بين الموجودِ والمُمتَنِعِ، فالهلاكُ لازمٌ وواقعٌ لا مَحالةَ، وهو نازلٌ بالكفّار لا مردَّ له من قِبَلهم أو من قِبَل أحدٍ آخرَ، إلّا أنّ اللّهَ منع ذلك بـ ﴿كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾ و﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 49.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 335.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 335.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4808.

كما تُظهِرُ جملةُ الشّرط قوّةَ المانع وغلبتَه على وجود الهلاك، فلن يقعَ الهلاكُ مهما كان، سواء طالبَ الكفّار بتعجيله أم دعا المُرسَلون بتحقُّقه دون أن يريدَ اللّهُ ذلك.

دلالة التّعبير بـ﴿كَلِمَةٌ﴾:

وَعدٌ مِنَ العزيز الرّحيم تَنطِقُ به كلمتُهُ

في التّعبير بقوله تعالى: ﴿كَلِمَةٌ﴾ بيانُ عظم المَقام، وصدق المَقال، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [التّوبة: 40]، إذ هو قضاء اللّه، وأمره، وحكمه الّذي تكلَّمَ به، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقِّبَ لحكمه، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النّساء: 122]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النّساء: 87]، وفيه دلالة على علم اللّه بما سيكون، كأنّه حُكمٌ خاصٌّ وقرارٌ بإيقاف مَفعول سُنَّةٍ ماضيةٍ مع الأقوام السّابقين[1]، ووَعدٌ من ربّ العالَمين جاء في صيغة كَلِمَةٍ مُعبِّرَةٍ[2] عمّا تمَّ به قضاء اللّه وقدره.

نكتة تنكير ﴿كَلِمَةٌ﴾:

عَظمةُ الكلمة في مصدرها، وفي نفاذها ومُضيّها

جاءَ التّعبيرُ عنِ امتناع الهلاك بغتةً بـ﴿كَلِمَةٌ﴾ مُنَكّرَة، والتّنكيرُ للتّعظيم، ونكتة هذا التّعظيم تهويل هذه الكلمة الّتي تُوقِفُ سُنّةً ماضيةً، فهي كلمة عظيمة ماضية نافِذة، حَسُنَ تنكيرُها لعظمتها[3].

نكتة التّعبير بـ﴿سَبَقَتۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

إنّ رحمتي سبقت غضبي

عبّرَتِ الآيةُ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بلفظ ﴿سَبَقَتۡ﴾، وفي التّعبير به نكت عديدة، فمِن حيث مادّةُ ﴿سَبَقَتۡ﴾ فإنّها تدُلُّ على أنّ الكلمة سابَقَتِ الهلاكَ فسَبَقَتْه، وهو معنىً بديعٌ تُشِعُّهُ ﴿سَبَقَتۡ﴾ في هذا السّياق.

ومِن حيث صيغةُ ﴿سَبَقَتۡ﴾ فإنّها جاءت بصيغة فعل ماضٍ؛ دلالةً على ما تمّ به قضاء اللّه وتقديره في تأخير العذاب إلى يوم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 336.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 96.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 365.

الحساب والبعث؛ فإذا كانت سنّةُ الإهلاك ثابتةً، فكأنّ التّعبيرَ بقوله: ﴿سَبَقَتۡ﴾ يُصوِّرُ حالةَ الفضل الّتي تفضَّلَ اللّٰه بها على هذه الأمّة بعد أنْ ثَبُتَ الهلاك أزلًا، إذ سبقَتِ الكلمةُ الّتي تحمِلُ تأخيرَ العقاب، ففيه من بلاغة التّصوير ما فيه.

نكتة تقديم الفعل ﴿سَبَقَتۡ﴾:

تصوير السّبق بكلّ صوره

تقدَّمَ الفعلُ ﴿سَبَقَتۡ﴾ في الآية ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا﴾ على الجارِّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، مع أنّهما مُتعلِّقان بـ ﴿كَلِمَةٞ﴾، ونكتة ذلك هو تصوير السّبق بكلِّ صوره، فكان السّبقُ بالزّمان، وكان السّبق في منافسة الهلاك، وكان السّبقُ في ذكرها قبل ذكر صاحبها.

وعلى رأي مَن عَلَّقَ الجارَّ والمجرور بـ﴿سَبَقَتۡ﴾، فلا تقديمَ حينئذٍ.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

قَصْرُ الفضل وحصره على الرّبِّ ﷻ

تعلَّقَ الجارُّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بـ﴿سَبَقَتۡ﴾ أو بـ﴿كَلِمَةٞ﴾ في الآية الكريمة، مع دلالة ﴿مِن﴾ على الابتداء؛ لبيان مصدر السّبق أو مصدر الكلمة، وهو الرّبّ جلّ في علاه.

ففي هذا الأسلوب دلالةٌ على تأكيد حصر مصدر الكلمة السّابقة في جهة مَن له الخَلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]، مِمّا جعل للكلمة عظمةً ولِوَقعها أثرًا.

فائدة التّعبير بلفظ الرّبوبيّة وإضافته إلى ضميره:

العناية الرّبّانيّة منعَتِ الهلاكَ تشريفًا لنبوّته ﷺ

عبّرَتِ الآيةُ الكريمةُ عنِ الكلمة الماضية بأنّها ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بلفظ الرّبوبيّة الّذي يدُلُّ على الرّعاية والعناية؛ فالّذي يرعاك هو مَن أبعَدَ الهلاك بغتةً عن أمّتك، والّذي يتولّاك هو الّذي وفَّقَ أتباعَك فقاموا بنشر الحقِّ، حتّى بَطَلَتْ أسباب الهلاك العامّة[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 365.

وإضافة الرّبِّ إلى ضمير المصطفى ﷺ يشير بأنّ امتناع هلاك أمّة محمّد ﷺ، إنّما هو تشريفٌ له ﷺ[1]؛ كما يُنبِئ عنه قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: 33] الآية.

دلالة حذف اسم (كان):

هول تصوُّر عذاب الله اللّازم لِمَن عاند وكفر

جاءَ التّعبيرُ بجملة ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ مع حذف اسم كان، وتقديره: لَكانَ مثلَ ما نزل بعادٍ وثمودَ والأممِ الكافرةِ قبل ذلك لازمًا لهؤلاء الكفرة، وهذا التّقديرُ أولى من تقدير الهلاك؛ لأنّ المُتبادَرَ من سياق الآيات إهلاكُ الأمم الماضية فيحتاج إلى تقدير المثل، والغرض مِن حذفه هنا هو أن يصدُقَ اسم (كان) على كلِّ ما هو لازمٌ لهلاك كفّار قريش، كما لَزِمَ الأقوامَ السّابقةَ، فتذهب النّفسُ في تقديره كلَّ مَذهَبٍ.

نكتة التّعبير بـ ﴿لِزَامًا﴾ مادّةً وصيغةً:

التّرهيب مِن حلول الهلاك، والتّرغيب في الاتّباع

آثر القرآنُ الكريمُ اختيارَ كلمة ﴿لِزَامًا﴾؛ لأنّها تحملُ معنى المُلازَمة، فلا تَنفَكُّ ولا تَتخلَفُ[2]، وهو ما يُشعِر بأنّ الهلاك آتٍ لا مَحالةَ؛ فليخشَ الكفّارُ ذلك، ولكنّ الكلمة الرّبّانيّة السابقة أقوى نفوذًا، فأبطلَتِ المُلازَمةَ؛ ممّا يدعو إلى الشّعور بالرّحمة، وأنّ المَقصِدَ مِنَ التّرهيب هو اللّجوءُ للإيمان، وأنّ الله لا يَقصِدُ إلى إهلاك الأمم بل صلاحها.

وأمّا عن هيئة الكلمة فقد جاءت كلمة ﴿لِزَامًا﴾ بصيغة فِعالٍ بمعنى مُفعِلٍ؛ أي: مُلزِمٌ؛ كأنّه اسمُ آلة سُمّي به اللّازم لِفَرطِ لُزومِه، كقولهم: لِزازُ خَصم، ويجوز أن يكون مصدرًا من (لازَمَ) وُصِفَ به؛ ليدُلَّ هنا على المبالغة؛ فهي مُلازَمَةٌ أيَّ مُلازَمَةٍ، كأنّ الهلاك لِفَرْط لزومه صار آلةً للّزوم[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 49.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4809.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 96، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 452، وأبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 164.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿وَأَجَلٌ﴾ دون غيره:

هلاك الكفّار آتٍ حين أجلِه، عاجلًا أو آجلًا

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالأجل في قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ لدلالته على أكثر من معنًى؛ فإمّا أن يكون المرادُ أجلَ حياتهم أو أجلَ إهلاكهم في الدّنيا أو عذابهم يوم القيامة، فعلى الأوّل يكونُ العذابُ ما يَلقى في قبرِه وما بَعدَهُ، وعلى الثّاني: قَتلُهم بالسَّيف يومَ بدرٍ، وعلى الثّالث هو عذابُ جهنَّمَ[1].

دلالة الواو في قوله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾:

إنْ تأخَّرَ الإهلاك فلا يعجِّلُه شيءٌ قبل أنْ يَحِلَّ مَوعِدُهُ

عطفَتِ الواو قوله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على ﴿كَلِمَةٌ﴾ في قوله ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، فصار المعنى: ولولا كلمةٌ سبقَت مِن ربّك وأجل مُسمًّى لكان لزامًا؛ أي: إنّ الأجلَ المُسمَّى وقَعَ في حيِّز الوجود الّذي منعَ الهلاكَ اللّازِمَ، فالأجلُ المُسمّى شرطٌ آخرُ لِمنع الهلاك.

ويجوز أن يعطفَ قولَه: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على الضّمير المُستَكِنِّ في ﴿لَكَانَ﴾؛ أي: لكان الأخذُ العاجلُ وأجلٌ مُسمًّى لازمَين له، كما كانا لازمَين لعادٍ وثمودَ، ولم ينفرِدِ الأجلُ المُسمَّى دون الأخذ العاجل[2].

نكتة التّنكير في قوله: ﴿لِزَامًا﴾ و﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾:

التّعظيم والتّهويل لكسر غرور الكفّار

جاءت كلمة ﴿لِزَامًا﴾ و﴿وَأَجَلٌ﴾ في الآية: ﴿لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ منكَّرَتين دلالةً على التّعظيم، ولتهويل اللُّزوم والأجل، فهو هلاكٌ لِزامٌ أيَّ لزوم؛ إنّه لُزومٌ شديدٌ ضروريٌّ لا ينفَكُّ، وله أجَلٌ أيَّ أجَلٍ؛ إنّ أجَلَه إذا جاء لا يُؤَخَّرُ مهما كان.

فكان التّنكيرُ ليتّسعَ التّفكيرُ في تصوّر ذلك اللّزوم وأجل الحلول، فيبطل بذلك غرور الكفّار، وليرعووا عن صَدِّهم وتعدّيهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 164.
(2) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 10/ 270.

دلالة التّعبير بـ ﴿مُّسَمًّى﴾ مادّةً وصيغةً:

الأجل أمرٌ مُحَدَّدٌ أزلًا فلا يتقدّمُ ولا يتأخّرُ

وَصفَتِ الآيةُ الكريمةُ الأجلَ بأنّه ﴿مُّسَمًّى﴾، وتحمِلُ هذه الكلمةُ دلالاتٍ باعتبار مادّتها وباعتبار صيغتها، فأمّا عن دلالة مادّة ﴿مُّسَمًّى﴾ فإنّ التّسمية تدُلُّ على التّحديد والتّمييز، فهو مَوعِدٌ مُحدَّدٌ مُتميِّزٌ من غيره، وتحديده يعني عدمَ تأخيره أو تقديمه(1).

وممّا يُذكَرُ في سرِّ التّعبير بقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾ الدّلالةُ على تسمية الله تعالى لأعمارهم أو لعذابهم في أمّ الكتاب؛ فقد جعل ذلك وقتًا مُسمًّى عنده في أمِّ الكتاب وخطَّه فيه؛ فهم بالِغوه ومُستوفوه(2).

وأمّا عن صيغة ﴿مُّسَمًّى﴾ فقد جاء اسمًا بدل الفعل للدّلالة على الثّبوت، فلم يحدّدِ الأجلَ بعد أن حَلّ الهلاك، ولكنّه مُحَدَّدٌ ثابتٌ أزلًا، وهو ما يدُلُّ على السّبق أيضًا.

نكتة التّقديم والتّأخير في ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾:

تعجيلٌ بذكر جواب الشّرط ورعيٌ لفواصل الآي

جاءَت عبارةُ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ متأخِّرةً عن عبارة ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾، والأصل تقدُّمُها؛ أي: ولولا كلمةٌ سبقَت مِن ربّك وأجلٌ مُسمًّى لكان لِزامًا(3)، ونكتة التّقديم والتّأخير هنا هي التّعجيل بذكر الجواب - وهو لزوم الهلاك - ، حتّى يكُفَّ المغرور عن غروره، ثمَّ ثنّى بعدها بالأجل المسمّى رعيًا لفواصل الآي(4).

ومن أسباب تقديم الجواب أيضًا: الاهتمام به والإلفات إليه(5).

دلالة الفصل بين أسلوب الشّرط:

الإهمال مُستفادٌ من كلِّ شرطٍ على حدة

فُصِلَ بين جملة الشّرط ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وبين قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ بجواب الشّرط ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾، ولهذا الفصل بلاغته.

(1) الجرجانيّ، درج الدّرر: 2/ 298.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 232.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 195.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 397.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 8/ 839.

فَمِن ذلك استقلال الشّرط الأوّل وهو ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ عنِ الشّرط الثّاني ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، وأنّ كلًّ واحد منهما كافٍ وحدَه لِلزوم العذاب[1]، فالعذابُ لازمٌ لولا كلمةٌ سبقَت مِن ربّك، كما أنّ العذابَ لازمٌ لولا أنّه أُخِّرَ إلى أجلٍ مُسمًّى، وإذا كان كلٌّ مِنَ الشّرطين كافيًا وحدَه ليحصُل الإمهالُ، فكيف إذا اجتمعا[2].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 42.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 366.

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه: 130]

إذا علمت أنّهم مُعَذَّبون لا مَحالة، فاصبر على ما يقولون، واشكر الله على نِعَمه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذَكَرَ اللّهُ ﷻ عذابَ مَن أسرفَ ولم يؤمن بالحقّ، وأنكرَ على الكفّار عدمَ الاعتبار بحال الأمم السّابقة، وما أصابهم مِنَ العذاب اللّازم لكلِّ مَن كفر، مع أنّهم يَمشون في مَساكِنِهم، بل اغترُّوا فسألوا الرّسولَ تعجيزًا أنْ يُعجِّلَ لهم بالعذاب، فأعلمَهُم أنّه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ[1]، فقد سبقَت كلمةٌ مِن ربّك، وتأخَّرَ الهلاك إلى أجلٍ مُسمًّى، أمرَهُ بأن يَصبِرَ على ما يقولون، وألّا يَحفِلَ بذلك[2]، وأن يَطمئنّ لذكر ربّه[3]، فإنّ علمَه ﷺ بأنّهم معَذَّبون لا مَحالةَ ممّا يُسلّيه ويَحمِلُه على الصّبر.

كما أنّ في الآية أمرًا بشُكر النِّعم بعد ذكرِها وبيانِها، فإنّه لمّا أخبر اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ في الآية السّابقة أنّه لن يُهلِكَ أحدًا من كفّار هذه الأمّة قبل استيفاء أجله تَفضُّلًا على هذه الأمّة وتكريمًا لنبيّها ﷺ، جاء الأمر في هذه الآية بالصّبر على ما يقولون في إيذائه وإيذاء أصحابه، وحثّه على بلاغ الدّعوة إليهم، وألّا يكونَ ما يَصدُرُ منهم مِنَ الإيذاء صارفًا له عن بلاغ الدّعوة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾: أُخِذ معنى ﴿طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ مِن طلع؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 50.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 69.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 337.

أي: بَدا مِن علٍ[1]، وظَهَرَ وبَرَزَ[2]، فطلوع الشّمس هو بروزها وظهورها، والمقصود بذلك وقت الشّروق، فإذا أشرقَتِ الشّمسُ فقد طلعَت على الوجود، والمعنى المقصود مِن قوله سبحانه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾؛ أي: قبلَ شروقها؛ أي: من طلوع الفجر إلى الشّروق.

2) ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾: أصلُ كلمة ﴿ءَانَآيِٕ﴾ مِن أنَى الشّيء يَأني إنىً؛ أي: حان وأدرك[3]، وأُطلِقَ الإنى على الزّمن، كالسّاعة والحين؛ فالسّاعة إنْي[4]، وجمعها آناء[5]، ومنه جاء معنى الأناة؛ أي: الحِلم، وهو التّريّثُ لأخذ زمنٍ للتّأمُّل والتّدبُّر قبل اتّخاذ المَوقِف[6]، وآن الشّيء حان وقَرب[7]، والمقصود بآناء اللّيل في الآية ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾؛ أي: لحظات اللّيل وساعاته، فاتّخِذْها زمنًا للتّسبيح والحمد.

3) ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾: الأطراف جمع طرَف، وهو جانب الشّيء[8] ومنتهاه[9] وحَدّه وحَرْفه[10]، وأطراف الشّيء نواحيه[11] ونهاياته وأجزاؤه، والنّهار هو جزء اليوم، ويكمِّلُه اللّيلُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن أراد أن يبلِّغَ دينَ الله فليتسلَّحْ بسلاح الصّبر، وليُكثِرْ مِن عبادة مولاه

أمر اللّه رسوله الكريم في هذه الآية بالصّبر على إيذاء الكفّار له كقولهم: ساحر، وشاعر، ومجنون، وألّا يعبأ بمَقالَتِهم، وعليه

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طلع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (أنى).
(4) أبو عبيد، مجاز القرآن: 2/ 33.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (أنى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنى).
(7) الرّاغب، المفردات: (أنى).
(8) الرّاغب، المفردات: (طرف).
(9) مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (طرف).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طرف).

أن يَستحضِرَ كمالَ اللّه سبحانه حامدًا شاكرًا، مُقيمًا للصّلوات المفروضة بين آناءِ اللّيل وأطرافِ النهار.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء:

إمهال الكفّار يُلازمُه الصّبر

بدأتِ الآيةُ الكريمةُ ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ بالفاء، وهي فاء الفصيحة[1]؛ لأنّها أفصحَت عن جواب شرطٍ مُقدَّرٍ، تقديره: إذا عرفتَ أنّ إمهالَ الكفّار وتأخيرَ هلاكهم إلى أجلٍ مُسمًّى - مع لزومه- ، بكلمةٍ سبقَت من ربِّك، فإنْ كان الأمرُ كذلك ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾[2] على ما يقولون.

ويجوز أن تكون الفاءُ للسّببيّة؛ لأنّ عدمَ عذابهم عاجلًا سببٌ للأمر بالصّبر أو سببٌ لنفس الصّبر؛ أي: عدم القلق لِما وقَعَ مِن كفّار مكّةَ مِنَ الأذى لرسول اللّه ﷺ وصحابته الكرام[3].

دلالة الأمر بالصّبر:

الصّبرُ علاجٌ ربّانيٌّ لرسول اللّه ﷺ في تحمُّل أذى المشركين

جاء الأمرُ بالصّبر خطابًا لرسول اللّه ﷺ في قوله ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وللأمر بالصّبر دلالاتٌ؛ جُماعُها هو عدمُ القلق والحزن لِما صدر عنهم، سواء أكان طلبًا بتعجيل العذاب فيضيق الصّدرُ لعدم إجابة سؤالهم؛ فاصبِرْ ولا تكلِّفْ نفسَك فوق طاقتها[4]، أم كانت تلك الأقاويل الشّائنة الّتي صدرَت منهم سخرية بالرّسول ﷺ وبرسالته وبالّذين آمنوا به واتّبعوه، وكلُّ ذلك ممّا يَزيدُ الغمَّ لعدم إيمانهم؛ فاصبِرْ فلا تغتمَّ، أو إنّ ذلك ممّا يَبعَثُ على اليأس منهم؛ فاصبِرْ ولا تصرفْك أقاويلُهُم عن مُهمّتك[5].

(1) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 168.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 366.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 453.
(4) علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/ 525.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 113.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾:

العموم والشّمول لكلّ ما قاله الكفّار

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ باسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وهو مِن ألفاظ العموم، ليَعُمَّ كلَّ مَقولَةٍ قالَها الكفّار[1]، سواء أكانت تعجيزًا للرّسول أن يُعجِّلَهم بما يَعِدُهم مِنَ العذاب، أم قدحًا في شخصه بأنّه ساحر أو كاهن أو مجنون، أو كلمة الكفر بدل الإيمان، وغيرها مِنَ الأقاويل السّيّئة.

ولا يتأتّى هذا العموم إلّا من حرف ﴿مَا﴾ فتشمل كلَّ ما قيل، وإبهام ﴿مَا﴾ يحمِلُ على السّكوت عن تكرار ذكرها ليَتَّجِهَ الخطابُ إلى المَوقِف الأنسب منها؛ وهو الصّبر والأنس بالله ﷻ.

هذا تسلية لرسول الله ﷺ لِتحمُّلِ أداء الرّسالة وبلاغها إلى المُعانِدين.

دلالة التّعبير بالقول:

أصل الأذى ومبدؤه بالقول

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالصّبر على أقوال المشركين الّذين يُؤذون رسول الله ﷺ بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ مع أنّ أذاهم لم يَقِفْ عند حيّز القول، بل تعدّاه إلى الفعل الجسديّ والنّفسيّ، ووقائع السّيرة تَنطِقُ بذلك من نحو وضع سلا الجَزور على ظهره ﷺ، لكن لمّا كان كلُّ ذلك يأتي بعد القول، خصّه القرآن بالذّكر.

نكتة التّعبير بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

تجدُّدُ أقاويل الكفّار واختلاف صورها

عبّرَتِ الآيةُ الكريمةُ عمّا صدر مِن أقوالٍ عنِ الكفّار بصيغة الفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾؛ وذلك لدلالته على التَّجدُّد والاستمرار، فكأنّ الآيةَ تَنُوح عليهم كثرةَ أقاويلهم، ففي كلّ مرّةٍ يفْتَرون قولًا مُختلِفًا عمّا سبق بل يناقضه، وهو ما يُظْهِرُ إسرافهم واستمرار صدِّهم عنِ الحقِّ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 366.

عود الضّمائر في قوله ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

بلاغة القرآن في تعيين المراد

وفي الآية الكريمة ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ضميران، ولكلٍّ منهما مَرجِعٌ، فالمُخاطَبُ بالأمر ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ هو سيّدُنا محمّد ﷺ، وهو المخاطَب الأوّل بالقرآن الكريم، بينما عاد ضمير الجمع في ﴿يَقُولُونَ﴾ إلى كفّار قريش[1].

والضّميرُ يحمِلُ معه الإحالةَ إلى دلالاتٍ مُتعلِّقةٍ بصاحبه، فضمير (أنت) الّذي يعود إلى الرّسول ﷺ، يَربِطُ الأمرَ بالصّبر من ربّه الّذي سبقَت كلمتُهُ بإمهال الكفّار تشريفًا للمصطفى ﷺ، وأصحاب ضمير الجمع ﴿يَقُولُونَ﴾؛ وهم كفّارُ مكّة، يُرَدِّدون الأقاويلَ السّيِّئَة في الحقِّ ﷻ وفي رسوله ﷺ؛ فاستحضارُ كلِّ تلك المعاني من خلال الضّمائر، هو الّذي يبرِّرُ الأمرَ بالصّبر.

دلالة تعدي فعل الصّبر بـ﴿عَلَىٰ﴾:

علوّ صبر الأنبياء على كلّ إيذاء

تعدّى الفعلُ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للدّلالة على تمكُّنِ الصّبر في شخصه ﷺ مع كثرة أقوالهم المذمومة وعباراتهم المسمومة الّتي تؤذي رسولَ الله ﷺ في خَلْقه وأخلاقه، حيثُ استهزؤوا وسخروا، ومع ذلك كان الصَّبرُ من رسول الله ﷺ علامةً بارزةً في دعوته لهم.

فائدة عطف التّسبيح على الأمر بالصّبر:

التّسبيح علاج لضيق الصّدور

عُطِفَ التّسبيحُ على الأمر بالصّبر في الآية: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ لوجود اشتراكٍ بينهما في العلاج؛ فالصّبرُ علاجٌ في تحمُّلِ كَذبِ المُكذِّبين وعناد المشركين.

والتّسبيحُ علاجٌ روحانيٌّ في تقوية القلب؛ لأنّه إذا قَويَ القلبُ قَويَ البَدنُ؛ فالجامِعُ بينهما تقويةُ البَدن والقلب.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 398.

وعلى هذا تَظهَرُ فائدةُ هذا العطف في الجمع بينهما؛ فذِكرُ اللّه يُشعِرُ بالاطمئنان، وهو أكبرُ داعٍ للصّبر[1]، ولأنّ الصّبرَ تحمُّلٌ سلبيٌّ، فيأتي التّسبيحُ ليسَلّي ويُنسي تلك الأقاويل، وذلكم الصُّدود[2]، وهذا المعنى ظاهرٌ في حديث النّبيّ ﷺ، وهو يقول لفاطمة ابنته، وقد شكَت له ما تجد من مَشقَّة الرّحى عند طحنها لطعامها وطعام بنيها: "إذا آويتِ إلى فراشك فقولي سبحان اللّه والحمد للّه واللّه أكبر ثلاثًا وثلاثين"، فقالت فاطمة: (فلم أجد بعد ذلك ما كنتُ أجدُ من مَشقّةٍ أو أذًى)[3].

دلالة الأمر في قوله ﴿وَسَبِّحۡ﴾:

الاشتغال بالتّسبيح يُؤنِسُ رسولَ الله عن أذى الكفّار

جاء الأمر لرسول اللّه ﷺ بالتّسبيح والتّحميد في قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ وذلك للاشتغال بما يُؤنسُهُ ويسلّيه عن كلام أهل الكفر، ويُنسيه صدَّهم عنِ الحقِّ؛ والمعنى: فاشتَغِلْ بما يُؤنِسُك ويُبعِدُ عنك الحزن وضيق الصّدر[4].

وعلى هذا يكون الأمرُ واردًا لمعالجة حالة الضّيق عند رسول اللّه ﷺ، يُؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: 97 - 98] الآية.

سرُّ التّعبير بالتّسبيح دون غيره:

تنزيه الله عنِ النّقائص والعيوب

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالتّسبيح دون غيره في قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنّه يَحمِلُ معنى التّنزيه عنِ الشّرك وسائر ما يَنسبون إليه سبحانه مِنَ النّقائص؛ ولأنّه يُطلَقُ على الصّلاة؛ لأنّها تَشتمِلُ على التّسبيح، ويجوز أن يكون المرادُ التّسبيحَ على الحقيقة بقول: سبحان اللّه والحمد للّه، لهذه المعاني آثر القرآنُ الكريمُ التّسبيحَ دون غيره.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 113.

(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 671.

(3) أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (3113)، ومسلم، الحديث رقم: (2727).

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 367.

الأمر بمُطلَق التّسبيح لله ﷻ

نكتة حذف مُتعلّق التّسبيح في المَوضِعَين:

حُذِفَ مُتعلِّقُ التّسبيح في قوله ﷻ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾، والغرضُ من ذلك قَصدُ فِعل التّسبيح نَفسه؛ أي: فقُم بفعل التّسبيح ذاته، وهو تنزيه اللّه وملاحظة كماله ﷻ في كلِّ شيءٍ[1]، فالاشتغال بذكر اللّه في حدّ ذاته هو المطلوب، وفيه الشّفاء.

وفي هذا دلالة على أنّ التّسبيحَ - مع أنّه علاجٌ روحانيٌّ وبدنيٌّ - إلّا أنّه مطلوبٌ لذاته.

الصّلاة هي أكملُ صور التّسبيح لله وحمده

بلاغة المجاز في التّعبير عنِ الصّلاة بالتّسبيح:

والتّسبيح الوارد في قولِه ﷻ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ في أوقاتٍ مَعلومَةٍ مع إحصائها وتتبُّعِها يدُلُّ على أنّ المقصودَ من فعل التّسبيح هنا الصّلاةُ، مَجازًا، مِن ذكر الجزء، وقَصدِ الكُلِّ[2].

ذلك لأنّ التّسبيحَ ركنٌ أساسٌ في الصّلاة؛ حيثُ تشتمِلُ مع القيام بأركانها على التّسبيح، بل المقصود الأوّل للصّلاة هو التّسبيح والحمد[3]، وهي الصّورةُ المُثلى لذكر اللّه ﷻ وحمده وشكره[4]؛ لذلك صحَّ إطلاقُ التّسبيح عليها، وممّا يُؤكِّدُ ذلك المعنى ذِكرُ الأوقات بعدها في قوله: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾، وهذا دليل على خصوصيّة الوقت، أمّا التّسبيحُ بمعناه العامّ فلا يُحَدُّ بزمنٍ.

الجمع بين إثبات الكمال لله وتنزيهه عن النّقائص

دلالة اقتران التّسبيح بالحمد في قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾:

اقترن التّسبيحُ بالحمد في هذه الآية وفي آيات كثيرة في القرآن الكريم؛ وذلك لشدّة التّلازُم بينهما؛ فالتّسبيح يأتي للدّلالة على

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 371.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 452 - 453.
(3) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 58.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 841.

التّنزيه والبراءة من كلِّ عيبٍ، وهذا المعنى فيه إثباتٌ للمَحامِد والكمالات للّه ﷻ، وهذا هو الحَمدُ، وممّا يُؤكِّدُ ذلك الاقترانُ بينهما في الأذكار، نحو: سبحان اللّه والحمد للّه.

معنى الباء في قوله ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾:

التّلبُّس بحمد الله وتنزيهه

أمرَتِ الآيةُ بالتّسبيح بحمد اللّه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، والباء في قوله: ﴿بِحَمۡدِ﴾ تدُلُّ على المُلابسة[1]، ومصاحبة الحمد للتّنزيه[2]، إذ شِبْهُ الجملة ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديره: مُتلبِّسًا[3]، وتكون الجملةُ حينها حاليّةً[4]؛ أي: سَبِّحْ مُتلبِّسًا بحمدٍ لربّك.

ويجوز أن تكون الباء للآلة، والغرض من ذلك سَلبُ صفات النّقص؛ لأنّ مَن سَلَبَ شيئًا فقد أثبَتَ ضِدَّهُ، وأضدادُ صفاتِ النّقص صفاتُ الكمال؛ فمَن نَزَّهَهُ سبحانه فقد أثبَتَ صفاتِ الكمالِ[5].

دلالة التّعبير بالحمد دون غيره:

أفلا أكون عبدًا شكورًا

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالحمد دون غيره في قوله: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ لِما يحمِلُهُ من معنى العموم، فيدخل فيه الشّكرُ، ويكون المرادُ الامتِنانَ على النّبيّ ﷺ بما منحَهُ من نعمة النّبوّة والرّسالة والهداية إلى الطّريق المستقيم من بين قومه حتّى جعلَه إمامًا للنّاس في الهداية؛ فالمحمودُ عليه الهدايةُ والتّوفيقُ.

ولأنّ التّسبيحَ هو الصّلاةُ على رأي، والصّلاة مُشتمِلَةٌ على الحمد، لذلك كان لفظُ الحمد يحتمِلُ المعنى العرفيَّ والمعنى الشّرعيَّ.

سِرُّ تقديم التّسبيح على الحمد في قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾:

قُدِّمَ التّسبيحُ الّذي يَحمِلُ معنى التّنزيه عنِ النّقائص؛ لأنّه من

(1) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 58، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 590.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4810.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 453.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 96.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 282.

باب التّخلية، وثُنّي بالحمد وهو الثّناء؛ لأنّه من باب التّحلية، ومعلوم أنّ التّخليةَ مُقدَّمةٌ على التّحلية.

فائدة إضافة الحمد إلى لفظ الرّبوبيّة:

استحضار عطاءات الرّبوبيّة في كلّ المَناحي

أُضيفَ الحمدُ إلى لفظ الرّبوبيّة في الآية: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ على معنى اللّام، وجُوِّزَ في هذه الإضافة أن تكون من إضافة المصدر إلى الفاعل؛ لأنَّ الحمدَ الحقَّ الكاملَ حمدُ اللّه تعالى نفسَه، أو من إضافة المصدر إلى المفعول والباء للمُلابسة، أو من إضافة الاختصاص بأن يكون الحمدُ بمعنى المَحامِد[1].

وفائدة هذه الإضافة هي استحضار معنى الرّبوبيّة حين حمدِ اللّه ﷻ، فوَصفُ الرّبوبيّة يعني الرِّعايةَ والقِوامةَ، ويعني المُلكَ والولايةَ، فاحمَدْ ربَّكَ الّذي بلَّغَك كمالَك هدايةً وتوفيقًا[2].

دلالة كاف الخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾:

كمال العناية الرّبّانيّة للرّسول ﷺ

تدُلُّ كافُ الخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، والمراد نبيّنا ﷺ، على كمال العناية والتّثبيت، فهو ربُّ محمّدٍ ﷺ الّذي لا يُسْلِمُه ولا يُضيّعُه، وهو الّذي أيّدَهُ بالبيِّنات والهدى، وهو الّذي أخَّرَ الهلاك بكلمةٍ منه، فسبِّحْه يا محمّدُ واحْمَدْهُ بما يستحِقُّه، مُعترِفًا بأنّه مولاك ووليّك[3].

فائدة التّعبير بالظّرفيّة ﴿قَبۡلَ﴾:

تجنُّبُ وقت طلوع الشّمس وغروبها

ذَكَرَ اللّهُ تعالى وقتَ طلوع الشّمس وغروبها مَصحوبًا بظرف ﴿قَبۡلَ﴾ في قوله: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾؛ بمعنى: أنّ تسبيحَك وحمدَك سيكون مُحدَّدًا ومَظروفًا في أوقاتٍ؛ هي: قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها، لا حين طلوع الشّمس ولا حين غروبها؛ لأنّه وقتٌ مُنِعَت فيه الصّلاة، فاتّجَه التّحديدُ إلى وقت صلاة الفجر والعصر، حتّى لا يُظَنَّ التَّعلّق بالشّمس، بل بربّ الشّمس.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 282.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 588.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 453.

وعلى هذا يكون المرادُ بالتّسبيح الصّلاةَ، وإلّا فأمرُ التّسبيح على العموم لا يُوجدُ فيه منعٌ إلّا في حالاتٍ ذكرَتها السّنّةُ المُطهَّرةُ.

نكتة تقديم ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ على ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾:

انطلاق حياة المؤمن بالصّلاة وانتهاؤها كذلك بالصّلاة

قَدَّمَتِ الآيةُ ذِكرَ وقت طلوع الشّمس على وقت غروبها، ونكتة هذا التّقديم هو انطلاق الحياة؛ لأنّ طلوعَ الشّمس يعني بدايةَ اليوم الّذي تَظهَرُ فيه حركةُ الإنسان، وأوّل شيءٍ يَشتغِلُ به ينبغي أن يكونَ التّسبيحَ؛ لذلك جاءَتِ الآيةُ، وإنْ كان خطابُها للرّسول ﷺ إلّا أنّه أمرٌ مُوَجَّهٌ للأمّة أيضًا أن تبدأ يومَها بالتّسبيح والتّحميد للّه بمعناه العامّ والخاصّ، وليكونَ أوّلَ ما يبدأُ به الإنسانُ يومَهُ الصّلاة، ثمّ يُتِمُّ يومَه بالصّلاة أيضًا، وذلك وقت غروب الشّمس.

سرُّ التّعبير بطلوع الشّمس عنِ الفجر:

دلالته على وقت صلاة الفجر

جاءَ التّعبيرُ بطلوع الشّمس عنِ الفجر باعتبار الغلَبَة؛ لأنّ كلَّ ما ذُكِرَ قبل طلوع الشّمس كان المرادُ به الفجرَ، وإنْ كان عامًّا بحسب اللّغة لِما قبل الفجر[1]، وممّا يُذكَرُ في سرّ التّعبير بطلوع الشّمس دلالتُه على أنّ وقتَ صلاة الفجر إلى قبل شروق الشّمس، بينما يدُلُّ الشّروقُ على وقت بزوغ الشّمس، فلا تَصِحُّ الصّلاةُ فيه.

دلالة الإضمار بعد الإظهار:

وضوح دلالة الضّمير على الشّمس

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار عنِ الشّمس في قوله: ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾، ولم يقُل: (قبل غروب الشّمس)؛ لسبق ذكرِها في وقت طلوعها، فناسب إضمارها في وقت الغروب، ولأنّها المقصودة دون غيرها؛ لذكرها قريبًا، ولعدم اشتباهها بشيءٍ آخرَ في هذا المَوضِع، وإذا كانَتِ الآياتُ قد قصدَت إلى تَتَبُّع الأوقات هنا بشكل مُسهِبٍ فقد ناسبَها الإضمارُ لكلّ ما هو بيّنٌ واضحٌ.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 454.

ولأنّ الإضمارَ فيه خفاءٌ، وهذا مُناسِبٌ لاختفاء نور الشّمس عند غروبها؛ فكأنّ التّعبيرَ بالإضمار يصوِّرُ غيابَ نورها استعدادًا لدخول اللّيل.

دلالة (أل) في ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾:

الشّمس المَعهودة لدى الخَلق

جاء ذكرُ الشّمس في قوله سبحانه: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ مُعرَّفةً بـ(أل)، وتعريفُها بـ(أل) هنا يَحمِلُ على العهد إذ هي الشّمس المَعروفة لدى الخَلق، والّتي تتعلَّقُ الأرضُ بها دورانًا وتحديدًا للأوقات والفصول وغيرها مِنَ التَّعلُّقات، لأجل ذلك قُصِدَت شمسٌ واحدةٌ مَعروفةٌ مَعهودةٌ، ولم يَحتَج ذلك إلى تبيين.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾:

دلالته على وقت صلاة العصر

دلَّ التّعبير بقوله: ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ على الظّهر والعصر، وهذا بانضمام العُرف والقرينة؛ لأنّهما من آخر النّهار، أو العصر وحدَه، إذِ المُتبادَرُ القبليّةُ القريبةُ؛ فحينئذٍ لا يَدخُلُ وقت الظّهر[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾:

تواصل الأوقات يلزَمُ فيه الاشتراك

دلَّتِ الواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ على الأوقات المذكورة أوّلًا في الآية؛ ليربطَ ذلك بذكر الأوقات الّتي أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ وأمّتَه بالصّلاة فيها، فكان مُؤدَّى العطف أنْ: سبّح بحمدِ ربِّكَ مِن آناء اللّيل، وفي الأوقات السّابق ذِكرُها.

دلالة التّعبير بـ ﴿وَمِنۡ﴾ دون (في):

تخصيص بعض أوقات اللّيل بلزوم التّسبيح وأداء الصّلاة

دلَّ التّعبيرُ بـ ﴿وَمِنۡ﴾ في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ دون (في)؛ لأنّها تدُلُّ على التّبعيض[2]، والّتي تُشعِرُ بأوقاتٍ مَخصوصَةٍ لها مزيدُ أهمّيّةٍ[3]، وهي وقت صلاة المغرب وصلاة العشاء، وليس مُطلَقَ ساعات اللّيل[4]؛ لذلك لم يأتِ التّعبيرُ بالظّرفيّة.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 454.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 368.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 97.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 233.

ويجوز أن تكون (من) ابتدائيّةً مُتعلِّقةً بقوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾، ويكون المعنى: فسَبِّحْ ابتداءً من وقت المَغرب والعشاء[1].

سرّ تخصيص هذا الوقت بالذّكر:

خصوصيّةُ آناءِ اللّيل بمزيد العبادة

جاء تخصيص هذا الوقت ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ بالصّلاة والتّسبيح؛ وذلك لِما لعبادة اللّيل مِن أثرٍ، فالإنسانُ فيه مُستريحٌ ليس كالنّهار وقت النّشور[2]، وأحسنُ ارتياحٍ هو أن يَرتاحَ المُؤمِنُ إلى ربِّه، ويَطمئنَّ بذكره، ولذلك عَمَّمَ في آناء اللّيل، وخصَّصَ أطراف النّهار بالذّكر.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ دون ساعاته:

أهمّيّة عبادة السَّحر

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بقوله: ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ دون ساعاته؛ لأنّ لفظَ السّاعات يَصدُقُ على كلِّ أجزاء اللّيل مِن أوّله إلى آخره، بخلاف (آناء) فهو يُطلَقُ على السّاعات المُتأخِّرةِ مِنَ اللّيل؛ لأنّه من أنيتُهُ؛ أي: أخَّرتُهُ، والتّأنّي التّأخير إلى وقت آتٍ؛ لذلك كان التّعبيرُ بآناء اللّيل هو المُناسِبَ لهذا التّخصيص.

غرض تقديم الظّرفيّة ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ على فعل التّسبيح:

الإيــــــذان بخصوصيّة آناء اللّيل، وعظمة شأن الصّلاة فيها

تمَّ تقديمُ الظّرف ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ على فِعل التّسبيح في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾، والغرضُ من ذلك هو مَزيدُ الاهتمام بهذا الآناء[3]، ويكون ذلك من باب حصر الكمال فيه، ولمزيد الفضل[4]لهذا الوقت، وهو وقت اللّيل الّذي يَسكُنُ فيه الإنسانُ مِن أشغال النّهار، فيكون وقتَ التَّعلُّق باللّه وحدَهُ[5]، فالقلبُ فيه أجمعُ لِتوافُقِه مع اللّسان والسّمع والبصر في ساعات اللّيل، والنّفسُ فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 338.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9454.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 453 - 454.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 50.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4811.

أميلُ إلى الاستراحة، فكانَتِ العبادةُ فيه أشقَّ، لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِىَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المُزّمِل: 6].

كما أنّ في ذلك إيذانًا بعظمة شأن صلاة اللّيل[1].

وممّا يُؤكِّدُ ذلك أنّ الآيةَ لم تكتفِ في الأمر بأدائها بالفعل السّابق ﴿وَسَبِّحۡ﴾ وعطفِها على ما سبق، بل قَدَّمَتِ الظّرفيّة ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ﴾، وأخَّرَتِ الفعلَ ﴿فَسَبِّحۡ﴾ بعدها[2]، ويجوز أن تكون مفعولًا لفعلٍ مُقدَّرٍ يُفسِّرُهُ ﴿فَسَبِّحۡ﴾، فيكون التّقدير (وسَبِّحْ من آناء اللّيل فسَبِّحْ)، وكلُّ ذلك للدّلالة على مزيد الفضل والاختصاص لهذا الوقت[3].

دلالة (أل) في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

استغراق لجنس اللّيل فهو مَحِلٌّ للذّكر

جاءَ ذكرُ اللّيل في قوله ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل)، وهي (أل) الجنس الّتي تفيدُ الاستغراق، فاللّيل هو أيُّ ليلٍ كان، فإذا كنتَ في أيِّ ليلةٍ فإنّ في آنائها زادًا مِنَ القُربى إلى اللّه، فاغتنمها بإقامة الصّلاة ومُناجاة اللّه.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾:

كلّما جنّ عليك اللّيلُ واشتدَّ ظلامُهُ فاضرَعْ إلى مولاك بالتّسبيح والتّحميد

الفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾ لإفادة معنى الشّرط، والتّقدير: (وما يكُنْ مِن شيءٍ فسَبِّحْ)؛ لأنّه لمّا قُدِّمَ عليه الجارُّ والمجرور شابَهَ تقديمَ أسماءِ الشّرط المفيدة معنى الزّمان؛ فعُومِلَ الفعلُ مُعامَلَةَ جواب الشّرط كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: 79][4].

فائدة عطف ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾:

تعلُّقُ فعل التّسبيح بأطراف النّهار

عُطِفَ على ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ﴾ وقتٌ آخر للعبادة، وهو ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، وذلك بواو العطف، وفائدة هذا العطف هو إظهارُ تَعلُّقِ هذا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 367.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 589.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 455.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 338.

الوقت بالفعل، وهو التّسبيح[1]، فيكون تقديرُ العبارة: سَبِّحْ بحمد ربِّكَ أطرافَ النّهار.

نكتة إضافة الأطراف إلى النّهار:

تخصيص وقت الصّلاة باجتماع أطراف النّهار

إضافةُ أطرافٍ إلى النّهار في الآية ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ هي إضافةُ تَخصيصٍ[2]، لأنّ أطرافَ النّهار تتميَّزُ عن وقت طلوع الشّمس ووقت الغروب، لِحَملِ الكلام البليغ على التّأسيس قبل التّأكيد، ولذلك فهي أوقاتٌ خاصّةٌ بالنّهار لا في نهاياته.

وذهب آخرون إلى أنّها تكريرٌ لصلاتي الصّبح والمَغرب لأنّ الطّرفَ حقيقةٌ فيهما؛ إذِ المَغربُ ينتهي به النّهارُ، والصّبحُ ما يَبدأُ به النّهارُ على الوجه الشّرعيِّ في تعريفه.

ولعلّ أحسنَ ما يَنطبِقُ عليه الطّرفان هو وقتُ انتصاف النّهار، حيثُ يتمُّ التَّحوُّلُ مِنَ الطّلوع إلى الدّلوك[3]، والواضحُ أنّ هذا التّحديدَ يَخصُّ صلاة الظّهر بالاعتناء، حيثُ اجتماعُ طرفي النّهار؛ انتهاءُ الطّرف الأوّل وبدايةُ الطّرف الثّاني[4].

دلالة (أل) في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ للجنس:

في كلّ نهارٍ طرفان يَلزمُ تسبيحُ الله فيهما

وجاء ذِكرُ النّهار في الآية ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل)، وهي(أل) الجنس، فيَصِحُّ إفرادُه أو جمعُهُ، فلكلِّ نهارٍ طرفان، وكون (أل) للجنس هنا هو الّذي يُبرِّرُ ورودَ الأطراف بالجمع، ويهدي إلى أنْ يَغتَنِمَ المُؤمنُ كلَّ نهارٍ بأن يُسبِّحَ ربَّه عندها[5].

سرُّ التّعبير بالجمع ﴿وَأَطۡرَافَ﴾ في مَوضِع التّثنية:

الإشارة إلى أوقات الصّلوات المَكتوبة

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالجمع ﴿وَأَطۡرَافَ﴾؛ لأنّ صلاةَ الظّهر

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 589.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 454.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دلك).
(4) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 168.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 70.

في آخر طرف النّهار الأوّل وفي أوّل طرف النّهار الآخر؛ فهي في طرفين، والطّرف الثّالث غروب الشّمس؛ لذلك قيلَ أطراف؛ على أنّ المُرادَ بها ذِكرُ صلاتي الظّهر والمَغرب معًا[1].

ويجوز أن يُطلَقَ الجمعُ على المُثنى عند أمن اللّبسِ، فإنّ مِنَ المعلوم أنّ للنّهار طرفين لا أطرافًا، كقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التّحريم: 4]، والّذي حسَّنَهُ هنا مُشاكَلةُ الجمع ﴿وَأَطۡرَافَ﴾ للجمع (آناء) في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾، ويكون المرادُ بها حينئذٍ صلاةَ الظّهر فقط[2].

نكتة فصل قوله ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾:

تمام تعلُّقِ الرّضى بإقامة الصّلاة

لم تُعطَفْ جملةُ ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ على ما سبقها مِنَ الجمل، ونكتة الفصل هنا هو ترتُّبُ الرّضى عنِ الائتمار بالصّبر وإقامةِ الصّلاة في تلك الأوقات، فتكون جملةُ ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ كاملةَ التّعلّق بفعل التّسبيح[3]؛ أي: وسَبِّحْ بحمد ربِّك لعلّك ترضى؛ والمعنى: سَبِّحْ في هذه الأوقات رجاءَ أن تنالَ من عطاء اللّه ﷻ ما يُرضيك بها فترضى نفسُك[4].

فائدة حذف مُتعلّق ﴿تَرۡضَىٰ﴾:

إفادة العموم والتّنوّع

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعل ﴿تَرۡضَىٰ﴾؛ لإفادة العموم والتّنوّع فيما يَرضى به رسولُ اللّه ﷺ في خدمة دعوته؛ فالغالبُ أنّ الرّضى سيكون بما يَخدُمُ الحقَّ، ويحقّقُ النّصرَ، ويُمكِّنُ الدّينَ[5]، ويمكن أن يكونَ للحذف فائدةٌ أخرى، وهي أن يكونَ الرّضى نفسُهُ هو المقصودَ، فلعلّك تنالُ الرّضى، والرّضى دَرَجاتٌ، أدناها أن ترضى فلا تَسخَطُ، وأعلاها أن يَرضى عنك ربُّك فترضى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 233.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 18/ 84.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 590.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 50.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 590.

نكتة التّعبير بالمضارع في ﴿تَرۡضَىٰ﴾:

تجدُّدُ الرّضى بالاستمرار في الصّبر والذّكر

وردَ التّعبير عنِ الرّضى في الآية: ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ بالفعل المضارع؛ للدّلالة على تجدُّد الرّضى بتجدُّدِ الصّبر والذّكر، واستمرارُ الرّضى هو باستمرار الصّبر والذّكر، فكأنّ التّعبيرَ بالمضارع يشيرُ إلى المُلازَمة: كلّما صبرتَ وذكرتَ ربَّك نلتَ الرّضى.

غرض الإتيان بحرف الرّجاء (لعلّ):

الطّمعُ في الرّضا دافِعٌ للعمل

استُعمِلَ حرفُ التّرجّي (لعلّ) في الآية: ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾، مَنسوبًا إلى المُخاطَب؛ للحَثّ والتّرغيب في أن يَطمعَ المُخاطَبُ إلى الرّضى[1]، فيكون دافعًا له لأداء ما أُمِرَ به، فالرّجاء ليس مِنَ اللّه ﷻ، حاشاه، بل مِنَ المُخاطَب بها[2]، وهو أقربُ إلى الشّرط منه إلى الرّجاء، فالمولى يُرَجّي عبادَه، ويُحفِّزُهم بأنّ مَن صَبَرَ وصلَّى أبلَغتُهُ درجة الرّضى، فاطمحوا إلى تلك الدّرجة[3].

بلاغة توجيه القراءات القرآنيّة المتَواترة في ﴿تَرۡضَىٰ﴾:

لعلّك تُرضَى فترضى

ورد في قوله تعالى: ﴿تَرۡضَىٰ﴾ قِراءتان مُتواتِرتان، ولكلِّ قراءةٍ توجيهُها وبلاغتُها، فقد قرأ شعبة عن عاصم والكسائيّ: ﴿تُرۡضَىٰ﴾ بضمّ التّاء، بينما قرأ باقي القرّاء ﴿تَرۡضَىٰ﴾ بفتح التّاء[4].

وتوجيه قراءة ﴿تُرۡضَىٰ﴾ بضمّ التّاء على أنّها على ما لم يسمَّ فاعلُهُ، والّذي قام مَقامَ الفاعل هو النّبيّ ﷺ، والفاعل هو اللّه جلّ ذكرُهُ، تقديره: لعلّ اللّهَ يُرضيك بما يُعطيك يوم القيامة، و(لعلّ) مِنَ اللّه واجبة[5].

وأمّا قراءة ﴿تَرۡضَىٰ﴾ بفتح التّاء فمِنَ الفعل تَرْضَى اللّازم، ويكون

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 97.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 273.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 114.
(4) ابن أبي مريم، المُوضَح، ص: 758، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 322.
(5) مكّيّ، الكشف: 2/ 107، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 97.

المعنى: لعلّك تُثابُ على تلك الأعمال بما تكون راضيًا(1)؛ أي: اللّه يعطيك إكرامًا لك حتّى ترضى عطيّتَه وثوابَه إيّاك أو تَرضى بالشّفاعة والثّواب، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضّحى: 5](2).

والقراءتان تُؤكِّدان معنى الرّضا ولا اختلافَ بينهما؛ لأنّ اللّه تعالى إذا أرضاه فلا شكَّ أنّه يَرضى، وأنّه إذا رَضيَ فقد أرضاه اللّه، وبذلك تُؤكِّدُ كلُّ قراءةٍ معنى القراءة الأخرى؛ فإنّ مُنتهاهما واحدٌ، فإنّك إذا رَضيتَ فقط أُرضيتَ(3).

فلا بدّ في القراءتين أن يُعطى محمّد ﷺ في القيامة حتّى يَرضى، ويُزاد فوق الرّضى، ولا يَرضى ﷺ أن يُعذَّبَ أحدٌ من أمّتِه مُخلَّدًا، فهذه الآية أرجى آيةٍ في كتاب اللّه لأمّة محمّد ﷺ(4).

المتشابه اللّفظيّ:

تشابهَت هذه الآيةُ مع مَوضِع سورة ق في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [ق:39]، ومع سورة الطّور في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾ [الطّور: 48].

ومِنَ التّشابُه أيضًا قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [الطّور: 48]، فإنّه مَبنيٌّ على المُتقدِّم فيهما من قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الطّور: 48]، واتّصاله به بيّنُ الوضوح؛ لأنّ المُرادَ أمرُهُ عليه السلام في الصّبر على أذاهُم في قولِهم كاهِنٌ ومَجنونٌ وساحِرٌ إلى غير ذلك، ممّا نزَّهَ اللّهُ نبيَّه عنه؛ لذلك أمرَهُ اللّه أن يَستعينَ بصبره وصلاته على تحمُّل أذاهم(5).

وأمّا انفرادُ مَوضِعِ الطّور بقوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾ [الطّور: 48] فلأنّ الآيةَ يسبِقُها قولُهُ: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥﴾ [الطّور: 45]، ولمّا كانَتِ اليقظةُ مِنَ النّوم شبيهةً بالبعث، ودالّةً عليه، ناسبَها تخصيصُها بالذّكر بقوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾ [الطّور: 48].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 70.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 234.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 196.
(4) مكّي، الكشف عن وجوه القراءات السّبع: 2/ 108.
(5) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/ 343 و344.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآناء والسّاعات:

الآنَ والسّاعة يدلّان على الزّمن، فهي أوقات، ولكنّ (الآن) غيرُ مُحدَّد[1]، بخلاف السّاعة، فهي وقتٌ، باعتبار مُدّتها وانقضائها[2]، لذلك كانَتِ السّاعةُ مَوعِدًا زمنيًّا، وقُسِّم اللّيلُ إلى ساعاتٍ؛ أي: أجزاء[3].

الآناء اشتغال بحضور الأوقات، والسّاعات اشتغال بتحديدها وانقضائها

ولعلّ في إشراب (الآن) معنى الأوان دلالةً على الحاضر؛ أي: آنًا بعد آنٍ، والنّظر إلى (الآن) باعتبار الوقوف عند ما يَحويه، بينما يُنظَرُ إلى السّاعة باعتبار حصرِها للزّمان وتقسيمه ومُضيّه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 576.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 116.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: 21/ 241.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه: 131]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نـهـيٌ عـنِ الإعـجـاب بعد أمرٍ بالصّبر، فإنّ الالـتـفـات إلى الدّنيا مُشغِلٌ عن ذكر الله

لمّا ذَكرَتِ الآيةُ السّابقةُ أمرَ اللّه ﷻ لرسوله ﷺ بالصّبر على ما يقولُه الكفّارُ مِنَ الأذى، وطَلَبَ منه أن يَستعينَ على ذلك بالتّسبيح، جاءَت هذه الآيةُ بنَهيه ﷺ عنِ الإعجاب بما مَتَّعَ اللّهُ به الكفرةَ من زهرة الحياة الدّنيا، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾[1].

وفي الآية الكريمة نهيٌ بعدَ أمرٍ، ليجمَعَ المُؤمِنُ بين الصّبر والذّكر وإقامة الصّلاة وبين الابتعاد عن ملذّات الدّنيا وزخارفها، لِما بينَهما مِنَ المُناسَبة والتّأثير، فإنّ الالتفاتَ إلى زخارف الدّنيا يُشغِلُ عن ذكر اللّه والدّعوة، ويَمنعُ مِنَ الرّضى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾: المَدُّ هو بَسطُ الشّيء واستطالتُه[2]، ويتنوّعُ معناه باعتبار الشّيء المضاف إليه؛ فمَدُّ الأرضِ بَسطُها وتَسويتُها، ومدُّ النّهار ارتفاعُهُ، ومدُّ العين إلى كذا؛ يعني: التِفاتُه[3] إليه، ومَدَدتُه في غيّه، ومَدَدتُ الإبلَ: سقيتُها المَديدَ، وأمدَدتُ الجيشَ بمَدَدٍ، والإنسانَ بطعام، وأكثرُ ما جاء الإمدادُ في المَحبوب، والمَدُّ في المَكروه[4]، ويُقصَدُ بمدِّ العينين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾ الالتفاتُ إلى تلك المُتع، والاسترسالُ في النّظر إليها[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 406.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مد).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (مدد).
(4) الرّاغب، المفردات: (مد).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 399.

2) ﴿مَتَّعۡنَا﴾: المُتوع: الامتِداد والارتِفاع، يُقالُ: مَتَعَ النّهارُ، ومَتَعَ النّباتُ: إذا ارتفع في أوّل النّبات، وكلُّ ما يُنتفَعُ به على وجهٍ ما فهو مَتاعٌ ومُتعَةٌ؛ فالتَّمتُّعُ هو الانتفاعُ بشيءٍ مُدّةً مِنَ الزّمن[1]، والمُتعَةُ: المَنفَعَةُ، والمَتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقت[2]، وتَصِلُ إلى درجة التّرفيه والتّلذُّذ[3].

3) ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾: يُطلَقُ الزّوجُ على مُقارَنَةِ شيءٍ لِشيءٍ[4]، برابطٍ ماديّ أو معنويٍّ، كالذّكَر والأنثى، كما يُقارَنُ بين الشّيئين المُشابِهين، فالزّوجيّة هنا هي المُشابَهةُ، والصّنّف أو النّوع زوجٌ أيضًا باعتبار الصّفات المُشتركة الّتي جمعَت بين أفرادِه[5]، وقد يُقرَنُ بين شيئين للتّضادّ والتّقابُل بينهما[6].

والأزواج في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أشباهًا وأفرادًا[7]، ابتداءً بالزّوج والزّوجة المُشترِكين في الكفر، وصولًا إلى القوم الّذين اشتركوا في مَوقِفهم الجاحِدِ للرّسول وللحقّ.

4) ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾: أُخِذ معنى الزّهرة مِن حُسْن الزّهرة ورِقّتها، فصار معنى الزَّهرة: الحُسْنَ والضّياء والصَّفاءَ[8]، والرِّقّةَ والإشراقَ[9].

وقد استعمل القرآنُ الكريمُ عبارةَ ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ للتّعبير عن زينة الحياة وبهجتها، وكلِّ ما يثيرُ فيها، ويرَغِّبُ فيها[10]، وظهور ذلك على من استحبّها حتّى صار ذلك علامةً لأهل الكفر.

5) ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾: أصل كلمة (فتن) يدُلُّ على ابتلاءٍ واختِبارٍ[11]، ومنه فتْنُ الذّهب؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(2) الرّاغب، المفردات: (متع).
(3) أحمد مختار مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (متع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زوج).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زوج).
(6) الرّاغب، المفردات: (زوج).
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 115.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زهر).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زهر).
(10) أبو عبيد، مجاز القرآن: 2/ 33.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).

أي: إذابتُه لامتحان جَودَته[1]، وقد تخلَّصَ مفهومُ الفتنة إلى معنى التّأثير إلى درجة التّحوّل فيظهر باطنُ الشّيء وجوهرُهُ[2]، سواء أكان التّأثيرَ بالشّدّة، وهو الغالب، أم التّأثيرَ بالمُتعة والزّينة، ومِن ذلك فتنة النّساء؛ أي: التّأثُّر بشدّة الإعجاب بهنّ[3].

ومعنى ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾؛ أي: لِنَبلوَهم في تلك المتع والبهجة، فيحقّ عليهم الهلاك[4].

المَعنى الإجماليُّ:

في هذه الآية ينهى اللّهُ ﷺ نبيَّه عنِ الإعجاب بزينة الحياة الدّنيا الّتي متَّعَ اللّهُ بها هؤلاء الكفرة، وألّا تضعُفَ إرادتُهُ بالالتفات إلى شيءٍ ممّا مُتِّعَ به الكفّار مِن زهرة الدّنيا، فما هي إلّا بلاءٌ لهم واختبارٌ، وإلّا فإنّ ما عِند اللّه أنفعُ منها وأدْوَمُ؛ لأنّ رزقَ ربِّك خيرٌ وأبقى من هذه المُتع والمَباهِج؛ لأنّها زائلةٌ، وتَفنى بِفَناء هذه الحياة.

ما عند الله خيرٌ وأبقى، لِمَن صَبَرَ واتّقى، ولم يَلتفِتْ إلى ما فُتِنَ به المُتْرَفون مِنَ المُشْركين

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾:

دلَّتِ الواو على عطف جملة ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ على جملة ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لجامعٍ بينهما، هو عَطفُ نهيٍ على أمرٍ، للعلاقة الّتي ربطتهما، وهي أنّ الالتفاتَ إلى زخارف الدّنيا يُشغِلُ عن ذكر اللّه والدّعوة، ويَمنعُ مِنَ الرّضى، لذلك جاء النّهي عنها حتّى تتحقّقَ ثمرةُ ما أُمِرَ به[5].

التّعلُّق بزهرة الدّنيا يُشغِلُ عن بلاغ الدّعوة

دلالة النّهي:

نهى اللّهُ ﷻ عن مدِّ العين إلى زخارف الحياة الدّنيا؛ لأنّ الانشغالَ

(1) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(2) جبل، الاشتقاقي المؤصل المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (فتن).
(4) أبو عبيد، مجاز القرآن: 2/ 33.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 460، والصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 58.

عَـدَمُ التَّشوّف إلى ما في أيدي النّاس

بها يؤدّي إلى إضعاف النّفس وإعاقة الإرادة، وذلك بتطلّع بعض نفوس المؤمنين إلى ما مَتَّعَ اللّه به أصنافًا مِنَ النّاس، ولا سيّما أهلُ الكفر والمعصية بما لديهم من زخارف الدّنيا مِنَ الأموال والقصور والمَزارع والمَطاعم إلى غير ذلك، ممّا يُؤَثِّرُ في النّفس بالضّعف، وقد يؤدّي ذلك إلى الغمّ وإعاقة بلاغ الدّعوة(1).

ومن فوائد النّهي الحثُّ على مُجالَسة المَساكين والبعد عن مُجالَسة المُترَفين؛ لأنّ مُجالَسةَ المَساكين تعظِّمُ نعمةَ اللّه عندك، وفي النّهي دعوةٌ للثّبات على ما كان عليه النّبيّ ﷺ من عدم مدّ عينيه، ويكون النّهي مُوجَّهًا إلى الأمّة في شخصه ﷺ.

غرض التّوكيد في قوله ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾:

غلبة زخارف الحياة على النّفس تَتطلّبُ تأكيد عدم مدِّ العينين

جاء الفعلُ مدَّ في ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ مُؤكَّدًا بنون التّوكيد الثّقيلة، والغرضُ مِن هذا التّوكيد بيانُ صعوبة غضّ البصر عن تلك المَفاتن، لِما للنّفس من تأثُّرٍ بها واستهواءٍ لها، ولِما لذلك مِن ظلال سلبيّةٍ على نفس الدّاعية إلى الحقّ(2)، وذلك لِما يَحمِلُهُ النّظرُ إلى هذه الزّخارف مِنَ الاعتراض على حكمة اللّه تعالى في عطائِه ومَنعِه وتَوّسعتِه وتضييقِه، والمُؤمِنُ مأمورٌ بالرّضى بقسمة اللّه تعالى له؛ لعلمِه بحكمة العليم القدير، وهذا على أنّ النّهيَ مُوجَّهٌ للمؤمنين، وإلّا فرسولُ اللّه ﷺ عُرِضَت عليه الدّنيا فلم يَقبلْها، ورَضي بأن يكون عبدًا مِسكينًا.

بلاغة المجاز في مدِّ العينَين:

ذِكرُ مدِّ العينين، والقَصدُ النّهيُ عنِ الاسترسال في النّظر

تَظهَرُ بلاغةُ المَجاز في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾، - وتقديره: لا تَمُدَّنَّ نظرَ عينيك - لأنّ النّهي عن مدِّ العين إلى زهرة الحياة ليس نهيًا عن مُطلَقِ النّظر إلى جمال خلقِ اللّه ﷻ، ولا النّهي عن

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 840.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 369.

زينة اللّه الّتي أخرَجَ لعباده، وإنّما النّهيُ عن مدِّ العينين واسترسال النّظر، وعلى هذا يكون المجاز من باب ذكر الشّيءِ وإرادة أثره؛ أي: لا تُطِلِ النّظرَ وتَسترسِلْ فيه[1]، لأنّ مدَّ البصر والاسترسال فيه يوسِّعُ العينَ؛ لِترى أكثرَ ممّا ينبغي[2].

وممّا يُؤكِّدُ أنّ النّهي ليس على الحقيقة أنّ النّظرَ غيرُ المَمدودِ إلى جمال خلق اللّه كما سبق مَعفُوٌّ عنه، وعلى ذلك فالمقصودُ هنا مِنَ النّهي عن مدّ العين هو استحسانُ ذلك، والإعجابُ به، وتمنّي حصوله[3]، وزيادةُ الحرص عليه[4]، والأسفُ على فواته[5].

(لا تمُدَنَّ) مرَّةً بواو العطف ومرَّةً بدونها:

بالتّسبيح تطمئنّ الجوارح وتستريح

جاء في مَوضِع الحِجر ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ [الحِجر: 88] من غير واو العطف، ومَوضِع طه ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ جاء معطوفًا بالواو، والنّكتة في ذلك أنّ مَوضِعَ الحِجر لم يسبقْهُ طلبٌ، فالجملةُ مُترتِّبةٌ على ما قبلها أو مُعترِضَةٌ، بخلاف ما في سورة طه فقد سبقها طلبٌ بالتّسبيح فاقتضى مجيءَ الوصل بالواو؛ لِتكونَ من عطف الطّلب على الطّلب[6].

دلالة ﴿مَا﴾ في ﴿مَا مَتَّعْنَا﴾:

عموم المَنهيِّ عَن إطالة النّظر إليه

نهَتِ الآيةُ عن مدّ العينين، وأشارَت بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾، وما هنا: اسم موصول أو نكرة مَوصوفة[7]، وهي مِن ألفاظ العموم، تدُلُّ على كلِّ ما يَصدُقُ عليه التَّمتُّع في حياة هؤلاء الكفّار، فأيُّ شيءٍ من حال هؤلاء يَظهَرُ فيه التَّمتُّعُ فلا تُطِلِ النّظرَ فيه.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4812.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9456.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 97.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 70.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 114.
(6) النّيسابوريّ، غرائب التّفسير: 4/ 234.
(7) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 16/ 443.

نكتة إسناد التّمتيع إلى ضمير العظمة:

هـو الـقـابـض الباسط

أُسنِدَ التّمتيعُ في الآية: ﴿مَا مَتَّعۡنَا﴾ إلى ضمير العظمة، ونكتة ذلك هي إظهارُ أنّ المَنّانَ هو اللّهُ[1]، يعطي كما يشاء ومتى يشاء، ويعطي لِمَن يريدُ ويَمنعُ مَن يريدُ، فتمتيع هؤلاء إذًا هو بقَصدٍ، فإنْ مَنَعَ فلحكمة، وإنْ بَسَطَ فلابتلاء.

نكتة التّعبير بقوله ﴿مَتَّعۡنَا﴾ مادّةً وصيغةً:

شموله للملذّات والزّخارف

آثرَ التّعبير بقوله: ﴿مَتَّعۡنَا﴾؛ لأنّ المَتاعَ لفظٌ عامٌّ يُطلَقُ على كلِّ ما يُنتفَعُ به، ويُطلَقُ على الإلذاذ بما يُدرَكُ مِنَ المَناظِرِ الحَسنة، ويُسمَعُ مِنَ الأصوات المُطرِبَة، وما يُشَمُّ مِنَ الرّوائح الطّيّبة وغير ذلك، وفيه إشارةٌ إلى زواله؛ لأنّه في الدّنيا، والدّنيا دارُ فناء.

وأمّا عن صيغة ﴿مَتَّعۡنَا﴾ فهي على صيغة التّفعيل، وتقتضي التّكثيرَ، وفي هذا بيانٌ إلى كثرة ما مَتَّعَ اللّهُ به أصنافًا مِنَ النّاس، ولاسيّما الكفرة والعصاة.

دلالة التّعبير بجملة الصّلة:

الإشـعـار بعلّة الحُكم

تقع عبارة ﴿مَتَّعۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾ صلة الموصول لـ﴿مَا﴾، ونكتة استعمال الصّلة والموصول هنا هي إبرازُ التّعليل في الصّلة؛ فصلة الموصول تُؤذِنُ بالتّعليل[2]؛ أي: إنّ العلّةَ في منع مدِّ العينين هو التَّمتُّعُ بالمُتَع، ولأجل ذلك لا يُفهَمُ مِنَ الآية لزومُ تركِ المُتَع، بل المُتَعِ الّتي في غير أهلها[3].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِهِۦٓ﴾:

توظيف المَتاع في غير مَحلّه

تعدَّى فِعلُ التّمتيع بالباء في الآية: ﴿مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾، ومعناها

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 369.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 117.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 591.

الاستعانة والآلة[1]، فالكفّار بهذه المُتع قد شعروا بأنّهم قادرون عليها، وأنّ الحياةَ قد استوَت لهم[2].

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦٓ﴾:

الاعتناء بوسيلة التّمتيع ليَظهرَ مَحلُّ التّعليل

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ في الآية: ﴿مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ لقصد الاهتمام بسبب التّمتيع[3]، فالمقصود هو استحضار ذلك ليظهرَ مَحِلُّ الافتتانِ فيه.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

تأثير الأزواج بعضهم في بعض في مزيد التّمتّع والافتتان بزهرة الحياة الدّنيا

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ في قوله: ﴿أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ لِما لهذا اللّفظ من دلالةٍ خاصّةٍ؛ فالأزواج تعني الأشباهَ والأقرانَ[4]، ويَصدُقُ ذلك على الأهل[5]، كما يَصدُقُ على الأصناف[6]، فبَيْنَ كلِّ صنفٍ شَبَهٌ.

والمقصودُ بالزّوج الصّنفُ من كلّ شيءٍ، والقرينُ مع قرينه؛ فكلُّ زوجٍ يُزيِّنُ في نظر زوجِه تلك المَحاسِنَ المُشتركة[7]، فيريدُ المَزيدَ منها، ويَظُنُّ دوامَها، فتتحقَّقُ الفتنةُ بها.

غرض تنكير ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

التّعميم في الأزواج

جاء ذِكرُ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ في الآية: ﴿مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾ نَكِرَةً، والغرضُ مِنَ التّنكير هنا هو التّعميمُ؛ فيَصدُقُ ذلك على كلِّ مُتشاكِلٍ وقرينٍ، ابتداءً بالأهل، ووصولًا إلى طبقة المُترَفين والمُسرِفين، إلى غيرها مِنَ الأصناف.

وهو ما يُظهِرُ أنّ المَقصِدَ مِن ذكر الأزواج ليس تَعدادَها بقدر

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 39.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 12/ 458.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 50.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 274.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 340.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 98.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 340.

ما هو التّركيز على معنى الزّوجيّة ذاته؛ لِما له مِن تأثيرٍ في ازدياد الافتتان بزهرة الحياة.

دلالة (مِن) في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

تمتيعُ بعض الأزواج مِنَ الكفرة، وليس الكلَّ

ذكرَتِ الآيةُ ﴿مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ حرفَ الجرّ (مِن)، ومعناه التّبعيض[1]، فالمقصودُ مِنَ التّمتيع بعضُ الأزواج مِنَ الكفرة، وليس كلَّ الأصناف؛ ففيهم مَن ضُيِّق عليه رزقُه، ومنهم مَن يعيش في أغلال العبوديّة وآصار الظّلم.

والتّبعيضُ هنا يزيدُ عِلَّةَ التّمتيع توضيحًا؛ فالمُعطي المانعُ هو اللّه، وهو إنْ أعطى بعضَ الأزواج مُتعًا فليس إكرامًا لهم وإهانةً للآخرين، إنّما هي فتنةٌ.

المَوقِعُ النّحويّ لقوله ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

تخصيص التّمتيع بزهرة الحياة الدّنيا، وحالُها زائِلٌ

تعدَّدَت وجوهُ إعراب ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فأُعرِبَت مفعولًا ثانيًا[2]؛ أي: إنّنا أعطينا أزواجَ الكفرة زهرةَ الحياة الدّنيا، وأُعرِبَت مَفعولًا للاختصاص[3]؛ أي: إنّنا مَتّعناهم، ونَخُصُّ زهرةَ الحياة الدّنيا، وأُعرِبَت حالًا[4]؛ أي: والحال أنّ تلك المُتَعَ هي زهرةُ الحياة الدّنيا.

وتبقى الدّلالةُ مُتقارِبةً، فقد خصَّ التّمتيعُ أزواجَ الكفرة بزهرة الحياة الدّنيا، والحال أنّها زهرةٌ سرعان ما تَذبُلُ وتَزولُ.

نكتة وصف ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

كلُّ المُتعِ والزّخارف في الحياة الدّنيا زائِلةٌ

النّاظِرُ في القرآن الكريم يجِدُ تنوّعًا في الأسلوب، فيَجِدُ ذكرَ الدّنيا من غير ذكر الحياة كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النّساء: 77]، وغيرها مِنَ الآيات كثير، ويَجِدُ وصفَ الحياة بالدّنيا كما هنا وفي غيرها من آيات القرآن.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 274.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 98، والصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 58.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 98.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 340.

ونكتة هذا الوصف أنّ اهتمامَ الكفّار مُنصَبٌّ على ما هو آنٍ دون الآجل، وهذا التّمتيعُ سيزيدُهُم غمرةً في الآن، وحرصًا على مزيد المُتعة تنعُّمًا وتفاخُرًا وزهوًا، فيزدادون غفلةً عن حال مَن سبق، وعدم التَّأمُّل في العواقب.

وهذا التَّمتُّعُ مهما كَثُرَ وتعدَّدت ألوانُهُ، فهو في مُقابَلَةِ نعيم الآخرة حقيرٌ ودنيءٌ؛ لأنّ مُتعةَ الآخرة باقيةٌ، ولا يعتريها ما يعتري نعيمَ الدّنيا.

بلاغة التّشبيه في زهرة الحياة الدّنيا:

مُـتَـعُ الـكـفّار في الدّنيا زينةٌ وبهجةٌ ثمَّ ذُبُولٌ وزوالٌ

شبَّهَ القرآنُ الكريمُ مُتَعَ الكفّار بزهرة الحياة الدّنيا، وفي وصف ذلك بالزّهرة تشبيهٌ بليغٌ[1]، إذ شُبِّهَت مُتَعُ الحياة بالزّهر، وحُذِفَ وجهُ الشّبه ليذهَبَ الخيالُ في تصوّر ذلك كلَّ مَذهَبٍ من ناحية العلوّ والارتفاع واللّمعان والجاذبيّة، ثمّ بعد ذلك ذُبُولٌ وزَوال، فالعاقلُ لا يركَنُ إلى الدّنيا مهما تزخرفَت وتزيَّنَت؛ لأنّها لا تعمَرُ طويلًا، بل سرعان ما تَذبُلُ هذه الزّهرةُ، وتصيرُ حُطامًا؛ فلا ينبغي الاغترارُ بهذه الدّنيا فهي تُبهِجُ القلبَ وتُسِرُّه، ثمّ تموتُ وشيكًا[2].

فائدة إضافة الزّهرة إلى الحياة الدّنيا:

الـتّـفـريـق بين زهـرة الأشـجـار ومُتَع الكفّار

أُضيفَتِ الزّهرةُ إلى الحياة الدّنيا في قوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لِتكونَ هذه الإضافةُ قرينةً صارِفةً عن إرادة زهرة الأشجار أو غيرها من نباتات الأرض.

وعلى هذا يكون المَقصودُ بالمَتاع ما يزيِّنُ هذه الحياةَ، ويُظهِرُها في مَظهَرٍ جميلٍ مُزخرَفٍ[3].

ففائدةُ الإضافة هنا هي بيانُ العلّة مِنَ التّمتيع، وبيانُ الحكمة مِن عدم الاسترسال في النّظر إليها.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 70.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 841.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 370.

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

افتتان الكفّار بزهرة الحياة الدّنيا ونهي المؤمنين عن ذلك

قال الله ﷻ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحِجر: 88]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾، فزاد في مَوضِع طه عبارة: ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾، والسّببُ هو أنّه في سورة الحِجر جاء النّهي عن مدّ العينين إلى ما متَّعَهم اللّهُ به مُطلَقًا، فالسّورةُ مَبنيّةٌ على الإيجاز، وأمّا في مَوضِع طه فقد بيّن أنّ ما متَّعَهم به لأجل فتنتهم ليُقابِلَ الأمرَ باستغراق الأوقات بالتّسبيح بحمد اللّه في قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾، فأمرَ اللّهُ سبحانه الرّسولَ ﷺ باستغراق أوقات اللّيل والنّهار بالتّسبيح ابتغاءَ الرّضى، وتمتّع الكفّار بزهرة الحياة الدّنيا لأجل فتنتهم.

دلالة اللّام في قوله ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾:

عاقبة تمتيع الكفّار هي الفتنة في تلك المتع

دلَّتِ اللّام في قوله: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ على بيان عاقبة التّمتيع؛ أي: لِتكونَ عاقبتُهُم فتنةً في أنفسهم، فيشتدَّ عليهم تركُ شهواتهم، ويطغَوا بها، فيقعوا في الفتنة، وهذا على أنّ اللّامَ هنا هي لامُ التّعليل[1]؛ أي: العلّة المجازيّة[2] الّتي هي عاقبة الشّيء، كما في قوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8]، وفي هذا إشارةٌ إلى التّنفير مِنَ التّعلُّق بزهرة الحياة الدّنيا؛ لأنّ عاقبةَ ذلك التّعلُّق وخيمةٌ.

دلالة تعدّي الفعل ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ﴾ بالظّرفيّة:

تصوير حالة الكفّار، وهم يُفتَنون في تلك المتع

تعدّى الفعلُ ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ﴾ في الآية: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ بالظّرفيّة المجازيّة، تصويرًا لحال هؤلاء الكفرة، وهُم يُفتَنون في تلك المُتع،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 340، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 50.

كأنّهم مَظروفون فيه مَغمورون[1]، والأصل في المُتَع أنّها تُريحُ الإنسانَ وتُسرُّه فإذا هي تُحيطُ بالإنسان، فتزيدُهُ حَرقًا وشدّةً، بدلالة فِعل (فَتن).

فعامَلَهُمُ المَولى بعكس ما يَرجون، وفيها حثٌّ للمؤمنين على عدم التَّطَلُّع لِما بأيدي الكفّار مِن مَتاع[2].

سرُّ التّعبير بالفتنة في قوله: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾:

يعيش الكافر في ضنك وقلقٍ رغم ما يتمتَّعُ به من مُتع الدّنيا

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفتنة في قوله: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ لِما تحمِلُهُ هذه الكلمةُ من دلالاتٍ لا تُوجدُ في غيرها؛ وذلك لأنّها تُطلَقُ على اضطراب النّفس وتَبلبُلِ البال من خوفٍ أو توقُّعِ مَكروهٍ أو التواءِ الأمور، وكان الكفّارُ لا يَخرجون عن ذلك، فلِشركِهِم يَقذِفُ اللّهُ في قلوبهم الغمَّ والحسرةَ؛ لأنّ ما مَتَّعهم اللّهُ به في الدّنيا وفق بيئتهم الاجتماعيّة، كان فتنةً لهم في دينهم، فجَعَلَ الحاصلَ بمَنزِلةِ الباعِث، وممّا يُؤكِّدُ ذلك أنّه عبَّرَ بالإضمار عنِ المَتاع في قوله: ﴿فِيهِۚ﴾ دليلًا على ذهاب أثره[3].

دلالة الواو في قوله ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾:

التّرغيب فيما عند الله تعالى

عطفَتِ الواو قوله تعالى: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾ على ما سبقها في الآية الكريمة، عَطفَ التّذييل على المَتن[4]، فما يبدو للنّاظِرِ من حُسنِ حالِهم فإنّه مَشوبٌ بفتنةٍ في النّفس، وشقاءٍ في العيش، وعقابٍ في الآخرة، لذلك ذُيِّلَتِ الآيةُ السّابقةُ بتيسير الرّزق وضمان ربِّ العالَمين له[5]؛ مُرَغِّبًا فيما عندَه سبحانه من طيّبات[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4813.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 341.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 169.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 341.
(6) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 169.

وفيه تسليةٌ لرسول اللّه ﷺ ولفقراء الصّحابة رضوان اللّه عليهم، بل لجميع فقراء المُسلِمين إلى يوم الدّين[1].

بلاغة الالتفات:

نقل الاهتمام من حال المُشاهَدَة إلى حال الغيب، وما فيه من طيب الرّزق

ذيَّلَ اللّهُ ﷻ خطابَه بذكر ما عندَه سبحانه مِن رزقٍ، مُستعمِلًا الالتفاتَ مِن ضمير التّكلُّم في قوله: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ إلى ضمير الغائب في قوله: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٌ﴾؛ لينقُلَ الاهتمامَ مِنَ الحال المُشاهَدَة - مُنفِّرًا منها - إلى حال الغيب، وما ادّخَرَهُ اللّهُ من طيّب الرّزق لرسوله وللمؤمنين؛ ترغيبًا لهم وجبرًا لخاطرهم.

سرُّ التّعبير بالرّزق دون غيره:

شمولية الرّزق لكلِّ النِّعم الظّاهِرة والباطِنة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالرّزق؛ لأنّه يُطلَقُ على كلِّ ما يُنتفَعُ به، فيشمَلُ رزقَ الدّنيا والآخرة، ولأنّه يُطلَقُ على جميع النِّعم الظّاهرة والباطِنة؛ كالهدى والعلم والنّبوّة على أنّ المُرادَ بالخطاب الرّسولُ ﷺ[2].

دلالة إضافة الرّزق إلى الرّبوبيّة:

تكفَّلَ اللهُ برزق عباده

أضافَتِ الآيةُ الرّزقَ إلى لفظ الرّبوبيّة في قوله: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ﴾، ونكتة هذه الإضافة هي ملاحظةُ رعاية اللّه ﷻ لخَلقِه بضمان الرّزق، وولايةُ اللّه تعالى لعباده برزقهم مِن حيثُ لا يَحتسِبون[3].

وفيه دلالةٌ على التّشريف ومَزيدِ تكريم، وإلّا فالرّزقُ كلُّه مِنَ اللّه تعالى، ولكنَّ رزقَ الكافر لمّا خالَطَه، وحفَّ به حالُ أصحابه مِن غَضَبِ اللّه عليهم، ولِما فيه مِنَ التَّبِعَة على أصحابه في الدّنيا والآخرة؛ لِكفرانِهِمُ النِّعمةَ جُعِلَ كالمَنكور انتسابُهُ إلى اللّه، وجُعِلَ رزقُ اللّه هو السّالِمُ من مُلابسة الكُفران، ومن تَبعاتِ ذلك[4].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 459.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 460.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 370.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 341.

واستحضار هذه المعاني يدعو إلى رجاء ما عند اللّه سبحانه، فالإضافة لتعظيم المضاف[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنّ ما ادّخرَهُ اللّهُ لرسوله ﷺ في الآخرة خيرٌ وأبقى

تشريفُهُ ﷺ بتخصيص رزقه مِن ربِّه

دلالة كاف الخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾:

دلَّت كافُ الخطاب المُضافَة إلى لفظ الرّبوبيّة في قوله: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ﴾ على تشريفه ﷺ[2]، فرزقُهُ عند ربّه رزقٌ خاصٌّ ليس كرزق هؤلاء الكفّار، وهو خيرٌ وأبقى[3].

وممّا يُذكَرُ في سرِّ كاف الخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ ردُّ عَجُزِ الآية إلى صدرها في خطاب اللّه لخليله ﷺ؛ أي: اصبِرْ وسبِّحْ بحمد ربِّك، فرزقُهُ خيرٌ وأبقى.

كمال الخيريّة وتمام الأفضليّة في رزق ربِّك

دلالة لفظ ﴿خَيۡرٌ﴾ من حيث المادّة والصّيغة:

وَصَفَ اللّهُ الرّزقَ بأنّه خيرٌ في قوله: ﴿خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ﴾؛ وذلك لِما يَحمِلُهُ هذا اللّفظُ من دلالات عديدة في مادّته وفي صيغته.

فمِن حيثُ مادّته: هو مُقابِلٌ للشّرِّ، وهو رزقٌ يخلو من أيِّ شرٍّ، فلا يَشوبُهُ ما يُكدِرُه[4]، وهو خيرٌ؛ بمعنى المُختار؛ لذلك فهو مُلائِمٌ مُناسِبٌ.

ومِن حيثُ صيغة ﴿خَيۡرٌ﴾ فقد جاء في صيغة تفضيلٍ، والمُفاضَلةُ تكون بالمُقارَنة؛ مقارنة بين رزق الكافر ورزق المؤمن، وبين رزق الدّنيا ورزق الآخرة، إلى درجة الأفضليّة المُطلَقة[5].

الخير الكثير من كلِّ جوانبه

نكتة تنكير ﴿خَيۡرٌ﴾:

جاءَت كلمةُ ﴿خَيۡرٌ﴾ مُنكَّرَةً، ونكتةُ تنكيرها هو التّكثيرُ، فهو

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 459.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 370.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 341.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 277.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 341.

خيرٌ كثيرٌ مِن كلِّ الجوانب؛ كمًّا وكيفًا، ويَظهَرُ ذلك في صَفائه ووَفائه ودوامه وآثاره، وهذا ما لا يُمكِنُ أن يُعبِّرَ عنه التّعريفُ الّذي يُخَصِّصُهُ بأيِّ وجهٍ مِن وجوه التّخصيص.

دلالة عطف ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

اكتمال الخيريّة في رزق ربّك

عُطِف وصفُ ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾ ﴿خَيۡرٞ﴾ بوصفٍ آخرَ، وهو ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾، وذلك بحرف الواو، وفائدةُ هذا العطف هو مَزيدُ تشريفِ هذا الرّزق، فهو خيرٌ من متاع الكفّار، وهو أبقى من زهرة الحياة الدّنيا، فقد يكون الشّيءُ خيرًا، لكنّه يَنفُدُ، وقد يكون باقيًا لكنّه ليس بخير وأنسب، فلمّا جَمَعَ بين الوصفين اكتملَتِ الخيريّةُ[1].

نكتة حذف المفضولات في ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾:

لا حدودَ لأفضليّة رزق الله في الخيريّة والبقاء

جاء وصفا ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾ بالخيريّة والبقاء في صيغة تفضيل، حُذِفَت مَفضولاتُها، ونكتة حَذفِ المَفضولات هنا هي أن يتيهَ العقلُ في تعدّاد جوانب التّفضيل، وكلّما عَدَّدَ تلك المَفضولات ازدادَ الرّزقُ فضيلةً، وهي دعوةٌ للتّدبُّر والبحث في جوانب الأفضليّة[2].

وهذا ما لا يتأتّى لو ذُكِرَت مفضولات ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ لأنّها ستكون حينَها مُحدّدَةً محصورَةً، وتبقى جوانب في الأفضليّة غيبيّةً لا يُدرِكُها الإنسانُ بعقله[3]، فلا يُقدِّرُ حينَها للأفضليّة حدًّا إلّا ربُّ الرّزق المَنّانُ.

المتشابه اللّفظيّ:

تذكير أولي النّهى بتفضيل الآخرة على الدّنيا

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: 73]، و﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾، و﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: 17] تشابهت هذه الآيات الكريمات في المُفاضَلة بين شيئَين في الخيريّة والبقاء، واختلفَت فيما

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 342.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 370.

بينها في تعيين الفاضل والمفضول، فأمّا مَوضِعُ طه الأوّل فكان مُفاضَلةَ السّحرة بين وعيد فرعون وبين رضا اللّه ﷻ عندما قالوا له: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: 72 - 73]، فأكّدوا لفرعونَ أنّ اللّه خيرٌ لهم بأن يُؤثِروه منه، ورضى اللّه أبقى في الخير والشّرّ مِن جزاء فرعون الفاني(1).

وأمّا المَوضِعُ الثّاني في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ فقد خُوطِبَ فيه النّبيُّ ﷺ ابتداءً وأمّته من بعده بالنّهي عنِ الإعجاب بما مُتِّعَ به الكفّارُ في هذه الدّنيا مُفاضِلًا بين الرّزق المُنعِم به على الكفّار والرّزق المُعَدِّ للمؤمنين، ومُفضِّلًا الرّزقَ المُيسَّرَ مِنَ اللّه للمؤمنين بأنّه خيرٌ من رزق الكفّار، وأبقى في الدّنيا، ومنفعته باقية في الآخرة لِما يقارِنُه في الدّنيا مِنَ الشّكر، وإضافةُ رزقِ ربِّكَ إضافةُ تشريفٍ، وإلّا فإنّ الرّزقَ كلَّه مِنَ اللّه، ولكنَّ رزقَ الكافرين لمّا خالطَه وحفَّ به حالُ أصحابِه من غضب اللّه عليهم، ولِما فيه مِنَ التّبِعَةِ على أصحابه في الدّنيا والآخرة؛ لِكُفرانِهِمُ النِّعمةَ، جُعِلَ كالمَنكور انتسابُهُ إلى اللّه، وجُعِلَ رزقُ اللّه هو السّالمُ مِن مُلابسة الكُفران ومِن تَبِعات ذلك، فالتّفضيل باعتبار توفُّر السّلامة مِنَ العواقب(2).

وأمّا مَوضِعا القّصص والشّورى فالمُفاضلة فيهما بين النِّعم الدّنيويّة قصيرةِ الزّمان الصّائرةِ إلى الزّوال وبين نعيم الآخرة الّذي ادّخَرَه اللّهُ عنده لعباده المؤمنين الصّالحين، وهو الموصوف وحدَهُ بالخيريّة والبقاء، ونظيرُ هذا المعنى في المُفاضَلة المَوضِعُ الأخير، وهو مَوضِعُ سورة الأعلى في قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: 16 - 17]، فالمُفاضَلةُ واضحةٌ في الآية بين الدّنيا الفانية والآخرة الباقية.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 237.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 341.

المحتويات